شرح غريب القرآن

لابن قتيبة

بشرح الشيخ الدكتور

يوسف بن عبد العزيز الشبل

شرح غريب القرآن

لابن قتيبة

بشرح الشيخ الدكتور

يوسف بن عبد العزيز الشبل

مقدمة المحاضر

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم، يوم الجمعة، العشرين من جمادى الأولى من عام ألف وأربعمئة وثلاثة وأربعين للهجرة. الكتاب الذي بين أيدينا هو كتاب "تفسير غريب القرآن" للإمام ابن قتيبة -رحمه الله تعالى-.

أولاً، لا بد من بيان معنى "غريب القرآن"؛ فالمقصود به هو جمع ودراسة الألفاظ التي يُعَدُّ فهمها غريبًا في القرآن الكريم، ومعنى كونها "غريبة" أنها تخفى على كثير من الناس وليست ظاهرة المعنى. فالألفاظ الجليّة، مثل: السماء، والأرض، والليل، والنهار، لا تُعدّ من غريب القرآن لوضوحها.

لكن، إذا وردت كلمة تحتاج إلى تفسير لغرابتها، مثل قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]، فيُسأل: ما معنى "ضبحًا"؟ ومثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، فيُسأل: ما معنى "لكنود"؟ فهذه الألفاظ وأمثالها لا يعرف معناها كثير من الناس.

وقد صنّف في هذا الفن الإمام ابن قتيبة -رحمه الله-، وسبقه إلى ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى، كما كتب فيه أبو بكر بن الأنباري، وجاء بعدهم من كتب، ومنهم محمد بن عَزِيز السِّجِسْتاني، صاحب كتاب "نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن العزيز"، وهو كتاب جيد. وقد توفي السجستاني سنة ثلاثمئة وثلاثين (٣٣٠هـ)، أي بعد ابن قتيبة الذي توفي سنة مئتين وست وسبعين (٢٧٦هـ). وقد اختلفوا في ضبط اسم والد السجستاني، هل هو (عَزِيز) أم (عُزَيْر)؟ والأمر في ذلك يسير.

ثم جاء بعدهم ابن الجوزي فكتب في غريب القرآن، وتتابع العلماء في التصنيف، ومنهم أبو حيان الأندلسي، صاحب التفسير الشهير "البحر المحيط"، فله كتاب اسمه "تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب"، وهو كتاب جميل ومفيد جداً.

وقد اختلفت مناهج هؤلاء المؤلفين في ترتيب كتبهم على طريقتين:

1. **الترتيب الهجائي:** وهو ترتيب الكلمات الغريبة وفقًا لحروف المعجم (أ، ب، ت...)، فيبدأ المصنّف بحرف الألف ويجمع الكلمات التي تبدأ به، مثل كلمة "أبًّا"، فيضعها في باب الألف.

2. **الترتيب حسب السور:** وهو السير وفق ترتيب سور المصحف، فيبدأ بسورة الفاتحة، ثم البقرة، ثم آل عمران، ويقف عند ما فيها من ألفاظ غريبة.

لكلتا الطريقتين وجهتها؛ فمنهم من رجّح الترتيب على السور؛ لأنه يتيح للقارئ أن يتابع السورة ويفهم غريبها بالترتيب. ومنهم من رجّح الترتيب الهجائي؛ لأنه أيسر للحفظ والمدارسة، حيث كان الطلاب يحفظون هذه المتون، فيسهل عليهم استظهارها حرفًا بعد حرف. وهذا مجمل الكلام حول المقصود بغريب القرآن، وأشهر المؤلفات فيه، ومناهج العلماء في التصنيف، وهي خلاصة يحتاجها طالب العلم في هذا المجال.

والآن، وحتى لا نطيل، نبدأ في الكتاب، كتاب "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة -رحمه الله تعالى-، وهو إمام في اللغة، فإذا تكلم عن لفظ وضّحه وبيّنه بأحسن بيان. تفضل بالقراءة.

مقدمة المؤلف ابن قتيبة – رحمه الله

نفتتح كتابنا هذا بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، فنُخبر بتأويلها واشتقاقها، ونُتبع ذلك ألفاظًا كَثُرَ ترادادها في الكتاب، لم نَرَ بعض السور أولى بها من بعض، ثم نبدأ في تفسير غريب القرآن دون تأويل مُشكله، إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتابًا جامعًا كافيًا بحمد الله.

الشَّرحُ

على ماذا يدل هذا الكلام؟ يدل على أن كتاب "غريب القرآن" هذا قد أُلِّفَ بعد كتاب "تأويل مشكل القرآن"؛ لقوله: «قد أفردنا للمشكل كتابًا». وهنا يقدم لنا المؤلف تصورًا عامًّا عن محتوى الكتاب، حيث ذكر أنه سيبدأ بأسماء الله الحسنى وصفاته، مبينًا تأويلها واشتقاقها، ثم يتبعها بالألفاظ التي تكررت في القرآن الكريم، وبعد ذلك يشرع في تفسير الغريب سورةً سورة.

إذًا فهو قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: بين معاني أسماء الله الحسنى والصفات

ثانيًا: ذكر الألفاظ التي كثر ترددها في القرآن

ثالثًا: دخل على الغريب ومشى عليه

وهذا ما سنقرؤه الآن.

وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونُكمِّل، وأن نوضح ونُجمِل، وألا نستشهد على اللفظ المبتذل، ولا نُكثر الدلالة على الحرف المستعمل، وألا نحشو كتابنا بالنحو وبالحديث والأسانيد؛ فإنا لو فعلنا ذلك في نقل الحديث لاحتجنا إلى أن نأتي بتفسير السلف رحمهم الله بعينه، ولو أتينا بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفها نَقَلَة الحديث.

ولو تكلفنا بعد استقصاء اختلافهم، وتبيين معانيهم، وفتق جُمَلهم بألفاظها، وموضع الاختيار من ذلك الاختلاف، وإقامة الدلائل عليه، والإخبار عن العلة فيه، لأسْهبنا في القول وأطلنا الكتاب، وقطعنا منه طمعَ المتحفِّظ، وبعَّدناه من بُغية المتأدب، وتكلفنا من نقل الحديث ما قد وُقيناه وكُفيناه.

الشرح

هذا هو منهج المؤلف في كتابه. فما طريقة ابن قتيبة؟ يقول إن غرضه هو الاختصار والإيضاح، وألا يقف عند الألفاظ المبتذلة - أي الشائعة المستعملة بكثرة – مثل: هات، أعطِ، أجلس... فلا حاجة للوقوف عليها لتفسيرها (ولا نُكثر الدلالة على الحرف المستعمل) فالحروف المستعملة كثيرًا لا نفسرها، فهي واضحة.

(وألا نحشو كتابنا بالنحو) أي: لا نتوسع في المسائل النحوية التي ذكرها النحاة، وكذلك المسائل المتعلقة بالأحاديث وأسانيدها، لأن مجالها كتب أخرى. ويقول إنه لو فعل ذلك لخرج الكتاب عن غرضه وأصبح كغيره من الكتب المطولة، ولأتعب القارئ.

ثم أشار إلى نقطة مهمة، وهي أنه ألّف هذا الكتاب بحجم مختصر حتى يسهل على طلاب العلم حفظه، إذ لو أطال فيه لقطع طمع من يرغب في استظهاره. فهذا هو منهجه القائم على الاختصار وعدم الإسهاب. تفضل بالقراءة.

وكتابنا هذا مستنبط من كتب المفسرين وكتب أصحاب اللغة العالمين، لم نخرج فيه عن مذهبهم، ولا تكلفنا في شيء منه بآرائنا غيرَ معانيهم، بعد اختيارنا في الحرف أولى الأقاويل في اللغة وأشبهها بقصة الآية.

ونبذنا مُنكر التأويل ومنحول التفسير؛ فقد نَحَلَ قومٌ ابنَ عباسٍ أنه قال في قول الله عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] أنها غُوِّرَتْ، من قول الناس بالفارسية (گور بكرد).

وقال آخرون في قوله: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨]، أراد: سَلْني سبيلا إليها يا محمدُ.

وقال آخر في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، إن الويل وادٍ في جهنم.

وقال آخر في قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]؟ إن الإبلَ السحابُ.

وقال الآخر في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]، إن النعيمَ الماءُ الحارُّ في الشتاء. وقال الآخر في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، إن الزينةَ المُشْطُ. وقال الآخر في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، إنها الآرَابُ التي يسجد عليها المرءُ، وهي جبهتهُ ويداه، وركبتاه وقدماه.

وقال الآخر في قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أن تجعل كل واحدة منهما ذَكَرًا. يريد: أنهما يَقومان مَقام رجل، فإحداهما تُذكِّر الأخرى.

مع أشباهٍ لهذا كثيرة؛ لا ندري: أَمِن جهة المفسرين لها وَقَع الغلطُ؟ أو من جهة النَقَلة؟

وبالله نستعين، وإيّاه نسأل التوفيق للصواب.

الشرح

يقول المؤلف هنا إنه اعتمد على كتب المفسرين الموثوقين وعلماء اللغة المعتبرين، وإنه لم يخرج عن أقوالهم، بل يختار أرجحها وأنسبها لسياق الآية. ثم يوضح أنه طرح جانبًا التفاسير المنكرة أو المنحولة، أي المنسوبة كذبًا أو المأخوذة من لغات أخرى، وضرب لذلك أمثلة:

- تفسير ﴿كُوِّرَتْ﴾ بمعنى "غُوِّرَتْ" اعتمادًا على كلمة فارسية، وهذا تفسير بعيد ينكره.
- تفسير ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ بأنها مركبة من "سَلْ سَبيلًا"، والصواب أنها كلمة واحدة.

- تفسير ﴿وَيْلٌ﴾ في قوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ بأنه اسم لوادٍ في جهنم. يرى ابن قتيبة أن "ويل" هنا كلمة تهديد وعذاب، ولا يلزم أن تكون اسمًا لمكان معين، مع أن القول بأنه وادٍ مرويٌّ عن بعض السلف، لكن ابن قتيبة يستبعده أو يرى أنه ليس التفسير الوحيد.
- تفسير ﴿الْإِبِلِ﴾ في قوله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ بأنها السحاب. يقول إن هذا تفسير مستغرب، فالمعروف أن الإبل هي الإبل التي تمشي على الأرض، والله تعالى يحث على النظر في مخلوقاته المشاهدة: الإبل، والسماء، والجبال، والأرض.
- تفسير ﴿النَّعِيمِ﴾ بالماء الحار في الشتاء، وهذا تخصيص للمعنى الواسع للنعيم ببعض أفراده.
- تفسير ﴿زِينَتَكُمْ﴾ بالمشط، وهذا أيضًا تقييد للمعنى العام للزينة، وهي لبس الثياب الحسنة والتجمل.
- تفسير ﴿الْمَسَاجِدَ﴾ في قوله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] بأنها أعضاء السجود. وهذا قول يستبعده ابن قتيبة.
- تفسير ﴿فَتُذَكِّرَ﴾ -بسكون الذال- بأنها من الذُّكورة، أي تجعل إحداهما الأخرى كالذَّكَر.

يقول ابن قتيبة عن هذه الأقوال وأشباهها إنه لا يدري مصدر الخطأ فيها، هل هو من المفسرين أنفسهم أم من الذين نقلوا عنهم؟ وبهذا يوضح لنا منهجه بأنه يفسر غريب القرآن بالألفاظ الواضحة المنقولة عن السلف، ويتجنب الأقوال الشاذة والبعيدة.

بعد هذه المقدمة القوية، سينتقل المؤلف إلى القسم الأول من كتابه، وهو ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، حيث سيبدأ في تفسير معانيها واشتقاقاتها، مثل: ما معنى اسم الله "المؤمن"؟ وما معنى "السلام"؟ وسنقرأ ذلك بتأنٍ وتدقيق في اللقاء القادم بإذن الله، ونعلق على ما يحتاج إلى تعليق. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

باب اشتقاق أسماء الله وصفاته وإظهار معانيها

الرحمن الرحيم : صفتان مبنيّتان من الرحمة. قال أبو عبيدة: وتقديرهما: ندمان ونديم.

الشرح

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله. المؤلف ابن قتيبة رحمه الله كتاب غريب القرآن ألفه وجعله على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في بيان أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن، أخذ أشهر الأسماء التي تحتاج إلى بيان وفسرها ووضحها على مذهب أهل السنة والجماعة، وتميز بسلامة العقيدة ومنهج السلف في ذلك، هذا القسم الأول في أسماء الله الحسنى.

القسم الثاني: قال في ألفاظ يكثر ترددها في القرآن الكريم وهي تحتاج إلى بيان، ثم تكلم عنها، ألفاظ غريبة تدور كثيراً في المصحف بينها.

القسم الثالث: من الكتاب بدأه بالغريب بداية من أول القرآن إلى نهايته، من أول الفاتحة إلى خاتمة القرآن الكريم. هذه التقسيمات الثلاثة.

الآن يبدأ بالأسماء والصفات، فيقول: (**الرحمن الرحيم صفتان مبنيتان من الرحمة**) يعني مأخوذة من الرحمة. الرحمن والرحيم مأخوذة من الرحمة.

(قال أبو عبيدة) من هو أبو عبيدة؟ هو معمر ابن المثنى، المتوفى سنة مئتين وعشرة، له كتاب اسمه مجاز القرآن، من أفضل ما كتب في معاني القرآن الكريم، سماه مجاز القرآن لا يقصد به المجاز الذي هو ضد الحقيقة، لا يقصد ما يجوز في لغة العرب، وهو في الحقيقة كتاب مجاز القرآن، هو في معاني القرآن على نفس طريقة معاني القرآن للزجاج ومعاني القرآن للأخفش ومعاني القرآن للفراء.

يقول (قال أبو عبيدة وتقديرهما ندمان ونديم) ما معنى تقديرهما؟ يعني أنهما على وزن ندمان، رحمن على وزن ندمان، ورحيم على وزن نديم. يعني يقول لك هي أسماء، الرحمن والرحيم أسماء، صفتان أو اسمان مبنيان مأخوذان من الرحمة.

أيهما أبلغ؟ نقول: الرحمن، هذا الرحمن أعم، أنه رحمن الدنيا والآخرة، ورحمته يرحم بها الخلق كلهم، الخلق كلهم يرحم بهم حتى الكفار يرحمهم فيرزقهم، ويرحم حتى الحيوان.

الرحيم قالوا إنها خاصة بالمؤمنين: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ [الأحزاب: 43]، خاصة بالمؤمنين.

والرحمن معناه الامتلاء أصلاً، هذا الوزن يفيد الامتلاء. عندما تقول فلان غضبان: امتلأ غضباً. إذا جاءت على هذا الوزن، فلان غاضب يعني أقل، عندما تقول فلان غضبان، يعني هذا قد امتلأ غضباً، وقول الرحمن الذي امتلأت رحمته كل شيء. والرحيم: على وزن فعيل، صيغة مبالغة شدة الرحمة.

ومن صفاته السلام قال: ﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23] ومنه سمي الرجل: عبد السلام؛ كما يقال: عبد الله. و يرى أهل النظر – من أصحاب اللغة –: أن "السلام" بمعنى السلامة؛ كما يقال: الرَّضاع والرضاعة، واللذاذ واللذاذة. قال شاعر:

تحيي بالسلامة أم بكر *** فهل لك بعد قومك من سلام؟

فسمى نفسه – جل ثناؤه – "سلاماً": لسلامته مما يلحقُ الخلقَ: من العيب والنقص، والفناء والموت.

قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ ﴾[يونس: 25]؛ فالسلام: الله؛ ودارُه: الجنة. يجوز أن يكون سماها "سلاما": لأن الصائر إليها يَسلَمُ فيها من كل ما يكون في الدنيا: من مرض ووَصَبٍ، وموت وهَرَم؛ وأشباهِ ذلك. فهي دارُ السلام.

ومثله ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: 127]. ومنه يقال: السلامُ عليكم. يراد: اسمُ السلام عليكم. كما يقال: اسمُ الله عليكم. وقد بيَّن ذلك لَبِيدٌ، فقال:

إلَى الحَوْلِ, ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُمَا *** وَمَنْ يَبْكِ حَوْلا كَامِلا فَقَدِ اعْتَذَرْ

ويجوز أن يكون [معنى] "السلامُ عليكم": السلامةَ لكم. وإلى هذا المعنى، يَذهب مَن قال: "سلامُ الله عليكم، وأَقرِئْ فلانًا سلامَ الله".

وقال: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: 91]. ؛ يريد: فسلامةٌ لك منهم؛ أي: يُخبِرُك عنهم بسلامة. وهو معنى قول المفسرين.

ويُسمَّى الصوابُ من القول "سلاما": لأنه سَلِم من العيب والإثم. قال: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان: 63] ؛ أي: سَدادًا من القول.

الشَّرحُ

فالسلام: الله، وداره الجنة.

يجوز أن يكون سماها سلاماً لأن الصائر إليها يسلم فيها من كل ما يكون في الدنيا من نصب وموت وهرم وأشباه ذلك الله يبارك، هي دار السلام.

اسم السلام مأخوذ من السلامة، السلامة من العيب، من النقص، من صفة ذميمة، من الموت، وغير ذلك مما لا يليق أن يوصف الله به، هذا معناه. سمى الله نفسه السلام لأنه سالم مما يوصف به الإنسان، أو مما يعتريه الإنسان من النقص، وما نحو ذلك.

يقول (السلام والسلامة، مثل الرضاع والرضاعة)، تقول: السلام والسلامة، أو مع السلامة، هذا قصده.

ذكر هنا الآيات التي فيها ذكر السلام، وصف الله:

في قوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ [يونس: 25].

وفي قوله تعالى أيضاً في سورة الحشر: ﴿ السلام المؤمن المهيمن﴾ [الحشر: 23]،

﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ [الأنعام: 127].

ثم ذكر الآيات التي يفهم منها السلام، وليست من صفات الله، ولكنها يفهم منها السلامة، مثل قوله تعالى: ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾[الواقعة: 91] أو ﴿إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ [الفرقان: 63]، أو نحو ذلك.

وفي آيات أخرى لم يذكرها المؤلف: ﴿قالوا سلاماً قال سلامٌ﴾ [هود: 69 أو الذاريات: 25] قصة إبراهيم، يعني قالوا سلاماً يعني سلموا تسليماً.

والإنسان عندما يسلم على أخيه المسلم معناه: أنه يخبره بأنه لا يؤذيه، يقول أنا السلام عليكم، بمعنى أني أؤمنك أن لا أؤذيك بشيء يضرك، هذا معنى السلام. إن الله سبحانه وتعالى هو السلام، ومنه السلام، وتقول أنت في الصلاة بعد الصلاة: اللّهم أنت السلام ومنك السلام.

ومن صفاته: القيوم والقيّام . وقرأ بهما جميعاً وهما فيعول وفيعال من قمت بشيء إذا وليته كأنه القيّم بكل شيء. ومثله في التقدير قولهم: ما فيها ديور وديار.

الشرح

أولاً: القيوم، كم مرة وردت في القرآن؟ وردت في ثلاثة مواضع: في آية الكرسي [البقرة: 255]، في أول سورة آل عمران [آل عمران: 2]، وفي سورة طه: ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ [طه: 111].

وتلاحظ أن هذا الاسم (القيوم) يقترن بأي شيء؟ بالحي، الحي دائماً.

في أسماء الله دائماً تجدها يقترن بعضها ببعض، مثل الحي يقترن مع القيوم، وأحياناً ينفرد:

﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ [الفرقان: 58]، ﴿هو الحي لا إله إلا هو﴾ [غافر: 65].

وأحياناً إذا اقترن، يقترن مع القيوم، مثل الواحد يقترن مع القهار: ﴿الواحد القهار﴾ [يوسف: 39]، ورد في خمسة مواضع، مثل اللطيف الخبير، ورد في سبعة مواضع، وهكذا، تجد أن بعض الأسماء مقترنة.

يقول هنا (القيوم)، قرأت في سورة في المواضع الثلاثة، في سورة البقرة في آية الكرسي، وفي آل عمران، وفي طه، قرأت الحي القيوم القيّام والقيوم، كلها صحيحة.

يقول: (فيعول وفيعال)، كلها صحيحة. ما معنى قيوم؟ هو القائم بنفسه، القائم على غيره.

الحي القيوم، ما معنى كلمة قيوم؟ القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى خلقه، القائم سبحانه وتعالى بنفسه لا يحتاج إلى خلقه، غني عن خلقه، قائم بأمره، قائم على عباده، يقوم على شؤون عباده سبحانه وتعالى، يدبر الأمر ويقوم على شؤون عباده.

(القيوم من قمت بالشيء إذا وليته، كأنه القيّم بكل شيء. ومثله في التقدير قولهم ديور وديّار) وكما ذكرنا، القيوم: هو القائم بنفسه، القائم على غيره. قائم على غيره كقوله تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: 33]، قائم على كل نفس بما كسبت.

دائماً أسماء الله يقترن بعضها لأسرار، لا يمكن أن تكون هذه الصفة (القيوم) الذي يقوم بنفسه ولا يحتاج إلى خلقه، وهو قائم على خلقه بما يحتاجون ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ [الرعد: 33]، لابد أن يكون (حياً)، لو كان يموت أو يعتريه الموت أو يعتريه النقص أو يعتريه النوم...

ولذلك قال في سورة في آية [الكرسي] ماذا قال؟ قال ﴿الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [سورة البقرة: 255].

السِنة: النعاس. لا يصيبه لا النعاس ولا النوم. إذا لم يصبه النعاس فمن باب أولى ألا يصيبه النوم. فالحياة التامة، الحياة الكاملة، الذي يقوم على نفسه ويقوم بشؤون خلقه لابد أن يكون حياً لا يموت. من الذي يمسك السماوات والأرض إلا الحي؟ لو أصابه النوم أو أصابه النعاس أو الكسل أو التعب... لما ناسبه ذلك، هذا مقصوده.

ومن صفاته: "سُبُّوحٌ" وهو حرف مبني على "فُعُّول"؛ من "سبَّح اللهَ": إذا نزهه وبرَّأه من كل عيب.

ومنه قيل: سبحان اللهِ؛ أي: تنزيهًا لله، وتبرئةً له من ذلك. ومنه قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: 1].

وقال الأعْشَى:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنَا فَخْرُهُ ❊❊❊ سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ

أراد: التبرُّؤَ من علقمةَ. وقد يكون تَعجبَ [بالتسبيح من فخره؛ كما يقول القائل إذا تعجب] من شيء: سبحان الله. فكأنه قال: عجبًا من علقمةَ الفاخرِ

الشرح

هذا السبوح القدوس من أسماء الله الحسنى: سبوح قدوس.

السبوح: والمنزه عن كل ما لا يليق، المنزه عن كل ما [لا] يلحقه [عيب].

يقول المبرأ، المنزه من صفات العيب. تقول سبحان الله، لما ترى شيئاً لا يليق تقول: سبحان الله، هذا ما يمكن يحصل. سبحان الله يعني تنزه هذا الشيء من هذا الشيء.

ولذلك في قصة الإفك: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ [النور: 16]، سبحانك تنزيه، لا يمكن أن يحصل من عائشة زوج النبي ﷺ. سبحانك هذا بهتان، هذا القول بهتان عظيم. وهكذا تجد في القرآن كلمة سبحان كثيرة، وهي تعني التنزيه والتبرئة.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [يونس: 18]، في القرآن لو حصرناها وجدناها كثير، يمكن تصل إلى مئة موضع. سبحان الله، سبحانه وتعالى عما يشركون، ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ [المؤمنون: 91]، وكثير.

وأحياناً تأتي بمعنى التعجب، لما ترى شيئاً يعجبك تقول: سبحان الله، شيء يعجبك في السماوات أو في الأرض، سبحان الذي خلق هذا، سبحان الذي صور هذا بهذا الشكل، فتتعجب منه، هذا معناه.

الشاهد من الكلام أن التسبيح، حتى في الصلاة تقول سبحانه سبحان الله، سبحان ربي العظيم، سبوح قدوس رب الملائكة والروح وهكذا، هذا معناه التنزيه.

ومن صفاته: "قُدُّوسٌ". وهو حرف مبني على "فُعُّول"؛ من "القُدْس" وهو: الطهارة.

ومنه قيل: "الأرْض الْمُقَدَّسَة"؛ يراد: المطهَّرة بالتبريك. ومنه قوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: 30]؛ أي: نَنْسُبك إلى الطهارة. و "نُقدّسك ونُقدِّس لك" و "نُسَبِّح لك ونُسبِّحك" بمعنى واحد.

وحَظِيرة القُدس - فيما قاله أهل النظر - هي: الجنة. لأنها موضع الطهارة من الأدناس التي تكون في الدنيا: من الغائط والبول والحيض، وأشباهِ ذلك

الشرح

"قُدُّوسٌ" أصلها من القداسة، قداسة تطهير. والوادي المقدس، ﴿الوادي المقدس طوى﴾ [طه: 12]، أي: المطهر.

(الأرض مقدسة) ﴿ادخلوا الأرض المقدسة﴾ [المائدة: 21]، المقدسة: المطهرة. (من القدس)، القدس: بلد القدس، والمسجد الأقصى في القدس، المكان الطاهر.

(القدوس) ورد في سورة الحشر: ﴿الملك القدوس السلام﴾ [الحشر: 23].

وجاء هنا في قوله تعالى: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ [البقرة: 30]، نقدس لك أي: ننسبك إلى الطهارة. و يجوز أن تقول نقدسك أي: نطهرك، ويجوز أن تقول نقدس لك أي: ننسبك إلى الطهارة. هل يجوز أن تعديه باللام؟ يجوز. ويجوز أن تعديه بغير حرف، كلها صحيحة، لكن تعديته باللام أقوى، مثل ما تقول: أنصحك ألا تجلس في هذا المكان، أنصحك. وإذا قلت أنصح لك، هذه أشد.

مثل في قصص الأنبياء ﴿وأنصح لكم﴾ [الأعراف: 79]، ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف: 68]، ﴿وأنصح لكم﴾ يعني: شدة النصح، هذا مقصوده هنا.

قال (نقدسك ونقدس لك) هناك آيات وردت في سورة الحشر، وهنا في البقرة، وذكرت من غير وصف الله، مثل "الأرض المقدسة" و "وادي المقدس" هذه عامة، أما وصف الله ورد القدوس، ولو تتبعنا نجد.

ومن صفاته: "الرَّبُّ".

والرب: المالك. يقال: هذا ربُّ الدار، وربُّ الضَّيْعة، وربُّ الغلام. أي: مالكُه؛ قال الله سبحانه: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [سورة يوسف: 50] ؛ أي: إلى سيِّدك.

ولا يقال لمخلوق: هذا الرب؛ معرَّفا بالألف واللام؛ كما يقال لله. إنما يقال: هذا ربٌّ كذا. فيعرَّفُ بالإضافة. لأن الله مالكُ كل شيء. فإذا قيل: الربُّ؛ دلَّت الألف واللام على معنى العموم. وإذا قيل لمخلوق: ربُّ كذا وربُّ كذا؛ نُسِب إلى شيء خاص: لأنه لا يَملِك [شيئًا] غيره.

ألا ترى أنه قيل: "اللهُ"؛ فألزم الألفَ واللام: ليُدَلَّ بها على أنه إلهُ كل شيء. وكان الأصل: "الإلاه". فتُركت الهمزة: لكثرة ما يجري ذكره - عز وجل - على الألسنة؛ وأدغمتْ لام المعرفة في اللام التي لقيَتْها؛ وفُخِّمتْ وأُشْبِعتْ حتى طبَّق اللسانُ بها الحَنَك: لفخامة ذكره تبارك وتعالى؛ وليُفرَقَ أيضا - عند الابتداء بذكره - بينه وبين اللات [والعُزَّى] .

الشرح

هذا الرب إذاً يقول لك إذا جاء مضافاً يجوز أن يطلق على الله وعلى غيره. تقول: رب الخلق، رب السماوات، رب الأرض، رب العرش، هذا الله. إذا قلت رب الناقة، رب البيت، هل يجوز للإنسان أن تقول أنت رب الناقة؟ أنت رب كذا؟ يجوز. وربة البيت المرأة، تقول: ربة بيت، والرجل رب البيت. هذا جائز إذا أضيف. لكن إذا جاء معرفاً لا يطلق إلا على الله، ولا يجوز أن يقال هذا الرب للمخلوق، لا بد أن يكون إذا جاء معرف باللام لا يطلق إلا على الله.

يقول ما معنى الرب؟ قال هو المالك الذي يربي عباده، يربيهم بأي شيء؟ بأن خلقهم، لأنه هو الذي خلقهم وجعل فيهم الآلات التي يستطيعون أن يعيشوا بها، مثل آلة السمع والبصر والتفكير والعقل والقلب ونحو ذلك، هذه الآلات التي أوجدها.

وأيضاً الرب هو الذي رزقهم، خلقهم ورزقهم، هذا معنى الرب، الذي يربيهم.

الشيخ السعدي رحمه الله كما جاء في سورة الفاتحة عند قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ [الفاتحة: 2]، قال: وتربية الله لعباده نوعان: تربية خاصة وتربية عامة.

- **التربية العامة:** فيدخل فيها كل الخلق، حتى الحيوانات والكفار، يربيهم بمعنى أنه خلقهم، أوجد فيهم الآلات ورزقهم.
- **التربية الخاصة:** هذه تربية عباده وأوليائه المؤمنين، يربيهم على الطاعة والاستقامة، هذا معناه، يربيهم على كيفية عبادته، هذه تربية خاصة.

يقول هنا: الرب هو السيد ﴿ارجع إلى ربك﴾ [يوسف: 50] يعني: سيدك، هذا معناه؛ لأن بعض الناس تشكل عنده لما يقرأ سورة يوسف، يقول كيف يقول ﴿ارجع إلى ربك﴾، ويقول أيضاً ﴿وأما أحدكما فيسقي ربه خمرا﴾ [يوسف: 41] كيف يسقي ربه؟ وخمرًا؟ عند بعض العوام لا يفهمها، يظن أن الرب هو الله، لا، يسقي ربه أو سيده. فكلمة الرب إذا أضيفت إلى مخلوق، إذ يجوز إطلاقها على المخلوق، هذا معناه.

ثم دخل على كلمة الله (ألا ترى أنه قيل: "اللهُ"؛ فألزم الألفَ واللام) يعني يقول: إن الرب هكذا جاءت ألف لام، تعني الاختصاص بأن الله الرب هو الله "كذلك الله"، "يقول الله"، "قال الله" أصلها مأخوذة من الإله، من ألهت الشيء: إذا أحببته بشدة، والمألوه: المعبود المحبوب. فأنت تأله الشيء أي: تحبه فتعبده وتخضع له، فالله سمى نفسه الله، سمى نفسه بهذا الاسم مأخوذ من الإله، والإله: المعبود، المعبود المحبوب.

تقول "ولهنا على فلان" أي: اشتقنا إليه أحببناه.

(وكان الأصل: "الإله". فتُركت الهمزة: لكثرة ما يجري ذكره - عز وجل - على الألسنة؛ وأدغمتْ لام المعرفة في اللام التي لقيَتْها) بدلاً أن تقول "الإله" تقول "الله"

(وفُخِّمتْ وأُشْبِعتْ حتى طبَّق اللسانُ بها الحَنَك: لفخامة ذكره تبارك وتعالى) من شدتها تشبع الفم منها تقول "الله". قالوا "اللّهم" أصلها يا الله، نداء يا الله، فحذفت أداة النداء وجيء بالميم، وقيل اللّهم ، نأخذ صفة المؤمن.

ومن صفاته " :الْمُؤْمِنُ."

وأصلُ الإيمان :التصديقُ .قال :﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: 17]

أي :وما أنت بمصدِّق ولو كنا صادقين. ويقال (في الكلام) : ما أُومِنُ بشيء مما تقول؛ أي :ما أُصدقُ بذلك.

فإيمانُ العبد بالله :تصديقهُ قولا وعملا وعَقْدًا. وقد سمى الله الصلاة – في كتابه – إيمانًا؛ فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143]. أي: صلاتَكُمْ إلى بيت المَقْدس.

فالعبدُ مؤمن، أي :مصدِّق مُحقِّق. والله مؤمن، أي :مصدِّق ما وعده ومحقِّقُه، أو قابلٌ إيمانَه.

وقد يكون "المؤمن "من "الأمَان"؛ أي :لا يأمَنُ إلا من أَمَّنَه "الله".

وقد ذكرت الإيمان ووجوهَه، في كتاب "تأويل المشكل "

وهذه الصفةُ – من صفات الله جل وعزّ – لا تتصَرَّف تصرُّف غيرِها؛ لا يقال :أَمِنَ اللهُ؛ كما يقال :تقدَّس اللهُ .ولا يقال :يُؤْمِنُ اللهُ؛ كما يقال :يتقدَّس اللهُ.

وكذلك يقال: "تعالى الله" وهو تفاعُلٌ من "العُلُو". و"تبارَكَ الله "هو تفاعُلُ من "البركة "و"الله مُتعالٍ "ولا يقال :مُتبارِكٌ. لم نسمعه.

وإنما نَنْتَهي في صفاته إلى حيث انتَهَى؛ فإن كان قد جاء من هذا شيءٌ – عن الرسول صلى الله عليه وعلى آله، أو عن الأئمة –: جاز أن يُطلَقَ، كما أُطلِق غيرُه.

الشرح

قال اسم (المؤمن) وأصل الإيمان: التصديق ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ [يوسف: 17]، أي: بمصدق. إيمان العبد: تصديقه، هذا معنى أصل كلمة الإيمان.

ويبين لك أصل كلمة الإيمان التصديق قولاً وفعلاً، لذلك سميت الصلاة إيماناً لأنها تدل على صدق صاحبها. يقول (والله المؤمن) سبحانه وتعالى؛ لأنه مصدق، موصوف بأنه مصدق سبحانه وتعالى.

(والله مؤمن أي مصدق ما وعده ومحققه) يعني: الله سبحانه وتعالى يصدق وهو أصدق القائلين سبحانه، وهو يصدق وعده، لما يعد يصدق بوعده ويحققه. يقول (أو قابل إيمانه) وقد يكون المؤمن من الأمان، أي لا يأمن إلا من أمنه.

(وهذه الصفةُ – من صفات الله جل وعزّ – لا تتصَرَّف تصرُّف غيرِها) لأن الأسماء توقيفية، لا يمكن أن ننسب إلى الله اسماً من غيرها، ولذلك أكد على هذه القضية، (وإنما نَنْتَهي في صفاته إلى حيث انتَهَى؛ فإن كان قد جاء من هذا شيءٌ – عن الرسول صلى الله عليه وعلى آله، أو عن الأئمة –: جاز أن يُطَلَقَ) أسماء الله توقيفية، لا نأتي بشيء من عندنا ولا نتصرف بشيء من عندنا.

ولذلك تعالى الله: من العلو، وتبارك: من البركة، تعالى لا تطلق على المخلوق فتقول: فلان تعالى فلان، تقول: هو ذو علو وذو مكانة، لكن لا تقول "تعالى" على هذا الوزن. أيضًا "تبارك" لا تقول: فلان تبارك علينا، هذا لا يجوز، تقول فيه بركة علينا أو سبب للبركة ممكن، أما تقول تبارك! هذه من خواص الله، لا يجوز إطلاقها.

﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ [الملك: 1]، ﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾ [الفرقان: 1] هذه خاصة بالله، " الوزن تفاعل " خاص بالله لا يجوز إطلاقه على المخلوق.

ولذلك هو أكد على قضية مهمة جداً وهي: أن أسماء الله توقيفية، لا نتصرف بها. نلاحظ أنه يمشي على مذهب أهل السنة والجماعة بحيث أنه يلتزم.

ومن صفاته: "المُهَيْمِنُ".

وهو: الشهيدُ. قال الله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48] أي: شاهدًا عليه. هكذا قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه.

وروى عنه – من غير هذه الجهة – أنه قال: "أمينًا عليه".

وهذا أعجبُ إليَّ؛ وإن كان التفسيران متقارَبيْن. لأن أهل النظر – من أصحاب اللغة – يَرَون: أن "مُهَيْمِنًا" اسم مبني من "آمَنَ"؛ كما بُني "بَطِيرٌ" و "مُبَيْطِرٌ" و "بَيْطارٌ" من "بَطَر". قال الطِّرِمَّاحُ:

كَبَزْغِ الْبَطِيرِ الثَّقْفِ رَهْصَ الْكَوَادِنِ

وقال النابغة:

شَكَّ الْمُبَيْطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَضَدِ

وكأن الأصل، "مُؤَيْمِنٌ"؛ ثم قُلبت الهمزة هاء: لقُرب مَخرجها؛ كما تُقلب في "أَرَقتُ الماء"، فيقالُ: هَرَقت الماء. وقالوا: ماءٌ مُهَرَاق؛ والأصل: ماءٌ مُراق. وقالوا: "إِبْرِيَةٌ وهِبْرِيَةٌ، وأَيْهاتَ وهَيْهَاتَ، وإِيَّاكَ وهِيَّاكَ". فأبدلوا من الهمزة هاءَ. وأنشد الأخْفَش:

فَهِيَّاكَ وَالأَمْرَ الَّذِي إِنْ تَوَسَّعَتْ ❊❊❊ مَوَارِدُهُ, ضَاقَتْ عَلَيْكَ مَصَادِرُهْ

الشرح

والآن نتكلم عن اسم المهيمن، وقد ورد في القرآن الكريم في موضع واحد: ﴿الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار﴾ [الحشر: 23].

المؤلف فسر المهيمن تفسيرين:

- الأول: المهيمن هو الشهيد.
- الثاني: المهيمن هو الأمين.

ويصح التفسيران، يقال المهيمن هو الشهيد الأمين، الشهيد الأمين.

وذكر آية المائدة، وهي وصف في كتاب الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ [المائدة: 48] أي: القرآن ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ [المائدة: 48]، أي مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، أي من جنس الكتب المتقدمة، قال: ﴿ومهيمناً عليه﴾ [المائدة: 48]، أي مهيمن على الكتب السابقة، يعني شاهداً عليها، هذا القرآن يشهد للكتب السابقة ويشهد للأنبياء السابقين، فهو شاهد.

(هكذا قال ابن عباس في رواية أبي صالح) أبو صالح روايته ضعيفة جاءت عن ابن عباس فهي رواية ضعيفة، وروي عنه من غير هذه الجهة أن معنى المهيمن هو: الأمين، (وهذا أعجب إلي)، وكأن ابن قتيبة يميل إلى أن المهيمن معناه: الأمين، حتى زاد على ذلك تأكيدًا.

(وكلا التفسيران متقاربين) لكن وكأنه يميل إلى أن المهيمن هو الأمين، لأنه يقول (وكأن الأصل، "مُؤَيْمِنٌ"؛ ثم قُلبت الهمزة هاء: لقُرب مَخرجها) يقول هذا وارد في اللغة إبدال الحرف مكان حرف. يقول أهرقت الماء وأرقت الماء، وأرقته يعني كلاهما صحيح، وهذه لغة مستعملة.

وفيما يتعلق برواية أبي صالح وضعفها، في العموم قد يتساهل في الروايات، خاصة إذا كان ما يتعلق بالرواية ببيان ألفاظ، لأنهم أهل لغة يعرفون المتقدمون من السلف. إذا كان بيانهم للكلمات مثل تفسير محمد بن مروان السدي الصغير فهو ضعيف جداً، "السدي عن الكلبي عن أبي صالح" هذه سلسلة ضعيفة، يسمى إسناداً مظلماً، من أشد الأسانيد ضعفًا. يقول السيوطي: هذه سلسلة الكذب.

لكن الكلبي له تفسير، والسدي له تفسير، فإذا كانت تفاسيرهم تتعلق بألفاظ لغوية؛ فهم عرب تقبل مثلما نقبل من الزمخشري والبيضاوي، نقبل من المتأخرين وهم ليسوا بعربيتهم كالمتقدمين، ومع ذلك نقولها. لكن إذا كان يترتب عليها أحكام أو يترتب عليها مسائل عقدية نحتاج إلى أن يكون السند صحيحاً حتى نبني عليه.

أما هنا، مثل ما أن الطبري وابن أبي حاتم وأبو عبيدة علماء التفسير وغيرهم يستدلون بأشعار العرب. تجد الشاعر العربي كافر وملحد ومشرك بالله وقد يكون زنديقاً، ومع ذلك يأتون بأبيات ويستدلون بها، هذا جائز ما دام أن عربي فصيح، فشعره يعتبر مقبولاً.

و"آمِينَ" اسم من أسماء الله. وقال قوم من المفسرين - في قول المصلي بعد فراغه من قراءة أمِّ الكتاب: "آمينَ"-: [أمينَ] قُصر من ذلك؛ كأنه قال: يا ألله؛ وأضمر "استجبْ لي" -: لأنه لا يجوز أن يَظهر هذا في هذا الموضع من الصلاة؛ إذ كان كلامًا.- ثم تُحذف ياء النداء.

وهكذا يختار أصحاب اللغة في "أمينَ": أن يَقصرُوا الألف، ولا يُطَوِّلوا. وأنْشَدوا فيه:

تَبَاعَدَ مِنِّي فُطْحُلٌ إِذْ سَأَلْتُهُ *** أَمِينَ فَزَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا

ويفتحونها: لانفرادها، وانقطاعها عما يُضمر فيها: من معنى النداء. حتى صارت عندهم معنى "كذلك فَعَل الله".

وقد أجازوا أيضا "آمينَ" مطوّلة الألف. وحكَوها عن قوم فصحاء.

وأصلها: "يا أمين" بمعنى: يا ألله. ثم تُحذف همزة "أمين" استخفافا لكثرة ما تَجْرى هذه الكلمة على ألسنة الناس. ومَخْرَجُها مخرج "آزيدُ". يريد: يا زيدُ. و "آراكبُ" يريد: يا راكبُ. وقد سمعنا من فصحاء العرب: "آخبيثُ"؛ يريدون: يا خبيثُ.

وفي ذلك قولٌ آخر؛ يقال: إنما مدت الألف فيها، ليطول بها الصوتُ.

كما قالوا: "أَوِّهْ" مقصورةَ الألف، ثم قالوا: "آوَّهْ" [ممدودة] . يريدون تطويل الصوت بالشكاية. وقالوا: "سقط على حاقِّ رأسِه"؛ أي: على حَقِّ رأسه. وكذلك "آمين": أرادوا تطويل الصوت بالدعاء.

وهذا أعجب إليَّ.

وأما قول العباس بن عبد المُطَّلِب، في مدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:

حَتَّى احْتَوَى بَيْتُك الْمُهَيْمِنُ مِنْ *** خِنْدِفَ, عَلْيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ

فإنه أراد: حتى احتويتَ - يا مُهيمن- من خندفَ علياءَ؛ فأقام البيتَ مُقامَه: لأن بيته إذا حَلَّ بهذا المكان، فقد حل هو به. وهو كما يقال: بيتُه أعزُّ بيتٍ. وإنما يراد: صاحبُه. قال النابغة:

وَحَلَّتْ بُيُوتِي فِي يَفَاعٍ مُمَنَّعٍ *** تَخَالُ بِهِ رَاعِي الْحُمُولَةِ طَائِرَا

ولم يكن بيته في جبل بهذه الصفة؛ إنما أراد: أني ممتنعٌ على من أرادني، فكأني حللت في يفاع مُمَنَّع.

الشرح

يقول (و "آمِينَ" اسم من أسماء الله) هذا فيه خلاف، ومنهم من ضعفه، أن يسمى الله بآمين، لأن آمين اسم فعل بمعنى: اللّٰهم استجب، فأنت تقول في آخر الفاتحة آمين يعني: اللّٰهم استجب، وهو دعاء طلب الاستجابة. بعضهم منع قال لا لا يثبت لله أن يقال إن من أسمائه آمين.

وبعضهم ذكرها مثل ابن قتيبة رحمه الله وهو من أهل السنة والجماعة ذكر آمين على أنها اسم من الأسماء الحسنى، ولذلك تلاحظ أنه متردد فيها بقوله (وقال قوم من المفسرين – في قول المصلي بعد فراغه من قراءة أمِّ الكتاب: "آمينَ") يقصد القصر والمد، يجوز لك أن تقصر وأن تمد، قل آمين وقل آمين (بمدها)، فهذا كله جائز. هو تكلم عن القصر والمد وأن المد إذا مددتها، فأن الألف هذه ألف زائدة، كأنك تقول آزيد يعني يا زيد فهي نداء.

وقال إن اللغة تزيد في الألف وتنقص، فكل هذا يدور حول هذا الاسم، وهذا الاسم كما ما ذكرنا فيه خلاف في إثباته وعدم إثباته.

ومن صفاته: "الغَفُورُ".

وهو من قولك: "غَفَرتُ الشيء": إذا غَطَّيتهَ. كما يقال: "كَفَرْتُه": إذا غطَّيْته. ويقال: كذا أَغْفَرُ من كذا؛ أي: أستَرُ. و "غَفْرُ الخَزِّ والصوف" ما علا فوق الثوب منها: كالزِّئْبِر. سمي "غفرا": لأنه ستر الثوب. ويقال لجُنَّة.

الرأس: "مِغفرٌ"؛ لأنها تستر الرأس . فكأن "الغفور": الساترُ لعبده برحمته، أو الساترُ لذنوبه.

ونحوٌ منه قولهم: "تَغَمَّدْني برحمتك"؛ أي: ألبِسْني إياها. ومنه قيل: "غِمْدُ السيف"؛ لأنه يُغمد فيه، أي: يُدخل.

الشَّرحُ

هذا اسم الغفور، وهو من صفات الله، أنه يغفر الذنوب

من صفاته: المغفرة. ومن أسمائه: الغفور والغفار و الغافر، كلها واردة في القرآن.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس: 107]، وقال: ﴿وإني لغفار لمن تاب﴾ [طه: 82]، وقال: ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾ [غافر: 3].

غافر وغفار وغفور كلها صحيحة، كلها أسماء ثابتة على صيغ متعددة، غالباً في الأسماء الحسنى تأتي بصيغ المبالغة المعروفة: فعول وفعيل وفعل وفعّال، كل هذه من صيغ المبالغة.

تكلم عن أصل واشتقاق كلمة الغفور، ويقول (وهو من قولك: "غَفَرتُ الشيء": إذا غَطَّيته).

الله سبحانه وتعالى من صفاته أنه يغفر الذنوب يعني: يغطيها ويمحوها ويزيلها. وبيّن أنها مشتقة من التغطية والإزالة والستر. لذلك يقال للمغفر الذي يوضع على الرأس- يضعه المقاتل والمجاهد على رأسه مغفر من حديد – لأنه يستره من الضرب الذي يأتيه.

وهكذا فكلمة الغفور مأخوذة من: الستر والتغطية.

ومن صفاته: "الواسِعُ"، وهو الغنيُّ

والسَّعةُ: الغِنَى. قال الله: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: 7]. أي: يعط من سعته.

الشرح

يلاحظ أن المؤلف يقول (ومن صفاته) مع أنه اسم، الاسم والصفة متقاربات، ويقصد أنه من صفاته السعة، سعة العطاء، هذه صفة. ومن أسمائه الواسع.، فهو يعبر بهذا وهو يقصد هذا الأمر.

(ومن صفاته: "الواسِعُ"، وهو الغنيُّ، والسَّعةُ: الغِنَى) الواسع كما ذكرنا: الغني كثير العطاء، والواسع ورد في القرآن الكريم بما يقرب حوالي سبعة مواضع: البقرة ، المائدة، النور، وغيرها. ودائماً يقترن باسم "العليم"، إلا في موضع واحد في سورة النساء، ورد مقترنا باسم الحكيم: ﴿والله واسعاً حكيماً﴾ [النساء: 130]. هذا موضع واحد فقط، كما ورد منفرداً هكذا "واسع". في الغالب يرد مقترنًا باسم العليم، وهذا فيه حكمة، وفيه وجه بلاغي قوي جداً، لأنه لا يعطي إلا عن علم، فتجد الفقير فقيراً، يعيش فقيراً ويموت فقيراً، الله واسع وغني يغنيه ولا يعجزه، لكن جعله فقيراً، لأن الله يعلم أن الفقر خير لهذا.

ويعطي هذا، يجعل هذا غنياً ولا يجعله فقيراً، لأن الغنى أنفع له، إذاً عطاؤه عن علم، وغناه عن علم.

ولذلك في قوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله﴾ [النور: 32].

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنني فقير. قال: "تزوج يغنيك الله". وجاء رجل إلى عمر أو أبي بكر وقال: "تزوج"، إن الزواج فيه غنى. يغنيك الله. أحياناً تجد من يتزوج ولا يغتني، يشتد الفقر عنده ويزيد عليه الفقر وتزيد عليه الديون، نقول: كيف يقول الله ذلك، ونجد من في الواقع أنه ما اغتنى؟ نقول هذا خبر من الله، خبر الله لا يجوز أن نشك في خبره. لكن الله حكيم لما قال واسع عليم، أي أنه يعطي لكن يعطي بعلم وحكمة، فمن يستحق يعطيه، ومن لا يستحق لا يعطيه، إن هذا الذي جاء أصبح فقيراً الله ما أعطاه لأن الله عليم بحاله، لا يستحق أن يعطى، لذلك صرفه عنه.

اسم "واسع" كما ذكر المؤلف: كثير العطاء، واستدل بآيات الطلاق: ﴿لينفق ذو سعة﴾ [الطلاق: 7]، يعني الذي عنده عطاء كثير ، عنده غنى.

ومن صفاته" :البارِئُ."

ومعنى "البارئ :"الخالقُ .يقال :بَرَأ الله الخلقَ يَبْرَؤُهم.

و"البَرِيَّة :"الخلق. وأكثر العرب والقُراء: على ترك همزها؛ لكثرة ما جرت على الألسنة. وهي "فَعِيلةٌ "بمعنى "مَفْعولة."

ومن الناس مَن يزعم :أنها مأخوذة من "بَرَيْتُ العودَ."

ومنهم من يزعم :أنها من "البَرَى"، وهو :التراب أي: خُلق من التراب .وقالوا :لذلك لم يُهمز.

وقد بينت هذا في كتاب "القراءات" وذكرت موضع الأخبار منه.

***

ومِثْلُ البارئ: "الذَّارِئُ".

وهو: الخالق. يقال: ذَرَأ الله الخلقَ. وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا ﴾ [الأعراف: 179] أي: خلَقْنا. و "الذُّرِّيةُ" منه؛ لأنها خلق الله من الرجل.

وأكثر القُراء والعرب: على ترك همزها؛ لكثرة ما يُتكلم بها.

ومنهم من يزعم: أنها من "ذَرَوْتُ" أو "ذَرَيْتُ".

الشرح

(وذكرت موضع الأخبار منه) بل موضع الاختيار منه، يعني ما الذي يختاره.

هذا يبين لنا أن ابن قتيبة له كتاب في القراءات، أنه سابق لكتاب غريب القرآن، حتى مشكل كتاب تأويل مشكل سابق، لأنه سيأتينا أو يمر علينا أو مر علينا أن يقول "ذكرته في كتابي تأويل مشكل القرآن"، يعتبر كتاب الغريب متأخر عن هذه الكتب.

وأضاف الشارح حفظه الله: في الكتاب عندي، يقول: هذا النص يدل على أنه ألف كتاب القراءات قبل هذا الكتاب، وقد ذكره في تأويل القرآن. حتى قال في تأويل مشكل القرآن: "وسترى كله في كتابنا المؤلف في وجوه القراءات إن شاء الله".

الآن هو تكلم عن البارئ، قال: هو الخالق. عندنا البارئ وعندنا الخالق، وعندنا البارئ وعندنا المصور، وعندنا البديع، وعندنا فاطر، كلها متقاربة.

الخالق البارئ المصور البديع الفاطر، خمسة أسماء كلها متقاربة لكن كل واحد له معنى، لا أقول مترادفة، لا ليست مترادفة، أسماء الله الحسنى ليس فيها ترادف، وأن كل اسم له معنى:

- **أولاً الخالق:** هو الذي أوجد الشيء من العدم، ليس موجوداً قبل ذلك ﴿خلق السماوات والأرض﴾ [الأنعام: 1] خالق، ليست موجودة أبداً، كانت معدومة فأوجدها الله. خلق الإنسان، لأنه معدوم.
- **ثانيًا البارئ:** هو معنى الخالق، قريب من الخالق. ليس معنى الخالق مطابقةً، لا، هو قريب من الخالق، لكنه مأخوذ من إبراء الشيء وهو إيجاده.
- **ثالثًا الفاطر:** ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ [الأنعام: 14]، أي: أوجدها بصورة حسنة، وإذا جاء البديع فهو أحسن، ﴿بديع السماوات والأرض﴾ [البقرة: 117]، يعني خلقها بأحسن صورة مبدعة.

وهكذا يقول هنا: هل يقال بارئ؟ فالقرآن مهموز، وكأن المؤلف يقرأ بغير همز. قال سبحانه وتعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ [البقرة: 54] لم يقل "باريكم"، هذا غير مهموز، ولذلك في قراءة أخرى وتوبوا إلى باريكم، هنا نحن نقرأ بالهمز.

ويقول هنا: (وأكثر العرب والقُراء: على ترك همزها؛ لكثرة ما جرت على الألسنة)، أقول باري، وأنت الآن تقول فتح الباري، ويجوز أن تقول فتح البارئ، كلها صحيحة. أكثر العرب والقراء على عدم الهمز، ترك الهمز.

يقول هنا: وهي فعيلة بمعنى مفعولة: بريئة أو البرية. البرية هي الخلق ﴿أولئك هم شر البرية﴾ [البينة: 6]، ﴿خير البرية﴾ [البينة: 7]. البرية: الخليقة بمعنى مفعولة، يعني مخلوقة. خليقة بمعنى: مخلوقة. بريئة بمعنى: مبروءة.

(ومن الناس مَن يزعم :أنها مأخوذة من "بَرَيْتُ العودَ". ومنهم من يزعم :أنها من "البَرَى"، وهو: التراب أي: خُلق من التراب. وقالوا :لذلك لم يُهمز) هذا من حيث اشتقاقها.

(ومِثلُ البارئ: "الذَّارِئُ". وهو: الخالق) هذا من حيث الذارئ، قريب من البارئ الذي ذرأ الخلق، هو الذي برأهم، هو الذي أوجدهم عليها. في آية الحديد: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ [الحديد: 22] أي : نوجدها. هذا معنى البارئ الذي أوجد الأشياء خلقها.

لذلك قد يسألك سائل يقول لك: لماذا اختار موسى في قوله: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ [البقرة: 54]. متى قالها موسى؟ لما عبدوا العجل، فقال: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ [البقرة: 54] يقصد عباد العجل. لماذا؟ يقول كيف تعبدون عجلاً بهيمة مخلوق ومصنوع من ذهب وتتركون بارئكم الذي أوجدكم؟! فلذلك أتى باسم البارئ؛ الذي هو يذكرهم بمن برأهم وأوجدهم ونشرهم في الأرض . فيقول ذرأ وبرأ متقاربة. خلق وذرأ وبرأ كلها متقاربة.

الآن ينتقل إلى أن يبين لك أن صفات الله سبحانه وتعالى في القرآن تأتي على صيغ – مثل ما ذكرنا صيغة المبالغة – هو الآن سيأتيك بهذه الصيغ.

ومن صفاته ما جاء على "فَعِيلٍ" بمعنى "فاعِلٍ"؛ نحو: "قَدِيرٍ" بمعنى "قادِرٍ"، و"بصيرٍ" بمعنى "باصِرٍ"، و"سَمِيعٍ" بمعنى "سامِعٍ"، و"حَفِيظٍ" بمعنى "حافِظٍ" و"بَدِيءٍ" بمعنى: "بادئ الخلق"، و"شَهِيدٍ" بمعنى "شاهِدٍ"، و"عَلِيمٍ" بمعنى "عالِمٍ"، و"رَقِيبٍ" بمعنى "راقِبٍ" - وهو: الحافظ - و"كَفِيلٍ" بمعنى "كافِلٍ"، و"خَبِيرٍ" بمعنى "خابِرٍ"، و"حَكِيمٍ" بمعنى "حاكِمٍ"، و"مَجِيدٍ" بمعنى "ماجد" وهو: الشريف.

ومن صفاته ما جاء على "فَعِيلٍ" بمعنى "مُفْعِلٍ"؛ نحو:

"بَصِيرٍ" بمعنى "مُبْصِرٍ"، و "بَدِيعِ الخَلْقِ" بمعنى "مُبْدِعِ الخلق". كما قالوا: "سميعٌ"؛ بمعنى مُسْمِعٍ.

قال عَمْرُو بن مَعْدِيكَرِب:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الداعِي السَّمِيعُ

و"عذابٌ أليمٌ" أي: مؤْلِمٌ، و"ضَرْبٌ وَجِيعٌ" أي: مُوجِعٌ.

[ومنه]: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: 86]. ؛ أي: كافيًا. من قولك: "أَحْسَبَنِي هذا الشيءُ"، أي: كفاني. و"اللهُ حَسِيبِي وحسيبُك" أي: كافينا؛ أي: يكون حَكَمًا بيننا كافيًا. قال الشاعر:

وَنُقْفِي وَلِيدَ الْحَيِّ: إِنْ كَانَ جَائِعًا ❊❊❊ وَنُحْسِبُهُ: إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعِ

أي: نُعطيه ما يَكفيه، حتى يقولَ: حَسْبِي.

وقال بعض المفسرين -في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: 86]- أي مُحاسبًا. وهو -على هذا التأويل- في مذهب "جَليس" و "أَكِيل" و "شَرِيب" و "نَدِيم" و "قَعِيدٍ".

الشرح

الآن هو يتكلم مثل ما ذكرنا عما كان على هذه الأوزان، يقول: أن ما جاء على وزن فعيل معناه فاعل، قدير معناه قادر، سميع سامع، نصير بمعنى ناصر. إذا جاء على هذا الوجه فتقول شهيد بمعنى شاهد، عليم بمعنى عالم، هذه كلها على وزن فعيل.

ويأتي ما كان على وزن فعيل بمعنى مفعل، مفعل يعني بصير مبصر وهكذا، سميع مسمع: ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ [سورة النمل: 80]، وعذاب أليم: مؤلم. يقول هذه كلها.

ثم تكلم عن اسم الحسيب، ورد في القرآن ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ [النساء: 86]. ما معنى حسيبًا؟ ما هو الحسيب؟

قال: الحسيب: الكافي. ﴿وقل حسبي الله﴾ [التوبة: 129]، يعني: كافيني يا ربي أن يدفع عني الشر. ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: 173]، قالها إبراهيم لما ألقي في النار، قال إبراهيم: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: 173] فكفاه الله من النار.

وقالها النبي ﷺ لما قال: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: 173] رد الله عنه الكيد. معنى الحسيب الكافي الذي يكفيك، يدفع عنك الشر. لذلك في قوله تعالى: ﴿عطاءً حسابًا﴾ [النبأ: 36] يعني: عطاء كافياً، حتى يكفيك، لا تريد أكثر من ذلك.

وقال (أَحْسَبَني هذا الشيءُ"، أي: كفاني) والله حسيبك أي: كافيك.

وقيل من "الحساب"، المحاسِب: الذي يحاسِب. ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ [النساء: 6] الله سبحانه وتعالى يحاسب العباد ﴿ان الله كان على كل شيء حسيبا﴾ [النساء: 86] قال: محاسباً. هذا صحيح، يجوز أن تقول كافياً. يصح أن يكون بمعنى كافٍ وبمعنى محاسب، يحاسب عباده.

الآن ينتقل إلى ما جاء على وزن فعيل، مثل قريب وجليل وحليم وعظيم.

ومن صفاته ما جاء على "فَعِيلٍ": لا يكونُ منها غيرُ لفْظِها؛ نحو:

"قَريب" و"جَليل" و"حَليم" و"عَظيم" و"كَبير" و"كَريم" -وهو الصَّفُوح عن الذنوب- و"وَكيل" وهو الكَفيل. قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:28] ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾ [النساء:81] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:3] ؛ أي: اجعلْه كافلَك، واعتمد على كفالته لك. ووكيل الرجل في ماله هو الذي كفَلَه له، وقام به.

الشَّرحُ

معنى كريم: يجوز أن يكون معناه يصفح ويتجاوز، ويجوز أن يكون معنى الكرم وهو العطاء. هو الأكرم سبحانه وتعالى الذي يعطي، من صفاته أنه كريم. وكريم الصفح الذي يتجاوز عن الناس.

وكيلك الله: يعني الله يتولى أمرك، فيدفع عنك الشر ويصرف عنك الشر ويأتيك بالخير ويجلب لك الخير، هذا معنى الله وكيل. الوكيل هو الكافل: الذي يتكفل بعباده. كفيلاً ووكيلاً، وهو يختار الأسماء التي تحتاج إلى بيان.

ومن صفاته: "الوَدُودُ".

وفيه قولان. يقال: هو "فَعُولٌ" بمعنى "مَفْعول"؛ كما يقال: رجل هَيُوب؛ أي مَهيبٌ، يراد به: مَوْدودٌ.

ويقال: هو "فَعُول" بمعنى "فاعل" كقولك: غفورٌ؛ بمعنى غافر. أي: يَودُّ عباده الصالحين.

وقد تأتي الصفةُ بالفعل لله ولعبده، فيقال: "العبدُ شكورٌ لله" أي: يشكر نعمه. و "اللهُ شكور للعبد" أي: يشكر له عملَه. و "العبدُ تَوَّابٌ إلى الله من الذنب"، و "اللهُ توَّابٌ عليه".

و "كِبْرِياءُ اللهِ": شَرَفُه. وهو من "تكبَّر": إذا أعلا نفسَه.

الشَّرحُ

ما شاء الله هو يختار كلمات أو اسماء مهمة جدا.

الودود ورد في القرآن: ﴿وهو الغفور الودود﴾ [البروج: 14]. وورد أيضاً في مريم ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ [مريم: 96] من المودة، والمودة هي: المحبة. الودود هنا من المحبة، يقول: ودود أي محبوب. ويقول إن بعض أسماء الله يشترك فيها الخالق والمخلوق، يقال التواب وفلان تواب، والله تواب. وفلان شكور ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [إبراهيم: 5] هذا المخلوق. والله شكور، الله سبحانه وتعالى شاكر وشكور، جاء في القرآن.

ما معنى وله الكبرياء؟ وما معنى المتكبر؟

قال: هو الذي أعلى نفسه، تكبر ذو العلو والشرف. ليس معناها المتكبر الذي يوصف به الإنسان، وقال: فلان متكبر على الناس، هذه صفة ذم للإنسان، لكن في حق الله هو صاحب الشرف والعلو.

و "جَدُّ اللهِ": عَظَمتُه. ومنه قوله: ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: 3].

ومنه يقال في افتتاح الصلاة: "تَبَارَكَ اسمُك، وتعالَى جَدُّك"

يقال: جَدَّ الرجلُ في صدور الناس وفي عيونهم، إذا عَظُم. ومنه قول أنسٍ: "كان الرجُل إذا قرأ البقرة وآلَ عمران، جَدَّ فينا" ؛ أي: عَظُم.

و "مَجْدُ اللهِ": شرَفُه، وكرَمُه.

و "جَبَرُوتُه": تجَبُّرُه؛ أي تعظُّمُه.

و "مَلَكُوتُه": مُلْكُه. ويقال: دارُ مُلكِه.

وزيدتْ التاءُ فيهما، كما زيدتْ في "رَهَبُوتٍ" و "رَحَمُوتٍ". تقول العرب: "رَهَبوتٌ خيرٌ من رَحَموتٍ"؛ أي: [أنْ] تُرهَبَ خير من أن تُرحمَ.

الشرح

﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ [الجن: 3] أي عظمة الله فهذا معناه بعض الناس لا يفهمه، جاهل يقول: كيف الله جد؟ الجدّ هنا بمعنى: العظمة، قال إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا، أي عظم.

(أنْ تُرهَبَ خير من أن تُرحمَ) أنك إذا خوّفت التزمت الحياة وانضبطت، حتى في تربية الأبناء عندما ترحم يضعف الطفل، لكن عندما تعطيه من الهيبة ينشأ بقوة، هذا معنى - أحياناً، ليست على إطلاقه - لكن في الغالب، الغالب أن هذا خير التربية، أن تعلمه ترهبه وتخوفه أولى من أن تتساهل بكثير وترحم فيضعف ولا يخرج قوياً. وممكن أن تُرهَب خير من أن تُرحَم، تخرج عنها المخرج أن تكون لك هيبة، من أن ترحم أو تكون ضعيف أمام الناس ليس لك قوة.

المجيد: ووصف الله العرش بأنه مجيد، والقرآن بأنه مجيد، قال (لقرآن مجيد) يعني: ذو الشرف والكرم.

وجبروت التجبر والملكوت ونحو ذلك كلها التاء للمبالغة.

و "فَضْلُ اللهِ": عطاؤه. وكذلك "منُّه" هو: عطاؤه. يقال: الله ذو مَنٍّ عظيم. ومنه قوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:39] ؛ أي أعط أو أمسك. وقوله: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:6] ؛ أي: لا تعطِ لتأخذ من المكافأة أكثر مما أعطيتَ.

و "حَمْدُ اللهِ": الثناء عليه بصفاته الحسنى. و "شُكْرُه":

الثناء عليه بنعمه وإحسانِه. تقول: "حمِدتُ الرجل": إذا أثنيتَ عليه بكرم وحسب وشجاعة: وأشباهِ ذلك؛ و "شكرتُ له": إذا أثنيتَ عليه بمعروفٍ أَوْلاكَهُ.

وقد يوضعُ الحمدُ موضع الشكر. ولا يوضع الشكرُ موضع الحمد.

و "أسماءُ اللهِ الحُسنى": الرحمنُ، والرحيم، والغفورُ، والشكُورُ؛ وأشباهُ ذلك.

والإلحادُ في أسمائه: [الجورُ عن الحق والعدولُ عنه، وذكرُ] اللاتِ والعُزَّى، وأشباهِ ذلك.

الشرح

الحمد والشكر بينهما فروق، قد يتقابلان وتكون بمعنى واحد، وقد يفترقان.

قد يكون الشكر أعم من الحمد من وجه، قد يكون الحمد أعم من الشكر من وجه.

كثير من العلماء أو المفسرين يتكلمون عنها عند بداية سورة الفاتحة.

ومعنى (أَوْلاكَهُ) أي: تولاك.

﴿إن الذين يلحدون في أسمائه﴾ [الأعراف: 180]، ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: 180].

﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾ [الأعراف: 180] كيف يلحدون في أسمائه؟

أي: يحرفونها عن معانيها ويغيرون في ألفاظها، الكفار غيروا في ألفاظها، قالوا: اللات من الإله، والعزى من العزيز، وهذا معنى الإلحاد.

و "مَثَلُه الأعلى" لا إله إلا اللهُ. ومعنى المَثَل -ها هنا- معنى الصفة؛ أي: هذه صفته. وهي أعلى من كل صفة: إذ كانت لا تكون إلا له.

ومِثْل هذا -مما المَثَلُ فيه بمعنى الصفة- قوله في صفة أصحاب رسوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾؛ أي: صِفَتهم. وقوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: صفتُها. وقد بينت هذا في كتاب "المُشْكل".

الشرح

وهنا يتكلم عن الصفات والإلحاد فيها، والمثل الأعلى.

يقول: مع المثل الأعلى يعني: صفته اللائقة به، هذا يستعمل مثل ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ [محمد: 15]، أي: شأنها وصفتها وهكذا. يقول (وقد بينت هذا في كتاب "المُشْكل").

وفي مسألة الأسماء الحسنى، فقد اختار المؤلف مجموعة من الأسماء التي تحتاج إلى بيان، أما التي هي واضحة فإنه لم يتعرض لها.

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى تأويل كلمات وألفاظ تتردد في القرآن كثيراً يبينها، كلمات تحتاج إلى بيان.

ثم بعد ذلك يدخل على ترتيب سور القرآن.

بَابُ تَأْوِيلِ حُرُوفٍ كَثُرَتْ فِي الْكِتَابِ

﴿الجن﴾ من "الاجْتنان"، وهو الاسْتِتارُ. يقال للدرع: جُنَّةٌ؛ لأنها سترت. ويقال: أجَنَّه الليل؛ أي: جعله من سواده في جُنّة؛ وجَنَّ عليه الليلُ.

وإنما سموا جِنًّا: لاستتارهم عن أبصار الإنس.

وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50]؛ أي: من الملائكة. فسماهم جنًّا: لاجتِنَانهم واستتارهم عن الأبصار.

وقال الأعشى يذكر سليمانَ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم-:

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلائِكِ تِسْعَةً ❊❊❊ قِيَامًا لَدَيْهِ يَعْمَلونَ بِلا أَجْرِ

الشَّرحُ

الآن كلمة "الجن"، بدأ بقوله أنه سيذكر حروفًا، والمقصود بالحروف هي الكلمات. سيذكر كلمات يكثر دورانها في القرآن الكريم ونحتاج إلى بيانها.

بدأ بكلمة "جن"، والجن كثرت في القرآن الكريم، جاءت بلفظ "الجن" وجاءت بلفظ "الجِنّة"، كما في قوله تعالى: ﴿ولقد علمت الجنة﴾ [الصافات: 158]، وهذه الجنة أو الجن يقول مأخوذة من "الاجتنان" وهو: الاستتار. وكل شيء أصلها، يعني حتى تفرعت منها مثلًا: الجنة، سميت "جَنَّة" لاستتارها بالأشجار. الجنين سمي جنينًا: لاستتاره في بطن أمه.

وتقول: فلما جن عليه الليل، أي: غشاه الليل بسواده، وهكذا.

تجد كلمة الجن كثيرًا في القرآن باشتقاقها وألفاظها، كلها تدور حول الاستتار.

يقول هنا (وقال بعض المفسرين في قوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50]؛ أي: من الملائكة. فسماهم جنًّا: لاجتِنَانهم واستتارهم عن الأبصار)

يعني هم مستترون عنا، ويطلق عليهم الجن من حيث المعنى اللغوي عن الأبصار، وإلا هم يسمون الملائكة. وهذا على رأي المؤلف، أن كلمة ﴿كان من الجن﴾ [الكهف: 50] تعني: الملائكة. والصحيح أن هنا ﴿كان من الجن﴾ [الكهف: 50]، أي: خلق من الجن، أي هو أبو الجن. خلق من نار، وهو أبو الجن، هو من فصيلة الجن.

﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ [الكهف: 50]، يعني أنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة، والملائكة لا تعصي ربها طرفة عين، وأما إبليس فقد عصى الله، وليس من الملائكة. لو كان من الملائكة لم يعص الله، لكنه ليس من الملائكة على الصحيح، لأن الله قال: ﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ [الحجر: 27]، والملائكة خلقت من نور، والإنسان خلق من طين. ففرق بينهما، على رأيي.

وسُمي ﴿الإنس﴾ إنسًا: لظهورهم، وإدراكِ البصر إياهم. وهو من قولك: آنستُ كذا؛ أي: أبصرتُه. قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه:10] أي: أبصرت.

وقد روي عن ابن عباس، أنه قال: إنما سُمي إنسانا: لأنه عُهد إليه فنَسِيَ.

وذهب إلى هذا قوم من أهل اللغة. واحتجوا في ذلك بتصغير إنسان وذلك: أن العرب تُصغره "أُنَيْسيان": بزيادة ياء؛ كأن مكبَّره "إنْسِيانٌ" -إفْعِلانٌ- من النِّسيان؛ ثم تُحذف الياء من مكبَّره استخفافا: لكثرة ما يجرى على اللسان؛ فإذا صُغر رجعت الياء وردّ إلى أصله؛ لأنه لا يكثر مصغَّرا كما يكثر مكبَّرا.

والبصريون يجعلونه "فِعْلانًا" على التفسير الأول. وقالوا: زيدت الياء في تصغيره، كما زيدت في تصغير ليلة، فقالوا: لُيَيْلة. وفي تصغير رجل، فقالوا: رُوَيْجل.

الشرح

هذا بالنسبة للإنسان، قال: إما أن يكون مشتقاً من الأنس؛ لأنه يأنس بعضه ببعض، أو من آنست بمعنى: أبصرت ﴿وإن آنستم منهم رشداً﴾ [النساء: 6]، أي أبصرتم. لأنه يُبصَر، حتى يقابل الجن. الجن لا يبصرون، لا يرون، مستترون. الجن مستترون، والإنس يرون: يعني ظاهرون.

فقال: أنس من أنست بمعنى أبصرت، أو يكون للنسيان، يحتمل هذا ويحتمل هذا. كلها قد تكون هذه أو قد تكون هذه، المؤلف ذكر لك المعنيين أو الاشتقاقين.

وهما ﴿الثقلان﴾ ؛ يعني: الجن والإنس. سميا بذلك لأنهما ثِقْل الأرض، إذ كانت تحملهم أحياءً وأمواتًا.

ومنه قول الله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة:2] أي: موتاها. وقالت الخنساء ترثي أخاها:

أَبَعْدَ ابنِ عَمْرٍو من آل الشَّرِيـ ❊❊❊ ـدِ حَلَّتْ به الأرضُ أَثْقَالَهَا

قالوا: حلَّت من التَّحْلِيَة، لا مِنَ الحَلِّ الذي هو ضد العقد. أي: حلَّتْ به موتاها كأنها زيّنتهم به.

و ﴿الملائكة﴾ من الأُلُوك. وهي الرسالة. وهي المأْلُكَة والمأْلَكَة، ومنه قالت الشعراء: أَلِكْنِي. أي أرسلني.

وبمعنى كن رسولي، واحدهم ملك -بترك الهمزة- لكثرة ما يجرى في الكلام، والهمزة في الجمع مؤخرة لأنهم رسل الله.

الشرح

هذا بالنسبة لـ"الثقلان"، ورد في قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ [الرحمن: 31]. المراد به الجن والإنس.

سميا بذلك لأنهما ثقل الأرض، لأن الأرض تثقل بهم أحياء وأمواتًا. ، هذا واضح.

"الملائك" أو "الملائكة". ويقال ملائك ويقال ملائكة بالتاء، كله صحيح، من الألوك، وهي الرسالة.

سمي الملك ملكاً؛ لأنه رسول من عند الله. قال: وهي المأْلُكة أو المأْلَكة، كلها صحيحة، يعني: من الرسالة، هذا الواضح اشتقاق كلمة الملائكة تسميتهم بذلك.

و (إبليس) فيه قولان: قال أبو عبيدة: هو اسم أعجمي ولذلك لا يصرف. وقال غيره: هو "إفْعِيل" من أبْلَسَ الرجل إذا يَئِسَ. قال الله جل ثناؤه: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:44] أي: يائسون. [كذلك قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه] ؛ قال: ولما لعنه الله وغضب عليه أبْلَس من رحمته أي: يئس [منها] فسماه [الله عز وجل] إبليس. وكان اسمه عَزَازِيل.

قال: ولم يصرف لأنه لا سَمِيَّ له فاستثقل.

الشرح

يقول "إبليس" إبليس معروف، إبليس والشيطان، وهو أبو الجن.

وورَد في القرآن كثيرًا، خاصة في قصة سجود الملائكة إلا إبليس.

قال إبليس هنا: إما أن يكون أعجميًا، وقد ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب كتاب المجاز.

وإما أن يكون مشتقاً من الـ "بَلَس" وهو اليأس.

وقول المؤلف هنا (وكان اسمه عزازيل) هذه أيضًا مما يعني أخذ عن بني إسرائيل، والله أعلم بصحته.

و﴿الشيطان﴾ تقديره فَيْعَال. والنون من نفس الحرف. كأنه من شَطَنَ أي: بَعُدَ. ومنه يقال شَطَنَتْ دارُه [أي: بعدت] وقَذفَتْه نَوًى [شَطُون] أي: بعيدة. وشياطين الجن: مَرَدَتُهم. وكذلك شياطين الإنس: مَرَدتهم [أيضًا] كأن المارد منهم يخرج عن جملتهم ويبعد [منهم] لتمرُّده. ومثله قولهم: شَاطِر وشُطَّار. لأنهم كانوا يبعدون عن منازلهم. فسُمِّي بذلك كلُّ من فَعَلَ مثل فعلهم وإن لم يَعْزُب عن أهله. قال طرَفَة: في القوم الشُّطُرْ.

أي: البعداء.

والدليل على أن النون من شيطان من نفس الحرف قول أمية بن أبي الصلت في وصف سليمان النبي صلى الله عليه وسلم:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ *** ثُمَّ يُلْقَى في السجْنِ والأغْلالِ

فجاء به على فاعل من شطن.

الشرح

الشيطان هو إبليس، مرة يسمى في القرآن "إبليس" ومرة يسمى "الشيطان".

وكثير ما يرد بـ "الشيطان" ويراد به إبليس، وقد يراد به غير إبليس، وهم أحياناً كما في قوله تعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ [البقرة: 14]، وليس المراد به إبليس، شياطينهم أي رؤساؤهم.

﴿وإذا خلوا﴾ أي المنافقون، ﴿إلى شياطينهم﴾ أي إلى رؤوس المنافقين، ليس الشياطين هنا إبليس وأعوانه، وإنما مراد به جنس من الإنس – وهم رؤوس المنافقين –. هذه الآية فقط في القرآن الكريم المراد بـ "الشيطان" هم رؤوس المنافقين.

وأما الشيطان إذا جاء في القرآن: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ [البقرة: 268] وغيرها، كل هذا المراد به إبليس.

ومن أين اشتق؟ قال اشتق من شطُن: أي بعُد.

لأنه قال هنا: من بعُد، والشياطين مبعدون، وخاصة المردة، المردة يعني رؤوس الشياطين. سمي ماردًا: لتمرده من الخير، ليس فيه خير مطلقاً. يقول هنا (أن شطَنَ النون أصلية)، وقيل في رأي آخر أنه من شاط بمعنى احترق، النون ليست أصلية، الشيطان من شاطَ: بمعنى احترق، أو من شطَنَ: بمعنى بعد، لأنه يحترق مع القرآن ويحترق مع الذكر، والله أعلم. كلها صحيحة.

وقوله ﴿يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ﴾ [الزمر:42] هو من استيفاء العدد واستيفاء الشيء إذا استقصيته كله. يقال: توفيته واستوفيته. كما يقال: تيقَّنت الخبر واسْتَيْقَنْتُه، وتثبَّت في الأمر واسْتَثْبَتُه. وهذا [هو] الأصل. ثم قيل للموت: وفاة وتوف. والعرب تسمى الدم نفسًا لاتصال النفس به على مذهبهم في تسمية الشيء بما اتصل به أو جاوره أو كان سببًا له.

ويقولون: نَفِسَت المرأة: إذا حاضت كأنها دَمِيَت. وقال أصحاب اللغة: وإنما سمِّيت المرأة نُفَسَاء لسيلان الدم.

وقال إبراهيم: كل شيء ليست له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا سقط فيه. يريد كل شيء ليس له دم سائل.

وتسمى العرب النفس نسمة. وأصل النسمة النفس. وروي في بعض الحديث "تَنَكَّبُوا الغبار فإن منه تكون النسمة" يراد منه يكون النفس.

والربو سمي نفسًا لأنه عن النفس يكون.

والعرب تقول: مات فلان حتف نفسه، وحتف أنفه إذا مات على فراشه؛ لأنه لا يزال يتنفس حتى يموت فتخرج نفْسُه نَفَسًا من أَنفه وفمه.

الشرح

المؤلف هنا أعطانا كلمتين:

الكلمة الأولى: يتوفى، الوفاة.

والكلمة الثانية: النفس.

فقال الوفاة مأخوذة لما تقال: فلان توفِّي، ولا يقال توفَّى. الذي يتوفَّى هو الله، أما الإنسان تُوُفِي، هذا الصحيح. مرة مرت جنازة، قال رجل: من المتوفِّي؟ قال أعرابي: الله هو المتوفِّي. هو الذي يتوفَّى الأنفس. المتوفِّي اسم فاعل، والمتوفَّى اسم مفعول. إذا قال: من المتوفَّي، قل: الله. الله هو الذي يتوفى. فرق بين توفَّى وتوفِّي. الذي يتوفى هو الله، والذي توفي هو الإنسان، هو المخلوق.

سميت الوفاة، وهي "الموت" وفاة: لأن صاحبها قد استوفى أجله، واستوفى أيامه ومكثه في الدنيا. هذا وقتك، هذه مدتك التي تعيشها، وانتهت المدة فتذهب. استوفيت عملك واستوفيت وقتك واستوفيت مدتك، هذا معناه.

يقول: والنفس سميت نفسًا لاتصال النَفَس بها. سميت النَفْس لأنها فيها النَفَس، لا ينقطع عنها، لو انقطع النفس لمات، سميت نفساً لهذا السبب.

وقيل النفس مراد به الدم. تقول: نفست المرأة إذا حاضت أو دميت. وتقول: هذه لها نفس سائلة.

يقول: قال إبراهيم -المراد به إبراهيم النخعي-: كل شيء ليست له نفس سائلة فإنه لا ينجس، أو لا ينجس الماء إذا سقط فيه الصراصير ونحوها والحشرات التي ليست لها دم، هذه ما تنجس. ليس لها دم، ليس لها نفس سائلة، أي: ليس لها دم. هذا معنى النفس. سميت نفساً للتنفس أو للدم، وجود الدم فيها، أو وجود النفس والهواء.

و ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النبأ:18] قال أبو عبيدة: وهو جمع صُورَة. يقال: صُورَة وصُوَر وصَوَر.

قال: ومثله سُورَةُ البناء وسُورُه. وأنشد:

سُرْتُ إليه في أَعَالِي السُّورِ

قال: وسور المجد أعاليه. أي ينفخ في صُوَرِ الناس.

وقال غيره: الصُّور القَرْن بلغة قوم من أهل اليمن، وأنشد:

نَحْنُ نَطَحْناهمْ غَداةَ الْجَمعَيْن ❊❊❊ بالضَّابِحَاتِ في غُبارِ النَّقْعَين

نَطْحًا شدِيدًا لا كَنَطحِ الصُّورَين

وهذا أعجب إليَّ من القول الأول لقول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: "كيف أَنْعَمُ وصاحب القرْن قد التَقَمه وحنَى جبْهَته، ينتظر متى يؤْمر فينفخ".

الشرح

يقول أن "الصور" في قوله تعالى: ﴿ويوم ينفخ في الصور﴾ [الأنعام: 73 / الزمر: 68] هذا ورد في أكثر من موضع، في الأنعام وفي الزمر وفي غيرها، وأيضًا في سورة النمل: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ [النمل: 87].

"ونفخ في الصور" أو "يوم ينفخ في الصور"، الصور فيه قراءتان:

- يوم ينفخ في الصور فيكون جمع صورة، وتعود إلى آدم أو إلى بني آدم. ينفخ في الصور، أي ينفخوا في هذه الأجساد التي يعيدها الله، ينفخ فيها فتعود الأرواح إلى الأجساد، هذا رأي.
- والرأي الثاني أن المراد بالصور هو قرن ينفخ فيه إسرافيل -إسرافيل الموكل بنفخ الصور- يأخذ القرن وينفخ فيه، فتعود الأرواح إلى أجسادها. وهذا يقول ابن قتيبة: أعجب إلي، يعني: أفضل أو أولى في الترجيح.

في حديث " كيف أَنْعَمُ وصاحب القرْن قد التَقَمه وحنَى جبْهَته، ينتظر متى يؤْمر فينفخ "، يقول هنا الحديث - ولم يخرجه - أنه في اللسان عن أبي سعيد. الحديث فيه كلام في ثبوته، لكن يستأنس به من حيث العموم.

و(اللَّعنُ) في اللغة أصله الطّرْد. ولعن الله إبليس: طرده حين قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ [الأعراف:18] ثم انتقل ذلك فصار قولا. قال الشماخ: -وذكر ماء-

ذَعَرْتُ به القَطَا وَنَفَيْتُ عنه *** مَقَامَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللَّعِينِ

أراد مقام الذئب اللعين. أي الطريد كالرَّجُل. فكأن القائل: لعنه الله، أراد طردَه الله عنه، باعده الله منه، أسحقه الله، هذا أو نحوه.

و (الشِّرْك) في اللغة مصدر شَرِكْتُه في الأمر أشْرَكُه، وفي الحديث: أن مُعَاذًا أجاز بين أهل اليمن الشِّرْك. يراد في المزارعة أن يشترك فيها رجلان أو ثلاثة. فكان الشِّرْكَ بالله هو أن يجعل له شريك قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106].

قال أبو عُبَيْدَة: كانت تَلْبِيَةُ أهل الجاهلية: لَبَّيْكَ لا شرِيك لك إلا شريك هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ. فأنزل الله هذه الآية.

الشرح

يعني كلمة "اللعن" هي: الطرد والإبعاد عن رحمة الله. جاءت في القرآن في مواضع: ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ [النساء: 52] وفي وغيرها جاءت كلمة اللعن: ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ [البقرة: 159] وغيرها. هذه كلها يعني بمعنى الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

وجاءت في السنة أيضًا كلمة اللعن: "لعن الله الواشمة والمستوشمة والنامصة والمستنصمة وغيرها، والواصلة والمستوصلة". اللعن قال: أصله الطرد.

﴿لعن الله إبليس﴾ [الحجر: 35] أي: طرده. كما قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿اخرج منها﴾ [الأعراف: 18] أي: مطروداً. هذه معنى اللعن.

"الشرك" أصله من: المشاركة، ضد الانفراد. فأنت تفرد الله بالعبادة، وهذا يشرك مع الله آلهة أخرى. جعل الشيء مع الشيء شريكًا.

هذا الشرك ورد في القرآن، في آيات كثيرة، كما في هذه الآية: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف: 106]. وفي قوله تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: 13].

وفي قوله تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ [النساء: 36] وغيرها من الآيات التي هي من الشراكة. وهو أن يشترك اثنان فأكثر في شيء واحد. فإذا جعل هذا الشخص مع الله آلهة معبودة، فقد أشرك، أي جعل شريكاً معه، أي جعل أكثر من شخص، هذا المقصود به. هو يريد أن يبين لك هذا المعنى الذي يدور في القرآن كثيراً.

قد يأتيك شخص ويقول لك: الشرك ليس من الغريب، معروف. أو اللعن، أو غيره من الكلمات: إبليس والصور.

نقول: قد يكون عند شخص من الكلمات غريبة، وقد تكون غير غريبة. الناس يختلفون، الغرابة نسبية. قد يكون عند الشخص غريبا وقد يكون عند الشخص غير غريب. لذلك هو أتى بهذه التي تدور أكثرها عند الناس وقد يستغربونها.

و (الجَحْدُ) في اللغة: إنكارك بلسانك ما تَسْتَيْقِنهُ نَفْسُك. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل:14] وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33] يريد أنهم لا يَنْسبُونَكَ إلى الكذب في قراءة من قرأ "يُكَذِّبُونَك" بالتشديد. ومن قرأ "يُكْذِبونك" بالتخفيف، أراد :لا يجدونك كذابا ولكنهم بآيات الله يجحدون. أي ينكرونها بألسنتهم وهم مستيقنون [أنك] لم تكذب ولم تأت بها إلا عن الله تبارك اسمه.

الشرح

هذه الكلمة، كلمة "الجحد"، وردت في القرآن في أكثر من موضع، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ [النمل:14].

يقول: الجحد هو الإنكار باللسان مع الاعتراف بالداخل.

مثال: شخصٌ يأخذ مالًا من شخص آخر، يقول: "أسلفني" أو "أقرضني مئة ريال"، فيقرضه، ثم بعد زمن يأتي [صاحب الحق] ويقول: "لم تسدد"، فيقول [الآخذ]: "ما أخذت منك شيئًا". بلسانه يقول: "ما أخذت"، لكن في قلبه هو يعرف أنه قد أخذ المال. هذا يسمى "جَحَدَ" المال، يجحده. فهؤلاء جحدوا بآيات الله وقلوبهم مستيقنة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33]، يعني هم يعترفون لكن يجحدون بألسنتهم.

يقول: (لَا يُكَذِّبُونَكَ) أي: لا ينسبونك إلى الكذب. والقراءة الأخرى (لَا يُكْذِبُونَكَ) قال: أي لا يجدونك كذابًا. لاحظ الفرق، فرق كبير بين التشديد والتخفيف:

(يُكَذِّبُونَك): أي لا ينسبونك إلى الكذب، لا يقولون أنت كذاب.

أما قراءة (لَا يُكْذِبُونَك): أي لا يجدونك كاذبًا أبدًا، بل دائمًا صادق.

كلتا القراءتين صحيحة، وكلاهما يناسب الواقع ويناسب النبي صلى الله عليه وسلم.

و (الكُفْرُ) في اللغة من قولك كَفَرْتُ الشيءَ إذا غَطَّيته. يقال لليل كافر لأنه يستر بظلمته كل شيء .ومنه قول الله عز وجل: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُه﴾ [الحديد:20] يريد بالكُفَّار الزُّرَّاع .سمّاهم كفّارًا لأنهم إذا ألقوا البذر في الأرض كفَرُوه أي :غطوه وستروه، فكأن الكافر ساتر للحق وساتر لنعم الله عز وجل.

الشرح

الكفر في اللغة: التغطية. ولذلك إذا أذنب الإنسان ذنبًا، ما الذي يجعله يغطي ذنبه ويبعده؟ الكفَّارة.

سُميت كفارة لأنها تغطي وتزيل وتذهب. فالكفر: هو التغطية.

(يقال لليل كافر)؛ لأنه يغطي كل شيء بظلامه ويستره. والكافر سُمي كافرًا لأنه غطى الحق بالباطل.

نعم، "تأويل مشكل القرآن" سابق لهذا الكتاب، يعني هو لما ألف كتاب "تأويل مشكل القرآن" ظهرت له عبارات وكلمات تحتاج إلى بيان، فألف كتاب "الغريب".

و (الظلم) في اللغة وضع الشيء غير موضعه.

ومنه ظُلْمُ السِّقَاءِ وهو شُرْبُهُ قبل الإدْرَاك؛ لأنَّه وضع الشُّرْب غيرَ موضعه.

وظلم الجَزُورِ وهو نَحْرُه لغير عِلَّة.

ومنه يقال: من أشبه أباه فما ظَلَمَ، أي: ما وضع الشبه غير موضعه .ومنه قول النابغة:

والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ.

والمظلومة: الأرض التي حُفِرَ فيها ولم تكن موضع حفْر. سميت بذلك لأن الحفر وُضِع غير موضعه.

فكأَن الظالم هو الذي أزال الحق عن جهته وأخذ ما ليس له، هذا وما أشبهه.

ثم يتفرع من الظلم معان قد ذكرتها في كتاب "تأويل المشكل"

الشرح

(الظلم) أصله في اللغة: النقص. في سورة الكهف قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: 33]، أي: لم تنقص. فالظلم أصله النقص، ثم هو إذا وُضِع الشيء في غير موضعه، هذا يسمى ظلمًا. هذا معنى قوله: "أرض مظلومة"، إذا حُفِر فيها ولم تكن موضع حفر.

فالظلم أصله: النقص أو وضع الشيء في غير موضعه. ثم هو في القرآن إذا تتبعناه وجدنا له معاني، كلها تعود إلى النقص، لكنها تطلق على عدة [أمور]، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، الظلم هنا المراد به الشرك؛ لأن المشرك الذي عبد غير الله وضع هذه العبادة في غير موضعها، فالعبادة تكون لله، فلما صرفها، مثل الذي يطوف الآن على القبر، الطواف لله لا يطاف إلا به مطلقًا في جميع الأرض، فإذا جاء وطاف على القبر، فقد وضع هذا الطواف في غير موضعه، فهذا شرك.

ثم يطلق على ظلم النفس، ويطلق على معانٍ أخرى، وهذا يسمى من الألفاظ المشتركة.

و(الفِسْقُ) في اللغة: الخروج عن الشيء .ومنه قول الله جل وعز: ﴿إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:50] أي خرج من طاعته .قال الفراء: ومنه يقال فَسَقَت الرُّطَبَةُ: إذا خرجت من قشرها.

الشرح

(الفسق) هو الخروج. الفسق في القرآن ورد كثيرًا جدًا: ﴿الْفَاسِقِين﴾، ﴿ يَفْسُقُون﴾، ﴿فِسْقًا﴾وكله يدور حول الخروج ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه﴾ أي خرج عن طاعة ربه.

ويقال في اللغة: (فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها) يعني أي شيء يخرج من قشره؛ الفرخ يخرج من البيضة، والحبة تنفتح ويخرج ما بداخلها من قشر الرطبة، هذا كله يقال له "فسق"، أي خرج.

ثم تأتي كلمة الفسوق في القرآن بمعانٍ أخرى، مثل:﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَان ﴾ [الحجرات: 11] وغيرها.

لما تجمع كلمة الفسوق، تجدها أحيانًا تطلق على الكفر والشرك، وتطلق على المعصية، فهي درجات. مثل الكفر، الكفر درجات، فهناك كفر يخرج عن الإسلام، وكفر دون كفر لا يخرج من الملة أحيانًا. مثل حديث: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رواه الترمذي وحسنه.

و (النِّفَاق) في اللغة مأخوذ من نافِقاء اليَرْبُوعِ وهو جُحْر من جِحَرتِه يخرج منه إذا أخذ عليه الجُحْر الذي دخل فيه .فيقال :قد نَفَقَ ونافَق، شبِّه بفعل اليربوع؛ لأنه يدخل من باب ويخرج من باب. وكذلك المنافق يدخل في الإسلام باللفظ ويخرج منه بالعقد. وقد ذكرت هذا في كتاب "غريب الحديث" بأكثر من هذا البيان.

والنفاق لفظ إسلامي لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه.

و(البُهْتَانُ) من بَهت الرجلَ إذا واجهته بالباطل.

الشرح

كلمة (بالعَقْدِ) ذكرت في نسخة أخرى (بالفعل). يدخل باللفظ ويخرج بالفعل أو بالعَقْدِ، أي بالعقيدة، من دون معتقد.

(وقد ذكرت هذا في كتاب "غريب الحديث" بأكثر من هذا البيان) له كتاب اسمه "غريب الحديث" مثل "غريب القرآن"، بحث فيه في السنة وأخذ الكلمات الغريبة وكتب فيها. جُهد علماء ما شاء الله، بارك الله فيهم، في زمن متقدم، وفاته سنة مئتين وست وسبعين (276هـ)، يعني عاش في بداية القرن الثالث، قبل الطبري وقبل علماء كبار، ألّف كتابه "غريب الحديث" يبحث في السنة ويأخذ الكلمات الغريبة فيها ويبينها.

يقول أصل النفاق هو: الخروج، مثل الفسق. واليربوع -أو ما يُعرف بالجربوع- حيوان صغير يشبه الفأر يعيش في البر، وهو يجوز أكله من المباحات؛ لأنه يتغذى على العشب. فهو يحفر في الأرض في المناطق الرملية ويصنع له بيتًا (جُحرًا)، ثم يأتي في الأخير ويريد أن يفتح بابًا من الخلف لكنه لا يفتحه بالكامل، يبدأ يحفر فإذا رأى النور قريبًا من الخروج تركه. لذلك أحيانًا في البر وأنت تمشي تسقط رجلك في شيء، هذا مكان لليربوع تركه خفيفًا. فإذا رأى النور عرف أن المسافة قصيرة، فيتركه كي لا يدري أحد أن له مخرجًا. ثم يدخل من بابه الأول، فإذا جاء العدو يلحقه ليفترسه، دخل في جحره، فإذا تبعه العدو خرج هو مع الباب الثاني.

هذا هو معنى النفاق من "النافقاء"، نافقاء اليربوع. وشُبِّه المنافق بفعل اليربوع؛ لأن هذا المنافق دخل في الإسلام، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأصبح من المسلمين وحمى نفسه وعرضه وماله وعصم

دمه. فلما دخل في الإسلام، رجع إلى الكفر داخليًا، أما في الظاهر فيجاهدون ويصلون ويتصدقون مع المسلمين في كل شيء، ولكنه داخليًا كافر.

هذا معناه: دخل باللفظ وخرج بالفعل، فأفعاله شرك وكفر.

يقول إنه من الألفاظ أو المصطلحات التي لم تُعرف إلا في الإسلام، حتى في مكة لم يكن هناك نفاق، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وكُسرت شوكة الكفار في بدر وقويت شوكة المسلمين، دخل أولئك في الإسلام ظاهرًا فقط.

(البهتان) ورد في القرآن، في قوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 20]، فجاء بالمصدر، وجاء بالفعل: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

البهتان أصله: التحير، التحير في الشيء، لا يدري ماذا يقول أو يفعل. في قصة النمرود قال إبراهيم عليه السلام: : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258]، فتحيّر النمرود ولم يستطع أن يجيب ﴿فَبُهِت﴾.

فالبهتان هو كما يقول: "بَهِتَ الرجلُ إذا واجهته بالباطل" فلم يستطع الإجابة وتحير.

وللبهتان معنى اصطلاحي آخر، وهو: رمي الشخص بشيء ليس فيه. سأل الصحابة النبي ﷺ: «أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » رواه مسلم.

أي: رميته بشيء ليس فيه. فهذا معناه، إذا قلت: "فلان يسرق" وهو يسرق، فهذه غيبة إن كان غائبًا، أما إذا قلت: "فلان يسرق" وهو أمين لا يسرق، فهذا بهتان، وهو أشد عقوبة.

و(العُدْوَانُ): من عَدَوْتُ وتَعَدَّيْتُ على الرجل. والعَدَاءُ: الظُّلْم.

الشرح

يقول (العدوان)، كثير في القرآن: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ [النساء: 30]. قال: العدوان من "عَدَوْتُ" و"تَعَدَّيْتُ" على الرجل، أي التعدي على الشخص. والعَدَاء هو: الظلم.

قد يأتيك شخص فيقول: كيف يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا مبينا﴾؟ إذًا العدوان غير الظلم؟

نقول: لا، أحيانًا تكون العبارة من باب عطف الخاص على العام. العدوان درجات، فيكون عدوانًا وصل إلى درجة الظلم المبين.

فالاعتداء على درجات، أحيانًا تعتدي على شخص بلسانك اعتداءً خفيفًا، وأحيانًا تعتدي بيدك، وأحيانًا بالسيف، وأحيانًا بالقتل أي الاعتداء يكون على درجات، فهذا أفضل ما يكون في تحرير المسائل، حتى تخرج بنتيجة نهائية وتعرف معنى كلمة "العدوان" باستعراض الآيات، مثل ما يفعل الراغب الأصفهاني.

فعندنا (العدوان) من التعدي مثل التعدي على الشخص، وانظر إلى الآيات فقد تكون له معانٍ كثيرة في القرآن. وهكذا البهتان والنفاق، قد تجد له معنى لغويًا ومعنى اصطلاحيًا.

والنفاق في الغالب في القرآن بجميع تصاريفه هو النفاق المعروف، وهو نوعان:

نفاق اعتقادي يخرج عن الملة

ونفاق عملي لا يخرج عن الملة

فيكون في الشخص صفة من صفات المنافقين، كأن يحدث فيكذب، ولكن لا يُقال لمن يفعل ذلك: "أنت منافق"، بل يقال: "فيك صفة من صفات النفاق".

و (الخُسْرَان) النُّقْصَان. وكذلك الخُسْرُ، ويكون بمعنى الهلَكة . قال الله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة:69] أي الهالكون: وقال: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: 63] أي هلكة، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:101] أي هلكة.

الشرح

وفي سورة العصر ماذا قال؟ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: 2]، أي: في هلاك.

يقول (الخسران) هو في الأصل: النقص، لماذا؟ لأن الخسارة يقابلها الربح، يقابلها الفوز. تقول: هذا فاز وهذا خسر.

وقوله جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ كثير في القرآن، كثير جدًا، يمكن أن يُسجَّل كرسالة علمية. أذكر أن هناك رسالة اسمها "الفلاح في القرآن الكريم"، والخسارة فيه كثير. وأذكر أن طالبًا كان يبحث، فقلت له: "البشرى والبشارة موجودة في القرآن الكريم، لكن النذارة لم تُبحث"، فقال: "سأبحث"، فذهب وبحث ووجدها لم تُبحث، فسجلها رسالة "النذارة في القرآن الكريم: دراسة موضوعية".

الآن مثل هذه الكلمة (الخسارة) كثيرة، هل دُرست؟ هل سُجلت؟ مثل هذه تُدرس ويُستفاد منها، تُجمع الآيات كلها وتُحلل. و﴿الْخَاسِرُون﴾، ﴿خَسَارَةً ﴾ ، ﴿الْخُسْر﴾ ، ﴿يَخْسَرُونَ ﴾، ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ [الزمر: 15]، ما هي أوجه الخسارة؟ خسارة الدنيا، خسارة الآخرة، وهكذا تجد أشياء كثيرة.

وكما ذكرت لكم، لو نجمع الآيات لوجدنا أن لها معاني كثيرة في القرآن. القرآن واسع في ألفاظه.

و (الإفْكُ) الكذب، لأنه كلام قُلِبَ عن الحق. وأصله من أفَكْتُ الرجلَ إذا صرفته عن رأي كان عليه .ومنه قيل لمدائن قوم لوط: ﴿المؤتفكات﴾ [الحاقة:9] لانقلابها .ومنه قول الله عز وجل: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:3] أي: من أين تحرمون وتُصْرفون عن الحق، قال الشاعر:

إنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَة مَأْ ❊❊❊ فُوكًا فَفِي آخَرِين قَدْ أُفِكُوا

أي: إن تك عن أحسن الصنيعة مَعدُولا.

وكذلك (الفجور) هو الميل عن الحق إلى الباطل. ويقال للكذب أيضا: فجور، وهو الميل عن الصدق.

الشرح

(الإفك) أصله الصرف، صرف الشيء. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: 9]، أي يُصرَف عنه من صُرِف. الأصل هو الصرف.

ويأتي بمعنى القلب، قلب الشيء. و﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: 53]، وفي آية أخرى قال: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: 9].

ما هي المؤتفكات في القرآن؟ إنها قوم لوط، يُسمون المؤتفكات.

لماذا؟ لأنها أُفِكَت عليهم ديارهم، أي قُلِبَت.

والإفك هو قلب الشيء. فالمؤتفكات هي قوم لوط، سميت كذلك لأن ديارهم قُلِبت عليهم. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: 53-54]، هذه قوم لوط.

والإفك الذي جاء في قصة عائشة رضي الله عنها في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: 11]، هو قلب الشيء؛ لأنهم جاءوا بكلام ليس على حقيقته، فعائشة رضي الله عنها بريئة والله جَلَّجَلَالُهُ برأها: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: 26]. فهم قلبوا الحقيقة، هذا معناه.

والإفك اصله قلب الشيء وصرفه عن ظاهره إلى معنى بعيد ﴿أَنَّىٰ يُؤفَكُونَ﴾ [المائدة:75] أي: يصرفون.

أما (الفجور) فيقول: هو الميل عن الحق إلى الباطل. ويقال للكذب أيضًا فجور؛ لأنه ميل عن الصدق. في حديث النبي ﷺ: «وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ» متفق عليه.

الفجور أصله في اللغة: السَّعة.

والفجر: سُمي فجرًا لانفجاره بعد الليل.

والمرأة الفاجرة: هي المتوسعة بنفسها، والفاجر: هو المتوسع بنفسه، لا يبالي، يقع في المحرمات والزنا والفواحش يسمى فاجر. والأعمال الكثيرة من الذنوب تسمى فجورًا. يقول هذا صاحب فجور وأصله الميل عن الحق.

وهناك آيات في اللغة مثل ﴿وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: 33]، أي جعل الماء ينطلق بقوة وسعة.

ويوجد آيات لغوية ويوجد آيات اصطلاحية كثيرة كالفجور، فهو لم يذكر الفجور الذي بمعنى الجرائم والخبث، ولم يذكر آيات الفجور مثل ﴿إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 14]، و﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: 3]، أي اتسعت. و﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ، ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:5]

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس:42]

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة:5]

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر:12]

﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس:34]

﴿والفَجْر ﴾ [الفجر:1]

و (الافْتِرَاء) الاختلاق، قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة:103] أي: يختلقونه .ومنه قيل: افترى فلان على فلان، إذا قذفه بما ليس فيه، أو قذف أبويه.

الشرح

(الافتراء) هو: الاختلاق. افترى على الله، أي اختلق. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة:103] أي يختلقونه. نعم، هذا واضح في آيات كثيرة جدًا ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هود: 35]، أي اختلقته من عندي وجئت به. والافتراء نوع من الكذب، فالإفك والافتراء كله نوع من الكذب، لكنها درجات.

وهناك علاقة متقاربة بين الإفك والافتراء، وهذه ذكرتها في كتاب "منحة الباري في شرح منظومة الأبياري"، فقد مرت معنا كلمة "الافتراء"، وتكلمت عنها في انواعها والمؤلف ذكرها على أنها لفظة مشتركة في القرآن، أي تطلق على أكثر من معنى. ولو جمعت كلمة "الافتراء" في القرآن الكريم لوجدت أنها تطلق على الافتراء على الله جَلَّجَلَالُهُ، والافتراء على الرسول، والافتراء على المؤمنين، وهو كثير وله معانٍ كثيرة، لكن كله يرجع إلى الكذب.

(إقامة الصّلاة) إدامتها لأوقاتها .والعرب تقول: قامت السوق وأقمتها: إذا أدمتها ولم أعطلها. قال الشاعر:

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سُوقَ الضِّرَابِ ❊❊❊ لأَهْلِ العِرَاقَيْنِ حَوْلا قَمِيطًا

ويقولون في خلاف ذلك :نامت السوق، إذا عطلت أو كسدت.

الشَّرحُ

هذا معنى دقيق جدًا ينبغي أن ينتبه له كثير من الناس. القرآن لم يأتِ بكلمة "صَلُّوا" أو "صَلِّ" إلا في مواضع [محدودة]. والآن يتضح لك لماذا جاءت هذه المواضع بلفظ "صلوا".

لم يقل: "صلوا"، بل يقول: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾، ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ﴾. لماذا؟

لأن "إقامة الصلاة" تختلف عن مجرد "الصلاة". تجد الآن في المسجد أناسًا يصلون، لكن الذين أقاموا الصلاة قليل.

ما معنى إقامتها؟ هو الإتيان بخشوعها وركوعها وأركانها وسننها وحضور القلب فيها، وهذا قليل، ولذلك عبّر الله جَلَّجَلَالُهُ بإقامة الصلاة.

وفي معنى آخر لإقامة الصلاة ذكره ابن قتيبة، وهو إقامتها أي: احياؤها، يعني أن تكون دائمًا متعلقًا بالصلاة في كل وقت. يقول: "قامت السوق"، أي أنك تذهب إلى السوق فتجد فيها حركة بيع وشراء. وإذا لم تكن هناك حركة، يقال: "نامت السوق". فأنت في الصلاة دائمًا تقيمها، أي تجعل حركة الصلاة في حياتك قوية.

أين وردت كلمة "صلوا"؟ وردت في صلاة الخوف: ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: 102]. لماذا لم يقل "فليقيموا"؟ لأن صلاة الخوف ناقصة أصلاً، ليس فيها تمام الخشوع والركوع والسجود أحيانًا. ولذلك لما تغيرت الحال، ماذا قال في آخر الآيات؟ ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ [النساء: 103]. لم يقل: "فصلوا"، بل قال: "فأقيموا الصلاة"، أي الآن جاء وقت الإقامة.

أما قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 2]، فقد يكون معناها هنا ملازمة الشيء أو جعلها عبادة خالصة لله جَلَّجَلَالُهُ. عمومًا، هي في الأصل الإقامة، لكن قد تأتي بمعنى آخر ويكون لها وجه آخر.

و (التَّزْكِيَةُ) من الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى آله، أَخْذُ الزكاة .قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة:151] وأصل الزكاة النَّماء والزيادة .ومنه قيل للصدقة عن المال: زكاة لأنها تثمره، ومنه يقال :زكا الزرع، وزكت النفقة :إذا بورك فيها.

الشرح

(الزكاة) أصلها النماء والزيادة والبركة. "زكيت مالي"، كيف زكيته وهو ينقص؟ أنت إذا زكيت مالك، وكان مثلاً خمسين ألفًا، فزكاته ربع العشر ، أي أربعين ألف فيها ألف هذه معروفة إذا كان عندك أربعين الف فيها ألف ريال زكاته كل سنة، صار تسعة وثلاثين ألفًا. زكيت السنة الثانية صار ثمانية وثلاثين ألفًا، وهكذا نقص. كيف نقول "نماء وزيادة"؟ نقول: ظاهره نقص، لكن فيه بركة. ولذلك الربا زيادة في الظاهر، لكنها زيادة ممحوقة لا خير فيها، فتذهب بالمال كله.

الشاهد من الكلام أن التزكية أصلها النماء والزيادة والتطهير. لما تزكي فلانًا، تطهره من الأخلاق [السيئة]. تقول: "فلان، أنا أزكيه". والله عز وجل يقول: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: 32]، أي لا تطهروها من جميع الذنوب، فتجد عندك أخطاء، هذا معناه.

يقول (زكا الزرع) إذا زاد وارتفع ونما.

وكلمة الزكاة نفسها بالقرآن كثيرة الألفاظ والمعاني موجودة، وقد يراد بالتزكية المدح، المدح الزائد الذي ليس في محله. لكن أحيانًا تكون التزكية صحيحة، تقول: "من يزكي فلانًا؟"، فأقول: "أنا أزكيه، أنا أعرفه". أما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 49]، فهذا فيمن يمدح نفسه زيادة في غير مقام التزكية.

و (الحِكْمَةُ) العلم والعمل. لا يسمى الرجل حكيما حتى يجمعهما.

الشرح

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

بعض المفسرين يقول: الحكمة هي العلم والعمل. لما يكون إنسان عنده علم ويعمل بعلمه، يسمى حكيمًا.

والحكمة أصلها "المنع" في اللغة. تقول: "حَكَمْتُ الدابة" إذا منعتها. والكلام المتقن الجيد يقال له: "كلام حكيم مُحْكَم"، أي ممنوع من أي شيء لا يناسبه. والقرآن وصفه الله جَلَّجَلَالُهُ فقال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: 1]، أي أُتقِنَت وضُبِطَت.

فهذا معنى الحكيم: الحكمة.

و(الحكمة) أصلها إصابة الرأي. يقال: "رجل حكيم" إذا كان يصيب الرأي ويتقن ويضبط. والحكمة هي حسن التصرف في الأمور، يقال: فلان حكيم في تصرفاته: وضدها السَّفَهُ.

وقد وردت في القرآن في مواضع، منها هذه الآية الظاهرة ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269] وفي آيات وردت بمعنى أسرار الشريعة أو بمعنى السنة، كقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 129]. بعضهم يقول: الحكمة هنا هي السنة، وبعضهم يقول: الكتاب وأسرار الشريعة. وكلها صحيحة.

و (شَعَائِرُ الله) واحدُها شَعِيرة، وهي كل شيء جُعل علما من أعلام طاعته .ومنه إِشْعَارُ البُدْنِ: إذا أُهدِيت. وهو أن تطعن في سَنامها، وتُجَلِّلَها وتُقَلِّدَها، لأن ذلك من علامات إهْدَائها.

وقال قائل حين شُجَّ عمرُ :أُشْعِرَ أميرُ المؤمنينَ. كأنه أعلِم بعلامة من الجراح.

ويرى أهل النظر أن أصله من الشِّعار، وهو ما ولي الجسد من الثياب.

الشرح

(البُدْنُ) جمع بَدَنَة، وهي: الإبل. إذا أُهديت تُشْعَر، أي يوضع فيها علامة على ظهرها أو نحو ذلك، أو تُقلَّد أحيانًا.

يقول (شعائر الله) في القرآن ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 158]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [الحج: 32].

ما هي الشعائر؟ قال: هي أعلام طاعته الظاهرة، مثل منى والوقوف بعرفة والمزدلفة ومقام إبراهيم والصفا والمروة، هذه كلها من شعائر الله الظاهرة. والعبادات الأخرى شعائر، تقول: الصلاة شعيرة من شعائر الله، والزكاة شعيرة، وهكذا.

أصلها -يقول- هي ما كانت عَلَمًا ظاهرًا واضحًا يسمى شعيرة . ويقول إن أصله يعود إلى "إشعار الشيء" وهو يقول من (إشعار البدن) وهو إعلامه بشيء ظاهر. كانوا يُشْعِرون الإبل، فيضربونها في سنامها حتى يخرج الدم، فيسيل ثم يتركونه حتى يجف، فتكون مُشْعَرَة، فيُقال: "هذه لله، هذا هَدْيٌ، لا أحد يتعرض له".

ويقول إنه مأخوذ من "الشِّعَار"، وهو ما يلامس البدن. هناك الدِّثَار والشِّعَار. الدِّثار هو ما فوق اللباس، وأما ما يلامس البدن فيسمى شِعَارًا. كما قال ﷺ: «النَّاسُ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارُ شِعَارٌ» متفق عليه. وهذا ثناء على الأنصار. ففي غزوة هوازن والطائف ، بدأ النبي ﷺ يوزع الغنائم على العرب ولم يعطِ الأنصار، فحزنوا، فعلم النبي ﷺ بهم فجمعهم وخطب فيهم وقال: «أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ؟... النَّاسُ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارُ شِعَارٌ»، أي أنتم أقرب الناس لي، فبكوا وندموا وعرفوا حقيقة الأمر.

و (حَجُّ البيت) مأخوذ من قولك: حججت فلانا إذا عدت إليه مرّة بعد مرة، قال الشاعر:

وأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولا كَثِيرَةً ❊❊❊ يَحُجُّونَ سِبَّ الزِّبْرِقَانِ المُزَعْفَرَا

أي: يكثرون الاختلافَ إليه لِسُؤْدَدِه.

وكان الرئيس يعتم بعمامة صفراء تكون علمًا لرياسته ولا يكون ذلك لغيره ونحوه قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:125] أي يثوبون إليه، يعني يعودون إليه في كل عام.

الشرح

لماذا سُمي الحج حجًا؟ قال: لأن الناس يعودون إليه كل سنة.

الحج: هو قصد الشيء مرة بعد مرة. لما تقصد فلانًا مرة واحدة لا يقال "حججت"، لكن لما تعود إليه أكثر من مرة يسمى حجًا. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:125]. مثابة أي: يثوب الناس إليه و"مثابة" هذه فُسرت بتفسيرين:

مثابة بمعنى (يثوبون)، أي يرجعون مرة بعد مرة. كما يقول ابن القيم، إن بيت الله الحرام في القلوب مثل المغناطيس تهواه القلوب، كما دعا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، لم يقل "أجسادًا"، بل "أفئدة". قلوب تحن إلى البيت.

أو من (الثواب) وهو الأجر؛ لأن الأجور هناك تُضاعَف، والذنوب تُحَطُّ عند البيت، والناس يأتون أهل البيت فتحط عنهم أوزارهم وتحط عنهم الأجور، فليس الصلاة في المسجد الحرام مثل الصلاة في أي مكان آخر، وليس هناك مكان يُطاف فيه أصلاً إلا المسجد الحرام.

ففيه مزايا بالمسجد الحرام لا توجد في أي مكان.

و(السُّلطان) [المُلْكُ والقهر] فإذا لم يكن ملك وقهر فهو بمعنى حجة وبرهان، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: 96] وكقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ [الصافات:156]

و (القُرْآن) من قولك: ما قرأت الناقة سَلًى قَطُّ، أي :ما ضَمَّت في رحمها ولدًا، وكذلك ما قرأت جنينا. وأنشد أبو عُبَيْدة:

هِجَانِ اللَّونِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

وقال في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:17] أي تأليفه .قال :وإنما سمي قرآنا لأنه جمع السور وضمّها .ويكون القرآن مصدرًا كالقراءة :يقال: قرأت قراءة حسنة وقرآنا حَسَنًا .وقال الله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78] أي قراءة الفجر، يعني صلاة الفجر. قال الشاعر في عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السّجُّودِ بِهِ ❊❊❊ يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبِيحًا وقُرْآنا

أي :تسبيحًا وقراءة.

الشرح

(السلطان) يقول: "تسلّط فلان على كذا" إذا مَلَكَهُ وقهره. كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: 22]، أي الشيطان يقول: ما كان لي عليكم من قهر وقوة وتسلط ومُلك. وفي سورة الحشر يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [الحشر: 6]، أي يقهر ويُملِّك. فهو بمعنى القهر والمُلك، يقال "سلطان الدولة" أي: ملك الدولة.

لكنه يأتي بمعنى "الحجة" في القرآن، وهذه من الألفاظ المشتركة. يقول ابن عباس: "كل سلطان في القرآن فهو حجة". ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، "سلطان" هنا يعني: حجة.

(ضحوا بأشمط) أي قتلوا عثمان رضي الله عنه، وهو كبير السن، فوق الثمانين سنة. (عنوان السجود به)، يقطع الليل أي أن السجود هو عنوانه الدائم، أي كيف تقتلون شخص، دائمًا يصلي، يُمضي الليل كله تسبيحًا وقراءة. هذا هو الشاهد.

و (السُّورَةُ) تهمز ولا تهمز: فمن همزها جعلها من أَسْأَرْتُ، يعني أفضَلْت. لأنها قطعة من القرآن. ومن لم يهمزها جعلها من سُورَة البِنَاء، أي منزلة بعد منزلة .قال النابغة في النّعْمان:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أَعْطَاكَ سُورَةً *** تَرَى كلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

والسُّورَةُ في هذا البيت سُورَةُ المَجْد. وهي [مستعارة من] سورة البناء

و (الآيةُ) جماعة الحروف. قال الشَّيْبَاني: وهو من قولهم: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم.

الشرح

عندنا القرآن، والسورة، والآية.

(القرآن) قال مِن قَرَأْتُ الشيء: إذا ضممته، لأنه يجمع الحروف بعضها إلى بعض. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، أي جمع كلماته وضمها بعضًا الى بعض .

(السورة) تُهمز فتكون "سُؤْرَة" من السُّؤْر وهو البقية، أو لا تُهمز "سُورَة" من السُّور وهو الارتفاع والمنزلة. والسورة في القرآن هي مجموعة من الآيات لها مبدأ ونهاية، مثل: سورة الكوثر لها مبدأ ولها نهاية من ثلاث آيات، سورة البقرة كذلك.

لكن (الآية) قال الآية هي: العلامة في اللغة، ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: 248] أي علامة ملكه. وفي الاصطلاح هي مجموعة من الجمل، أو جملة واحدة، أو كلمة واحدة مثل ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: 64]. أو مجموعة من الكلمات لها بداية ونهاية.

أو آية طويلة مثل: آية الدين ، أو قصيرة مثل: ﴿حم﴾ ، ﴿الم﴾ ثم نظر سيدخل في تفاصيل السور.

و (السَّبْعُ الطِّوَالُ) آخرها براءة. كانوا يرون الأنفال وبراءة سورة واحدة؛ لأنهما جميعا نزلتا في مغازي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولذلك لم يفصلوا بينهما.

و (السور التي تعرف بالمِئِين) هي ما ولي السَّبْع الطوال، سميت بمئين لأن كل سور منها تزيد على مائة آية أو تقاربها.

و (المَثَانِي) ما ولي المِئِين من السور التي هي دون المائة. كأن المئين مَبَادٍ وهذه مَثَانٍ. وقد تكون المثاني سُوَر القرآن كلَّها قصارها وطوالها. ويقال من ذلك قوله جل وعز: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

وإنما سمِّي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص تثنَّى فيه. ويقال المثاني في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ آيات سورة الحمد. سمَّاها مثاني لأنها تثنَّى في كل صلاة.

و (المُفَصَّلُ) ما يلي المثاني من قِصَار السّور؛ سمِّيت مفصّلا لقصرها وكثرة الفصُول فيها بسطر: بسم الله الرحمن الرحيم.

الشَّرحُ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]، قيل هي الفاتحة وهو الصحيح، وقيل هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف. والسادسة هي السادسة، أين السابعة؟ قالوا: الأنفال مع التوبة كما يرى ابن قتيبة. والرأي الثاني الذي يراه السيوطي وغيره أنها يونس، فتُسمى سورة يونس "السابعة".

(المِئُون أو المِئِين) هي السور التي تتقارب آياتها من المئة، مثل سورة الإسراء والكهف والنحل.

(المثاني) عند أهل القرآن هي السور التي تكون آياتها في حدود السبعين دون المئة، مثل غافر والأحزاب ونحوها أي آياتها تتراوح بين الستين والسبعين. وقد يطلق على القرآن كله "مثاني"، وقد يراد بها سورة الفاتحة فقط، كلها صحيحة.

إذًا، ترتيب سور القرآن: السبع الطوال، ثم المئون، ثم المثاني، ثم المفصل. والمفصل سُمّي كذلك: لكثرة الفصل فيه . واختلفوا فيه، فقيل من سورة (ق) إلى الناس، وقيل من الحجرات إلى الناس.

وأما (آل حميم) فإنه يقال: إن "حم" اسم من أسماء الله، أضيفت هذه السور إليه .كأنه قيل: سور الله. لشرفها وفضلها .قال الكُمَيْتُ:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حِمِيمَ آيةً ❊❊❊ تَأَوَّلها مِنّا تَقِيٌّ وَمُعْرِبُ

وقد يُجعل حم اسمًا للسورة، ويدخله الإعراب ولا يُصرف. ومن قال هذا قال في الجميع :الحَوَامِيم .كما يقال :طس والطَّوَاسِين.

وأما (التوراة) فإن الفرّاءَ يجعلُها من وَرِيَ الزَّنْدُ يَرِي: إذا خرجت نارُه، وأَوْرَيتُه. يريد أنها ضِياء.

و (الإنجيل) من نَجلتُ الشيءَ: إذا أخرجته. وولدُ الرجل نجلُه. وإنجيل "إِفْعِيل" من ذلك. كأن الله أظهر به عَافيًا من الحق دَارِسًا.

الشرح

القول بأن "حواميم" اسم من أسماء الله يحتاج إلى دليل، فأسماء الله توقيفية، أما في (حم) و(طس) اسم لا نستطيع أن نجزم به أنه من اسماء الله إلا إذا دل الدليل عليه. والحواميم هذه حروف هجائية مثل (طس) و(ق) و(ص) و(الر). ف "حم" وهي السبع المعروفة، تبدأ من سورة غافر وتنتهي بالأحقاف تسمى "آل حم" أو "الحواميم".

و(الطواسين) ثلاث سور: الشعراء والنمل والقصص، والنمل تختلف ﴿طس﴾. [أما الشعراء والقصص ﴿طسم﴾]

(التوراة) في آية الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: 71] أي تقدحون. فالتوراة من "الوَرْي" أي الإشعال، لنورها وسطوعها كأنها اشعلت. هذا على القول بأنها مشتقة، وبعضهم يقول هي اسم جامد ليس لها بيان على اشتقاقاتها، أما الذي يقول مشتقة فهي من النور من وَرِيَ: إذا أشعل .

(الإنجيل) المنزل على عيسى عليه السلام، والتوراة على موسى عليه السلام.

الإنجيل هل هو جامد أم مشتق؟ إذا كان مشتقًا فهو من "نَجَلْتُ الشيء" إذا أخرجته. ويُسمى البن لأبيه "نَجْل فلان" لأنه خرج منه.

وقد سمى الله القرآن (كِتَابًا) فقال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:2]

وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم:1] والكتاب فِعْلُ الكاتب .تقول :كتب كتابًا، كما تقول :حَجَبَ حِجابا وقام قياما وصام صيامًا. وقد يُسمَّى الشيء بفعل الفاعل، يقال :هذا درهم ضَرْبُ الأمير، وإنما هو مضروب الأمير، وتقول :هؤلاء خلق الله. لجماعة الناس، وإنما هم مخلوقو الله.

و (الزَّبُور) هو بمعنى مكتوب من زَبَرَ الكتاب يَزْبُرُه إذا كتبَه وهو فَعُولٌ بمعنى مَفْعُول، كما يقال: جلُوب وركُوب في معنى مَجْلُوب ومركُوب. ومعنى: "كتَبَ الكِتَاب" أي جمع حروفَه. ومنه كَتَبَ الخَرَزَ، ومنه يقال :كتبتُ البَغْلَةَ: إذا جمعت بين شُفْرَيْها بحلْقة.

و (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) أخبارهم. وما سطِّر منها أي كتب. ومنه قوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القم:1] أي يكتبون. واحدها سطر ثم أسطار، ثم أَسَاطِير [جمع الجمع، مثل :قول وأقوال وأقاويل].

وأبو عبيدة يجعل واحدها أُسْطورة وإسطارة [معناها التُّرَّهات البَسابِس] وهو الذي لا نِظَامَ له. وليس بشيء صحيح.

الشَّرحُ

(الكتاب) كلمة عامة، فالتوراة كتاب، والإنجيل كتاب، والقرآن كتاب ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة:87]. وُصف القرآن بأنه "قرآن" لأنه يُقرأ، ووُصف بأنه "كتاب" لأنه يُكتب. ويطلق الكتاب في القرآن على معانٍ كثيرة، فيراد به القرآن، أو كتب أخرى، أو جنس الكتاب، مثل: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: 26].

(الزبور) إذا أُطلق في القرآن فيُراد به الكتاب الذي أُنزل على داود عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163]. وأحيانًا يُراد به الكتب الزبر، وسميت زبرًا لاجتماعها: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 196].

الترهات: أي الكلام الذي ليس له أصل، وأبو عبيدة هو معمر بن المثنى، صاحب كتاب "مجاز القرآن"، من أئمة اللغة، توفي سنة 210هـ تقريبًا.

انتهى المؤلف من إيراد أربعين كلمة تتكرر في القرآن، قد يكون بعضها لم يرد إلا قليلاً وبعضها ورد كثيرًا، حتى إن بعضها لم يرد بلفظه في القرآن، مثل "السبع الطوال"، وإنما ورد عن النبي ﷺ أنه صلى المغرب بـ"طُولَى الطُّولَيَيْنِ"، وهي سورة الأعراف

(الطوليين) من الممكن أن تكون الانعام، وبعضهم قال المائدة .

وقالوا: الأنعام والأعراف، لأنها متقاربة متجاورة.

سورة الحمد

١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ اختصار كأنه قال: أبدأ باسم الله. أو بدأت باسم الله.

٢ - و (العالَمُونَ) أصناف الخلق الرُّوحانِيِّين، وهم الإنس والجن والملائكة، كلُّ صِنْفٍ منهم عالَم.

٤ - و ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم القيامة. سمِّي بذلك لأنه يوم الجزاء والحساب، ومنه يقال :دِنْتُه بما صَنَع. أي جازيته .ويقال في مَثَلٍ: "كما تَدِين تُدان" يراد كما تَصنع يُصنع بك، وكما تُجَازِي تُجَازَى.

٦ - و ﴿الصِّرَاطَ﴾ الطريق. ومثله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ومثله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

٧- ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني الأنبياء والمؤمنين.

و ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود.

و (الضَّالُّونَ) النصارى.

الشرح

هذه الألفاظ التي أوردها المؤلف في سورة الفاتحة سماها بـ (سورة الحمد). والفاتحة لها أسماء كثيرة، أورد السيوطي في "الإتقان" أن لها خمسة وعشرين اسمًا. كل ما يعظم الشيء تتعدد أسماؤه، فعند العرب إذا كان الشيء عظيمًا تعددت أسماؤه، فالأسد له أسماء كثيرة، والسيف له أسماء كثيرة، والله جل جلاله له الأسماء الحسنى، والنبي ﷺ [له أسماء]، والقرآن له أسماء، والفاتحة لها أسماء كثيرة.

وقال : (سورة الحمد)، تسمى بـ "سورة الحمد" في أحاديث وردت أحاديث قال: «اقرأ بالحمد» أو «ليقرأ بالحمد». وسميت (سورة الحمد)، وسميت بـ "السبع المثاني"، وسميت بـ "الصلاة": «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي» . إلى غير ذلك من الأسماء. والمشهور عند المفسرين والعلماء والمصاحف أنها تكتب باسم "الفاتحة"؛ لأنها افتتح بها القرآن كاملًا.

وقد بدأ بعدة ألفاظ:

اللفظ الأول يقول: (بسم الله): "بسم الله" هذا جار ومجرور، أصلها: باء، ثم اسم. فسقطت الألف ووصلت الباء بالسين ثم الميم (بسم).

لماذا [اسقطت الألف]؟ لكثرة استعمالها تسهيلاً.

والجار والمجرور دائمًا لا بد أن يتعلق بفعل، فأي كلمة فيها حرف جر واسم بعده -جار ومجرور- لا بد أن يتعلق بفعل. لو قلت: في الدار؛ يعني: جلست في الدار.

يقول هنا: (﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ اختصار كأنه قال: أبدأ باسم الله. أو بدأت باسم الله) إذًا لا بد أن يقدر فعل، أو تقدر شيئاً يناسبه: أقرأ، أتلو بسم الله.

(الحمد لله رب العالمين): ما معنى العالمين؟ (العالمون) من هم؟ هل هم الإنس أم الجن؟ أم الملائكة؟ أم ماذا؟

قال: (أصناف الخلق الرُّوحانِيِّين)، الروحانيين الذين فيهم روح. (وهم الإنس والجن والملائكة، كلُّ صِنْفٍ منهم عالَم) يعني تقول: عالم الإنس، عالم الجن، عالم الملائكة، "الذين فيهم حركة". أو مثلما يقال: يعبدون الله، أو فيهم قدرة على العبادة.

لكن عند المحققين: العالمين يشمل أوسع من هذا. ومن العلماء من يوسع ويقول: الخلق كله عالم، فتقول: عالم السماوات وعالم الأرض، وعالم البحار، وعالم الجبال، وعالم الحيوان، وعالم الطيور، وعالم الحشرات، فكلمة "عالم" أشمل وأوسع. فهو سبحانه وتعالى ﴿رب العالمين﴾ [الفاتحة: 2]، أي رب الخلق جميعًا، كل الخلق يسمى عالم، كل ما هو ظاهر كالعالم الظاهر معروف يسمى عالم. فالصحيح أن كلمة "العالمين" تشمل جميع المخلوقات.

يقول (﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم القيامة)، لماذا سمي بـ "يوم الدين"؟ لأنه هو يوم الجزاء والحساب، و"الدين" من المداينة: وهي المجازاة. كقول: "كما تدين تدان" مجازاة . ويقال: دنته بما صنع، أي جازيته، دنْتُ فلانًا: أي أعطيته وجازيته.

لماذا سمي بـ "يوم الدين"؟

قد يأتيك سائل يقول لك: الله عز وجل مالك يوم الدين فقط، ولا مالك الدنيا والدين؟

نقول: هو مالك كل شيء، وخصّه هنا لأن الملوك تذهب كلهم، الدنيا فيها ملوك، والآخرة ليس فيها، الملك والغني والفقير والمملوك كلهم على طبقة واحدة، فتذهب الملوك. ولذلك خص هذا اليوم الذي يظهر فيه ملكه سبحانه وتعالى أكثر.

(﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾)

(الصراط): هو الطريق، ثم ذكر لك آيات تدل على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153] أي: هذا الدين.

(الصراط) إما:

- صراط حسي: يمشي عليه الخلق على جسر جهنم، هذا صراط حسي.
- الصراط المعنوي: وهو صراط الإسلام، مثل قوله تعالى هنا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52].

(﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾) من هم الذين أنعم الله عليهم؟

قال: (يعني الأنبياء والمؤمنين)، وهذه مفسرة في كتاب الله، في سورة النساء، قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عَلَيهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقا﴾ [النساء: 69].

يقول: (﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود، و (الضَّالُّونَ) النصارى) هذه واضحة فسرها النبي ﷺ فقال: «المغضوب عليهم هم اليهود». ونقول نحن: المغضوب عليهم هم اليهود، ومن شاكل اليهود ومشى على طريقتهم، كلهم يدخلون، كل من أغضب رب العالمين فهو مغضوب عليه. و(الضالون): هم النصارى، هذا من باب التمثيل، وإلا فكل من ضل عن الطريق دخل في كلمة (الضالين)، وفي مقدمتهم النصارى.

هذه سورة الفاتحة، ذكر فيها مجموعة من الكلمات: البسملة، والعالمين، ويوم الدين، والصراط، والذين أنعمت عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين. يعني يفسر الكلمات اللي تحتاج إلى تفسير.

سؤال: هل أسماء السور توقيفية وقفها النبي، أم اجتهاد من الصحابة؟

نقول: الأصل في السور والآيات وأسماء السور وكل ما يتعلق بالقرآن توقيفي من الله سبحانه وتعالى، وبوحي من الله جَلَّجَلَالُهُ، ليس لأحد أن يجتهد فيه أبدًا. حتى ترتيب الآيات وترتيب السور، لما تأتي الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، هذا ترتيب توقيفي رتبه النبي ﷺ وسمعه الصحابة منه وكرره عليهم، فالترتيب توقيفي.

أما تسمية السور، فالصحيح أن فيها خلافًا، لكن الصحيح أنها توقيفية، وليس لأحد أن يجتهد، لكن هناك بعض التسميات الزائدة، هذه اجتهد فيها الصحابة على أنها أوصاف ليست أسماء، فتسمع لمن يقول مثلًا: سورة التوبة، يسمونها: "الفاضحة"، و"المقشقشة"، و"المبعثرة"، هذه يذكرها على أنها أوصاف لها.

يقول: هذه السورة، لكن لا يسمونها، ولا يكتبونها أنها "سورة المبعثرة"، لا، لكن يقولون: هي المبعثرة، يعني يصفونها بأوصاف. هذا لا مانع فيه.

الفاتحة -سورة الفاتحة- أسماؤها توقيفية، كلها واردة. قال ﷺ: «إني أوتيت السبع المثاني والقرآن العظيم»[1]، وقال ﷺ في الحديث القدسي: « قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ»، وقال ﷺ: «اقرأ بسورة الحمد»... كلها ثابتة. وسماها: "الكافية"، "الشافية". قال: «ألا تعلم أنها هي الكافية الشافية؟»[2].

---

[1] عن أبو سعيد بن المعلى قال: كُنْتُ أُصَلِّي، فَدَعانِي النبيُّ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ إنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، قالَ: ألَمْ يَقُلِ اللَّهُ: اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعاكُمْ؟، ثُمَّ قالَ: ألا أُعَلِّمُكَ أعْظَمَ سُورَةٍ في القُرْآنِ قَبْلَ أنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ، فأخَذَ بيَدِي، فَلَمَّا أرَدْنا أنْ نَخْرُجَ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّكَ قُلْتَ: لَأُعَلِّمَنَّكَ أعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ القُرْآنِ قالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ، هي السَّبْعُ المَثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ الذي أُوتِيتُهُ. رواه البخاري

[2] قال رسول الله ﷺ: فاتحة الكتاب شفاء من كل سم. قال النبي ﷺ: أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوض.

حكم التنكيس في قراءة الصلاة:

- تنكيس الآيات: هذا لا يجوز أبدًا، مثلًا يقول: ﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَومِ ٱلدِّينِ﴾، ثم يقول: (مالك يوم الدين، الرحمن الرحيم) يقدم هذه على هذه، هذا لا يجوز في الآيات أبدًا.
- تنكيس السور: أن تقرأ مثلًا سورة البقرة، ثم تقرأ النساء، ثم تقرأ بعدها آل عمران، يعني قد قدمت وأخرت، هل هذا يجوز؟ نقول: إذا كانت قراءتك لنفسك يجوز، لكن لا يكون دائمًا مستمرًا معك، يعني: يجوز لك أحيانًا.

أما في الإمامة – كإمام – هذا لا يعهد أنه يقرأ سورة يقدمها على سورة، بل يقرأ كترتيب المصحف، لكن لو قدم أحيانًا هذا جائز، مثل ما فعل النبي ﷺ، أنه افتتح البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران. هذا فعله أحيانًا، ففعله أحيانًا جائز، لكن الذي يستمر عليه هذا يعتبر مخالفًا للسنة.

سورة البقرة

١ - ﴿الم﴾ قد ذكرت تأويله وتأويل غيره - من الحروف المقطعة - في كتاب: "المشكل"

٢ - ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه.

﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: رُشدًا لهم إلى الحق.

٣- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يصدِّقون بإخبار الله - عز وجل - عن الجنة والنار، والحساب والقيامة، وأشباهِ ذلك.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: يُزَكُّونَ ويتصدقون.

٥ - ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من الفلاح؛ وأصله البقاء. ومنه قول عَبِيدٍ:

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ ; فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضْ *** ضَعْفِ, وَقَدْ يُخْدَعُ الأَرِيبُ

أي: ابق بما شئت من كَيْس أو غفلة. فكأنه قيل للمؤمنين: مفلحون؛ لفوزهم بالبقاء في النعيم المقيم. هذا هو الأصل. ثم قيل ذلك لكل من عَقَلَ وحَزَمَ، وتكاملت فيه خِلالُ الخير.

الشرح

هذه الآيات الخمس من أول سورة البقرة. قال المؤلف في الحروف المقطعة: (قد ذكرت تأويله وتأويل غيره - من الحروف المقطعة - في كتاب: "المشكل")، تأويل مشكل القرآن هذا تقدم معنا. تكلم عنها: وهذا يدل على أن كتاب غريب القرآن ألّفه بعد المشكل.

الحروف المقطعة: هي حروف هجائية معروفة عند العرب، مثلما يتكلمون ويكتبون ويسمون أسماء من حروف كلها معروفة، نزل القرآن بهذه الحروف وافتتح بعض السور -تسعًا وعشرون سورة- بالحروف المقطعة على درجات، بعض السور افتتحت بحرف واحد مثل: ص، ن، ق. وبعضها بحرفين مثل: حم، وبعضها بثلاثة مثل: ألم، وبعضها بأربعة: ألمص، وبعضها بخمسة: كهيعص، خمسة أقصى شيء.

ما معناها؟ نقول: هي حروف هجائية.

لماذا نزل بها القرآن؟ نقول: لإعجاز العرب، وإثبات أن هذا القرآن مؤلف من هذه الحروف وهو كما يعرفونه، ويجب عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، أو يأتوا بمثله، إن كانوا يدعون أن محمدًا أتى به فليأتوا بمثله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم فِي رَيب مِّمَّا نَزَّلنَا عَلَىٰ عَبدِنَا فَأتُواْ بِسُورَة مِّن مِّثلِهِۦ وَٱدعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُم صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّم تَفعَلُواْ وَلَن تَفعَلُواْ فَاتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلحِجَارَةُ أُعِدَّت لِلكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 23-24]، حتى في المستقبل، هذا تحذير وتخويف، يعني: يجب عليكم أن تتبعوه وتؤمنوا به، وأن النار أمامكم.

إذًا [الحروف المقطعة] ليس لها معانٍ كحرف واحد، حقيقة ما له معنى، ولذلك جلال السيوطي لما جاء عند الحروف المقطعة قال: الله أعلم بمراده، يعني ليس لها معنى، لكن لها هدف ولها مغزى، هذا المقصود.

يقول (﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شكَّ فيه) هذا التفسير تقريبي، العلماء -وحتى في زمن الصحابة والتابعين- إذا فسروا الآيات يفسرون تفسيرًا تقريبيًا، لا مطابقًا، المطابق لا أحد يستطيع؛ القرآن عظيم ومعجز، لا تستطيع أن تأتي بكلمة مكان الكلمة، لكن هذه قريبة، فـ (لا ريب): لا شك، قريب [من هذا المعنى]، الشك ونحو الشك.

﴿ذَلِكَ ٱلكِتَٰبُ لَا رَيبَ فِيهِ﴾ يعني: القرآن حق من عند الله. (لا ريب فيه): هذا خبر، يتضمن النهي، أي: لا ترتابوا فيه ولا تشكوا فيه.

يقول ابن قتيبة: (﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: رُشدًا لهم إلى الحق) معنى الهدى هنا: الرشاد. والهداية في القرآن: الدلالة والإرشاد. وتأتي بمعنى التوفيق والإلهام من الله، لا يملكها أحد [سواه]. ﴿إِنَّكَ لَا تَهدِي مَن أَحبَبتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56] هذه تسمى: هداية التوفيق، الهداية التي يملكها الناس والرسول ﷺ تسمى: هداية الإرشاد. القرآن: هداية إرشاد، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52] هداية إرشاد، وفلان يهدي فلانًا: يعني يدله على الخير، فهذا يسمى (هداية إرشاد).

لو سألك سائل وقال لك: القرآن هدى للمتقين أم هدى للناس؟

في آيات أخرى -كآية الصيام- قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]. كيف نجمع بين هل هدى للناس وهدى للمتقين؟ هذه قد تحدث إشكال عندك.

الأصل أنه هدى للناس "هداية إرشاد مطلقة". وخص الله المتقين؛ لأنهم هم المنتفعون به.

يقول هنا ابن قتيبة: (﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يصدِّقون بإخبار الله - عز وجل - عن الجنة والنار، والحساب والقيامة، وأشباهِ ذلك.)، الغيب: أي بما غاب عنهم من أخبار الله التي يخبرهم بها وهم لا يعلمونها، مثل: أخبار الأمم الماضية، كقصة لقمان، لا يعرفها أهل مكة ولا يعرفها أحد من الناس، فقصها الله عليهم. قصة أصحاب الكهف، هذه أخبار ماضية هم يصدقون بها، المؤمنون المتقون يصدقون بها.

غير الأخبار هذه، نقول: أخبار مستقبلية، وأخبار غيبية عن الله بصفاته وفي أفعاله، وفي الجنة والنار، كل هذه تسمى من علوم الغيب. الجنة والنار أنت لا تعرف حقيقتها، ما رأيتها، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر [3].

هنالك أشياء غيبية، نحن نؤمن بما جاءنا عنها من أخبار، لكن حقائقها لا نعرفها حقًا، لأننا لم نرها، فمن صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب بما غاب عنهم، وأعظم شيء أنهم يؤمنون بالله ولم يروه، يؤمنون بالرسول محمد ﷺ ولم يروه. فهذا الذي يميز المؤمن من غير المؤمن. غير المؤمن لا يؤمن بالرسول ﷺ ولا بالله جَلَّجَلَالُهُ ولا شيء، لكن أنت مؤمن، لك تميز.

---

[3] عن أبي هريرة ÷ قال، عن النبي ﷺ: قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ. (رواه البخاري)

يقول ابن قتيبة في تتمة الآية: (﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: يُزَكُّونَ ويتصدقون) إذًا النفقة عامة، وقد تجعلها أنت أوسع فتقول: المراد بالنفقة هنا الزكاة: زكاة الأموال التي هي فرض، والصدقات التي هي تطوعات، والنفقات الواجبة كنفقة الزوج على زوجته ونفقة الأب على أبنائه، هذه تدخل كلها في قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

في قوله جَلَّجَلَالُهُ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدى مِّن رَّبِّهِم وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]. جاءت "هدى" مرة ثانية هنا، والهدى في القرآن تصل معانيها إلى أكثر من خمسة وعشرين معنى، وفي كتاب لابن الجوزي يجمع الألفاظ التي تحتها معانٍ تسمى: الأشباه والنظائر أو المشتركات. يأتي على "مثلًا" كلمة (هدى) ويأتيك بكل الآيات الواردة في القرآن، تجد كل لفظة لها معنى.

مثل (الأمة) في القرآن. ما معنى "الأمة"؟

- الجماعة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدينَ وَجَدَ عَلَيهِ أُمَّة مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسقُونَ﴾ [القصص: 23]
- الطريقة: ﴿بَل قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّة وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22].
- الزمن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعدَ أُمَّة أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأوِيلِهِۦ فَأَرسِلُونِ﴾ [يوسف: 45].
- القدوة: ﴿إِنَّ إِبرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّة قَانِتا لِّلَّهِ حَنِيفا﴾ [النحل: 120].

يقول: (﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ من الفلاح؛ وأصله البقاء) لأنه لا يقال لك إنك أفلحت إلا إذا بقيت على الشيء وأخذت به، مثلًا صاحب التجارة يقال له: أفلح في تجارته إذا استمر عليها وبقي فيها. أما إذا ذهب وتركها فهذا يعني أنه خسر. فهكذا يقول: البقاء.

(﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾): أي الذين فازوا بالدار الباقية، وهي جنات النعيم. وبعض أهل العلم يقول: الفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب. ويسمى المفلح: الذي يفوز بما يريده وينجو مما يخافه.

٧- ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ بمنزلة طَبَعَ الله عليها. والخَاتَمُ بمنزلة الطابَع. وإنما أراد: أنه أقفل عليها وأغلقها، فليست تعي خيرًا ولا تسمعه. وأصل هذا: أن كل شيء ختمتَه، فقد شددتَه وربطتَه.

ثم قال عز وجل: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ ابتداء. وتمامُ الكلام الأول عند قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾

والغِشَاوَة: الغِطاء. ومنه يقال: غَشَّه بثوب، أي: غَطَّه. ومنه قيل: غاشية السَّرْج؛ لأنها غِطاء له. ومثلُه قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: 41]

الشرح

هذه الآية في الذين كفروا -الصنف الثاني-، الله سبحانه وتعالى ذكر في أول سورة البقرة ثلاثة أصناف من الناس:

- صنف المؤمنين المتقين
- وصنف الكافرين
- وصنف المنافقين

هذا الصنف الثاني: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]، لماذا؟ قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]. ما معنى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؟

قال المصنف رحمه الله: (طَبَعَ الله عليها. والخَاتَمُ بمنزلة الطابَع)، أنت أحيانًا تختم الظرف مثلًا أو الرسالة، أو تختم الكتاب ، ختام الشيء نهايته، تختم القرآن أي تنهيه، بحيث إنك – كما ذكر هنا – قال: (أقفل عليها وأغلقها) أي بمعنى: أن القلوب أُغلق عليها بسبب الذنوب، فلا تعي ولا تتقبل، كما قال قوم عاد ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: 136]، فلا فائدة، فقد أُغلق القلب.

قد يأتي شخص يقول: كيف الله سبحانه وتعالى يطبع على قلوبهم؟

فنقول: ليس ابتداءً، وإنما بسبب، حتى لا ندخل في قضية أن الله سبحانه وتعالى يعذب من غير سبب. لا يعذب الله إلا بسبب من الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:

118]. وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5] فلما كفروا ولم يتقبلوا وأعرضوا، طبع الله على قلوبهم، فطبع الله هنا بسبب كفرهم؛ لما كفروا طبع الله على قلوبهم وأغلق عليها؛ لأنها لا تستحق أن تُفتح القلوب، فُتحت في الأصل فهو مفطور على الإيمان، فُتحت له أصلًا، لكنه خرج عن الإيمان وخرج عن الفطرة وانتكس، فزاده الله ضلالًا. وكما قال سبحانه وتعالى في المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] ومن أعرض، أعرض الله عنه. يقول هنا : (وأصل هذا: أن كل شيء ختمتَه، فقد شددتَه وربطتَه)

ثم قال المصنف رحمه الله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ بيّن لنا الآن معنى الختم، وهذه مسألة مهمة، الختم يأتي في القرآن على القلوب، ويأتي الطبع على القلوب. فيقول: الختم والطبع هو أنها يُغلق عليها، وأحيانًا -كما حكى الله عن اليهود-: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88]، أي مغلفة، مثل المغلَّف، ما تقبل شيئًا. وقال أيضًا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، بسبب كسبهم.

﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، يقول: هذه مستأنفة (ابتداءً) يعني الجملة الأولى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ السمع يُختم عليه، فلا يسمع الحق، ولا يسمع كل شيء؛ يسمع ويدرك، لكن الحق لا يسمعه سماع قبول، بحيث إنها تُقبَل، فلا يسمع.

قال: أما الأبصار فهي مستأنفة، قال: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فـ "غِشَاوَةٌ" مبتدأ، و "عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ" جار ومجرور خبر، فهي جملة مستقلة. قال: قد تم الكلام فيما مضى، ثم أتى بجملة جديدة: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. والغشاوة معروفة: الغشاء. ومنه: الغاشية، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: 1]، تغشي الناس، تغطيهم. فهنا استئناف، يعني إذا قرأ القارئ يقول: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ يقف هنا. ثم يقول: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ ولو وصل وهو يدرك المعنى صحيحٌ.

سؤال: الصنف الثاني –الذين لم يؤمنوا– هل يقع هذا على بعض المسلمين، فلا يقبل أو يسمع الحق ولا يتعظ به؟

الجواب: لا، الطبع يكون على الكافر والمنافقين، وفي سورة المنافقون أخبر الله أنه طبع على قلوبهم، لكن المؤمن لم يرد أنه طُبع على قلبه؛ لأن الطبع معناه أنه لا يقبل شيئًا، لكن المؤمن يأتيه شيء مثل الرَّين، يأتيه درجات، الغَيْن أحيانًا. قال النبي ﷺ: "إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَي" (رواه مسلم). الرسول ﷺ وهو سيد الخلق، يقول: "لَيُغَانُ عَلَي". والغَيْنُ: نوعٌ من الغفلة. والرَّينُ أعلى، والطبع والختم أعلى. فالرَّانُ يصيب أهل المعاصي، فالمؤمنين الذين يقعون في معاصٍ يصيبهم من هذا، لكن لا يصل إلى درجة الطبع إلا إذا خرج عن الإسلام وأصبح في جملة المنافقين أو الكفار، يكون ذلك.

أما الغين: في حديث النبي ﷺ قال: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ...» (رواه مسلم)، فإذا وقع في معصية نُكتت فيه نكتة سوداء، فإذا استمر زادت النكت السوداء حتى يصبح القلب أسود، وإذا تاب صُقل قلبه وزالت النكتة السوداء، فالمؤمن له نصيبٌ مما يصيب قلبه، لكن المؤمن العاصي من المؤمنين له نصيب على قدر معاصيه.

سؤال: قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، هل يمكن إطلاق مثل هذا على المؤمن العاصي الذي بسبب المعاصي لا يبصر الخير؟

الجواب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ﴾ هذه على درجات، قد يكون لأهل المعاصي، لا تعمى الأبصار وتعمى القلوب؛ لأنه يبصر. أُناسٌ من المؤمنين من أهل المعاصي، ممن يرتكبون المعاصي، يسمع المواعظ ويسمع التذكير ولا يتعظ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وهو يبصر على درجات، فأشدهم الكفار والمنافقون، ثم تأتي نفس الكلام السابق.

٩- وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ﴾؛ يريد: أنهم يُخَادِعُونَ المؤمنين بالله؛ فإذا خادعوا المؤمنين بالله: فكأنهم خادعوا الله. وخِدَاعُهُمْ إيّاهم، قولهم لهم إذا لقُوهم: ﴿قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: مَرَدَتِهِمْ؛ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:14] . وما يُخَادِعون إلا أنفسهم: لأن وَبَالَ هذه الخديعة وعاقبتها راجعة عليهم؛ وهم لا يَشْعُرُون.

الشرح

هذه الآية في المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا... ﴾ [البقرة: 8-9].

ما هي المخادعة؟ هي أن تأخذ الشيء أو تُوقع الإنسان أو تأخذ شيئًا منه من حيث لا يشعر، فتأتيه بخفية، بطريقة بحيث لا يشعر بك، ثم تخدعه، فتوقعه في الشيء أو تأخذ شيئًا منه بهذه الطريقة، هذا يسمى مخادعة، تخادع فلانًا، تخدعه أو تخادعه.

يقول هنا ابن قتيبة رحمه الله: (يريد: أنهم يُخَادِعُونَ المؤمنين) يخادعون الله؟ ما يستطيع الإنسان أن يخادع الله! الله مطّلعٌ على السر وأخفى، فكيف يخادعه؟ تخادع شخصًا لا يدري، يخفى عليه الشيء، أما الله فلا يخفى عليه شيء، فهم يخادعون المؤمنين، يخادعون الرسول ﷺ. فكأنما يقول ابن قتيبة: لما خادعوا المؤمنين فكأنما خادعوا الله.

قال: (وخِدَاعُهُمْ إيّاهم - أي مخادعة هؤلاء المنافقين للمؤمنين - قولهم لهم إذا لقُوهم) هذه المخادعة؛ أنه يأتي للمؤمن ويقول: أنا مؤمن وأنا معك، ونحن نجاهد، وهذه صدقة، وكذا... وهو في الداخل يختلف، في قلبه يختلف. فهذا معنى المخادعة، أنهم يخادعون. فسرها بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: 14]، أي مَرَدَتِهم.

إذا جاءت كلمة (الشيطان) أو (الشياطين) في القرآن فإن معناه: إبليس وأعوانه، مثل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: 268]، أي كلمة في القرآن (شيطان) معناها: إبليس.

وإن جاءت بصيغة الجمع، فمعناها: إبليس وأعوانه أو إبليس وذريته، مثل كلمة (الشياطين) جاءت بالجمع مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: 121]، هذا المراد به إبليس وأعوانه من شياطين الجن ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112].

والإنس فيهم شياطين، لكن هنا في هذه الآية المراد هم: رؤساء المنافقين. قال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: إلى رؤسائهم وكبراؤهم من أهل النفاق، إذا خلوا برؤسائهم من أهل النفاق، قالوا: إنا معكم. هذا المقصود بالشياطين هنا، وليس المراد به شياطين الجن، وإنما المراد به رؤساؤهم من مَرَدَتِهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14].

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ فيها قراءتان سبعيتان: ﴿وما يَخْدَعون﴾ و ﴿وما يُخَادِعون﴾ كلها صحيحة. وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فلما تقول (يُخادع)، أقوى من (يَخْدع)، وإن كان المعنى واحدًا.

١٠ - ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَيْ: شَكٌّ وَنِفَاقٌ. وَمِنْهُ يُقَالُ: فُلانٌ يُمَرِّضُ فِي الوَعْدِ وَالقَوْلِ، إِذَا كَانَ لا يُصَحِّحُهُ وَلا يُؤَكِّدُهُ.

الشرح

المرض في القرآن يأتي لثلاثة معانٍ:

* مرض الشبهات
* ومرض الشهوات
* والمرض الحقيقي

[المرض الحقيقي] المرض الذي يُخرج الإنسان عن الصحة، مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة: 184] هذا مرضٌ طبيعيٌّ، مرضُ الصحةِ، يعني يخرجه عن الاعتدال ويكون مريضًا، هذا معنى.

فهنا يقول ابن قتيبة: (فُلانٌ يُمَرِّضُ فِي الوَعْدِ وَالقَوْلِ، إِذَا كَانَ لا يُصَحِّحُهُ وَلا يُؤَكِّدُهُ) أي لا يظهر الوعد ولا يؤكد الوعد، يخرج عن الصحة. والمريض في بدنه، مرض الصحة هذا يخرج عن صحته إلى أن يكون معتلًا بمرض.

مرض الشهوات: أن يكون حبه للشهوات، حبه للفاحشة ونحوها، هذا يسمى "مريض مرض الشهوات"، وهذا يقع فيه المنافق ويقع فيه أيضًا ضعيف الإيمان، فنقول: هذا الرجل وإن كان مؤمنًا في قلبه لكن عنده مرض الشهوات، يحب الشهوات ويقع فيها، الفاحشة ونحوها. هذا مرض الشهوة.

وهناك مرض الشبهة: وهو أخطر شيء. مرض الشبهات: هذا الذي يكون عند المنافقين. وقد يقع من بعض المؤمنين، يشكك في الدين، يشكك في كذا، وهو لا يُقال إنه منافق، قد يكون عنده شيء من النفاق، وقد يكون يصلي أحيانًا، لكن عنده مرض شبهات. يبدأ يشكك في الدين، يقول لك: لماذا هذا كذا؟ ولماذا هذا كذا؟ ويشكك أحيانًا في اليوم الآخر، وأحيانًا يشكك في أشياء خطيرة قد تُخرج هذا من دائرة الإسلام إذا كانت في

أمور العقيدة، يشكك الإنسان في عذاب القبر ونعيمه، ويشكك في كذا... فهذا نسميه مرض الشبهات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في أول سورة آل عمران، الذي قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7]، هذا يسمى مرضٌ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المنافقون، ما هو مرضهم؟ مرض الشبهات. قال ابن قتيبة: (شَكٌّ وَنِفَاقٌ)، يشكون في أن الرسول ﷺ رسول، يشكون في أن القرآن قرآن، ويشكون في اليوم الآخر، يشكون في العذاب، في نعيم الجنة... هذا شك النفاق، هذا معنى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32] هذا شهوة، هذا مرض الشهوة.

سؤال: ﴿يخادعون﴾ مثل التي وردت في الحديث: «الحرب خدعة» (رواه البخاري ومسلم)؟

الجواب: نعم، هذه خِدعة مطلوبة أحيانًا، تخادع العدو لتخدعه، تخدع الإنسان بحيث إنك إذا كنت في الحروب ونحوها، أو مع العدو، أو [مع] الذي يريد أن ينتقم منك، تخدعه، فهذا جائز.

لكن الأصل في مخادعة المؤمنين، هذا لا يجوز، تخادع أخاك المسلم وهو على نيته معك، وقد أظهر المودة لك والمحبة، ثم تخدعه بحيث أنك تأخذ أشياء منه خِفْيَةً أو نحو ذلك، أو تجعله يتورط في قضايا أو نحو ذلك، هذه لا تجوز.

١٣ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ يعني: المسلمين؛ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾؟! أي: الجهلة ومنه يقال: سَفِه فلانٌ رأيَه؛ إذا جَهِله. ومنه قيل [للبَذَاء] : سَفَهٌ؛ لأنه جهْل.

الشرح

نلاحظ أن الإمام ابن قتيبة كتابه اسمه (غريب القرآن)، وهو يتتبع الألفاظ الغريبة ويبينها ويحللها ويكشف لك معناها، وهو لا يأتي على الآيات كلها، هذا أمر.

والأمر الثاني، إذا جاء بآيةٍ لا يفسرها لك كاملةً، يأخذ الكلمة الغريبة ويوضحها لك.

لما قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، وبيّن أن (الناس) هنا هم المسلمون. أي: ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أي: المسلمون. ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾؟ وصفوا المسلمين بالسفهاء.

ما معنى السفهاء؟ جمع سفيه. ما هو السفيه؟ قال المصنف رحمه الله: (الجَهَلَةُ ومنه يقال: سَفِهَ فُلانٌ رَأْيَهُ، إِذَا جَهِلَهُ) وأصل السَّفَهِ الخِفَّة، خفة العقل. يقال: تسفَّهت الريح الأشجار، إذا لعبت بها وأصبحت خفيفة، الريح تلعب بالأشجار، والأشجار تتحرك بخفة، هذا الأصل. والسفيه سُمِّيَ سفيهًا: لخفة عقله.

ويقابله ماذا؟ الرشيد. قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5]، ثم قال: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6] فالرشد كمال العقل. فإذا بلغ هذا الإنسان تقول: فلانٌ من الراشدين، كمال العقل، وضده السَّفَهُ.

فهنا يقول معنى السفه: الجهل؛ لأنهم يقولون: كيف آمنوا؟ هذا دليل على جهلهم، على عدم رشدهم، وعدم كمال عقولهم، هذا معناه. السفيه: ناقص العقل، السفيه: خفيف العقل.

١٥ - ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يجازيهم جزاء الاستهزاء.

ومثله قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:67]؛ أي جازاهم جزاء النسيان. وقد ذكرت هذا وأمثاله في كتاب "المشكل"

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يتمادى بهم، ويطيل لهم.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: في عُتُوِّهِمْ وتكبُّرهم. ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة 11] ؛ أي: علا.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يركبون رءُوسهم فلا يُبصرون. ومثله قوله:

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ؟ [الملك:22] يقال: رجل عَمِهٌ وعَامِهٌ؛ أي: جائِرٌ [عن الطريق]. وأنشد أبو عُبَيْدَةَ:

وَمَهْمَهٍ أَطْرَافُهُ فِي مَهْمِهِ ❊❊❊ أَعْمَى الهُدَى بالجاهِلِينَ العُمَّهِ

الشرح

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ الله يستهزئ؟ كيف يستهزئ الله؟

نقول: نعم. انظر، ابن قتيبة على عقيدة أهل السنة والجماعة لا يُؤَوِّل، لو ذهبت إلى بعض كتب التفسير التي هي على عقائد أخرى، كعقائد الأشاعرة أو المعتزلة، إذا جاءوا عند صفات الله سبحانه وتعالى يعطلونها أو يحرفونها، إما يعطلونها -أي يبطلون معناها وينقلونها إلى معنى آخر- أو يصرفونها أو يحرفونها لمعنى آخر. مثلما تقول: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، يقولون لك: استولى، استولى على الملك، العرش هو ملكه، استولى على ملكه. الله يقول: ﴿اسْتَوَىٰ﴾، لم يقل: "استولى". (استولى) لها معنى و(استوى) لها معنى. القرآن يتكلم بلسان عربي فصيح، كيف تقول: "استوى" أي "استولى"؟ والإمام مالك رحمه الله لما سُئل عن الاستواء قال: (الاستواء معلوم)، كيف تقول: "استولى"؟ هذا لا يصح، هذا يسمى تحريفًا، تحريف الكلم عن مواضعه أو تغيير الكلام.

وأحيانًا يعطلون الصفة، مثلًا: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] قالوا: يحبهم أي: يثيبهم. يثيبهم غير المحبة، في القرآن "يثيبهم" موجودة. الإثابة والجزاء شيء، والمحبة شيء. فالله يقول: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ يجب علينا أن نثبت صفة المحبة على الوجه اللائق، على الوجه الذي يليق بالله سبحانه وتعالى، لا يلزم من ذلك التشبيه.

ما الذي جعلهم يفعلون هذا الشيء؟ هم فرارًا من التشبيه. يقولون: لو قلنا إن الله يحب والعبد يحب، لشبهنا الخالق بالمخلوق.

نقول: فإذا أخذتم بهذه القاعدة الباطلة الساقطة، انجرّت لكم أشياء كثيرة. هل الله موجود؟ المخلوق موجود، إذًا شبهتم الخالق بالمخلوق! إما أن تقول: الله غير موجود، وأنتم تعبدون شيئًا معدومًا، أو أن تقول: موجود، ثم تقول: وجوده غير وجود المخلوق، هذا وجوده، وهذا وجوده.

هل الله حي أم ميت؟ يقولون: حي. طيب، والإنسان؟ حي، والحيوان حي. إذًا شبهت! وهم الآن لا يستطيعون أن يجيبوك. عليك أن تُثبت فتقول: لا، الله له حياة أخرى.

وأيضًا المحبة محبة أخرى، والاستواء والنزول وهكذا في سائر الصفات، سواء قلنا الصفات الذاتية -كالوجه واليدين والكلام-، أو الصفات الفعلية (الكلام أيضًا صفة ذاتية فعلية)، أو الصفات العليا -كالنزول والاستواء-، أو الصفات الاختيارية (مثل الغضب والمحبة)، هذا يجب عليك أن تُثبت لله ما أثبته هو لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ.

فهنا ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، ابن قتيبة على عقيدة أهل السنة والجماعة لا يُؤَوِّل، ويقول: (أي يجازيهم جزاء الاستهزاء) هذا معنى الاستهزاء، يستهزئ الله بهم: أي أنه يتركهم يستهزئون، ثم يجازيهم على استهزائهم هذا.

قال المصنف رحمه الله: (وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾)، النسيان في حق الله -إذا جاء في حق الله- معناه الترك. والنسيان في حق المخلوق أحيانًا يُطلق ويُراد به: الترك. تقول: نسيت فلانًا، أي: تركته. وأحيانًا الغفلة، تقول: نسيت، أي: غفلت، ذهلت عن الشيء. الذهول والغفلة لا يوصف الله بهما، فلا تقول: نسي الله، أي: ذهل عنهم أو غفل عنهم والله يقول: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74] لا يجوز.

قال ابن قتيبة: (ومثله قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾) أي لما هم نسوا حق الله وتركوه تركهم الله، تركهم في العذاب. لما في الدنيا تركوا أوامر الله وتركوا الواجبات ولم يعملوا بها، تركهم الله. وهنا لما استهزأوا بالدين واستهزأوا بالشرع واستهزأوا بالمسلمين، استهزأ الله بهم. كيف استهزأ الله بهم؟ جازاهم جزاءً يستحقونه مقابل هذا الاستهزاء.

قال المصنف رحمه الله: (أي جازاهم جزاء النسيان) وجازاهم جزاء الاستهزاء. يقول: (وقد ذكرت هذا وأمثاله في كتاب "المشكل").

ما معنى (يمدهم) في قوله جَلَّجَلَالُهُ ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؟

قال المصنف رحمه الله: (﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يتمادى بهم، ويطيل لهم)، يمدهم: يعطيهم حتى يستمروا. وهذا أشد في العقوبة، يمد الله سبحانه وتعالى لهم، ويستمرون في ذلك، ويمد لهم أحيانًا في أعمارهم، تطول أعمارهم وهم في طغيان، ويجمعون من السيئات. في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178] فيُملي هنا: يمدهم، يطيل لهم في طغيانهم.

(الطغيان) أصل "طغى": فعلٌ بمعنى زاد وعلا، مثل ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة: 11] أي: زاد وعلا. فهذا صاحب المعصية لا يزال في المعاصي حتى يطغى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: 6] في عتوه ومعاصيه وتكبره.

﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العَمَهُ غير العَمَى، العَمَى: عمى البصر، تقول: فلان أعمى، وهو عمى البصر وعمى البصيرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، والعَمَهُ أشد من العَمَى، (العَمَهُ): يعني هو عمى وزيادة، فتقول: فلان يَعْمَهُ، أي قد لا يبصر الحق ويزيد في طغيانه ويستمر، فهذا أشد. يقول (يعمهون) أي: يركبون رؤوسهم فلا يبصرون.

(يقال: رجل عَمِهٌ وعَامِهٌ؛ أي: جائِرٌ)أي لا يزال في ضلاله ويستمر ولا يبصر أبدًا، هذا أشد. قال تعالى في قوم نوح: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64، يونس: 73، الشعراء: 116]، أي: عمى وزيادة على ذلك أيضًا العمه.

سؤال: هل يعني الاستهزاء هنا من باب المشاكلة؟

الجواب: لا، لا يقال في حق الله مشاكلة فهذا تأويل، وهذا مذهب المؤوِّلة، هم إذا أرادوا أن ينفوا عن الله أي صفة قالوا: من باب المشاكلة استهزئ بك لأنك تستهزئ بي، أنا لا استهزئ لكن أرد على الاستهزاء.

مثل: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]، قالوا: هذا من باب المشاكلة، وإلا فالله لا يوصف بأن له نفسًا. نقول: لا، الله يقول "نفسي"، فكيف لا يُوصف بها؟ فالمشاكلة تجوز في لغة العرب، لكن، هل هذا في حق الله؟ لا.

وفي لغة العرب موجودة المشاكلة، مثل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194] أنا ما اعتديتُ عليه ابتداءً، لكن سُمِّيَ فعلي اعتداءً لأنه في مقابل الاعتداء، هذه تسمى مشاكلة.

١٦- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: استبدلوا. وأصل هذا: أن من اشترى شيئًا بشيء، فقد استبدل منه.

﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ والتجارةُ لا تَربح، وإنما يُربح فيها. وهذا على المجاز.

ومثله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾ [محمد:21] ؛ وإنما يُعزم عليه. وقد ذكرت هذا وأشباهه في كتاب "المشكل".

الشرح

نهاية الكلام عن المنافقين في هذه الآية، قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أخذوا الضلالة، أي: الثمن، و(المثمن) أنت معك ثمنٌ -دراهم مثلًا- وتريد أن تشتري شيئًا مُثَمَّنًا، أي سلعة. فالثمن هنا في قوله: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: الثمن هو الهدى، والمُثَمَّن هو الضلالة. أخذوا الضلالة ودفعوا المال الذي هو الهدى، هو في الأصل معهم الهدى، هم الأصل أنهم على الفطرة والإيمان معهم، لكنهم خرجوا عن الفطرة وأخذوا الضلالة ودفعوا مقابل هذه الضلالة هذا الهدى، استبدلوا.

يقول ابن قتيبة: (﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي: استبدلوا) لأنك أنت تذهب إلى المحل التجاري فتستبدل المال -النقد- بشيء عيني، تأخذ عينًا بالنقد، هذا استبدال.

الأصل في البيع هو مبادلة مال بمال. قال المصنف رحمه الله: (وأصل هذا: أن من اشترى شيئا بشيء، فقد استبدل منه) هذه مبادلة، قد تكون المبادلة عينًا بعين، وأحيانًا عينًا بمال مثلًا أو بدين، فتأتي إلى هذا الشخص وتقول: هذه سلعة بسلعة، أو هذا مال بمال أو نقد بنقد أو نحو ذلك.

قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ قال المصنف رحمه الله: (والتجارةُ لا تَربح، وإنما يُربح فيها) ما معنى التجارة؟ هي المعاوضات. الدخول في المعاوضات يسمى تجارة، متاجرة، بحيث إنك تكسب فتصبح غنيًا، تصبح تاجرًا، هذه التجارة.

قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾. قال ابن قتيبة: (والتجارةُ لا تَربح، وإنما يُربح فيها) فكيف ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾؟ الأصل أن هذا أسلوب عربي، وهو يقول: (وهذا على المجاز) وهذا يعود إلى مسألة المجاز.

سؤال: وهل يجوز أن نقول بالمجاز أو لا؟

أقول: هذه تكلمنا عنها سابقًا (هل القرآن فيه مجاز؟) وقلنا إن العلماء اختلفوا في مسألة المجاز، وممن يمنع المجاز: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، وأيضًا الإمام الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ، له كتاب اسمه "منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز". ألّف الإمام الشنقيطي، صاحب "أضواء البيان"، كتابًا اسمه "منع جواز المجاز"، وردّ على كل أدلتهم وأبطلها. وابن القيم في كتابه "الصواعق المرسلة" قال: كسر الطاغوت المسمى بالمجاز، ورده، لماذا؟ لأنهم من خلال المجاز دخلوا في تأويل الصفات. فقالوا: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22]، أي: جاء أمره، هذا مجاز، كيف جاء أمره؟ قالوا: جاء عذابه، جاء أمره، جاءت ملائكته، لا يأتي الله. فأوّلوا، ودخلوا من باب المجاز، ولذلك منع كثير من العلماء المجاز بسبب هذا الشيء.

ثم إنهم قالوا إن المجاز لم يُعرف في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا في لغة العرب، ولم يُنقل إلا بعد القرون المفضلة، عندما ظهرت البدع وظهرت الفرق كالمعتزلة والأشاعرة ظهر المجاز، وإلا فأول الأمر لم يكن هناك مجاز.

قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82] فكيف تقولون لا يوجد مجاز في القرآن؟

نقول: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ هذا أسلوب عربي. العربي أحيانًا في لغة العرب ينادي الأطلال وينادي البيوت ونحو ذلك، هذا أسلوب عربي كأنه يخاطب الناس، ليس فيه شيء، فهذا أسلوب عربي استخدمه العرب بهذه الطريقة، لكن لا يلزم أن نقول: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي: اسأل أهل القرية.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ الأصل أن يربح الشخص لا التجارة، فلماذا قال الله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ ولم يقل: (فما ربحوا)؟ نقول: لأن هذه الخسارة التي وقعت في الدين أشد من خسارتهم هم، ولذلك نسب أو أضاف الخسارة أو عدم الربح إلى التجارة؛ لأن هذه تجارة في الشرع، تجارة بيع وشراء في الدين: الهدى والضلال. فلما كانت هذه خسارة عظيمة، قال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ وهم أيضًا من باب أولى، إذا خسرت تجارتهم ولم تربح، فهم لم يربحوا، ولذلك قال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: لا هم اهتدوا، ولا التجارة التي باعوا فيها وأخذوا الضلالة نجحوا فيها، فهم خسروا هذا وهذا.

١٧- و ﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: أوْقَدَها.

١٩- و (الصَّيِّبُ) المطر؛ "فَيْعِل" من "صَابَ يَصُوبُ": إذا نزل من السماء.

٢٠- ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يَذْهَب بها. وأصل الاختطاف: [الاستلاب]؛ يقال: اختطف الذئب الشاة من الغنم. ومنه يقال لما يخرج به الدَّلْوُ: خُطَّافٌ؛ لأنه يَخْتَطِفُ ما عَلِقَ به. قال النَّابِغَةُ:

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ *** تَمُدُّ بها أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ

والحُجْنُ: المُتَعَقِّفَة.

وهذا مثل ضربه الله للمنافقين؛ وقد ذَكرته في كتاب "المشكل" وبينته.

الشرح

﴿الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ معنى استوقد: أوقدها، أوقد النار. كيف استوقد؟ أوقد أي: يشعل النار.

ما الفرق بين (استوقد) و(أوقد)؟

نقول دائمًا عندنا قاعدة لغوية وهي أن: الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، عندما تقول (استوقد) أشد من (أوقد). مثلًا: عندما تقول: لا تقرب هذا الشيء، وأقول لك: لا تقترب، (لا تقترب) أقوى من (لا تقرب)، ومثله أخرج واستخرج، أوقد واستوقد... وإلا فالمعنى من الإيقاد وهو الإشعال: أشعل نارًا، ولكن هو أراد أن يبين لك أن (استوقد) هي نفسها (أوقد) لكنها أشد وأبلغ.

قال: (الصيب) المطر. لماذا سمي المطر بالصيب؟ لأنه يصوب الأرض بقوة، وينزل على الأرض بقوة، والعرب يسمون المطر بأسماء كثيرة، يسمونه بالغيث ﴿كمثل غيث﴾، ويسمونه بالصيب، ويسمونه بالطل والوابل، ويسمونه بالحياة؛ لأنه يحيي الأرض... أسماء كثيرة، ودائمًا إذا كان للشيء أسماء كثيرة يدل على عظمته وأهميته.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، في آية أخرى قال: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور:43] سنا برقه أي: لمعة البرق، والبرق ويكاد يخطف أبصارهم.

قال هنا (﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يَذْهَب بها): يذهب بها. إن أصل الاختطاف هو أخذ الشيء بسرعة، اختطفت الشيء اختطافًا، يقولون: اختطف الذئب الشاه إذا أخذها بسرعة، فالبرق سريع ولمعته سريعة، وبسرعته يأخذ البصر.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾ كاد: فعل من أفعال المقاربة، يعني يقترب ، إذا جاءت (كاد) مثبتة فمعناها النفي، وإذا جاءت منفية فمعناها الإثبات، ما معنى هذا الكلام؟ يعني إذا جاءت مثبتة مثل هذه الآية: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ﴾ يعني: لا يخطف -ممكن يخطف وممكن لا يخطف-، لكن عندما يقول: ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ ﴾ [النور:40]، أو مثلًا: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:71] معناها أنهم فعلوا، هذه القاعدة أيضًا في (كاد): إذا كانت منفية تفيد الإثبات، وإذا كانت مثبتة تفيد النفي.

٢٢- ﴿أَنْدَادًا﴾ أي: شركاء أمثالًا. يقال: هذا نِدُّ هذا ونَدِيدُهُ.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعقِلون.

٢٣- ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ أي: ادعوهم لِيُعَاوِنُوكم على سورةٍ مثلِه. ومعنى الدعاء هاهنا الاستغاثة. ومنه دعاء الجاهلية ودعوى الجاهلية؛ وهو قولهم: يا آلَ فلان؛ إنما هو استغاثتهم.

وشهداؤهم من دون الله: آلهتهم؛ سُموا بذلك لأنهم يشهدونهم ويحضرونهم.

الشرح

(﴿أَنْدَادًا﴾) الأنداد: جمع ند، والأنداد عند العرب من الكلمات التي تسمى بالأضداد، مثل كلمة (القرء) التي تطلق على الحيض وعلى الطهر، هذا ضد هذا، وتقول فلان ند فلان: يعني مثيل أو شبيه له، هؤلاء أنداد؛ لأنهم كلهم في عمر واحد وقوة واحدة. وتقول مرة أخرى هذا ند لهذا، يعني هذا لا يريد هذا، لا يجتمعان. فالأصنام آلهة مع الله لا تجتمع، لا يمكن أن يعبد الإنسان الأصنام والله، فإذا عبد الأصنام أشرك وخرج عن التوحيد، وإذا عبد الله ترك الأصنام، وكلمة (الأنداد) هذه يحتمل أن تكون بمعنى: الأمثال والأشباه والنظراء، ويحتمل أن تكون بمعنى: الأضداد -أي هذا ند هذا وهذا ضد هذا-، لذلك قال ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾.

أيهما أصح في الآية، هل بمعنى النظراء والشبهاء؟ أم الأضداد المتقابلين؟

نقول : كلاهما صحيح، لأن الأصنام والآلهة التي تعبد من دون الله هم جعلوها مساوية لله في العبادة، جعلوها متشابهة وفي نفس الوقت هي أضداد له.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ (وادعوا) قال: استغيثوا واستعينوا بشهدائكم. من هم الشهداء؟ هي الآلهة المعبودة من دون الله، أي يقول: اجتمعوا أنتم جميعًا وأتوا بسورة، وأيضًا ادعوا الآلهة التي تزعمون أنها تنفعكم وقت الإغاثة والاستعانة، ادعوها، ولن تستطيعوا أن تأتوا بسورة من مثله.

قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ لا الآن ولا في المستقبل، لن يستطيع أحد في أي زمن أن يأتي بسورة واحدة.

٢٤- ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ أي حطَبُها. والوَقود: الحطب؛ بفتح الواو. والوُقود بضمها: تَوَقُّدُها.

﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قال المفسرون: حجارة الكبريت.

الشرح

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ ما معنى الوقود؟ قال: الحطب، يعني هؤلاء أصبحوا مادة للنار، توقد بهؤلاء. كأنهم حطب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:15] فهذه المادة -الناس والحجارة- هي مادة الاشتعال في نار جهنم.

ما الفرق بين (الوَقود) بالفتح و(الوُقود) بالضم؟ ومثله الوَضوء والوُضوء. يقول: إذا فتحت الأول (وَقود) فهي المادة أو الشيء، وإذا ضممتها (وُقود) فهو الفعل. عندما تقول: "هذا وَقود النار" أي: المادة التي تشتعل بها. وإذا قلت "وُقود النار" يعني النار تشتغل. البترول الذي يؤخذ منه البنزين للسيارات يسمى وَقودًا، لأنه مادة تشعل السيارة وتحركها

(الوَضوء) بالفتح هو الماء، و(الوُضوء) بالضم هو العمل.

ما هي الحجارة؟ قال: (حجارة الكبريت) هي نوع من الحجارة أو الصخور، قالوا إن الحجارة الكبريتية أشد شيء اشتعالًا، وهي حجارة حمراء شديدة الحمرة توجد على وجه الأرض، ولكنها نادرة جدًا حتى يضرب بها المثل في الندرة، كما يقال: فلان كأنه حجارة كبريت، أي: ما رأيناه أبدًا. وهي موجودة، حتى قال بعضهم إنها موجودة في بلاد الصين على هضبة التبت. وهذا التفسير هو تفسير ابن مسعود رضي الله عنه.

٢٥- ﴿جَنَّاتٍ﴾ بساتين.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ذَهَبَ إلى شجرِها لا إلى أرضها. لأن الأنهار تجري تحت الشجر.

الشرح

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ قال: الجنات جمع جنة، وهي البساتين.

لو سألك واحد: هل هي جنة واحدة أم جنات؟ الله يقول: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران:133]، ويقول ﴿جَنَّاتٍ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46].

فهل هي جنة أم جنتان أم جنات؟

نقول هي جنة واحدة في مقابل النار، وهذه الجنة تتضمن جنات داخلها؛ لأن البساتين تكون في الداخل، إحدى الجنات فيها جنان، فالجنة جنس كامل يندرج تحته أجناس وأنواع.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار الجنة ليست محفورة، ليس لها أخاديد، بل تجري على سطح أرض الجنة، هذا ما تتميز به الاخرة، هذا أمر...

الأمر الثاني، قال هذا المؤلف: (ذَهَبَ إلى شجرِها لا إلى أرضها. لأن الأنهار تجري تحت الشجر) والأنهار تكون لبن وعسل وماء وخمر لأن الأنهار تجري تحت الشجر.

وفي آية أخرى في سورة الأعراف ويونس والكهف قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ (تحتهم) أي: تحت المؤمنين، وهذا من كمال النعيم.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كأنّه ذلك لِشَبَهِه به.

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضًا في المناظر دون الطعوم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض والغائط والبول وأقذار بني آدم.

الشرح

هذا من تمام النعيم ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ كلما تفيد التكرار ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل ماذا؟ فيه خلاف، بعض المفسرين يقول: "هذا الذي رزقناه في الدنيا"، إذا أتى بالفواكه قالوا: "تعرفها في الدنيا". هذا رأي.

الرأي الثاني: ﴿من قبل﴾ أي من قبل قليل، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ لم ذكر "قبل قليل"، يعني كله يعود إلى نعيم الجنة. المؤلف قال: (﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي يشبه بعضه بعضًا في المناظر دون الطعوم) الذي رزقنا من قبل أي: كانه ذاك يشبه به، أي لم يوضح، فيحتمل أنه يقصد الفاكهة التي كانوا يأكلونها قبل قليل، ويحتمل أنه في الدنيا، وكلاهما ممكن الأسماء هي نفسها، لكن يختلف الشكل والطعم واللون، لا يمكن أن يساوي الدنيا.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ ما المراد بالأزواج؟ الحور العين أم أزواج الدنيا؟ أم الجميع؟ الجميع (مطهرة) من الحيض والغائط والبول وأقذار بني آدم، فليسوا كأزواج الدنيا، المرأة في الدنيا قد يأتيها مثل هذه الأشياء، لكن في الآخرة هي مطهرة.

٢٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ لما ضرب الله المثل بالعنكبوت في سورة العنكبوت، وبالذباب في سورة الحج - قالت اليهود: ما هذه الأمثال التي لا تليق بالله عز وجل؟! فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ من الذباب والعنكبوت.

وكَان أبو عبيدة [رحمه الله] يذهب إلى أن "فوق" هاهنا بمعنى "دون" على ما بينا في كتاب "المشكل"

فقالت اليهود: ما أراد الله بمثل يُنكره الناسُ فَيَضِلُّ به فريق ويَهْتدي به فريق؟ قال الله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ﴾.

٢٧- ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ يريد أن الله سبحانه أمرهم بأمور فقبلوها عنهُ، وذلك أخذ الميثاق عليهم والعهد إليهم. ونقضهم ذلك: نَبْذُهم إيّاه بعدَ القبول وتركهم العمل به.

الشرح

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ هذا ليس سبب النزول، سبب النزول أن اليهود -وفي بعض الروايات المشركون- قالوا: ما هذه الأمثال التي لا تليق بالله؟. و المحقق قال إنه لم يثبت سبب نزول معين. وبعضهم يقول إن الآية عائدة على الأمثال التي مرت قبل قليل (كالذي استوقد نارا) و (أو كصيب)، ضرب الله مثلًا بالمنافقين إما بمثل ناري أو مثل مائي.

بعضهم يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا﴾ لما ضرب للمنافقين المثل الناري أو المائي.

وبعضهم يقول: لا، لما ضرب الله مثلًا للعنكبوت في سورة العنكبوت والذباب في سورة الحج قالوا كيف الله عزّ وجل يضرب مثل هذه الأمثال -الحشرات- فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾.

فأسباب النزول لها حكم الرفع، فهي كالأحاديث المرفوعة، فإذا قال الصحابي: نزلت في كذا، وثبت هذا بسند صحيح يأخذ حكم الرفع، فلذلك يحتاط فيها، لأنك لو قلت أنها نزلت في هؤلاء اليهود الذين استهزأوا وهي لم تنزل فيهم! لا يمكن أن نقول في شيء لم يثبت. ولذلك أجاز العلماء التفسير بالرأي – الرأي الممدوح المحمود- ذا كان له قدرة. أيضًا الألفاظ الغريبة في القرآن لا يجتهد فيها، بل مردها إلى النقل من أهل اللغة - الصحابة والتابعين- أو لغة العرب وشعرائها -من دواوينهم-.

قال الله جَلَّجَلَالُهُ: إن الله لا يستحيي في هذا المجال، وقد يستحيي في مجال آخر، كما في آية الأحزاب ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب:53] لكن صفة الحياء ثابتة لله كما تثبت له المحبة والغضب، في الحديث «أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ بيْنَما هو جَالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ إذْ أقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنَانِ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وذَهَبَ واحِدٌ، قالَ: فَوَقَفَا علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ ، فأمَّا أحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمَّا الثَّالِثُ: فأدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ قالَ: ألَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أمَّا أحَدُهُمْ فأوَى إلى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ منه، وأَمَّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه» (4).

مسألة: انتشر عند المتحدثين عن الإعجاز العلمي في القرآن أن البعوضة يعيش فوقها كائنات صغيرة، فهل من الممكن أن تكون هي المقصودة في الآية؟

الجواب: هذا ما يسمى بالإعجاز العلمي صعب الدخول فيه، وليس لكل أحد التكلم فيه، والكلام فيه طويل، والصحيح أن القرآن معجز إعجازًا علميًا وتشريعيًا وبلاغيًا ولغويًا... من كل وجوه الإعجاز، لكن قضية أنك نأتي بحشرة وتقول بأن فوقها حشرة وما إلى ذلك، لو فرضنا أن بعد الدراسات تبين أن هذا الكلام غير صحيح ونحن أتينا بالآية، فينتقدونك أنك استدللت بآية على نظرية باطلة، قد تكتشف أنت اكتشافًا ومع غيرك يتبين بطلانها، فلا ننزل هذه الأشياء على القرآن، أو ننزل القرآن عليها، فهذا غلط، إلا بعد أن تكون وصلت لدرجة اليقين. مثلًا لو يسألك أحد: كيف ينتقل اللقاح من شجرة إلى شجرة؟ وقد ثبت الآن أن الرياح والحشرات تلقح الأشجار، فتقول: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر:22] فهذا شيء ثبت يقينًا فنقول به.

لماذا اختار الله البعوض والذباب والعنكبوت؟ أنت لما تقرأ عنها ستجد عوالمًا وأشكالًا وأنواعًا كثيرة لا حد لها، البعوضة تتسلط على الإنسان، وعندها مادة قويه فتسحب الدم وتضع مكانه مادة تكون سببًا في

(4) لراوي : أبو واقد الليثي | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري

الملاريا، كيف تفعل هذا الشيء الكثير؟ وكذلك العنكبوت عالم آخر بأشكاله وألوانه، العناكب البحرية والسامة وغير السامة... هذه مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى (توفي ٢١٠هـ) صاحب كتاب مجاز القرآن: إن فوقها هنا بمعنى (دونها)، أي ما هو أصغر من البعوضة.

لما قال: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ ما المقصد من ضرب الأمثال؟ قال: يضل من يتقبل ومن لا يتقبل من يرد ومن لا يأخذ، قال يضل به ويهدي به، وما يضل به إلا الفاسقين، لماذا قال إلا الفاسقين؟ لتعرف أن الله سبحانه وتعالى لا يبتدئ الإنسان بالضلال، تجد الإنسان هو السبب لذلك قال: ما يضل إلا الفاسق، الذي فسق هو الذي يضله، أما الذي اهتدى فيزيده الله هدى، الذي أعرض في الحديث هو الذي أعرض، والذي آوى آواه الله، الذي أضله الله كان فاسقًا ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:5] من هم الفاسقون؟

قال: من صفاتهم أنهم ﴿ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ (يريد أن الله سبحانه أمرهم بأمور فقبلوها عنهُ) الذين ينقضون عهد الله، أي: هم أخذوا العهد، لو ما أخذوه ما نقضوه، هم أخذوا العهد وتقبلوه ثم نقضوه

قال: (يريد أن الله سبحانه أمرهم بأمور فقبلوها) أخذوا العهد وكذلك أخذ الميثاق عليهم، والعهد إليهم ونقضهم ذلك نبذهم إياه بعد القبول وتركهم الامر.

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ يعني نطفا في الأرحام.

وكلّ شيء فارق الجسد من شعر أو ظفر أو نطفة فهو ميتة.

﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام وفي الدنيا.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في البعث. ومثله قوله حكاية عنهم:

﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] فالميتة: الأولى إخراج النطفة وهي حية من الرجل، فإذا صارت في الرحم فهي ميتة، فتلك الإماتة الأولى. ثم يحييها في الرحم وفي الدنيا، ثم يميتها ثم يحييها يوم القيامة.

الشرح

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28]. قال (ابن قتيبة): (أمواتًا يعني نُطَفًا). النطفة ليس فيها حياة، نطفًا في الأرحام (وكل شيء فارق الجسد من شعر أو ظفر أو نطفة فهو ميتة).

(﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام)، يعني: النطفة تتحول إلى علقة ثم مضغة، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيها (الروح) فتكون حية في الأرحام.

(﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في البعث) الأرحام هذه الحياة الأولى، ثم الخروج إلى الدنيا، أي: الميتة الأولى النطفة، ثم الحياة بعد النطفة، حياة في الرحم ثم في الدنيا، ثم الموت الثاني، ثم الحياة بعد الموت في البعث. (كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: 11])، إلى آخر ما ذكر (من تفسيره).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ استفهام إنكاري من الله سبحانه وتعالى، يقول: كيف تكفرون بالله والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجدكم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم؟ فلا وجه للكفر والإنكار لألوهية الله.

٢٩- ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ عمد لها. وكلّ من كان يعمل عملا فتركه بفراغ أو غير فراغ وعمد لغيره، فقد استوى له واستوى إليه.

وقوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ذهب إلى السماوات السبع.

الشرح

(استوى) استوى في لغة العرب لها ثلاثة معانٍ، أو قد يكون أكثر؛ استوى قد يكون لازمًا لا يتعدى. تقول: استوى الزرع: يعني نضج. ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [يوسف: 14، القصص: 14] أي: نضج واكتمل؛ اكتمل في عقله، هذا نسميه الاكتمال والنضج والاستواء.

أحيانًا يتعدى استوى بـ "على"، وأحيانًا يتعدى بـ "إلى". إذا تعدى بـ "على" فمعناه: الاستقرار، الصعود والاستقرار، كقوله تعالى: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54] ثم: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: 13]، أي الدواب. "استوى على العرش" و"استوى على ظهوره"، هذا نسميه تعدى بـ "على"، معناه: الاستقرار، الصعود والاستقرار.

ثم الاستواء إذا تعدى بـ "إلى"، مثل هذه الآية، فتفسرها بأي شيء؟ نقول: قَصَدَ وعَمَدَ. المؤلف قال: (عمد لها). ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ [البقرة: 29]، يعني قصد إلى السماء وعَمَد إليها، إذا تعدى بـ "إلى".

﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: 29] لماذا قال: "فسواهن" ولم يقل "فسواها"؟ لماذا جاء بصيغة الجمع؟ يقول: ﴿اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾ واحدة، وهي مؤنث "السماء"، كقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1] مؤنث، و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] هي واحدة، فلماذا قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ بصيغة الجمع ولم يقل "فسواها" حتى يتطابق الإفراد مع الإفراد؟ هو جاء بالمفرد ثم جاء بالجمع، لأن السماء هنا المراد بها الجنس، ليست سماء واحدة حتى نقول مفرد. مثل قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: 18]، "منفطر" مذكر، وهي "السماء" مؤنث، فيجوز تذكيره وتأنيثه وينظر فيه، مثل هذه الآية، قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ﴾، أي إلى جنس السماء؛ فسواهن.

٣٠- وقوله: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ أراد: وقال ربك للملائكة. و «إذ» تزاد والمعنى إلقاؤها على ما بينت في كتاب «المشكل».

﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها﴾ يرى أهل النظر من أصحاب اللغة: أن الله جل وعزّ قال: إني جاعل في الأرض خليفة يفعل ولده كذا ويفعلون كذا. فقالت: الملائكة: أتجعل فيها من يفعل هذه الأفاعيل؟ ولولا ذلك ما علمت الملائكة في وقت الخطاب أن خليفة الله يفعل ذلك. فاختصر الله الكلام على ما بينت في كتاب «المشكل».

الشرح

هنا ذكر عدة أشياء، الأول قال: إنّ («إذ» تزاد والمعنى إلقاؤها) أو يستغنى عنها، أو يؤتى بها للتأكيد؛ حتى لا نقول زيادة، أو استغناء، نقول: يؤتى بها للتأكيد.

قال: ﴿ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: 30] "إذ": ظرفية للزمان الماضي، و"إذا": للزمان الحالي والمستقبل: جئتك إذا طلعت الشمس، لا تقول: إذ طلعت الشمس. وزرتك إذ جاءك زيد ـ يعني في الماضي ـ.

"إذ" لابد أن تكون متعلقة، لأن الظرف لازم أن يتعلق بفعل، تقديره "واذكر" - واذكر إذ قال - وذكرت كثيرًا في القرآن، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [البقرة: 126]، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ [الكهف: 60]، فتكون متعلقة، يعني "واذكر إذ": واذكر زمن وقت إذ قال.

يقول (ابن قتيبة) من الممكن الاستغناء عنها (القاؤها على ما بينت في كتاب «المشكل»)، أي من الممكن أن تقول: وقال ربك خبر، يعني: زمن إذ قال ربك، و "الزمن" معروف لا يحتاج أن نأتي به، لو حذفته نحن نعرف أنه يكون المعنى: وقال ربك، لأنه خبر من الله؛ هذا على رأي، والرأي الثاني أنها متعلقة بالزمن الماضي تكون على ظاهرها.

الأمر الثاني: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ [البقرة: 30]، كيف عرفت الملائكة أن هذا الخلق الجديد أنه سيفسد ويسفك الدماء؟ بعض المفسرين يقول: لأنه كان قبلهم الجن، وكانوا يقتتلون ويسفكون الدماء، فخشيت الملائكة أنه إذا جاءت ذرية آدم ستفعل ما فعل هؤلاء؛ هذا رأي.

والرأي الثاني الذي ذكره هنا، أن الله أخبرهم، لكنه حذف هنا؛ أخبرهم بأن هذا الخليفة سيكون له أولاد سيفعلون هذه الأفعال، هذا ممكن، لكن هذا الذي ذكره يحتاج إلى دليل؛ لأنه أمر غيبي، حتى الذين قالوا إن الجن (أفسدوا فيها)، لكن هذا يحتمل، يحتمل هذا ويحتمل هذا، الله أعلم.

هنا نقطة مهمة ذكرها بعض المفسرين، ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ يقولون: يعني فهمت الملائكة أن السفك - سفك الدماء - والقتل لن يكون في الجنة، وفهمت الملائكة أن آدم سيهبط، قبل أن يحصل ما يحصل من معصيته وأكل الثمرة أنه سيهبط، كيف عرفوا الملائكة؟ من كلمة "في الأرض" ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، كيف هو خلقه في الجنة ثم يقول: إني جاعل في الأرض؟ يعني معناه أنه سينزل، سينزل إلى الأرض. هذه ذكرها بعض العلماء، استنبطها من كلمة الأرض.

٣١- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها﴾ يريد أسماء ما خلق في الأرض، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ أي عرض أعيان الخلق عليهم ﴿فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ﴾

٣٥- ﴿وَكُلا مِنْها رَغَداً﴾ أي رزقًا واسعًا كثيرًا. يقال: أرغد فلان إذا صار في خصب وسعة.

الشرح

يقول: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ﴾ [البقرة: 31]. الله سبحانه وتعالى كرم آدم في قصته في سورة البقرة لأمرين:

كرمه أولًا: بالعلم وهذا أعظم.

ثم كرمه بالسجود: بسجود الملائكة، سجود تحية وليس سجود عبادة.

فحصل التشريف لآدم من وجهين: العلم والسجود. والعلم أشرف من السجود. ولذلك الإنسان يحرص على العلم والتعلم ليرتفع ويرتقي؛ وإذا لم يتعلم بقي على جهله.

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ﴾ ما هي الأسماء؟ قال (ابن قتيبة): (أسماء ما خلق في الأرض)، أسماء الأشياء كلها، ما ترك شيئًا؛ لأنه قال: "الأسماء" بألف ولام، ثم جاء بأي شيء؟ بـ "كلها"؛ "كل" هذا أسلوب تأكيد، وهو صيغة من صيغ العموم، فجاء العموم من وجهين (بأل وكل).

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ [البقرة: 31] لماذا لم يقل عرضها؟ الأسماء مؤنث، "عرض الأسماء"، لماذا قال: عرضهم؟ الأعيان، ما عرض الأسماء، وعلمه الأسماء ثم عرض الأشياء - الأعيان -، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: القصعة والقصيعة (يعني القدر الصغير والكبير) عرض هذه الأشياء أمامهم، أمام الملائكة. قال: ما اسم هذا؟ ما اسم هذا؟ ما عرفت الملائكة، ثم عرض على آدم فأجاب.

﴿فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ﴾ [البقرة: 31] بعدها: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [البقرة: 35].

لما قال: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: 34] قال بعدها: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: 35]، ما معنى "رغدًا"؟ قال [ابن قتيبة]: (رزقا واسعا كثيرًا)؛ هو الرزق الواسع الكثير.

٣٦- ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ من الزلل بمعنى استزلّهما، يقول: زلّ فلان وأزللته. ومن قرأ: فأزالهما أراد نحّاهما، من قولك: أزلتك عن موضع كذا أو أزلتك عن رأيك إلى غيره.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني الإنسان وإبليس ويقال: والحيّة ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار.

﴿وَمَتَاعٌ﴾، أي متعة إلى حِينٍ يريد إلى أجل.

٣٧- ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي قبلها وأخذها، كأن الله أوحى إليه أن يستغفره ويستقبله بكلام من عنده، ففعل ذلك آدم فَتابَ عَلَيْهِ

وفي الحديث: أن رسول الله صلّى الله عليه سلم وعلى آله كان يتلقى الوحي من جبريل، أي يتقبّله ويأخذه.

٣٨- ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ قال ابن عباس- في رواية أبي صالح عنه-: كما يقال: هبط فلان أرض كذا.

الشرح

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35] ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: 36]، في آية الأعراف قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20]، وسوس مبهم، كيف وسوس؟

قال [ابن قتيبة]: أزلهما (من الزلل)؛ وهو أن تزل القدم "تسقط". تقول: زلت قدمه إذا سقط.

قال (استزلهما): يعني أوقعهما، أوقعهما في المعصية. وفي قراءة: ﴿فأزالهم﴾ معنى أزال: نحَّاه وأبعده. تقول: أزلت هذا الشيء: يعني أبعدته. هل بين القراءتين تعارض؟ كلاهما صحيحة، قراءات سبعية، لكن هل بينهما تعارض؟ نقول لا تعارض؛ ولما أسقطهما في المعصية زالوا، تنحوا؛ لأن الله أبعدهم، نحاهم، فهو السبب؛ هو الذي أسقطهم في المعصية وهو الذي نحاهم؛ لما سقطوا تنحوا، فلا تعارض بينهما. إذًا تكون القراءتان بمنزلة آيتين، تعطي معنيين، وهذا من فوائد توجيه القراءات، توجيه القراءات يحتاج إلى دقة، إذا عرفت قراءتين ومعانيها، ووجهت هذه ووجهت هذه، جمعت بينهما، هذا من أفضل طرق التوجيه.

هنالك كتاب من أفضل كتب توجيه القراءات المكي بن أبي طالب، اسمه: "الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها"، هذا من أفضل ما كتب في توجيه القراءات لكي تعرف هذه القراءة لما قُرِأت ما معناها.

﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ يعني اهبطوا إلى الأرض كما قال ابن عباس، يعني اهبطوا من السماء إلى الأرض. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، في سورة طه ماذا قال؟: ﴿اهْبِطَا﴾ [طه: 123] اهبطا من؟ آدم وحواء، وهنا قال: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ بالجمع.

كيف قال اهبطا ومرة قال اهبطوا؟ نقول حسب الخطاب، خاطب هذا [آدم وحواء] قال بالمثنى خاطب هؤلاء قال بالجمع [آدم وحواء وابليس].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ من الذي (بينهما) العداوة؟ هذه فيها عدة أوجه: بعضهم يقول: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: يا ذرية آدم؛ أي لما هبط آدم وحواء فإن في ذريتهما من سيكون بعضهم لبعض عدو، يقتتلون؛ كما هو الواقع. وبعضهم قال: لا، العداوة هذه حاصلة بين آدم (الإنسان) وإبليس، ويقال: الحية؛ الحية هذه ذكرها بعض المفسرين أنها كانت سببًا في إدخال إبليس إلى الجنة، أنه لما أخرج قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: 18]، لما أخرجه وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13] دخل عن طريق الحية، استصغر نفسه حتى دخل عن طريق الحية، هذه رواية إسرائيلية، لا ندري عن صحتها، الله أعلم.

والروايات الإسرائيلية لا نستطيع أن نفسر أشياء عندنا غيبية في القرآن بها، الأشياء الغيبية أو الأشياء العقدية التي تتعلق بالإيمان واليوم الآخر، وتتعلق بأسماء الله وصفاته والألوهية ونحوها، هذه لا نستدل بروايات إسرائيلية عليها. الروايات الإسرائيلية هي على ثلاثة أقسام:

- ما وافق شرعنا هذا نقبله
- ما خالف الشرع نردّه
- ما لم يوافق ولا يخالف فأنت إن احتجت إليه خذه، وإن لم تكن محتاجًا إليه اتركه.

والغالب أننا لا نحتاجه، القرآن عندنا والسنة والعلماء من الصحابة والتابعين جاءوا وبيّنوا لنا كل شيء في القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، فلا حاجة أن نأتي بروايات إسرائيلية ونحن نعرف أن هؤلاء هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، واتهموا الله فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: 181]، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، وطعنوا في الأنبياء وأتباع الأنبياء، فما لنا حاجة نأخذ منهم، إذا احتجت في آية تستأنس بها ممكن. ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية قال: "أغلب هذه الروايات التي لا توافق ولا تخالف لا فائدة وراءها"، لا فائدة، أكل من الشجرة، ما نوع الشجرة؟ هل هي التين ولا السنبلة؟ لا فائدة! أكل وانتهى، إذًا الحية لا داعي لذكرها، نقول: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إما في ذرية آدم، أو بين إبليس وآدم وذريته.

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مستقر: موضع استقرار؛ يعني لكم في الأرض مكان، مكان أن تستقروا فيه، ظرفية مكان استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ستستقر في الأرض وتتمتع فيها زمنًا ثم تنتقل عنها، لن تبقى في الأرض دائمًا، هذا معناه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد: إلى أجل، يعني إلى كل إنسان مخلوق سيخرج إلى هذه الدنيا مدة من الزمن ثم يفارق الدنيا ويذهب إلى الآخرة، هذا معناه.

يقول ما معنى ﴿فَتَلَقَّى﴾؟ هذه فيها قراءتان ثابتتان متواترتان، ما هما؟

* ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ﴾ (بالرفع) نحن نقرأ بأي شيء؟ بالضم، بالرفع. الذي تلقى من هو؟ آدم. تلقى من ربه كلمات؛ يعني أخذ من ربه كلمات، هذه القراءة الأولى.

* القراءة الثانية: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾ (بالنصب) فالفاعل من هو؟ الكلمات. الكلمات هي التي وقعت على آدم، كلها صحيحة، قرأت بهذا أو بهذا كله صحيح، لكن إذا كانت كلها صحيحة فما الذي تلقى؟ نقول: مرة – على القراءة – : آدم هو الذي تلقى، أخذ هذه الكلمات. ومرة: الكلمات هي التي تَلَقَّتْ آدمَ.

قال (ابن قتيبة في تفسير "فتلقى"): (﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي قبلها وأخذها) هذه على قراءتنا (بالرفع)، كأن الله أوحى إليه أن يستغفره ويستقبله بكلام من عنده، ففعل ذلك آدم فتاب عليه. ما هي

الكلمات التي تلقاها آدم؟ في سورة الأعراف قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

قال: (وفي الحديث: أن رسول الله صلّى الله عليه سلم وعلى آله كان يتلقى الوحي من جبريل، أي يتقبّله ويأخذه). يقول المحقق: لم أقف على هذا الحديث. ويذكر حديثًا آخر، عن عائشة أُمِّ المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «أَنَّ الحارثَ بن هشام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سأل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف يأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَحْيانًا يَأْتِيني مِثْلَ صَلْصَلَة الجَرَس، وهو أَشدُّه عليَّ، فيَفْصِمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّلُ لي المَلَكُ رَجُلًا فيُكَلِّمُني فأَعِي ما يقول». قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: ولقد رأيتُه ينزِل عليه الوَحْيُ في اليومِ الشديدِ البرْدِ، فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جَبِينَه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا» (البخاري ومسلم)، هذه في كيفية مجيء الوحي إلى النبي ﷺ، فقد جاءه جبريل على ثلاثة صور:

الصورة الأولى: يأتي مثل صلصلة الجرس - صوت صلصلة الجرس - يسمع أصواتًا فيعلم أنه وحي، فيوحى إليه، فيقول ﷺ: «وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه» - يعني فهمت ما ألقي علي، سمعته وحفظته - ، يعني يأتي جبريل مثل صوت الجرس "صلصلة الجرس". وفي حديث قال: «كأنه السلسلة على الصفوان» (البخاري - موقوفًا على عمر). لما تسحب سلسلة على أرض صفا، تحدث صوت قوي، هذا هو، هذه صفة الوحي الأولى.

الصفة الثانية: أن يأتيه على صفة رجل - في صورة رجل - كما في حديث مراتب الدين: الإسلام والإيمان والإحسان [حديث جبريل]، هذه صورة رجل؛ «شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر»، ولكن هذه لم ينزل فيها قرآن أبدًا، أي ما جاء جبريل في صورة رجل وألقى عليه قرآنًا، أعطاه أحاديث، أخبره بأشياء فقط.

الصفة الثالثة: أنه رآه على صورته التي خلق عليها [جبريل]، وهذا لم يره إلا مرتين فقط، في حديث «جاورت بحراء شهرًا فلما قضيت جواري هبطت فلما استبطنت الوادي فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمام فلم أر شيئًا، ونظرت خلفي فلم أر شيئًا، فرفعت رأسي

فرأيت شيئًا، [فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض]، فأتيت خديجة فقلت: زملوني، زملوني، دثروني، وصبوا على ماء باردًا، قال: فدثروني وصبوا على ماء باردًا، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: 1 – 5]» هذه الرؤية الأولى. الرؤية الثانية: رآها في المعراج ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: 13] في المعراج. فقط، لم يره إلا مرتين على صورته التي خلق عليها.

أما صورته كرجل فقد رآه أكثر من مرة، ليس فقط في مراتب الدين لا، أكثر من مرة رآه، جاءه، فقد كان يقول: «جاءني جبريل»، «جاءني جبريل». ومرة قال: «كنت جالسًا أنا وجبريل» (البخاري). حتى في قصة ضيف إبراهيم كانوا رجالًا، جاءوا، وهم [الملائكة] يأتون ويتصورون برجال أو بغير رجال، جاءوا دخلوا على مريم، جاء جبريل بصورة رجل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]، سويًا يعني: معتدل الخلقة، جميل الخلقة، حسن الخلقة.

٤٠- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي أوفوا لي بما قبلتموه من أمري ونهيي ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أوف لكم بما وعدتكم على ذلك من الجزاء.

٤٤- ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي وتتركون أنفسكم، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (التوبة: ٦٧) أي تركوا الله فتركهم.

الشرح

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: 40] هذه الآية يبدأ الخطاب مع بني إسرائيل، قبله في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، من آية أربعين تقريبًا إلى نهاية الحزب الأول، افتتح هذا كله مع خطابات بني إسرائيل الذين عاصروا موسى عليه السلام. بعدها من قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: 75] هذا مع بني إسرائيل الذين عاصروا محمدًا ﷺ في المدينة. من هنا تقريبًا إلى قبيل نهاية الجزء الأول عند قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124] وبعدها خطابات (أخرى)، لكن إلى ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: 142] أي الجزء الأول من سورة البقرة كله حديث عمّن؟ عن بني إسرائيل؛ سواء الأسلاف الأجداد، مثل هذه الآية: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ [البقرة: 40] لبني إسرائيل الأوائل، وغيرها: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: 50] كلها هذه فيهم ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ [البقرة: 55] هذه كلها فيهم، ثم بعدها بدأت الخطابات تخاطب المعاصرين، المعاصرين (للنبي ﷺ).

(﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ أي أوفوا لي بما قبلتموه من أمري ونهيي) هم أخذوا التوراة وقبلوها، وأخذوا أوامر من الله وقبلوها ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171]، فأخذوه ثم بدأوا يتمردون، فأمرهم الله في قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، وإذا أوفيتم بعهدي ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، هذا وفاء وهذا وفاء، ما الفرق بينهما؟ الوفاء الذي منهم: القيام بما أمرهم الله، والوفاء بالعهد الذي هم قبلوا العهد؛ أن يقوموا بشرع الله، ووفاء الله لهم مثل ما ذكر هنا: ما وعدهم به من الجزاء بالفوز بالجنة.

قال ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ هذا كله خطابات لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؟ ما معنى تنسون؟ النسيان في لغة العرب له معنيان:

* الذهول والغفلة. تقول: نسيت، نسيت أن عندي موعدًا، على ذهول.
* والنسيان يأتي بمعنى الترك؛ تقول: لو يأتي فلان معنا؟ قال: "انسه"، يعني اتركه.

فالنسيان له معنيان، في حق الله جاء في القرآن مرتين: جاء بمعنى الغفلة، وهذا على سبيل النفي: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64]، وجاء بمعنى الترك، وهذا جاء على سبيل الإثبات: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: 19]، يعني تركهم.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تتركون، هذا معناه: تتركون. ولذلك لو تجمع كلمة نسِيَ في القرآن - كلمات هذا الفعل نسِيَ - تجمعه في القرآن، انظر في كم موضع مر في حق الله أو في حق البشر؟ وتجد أنه يأتي على معنيين حتى في حق البشر: في آدم قال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]، "نسي" ما معناها لآدم؟ أي ذهل وغفل، وهنا معناها ترك، هذه تسمى الألفاظ المشتركة، الألفاظ المشتركة. يجب أن نجمع المواضع ونميز بين هذا وهذا.

٤٥- ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ أي بالصوم. في قول مجاهد رحمه الله.

ويقال لشهر رمضان: شهر الصبر، وللصائم صابر. وإنما سمّي الصائم صابرا لأنه حبس نفسه عن الأكل والشرب. وكلّ من حبس شيئا فقد صبره. ومنه المصبورة التي نهي عنها، وهي: البهيمة تجعل غرضا وترمى حتى تقتل.

وإنما قيل للصابر على المصيبة صابر لأنه حبس نفسه عن الجزع.

الشرح

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الصبر: هو الصيام، والصلاة: [هي] الصلاة. هذا رأي، وأخذ به ابن قتيبة. والرأي الثاني الذي عليه جمهور المفسرين "الصبر" (الصبر الحقيقي): هو حبس النفس، ويكون على ثلاثة أقسام:

- الصبر على طاعة الله
- والصبر عن معصية الله
- والصبر على أقدار الله.

هذا هو الصبر الذي تلاحظ الآيات في القرآن لو تجمعها تجد الصبر هكذا: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]. إذًا الصبر هو المعروف. وقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: 45] في سورة البقرة وردت مرة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153] هذا هو الصبر؛ لأنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ما يكون [الصبر] يعني الصيام [في الآية ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾] إلا على رأي آخر، هذا رأيه يقول: الصيام.

٤٦- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي يعلمون. والظن بمعنيين: شك ويقين، على ما بينا في كتاب «المشكل».

٤٧- ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ أي على عالمي زمانهم. وهو من العام الذي أريد به الخاصّ.

الشرح

إذًا كلمة كلمة "يظنون" تأتي في القرآن على معنيين: الظن بمعنى اليقين، وهذا هو الأكثر استعمالًا في القرآن، قال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 46]، ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20]، هذا كله بمعنى: اليقين، العلم، الجزم. ويأتي بمعنى الشك، مثل قوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: 6]، ظن: شك. هذه تسمى من الألفاظ المشتركة، لو تتبع الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم ستجدها قد تتجاوز مئة موضع أو أكثر، ألفاظ مشتركة تعطي معنيين.

يقول: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ هل بني إسرائيل فُضِّلوا على العالمين جميعًا؟ لا، أمة محمد فوقهم وأفضل منهم، إذًا كيف على العالمين؟ مثل قول الله عز وجل في مريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42] على عالمين زمانها، فهذا (العالمين) يُسمى: العام المراد به الخصوص؛ العام مطلقًا عام يراد به الخصوص، مثل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: 173] ما يراد به الناس جميعًا، يراد به شخص معين.

٤٨- ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ أي لا تقضي عنها ولا تغني. يقال: جزى عني فلان بلا همز، أي ناب عني. وأجزأني كذا - بالألف في أوله والهمز- أي كفاني.

﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾ أي فدية قال: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها﴾ (الأنعام: ٧٠) أي إن تفتد بكل شيء لا يؤخذ منها.

وإنما قيل للفداء: عدل لأنه مثل للشيء، يقال: هذا عدل هذا وعديله. فأمّا العدل- بكسر العين- فهو ما على الظهر.

الشرح

قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ هناك فرق بين جَزَى وأَجْزَأَ، فرق بين المهموز وغير المهموز؛ يقول جَزَى بمعنى: ناب عني، أَجْزَأَ همزة في أوله، قال: (أي كفاني) أَجْزَأَني يعني كافأني أو أعطاني. جَزَى بمعنى ناب عني ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: 48] هذه ليس فيها همزة، يعني: لا تُغني ولا تنفع، ما تنفعك ولا تنوب عنك ولا تقوم مقامك، هذا معناه، وردت مرتين في سورة البقرة.

يقول: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48] ما المراد بالعدل؟

قال (فدية) لأنها تقوم مقام النفس. مثلًا الآن عندي أسير، مأسور هذا الشخص، أدفع فدية حتى أفكّه من الأسر، إذًا الفدية قامت مقام النفس، يوجد تشابه أو تماثل أو موافقة، هذه مقام هذه.

يقول: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾ يعني لا يؤخذ من هذه النفس عدل ولا فدية حتى تُخلِّص نفسها؛ هذا اليوم لا قبول لفدية فيه، لا تقبل، الفدية تقبل في الدنيا، إذا جاء يوم القيامة وأراد أن يخلص نفسه من عذاب النار، لو أنفق ما في الأرض ذهبًا ما قُبِل منه. قال: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها﴾ [الأنعام: 70] أي: وإن تفتدي بكل شيء، ما قُبِل منها.

قال هنا [ابن قتيبة يفرق بين العِدل والعَدل]: (عدل لأنه مثل للشيء، يقال: هذا عدل هذا وعديله) العدل والعديل يعني المثيل والذي يقابل الشيء. قال: (عدل) عندنا عَدْل، وعندنا عِدْل بالكسر. هذه اللغة – لغة العرب –، العِدل والعَدل، ومثله أيضًا الحِمل والحَمل. العَدل: ما ينوب مقام الشيء. والعِدل: الذي يكون ما على الظهر؛ عِدْل يُوضع على ظهر البهيمة وكذا، عِدْل، عِدْلين، ثلاثة عدول، هذا بالنسبة للعِدْل.

بالنسبة للحمل، قال: حَمْل وحِمل. ما الفرق بينهما؟

ما كان في البطن فهو حَمْل، وما كان على الظهر فهو حِمْل.

الحِمْل بالكسر على الظهر، وإن كان على الظهر فاكسر، وإن كان في البطن تقول حَمَل، تقول: فيها حَمْل، هذه امرأة هذا حَمْل في بطنها، وعلى ظهره حِمْل: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: 25] حِمْل، وفي ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف: 65]، في فاطر ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: 18].

٤٩- ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ﴾ قال أبو عبيدة: يولونكم أشد العذاب. يقال: فلان يسومك خسفا، أي يوليك إذلالا واستخفافا.

﴿وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي في إنجاء الله إياكم من آل فرعون نعمة عظيمة.

والبلاء يتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب «المشكل».

٥٠- (وآل فرعون) أهل بيته وأتباعه وأشياعه. وآل محمد أهل بيته وأتباعه وأشياعه. قال الله عز وجل: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ﴾ (غافر: ٤٦).

٥٤- ﴿فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ﴾ أي خالقكم ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل بعضكم بعضا، على ما بينت في كتاب «المشكل».

وقوله: ﴿فَتابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ففعلتم فتاب عليكم. مختصر.

الشرح

ما معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يسومون؟ قال (قال أبو عبيدة: يولونكم أشد العذاب) أي: يكلفونكم الأعمال الشاقة. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ﴾ يعني: النساء والرجال الذين بقوا من بني إسرائيل آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، يتعبونهم بالأعمال الشاقة المتعبة في الليل والنهار. إنجاء بني إسرائيل من فرعون، لأنهم كانوا يعذبونهم ويسومونهم سوء العذاب.

﴿وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49] وفي ذلكم: ذلكم اسم إشارة، يعود إلى الإنجاء أم إلى التعذيب؟ يحتمل الأمرين. يقول هنا [ابن قتيبة]: (إنجاء الله إياكم من آل فرعون نعمة عظيمة) يعني بلاء؛ لأن البلاء يكون في النعم ويكون في النقم. يكون البلاء أحيانًا (بمعنى الاختبار) ولذلك سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ماذا يقول؟ يقول "ليبلوني"، لما أنعم الله عليه قال: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40]، وقال [تعالى عن امتحانه لعباده]: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168] ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، فالبلاء يكون هنا ويكون هنا.

فالذي أنعم الله عليه بالنعم العظيمة هذا بلاء من الله ينظر هل يشكر أم لا؟ والذي أخذ الله منه النعم وابتلاه بالنقم أو بالمصائب هذا بلاء. ما المراد بالآية هنا ﴿وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ﴾ [البقرة: 49]؟ نقول الأمرين؛ أن اضطهاد آل فرعون لبني إسرائيل هذا بلاء، بلاء على وجه النقمة، وإنجاء بني إسرائيل من فرعون بلاء، فالآية تحتمل الأمرين. هو اختار ماذا؟ اختار الإنجاء؛ لأنها في سياق النجاة، في سياق السلامة.

قال (ابن قتيبة) من هم آل فرعون؟ وآل موسى وآل هارون؟ وردت في القرآن: ﴿مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة: 248] وآل محمد، وآل عمران، وآل إبراهيم. ما معنى آل هذه؟

قال: (أهل بيته وأتباعه وأشياعه) عندما تقول آل فرعون: هم الخاصة من أهل بيته، والخاصة من جلسائه، وأيضًا كل من تبع فرعون يكون من آل فرعون. إذا قلت آل محمد من هم؟ هل هم آل بيته؟ نقول: لا، آل بيته نعم يدخلون دخولًا أوليًا، والصحابة يدخلون أيضًا، وكل من تبعه إلى يوم القيامة، كلهم من آل محمد، أتباعه وأشياعه. إذا قلت: "صلى الله عليه وعلى آله وصحبه" إذا جمعت بينها من الممكن أن يدخلون هم، لكن خصوا بصفة ثانية، يصير من باب عطف صفة على صفة.

(﴿فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ﴾ أي خالقكم ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل بعضكم بعضا، على ما بينت في كتاب «المشكل») ما معنى "بارئكم"؟ (خالقكم)، هنالك فرق بين البارئ والخالق، البارئ: من برأ البرية؛ يعني أوجدها، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: 22] أي نوجدها. عندنا بارئ، عندنا خالق، عندنا فاطر، وعندنا بديع؛ هذه كلها حول شيء معين لكنها تختلف.

* فأولها: الخالق. خلق الشيء: إيجاده على أي صفة، خلق الجبال وخلق السماء وخلق الأرض...

* برأ: برأ الشيء يعني: أوجده ولكن بصفة غير الأولى، يعني انتقال من حال إلى حال، البرية هي الخليقة من بني آدم ونحوها، هذه خلق آخر، ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6].

* وبعدها عندنا الفاطر: ما معنى فاطر؟ هو إيجاد الشيء من العدم على غير مثال سابق، لما قال ابن عباس: (ما كنت أدري ما معنى (فاطر) حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها)، يعني: لأنه أوجدها من العدم على غير مثال سابق.

* والبديع: البديع هو الذي خلق الشيء وأوجده على أحسن صورة؛ أجمل صورة، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117].

لكن لماذا موسى اختار هذا الاسم؟ "بارئكم" ما قال ربكم ولا إلهكم؟ لماذا خصها؟ لأنهم عبدوا العجل. كيف تعبدون عجلًا مخلوقًا لا يتكلم ولا يسمع؟ وتتركون الذي أوجدكم وخلقكم؟ بارئكم.

قال: (﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ليقتل بعضكم بعضا) يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54] التوبة ما هي؟ أن يقتل بعضهم بعضًا، هذه التوبة. قال: " ليقتل بعضكم بعضا".

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: فيه (مختصر)، فيه اختصار، ما هو الاختصار؟ ففعلتم التوبة، أي تبتم فتاب عليكم، قتل بعضهم بعضًا. قيل إنهم في يوم واحد قُتِل منهم سبعون ألفًا ممن عبد العجل، وقال بعضهم: الذين يقتلون هم الذين لم يعبدوا العجل، والذين يُقْتَلون هم عبدة العجل، فقام الذين لم يعبدوا بقتل العبدة.

٥٥- ﴿نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي علانية ظاهرا، لا في نوم ولا في غيره.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي الموت. يدلك على ذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾. والصاعقة تتصرف على وجوه قد ذكرتها في كتاب "المشكل".

٥٧- ﴿الْغَمَامَ﴾ السحاب. سُمِّي بذلك لأنه يغُمُّ السماءَ أي يسترها وكُلُّ شيءٍ غطيته فقد غممتَه. ويقال: جاءنا بإناء مَغْمُوم. أي مغطى الرأس.

وقيل له: سحاب بمسيره، لأنه كأنه ينسحب إذا سار.

﴿الْمَنَّ﴾ يقال: هو الطَّرَنْجَبِين.

﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر يشبه السُّمَانَى لا واحد له.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي ما نقصونا.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ينقصون.

والظلم يتصرَّف على وجوه قد بينتها في كتاب "المشكل".

٥٨- وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ رفع على الحكاية. وهي كلمة أمروا أن يقولوها في معنى الاستغفار، من حَطَطْتُ. أي حُطَّ عَنَّا ذنوبنا.

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي قيل لهم: قولوا: حِطَّةٌ فقالوا: حِطَّا سُمْقَاتَا، يعني حنطة حمراء.

و (الرِّجْزُ) العذاب.

الشرح

لا يزال المؤلف رحمه الله تعالى في ذكر الألفاظ الغريبة ووقوفه عندها، يذكر هنا في قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وفي النساء: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]، (جهرة) تعود إلى أي شيء؟ هل هي تعود إلى الله؟ أو تعود إلى هؤلاء الذين يسألون؟ يعني إن قلت: تعود إلى الله، يعني أرنا الله جهرة، أي نراه جهارًا. ويحتمل أن تعود إليهم هم أنهم قالوا ذلك جهارًا؛ أي من غير مبالاة، قالوا ذلك جهرة أي: جهارًا، لكن المتبادر صحيح أنهم قالوا أرنا الله جهرة؛ أي: نبصره إبصارًا، ولذلك قال المؤلف (علانية ظاهرًا، لا في نوم ولا في غيره).

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ لماذا؟ لأنهم أولًا سألوا ما لا يحق لهم أن يسألوه، والأمر الثاني لأنهم لا يريدون من هذا السؤال الوصول إلى شيء إلا التعنت فقط؛ ليس لهم هدف وغاية لذلك، أو محبة كما فعل موسى عليه السلام لما قال: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143] كان لأجل المحبة والمكانة وغير ذلك، ولقوة الإيمان ونحو ذلك. أما هؤلاء فسؤالهم تعنت وازدراء وعدم مبالاة، ولذلك أخذتهم الصاعقة.

سؤال: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ هل تدخل في الاستهزاء؟

الجواب: أجل يدخل فيه، استهزاء بموسى عليه السلام، هذه من أسئلة الاستهزاء به، مثل ما قالوا عندما قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67] نفس الشيء.

(الصاعقة) في القرآن تطلق على أكثر من معنى، تطلق ويراد بها الموت، مثل هنا قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قال الموت، ما الدليل على ذلك؟ لأنه قال بعدها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وهذه هي الآية الأولى من الآيات التي أثبت الله فيها للناس في الدنيا قدرته على إحياء الموتى، في سورة البقرة ذكر خمسة أدلة: هذه، وقتيل بني إسرائيل، والذين خرجوا من ديارهم، والذي مر على قرية، والطيور؛ خمسة كلها في الدنيا أراهم الله كيف يحيي الموتى أمامهم؛ أرى الناس.

وتطلق ويراد بها الإغماء، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143] ما مات موسى، أصابته الصاعقة نعم، لكنه ما مات، فالصعق يطلق ويراد به الموت، ويطلق ويراد به الإغماء وهكذا.

يقول المؤلف: (والصاعقة تتصرف على وجوه) يعني أنها تطلق على عدة معاني، وهذا معناه أن اللفظ مشترك.

قال: (الغمام) ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ وظللنا هذا في التيه، لما جاوزوا البحر، نزلوا في التيه. أنعم الله عليهم بنعم، من هذه النعم أنه ظلل عليهم الغمام. ما هو الغمام؟ السحاب، سمي بذلك لأنه (يغُمُّ السماءَ أي يسترها وكُلُّ شيءٍ غطيته فقد غممتَه). لماذا ظلل عليهم الغمام؟ لشدة الحر والشمس، وأصبح الغمام يظلهم عن الشمس. لماذا سمي السحاب سحابًا؟ لأنه ينسحب في السماء، يسير، يمشي.

يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ المن قال الطَّرَنْجَبِين، أو أحيانًا يكتب بالتاء؛ الترنجبين، ما هو طيب الترنجبين ما عرفناه؟ قال هو مثل العسل، ينزل على الأشجار فيأكلونه، يعني طعام كالعسل مثل العسل ومثل الحلوى، يأخذونه كل صباح، ينزل على الأشجار، إذا أصبحوا الصباح وجدوه قد نزل على الأشجار، ويأخذون ويأكلون، و(السلوى)، قال طائر صغير، طائر يشبه السمانى، وعند العامة يسمونه السمّان، طائر السمان، طائر صغير ما بين العصفور والحمام، معروف. قال: (لا واحد له).

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قال المؤلف: الظلم يطلق ويتصرف على عدة وجوه، الظلم في اللغة أصله "النقص"، قال تعالى ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: 33]، يعني لم تنقص منه الجنتان. لماذا سمي نقصًا؟ لماذا سمي أحيانًا مثل الشرك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]؟ لماذا سمي الشرك ظلمًا؟ لأنه نقص، ولأنه وضع الشيء في غير موضعه، لأنك لما تشرك أو تصرف عبادة لله يستحقها، وتصرفها لمخلوق لا يستحقها، هذا نقص، نقص في حق الله، وصرف الشيء لغير الله، هذا معناه.

(الظلم) أصله النقص، ويطلق في القرآن على معاني كثيرة، أكثر إطلاقاته على ظلم النفس، بأن يوقع نفسه في الخطأ، هذا هو، وقد يطلق ويراد به الشرك، والذي يجعلك تميز بين ألفاظ الظلم في القرآن هو سياق الآيات، وكل آية لها سياق، فإذا أخذت هذا السياق وجدت لها معنى، فإذا جمعت كلمة الظلم في القرآن الكريم؛ يظلمون، ظلموا ظلمًا، وهكذا جمعتها بمصادرها واشتقاقاتها، وجدتها تطلق على عدة معاني، وهذا جميل، هذا يسمى بالألفاظ المشتركة، وأحيانًا يسمى بالوجوه النظائر. وفي كتاب لابن الجوزي " نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر" إن شاء الله نقرأ فيه بعد هذا بإذن الله؛ كتاب جميل جدًا؛ يأتي على كلمة الظلم يعطيك المعاني كلها التي في القرآن، يأتي على الهدى يعطيك معانيها كلها، الأمر يقول لك: ما هو الأمر؟ ويعطيك معاني الأمر، وهكذا... يسير على جميع [المعاني] مثل ما مر معنا هنا، مر معنا الظلم، تمر معنا أحيانًا كلمات مثل الصاعقة تطلق على عدة معاني، نعم.

يقول بعدها: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ (حطة) أي: وقولوا "أمرنا حطة"، يعني: اعفُ عنا، احطط عنا ذنوبنا. فاستهزأوا، هذا من استهزاءاتهم. قال المؤلف هنا: (رفع على الحكاية) يعني لو لم تكون رفعًا على الحكاية؛ لكان مفترض أن تقول: وقولوا حطةً -منصوب- لأنه مفعول به، كيف تقول وقولوا حطةٌ؟ هذا خطأ في النحو، قال: لا، وقولوا "أمرنا حطة"، يعني مرفوع على الحكاية لأنها جملة محكية، الجمل المحكية تحكى كما كانت، كما تقول أنت مثلًا: قرأتُ سورةَ المؤمنون، هذا خطأ في النحو كيف "سورةَ المؤمنون"؟ مضاف ومضاف إليه، "قرأت سورة المؤمنين"، قال: لا، محكية. يعني تثبت كما كانت، لأنها سميت "سورة المؤمنون"، (المؤمنون) هكذا ثابتة، ما تجرها بالياء وإن كان الأصل جر، لكن هي تثبت، [مثل] سورة الكافرون، واضح؟ وهكذا، هذا يسمى "الحكاية"، باب الحكاية في النحو، تحكى الجملة كما كانت.

يقول (حطة) وهي كلمة أمروا أن يقولوها في معنى الاستغفار وتعني: احطط عنا ذنوبنا. في آية في الأعراف: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ [الأعراف: 161] خطيئاتكم أو خطاياكم يعني: احطط عنّا خطايانا. لكن ماذا قالوا لما قيل لهم قولوا حطة؟ قالوا حنطة حنطة، يستهزئون، هذا التبديل تحريف الكلم عن مواضعه، تبديل القول ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾، يقول الله اسألوا المغفرة نغفر لكم، اسألوا الله أن يغفر لكم، قالوا: حنطة حنطة، حبة في شعرة، أو حنطة حمراء، استهزاء.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (الرجز): العذاب، هذا هو الصحيح، بعض المفسرين قالوا: هو الطاعون، وبعضهم ذكر أنواعًا، هذا من باب التمثيل، يصح ولكن الأصل أن الرجز هو العذاب. والرجز في القرآن أيضًا – ما ذكر هنا – الرجز بالقرآن يتصرف، يعني يطلق على أكثر من معنى، مثل ماذا؟

الرجز: الأصنام ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: 5] "والرِجز" على قراءة، الذي يقرأ "والرُجز" حفص عن عاصم فقط، القرّاء كلهم يقولون "والرِجز" ﴿وَالرِّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ونحن [حفص] نقرأ والرُّجز، هذا يطلق على معنيين، يطلق على الأصنام ويطلق على العذاب، وهذا يدل على سعة لغة العرب، والقرآن نزل بلغة العرب.

٦٠- ﴿وَلا تَعْثَوْا﴾ من عَثِيَ. ويقال أيضا من عَثَا، وفيه لغة أخرى عَاثَ يَعيثُ. وهو أشد الفساد.

وكان بعض الرواة ينشد بيت ابن الرقاع:

لولا الحياءُ وأنَّ رأسي قد عَثَا ❊❊❊ فيه المشيبُ لزرتُ أُمَّ القاسِمِ

وينكر على من يرويه: "عسا". وقال: كيف يَعْسُو الشيبُ وهو إلى أن يرقّ في كبر الرجل ويلين، أقرب منه إلى أن يغلظ ويعسوَ أو يصلب؟ واحتج بقول الآخر:

❊وَأَنْبَتَتْ هَامَتُهُ المِرْعِزَّى❊

يريد أنه لما شاخ رقَّ شعره ولان، فكأنه مِرْعِزَّى [والمرعزى: نبت أبيض].

الشَّرحُ

﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ هذي تكررت في القرآن كثيرًا، وجاءت هنا خطابًا لبني إسرائيل: ولا تعثوا في الأرض مفسدين، قد يسألك سائل يقول لك: ما معنى لا تعثوا؟ تقول: لا تفسدوا. لأن العثو أو العثاء - كما ذكر هنا قال: قد يقال مثلا عثيَ وعثا وعاثَ يعيثون في الأرض فسادًا - قال هو أشد الفساد.

الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ كأن فيه تكرار؛ "تعثوا" و "مفسدين"، قال هذا يعني زيادة في التأكيد على أنه وصلوا إلى أعلى درجة في الفساد؛ ونوه عن ذلك، إن أشد الفساد العثو، وإذا عثا وأفسد، كان ذلك أشد، هذا معنى العثو، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهذا من باب التأكيد عليهم.

٦١ - (وَالْفُومُ) فيه أقاويل: يقال: هو الحنطة، والخُبْزُ جميعا. قال الفرّاء هي لغة قديمة يقول أهلها: فَوِّمُوا، أي: اخْتَبِزُوا. ويقال: الفوم الحبوب.

ويقال: هو الثوم. والعرب تبدل الثاء بالفاء فيقولون جَدَث وجَدَف. والمَغَاثِير والمَغَافِير. وهذا أعجب الأقاويل إليّ؛ لأنها في مصحف عبد الله: "وثومها"، نبت كريه الرائحة منتنه.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ أي رجعوا. يقال: بُؤْتُ بكذا فأنا أبوء به. ولا يقال: باء بالشيء.

الشرح

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾، وفي قصة ابنَي آدم قال: ﴿أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ [المائدة: 29] أي: ترجع. فقال (باءوا) أي: رجعوا ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: 90]، أي رجعوا مستحقين الغضب، هذا معناه.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، ما معنى الفوم؟ قال: فيه أقاويل، قيل الحنطة والخبز جميعًا؛ الذي هو البر والقمح، وقال (قال الفرّاء هي لغة قديمة يقول أهلها: فَوِّمُوا، أي: اخْتَبِزُوا)، ويطلق ويراد به الثوم، لأن العرب تُبدل الحرف إذا كان قريب من الحرف، تقول: فوم وثوم، وجدف وجدث، كلها متقاربة. وقد رجح أن تكون بمعنى الثوم، قال لأنها في مصحف عبد الله بن مسعود. عبد الله بن مسعود أكثر القراءات فيه تفسير، أخذ تفسير من النبي ﷺ وأثبته في مصحفه، فقراءاته - قراءات عبد الله - قراءات تفسيرية مفيدة جدًا، ولذلك مجاهد - على إمامته وجلالته من كبار التابعين، أخذ التفسير ابن عباس كله - يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين عرضة قراءة، وثلاث عرضات قراءة وتفسيرًا، وأخذ تفسير ابن عباس كله، يقول: لو قرأت قراءة عبد الله - يعني ابن سعود - ما احتجت لابن عباس، ما أحتاج لابن عباس، مع أن ابن العباس إمام في التفسير، فلماذا؟ لأنه رأى أن ابن مسعود عنده أشياء كثيرة، وهنا ابن مسعود يقرأ تفسير "ثومها"، ففسرها لك ابن مسعود؛ قال: الفوم هو الثوم، ولذلك رجّح ابن قتيبة - وهو إمام في اللغة - هذه. الفوم يطلق ويراد به الحنطة في لغة العرب، ويطلق ويراد به الثوم، ورجح "وثومها وبصلها" الثوم والبصل.

سؤال: يقولون جدث وجدف، والله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ [المعارج: 43] هل لفظ جدث متصرف إلى عدة معاني أم فقط يطلق مثلًا على القبور؟

الجواب: الذي أعرفه أنها القبور، فقط هذا الذي أعرفه. القبر يسمى جدث، جمعها الأجداث، القبر سمي قبرًا لأنه يقبر فيه، وسمي القبر جدثًا لأنه ينحفر وينفتح، الشيء إذا انحفر وانفتح يسمونه جدث، ﴿تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: 44] فيخرجون وينطلقون مسرعين، يقول: جدث الأرض إذا حرثها بيده أو بمحراث، إذا شق الأرض بقوة يقال جدث، هذا السر في تسمية القبور، ولذلك دائمًا تجد كلمة الأجداث إذا جاءت يأتي بعدها السرعة ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: 43]، نجد فيها هذه الكلمة، لأنه ليس المقصود الجدث أنك تدفن فيه، لا، الجدث أن يخرج.

٦٢- ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ هم: اليهود.

﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ قال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون [إلى] القبلة، ويقرأون الزَّبور.

وأصل الحرف من صَبَأْتُ: إذا خرجت من شيء إلى شيء ومن دين إلى دين. ولذلك كانت قريش تقول في الرجل إذا أسلم واتبع النبي صلى الله عليه وعلى آله -: قد صبأ فلان - بالهمز - أي خرج عن ديننا إلى دينه.

الشرح

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، وعدهم الله بأي شيء؟ قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا وعد طيب، هؤلاء كلهم أصحاب ديانات، (الذين آمنوا): أمة محمد ﷺ، و(الذين هادوا): أمة موسى عليه السلام، و(النصارى): أمة عيسى عليه السلام، و(الصابئين)؟ هنا الإشكال، لا بد أن نعرف الصابئين من هم، يقول (قال قتادة هم قوم يعبدون الملائكة) إذا كانوا يعبدون ملائكة؛ كيف نجعلهم مع أهل الديانات؟ هذا أمر، والأمر الثاني كيف يعدهم الله بهذا الوعد ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ فالصابئين هذه الكلمة، أو هؤلاء القوم مختلف فيهم اختلاف طويل، فبعضهم يقول: هم قوم يعبدون الملائكة، وبعضهم قال: إنهم قوم يعبدون النجوم كانوا في عهد إبراهيم عليه السلام في العراق، على خلاف وأقوال كثيرة، لكن الذي يظهر - والله أعلم - أن (الصابئين): هم من بقوا على دين حنيفية، حتى قال بعضهم: هم على دين آدم. لكن الذي يظهر - والله أعلم - أنهم كانوا مسلمين، لأن الله أدخلهم مع هؤلاء، ووعدهم بهذا الوعد، كيف يجعلون مع المؤمنين واليهود والنصارى؟ إلا من انصرف عن هذا؛ لأن اليهود الأصل فيهم أنهم أهل دين، وعلى دين موسى، والأصل فيهم أنهم لا يخرجون عن دينهم، لكن إذا خرجوا وحرّفوا إذًا خرج عن دينه، نتكلم عن الأصل؛ فهؤلاء وعدهم الله، قال: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

والذي يظهر أن الصابئين – كما ذكرنا – أنهم على التوحيد، وهؤلاء وعدهم الله إن كانوا على دينهم الذي أرسل به نبيهم – اليهود والنصارى والصابئين – على التوحيد، والمؤمنون متمسكون بدينهم، هؤلاء من آمن بالله واليوم الآخر، فلهم أجر عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

بعضهم يقول الصابئون هم من كان على دين آدم عليه السلام، وأن آدم عليه السلام له كتاب، وأنهم متمسكون بكتاب يعملون به، وأنهم يصلون ثلاث صلوات: يصلون قبل الفجر، ووقت الظهيرة، وقبل المغرب. وأنهم الآن موجودين في العراق – يعني طائفة موجودة في العراق –، لكن نحن لا يهمنا أين يوجدون، والله أعلم إن كانوا على حق أم لا. دين آدم ما هو؟ كيف نعرف أنه دين آدم؟ هذا أمر، والأمر الثاني، لو سلمنا أنهم على الحق، وأنهم يصلون، وأنهم على دين آدم عليه السلام؛ لا يجوز أصلًا أنك تتخذ دينًا غير الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85]، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] لا شيء بعد بعثة محمد ﷺ. فهؤلاء الذين وعدهم الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾ هؤلاء قبل الإسلام كانوا على دينهم، نعم وعدهم الله على دينهم الصحيح قبل الإسلام، لكن بعد بعثة محمد، النبي ﷺ قال عن موسى عليه السلام: «لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني»، موسى عليه السلام لا يجوز له إلا اتباع محمد ﷺ، يقول ﷺ: (كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ)[5] متفق عليه، أي: لإن نزل عيسى آخر الزمان يحكم بشريعة محمد، فدين الإسلام هو ناسخ لجميع الأديان، وهذه الآية فيها إشكال كثير من الناس يفهمونها خطأ، يقولون: الله عز وجل وعد اليهود والنصارى وأنتم تكفرون اليهود والنصارى، كيف تكفرونهم؟ اليهود الموجودين الآن والنصارى على دين كيف تكفرونهم؟ الله وعدهم بهذا الوعد ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ﴾؟ نقول: هذا قبل شريعة محمد، بدليل أن النبي ﷺ قال: «لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ، لا يهودِيٌّ، ولا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به،

(5) قال الحافظ رحمه الله: " قَالَ أَبُو ذَرّ الْهَرَوِيُّ : حَدَّثَنَا الْجَوْزَقِيّ عَنْ بَعْض الْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ: مَعْنَى قَوْله: " وَإِمَامكُمْ مِنْكُمْ " يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُم بِالْقُرْآنِ لَا بِالْإِنْجِيلِ. وَقَالَ اِبْن التِّين: مَعْنَى قَوْله: " وَإِمَامكُمْ مِنْكُمْ " أَنَّ الشَّرِيعَة الْمُحَمَّدِيَّة مُتَّصِلَة إِلَى يَوْم الْقِيَامَة، وَأَنَّ فِي كُلّ قَرْن طَائِفَة مِنْ أَهْل الْعِلْم" .

إلَّا كان من أصحابِ النارِ». والله سماهم كفار – اليهود النصارى – ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: 1]، قال ﴿ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ؛ سماهم كفارًا، فكيف تقول أنت إنهم على دين صحيح؟ هذا غلط، فقد سمعت وقرأت أن هذه الشبهة يتمسكون بها، هذا الإشكال إذا لم تعرف الحق بأدلته تقع في الخطأ؛ وتوقع غيرك في الخطأ، هو يضل ويُضل غيره؛ ضل وأضل، كلهم على ديانة صحيحة قبل الإسلام، [لكن] لما جاء الإسلام نسخها كلها، لو جاءك احد وسألك: الذين على دين موسى قبل بعثة محمد؟ نقول وعدهم الله مثل الوعد، الذين على دين النصارى قبل محمد، وعدهم الله بهذا الوعد، وهكذا.

مناسبة الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال اليهود وقبائحهم، استثنى منهم، هذه كثيرة في القرآن، كما في سورة آل عمران لما ذكر قبائحهم، وأن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة، قال: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: 113] وهكذا، وفي آخر آل عمران، قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 199] هذا عدل من الله سبحانه وتعالى أن هؤلاء استثناهم.

٦٣- و ﴿الطُّورَ﴾ الجبل. ورفعه فوقهم مبين في سورة الأعراف.

٦٥- ﴿اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي ظلموا وتَعَدَّوا ما أُمروا به من ترك الصيد في يوم السبت.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي: مبعدين. يقال: خَسَأْتُ فلانًا عني وخسأتُ الكلبَ. أي: باعدته. ومنه يقال للكلب: اخسأ، أي: تباعد.

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا﴾ أي: قريةَ أصحاب السبت. نَكالا أي عِبْرَة لما بين يديها من القرى، وما خلفها ليتعظوا بها. ويقال: لما بين يديها من ذنوبهمْ وما خلفها: من صيدهم الحيتان في السبت. وهو قول قتادَةَ. والأول أعجب إليّ.

الشرح

هذا واضح بالنسبة للطور، كما في سورة الطور ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: 1] أي: الجبل. وفي قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ [مريم: 52] الجبل، بعضهم يقول الطور هذا بالسريانية، كلمة الطور ليست عربية، بالعربي: جبل، هذا يدخلنا في مسألة المعرّض، هل القرآن فيه ألفاظ غير عربية؟ هذه مسألة تأخذ وقتًا طويلًا، لكن خلاصة الكلام أن القرآن لا توجد فيه ألفاظ غير عربية، كله عربي، وإن وجد فهو قليل جدًا، أو قد تعرب وأصبح عربيًا، الطور هنا: الجبل.

﴿اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾أي: تعدوا على حرمات الله؛ لما حرّم عليهم الصيد في السبت.

﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾قال: (أي: مبعدين) مبعدين عن رحمة الله.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا﴾ أي: هذه الواقعة التي وقعت عليهم، والعقوبة التي نزلت في هذه القرية، بحيث أنهم مسخوا قردة وخنازير، جعلناها عبرة لمن حولهم ومن يأتي بعدهم، عبرة يتعظون بها، نكالًا وعبرة.

٦٨- ﴿لا فَارِضٌ﴾ أي: لا مُسِنَّة. يقال: فَرَضَتْ البقرةُ فهي فارضٌ، إذا أَسَنَّتْ. قال الشاعر:

يَا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ وَضَبٍّ فَارِضِ *** لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الحَائِضِ

أي ضِغْن قديم، والضغن: الحقد في هذا الموضع.

﴿وَلا بِكْرٌ﴾ أي ولا صغيرة لم تلد، ولكنها ﴿عَوَانٌ﴾ بين تَيْنِك. ومنه يقال في المثل: "العَوَانُ: لا تُعَلَّمُ الخِمْرَة". يراد أنها ليست بمنزلة الصغيرة التي لا تحسن أن تَخْتَمِر.

الشرح

هذا في وصف بقرة بني إسرائيل، قال: ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: عمرها، وهذا يدل على استهزائهم وسخريتهم وقلة عقولهم وسفاهتهم، يقول الله لكم اذبحوا بقرة، تسألون عن الأسئلة التافهة كم عمرها؟ وما عملها وما لونها؟ كلها لا داعي لها؛ أسئلة تافهة، تمتثلوا أمر الله [فقط]، فشددوا وشدد الله عليهم.

الشاهد إنهم سألوا عن العمر، فقال إنها ليست كبيرة في السن ولا صغيرة، وسط، ﴿لَّا فَارِضٌ﴾: التي كبرت في السن، مسنّة. ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾: الصغيرة، ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾، قال (بين تَيْنِك) تينك: اسم إشارة؛ يقال "ذَيْنِك" للمذكر و "تَيْنِك" للمؤنث، قال الله تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ﴾ [القصص: 32] فذانك أي: هذانك، وأصل اسم الإشارة (ذا)، والهاء للتنبيه، عندما تقول "هذا"؛ ها أصلًا ليست لها علاقة في اسم الإشارة، "ها" للتنبيه؛ اسم الإشارة: ذا، تقول: ذا الرجل، جيء بـ "ها" للتنبيه، تقول: هذا رجل، وهاتان امرأتان، أصلها "تان امرأتان"، تأتي بالها للإشارة.

يقول: ﴿عَوَانٌ﴾ يعني: لا كبيرة ولا صغيرة، أي متوسطة السن، يقول هنا في المثل (العَوَانُ: لا تُعَلَّمُ الخِمْرَة) يعني: المرأة التي في سن الوسط لا تعلمها كيف تختمر، لأنها ليست في منزلة الصغيرة، حتى لا تحسن أن تختمر، هي تعرف كيف تختمر.

٦٩- ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي ناصع صاف.

وقد ذهب قوم إلى أن الصفراء: السوداء. وهذا غلط في نُعُوت البقر. وإنما يكون ذلك في نُعُوت الإبل. يقال: بعير أصفر، أي أسود. وذلك أن السود من الإبل يَشُوبُ سوادَها صفرة. قال الشاعر:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي ❊❊❊ هُنَّ صُفْرٌ أَوْلادُها كَالزَّبِيبِ

أي سود.

ومما يدلك على أنه أراد الصفرة بعينها، قوله ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ والعرب لا تقول: أسود فَاقِع - فيما أعلم - إنما تقول: أسود حالك، وأحمر قاني، وأصفر فَاقِع.

الشرح

(صفراء): هي صفراء، بعض المفسرين قال: هي سوداء، السواد إذا اشتد يميل إلى الصفرة خاصة في سطوع الشمس، إذا رأيته يميل إلى الصفرة، وقيل أن قرونها صفراء، وقيل أظلافها صفراء، ولكن لا يمنع أن تكون بقرة صفراء، قد لا توجد الآن، قد توجد في مناطق، لا تدري.

﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ الأصفر يقال له فاقع اللون، والأسود حالك مثل ما ذكره هنا، قال (وأحمر قاني)، تقول أحمر قاني، والأزرق: تقول صافي؛ أزرق صافي، والأبيض: تقول ناصع، ثوبه أبيض ناصع. لا تقول: أبيض صافي، خطأ، الصافي في الأزرق؛ لأن الماء إذا اشتد في صفائه يميل إلى الزرقة، وقالوا أزرق صافي. والعرب يقولون للأخضر: مدهام، ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: 64]، إذا كان شديد الخضرة [يميل] للسواد، ترى الأشجار تميل إلى السواد مدهامة، هذه لغة العرب، كل لون يعطى وصف خاص، غير أن العرب أصلًا الألوان عندهم قليلة ليست كثيرة، الآن كثرت الألوان، يقول لك لون بيج، ما هو موجود عند العرب، لا يعرفون العرب بيج، والآن أظهرت ألوان أكثر وأكثر مع الاستعمالات: لون وردي، لون زهري، سماوي، وهكذا، حتى بعض الألوان تجد أحيانًا ليست عربية أصلًا، يعني أصلها ليست عربية، لكن العرب كانوا

يستعملون ألوانًا معينة فقط، الآن صاروا يخلطون الألوان ويعطيك لون جديد، يقول لي هذا مع هذا يعطي كذا، وهذا مع هذا يعطي كذا، لون البرتقالي، ما البرتقالي هذا؟ لا يوجد برتقالي، البرتقالي نسبة إلى برتقال، وهكذا.

يقول الصفرة تطلق على الإبل كما في سورة المرسلات ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: 33] أو جمالات على قراءتين بالجمع والإفراد، هذا الجمل الأصفر.

الإبل التي يأتي لونها "بيج" يسمى إبل شقح، هذه تسمى شقح، شقحة، الشقحة، والإبل السود الذي يسمى الأورق، السود شديد السواد يسمى صفر، كما في القرآن ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ تسمى صفر لأنه إذا اشتد السواد فيها، أعطى لون أصفر، مع الشمس تراه أحيانًا يعطيه لون الصفرة ولو في أطرافها، يعني ليس بكاملها، تطلق عليها العرب هكذا، والله أعلم. العوام الآن يسمون بطرق مختلفة، هذا طبيعي، العوام يسمون الأشياء [على غير مسماها].

٧١- ﴿لا ذَلُولٌ﴾ يقال في الدوابّ: دابّة ذَلُول بَيِّنَةُ الذِّل - بكسر الذال - وفي الناس: رجل ذليل بَيِّن الذُّل. بضم الذال.

﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ أي تُقَلِّبها للزراعة. ويقال للبقرة: المُثِيرَة.

﴿وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي لا يُسْنَى (٣) عليها فَيُسْتَقَى بها الماء لسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العمل.

﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا لَوْنَ فيها يخالف مُعْظَم لونِها - كالقُرْحَة، والرُّثْمَة، والتَّحْجِيل وأشباه ذلك.

والشِّيَةُ: مأخوذة من وَشَيْتُ الثوبَ فأنا أشِيه وَشْيًا. وهي من المنقوص. أصلها وِشْيَة. مثل زِنَة، وعِدَة.

٧٢- ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم. والأصل: تَدَارَأْتُمْ. فأدغمت التاء في الدال، وأدخلت الألف ليسلم السكون للدال الأولى. يقال: كان بينهم تَدَارُؤٌ في كذا. أي اختلاف. ومنه قول القائل في رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان شريكي فكان خير شريك: لا يُمَارِي ولا يُدَارِي" أي لا يخالف.

٧٣- ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل ببعض البقرة. قال بعض المفسرين: فضربوه بالذنب. وقال بعضهم: بالفخذ فحَيِي.

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: اشتدت وصلُبت.

الشرح

﴿لا ذَلُولٌ﴾ في الحيوان بكسرها، في لغة العرب كيف؟ وفي الإنسان ما يقال الذِّل؛ يقال الذُّل بالضم، في [البقر] (بَيِّنَةُ الذِّل) بالكسر، انظر إلى لغة العرب واسعة جدًا، فقط بتغيير حركة يتغير المعنى، ولذلك قطرب ألّف كتابه "مثلث قطرب" مفتوحة، مضمومة، مكسورة، كل واحدة تعطي معنى.

[إذًا بقرة] مذللة لا تعصي، هذا معناه، فالمذللة من البقر هي التي تُستعمل؛ تسقي الحارث، وتحرث الأرض، وكذا... مذللة للعمل، هذه لا، ليست مذللة، هذه مكرمة، أي يقدم لها الطعام والشراب؛ فهي مخدومة لا خادمة. هذا معناه في قوله ﴿ لا ذَلُولٌ ﴾.

ثم بين لك معنى لا ذلول، قال هي ﴿ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ﴾، ليست مذللة حتى تثير لك الأرض، قال (تُقَلِّبها للزراعة) هي التي تحرث الأرض، أي: بقرة تعمل على حراثة الأرض للزراعة، ﴿ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي لا يسنى عليها، يعني تستعمل عليها السواني البئر أو القليب أو نحو ذلك، فيخرجون الماء، عندنا هنا في نجد يستعملون الإبل، وأحيانًا يستعملون الحمير - أعزكم الله - ، وأحيانًا يستعملون البقر في إخراج الماء من البئر، وهكذا تعمل، يسمونها السواني، سقي الزروع. قال: هي ليست ذلول، يعني تثير الأرض ولا تسقي، مسلمة من العمل، لا تعمل.

﴿لا شِيَةَ فِيهَا ﴾ قال ليس فيها لون آخر غير هذا اللون الأصفر.

ثم بعدها قال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ ما معنى فادارأتم؟ لها معنيان:

* المعنى الذي ذكره هنا "اختلفتم"، تقول: نحن عند فلان لا بد أن نداريه، نداري فلان: يعني لا نخالفه، تجلس عند فلان تداريه بالكلام، يعني: لا تخالفه، تداريه أي: تمشي معه؛ هذا الشخص يحتاج إلى مداراة، يعني تحتاج أن تسير معه بدون مخالفة، إذا خالفته يمكن لا يقبل منك، هذا معنى الذي ذكره هنا، قال المدراة المخالفة، والمداراة تطلق ويراد بها الدفع، تقول ادارأتم أي: دفعتم.

* ومنه قوله تعالى في آية النور: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾[النور: 8] يعني يدفع عنها العذاب، يبرئها من العذاب، الشهادة تبرئها من العذاب، وكتاب شيخ الإسلام معروف "درء تعارض العقل والنقل"، يعني يدفع هذا معناه، يحتمل هذا ويحتمل هذا كله صحيح.

فادارأتم أي: اختلفتم بينكم، وكل ينسب إلى الآخر الذي قتل، قال: القتيل منكم، أو أن كل واحد يدفع الجريمة على الآخر، كلها.

﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ أي: القتيل؛ اضربوه ببعض هذه - لمّا ذبحوها - ، وما كادوا يفعلون، قال لهم موسى خذوا قطعة وأضربوا هذا الميت، تعود له الحياة، ما هي القطعة التي أخذوها؟ هذي من الأشياء التي لا داعي لها، بعض المفسرين قالوا إنه أخذ لسانها، وبعضهم قال أخذ الذنب أي: الذيل، يقال تذنيب الكتاب يعني يذيّل، وقال الفخذ، لا يهمنا هذا، أخذوا قطعه ويكفي، هذا من المبهمات التي لا حاجة إلى الوقوف عندها.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ قست، قال (أي: اشتدت وصلُبت)، حيث إنها لا تقبل، يعني بعد هذه الآية العظيمة ميت أمامك فارق الحياة ثم يحييه الله أمامك ولا تؤمنون؟ وهذا الموضع الثاني [لإحياء الموتى].

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ﴾ أي لا يعلمون الكتاب إلا أن يُحدِّثهم كبراؤُهم بشيء، فيقبلونه ويظنون أنه الحق وهو كذب. ومنه قول عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : "ما تَغَنَّيْتُ ولا تَمَنَّيْت" أي: ما اخْتَلَقْتُ الباطل.

وتكون الأمانِيُّ التلاوة. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يريد إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته.

يقول: فهم لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة ولا يعملون به، وليسوا كمن يتلوه حَقَّ تلاوته: فيُحِلُّ حلالَه ويُحَرِّم حرامَه، ولا يحرفه عن مواضعه.

الشرح

(الأماني) جمع أُمْنِيَة، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَ﴾:

"ومنهم" أي: من اليهود، لأن الآية قبلها: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75] هذه في اليهود، قال: "ومنهم" أي: من اليهود.

"أميون": يعني عوام، ليس عندهم علم، أمي.

"لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ"، لا يعلمون من التوراة إلا أمانيَّ؛ إلا أكاذيب، مجرد أكاذيب، يكذبون كبراؤهم وأحبارهم ورؤساؤهم، يقولون: إن الله يأمر بكذا وإن الله ينهى عن كذا وإن الله وعد بكذا، كل هذا تحريف، أكاذيب؛ هذا معنى "الأماني" [بمعنى الأكاذيب].

و"الأماني" أيضًا يحتمل أن تكون معنى التلاوة، ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَ﴾ إلا تلاوة، لا يعلمون معانيه، وهذا ذم من الله لليهود، وكل من يتصف بهذا، حتى من المسلمين الذين يقرأون القرآن ولا يتعلمون [معانيه] ولا يريد أن يتعلم، فقط مجرد يقرأ القرآن تلاوة، ولا يريد أن يتعلم المعاني ولا أيضًا يطبقها

في حياته، لا يحل الحلال ولا يحرم الحرام؛ فهذا يشمله الذم، فهذا معنى "الأماني" هنا التلاوة. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾[الحج: 52] أي: وقرأ، "إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته" أي: في تلاوته.

"الأماني" هذا اللفظ الآن من الألفاظ المشتركة؛ يطلق على الأكاذيب، "ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني" [قول مأثور]، تتمنى أنت كذا وكذا وأنت لا تفعل، هذا [من قبيل] الأكاذيب، يطلق على الأكاذيب، ويطلق أيضًا على مجرد التلاوة، وهناك معنى آخر، يطلق أيضًا على تمني المعروف، أن تتمنى أن تحصل على كذا، تقول: أتمنى أن يكون لي مال حتى أتصدق، أتمنى أن أحج، أتمنى أن أفعل كذا، وأتمنى أن أحفظ القرآن، أتمنى أن أكون كذا؛ هذا التمني، هذا معنى التمني وهو الأصل، تمني: تتمنى أن يحصل لك هذا الشيء.

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي يزيدون في كتب الله ما ليس منها؛ لينالوا بذلك غَرَضًا حقيرًا من الدنيا.

الشرح

يقول هنا معنى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: (يزيدون في كتب الله ما ليس منها) هي كتب الله [في] الأصل، لكن يحرفون يزيدون ما ليس منها؛ يقولون: قال الله كذا وفعل كذا، ويحذفون أشياء لا يريدونها ويضعون مكانها أشياء؛ هذا تحريف الكلم عن مواضعه، ما الغرض من ذلك؟ لماذا يفعلون هذا؟ قال: (لينالوا بذلك غَرَضًا حقيرًا من الدنيا)، يريدون غرض الدنيا، غرضًا أو عَرَضًا حقيرًا، قد تكون غرضًا بالغين، وقد تكون عرضًا بالعين، عرضًا حقيرًا من الدنيا.

هنا يقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ "يكتبون الكتاب بأيديهم"، هم لا يكتبون إلا بالأيدي، لماذا قال بـ "أيديهم"؟ معروف أنه لا يُكتب إلا بالأيدي، مثل قوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 26]، السقف من فوق [هذا] أكيد، ومثل قوله تعالى: ﴿طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38] لماذا قال يطير بجناحيه؟ نقول: هذه العبارات أسلوب عربي يسمى أسلوب التأكيد، حتى يثبت لك أنهم يكتبون فعلًا بأيديهم، يكتبون بأيديهم.

٨٠- ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ قالوا: إنما نُعذَّبُ أربعين يومًا قَدْرَ ما عَبَدَ أصحابُنا العجلَ.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي أتخذتم بذلك من الله وعدًا؟

٨٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ﴾ أي أمرناهم بذلك فقبلوه؛ وهو أخذ الميثاق عليهم.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي وَصَّيْناهم بالوالدين إحسانًا. مختصر كما قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: ووصى بالوالدين.

الشرح

هم الآن يفترون على الله الكذب، من صفات اليهود الافتراء على الله الكذب، يقولون: لن تمسنا النار، إن مسَّتنا (شيء يسير)، نحن أولياء الله وأحباؤه، نحن شعب الله المختار، لكن إن مسَّتنا النار لن تمسنا إلا أيامًا معدودةً، أما الأيام (التي يعتقدونها)، قالوا: أربعين يومًا؛ قدر ما عبد أصحابنا العجل، قالوا: العذاب مدة أربعين يومًا، هذه الأيام (التي كانت عند) ميقات موسى لما ذهب إلى ربه في الميقات؛ عبدوا العجل، فقالوا: العذاب مدة أربعين. هذه الآية هنا يقول: ﴿إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وفي سورة آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: 23-24]، هناك جاءت "معدودات" وهنا جاءت "معدودة" بعض العلماء يقول: "معدودة" جمع قلة، و"معدودات" جمع كثرة، أو العكس، بعضهم (يقول) أو العكس، فقالوا - الذين قالوا إنها جمع قلة - : نعذب سبعة أيام. من أين أتيتم بسبعة أيام؟ قالوا: هذه أيام الدنيا. هم يفترون على الله الكذب ويدّعون علم الغيب، يقولون الدنيا هذه مدتها سبعة أيام في علم الله، سبعة أيام يعني سبعة آلاف، لأن اليوم عند الله ألف سنة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47]، فيقولون: يعني سبعة آلاف سنة يعيشها الناس ثم تنتهي الدنيا، تنتهي الدنيا منذ خلق الله آدم

إلى آخر الدنيا هذه مدتها كم؟ سبعة آلاف. هذا افتراء على الله، ما يعلم وقوع الساعة إلا الله، ما يعلم لا نبي ولا ملك، وهم يقولون: نعذب سبعة أيام، أو في المعنى الآخر: نعذب أربعين يومًا. الذي يظهر - والله أعلم - أن كلمة "معدودة" يعني تطلق على الشيء القليل؛ فتقول: معي دراهم معدودة ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20] يعني قليلة، والمعدودات أكثر؛ لأن الله قال في رمضان: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 184] بعض العلماء يقول هذا، يقول إن المعدودات أكثر والمعدودة أقل، فقوله هنا الأيام المعدودة أقل، معدودات آل عمران أكثر، وقد تكون المعدودات أربعين يومًا والمعدودة السبعة أو العكس، الله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل بأي شيء؟ قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ﴾ "لا" هنا نافية، ليست ناهية؛ لأن الفعل بعدها مثبت غير محذوف النون، لو قال: لا تعبدوا، قلنا ناهية، لكن لما قال: "لا تعبدون" نافية.

"لا تعبدون إلا الله"، أي أمرناهم، الله أمر بني إسرائيل بذلك فقبلوه، أخذوا الميثاق، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171] وهو أخذ الميثاق عليهم.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال: (وَصَّيْناهم بالوالدين إحسانًا. مختصر كما قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: ووصى بالوالدين)، "إحسانًا" مصدر مفعول مطلق، التقدير: وبالوالدين أحسنوا إحسانًا، و(وَصَّيْناهم بالوالدين إحسانًا) قال: مختصر، يعني إما أن نُقدّر الفعل ووصينا: ووصيناهم إحسانًا (بالوالدين)، أو يكون: وأمرناهم أن يحسنوا بوالديهم إحسانًا، كلها صحيحة.

٨٤- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي لا يَسْفِك بعضُكم دَم بعض.

﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضُكم بعضا من داره ويغلبه عليها.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي ثم قبِلتم ذلك وأقررتم به.

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على ذلك.

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقد بينت معنى هذه الآية في المشكل.

﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تعاونون. والتَّظَاهُر: التعاون. ومنه قوله: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي تعاونا عليه. والله ظَهِير أي: عَوْن.

وأصل التَّظَاهُر من الظَّهْر. فكأنّ التَّظاهر: أن يجعل كُلُّ واحدٍ من الرجلين أو من القوم الآخَرَ له ظَهْرًا يَتَقَوَّى به ويَسْتَنِدُ إليه.

الشرح

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ كيف تسفكون دماءكم؟ قال: (يَسْفِك بعضُكم دَم بعض) جعل الدم كأنه دمهم هم، لأن الذي يقتل أخاه المسلم فكأنما قتل نفسه، ولذلك دائمًا يأتي هذا في القرآن، يقول: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11] "أنفسكم" أي: لا يلمز بعضكم بعضًا، وقال هنا: ﴿ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ﴾ أي: لا يسفك بعضكم دماء بعض، وقال: ﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يخرج بعضكم بعضًا، جعلهم كنفس واحدة. لما كان المسلمون أو كان هؤلاء على اليهودية، كأن الدين جمعهم فأصبحوا قطعة واحدة، ولحمة واحدة لا تنفك، فالذي يلمز أخاه كأنه لمز نفسه، والذي يقتل أخاه كأنه قتل نفسه، والذي يستهزئ بأخيه كأنه يستهزئ بنفسه وهكذا.

قال: (﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ أي ثم قبِلتم ذلك وأقررتم به ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على ذلك)

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾ يقول: "هؤلاء" هذا منادى محذوف أداة النداء، التقدير: ثم أنتم يا هؤلاء، أداة النداء تُحذف، مثل: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ [يوسف: 29] التقدير: يا يوسف، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾ أي: يا هؤلاء ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ نفس المعنى؛ أي: يقتل بعضكم بعضًا.

﴿تَظَاهَرُونَ﴾ أي: تعاونون، والتظاهر: التعاون، ثم أتى بدليل من القرآن، قال تعالى لزوجتي النبي ﷺ: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ [التحريم: 4]. أي: تتعاونا عليه، وفي آية أيضًا في سورة الصف في آخرها قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: 14] أي: ظهروا بالقوة.

قال هنا ابن قتيبة: (وأصل التَّظَاهُر من الظَّهْر. فكأنّ التَّظاهر: أن يجعل كُلُّ واحدٍ من الرجلين أو من القوم الآخَرَ له ظَهْرًا يَتَقَوَّى به ويَسْتَنِدُ إليه)، سمي الظهر ظهرًا لأنه يتحمل، الظهر يتحمل الجسم كله، ويوضع عليه أثقال فيحملها لأنه يحمل، فهذا معنى التظاهر: أصله من القوة، يظاهر بعضنا بعضًا أي: يقوي بعضنا بعضًا.

٨٧ – ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي: أتْبَعْناه بهم وأرْدَفْنَاه إيَّاهم وهو من القفا مأخوذ. ومنه يقال: قَفَوْتُ الرجلَ: إذا سرت في أثره.

الشرح

قال جَلَّجَلَالُهُ في عيسى ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾"وقفينا" يعني أتبعنا، مثل ما ذكر هنا قال: (أي: أتْبَعْناه بهم وأرْدَفْنَاه إيَّاهم وهو من القفا مأخوذ) وهو مؤخرة الشيء، تقول قفا هو مؤخرة الإنسان، يقول ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذَا هو نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ»، يعني: مؤخرة الرقبة ثلاث عقد، ويقول: «يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وإلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ» [الصحيحين] لأن الشيطان عقد عليه، ولذلك تلاحظ الناس الصباح الساعة السابعة أو قريب من ذلك -نسأل الله العفو والعافية- الذين لا يصلون الفجر ولا يتوضأون، انظر كيف هم في الشوارع؛ حوادث كثيرة، وعدم احترام الآخرين، هكذا ترى تصرفاتهم؛ تصرفات سيئة في الغالب، ما نقول نحن جميعًا، الذي يقوم بهذا الشكل قد لا يتوضأ ولا يصلي ولا يذكر الله، إلا الشيطان تسلط عليه، فيقوم خبيث النفس كسلان، أما الذي قام وذكر الله وتوضأ وصلى، فيحفظه الله، وتكون نفسه طيبة.

٨٨- ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جمع أغْلَف. أي كأنّها في غِلاف لا تفهم عنك ولا تعقل شيئا مما تقول. وهو مثل قوله: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ يقال: غَلَّفْتُ السيفَ: إذا جعلته في غلاف، فهو سيف أغْلَف. ومنه قيل لمن لم يُخْتَن: أغْلَف.

ومن قَرَأه (غُلُفٌ) مُثَقَّل. أراد جمع غلاف. أي هي أوعية للعلم.

الشرح

القراءة المعروفة المشهورة: ﴿قلوبنا غُلْفٌ﴾، بإسكان (اللام)، والمؤلف يقول: (ومن قَرَأه (غُلُفٌ) مُثَقَّل. أراد جمع غلاف) عندما تقول: قلوبنا غُلُفٌ بضمتين، ليس هناك تثقيل، لأن التثقيل تعني التشديد، فلربما عنى بذلك: مثقلة على اللسان عند نطقها. لكن قراءة غُلْفٌ هذه قراءة الجمهور، هي (بضم) الغين ثم إسكان اللام.

قال [ابن قتيبة]: (جمع أغْلَف. أي كأنّها في غِلاف لا تفهم عنك ولا تعقل شيئا مما تقول) الغُلْفُ جمع أغْلَف؛ والأغلف كأنه قد غطي، قلوبنا مغطاة ما تقبل منك، مغلقة، لا تعقل شيئًا مثل: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: 5] في كنان؛ مغلقة، من الغلاف أن تغلّف الشيء؛ تقول: غَلِّف هذا الشيء بكيس، تغلفه بالكيس فلا يدخل عليه شيء، وهم يقولون قلوبنا لا تفقه ما تقول وهذا استهزاء بالنبي ﷺ وأنهم لا يقبلون شيئًا مما يقوله.

لكن قال "غُلُف" بضمتين اختلف المعنى قال: (ومن قَرَأه (غُلُفٌ) مُثَقَّل. أراد جمع غلاف. أي هي أوعية للعلم) يقول نحن قلوبنا أوعية للعلم، يعني عندنا علم لا نحتاج إلى علمك.

٨٩- ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: كانت اليهود إذا قاتلت أهل الشرك استفتحوا عليهم؛ أي اسْتَنْصَرُوا الله عليهم. فقالوا: اللّٰهم انصرنا بالنبيّ المبعوث إلينا. فلما جاءهم النبي ﷺ وعَرَفوه كفروا به. والاستفتاح: الاستنصار.

الشرح

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [السجدة: 29] يوم الفتح إذا جاء النصر وجاءت العقوبة عليهم، ما ينفع [إيمانهم]، والفتح يطلق ويراد به المحاكمة: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89] أي: احكم بيننا، والحاكم يسمى فتاح.

يقول هنا: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من؟ اليهود، أين يستفتحون في أي مكان؟ في المدينة، قبل بعثة الرسول ﷺ، وهم اجتمعوا في المدينة، لماذا؟ عسى أن يُبعث منهم نبي، كانوا يتمنون أن يُبعث منهم نبي، لأنهم كانوا يقرأون في التوراة أن نبي الساعة سيبعث في حرة فيها ماء ونخل، فبدأوا يبحثون عن هذا المكان، فجاءوا واستقروا في المدينة واستقروا في خيبر، قالوا: هذه أماكن سيبعث فيها محمد، سيبعث فيها نبي الساعة، وظنوا أنه سيبعث منهم فبدأوا يتحرون، حتى لما استقروا في المدينة، المدينة فيها الأوس والخزرج، وكان بينهم وبينهم بعض المناوشات، فقالوا: سيبعث منا النبي فنقتلكم، كانوا يستفتحون على الذين كفروا، "يستفتحون" يعني: يستنصرون على الذين كفروا؛ يستنصرون على الأوس والخزرج من أهل المدينة، فيقولون: سننصر عليكم، سيبعث منا نبي ونقتلكم؛ نستنصر، يقول: "اللّٰهم انصرنا بالنبي المبعوث إلينا" (من كلام اليهود كما نقله ابن قتيبة). "مبعوث إلينا" يظنونه عندهم، فلما جاءهم النبي ﷺ عرفوه، عرفوه بأوصافه، لكن لا يريدونه، قالوا: هذا من العرب لا نؤمن به، فما آمن منهم إلا قليل كعبد الله بن سلام، أما هم أعرضوا وامتنعوا وتكبروا، قال هنا: (وعَرَفوه كفروا به).

٩٣- ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: حُبَّ العجل.

٩٦- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ يعني اليهود.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يعني المجوس. وشركهم: أنهم قالوا بإلهين: النور والظلمة.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أراد معنى قولهم لملوكهم في تحيتهم: "عش ألف سنة وألف نَوْرُوز".

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: بِمُباعدِه من العذاب طُول عمره؛ لأن عمره ينقضي وإن طال؛ ويصير إلى عذاب الله.

الشرح

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ كيف يشربون العجل (التمثال) وفي قلوبهم؟ العجل ما يُشرب، ثم كيف في قلوبهم؟ هذا فيه إشكال، قال: فيه تقدير، حذف المضاف وإقامة المضاف [إليه] مقامه، وهذا كثير من لغات العرب، أن يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مكانه.

"وأشربوا في قلوبهم" أي: أشربوا حُبَّ العجل، لأن المحبة تروي في القلب. فـ "أشربوا محبة العجل في قلوبهم"، "أشربوا" يعني: كأن المحبة هذه شربوها شربًا، فامتلأت العروق منها، من شدة المحبة للعجل، أنهم ابتلوا بمحبته الشديدة وكأن الحب دخل فيهم في سائر جسدهم، هذا معناه. وهذا من حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، كثير في القرآن مثل: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: 11] يعني دروعًا سابغات، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 277، وغيرها]. بالتقدير: وعملوا الأعمال الصالحات، حذف المضاف وإقامة المضاف إليه، أو حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، هذا كله جائز.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ "حياة" هذه منكرة، والتنكير لوجه بلاغي وهو التحقير، وذلك أن اليهود يعيشون أي حياة ولو ذلة، تجد الآن فيهم ولو كان ذليلًا يعيش، فقط يريد الحياة.

قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فسّر المشركين هنا بأنهم: المجوس، وقال: (وشركهم: أنهم قالوا بإلهين: النور والظلمة) والآية -والله أعلم- أنها عامة. "ومن الذين أشركوا" عمومًا، يدخل فيه المجوس وكل من أشرك بالله، لأنهم كلهم اليهود والذين أشركوا يسيرون في طريق واحد، كلهم يحبون الدنيا.

"يود": يتمنى أحدهم لو يعمر ألف سنة، هذا على حد أقصى وقد يتمنى أكثر، يتمنى ألا يموت.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هذا كله لا ينفعه، يقول: (أراد معنى قولهم لملوكهم في تحيتهم: "عش ألف سنة وألف نَوْرُوز") إن أردت به المجوس كانوا يقولون لملوكهم في تحيتهم "عش ألف سنة وألف نوروز" النوروز هو النيروز وهو عيد عندهم، عيد يتكرر، معروف عيد النيروز.

قال: (﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: بِمُباعِدِه من العذاب طُول عمره) وهذا كله لو عاش ما يزحزحه من العذاب، هذا لو عاش ما عاش؛ لن يبعده عن العذاب.

"أن يعمر" أن يعمر هذا مصدر؛ "أن" وما دخلت عليه في تأويل مصدر، أي: وما هو بمزحزحه من العذاب تعميره، عمره لن يزحزحه من العذاب، لن يباعده من العذاب ولو طال عمره، هو موعود بالعذاب.

٩٧- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ من اليهود. وكانوا قالوا: لا نتبع محمدا وجبريلُ يأتيه؛ لأنه يأتي بالعذاب.

﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ يعني: فإن جبريل نزلَ القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾

١٠٠- ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ تركه ولم يعمل به.

الشرح

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ اليهود لا يحبون جبريل، يعادونه، يقولون: جبريل يأتي بالعذاب، جبريل هو الذي ينزل بالرسالات هو الذي نزل على موسى عليه السلام ونزل على الأنبياء السابقين. فكيف تقول لنا [يأتي بالعذاب]؟ وهو قال: "من كان عدوًا لجبريل" لأنهم عادَوا جبريل، قال: (وكانوا قالوا: لا نتبع محمدا وجبريلُ يأتيه) [فقال تعالى]: قل لهم -رد عليهم-: نعم فإنه نزلَه على قلبك، نزل الوحي والقرآن على قلبك، فكيف يعادونه وهو يأتي بالشريعة ويأتي بالخير؟ هذا ظن سيء منهم وباطل ومردود.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ المعاهدة، العهد، نبذه فريق منهم أي: (تركه ولم يعمل به) فالنبذ هنا الطرح، نبذ غير الترك، النبذ: طرح الشيء من غير مبالاة، يقول: نبذته، طرحته من غير مبالاة، فكلمة النبذ (أشد) من الترك. "نبذه فريق" العهد نبذوه، نبذوه وراء ظهورهم، يعني: طرحوه من غير مبالاة، ولذلك الله عز وجل قال في الكافر الذي وصفه الله في سورة الهمزة، وصفه الله بالاستهزاء والسخرية وجمع المال، قال: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: 4] أي يطرح من غير مبالاة، ينبذ من غير مبالاة.

١٠٢- ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: ما تَرْوِيه الشياطين على مُلْك سليمان. والتلاوة والرواية شيء واحد. وكانت الشياطين دفنت سحرًا تحت كرسيِّه، وقالت للناس بعد وفاته: إنما هلك بالسحر. يقول: فاليهود تتبع السحر وتعمل به.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبارٌ وابتلاء.

(والخلاقُ): الحظُّ من الخير، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لَيُؤَيِّدَنَّ اللهُ هذا الدينَ بقوم لا خَلاق لهم " أي: لا حَظَّ لهم في الخير.

﴿شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي باعوها. يقال: شريتُ الشيء. وأنت تريد اشتريته وبعته. وهو حرف من حروف الأضداد.

الشرح

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ معنى "تتلوا الشياطين": ترويه؛ تتلو بمعنى تروي، قال: (والتلاوة والرواية شيء واحد).

التلاوة تطلق ويراد بها في اللغة القراءة والرواية؛ يروي أو يقرأ أو يتلو بمعنى واحد. والتلاوة أحيانًا تطلق يراد بها الاتباع، تقول: فلان يتلو فلانًا [أي يتبعه]، ومنه قول الله سبحانه وتعالى في قراءة: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾، القراءة [المعروفة عندنا]: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: 30]، يعني كل نفس تتلو الأخرى، وتقول: هذا فلان الأول وهذا "التالي".

فكلمة "تتلو" في لغة العرب تطلق ويراد بها الرواية والقراءة، تقول: أنا أتلو القرآن بمعنى أرويه، وأخبر بما فيه وأتحدث، "الحديث والتلاوة والرواية" بمعنى واحد، أو تطلق ويراد بها الاتباع، والأكثر استعمالًا في القرآن التلاوة بمعنى الاتباع، لأن التلاوة إذا جاءت في القرآن تفسر بمعنى الاتباع الذي يتضمن القراءة ويتضمن الرواية والحديث، فأنت تقول: أنا أتلو القرآن، بمعنى أنك تتبع ما فيه وتعمل به وتقرأه، فهو لفظ

أوسع. وهنا قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ أي: ما تتّبع الشياطين؛ الشياطين اتبعت على ملك سليمان أو تلت وروت ما قيل أنها أخذته من ملك سليمان -ما قيل في هذا- وكانت الشياطين دفنت سحرًا تحت كرسيه؛ هذه كلها أقوال الله أعلم بصحتها، والمؤلف يريد أن يصل إلى كلمة "تتلو"، أما هذه القضية وهذه الأشياء وهذه الأخبار عما فعلت الشياطين مع سليمان، هذه الله أعلم بصحتها.

يقول في قوله تعالى [عن هاروت وماروت]: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ "الفتنة" في اللغة الأصل فيها الابتلاء والاختبار، تقول: فتنت الحديد على النار، إذا وضعت في النار حتى يزول ما يعلق به، فابتلاء الإنسان بالمحن واختباره حتى يذهب ما فيه فيصفو، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [العنكبوت: 3] فـ "فتنة" تخرج الصادق من الكاذب، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ امتحان واختبار، و"الفتنة" في القرآن لها معاني كثيرة، فهي من الألفاظ المشتركة، ولكنها هنا بمعنى الاختبار.

يقول [ابن قتيبة في تفسير ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾]: الخلاق: الحظ ("لا خَلاق لهم" أي: لا حَظَّ لهم في الخير) لا حظ لهم في الآخرة، ليس لهم نصيب في الآخرة، مما يتمناه الإنسان يوم القيامة. [ويستشهد بـ] قول النبي ﷺ: (لَيُؤَيِّدَنَّ اللهُ هذا الدِّينَ بِقَوْمٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ) أي لا حظ لهم في الخير (البخاري ومسلم).

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: (أي باعوها)، "شروا" معناها باعوا، هذه الكلمة من الألفاظ تطلق ويراد بها الأضداد، أي تطلق ويراد بها الشراء: الشراء والبيع، فتقول: شريت الدابة بمعنى بعتها، وشريت الدابة بمعنى اشتريتها؛ فالمعنيان كل واحد يطلق على الآخر، فهي من الأضداد التي يميزها السياق، يعني: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20]، أي باعوه، وهو أكثر استعمالًا [في القرآن]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207]، أي يبيع. هنا: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ أي باعوا، باعوا أنفسهم، فهي تطلق ويراد بها [الضد].

١٠٣- ﴿الْمُثُوبَةُ﴾: الثواب. والثواب والأجر: هما الجزاء على العمل.

١٠٤- ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ من "رعيتُ الرجل": إذا تأمّلته، وتعرَّفْت أحواله. يقال: أَرْعِني سَمْعَك. وكان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم -: رَاعِنَا وأَرْعِنا سمعَكَ. وكان اليهود يقولون: رَاعِنَا - وهي بلغتهم سب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرُّعُونَة - ويَنْوُون بها السبَّ؛ فأمر الله المؤمنين أن لا يقولوها؛ لئلا يقولَها اليهود، وأن يجعلوا مكانها ﴿انْظُرْنَا﴾ أي انتظرنا. يقال: نظرتك وانتظرتك بمعنى.

ومن قرأها "رَاعِنًا" بالتنوين أراد: اسمًا مأخوذًا من الرَّعْن والرُّعُونَة، أي لا تقولوا: حمقا ولا جهلا.

الشرح

(المثوبة) أي: الجزاء، ويقول "المثوبة" هنا من الثواب والأجر، قال: (والثواب والأجر: هما الجزاء على العمل) تقول: أثابه الله يعني جازاه. لكن هنا سؤال، هل تطلق "المثوبة" على العقوبة؟ عندما أقول: أنا أثيب فلانًا بمعنى أعاقبه، هل يجوز؟ هل ترد في اللغة؟ إذا أردت أن أقول مثلًا: أنا سأثيب فلانًا يعني أعاقبه، نقول إن هذا ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: 36] يعني: هل جوزوا الكفار ما كانوا يفعلون؟ [ثُوِّبَ من الثواب بمعنى الجزاء، وقد يكون الجزاء خيرًا أو شرًا]، إذًا المثوبة تطلق على جانب الخير وجانب الشر، والأكثر استعمالًا في جانب الخير، لكن لا يمنع أن تطلق في جانب الشر.

قوله: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ الأصل أن "راعنا" هي من راعَيْت فلانًا أو رَعَيْت فلانًا، فتقول: أرعني سمعك، بمعنى أنظرني واسمع مني، هذا كله جائز. ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ "انظرنا" و"راعنا" بمعنى واحد، لكن الشريعة منعت كلمة "راعنا" أو القرآن منع، لأنها تحتمل معنيين: معنى صحيح مقبول، ومعنى فاسد، الشريعة والقرآن دائمًا يسد باب الذريعة، سد باب الذريعة وسد الوسيلة المفضية إلى الحرام، فلما كانت هذه الكلمة تحتمل أمرين، أمرًا صحيحًا مقبولًا وأمرًا سيئًا، مُنِعَت، ولأن اليهود استعملوها في جانب [السب]، ويقولون للرسول ﷺ: يا محمد راعنا، يعني: أنت أرعن، أنت أحمق، فلما كانت هذه الكلمة تحتمل أن "راعنا" بمعنى انظرنا واستمع لنا، وتحتمل أنها من الرعونة، سد الله عز وجل هذا الباب وأغلقه،

وأعطاك كلمة أخرى لا تحتمل إلا المعنى الصحيح، فقال: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ لأن اليهود يستعملونها في معنى سيء، ولكن قولوا "انظرنا" لإنها لا تحتمل إلا المعنى الصحيح، فهذا معنى هذه الآية، وهذا من باب سد الذرائع، وهو موجود في القرآن كثيرًا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108] الأصل سب آلهة الكفار جائز لا مانع فيه، الله منعنا قال: "لا تسبوا". لماذا؟ قال: لأنهم يسبون الله، المرأة لما تمشي وتضرب قدميها جائز، لكن لما كان وسيلة إلى الحرام وهو إظهار ما فيها من الزينة وفتنة الرجال منعها، قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31] فمنعها من ضرب القدمين على الأرض، لأنها قد تُحدث شيئًا، إما صوت خلخال أو نحوه، فتفتن الرجال، يُسمى هذا عند الأصوليين: باب سد الذريعة أو سد الذرائع المفضية إلى الحرام، فكل أمر أدى إلى الحرام وهو مباح فيُمنع منه الشخص، هذا معنى كلمة "راعنا" وإلا الأصل فيها الجواز.

١٠٦- ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ أراد: أو نُنْسِكَهَا. من النِّسْيان.

ومن قرأها: "أو نَنْسَأْهَا". بالهمز. أراد: نؤخِّرها فلا نَنْسَخها إلى مدة. ومنه النَّسِيئَةُ في البيع؛ إنما هو: البيع بالتَّأْخير. ومنه النَّسِيء في الشهور؛ إنما هو: تأخير تَحْرِيمِ "المُحَرَّم".

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي: بأفضلَ منها. ومعنى فَضْلِها: سهولتُها وخفتُها.

١٠٨- ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي ضلَّ عن وسط الطريق وقَصْدِه.

١١٤- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ نزلت في "الرُّوم" حين ظهروا على "بيت المقدس" فخرَّبوه. فلا يدخله أحد أبدًا منهم إلا خائف.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي هوان. ذكر المفسرون: أنه فتح مدينتهم رُومِيَةَ.

الشرح

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ على قراءة، والقراءة الأخرى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَأْهَا﴾ فنُنْسِها من النسيان، ونَنْسَأْهَا من النسيء، وهو التأجيل والتأخير، فإذا قُرِئت "نُنْسِها" من النسيان، أي: ما ننسخ من آية يا محمد -بمعنى أننا نرفع حكمها- أو نُنسيها من صدرك بحيث أنك لا تتذكرها، يعني نُنسيكها بحيث أنك لا تتذكرها، فهذا في باب النسخ، النسخ هو الرفع والإزالة، رفع الحكم بحكم شرعي آخر.

أو " نَنْسَأْهَا" يعني نؤجلها. قال: ("أو نَنْسَأْهَا". بالهمز. أراد: نؤخِّرها فلا نَنْسَخها إلى مدة) يعني إما أن تنسخ في الوقت الحاضر، أو تنسخ في وقت آخر، فإذا نُسخت في وقت آخر فهي نسخ، قال: (ومنه النَّسِيئَةُ في البيع؛ إنما هو: البيع بالتَّأْخير)، ومنه النسيء: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: 37]، وهو ما يفعله الكفار في الشهور المحرمة، قال: (إنما هو: تأخير تَحْرِيمِ "المُحَرَّم").

قال: (﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ أي: بأفضلَ منها) أي: إذا رفعنا هذا الحكم ورفعنا الآية بالنسخ، فإننا نأتِ بخير وأفضل منها. وقال: (ومعنى فَضْلِها: سهولتُها وخفتُها). قد يكون في باب النسخ أن يرفع الحكم وترفع التلاوة، ولا ينزل مكانها شيء، فكيف يقول: "نأت بخير منها"؟ نقول: الخير برفعها وعدم مجيء مكانها حكم آخر، هذا ممكن يسمى خيرًا؛ إذا رفع الحكم وأزيل وخفف عن المسلمين، يعتبر هذا خير.

قد يأتيك سائل يقول لك: نجد في القرآن نسخًا إلى أثقل، مثلًا الله سبحانه وتعالى يحكم بحكم أو يورد شريعة أو حكمًا شرعيًا ثم يأتي بحكم ما هو أشد منه -هذا من باب التدرج- كيف يقول المؤلف إن هنا أسهل وأخف؟ نقول: الغالب في النسخ هو التخفيف الغالب في [النسخ] لكن قد يأتي بالنسخ ما هو أعلى وأرفع وأثقل، ولكنه نادر.

يقول [ابن قتيبة]: (﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي ضلَّ عن وسط الطريق وقَصْدِه) أصلها: فقد ضل السبيل السواء، أو السبيل السوي، المعتدل، الوسطي، فـ "سواء" معناها الوسط والاعتدال. [إذًا] أصلها فقد ضل السبيل السوي، والسبيل السوي أي: الطريق المعتدل.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ المؤلف لم يتكلم عن ألفاظها وإنما يتكلم عن معنى الآية بشكل عام أو سبب نزولها، يقول: (نزلت في "الرُّوم" حين ظهروا على "بيت المقدس" فخرَّبوه. فلا يدخله أحد أبدًا منهم إلا خائف) يقول: الذين أفسدوا وخربوه ألقى الله عز وجل في قلوبهم الرعب، فلا يدخلون إلا خائفين.

(﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي هوان) كلمة "الخزي" في القرآن معناها الهوان والذلة والفضيحة، يقول: (ذكر المفسرون: أنه فتح مدينتهم رُومِيَةَ) كل هذا يحتاج منا إلى أن نتثبت في أسباب النزول، هذا من وجه، ولو فرضنا أنها نزلت في الروم أو أنها في فتح رومية، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقوله تعالى: "ومن أظلمُ" هذا لفظ عام "منْ" شرطية؛ والشرط من ألفاظ وصيغ العموم، فدلت الآية على العموم، أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، عامة إلى قيام الساعة، فكل من منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى في خرابها لا يدخلون إلا خائفين، لأن الله ألقى الرعب في قلوبهم، ولهم فضيحة في الدنيا وهوان وخزي وذلة، هذا على العموم.

١١٥- ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ نزلت في ناس من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، كانوا في سفر فَعَمِيت عليهم القِبلَة: فصلّى ناسٌ قِبَل المشرق، وآخرون قِبَل المغرب. وكان هذا قبل أن تُحَوَّل القبلة إلى الكعبة.

١١٦- ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مُقِرُّونَ بالعبودية، مُوجِبُون للطاعة. والقنوت يتصرف على وجوه قد بيّنتها في "تأويل المشكل".

١١٧- ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مُبْتَدِعُهما.

١١٨- ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ هلا يكلمنا.

﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والفسق والقسوة.

١٢٣- ﴿وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ هذا للكافر. فليس له شافع فينفعَه؛ ولذلك قال الكافرون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ حين رَأَوْا تَشْفيعَ اللهِ في المسلمين.

الشرح

عندنا الآن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ يقول: (نزلت في ناس من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، كانوا في سفر فَعَمِيت عليهم القِبلَة: فصلّى ناسٌ قِبَل المشرق، وآخرون قِبَل المغرب. وكان هذا قبل أن تُحَوَّل القبلة إلى الكعبة) هذا رأي من الآراء في معنى الآية. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ ف "ثَمَّ" يعني هناك، فهذه الآية قيل إنها لمن غابت عليه القبلة ولم يعرفها، فإنه يجتهد ويصلي، ولو تبين له بعد الصلاة أن الجهة غير الصواب أو الصلاة على غير الجهة، فإن صلاته صحيحة. وهناك عدة أقوال فيها، فبعضهم يحملها على الدعاء العام، وبعضهم يحملها على التوجه إلى الكعبة: "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا" في أي مكان فتوجهوا إلى الكعبة، "فثم وجه الله" أي: جهة الكعبة، وهناك من يقول إن هذه الآية محمولة على صلاة النافلة على الراحلة في السفر، فإذا كان الإنسان على الراحلة -دابة أو السيارة أو الحافلة أو

الطائرة أو نحو ذلك- وأراد أن يصلي صلاة النافلة، فله أن يصلي أينما توجهت به الدابة أو الراحلة، إلى أي جهة توجهت به فله أن يصلي، وهذا القول قال به ابن عمر رضي الله عنهما وذكر حديث النبي ﷺ أنه كان إذا ركب الدابة وهو في سفر صلى ما شاء أن يصلي وحيث توجهت به الناقة أو توجهت به الراحلة [6] (البخاري ومسلم) وفي هذا دلالة على جواز صلاة النافلة على الراحلة إذا كان مسافرًا، والصلاة لابد أن تكون نافلة، وأن يكون في سفر، وأن يكون هو على الراحلة، أما إذا كانت الراحلة أو السيارة واقفة فليس له أن يصلي إلى أي جهة، لابد أن تكون ماشية.

قالوا: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ هذه الآية فيها دلالة على إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى على الوجه اللائق، وأن الوجه صفة لله ذاتية حقيقية.

قال ابن قتيبة: (﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مُقِرُّونَ بالعبودية، مُوجِبُون للطاعة) معنى القنوت هنا: الإقرار، أي: كل الخلق مسلمهم وكافرهم، كلهم قانتون أي: مقرون بالعبودية، يعني الكافر والمؤمن، فالكافر يقر كرهًا، والمؤمن يقر طوعًا. كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: 15]

قال المؤلف هنا: (والقنوت يتصرف على وجوه) يعني أنه من الألفاظ المشتركة، يطلق على أكثر من معنى في القرآن الكريم، فالقنوت معناه طول القيام كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9] يعني: قائم؛ طول القيام، والقنوت معناه السكوت وعدم التحدث في الصلاة، في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238] كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية

---

[6] عن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يُصلِّي سُبحتَه حيثما توجَّهتْ به ناقتُه (رواه البخاري (1105)، ومسلم (700) واللفظ له)

وعن ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما قال: كان رسولُ الله ﷺ يُصلِّي وهو مُقبلٌ من مكَّةَ إلى المدينةِ على راحلتِه حيث كان وجهُه؛ قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (رواه مسلم (700)

منعوا من الكلام ولزموا الصمت، ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ يعني عدم التحدث في الصلاة، والقنوت يأتي ويراد به الإقرار، فالكفار أقروا بوجود الله.

يقول: (﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مُبْتَدِعُهما) السماوات تأتي في القرآن وهذا يمكن ذكرناه أكثر من مرة، يأتي لفظ الخلق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] ويأتي لفظ فاطر: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 14] ويأتي ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

- فالخلق: هو الإيجاد؛ الإيجاد من العدم
- والفاطر: إيجادها على صورة حسنة
- والبديع: هو إيجادها من العدم بصورة جميلة بديعة، فتقول هذا الشيء بديع وهذا المكان بديع والجو بديع، يعني على أحسن صورة يتقبلها الإنسان، والله عز وجل أبدع السماوات إبداعًا جميلًا حسنًا، فهذا معنى البديع: هو الخلق والإيجاد على أحسن صورة وأجمل صورة، فالبديع الجميل الحسن.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ يقول: لولا هنا بمعنى هلّا، بمعنى التحضيض، يعني هلّا يكلمنا الله؟

قوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ التشابه هنا: التماثل، لأن التشابه أيضًا يطلق على عدة معانٍ، ولكنه هنا بمعنى التماثل، يقول: "تشابهت قلوبهم" أي: تماثلت، على أي وجه تماثلت؟ قال: (في الكفر والفسق والقسوة).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ قال: (هذا للكافر. فليس له شافع فينفعَه) الكافر ما تنفعه الشفاعة، إذًا المؤمن تنفعه الشفاعة، ولذلك يقول: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: 100] لما رأوا الشفاعات ورأوا الشافعين، قالوا: ما لنا نحن شافعين؟ فدل على أن هناك شفاعة لكنها ليست لكل شخص، وفي هذا دلالة على إثبات الشفاعة التي أنكرها المعتزلة، المعتزلة يقولون: ليس هناك شفاعة وأنكروها، وأتوا بالآيات التي فيها النفي: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:

51]، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: 4] بدأوا يذكرون الآيات التي فيها النفي، قالوا: هذه تدل على عدم وجود الشفاعة، لكن أهل السنة والجماعة ذكروا أن الشفاعة تكون يوم القيامة، ولكن بشرطين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: 26] فيأذن الله للشافع ويرضى عن المشفوع، فدل على أن هناك شفاعة.

١٢٤ - ﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: اختبر الله إبراهيم بكلمات يقال: هي عَشْرٌ مِنَ السُّنَّةِ.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي عمِل بهن كلِّهن.

١٢٥ - ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: مَعَادًا لهم، من قولك: ثُبْتُ إلى كذا وكذا: عُدْتُ إليه. وثَابَ إليه جسمه بعد العلة، أي: عاد.

أراد: أن الناس يعودون إليه مرّة بعد مرّة.

﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين. يقال: عكف على كذا؛ إذا أقام عليه. ومنه قوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾. ومنه الاعتكاف؛ إنما هو: الإقامة في المساجد على الصلاة والذكر لله.

١٢٧ - ﴿الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ إسَاسَه. واحدها قاعدة. فأما قواعد النساء فواحدها قَاعِد. وهي العجوز.

١٢٨ - ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمنا.

الشرح

عندنا الآن عدة كلمات، أولًا: ﴿ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: ابتلى معناها اختبر، والله عز وجل يختبر ويبتلي المؤمنين بالحسنات والسيئات، قال: (اختبر الله إبراهيم بكلمات) ما هي الكلمات؟ نقول الكلمات جاءت مبهمة في القرآن الكريم، والمبهم في القرآن الكريم لا يفسر إلا بدليل، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: 37] قيل الكلمات قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] فهذه الكلمات جاءت مبهمة هنا، وقيل عدة أقوال في معناها، من هذه الأقوال قال: (هي عَشْرٌ مِنَ السُّنَّةِ) السنة المراد بها: الفطرة، أن الله سبحانه وتعالى اختبره -ابتلاه- بعشر من الفطرة: الاستنشاق والمضمضة والسواك وتقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط؛ هذه كلها يسمونها سنن الفطرة،

فالله عز وجل ابتلاه بهذه فقام بها، ولذلك قيل إن إبراهيم اختتن نفسه لما بلغ الثمانين، والختان من سنن الفطرة، والله أعلم بذلك. قال: (﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي عمِل بهن كلِّهن).

قال: (﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: مَعَادًا لهم) المراد بالبيت الكعبة. "مثابة": لها معنيان، هو ذكر هنا معنى واحدًا، قال المثابة: المعاد؛ يقول: ثاب فلان إلى كذا إذا عاد إليه، تقول: ثاب اللبن في الضرع إذا رجع، وتقول: وثاب إليه جسمه إذا عاد بعد العلة واستصح بعد العلة. فالإثابة هنا بمعنى العود والرجوع، وهذا يتناسب مع البيت الحرام، فإن الناس كلما دخلوا البيت وكلما زاروا هذا البيت وخرجوا منه اشتاقت قلوبهم إلى البيت، وهذا تحقيق لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37] القلوب تحن على المسجد الحرام، تحن على الكعبة، فـ "ثاب" بمعنى: يرجع كل سنة وكل وقت، كل ما حصل له فرصة أن يأتي رجع. في معنى آخر ذكره بعض المفسرين، وأن هنا "مثابة" من الثواب، وهو الجزاء والأجر ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ أي: مكان ثواب ومكان أجور، يعني في المسجد الحرام والكعبة تُحط الذنوب وتتضاعف الأجور، هذا معناه. فقوله "مثابة" أي أجورًا مضاعفة، فالذي يأتي إلى الحرام يحصل له من الأجور الشيء الكثير.

﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ قال: (﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين) العاكفين يحتمل أن يقال للعاكفين: هم الذين يقيمون عند المسجد الحرام، الذين يسكنون عند المسجد الحرام يسمون عاكفين، لأنهم ملازمون للبيت، ويحتمل أن يكون العاكف الذي يقوم بالاعتكاف المشروع وهو لزوم الطاعة في المسجد. المعنى الأول: "عاكفين" بمعنى المقيمين عند المسجد الحرام، هذه أخذوها من آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: 25] فـ "الباد": القادم من بعيد، والعاكف المقيم في مكة: الساكن، فيحتمل المعنيين، يقول: (يقال: عكف على كذا؛ إذا أقام عليه) قال: (ومنه الاعتكاف؛ إنما هو: الإقامة في المساجد على الصلاة والذكر لله) فالآية محتملة، تحتمل المقيمين الذين يسكنون عند الحرم ويقومون على رعاية الحجاج، ويحتمل أنه الذي يقوم بسنة الاعتكاف بحيث أنه يعتكف اعتكافًا شرعيًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ قال ابن قتيبة: قواعد البيت هي أساسه وأصوله، أصول الشيء قواعده، الواحد منها من القواعد "قاعدة"، بخلاف ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾[النور: 60] فإن قواعد النساء مفردها "قاعد" بغير تاء مربوطة؛ لأنها تطلق على النساء ولا تطلق على الرجال، فيقال: قعدت المرأة عن الحمل وعن الولادة، ويقال هذه امرأة قاعد، لأنها تطلق على النساء مثل ما تقول طالق وحامل وحائض، كلها (صفات) تذكّر لأنها خاصة بالنساء.

قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علمنا يا رب كيف نعبدك، وهذا حقيقة أيها الإخوة دعوة فعلًا ينبغي للإنسان أن يحرص عليها، أنت في دعائك ينبغي دائمًا أن تقول: يا رب أرني مناسكي؛ يعني: أعنّي وافتح لي أبواب الخير في الطاعة، تدعو الله عز وجل أن يفتح لك أبواب خير في الطاعة، أن تستعين بالله وتدعوه أن يعينك على أبواب الخير في الطاعة، يعينك على الصيام ويعينك على القيام ويعينك على قراءة القرآن، ويعينك على الذكر وهكذا... هذه كلها من الطاعات التي تدعو الله عز وجل أن يريك طاعاتك، ويعلمك الطاعات حتى لا تغفل عنها.

١٣٠ - ﴿إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي من سَفِهَت نَفْسُه. كما تقول: غَبِنَ فلان رأيَه. والسَّفَهُ: الجهل.

١٣٥ - (الحَنيفُ): المستقيم. وقيل للأعرج: حَنِيفٌ؛ نظرًا له إلى السلامة.

١٣٧ - ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي في عداوة ومُباينة.

١٣٨ - ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ يقال: دينُ الله. أي: الزم دين الله. ويقال: الصِّبغة الختان. وقد بينت اشتقاق الحرف في كتاب "تأويل المشكل".

الشَّرحُ

يقول: (﴿إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي من سَفِهَت نَفْسُه. كما تقول: غَبِنَ فلان رأيَه. والسَّفَهُ: الجهل) أصل السفه الخفة، وهو النقص في العقل، النقص في العقل يُسمى سفه، فالسفه الخفة. يقول: ﴿إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: أصبح سفيهًا جاهلًا.

قوله: ((الحَنيفُ): المستقيم. وقيل للأعرج: حَنِيفٌ) أصل الحنيف المائل، الحَنَفُ: الميل. وإذا كان يميل يقال: حنيف، وسمي إبراهيم حنيفًا؛ لأنه مائل عن الضلال إلى الحق. يقول إن العرب تطلق على الأعرج حنيف؛ تفاؤلًا، يقول: (نظرًا له إلى السلامة) سُمي الأعرج حنيفًا نظرًا إلى السلامة، يعني تفاؤلًا.

قوله هنا: (﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي في عداوة ومُباينة) العداوة، الشقاق، كل واحد في شق.

قال: (﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ يقال: دينُ الله. أي: الزم دين الله) يعني الْزَمُوا دين الله. (ويقال: الصِّبغة الختان) عمومًا الصبغة لها عدة معانٍ، لكنها هنا مراد بها شرع الله ودين الله.

١٤٣- ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عَدْلا خِيارًا. ومنه قوله في موضع آخر: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: خيرهم وأعدلهم. قال الشاعر:

هُمُ وَسَطٌ يَرْضَى الأَنَامُ بِحُكْمِهِمْ *** إذا نزلَتْ إحْدى الليالي بِمُعْظَمِ

ومنه قيل للنبي صلى الله عليه وعلى آله: "هو أَوْسَطُ قُرَيْش حسبا" وأصل هذا أن خير الأشياء أوساطها، وأن الغلو والتقصير مذمومان.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي على الأمم المتقدمة لأنبيائهم.

١٤٤- ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ نحوه وقَصْدَه.

١٤٨- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: قبلة.

﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: موليها وجهه. أي: مستقبلُها. يريد أن كل ذي مِلّة له قبلة.

١٥٠- ﴿لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: إلا أن يحتج عليكم الظالمون بباطل من الحُجَج. وهو قول اليهود: كنت وأصحابك تصلون إلى بيت المقدس؛ فإن كان ذلك ضلالا فقد مات أصحابُك عليه. وإن كان هدى فقد حُوِّلتَ عنه.

فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم. فلم تكن لأحد حجة.

١٥٧- ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: مغفرة. والصلاة تتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب "المشكل"

الشرح

(الوَسَط) بتحريك السين "وَسَطٌ" غير "وَسْط" بالسكون، "الوسْط" هو التوسّط في الشيء، كقولك: أنا في وسْط المدينة؛ يعني في وسطها، والوسط يكون ما بين الطرفين. و"الوسَط" بالتحريك معناه الخير والأفضل، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خيارًا عدولًا. الدليل عليه ما جاء بعدها قال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، ولا يمكن أن يكون الشهيد إلا عدلًا، ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: 2] فيكون معناها العدالة، قال: (ومنه قوله في موضع آخر: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ

﴿لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: خيرهم وأعدلهم) خيرهم وأعدلهم وأفضلهم وأرجحهم عقلًا، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: 89] يعني من أعدل وأفضل [الطعام]. إذًا كلمة ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: خيارًا وعدولًا.

قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: قصده وجهته ونحوه، تقول: أصلي جهة المسجد، فالشطر من الألفاظ المشتركة؛ لأن الشطر يطلق في اللغة على النصف، «الطهور شطر الإيمان» يعني نصفه، فكلمة الشطر في القرآن هنا في هذه الآية معناها "الجهة".

قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: قبلة. الأمم السابقة النصارى لهم قبلة المشرق، واليهود لهم قبلة، يصلون إلى المسجد الأقصى، والمسلمون لهم قبلة: المسجد الحرام، الكعبة. ولكل وجهة له، ولكل له قبلة هو موليها، أي: قاصدها، متوجه إليها، مستقبلها.

في قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: حتى نبين لكم هذا البيان، حتى لا تقوم حجة على أحد، الذين ظلمهم الظالمون فيحتجون، وحجتهم داحضة باطلة، إلا أن يحتج عليكم الظالمون بباطل وحجتهم داحضة. ثم ذكر لك نموذجًا من حجج الظالمين وهم اليهود، يقولون لمحمد ﷺ لما حُوِّلَت القبلة: "كنت أنت وأصحابك تصلون إلى بيت المقدس، فإن كنتم تعتقدون أن الجهة هذه الصلاة لما تحولتم إلى الكعبة أنها ضلال، فأصحابكم الذين ماتوا على ضلال، فقد مات أصحابك عليه. وإن كان هدى -إن كان المسجد الأقصى هدى- فأنت حوّلت إلى ما هو أقل" فأنزل الله سبحانه وتعالى ردًّا عليهم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يعني صلاتكم ممن صلى قبل، حتى المسلمون الذين في وقت تحويل القبلة صلوا إلى بيت المقدس الله لا يضيع أعمالهم ولا يضيع صلاتهم التي صلوها، في هذا دلالة على أن الإيمان يطلق على العمل، الإيمان قول وعمل، ليس قولًا باللسان فقط، ولذلك سمى الله الصلاة إيمانًا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.

بالنسبة لهذه الآية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، على أن هذا الدين وسط، أي: خيار، عدول، اعتدال بين الغلو والجفاء، هذه أمة معتدلة، لا هي غالية ولا هي جافية، تقول: هؤلاء هم خيار القوم، هم عدول القوم، هم أفضل القوم، خيارهم، هم أحسن القوم، كلها ألفاظ تعطيه معنى واحد.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ قال: (أي: مغفرة. والصلاة تتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب "المشكل") الصلوات من الله قال: مغفرة، هذا وجه للتفسير، الصلاة من الألفاظ المشتركة، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] الله يصلي والملائكة تصلي، ثم المؤمنون قال الله فيهم: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ فأصبحت عندنا في آية واحدة ثلاث صلوات:

- صلاة الله على النبي: وهو ثناؤه، ثناؤه على محمد في الملأ الأعلى.
- صلاة الملائكة: الدعاء لمحمد، أي طلب من الله أن يثني عليه.
- وصلاة العبد الإنسان يصلي، يقول: "اللّهم صل على محمد"، أي: دعاؤك أن تسأل الله أن يثني على نبينا محمد، يزيد ثناءً، وتمجيدًا وتعظيمًا بحق الرسول ﷺ علينا. الصلاة في اللغة الدعاء، والصلاة تطلق في القرآن ويراد بها الصلوات المعروفة، الركوع والسجود وهكذا.

١٥٨- ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا إثم عليه.

﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يَتَطَوَّف. فأدغمت التاء في الطاء. وكان المسلمون في صدر الإسلام يكرهون الطواف بينهما، لِصَنَمَين كانا عليهما؛ حتى أنزل الله هذا.

وقرأ بعضهم: (ألا يَطَّوَّفَ بِهِمَا). وفي هذه القراءة وجهان:

أحدهما: أن يجعل الطواف مُرَخَّصًا في تركه بينهما.

والوجه الآخر: أن يجعل "لا" مع "أن" صلة. كما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ﴾.

هذا قول الفراء.

١٥٩- ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ﴾ قال ابن مسعود: إذا تلاعن اثنان وكان أحدهما غير مستحق للعن، رجعت اللعنةُ على المستحق لها؛ فإن لم يستحقها أحد منهما رجعت على اليهود.

١٦٠- ﴿إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ أي بَيَّنُوا التوبة بالإخلاص والعمل.

الشرح

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ لا جناح يعني: لا إثم؛ في القرآن تأتي كثيرًا كلمة "الجناح" معناها الإثم، قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هنا الإشكال، إشكال في كلمة ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فأدغمت التاء بالطاء وشددت الطاء "يطوف"، يعني لا [إثم] عليه أن يطوف بين الصفا والمروة "يعني السعي".

كان المسلمون في صدر الإسلام يتحرجون من السعي بين الصفا والمروة؛ لأن الصفا عليها صنم، والمروة عليها صنم، فخشيوا أنهم يعظمون هذين الصنمين، فتحرجوا من الطواف، فبين الله سبحانه وتعالى لهم أن الطواف من شعائر الله، أن الطواف بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الله، ولا حرج، ولا يلتفتون إلى هذه الأصنام، فأنزل هذه الآية. فكلمة ﴿لَا جُنَاحَ﴾ متعلقة بالحرج الذي وقع منهم، لا متعلقة بالطواف، الطواف واجب وركن، وليس الجناح متعلق بالطواف نفسه وإنما متعلق [بحرج] الأشخاص لما رأوا الأصنام تحرجوا، حتى نفهم الآية.

يقول في الآية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَلَّا يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾: (وقرأ بعضهم: (ألا يَطَّوَّفَ بِهِمَا). وفي هذه القراءة وجهان: أحدهما: أن يجعل الطواف مُرَخَّصًا في تركه بينهما) يعني: لا حرج ألا تطوف، هذا وجه، والوجه الثاني (أن يجعل "لا" مع "أن" صلة) يقول: ﴿أَلَّا يَطَّوَّفَ﴾ أن تُجعل "لا" مع "أن" صلة، يعني زائدة للتأكيد، مثل قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، وهذه قراءة شاذة، وتسمى شاذة إذا خالفت رسم المصحف؛ لأن الرسم هذا الذي كتب أجمع الصحابة عليه، فإذا جاءت قراءة تخالف الرسم نحكم عليها بأنها شاذة، مثل في قراءة ابن مسعود: «فاقطعوا أيمانهما» بدل ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ هذه تخالف الرسم، نحكم عليها بالشذوذ، مثل هذه ﴿أَلَّا يَطَّوَّفَ﴾ فيها زيادة اللام، هذه نحكم عليها بالشذوذ، وهكذا كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى "صلاة العصر"﴾ هذه قراءة، ولكنها شاذة، فنحمله على أنها تفسير، يعني بيان للقرآن الكريم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (قال ابن مسعود: إذا تلاعن اثنان وكان أحدهما غير مستحق للعن، رجعت اللعنةُ على المستحق لها؛ فإن لم يستحقها أحد منهما رجعت على اليهود ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ أي بَيَّنُوا التوبة بالإخلاص والعمل). هذا تفسير يسمى تفسير بالمثال، كثير عند السلف يفسرون بالمثال، ابن مسعود يقول: «إذا تلاعن رجلان ولعن أحدهما الآخر وهو لا يستحق اللعنة» أين تذهب اللعنة؟ قال: «تذهب لمن يستحقها»، من الذي يستحقها؟ قال: «الذي يستحقها مثل اليهود»، الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: 87] فهذه اللعنة تذهب إليهم؛ لأنهم كتموا الحق، فهذا تفسير بالمثال، يقول: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي: كل ما وقعت لعنة على سبيل المثال، [تذهب لمستحقها] كاليهود.

يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: "بينوا" التوبة بالإخلاص والعمل، هذا معنى من معاني الآية، لكن المعنى [الظاهر] للآية ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ يعني رجعوا عما هم عليه من الكتمان، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عملهم مع الله، وصلحت السريرة والظاهر مع الله، ثم ﴿وَبَيَّنُوا﴾ الحق ولم يكتموه، بينوا الحق. ويقول: (بَيَّنُوا التوبة بالإخلاص والعمل) هذا معنى.

١٦٤- ﴿وَالْفُلْكِ﴾ السُّفن، واحد وجمع بلفظ واحد.

١٦٦- ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾ يعني: الأسباب التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا.

١٦٧- ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي رَجْعَة.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ يريد: أنهم عملوا في الدنيا أعمالا لغير الله، فضاعت وبطلت.

١٦٨- ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تتبعوا سبيله ومسلكه. وهي جمع خُطْوَة. والخُطْوَة: ما بين القدمين - بضم الخاء - والخَطْوَة: الفَعْلة الواحدة؛ بفتح الخاء. واتباعُهم خطواته: أنهم كانوا يحرمون أشياء قد أحلها الله، ويُحلون أشياء حرمها الله.

١٧٠- ﴿نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي وجدنا عليه آباءنا.

١٧١- ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً﴾ أراد: مثلُ الذين كفروا ومثلُنا في وعظهم. فحذف "ومثلنا" اختصارا. إذ كان في الكلام ما يدل عليه؛ على ما بينت في "تأويل المشكل".

﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ وهو: الراعي؛ [يقال: نعق بالغنم ينعق بها]؛ إذا صاح بها.

﴿بِمَا لا يَسْمَعُ﴾ يعني الغَنَم.

﴿إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ حَسْبُ؛ ولا يفهم قولا.

١٧٣- ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير باغ على المسلمين، مُفَارِقٍ لجماعتهم، ولا عَادٍ عليهم بسيفه. ويقال: غير عاد في الأكل حتى يشبع ويتزوّد.

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ما ذُبح لغير الله. وإنما قيل ذلك: لأنه يذكر عند ذبحه غير اسم الله فيظهر ذلك، أو يرفع الصوت به. وإهلال الحج منه، إنما هو إيجابُه بالتَّلْبِيَة. واستهلالُ الصبيِّ منه إذا وُلِدَ، أي: صوتُه بالبكاء.

الشرح

(والفلك): "السفن"، والفلك يطلق على الواحد وعلى [الجمع]، تقول: رأيت فلكًا في البحر وأنت تقصد واحد، وتقول: رأيت فلكًا في البحر وأنت تقصد مجموعة، فكلمة الفلك في لغة العرب تطلق على

الواحد وعلى الكثير، والمقصود بها السفن أو السفينة، ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: 38] واحد، هذا نوح ما صنع إلا واحدة، سمّاها "فلك".

قال: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ معنى الأسباب: "العلاقات"، الصلات والعلاقات، جمع سبب، والسبب هو: الصلة، يعني اتصالك بين شخص وشخص يسمى سبب، ومنه الحبل، الحبل يسمى سبب، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: 15] يعني بحبل، فيقول: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166] يوم القيامة، العلاقات التي بين الكفار وبين أرحامهم وأقاربهم تقطعت ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس:34]، لا علاقة [بينهم] بسبب كفرهم، أما المؤمنون العلاقة موجودة بالمؤمنين، ولذلك حتى العلاقة [بين] المؤمنين ليست في الأرحام والأقارب، بل في الأصدقاء: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67] ليس بينهم عداوة، بل هم متحابون يوم القيامة، فهذا معناه: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ يعني الكفار إذا جاء يوم القيامة، من شدة الهول أو من شدة [الكرب] كل يتبرأ من الآخر، وهذه الآية مثل ما ذكر الله فيها: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

يقول الأتباع للمتبوعين -الرؤساء والأسياد-: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [فنتبرأ]؛ "تبرأنا"، أنتم تبرأتم، نحن نتبعكم في الدنيا ونطيعكم ونسمع لكم، والآن تتبرؤون منا؟! فرعون يأمر مَن تحته، وإذا جاء يوم القيامة تبرأ منهم، حتى الشيطان يتبرأ. فيتبرأ هؤلاء، فيقول: "أنتم تتبرؤون منا الآن، ولو لنا عودة للدنيا ومرة ثانية لتبرأنا منكم، هذه نهايتكم وهذه خاتمتكم تفعلون بنا هكذا"، ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: رجعة، الرجعة إلى الدنيا.

قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ نقول: حسرات يعني يتحسرون، ﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ هذا يسمى بالعذاب النفسي يوم القيامة، العذاب النفسي أشد من العذاب الجسدي، فيتحسرون، تتقطع قلوبهم على أي شيء؟ أولًا على تقطع الصلات وعدم وقوف أحد معهم، والأمر الثاني أعمالهم في الدنيا التي كانوا يعملونها، كالمنافقين مثلًا يعملون، يصلون ويحجون ويجاهدون ويتصدقون، أو الكفار كانوا يعملون أعمالًا حسنة أحيانًا، مثل كفالة الأيتام وإطعام الطعام، كان يفعله الكفار، يطعمون الطعام ويفعلون أشياء، وإقراء الضيف، هذه كانت عندهم موجودة، هذه الأعمال التي يظنونها ستنفعهم، لا

تنفعهم يوم القيامة؛ لأن الأصل فاسد باطل، فإذا بطل الأصل بطل ما فوقه وما تفرع منه، فالأصل "العقيدة" ما عندهم، ما عندهم توحيد، ما عندهم إيمان بالله، فتبطل أعمالهم.

يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (خطوات الشيطان): طرقه ومسالكه، وتزيينه للأعمال، تسويلاته؛ يزيّن ويسوِّل للإنسان، هذا المقصود به، وهي أشياء معنوية، ليست حسية، لا تراها، الشيطان لا تراه أنت، هو يراك لكن أنت لا تراه ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27]، لكنه يأتيك ويزين لك العمل حتى يوقعك في المعصية، هذه خطوات الشيطان، يأتي شيئًا فشيئًا.

(الخطوات): جمع خُطوة، والأصل في الخطوة: الخطوة الحسية، لما تخطو وتمشي كل خطوة مجموعها خطوات، ولذلك في الحديث قال ﷺ: (إذا تَوَضَّأَ فأحْسَنَ الوُضُوءَ، ثُمَّ أتَى المَسْجِدَ لا يُرِيدُ إلَّا الصَّلاةَ -لا يَنْهَزُهُ إلَّا الصَّلاةُ- لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إلَّا رُفِعَ بها دَرَجَةً، أوْ حُطَّتْ عنْه بها خَطِيئَةٌ). وهناك "خَطْوَة" و "خُطْوَة" بالفتح والأخرى بالضم، ما الفرق بينهما؟

* بالفتح اسم المرّة: خطوت خَطوة، جلست جَلسة، مرة واحدة. الواحدة بفتح الخاء.
* اسم الهيئة: يعطيك شيء عن هيئته. تقول: جلست جِلسة المتواضع، بكسرها. جِلسة، فِعلة. إذا كسرتها اسم هيئة. تقول: ومشيت مِشية المتواضع، مِشية بكسر.
* الضم هذه لها معنى آخر.

تقول تأتي بالضم وتأتي بالكسر وتأتي بالفتح. فهنا عندما يقول: ما المقصود بـ (خطوات الشيطان) في الآية؟ قال: الكفار كانوا يحرمون ما تأمرهم الشياطين به مما أحل الله؛ فيحرمون ما أحل الله طاعة للشيطان، كيف عرفنا؟ ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 121] يوحون إليهم بتحريم ما أحل الله أو بإباحة ما حرم الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ "ألفينا": وجدنا، وفي آية أخرى مفسرة: ما وجدنا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: 170].

و﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ (أراد: مثلُ الذين كفروا ومثلُنا في وعظهم) يقول: مثل الكفار ومثل الدعاة الذين يدعونهم، أو مثل حال الرسول ﷺ كمثل صاحب الغنم؛ ينعق وينادي وهي لا تفهم، لا تفهم الكلام، الكفار لا يدركون ماذا يقول الرسول؛ قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171] لا يعقلون، ويقول: (مثلُ الذين كفروا ومثلُنا في وعظهم. فحذف "ومثلنا "اختصارًا).

﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ قال: هذا الراعي صاحب الغنم ينعق يعني: يرفع صوته ينادي، ينعق بالغنم إذا صاح بها، صاحب الغنم الذي يعيش مع الغنم ويرعى بالأغنام في الصحراء ينعق يناديها بأصوات فتأتي أو يناديها وتذهب، هي تفهم هذه فقط، لكن ما تدري ماذا يقال لها، قال: ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾، لا يدري [ما المعنى]، أي الغنم تسمع الصوت لكن لا تدرك ما معنى هذا الصوت. قال: ﴿إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ فقط دعاء ونداء؛ والفرق بين الدعاء والنداء: الدعاء للقريب والنداء للبعيد، النداء فيه رفع صوت، لأن البعيد يجب أن ترفع صوتك، تقول: فلان أناديه، والقريب تقول: أدعوه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: لأكل الميتة والدم ولحم الخنزير إلى آخره. قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، هنا الإشكال، ما معنى غير باغٍ ولا عادٍ؟ قال: (أي غير باغ على المسلمين، مُفَارِقٍ لجماعتهم، ولا عَادٍ عليهم بسيفه) الذي يظهر على المسلمين ليقتل المسلمين أو يعتدي عليهم أو يفارق جماعتهم، هؤلاء يسمون بغاة، الخارج عن طاعة المسلمين يسمى باغي، ويجمع على بغاة. قال: "ولا عاد" أي: معتدٍ بسيفه، يريد القتل ونحوه، هذا تفسير؛ لأن فيها عدة أوجه؛ لأن هذه كلمة مبهمة فتحتمل عدة أوجه، قال: (ويقال: غير عاد في الأكل) أي: يحتمل أنه غير باغٍ معتدٍ على المسلمين، ولا عادٍ، قال أي: في الأكل، يعني متعدٍ في

الأكل، متعدٍ الشبع؛ يأخذ على قدر شبعه لا يزيد، فإذا زاد دخل في هذا النهي؛ لأنك أنت تأكل ليسد رمقك، فإذا سُدَّ الرمق تكتفي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾، "وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ" هذه الوحيدة فيها التقديم بـ "به"، هي وردت في البقرة وفي المائدة وفي النحل وفي الأنعام، في البقرة قُدِّمَت "به": ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ والبقية: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

يقول في معنى "أُهِلَّ": (أي: ما ذُبح لغير الله. وإنما قيل ذلك: لأنه يذكر عند ذبحه غير اسم الله) إذا أراد أن يذبح يقول: باسم فلان، يرفع صوته باسم المسيح باسم كذا، هذا هو الإهلال، الإهلال: رفع الصوت. سُمِّيَ الهلال في السماء هلالًا؛ لأنهم كانوا إذا رأوه رفعوا الأصوات، يرفعون أصواتهم برؤيته، والنبي ﷺ قال: «إذا استَهلَّ الصَّبيُّ صلِّيَ عليْهِ ووُرِثَ» الجنين إذا خرج من بطن أمه يستهل صارخًا، يعني يرفع صوته.

١٧٥- ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ما أجرأهم. وحكى الفراء عن الكسائي أنه قال: أخبرني قاضي اليمن: أنه اختصم إليه رجلان، فحلف أحدهما على حق صاحبه. فقال له الآخر: ما أَصْبَرَك على الله. ويقال منه قوله: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا﴾ قال مجاهد: ما أصبرهم على النار، ما أعملهم بعمل أهل النار. وهو وجه حسن. يريد ما أدومهم على أعمال أهل النار. وتحذف الأعمال.

قال أبو عبيدة: ما أصبرهم على النار. بمعنى ما الذي أصبرهم على ذلك ودعاهم إليه. وليس بتعجب.

الشرح

كلمة "صبرهم" في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ذكر فيها أكثر من وجه من التفسير، الوجه الأول قال: ما أصبرهم يعني: ما أجرأهم على النار؛ كيف يتجرؤون على النار؟ كلمة الصبر هي: حبس النفس، والصبر يأتي في القرآن على وجه المدح، ويأتي على وجه الذم، هنا على وجه الذم، ومثله ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: 16] كله على وجه الذم، يعني صبر على النار ليس صبر مدح. وهناك وجه آخر قال مجاهد: "مَا أَصْبَرَهُمْ على النار، أي: ما أعْمَلَهم بعمل أهل النار" يعني أنهم يعملون.

أصلًا كلمة "ما" هذه فيها خلاف، هل هي "ما" تعجبية أو "ما" نافية. هنا الكلام المتبادر أنها "ما" تعجبية، يعني يُتَعجب من حالهم كيف يصبرون على النار، والصبر هنا الأصل فيه على معنى الصبر الحقيقي، يعني تتعجب من حال الكفار والله قد توعدهم بهذا الوعيد والنار كيف سيصبرون عليها! هذا معناه ﴿مَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي: كيف سيصبرون على النار. لكن هو فسّرها بعدة تفاسير، قال هنا: قال أبو عبيدة – معمر بن المثنى– له كتاب اسمه "مجاز القرآن" على طريقة ابن قتيبة، يتعرض لمعاني الكلمات ويفسر معانيها، قال معناها "ما الذي صبرهم؟" كأنه استفهام، عمومًا مثل ما ذكرنا هو أقرب ما يكون تعجبيًّا، والصبر هو الصبر، كيف سيصبرون ويتحملون النار.

١٧٧ - ﴿ابْنَ السَّبِيلِ﴾ الضَّيْف.

و ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي في الفقر. وهو من البؤس.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض والزَّمَانَةُ والضُّرُّ. ومنه يقال: ضَرِيرٌ بَيِّنُ الضُّر. فأما الضَّر - بفتح الضاد - فهو ضِدُّ النفع.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي حين الشِّدَّة. ومنه يقال: لا بأس عليك. وقيل للحرب: البأس.

١٧٨ - ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ قال ابن عباس: كان القصاص في بني إسرائيل ولم تكن [فيهم] الدِّيَةُ. فقال الله عز وجل لهذه الأمة: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ) والكتاب يتصرّف على وجوه قد بينتها في "تأويل المشكل"

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قال: قبول الدية في العَمْد، والعفو عن الدم.

﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي مطالبة بالمعروف. يريد ليطالب آخذُ الدية الجانيَ مطالبةً جميلةً لا يرهقه فيها.

﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ أي لِيُؤَدِ المُطَالَبُ ما عليه أداء بإحسان لا يَبْخَسُه ولا يَمْطُلُه مطل مُدَافِع.

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عما كان على مَنْ قَبْلَكُم. يعني القصاص.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لكم.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي قتل بعد أخذ الدية.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال قَتَادَة: يقتل ولا تؤخذ منه الدية.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا أعافي رجلا قتل بعد أخذه الدية ".

١٧٩ - ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ يريد: أن سافِكَ الدم إذا أُقِيد منه، ارتدع من يَهُمُّ بالقتل فلم يَقْتُل خوفًا على نفسه أن يُقْتَل. فكان في ذلك حياة.

الشرح

قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ هذا الصبر الممدوح. الصبر الأول صبر مذموم، لا يُمدح صاحبه ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾. هنا يُمدح ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ على سبيل المدح. ما معنى

البأساء والضراء، وما الفرق بينهما؟ قال: البأساء هو الفقر، ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ هذا الفقر، والضراء قال: (المرض والزَّمَانَةُ والضُّرُّ. ومنه يقال: ضَرِيرٌ بَيِّنُ الضُّر) ويقال للرجل الأعمى رجل ضَرير؛ لأنه فقد بصره، يقول: (فأما الضَّر - بفتح الضاد - فهو ضِدُّ النفع) ما الفرق بين الضَّرّ والضُّرّ؟ هذه دقة اللغة العربية، قال: الضَّرّ ضد النفع، يقول: هذا ضار عليك، أي: ضرر عليك، قال ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ» "ضَرر وضِرار وضَرّ" هذا الذي يضرك ضد النفع. الضُّرّ: المصيبة التي تنزل بك، كالأمراض ونحوها، نقول: نزل به ضُرّ. في الحديث قال: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ به» الضُّرّ: المرض الشديد. يقول هنا: والضراء المرض، هذا ثناء من الله ومدح للذين يصبرون في حال الفقر والجوع وشدة المسكنة، يمدحهم الله لأنهم يصبرون لا يتسخطون، وكذلك الذين يصابون بالأمراض، إذا أصيبوا بالمرض فإن موقفهم الصبر، يصبر على ما أصابه، هذا معنى الآية بشكل عام.

بعدها قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ يقول: كُتب عليكم القصاص في القتلى، قال ابن عباس: «كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية» في بني إسرائيل -في اليهود- ليس هناك إلا قصاص، إذا قَتل أحد عمداً أو خطأ أو شبه عمد، القصاص؛ لا دية. والنصارى عكس، القتل عندهم يقابله دية، لا قتل، إذا قَتل شخص لا يُقتل؛ يدفع دية، فجاءت شريعة النبي ﷺ، شريعة محمد التي هي وسط بين هذا وهذا، فمن قَتل خطأ أو شبه عمد فعليه الدية، ولا يُقاد منه، ومن تعمد يُقاد منه ويُقتل إلا إذا تنازل أهل الميت، إذا تنازلوا إلى الدية أو أسقطوه كاملًا، فهذا رحمة من الله سبحانه وتعالى وتخفيف.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ أي: فرض عليكم القصاص. يقول: الكتاب كتب كتابًا، الكتاب في لغة العرب له معاني كثيرة، في القرآن فقط أكثر من عشرة معاني. ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ [الزخرف: 4] يعني اللوح المحفوظ. ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 48] القرآن. فله معاني كثيرة.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾. قد ذكر لك القصاص وهو: القَوَد، القصاص بمعنى يُقتص من القاتل فيُقتل، هذا القصاص. العفو: هو التنازل، إما العفو كاملًا أو العفو بمقابل الدية، قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قال: (قبول الدية في العَمْد، والعفو عن الدم).

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ لاحظ أنه سمى "أخيه" وهو قاتل! هذا يدل على أن القتل أو الكبيرة لا تخرج من دائرة الإسلام خلافًا للمعتزلة وغيرهم، المعتزلة يقولون: صاحب الكبيرة في الدنيا بين منزلتين، وفي الآخرة في عذاب جهنم خالدًا مخلدًا، الله عز وجل سماه أخ، دل على أنه ما زال في دائرة الإسلام.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: العافي أهل الدية، أهل الميت، ما المطلوب منهم؟ اتباعهم بالمعروف، أي: يطالبونه بالمعروف، يأخذون شيء معقول في الدية، تجد بعضهم أحيانًا يطالبون بأشياء تعجيزية، يعني كم دية الميت؟ مثلًا يضعون أرقام خيالية، عشرة ملايين، مئة مليون، خمسين مليون، لماذا؟ هذا تعجيز! هنا يقول لك: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مطالبة بالمعروف، ليطالب آخذُ الدية الجانيَ مطالبة جميلة، أنت تريد أن تحسن إليه، أو نفذ القصاص فيه واقطع رأسه، أمّا أن تؤذيه! لا يجوز هذا، والله عز وجل قال: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي مطالبة جميلة حسنة فيها إحسان فيها تقرب إلى الله فيها طلب الأجر عند الله، هذا المقصود، ليس فيها إرهاق وإزعاج وإتعاب القاتل.

﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ هذا في حق القاتل، عندما يتنازل الورثة في حق القاتل، يقولون: نحن نتنازل، لا نريد أن ننفذ فيك القصاص، أعطنا الدية. فيجلس يماطل فيهم، هذا المقصود. قال: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ يعني ليؤدي المطالب ما عليه أداءً بإحسان، لا يبخسه ولا يمطله، يعني مدافع، فبعضهم يماطل ويتعذر أو يدفع النصف ثم يؤخر الباقي أو يلح عليهم حتى يتسامحون.

﴿ذَلِكَ﴾ أي هذا الحكم والقصاص والدية ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ عما كان عليه من كان قبلكم، ورحمة من الله سبحانه وتعالى لكم، ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: قتل بعد التنازل والتسامح والعفو، يعتدي على الميت [أي على ورثته/أولياء الدم المنتقمين] بمعنى أنك أنت يا صاحب الدية، أخذت الدية فلا تعتدي عليه، لأن بعضهم يقول: نأخذ الدية ثم يأتي واحد من الورثة يقول: لا، لو أخذتم الدية أو لم تأخذوها، أنا سأنتقم منه. فنقول: لا يجوز. ما دام دفع الدية انتهى أمره ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ "حياة" هذه فيها بلاغة عجيبة، وقف عندها أهل البلاغة العربية ووقف عندها كثير من المفسرين ووقفة جميلة، فوجدوا في بلاغتها مع إيجازها، هي موجزة جدًا وتعطي معنى كبير جدًا، كيف القصاص فيه حياة؟ العرب تقول: "القتل أنفى من القتل" أو "القتل أنفى للقتل"، يعني إذا قتلت نفيت القتل، لكن عبارتهم ركيكة، أول شيء فيها كلمة "القتل" والقرآن قال: ﴿الْقِصَاصِ﴾، وفيها تكرار "قتل قتل"، والقرآن ما فيه تكرار، قال: ﴿لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ سمّاه حياة؛ لأن هذا الجاني إذا قُبض عليه وقُتل وشُهّر بقتله سيرتَدِع عدد كبير، فيحيا الناس ويرتاحون من جريمة القتل، هذا معناه.

١٨٠- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالا.

﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يوصي لهم ويقتصد في ذلك، لا يسرف ولا يضر. وهذه منسوخة بالمواريث.

١٨١- ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أي بدل الوصية. فإثْمُ ما بَدَّلَ عليه.

١٨٢- (الجَنَفُ) الميل عن الحق. يقال: جَنِفَ يَجْنَفُ جَنَفًا. يقول: إن خاف أي علم من الرجل في وصيته ميلا عن الحق، فأصلح بينه وبين الورثة، وكفَّه عن الجَنَف - ﴿فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أي على المُوصِي.

قال طَاوُس: هو الرجل يوصي لولد ابنته يريد ابنته.

الشَّرحُ

هذه آية الوصية، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ الخير هو المال، إذا أطلق في القرآن [لفظ] الخير أغلب ما يراد به المال، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8] المراد بالمال الكثير، قد يطلق الخير مقابل الشر، ﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7] هذا ليس مال، هذا عمل، هذا من ألفاظ مشتركة.

يقول: (﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يوصي لهم ويقتصد في ذلك، لا يسرف ولا يضر) يعني: الوصية تكون في الثلث فما دون، هذا مشروع، الثلث، والثلث كثير، واستحب العلماء أن تكون دون الثلث؛ السدس أو الخمس، وقالوا هذه منسوخة من المواريث، وهو قول جمهور العلماء والمفسرين، أن هذه الآية منسوخة بالمواريث، يقول النبي ﷺ: « إنَّ اللهَ قد أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ؛ فلا وصيَّةَ لوارثٍ» هذا صحيح، لكن ذهب بعض أهل العلم وبعض المحققين المتأخرين إلى أن هذه الآية ليست منسوخة، لأنه لا يقال بالنسخ إلا عند التعارض الحقيقي الذي لا يمكن الجمع؛ فإن أمكن الجمع فلا نسخ، وهذه قاعدة عند العلماء والمفسرين في النسخ: "إن أمكن الجمع، فلا نسخ" إذا استطعت أن تجمع بين النصوص فلا تقل بالنسخ إلا عند الضرورة، وهذه الآية محكمة وليست منسوخة، وهي الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف.

أما الأقربون فهذا واضح جدًا، نوصي للأقرب الذي لا يرث، إذا كان عنده أولاد وعنده إخوة، الإخوة لا يرثون مع وجود الأولاد، فيوصي لإخوته إذا كانوا فقراء محتاجين يوصي لهم وصية.

﴿للوالدين﴾ الإشكال هنا، كيف يوصي للوالدين وهم ورثة لا يسقطون أبدًا؟ فقال بعضهم: للوالدين اللذين لا يرثان بمانع من موانع الإرث، فإذا كان الوالدان لا يرثان بمانع من موانع الإرث، فإنه يوصى إليهم، بل تتأكد الوصية، قد يكون الوالد كافرًا والابن مؤمنًا، فمن حق الوالد على الابن وإن كان كافرًا أن يصله في الوصية، هذا قول بعض المحققين.

يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ يعني: بدل الوصية، إذا أوصى هذا الرجل وصية مثلًا لأحد إخوته محتاج، عنده أولاد ومحتاج، فأوصى له، فجاء أحد الأبناء بعد موته وألغى الوصية، قال لا نعطيه أو قال نعطيه شيء يسير، المهم بدل فيها، يقول تعالى فمن بدله فإثمه على من بدله، أما الميت يجري أجره له.

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ الموصي: هذا هو الميت، هو الذي يوصي في ورثه، قد يوصي لمن لا يجوز الوصية إليه، كأن يوصي بحرام، يوصي إلى كلب مثلًا -أعزكم الله- أو يوصي إلى آلات موسيقية، أو خمر، أو أشياء محرمة، أو يوصي لمن يرث، هذا لا يجوز، مثل ما ذكر هنا قال طَاوُس بن كيسان اليماني من التابعين: (هو الرجل يوصي لولد ابنته يريد ابنته) يقول ولد البنت لا يرث فأعطيه، هولا يريده لولد البنت هو يريده للبنت، فهذا يسمونه جنف؛ الجنف هو الميل المحرم. عندنا جنف وعندنا حنف؛ الحنف "حنيف" مائل، والجنف مائل، لكن قالوا الجنف في الذي لا يجوز، والحنف بالجائز، فإبراهيم حنيف يعني: مائل عن كل ما يُعبد من دون الله، متوجهًا إلى الله، هذا يسمى أحنف، ويسمى حنيف المائل إلى الحق. والجنف: الميل إلى الحرام. الفرق نقطة، إن وضعتها تغير المعنى.

١٨٣- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ فُرِضَ.

١٨٤- ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه عِدّة من أيام أخر مثل عدة ما فاته.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ وهذا منسوخ بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. والشهر منصوب لأنه ظرف. ولم ينصب بإيقاع شهد عليه. كأنه قال: فمن شهد منكم في الشهر ولم يكن مسافرا فليصم. لأن الشهادة للشهر قد تكون للحاضر والمسافر.

١٨٦- ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: يجيبوني، هذا قول أبي عبيدة، وأنشد:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى ❊❊❊ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ .

أي: فلم يجبه.

الشرح

يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ قال [المؤلف] كُتِب معناه: فُرِض. هذا كثير في القرآن ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: 178]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: 180]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]، وأحيانًا [تأتي] كتبنا ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45] هذه من أساليب الأمر في القرآن الكريم، قد يأتي بأسلوب خبر "كُتب عليكم وفُرض" ومعروف أن الصيام ركن من أركان الإسلام المفروضة.

قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ من كان مريضًا مرضًا يشق عليه الصيام، ليس كل مرض، قد يكون ألم خفيف لا يفطر، صداع في الرأس مثلًا، أو ألم في اليد أو في القدم، لا يفطر، المريض الذي يصعب عليه الصيام، يشق عليه الصيام بتقارير، فهذا يفطر، أو [الذي] يأخذ علاجات مضطر أن يأخذ علاجًا. قال أو على سفر، السفر الذي يباح فيه، معروف السفر الذي يترخص فيه الإنسان في الصلاة وفي الصيام وفي المسح على الخفين ونحوه. لماذا قال "أو على سفر"؟ لماذا لم يقل "مريضًا أو مسافرًا؟

لأن السفر طارئ لا يستمر، المرض قد يستمر، السفر طارئ فكأنه شيء عارض وينتهي، ارتحله على سفر، ثم نزل مثل ما ترتاح الراحلة، فلذلك السفر دائمًا لا يستقر، الإنسان ينتقل مكان لمكان ليس دائمًا على سفر.

قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ هنا يسمونها علماء البلاغة الحذف، حذف مقدر، ومن كان منكم أيضًا أو على سفر "فأفطر"، فأفطر فعليه عدة، لم يفطر لا عدة عليه، هذا معناه، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال هذا منسوخ بقوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ قال المنسوخ من الآية ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يقول كان مخيرًا، من أراد أن يصوم يصوم، من أراد أن لا يصوم يفطر ويطعم، ثم في الأخير جاء الحكم ليس فيه إفطار إلا لأهل الأعذار، هذا قول كثير من المفسرين، هناك قول آخر وهو أن الآية محكمة ليست منسوخة؛ لأن قوله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هم حملوا هذا على اللذين يطيقون يعني: على الذين يقدرون عليه، الذي يقدر عليه يفدي ويفطر. وفي معنى آخر، وعلى الذين يطيقونه، معنى الطاقة هنا: المشقة؛ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ على الذين يشق عليهم، مثل المريض الذي لا يرجى برؤه، لا يمكن أن يصوم على طول السنة، أو الرجل الكبير في السن الطاعن الذي وصل سن الهرم، أو امرأة عجوز، أو رجل يستعمل علاجات على طول السنة مدى حياته، يجب أن يأخذ كل ست ساعات علاج لا يستطيع أن يصوم، فهذا يقال فيه ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نقول أنت عليك فدية مثل ما صنع أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنس لما كبر ما صام، بدأ يفدي، يفدي فدية عن كل يوم يطعم مسكينًا نصفه صاع من قوت البلد، أو تعطي وجبة غداء، أو وجبة سحور، أو وجبة إفطار، أو غداء، أو عشاء.

هذه الآية محكمة أعطتنا حكم جديد، الحكم الأول المريض الذي مرضه يزول يرجى برؤه والمسافر، هؤلاء يفطرون ويقضون، ومن لا يستطيع القضاء أصلًا، لا عليه صيام أبدًا [ويطعم]، يبقى عندهم جملة ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ هذه عائدة على الجميع، تعود على المريض الذي يرجى برؤه إن استطاع أن يصوم أولى، المسافر إن استطاع أن يصوم، لأن بعض الناس كالذي يسافر بالطائرة من الرياض إلى جدة، لا يأخذ إلا ساعة ونصف أو ساعتين، ولا يجد مشقة، فنقول: أن تصوموا خير لكم، لأن هذا فيه إبراء للذمة،

وإن أفطرت جائز، كل هؤلاء تعود عليهم. تطوعه أيضًا في الفدية، الفدية نصف صاع، فمن قال: أستطيع أن أطعم أكثر، نقول ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ أخرج نصف صاع وزيادة.

يقول: (﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ والشهر منصوب لأنه ظرف) منصوب بالظرفية، يسمونه المفعول فيه، قال: (ولم ينصب بإيقاع شهد عليه. كأنه قال: فمن شهد منكم في الشهر ولم يكن مسافرًا فليصم) يعني: من حضر، حضر الشهر، قال: (لأن الشهادة للشهر قد تكون للحاضر والمسافر) لما حضر الشهر قد يكون الرجل حاضر أو مسافر، المهم جاءه خبر [دخول الشهر] وليس المراد بالشهادة هنا الرؤية، قد لا يرها، قد يكون أعمى، أو قد لا يرى الهلال، المقصود الشهود هنا هو حضور أو إبلاغ، كأن يبلغ أن الشهر دخل، أعلن عن دخول الشهر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ المؤلف يقول [في كلمة فليستجيبوا]: (﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: يجيبوني) يستجيبوا: يجيبوا، السين للتأكيد، قال "فليستجيبوا" والتاء كذلك [للتوكيد]، قال يستجيبوا يعني: يجيبوا.

١٨٧ - ﴿الرَّفَثُ﴾ الجماع. ورفث القول هو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه من ذكر النكاح.

﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بارتكاب ما حرّم الله عليكم.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني من الولد. أمْرُ تأديب لا فرض.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أمرُ إباحة.

﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ وهو بياض النهار.

﴿مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ وهو سواد الليل. ويتبين هذا [من هذا] عند الفجر الثاني.

﴿عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [أي مقيمون] والعَاكِفُ: المقيم في المسجد الذي أوْجَبَ العُكُوفَ فيه على نفسه.

الشرح

هذه في تتمة آية الصيام ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ الرفث هو الجماع، لكن الله يكني، و [الكنايات عن الجماع] كثير في القرآن، لم يصرِّح بالجماع ولا في آية واحدة، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، وقال: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 21]، وقال: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، حتى أيضًا جاء في آية قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: 189]، كل هذي كنايات، فينبغي للإنسان أن يتأدب بأدب القرآن، ولا ينبغي أن يصرح بمثل هذه الأمور إلا بالكناية. قال ابن عباس: (إن الله حيي كريم، يكنِّي عما شاء) ، فينبغي للإنسان أن يكون حييًا كريمًا لا يتكلم في هذه الأمور.

ثم أمر آخر، أن رفث ليس المراد به الجماع مباشرة، إنما المراد به الجماع ومقدمات الجماع، وهذه كلها يمنع الصائم عنها، ويمنع الحاج عنها، الحاج والصائم، يحفظ لسانه الصائم، والحاج يحفظ حجه من الحديث والخوض في مثل هذه الأمور، حتى في مقدمات هذه الأمور ينبغي أن يكف عنها وهو صائم.

يقول: (﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخونونها بارتكاب ما حرّم الله عليكم) قيل أنها نزلت في عمر رضي الله عنه، وفي غير عمر، أنه وقع على امرأته في ليالي رمضان، أول الإسلام كان الرجل إذا غربت الشمس يباح له كل شيء، الطعام والشراب والجماع وكل شيء، حتى يصلي العشاء أو ينام، فإن نام أو صلى العشاء لا يجوز

له الأكل ولا الشرب ولا جماع، هذا في أول الإسلام، فوقع عمر على امرأته بعدما صلى العشاء، فجاء إلى النبي ﷺ وأخبره بذلك، فجاءت هذه الآية، قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تخونون أنفسكم يعني: تزين له النفس حتى يقع، ثم رفع الله عنهم بإباحة الأكل والشرب والجماع ليالي رمضان كلها، قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

قال: (﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعني من الولد. أَمْرُ تأديب لا فرض) أي: طلب الولد، بعضهم قال طلب التسمية عند الجماع، وابتغوا ما كتب الله لكم من الذرية.

قال: (﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أمرُ إباحة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ وهو بياض النهار) هذه كناية من كنايات القرآن، والمراد به طلوع الفجر، من الخيط الأسود: غروب الشمس. كلوا واشربوا ليالي رمضان حتى يطلع الفجر الثاني الصادق؛ لأن الفجر فجران؛ فجر كاذب وفجر صادق، الذي يذهب إلى الصحراء يرى في الأفق في الشرق، أول ما ينبثق الفجر يأتي مستطيل أعلاه عريض وأسفله أدق، يقول العلماء وأهل الفقه: مثل ذنب السرحان؛ الذئب، دقيق ثم يعترف فوق، ترى البياض ساطع واضح، هذا انفجار الفجر، مجيء الفجر، لكنه فجر كاذب وليس بالفجر الصادق، ثم بعد زمن يأتي الفجر الصادق، وهو البياض المعترض أفقي، وليس عمودي، إذا كنت في الصحراء ترى البياض يأتي من كل الاتجاهات؛ هذا هو الصادق بداية النهار، ثم يزيد ويزيد حتى تطلع الشمس، هذا يسمى الخيط الأبيض.

قال: (﴿عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [أي مقيمون] والعَاكِفُ: المقيم في المسجد) الاعتكاف: هو لزوم المسجد للطاعة، وهو مشروع في رمضان وفي غير رمضان، وفي العشر الأواخر وفي العشر الأول، وفي العشر الوسط كلها جائز، ويجوز أن تعتكف ساعات، ليس ضروري أيام، إذا دخلت تصلي العصر في المسجد ادخل بنية الاعتكاف حتى تغرب الشمس، إذا دخلته بعد المغرب إلى الساعة العاشرة لصلاة التراويح أدخل بنية الاعتكاف، الاعتكاف يجوز في يوم كامل وأقل وأكثر.

١٨٨ - ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض بشهادات الزور.

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي تدلي بمال أخيك إلى الحاكم ليحكم لك به وأنت تعلم أنك ظالم له. فإن قضاءَه باحتيالك في ذلك عليك لا يحل لك شيئا كان محرمًا عليك.

وهو مثل قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله "فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذه؛ فإنما أقطَعُ له قطعة من النار".

الشرح

﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أموالكم أي: أموال إخوانكم، هذا كثير من القرآن، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29]، أي لا تقتلوا إخوانكم ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11] لا تلمزوا إخوانكم، عبّر بهذا لأن الإخوان كالنفس واحدة، كالجسد واحد، فإذا لمزت أخاك المسلم كأنك تلمز نفسك، وإذا اعتديت على ماله كأنك اعتديت على مالك، وهذا معنى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ويحتمل المراد به مال أخيه المسلم وماله، فلا يأكل ماله بالباطل، بمعنى أنه يستعمله في الحرام، ولا يأخذ مال أخيه بطريق محرم. (أي لا يأكل بعضكم مال بعض بشهادات الزور) أحيانًا يدلي بشهادة زور، يأتي بشاهد أو شاهدي زور ويقول هذا مالي، وهذه أرضي، وهذه سيارتي، وهذا جوالي، وهذا كذا... فيأتي شاهدين معه، يرفع قضية عليه أن هذا له، فيأخذ ماله، فهذا في قوله: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ الإدلاء هنا بالحكام: يدلي إما بالمال نفسه، يكون معه في يده، يقول هذا مالي، وهذه السلعة لي، أو عند الحاكم. أو أنه يدلي الحاكم برشوة فيأتي لحاكم ويعطيه مبلغ حتى يقضي له، فهذا كله لا يجوز حرام. يقول: (ليحكم لك به وأنت تعلم أنك ظالم له. فإن قضاءَه باحتيالك في ذلك عليك لا يحل لك شيئا كان محرمًا عليك) هذا كله لا يجوز.

والرشوة ملعون صاحبها ومن كبائر الذنوب، حتى إن كان مظلومًا ولا يستطيع أخذ حقه إلا بالرشوة لا يجوز، لعن الله الرائش والمرتشي، ولا تجوز إلا إذا كان في نطاق ضيق جدًا، مثلًا: يضيّق عليه في دينه، ولا يستطيع الخروج أو فك نفسه إلا بدفع مال، في هذا الجانب أباحه بعض أهل العلم، إذا كان في نطاق ضيع، أما الرشوة محرمة لا تجوز أبدًا.

١٨٩ - وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ قال الزُّهْرِي: كان أناس من الأنصار إذا أهلُّوا بالعُمْرَة لم يحل بينهم وبين السماء شيء، يتحرجون من ذلك. وكان الرجل يخرج مهلًّا بها فتبدو له الحاجة فيرجع فلا يدخل من باب الحجرة من أجل السقف ولكنه يقتحم الجدار من وراء. ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته. وكانت قريش وحلفاؤها الحُمس لا يبالون ذلك. فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ أي: بِرُّ من اتقى. كما قال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي بِرُّ من آمن بالله.

الشرح

هذه الآية تدل على أهمية أسباب النزول، لا يمكن لأحد أن يفسر القرآن إلا بسبب النزول. ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ هذا معناه متعلق بسبب النزول، كتفسير آية: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: 37]، لا تعرف النسيء إلا إذا رجعت إلى سبب النزول وتفهم معنى الآية. فهذا من أقوى مما يدل على أهمية أسباب النزول في تفسير القرآن. كان الأنصار وغيرهم إذا خرجوا للحج أو العمرة وجاؤوا إلى بيت الله، وسعوا وأدوا هذه فريضة، إذا رجعوا لا يرجعون من الباب الذي خرجوا منه، قالوا هذا باب خرجنا معه ومعنا معاصي، فيأتون البيت من خلفه عند الرجوع ﴿مِن ظُهُورِهَا﴾، فقال جَلَّجَلَالُهُ هذا ليس من البر، تأتي مع الباب أو من خلفه، لا علاقة له في البر، البر لمن آمن بالله، البر والطاعة فيما شرع الله، ليس فيما لم يشرعه الله، فاعتقاد مثل هذا خاطئ.

ولذلك تلاحظون [أناس نراهم] في الحرم، إذا أراد أن يخرج من الحرم، يرجع للخلف حتى لا يجعل ظهره على الكعبة، رأيتهم يرجعون إلى الخلف، يرجع حتى تقول هذا سيسقط على خلفه، إلى أن يصل الدرج يرجع، هذا لا يسمى بر، من قال لك تفعل هذا؟ هذا خطأ، فمثل هذه الاعتقادات كلها بدعة خاطئة.

١٩٠- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تعتدوا على من وَادَعَكُم وعَاقَدَكُم.

١٩١- ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم.

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يعني من مكة.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ يقول: الشرك أشد من القتل في الحرم.

١٩٣- وكذلك قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك.

وقوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي لا سبيل. وأصل العدوان الظلم. وأراد بالعدوان الجزاء. يقول: لا جزاء ظلم إلا على ظالم. وقد بينت هذا في كتاب "تأويل المشكل".

١٩٤- ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ قال مجاهد: فخرت قريش أن صَدَّت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن البيت الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام. فَأَقَصَّهُ الله فدخل عليهم من قَابِلٍ في الشهر الحرام في البلد الحرام إلى البيت الحرام. وأنزل الله ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ أي: من ظلمكم فجزاؤه جزاء الاعتداء. على ما بينت في كتاب "المشكل".

الشرح

قال: (﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾ أي لا تعتدوا على من وَادَعَكُم وعَاقَدَكُم)

أي: بينكم وبينهم موادعة، يعني معاهدة، أهل الذمة وأهل العهد لا يجوز قتالهم، وكذلك كل من لا يجوز قتاله لا تعتدي عليه، كالمرأة، والصبي، والرجل الأعمى، والرجل في صومعته، هؤلاء كلهم قالوا لا يجوز الاعتداء عليه، ولا تعتدي على قطع الأشجار وعلى قتل الحيوانات في القتال، كل هذا محرم لا يجوز، لا تعتدي قاتل من يقاتل ولا تعتدي.

قال: (﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي حيث وجدتموهم) "ثقف" تختلف عن "وجد"، ثقف الشيء غير وجوده، عندما تقول: ثقفت فلان، تختلف عن: وجدته، لأن الثقف يكون بعد مجاهدة وتعب، تثقفه بمعنى: بعد مجاهدة وتعب، ولذلك سمى الرجل مثقفًا إذا جاهد نفسه في العلم والقراءة والاطلاع حتى يسمع من هنا ومن هنا يصل إلى درجة الثقافة، يقول: هذا رجل المثقف، لأنه حصل على علوم بجهد. كذلك نقول ثقفت فلانًا إذا وجدته بعد تعب وبحث.

قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ يقصد مكة، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ الفتنة هنا الشرك: الشرك أشد من القتل، ويدخل في ذلك ما يفعله المشركون بالمسلمين من الحبس والتضييق والإيذاء والتعذيب. قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: فإن انتهوا فلا ظلم إلا على الظالم، أما الذي لم يظلم لا تظلمه.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ يقول هذه نزلت في صلح الحديبية، قاضى أهل مكة على العمرة في العام القادم تسمى عمرة القضاء، معنى القضاء ليس القضاء أنه يقضي عمرة فاتت مثل ما تقضي الصلاة، لا، المراد بالقضاء هنا هوما قاضى به أهل مكة، أي: ما اتفق معهم عليه. تقول: قاضيت فلانا فقضى لي؛ حكم لي، فهي مثل المحاكمة بينهم، لأنه اتفق مع أهل مكة على أن يرجع هذا العام ويأتي من العام القادم، فسميت عمرة القضاء. ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ لما منعوه في ذي القعدة السنة السادسة، فجاء في السنة السابعة في ذي القعدة ودخل مكة.

يقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ هذا يسميه العلماء من باب المشاكلة، أنت ما اعتديت، أنت أخذت حقك، لا يسمى اعتداء، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40] هذه ليست سيئة، أنت أخذت حقك فلا يسمى سيئة، فقالوا هذا من باب المشاكلة في لغة العرب، وإلا هو أخذ حقه.

١٩٦- ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ من الإحصار. وهو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين الحج من مرض أو كَسْرٍ أو عدو. يقال: أُحْصِرَ الرجلُ إحْصارًا فهو مُحْصَر. فإن حُبِسَ في سجن أو دار قيل: قد حُصِرَ فهو مَحْصُور.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي فما تَيَسَّرَ من الهَدْي وأمكن. والهَدْيُ ما أُهدِيَ إلى البيت. وأصله هَدِيٌّ مشددٌ فخفف. وقد قرئ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدِيُّ مَحِلَّهُ﴾ بالتشديد. واحده هَدِيَّةٌ. ثم يخفف فيقال: هَدْيَة.

﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ هو من حَلَّ يَحِلُّ والمَحِلُّ: الموضع الذي يحل به نحره.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ أراد فَحَلَقَ.

﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾ فحذف "فحلق" اختصارا، على ما بينت في "تأويل المشكل"

﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ أي ذَبْح. يقال: نَسَكْتُ لله، أي: ذَبَحْتُ له.

١٩٧- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحْرَمَ.

﴿فَلا رَفَثَ﴾ أي: لا جماع.

﴿وَلا فُسُوقَ﴾ أي: لا سباب.

﴿وَلا جِدَالَ﴾ أي لا مِرَاء.

١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: نفعا بالتجارة في حجّكم.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ أي دَفَعْتُم ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾

١٩٩- ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ كانت قريش لا تخرج من الحرم، وتقول: لسنا كسائر الناس، نحن أهل الله وقُطَّانُ حَرَمِه: فلا نخرج منه. وكان الناس يقفون خارج الحرم ويُفِيضون منه. فأمرهم الله أن يقفوا حيث يقف الناس: ويفيضوا من حيث أفاض الناس.

٢٠٠- ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ كانوا في الجاهلية إذا فرغوا من حجهم ذكروا آباءهم بأحسن أفعالهم. فيقول أحدهم: كان أبي يَقْرِي الضيف ويصل الرحم ويفعل كذا ويفعل كذا. قال الله عز وجل: ﴿فاذْكُرُونِي كذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾؛ فأنا فعلتُ ذلك بكم وبهم.

٢٠١- ﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي نعمة. وقال في موضع آخر: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي نعمة.

٢٠٢- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي لهم نصيب من حجهم بالثواب.

٢٠٣- ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ أيام التَّشْريق. والأيام المعلومات: عَشْرُ ذي الحجة.

الشرح

هذه الآيات كلها تتحدث عن أحكام الحج، هي والتي قبلها أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196].

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾. الإحصار نوعان:

* إحصار: بمعنى المنع، المنع لسبب عارض كالمرض مثلًا، أو الحادث، أو السيل، أو العدو، أو أي شيء يمنعك منعًا، فهذا يسمى صاحبه مُحْصِر، من الفعل الرباعي أَحْصِرَ، فهو مُحْصِر.

* الثاني أن يكون المانع حَبْسٌ في سجن أو دار، فهذا صاحبه يسمى محصور، من الفعل الثلاثي: حَصَرَهُ فهو محصور، يعني: حصرناه في السجن فهو محصور، هذا لا علاقة له في الإحصار في الحج، لما يُحصر في مكان؛ يُغلق عليه في سجن أو في دار أو في بلدة لا يخرج منها، يسمى محصور، وهذا لا علاقة له في موضوع المنع من وصوله إلى أداء الحج.

المنع الذي من وصوله إلى الحج لم يقل الله فإن حُصِرْتم، بل قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ من الفعل الرباعي، يُفَسَّر على أن هناك شيء أحصره، أي مانع يمنعك من الوصول لأداء الحج؛ أنت خرجت وأحرمت من الميقات، ثم جاءك ما يمنعك من الوصول إلى الحرم، إما بسبب عدو أو سيل مطر شديد، أو حادث سيارة، أو مرض، أو عارض من العوارض، أي عارض، هذا يسمى محصر.

إذا مُنع وهو عليه إحرامه، ماذا يصنع؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196] مثل ما حصل للنبي ﷺ في صلح الحديبية، أراد أن يدخل مكة بعد إحرامه منعته قريش، هذا يسمى مُحصر، لا يسمى محصور. لما النبي ﷺ أُحْصِرَ في صلح الحديبية، نحر وحلق ورجع إلى المدينة، وتمت عمرته.

هذا الذي جاء إلى العمرة أو إلى الحج، ومُنع بأي سبب من الموانع، يجب عليه أن يهدي ويتحلل، هذا إذا لم يشترط في الميقات، إذا اشترط في الميقات وقال: "إن حبسني حابس، فمحلي حيث حبستني" فهذا يتحلل ولا عليه شيء، أما الذي لم يشترط، يلزمه الهدي.

لو أنه مُنع من دخول المشاعر - عرفات ومزدلفة ومنى - وجاء عليه إحرامه أو لم يكن عليه إحرامه - لأن لبس الإحرام هو واجب من واجبات الحج - يكون قد ارتكب محظورًا، فيجب عليه فدية الأذى؛ أن يذبح شاة ويوزعها على فقراء الحرم، أو يتصدق على ستة مساكين، أو يصوم ثلاثة أيام، هو مخير، ويأتي بملابسه ويدخل، لو دخل بملابسه ثم أراد دخول المشاعر - عرفات أو مزدلفة أو منى أو الحرم - ومُنع، مثل الآن في وقتنا الحاضر ليس معه تصريح فمُنع من الدخول، فهذا إن لم يكن اشترط في الميقات فهذا يُعتبر مُحصرًا وعليه الهدي.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196] الهدي هو بهيمة الأنعام: الإبل أو البقر أو الغنم، يقدمها وينحرها ولا يأكل منها، يعطيها الفقراء، بخلاف الهدي الذي يقدمه وهو حاج أو معتمر، الهدي الذي يقدمه وهو حاج أو معتمر هذا ليس فدية وليس بسبب مانع، هذا يأكل منه. (وأصله هَدِيٌّ مشددٌ فخفف. وقد قرئ: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدِيُّ مَحِلَّهُ﴾ بالتشديد. واحده هَدِيَّةٌ. ثم يخفف فيقال: هَدْيَة) الهدي قُرِئ بقراءتين، "الهدي" بالتخفيف أو بالتشديد: "الهديّ"، الهديّ جمع هدية؛ لأنه يهدى إلى البيت.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: 196] أي إذا أحرم يمنع من أن يرتكب محظورًا من محظورات الإحرام، وأشهرها حلق الرأس أو تقليم الأظافر أو تغطية الرأس أو لبس المخيط أو لبس النقاب للمرأة أو القفازين، أو الطيب، أو ارتكب أي محظور من محظورات الإحرام المعروفة، إذا ارتكب

في هذه الحال عليه فدية أذى، لكن هنا يمنع، يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: 196]، محله أي: وقت إحلاله؛ وقت إحلاله يوم العيد، إذا رمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس أو بعد منتصف الليل لأهل الأعذار، ورمى جمرة العقبة، ففي هذه الحال يحلق، أو يتحلل التحلل الأول، التحلل الأول يحصل باثنتين من ثلاث: رمي جمرة العقبة والطواف، أو رمي جمرة العقبة والحلق، أو الحلق والطواف، ففي هذه الحالة يعتبر الهدي بلغ محله.

كيف بلغ محله؟ لأن الهدي لا يلزم الحجاج كلهم، قد يكون مفردًا ليس عليه هدي، أو من أهل مكة لا يلزمهم الهدي، حاضر للمسجد الحرام ليس عليهم هدي، فالهدي مقصود به من يلزمه الهدي، من يلزمه الهدي لا يحلق حتى [يبلغ الهدي محله]. لو فرضنا أن واحدًا حج متمتعًا ولزمه الهدي، لكنه لم ينحر هديه إلا في اليوم الثالث عشر، هل يجوز أن يحلق رأسه؟ نقول يجوز؛ لأنه لا علاقة له، لا يرتبط، المقصود محله أي وقته، ووصل الوقت الذي هو يوم العيد، إن أخّر النحر هذا يرجع له، ليس له علاقة.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ [البقرة: 196] يعني: يتأذى من رأسه أو مرض في رأسه أو نحو ذلك، أو مريضًا في جسمه ولا يستطيع لبس الإحرام، لابد أن يلبس مخيطًا أو نحو ذلك؛ ففي هذه الحال ارتكب محظورًا من محظورات الإحرام، فحلق رأسه أو لبس مخيط أو غطى رأسه -قد يكون يتأذى من الشمس لا يتحمل ويُنصح بتغطية الرأس- نقول غطِّ رأسك وعليك فدية، فدية من صيام أو صدقة أو نسك، الآية فيها حذف، والحذف تكلم عنه المؤلف في تأويل مشكل القرآن، الحذف موجود في القرآن، مثل قوله تعالى مثلًا: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 185] أي: فأفطر في الصيام، وهنا: "فحلق".

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: 197] ذكر أنها شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة على هذا القول المشهور، وبعضهم يقول هي ذي الحجة كلها كاملة تعتبر من أشهر الحرم، ثمرة الخلاف أن من أخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة -إلى تسعة وعشرين ذي الحجة- يعتبر أدى الطواف في وقته، لا يعتبر أنه أخّر الطواف عن وقته.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾[البقرة: 197] هذا القول هو المشهور، ، قال: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي في هذه الأشهر، وأحرم، المقصود أنه أحرم في شوال، ذهب إلى مكة وأحرم، قال عند الميقات: "لبيك عمرة متمتعًا بها إلى الحج" أو قال "لبيك حجًا" أو "لبيك حج وعمرة" الأنساك الثلاثة، فيعتبر دخل في أحكام الحج.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾[البقرة: 197] قال: الرفث هو الجماع، ويدخل فيه مقدمات الجماع من التقبيل واللمس ونحوه، وكذلك يدخل فيه الحديث عن الجماع، ولذلك يمنع الحاج أو المحرم من الخطبة وعقد النكاح.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال الفسوق: السِباب، الفسوق يدخل فيه كل قول وفعل محرم؛ حلق اللحية فسوق، تحلق وأنت محرم فسوق، أي عمل فيه ارتكاب محظور محرم في الشريعة داخل في الفسوق، فسواء كان فعلًا أو قولًا، كالتدخين فهو حرام لا يجوز، أو كالذين يسبون ويشتمون ويقعون في الغيبة والنميمة ونحو ذلك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ليس على إطلاقه؛ الجدال هنا الجدال الذي لا مصلحة فيه، ليس وراءه مصلحة، أما الجدال الذي فيه نتيجة وفيه مصلحة وفيه دعوة إلى الله لا مانع فيه، لكن بقدر محدد، لا يسرف في الجدال، وإن كان في مصلحة لا يسرف، أنت حاج ومحرم، إذا صادفك شخص أراد منك أن تبين له مسألة، أو بدأ يناقشك، تناقشه بحدود معينة وتبين له الحق وتمضي، لا تطيل في الجدال.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: 198] المراد بالفضل هنا: التكسب والتجارة في الحج. فليس هناك مانع لو جاء شخص معه بضاعة، ولذلك تلاحظون أحيانًا في الحج يأتون أشخاص من خارج المملكة، يأتون معهم ببضائع يبيعونها، نقول لا مانع، أو شخص من الداخل أخذ معه بضاعته وبدأ يبيع في عرفات وفي منى ومزدلفة، يجوز البيع لكن بحدود، لا يكون وقته كله في البيع، عرفة وعشية عرفة والناس يدعون يبيع وهو حاج؛ ضيّع وقته، فيبيع بحدود معينة، فالبيع والشراء جائز.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: 198] أي دفعتم من عرفات، الإفاضة هي: الدفع بقوة، ومنه فاض الإناء بالماء إذا امتلأ، ولأن الدفع يكون لأشخاص بأعداد كبيرة، سمي إفاضة، لأنه لا يدفع اثنين أو ثلاثة في الحج، بل أعداد هائلة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198] المشعر الحرام هو مزدلفة، جبل صغير أقيم عليه مسجد الآن.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199] هذه الآية فيها خلاف، هنا يقول المؤلف: (كانت قريش لا تخرج من الحرم) أي يقفون على حدود الحرم على مزدلفة، لا يذهبون إلى عرفات، ولا يقفون فيه أبدًا. يقولون: (لسنا كسائر الناس، نحن أهل الله وقُطَّانُ حَرَمِه: فلا نخرج منه) فأمرهم الله بالخروج، قال: (وكان الناس يقفون خارج الحرم ويُفِيضون منه. فأمرهم الله أن يقفوا حيث يقف الناس: ويفيضوا من حيث أفاض الناس) يفيضون مع الناس ولا يمتنعون، هذا رأي. والرأي الآخر أن المراد هنا بالإفاضة هي: الإفاضة إلى منى، ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي إلى منى، إلى جمرة العقبة يوم العيد.

لكن الذي يظهر -والله أعلم- هو الرأي الثاني، أن المراد هنا هي الإفاضة إلى منى، لأن الآية تأتي مرتبة، كيف يقول: "أفيضوا إلى المشعر الحرام مزدلفة" ثم يقول: "ثم أفيضوا إلى عرفات"؟ لا يكون فيه ترتيب، لكن عندما نقول في الآية ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: 198] ذكر عرفات، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198] هذه مزدلفة. ثم قال: "ثم أفيضوا من المشعر الحرام إلى منى" تفسير قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199]، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 203] هذا التكبير والتلبية؛ لأن بعد التلبية، بعد رمي جمرة العقبة يبدأ التكبير، تنقطع التلبية عند الرمي، في هذه الحالة الذي يظهر والله أعلم أن المراد بها الإفاضة إلى منى.

قل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 200] هذا واضح؛ أنهم كانوا يمجدون ويعظمون آباءهم؛ لأنهم إذا رموا جمرة العقبة جلسوا في منى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، بدأوا يذكرون أشياء عن آبائهم وأجدادهم، ونحن قبيلة كذا ونحن قبيلة كذا ونحن عندنا كذا ونحن عندنا شعراء وعندنا خطباء، وقال الله: اذكروا نعمة الله، اذكروا الله عز وجل، اذكروا الله في هذه الأيام وأكثروا من والتهليل والتكبير، ولذلك النبي ﷺ أمر، قال عن أيام التشريق: «إنها أيام أكلٍ وشرب وذكرٍ لله عز وجل»، فيشتغل الإنسان بالذكر، ولذلك ابن عمر رضي الله عنه كان يكبر في منى في قبته، فيكبر الناس بتكبيره فترتج منى بالتكبير، هذا هو المشروع.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 200-201]، الله ذكر أقسام الناس على قسمين: فمنهم من يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ هذا يطلب الدنيا، والثاني قال: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ هؤلاء هم الذين يطلبون حظ الدنيا والآخرة.

المراد بالحسنة يقول المؤلف: (﴿آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي نعمة) لم يفسر الحسنة في الآخرة؛ لأنها ظاهرة، حسنة الآخرة الفوز بالجنة، لكن في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هذه فيها أقوال كثيرة للسلف، ما المراد بالحسنة في الدنيا؟ قيل: النعمة كما ذكر هنا، وبعضهم على خلاف كثير، لكن الأرجح ما ورد عن الإمام الحسن البصري رحمه الله أن المراد بالحسنة في الدنيا: العلم والعمل؛ يعني العلم النافع والعمل الصالح، هذا هو الذي يرجوه العاقل المؤمن؛ يرجو أن يكون على علم وعلى عمل. وبعضهم يقول حظ الدنيا من المال ومن الزواج وما نحو ذلك، أقوال كثيرة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 203] هي أيام التشريق، هذه الذي أمر الله بها، أيام التشريق، أما المعلومات التي ذكرت في الحج فهي عشر ذي الحجة.

٢٠٤- ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أشدّهم خصومة. يقال: رجل ألدُّ، بيِّنُ اللَّدَد. وقوم لُدٌّ. والخِصَام جمع خَصْم. ويجمعُ على فُعُول وفِعَال. يقال: خَصْم وخِصَام وخُصُوم.

٢٠٥- ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أي فارقك.

﴿سَعَى فِي الأَرْضِ﴾ أي: أسرع فيها.

﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ يعني الزرع.

﴿وَالنَّسْلَ﴾ يريد الحيوان. أي يحرق ويقتل ويخرب.

٢٠٦- ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي الفِراش. ومنه يقال: مَهَّدْتُ فلانا إذا وطَّأْت له. ومَهْدُ الصبيّ منه.

٢٠٧- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي يبيعها. يقال: شَرَيْتُ الشيءَ؛ إذا بعته واشتريته. وهو من الأضداد.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ يعني: أشد الخصومة، شديد الخصومة.

الله سبحانه وتعالى لما ذكر أقسام الناس في الحج، ومنهم من يطلب الدنيا ومنهم من يطلب الآخرة، ذكر أقسام الناس في الدنيا، منهم من يريد الدنيا؛ وهم المنافقون ويسعون في الأرض فسادًا، ومنهم من يريد الآخرة وهم؛ المؤمنون الصالحون، فذكر الصنف الأول وهم المنافقون، المنافق شديد الخصومة، أُعطوا خصومات، أُعطوا شدة في الخصومة، هذا بالنسبة لكلامه ولسانه وأقواله السيئة وشديد الخصومة.

وأما بالنسبة لأفعاله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ إذا تولى وفارقك ماذا يصنع؟ قال تعالى: ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ أسرع فيها ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ "يهلك الحرث" الزرع، و"النسل" بهيمة الأنعام؛ نسل الحيوان، يحرق ويقتل ويفسد في الأرض، هذا النصف الأول من الآية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ المهاد يعني الفراش، أرض ممهدة يعني: مبسوطة مفروشة. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: 22]، وقال في آية أخرى في سورة الذاريات: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: 48].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ هذا الصنف الثاني، الذين يريدون الآخرة، أهل الخير والصلاح والتقوى، الله أخبر بأنه رؤوف بهم وسيرحمهم ويتولى أمرهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ يشري: يبيع، يشري في القرآن تأتي بمعنى يشتري وتأتي بمعنى يبيع، والأكثر استعمالًا يبيع. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] يعني باعوه، فالمراد به هنا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ أي يبيع، يشري نفسه يعني: يقدم نفسه، يبيعها، يقدمها في الجهاد، يقدم نفسه ويقدم ماله؛ فهذا تولى الله أمره.

٢٠٨- ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ الإسلام. وتُقرأ في السَّلم بفتح السين أيضا وأصل السِّلْم والسَّلْم الصلح. فإذا نصبت اللام فهو الاستسلام والانقياد. قال: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ﴾ أي استسلم وانقاد.

﴿كَافَّةً﴾ أي جميعا.

٢١٠- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: هل ينتظرون إلا ذلك يوم القيامة.

﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي فُرِغَ منه.

٢١٣- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي مِلَّة واحدة. يعني كانوا كفارًا كلهم.

٢١٤- ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ الشدّة.

﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ البلاء.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خُوِّفوا وأُرهبوا.

٢١٥- ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: ماذا يُعطُون ويتصدقون؟

﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ ما أعْطَيْتُم.

﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: من مال.

الشرح

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ مثل ما ذكر، قال: قرأت بقراءتين صحيحتين: السِلْم والسَلْم -بفتح السين- والمعنى واحد: أي الإسلام. قال [ابن قتيبة]: (وأصل السِّلْم والسَّلْم الصلح) لأنه إذا دخل لا يُقاتَل، أما إذا كان كافرًا لم يدخل في الإسلام يُقاتَل، فإذا دخل سَلِمَ؛ خرج عنه.

قال [المؤلف]: (فإذا نصبت اللام) يعني فُتِحت اللام السَلَمَ، لأن هذه آية في النساء: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ [النساء: 94]. قُرِأَت "السلام" و "السَلَم"، كلها قراءة صحيحة، السَلَم بالفتح معناها الاستسلام. ﴿كَافَّةً﴾ جميعًا.

سؤال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قال المؤلف: الإسلام، كيف نقول للمؤمن يدخل في الإسلام وهو مسلم مؤمن أصلًا؟ فكيف يقول الله له: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في الإسلام؟ هذه معناها: اثبتوا على الإسلام، لا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا﴾ يعني: تمسكوا، تمسكوا وتشبثوا بالإسلام، واستمروا عليه وموتوا عليه، لا تتراجعوا عنه.

ممكن يقال أيضًا ادخلوا أي: تمسكوا بجميع جوانب الإسلام؛ لا تأخذ شيئًا دون شيء، كقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]، ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ كلمة "كافة" ممكن ترجع إلى الأشخاص: ادخلوا جميعًا، أو ترجع إلى الإسلام: ادخلوا فيه كافة، في جميع ما يتضمنه الإسلام، لا تؤمن به في شيء وتترك شيء. تجد بعضهم مثلًا يقول لك: أنا أعتمر وأحج وأصوم ولا يصلي، أو يصلي مثلًا ولا يحج، أو يصلي ولا يزكي، هذا كله يندرج تحته.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 210] ينظرون يعني: ينتظرون إلى يوم القيامة ، هذا جائز ممكن صحيح، والمؤلف لم يتكلم عن إتيان الله يوم القيامة، والمؤلف معروف على عقيدة السلف، عقيدة صحيحة، وهو فسر في مسائل عقدية تفسير السلف، وهنا المراد بالإتيان مجيء الله يوم القيامة حقيقة، مجيئًا يليق به سبحانه وتعالى. ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فُرِغَ منه.

قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: كان الناس أمة واحدة على الكفر كما ذكر المؤلف، في قول آخر أنهم كانوا على الطاعة؛ أي على التوحيد والفطرة. كيف كانوا على الكفر كما قال المؤلف؟ نقول بعد نزول آدم كان الناس على الإيمان، ثم بعده بدأ يظهر الشرك، عشرة قرون بين آدم ونوح كله على التوحيد؛ لم يظهر الشرك فيهم أبدًا، آدم وذريته منذ نزل آدم إلى الأرض كلهم على التوحيد وعلى الفطرة، ولم يحدث الشرك إلا في زمن نوح لما عظموا الصالحين، وبدأوا يدعونهم من دون الله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]، هذه أسماء رجال صالحين. ظهر الشرك في زمن نوح، فبعث الله نوحًا إليهم يدعوهم إلى التوحيد، فهذا معناه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: كانوا على الكفر؛ لما دخلوا الكفر بعث الله النبيين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ دائمًا تأتي البأساء والضراء في القرآن، فالبأساء: هي الشدة، هي الفقر؛ من البأس، والضراء: البلاء، وحين البأس: الشدة، الضراء: المرض وما يصيبك، والبأساء: الفقر. ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ خُوِّفوا.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ ماذا يعطون ويتصدقون، السؤال هنا من الصحابة يسألون: كيف نتصدق، هل نتصدق بالقليل أم بالكثير، أم بأي شيء نتصدق، ما المادة التي نتصدق بها؟ فجاء الجواب من ناحيتين. قال: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم﴾ أي ما أعطيتم ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ الله أجابهم من وجهين: قال أي شيء من الخير، مال قليل أو كثير، تصدقت بشيء قليل أو كثير، هذا كله يكتب لك، لكن على من تتصدق؟ ذكر الله أهل الصدقة، قال: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

كيف يتصدق على والديه وهو لا تجوز الصدقة على الوالدين؟ نقول الله ما قال "تصدق" قال "أنفق"، النفقة على الوالدين واجبة إذا كانوا محتاجين، تجب على من عنده قدرة أن ينفق على والديه، واجب، وعلى الأولاد واجبة، وعلى الإخوة والأخوات مستحبة. ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ الأقربين كالإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والعمات والخالات، هؤلاء كلهم ينفق عليهم إذا كانوا محتاجين. ﴿وَالْيَتَامَى﴾ ينفق على اليتيم إذا كان فقيرًا، لابد أن يكون فقيرًا، قد يكون يتيم ووارث ملايين، لا نعطيه، تسمع أحيانًا يتيمة توفي أبوها، وليس له إلا هذه البنت وعنده مليارات، وهي الآن أخذت نصف المليارات؛ لأن لها النصف، أو كان ذكرًا أخذ كله، ليس هذا باليتيم الذي يُعطى، اليتيم المقصود من فقد والده أو أباه وهو بحاجة إلى المال يُعطى.

٢١٦- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فُرض عليكم الجهادُ.

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أي مشقّة.

٢١٧- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام: هل يجوز؟ فأبدل قتالا من الشهر الحرام.

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: القتال فيه عظيم عند الله. وتم الكلام. ثم قال: ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وخَفض المسجد الحرام نَسَقًا على سبيل الله. فكأنه قال: وصَدٌّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وكفرٌ به؛ أي بالله.

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أي: أهل المسجد منه.

﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يريد: من القتال في الشهر الحرام.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الشرك أعظم من القتل.

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت.

الشرح

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ أي: فرض، فرض عليكم القتال أي: الجهاد. وهو ﴿كُرْهٌ لَكُمْ﴾ كره لكم يعني: مشقة، الإنسان المؤمن لا يكره ما فرض الله، لكن طبيعته، المراد بطبيعة الإنسان أنه يكره القتل والقتال، لا المراد به كراهية الدين وكراهية الشرع، لا، بل كراهية بطبيعة الإنسان.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ هذه الآية دليل على فرضية الجهاد، ومجموع الآيات تدل على أن الجهاد قد يكون حتمًا فرضًا، وقد يكون ليس بفرض، يختلف له أحوال؛ مثلًا إذا حاصره العدو البلدة كان القتال واجبًا، إذا كان في المعركة -في الجهاد- يكون واجبًا عليه، إذا استنفره الإمام يكون واجبًا، أما الأصل الخروج إلى الثغور ليس واجبًا على الجميع.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ يقول: قتال إعرابها بدل اشتمال، أنواع البدل أربعة: بدل كل من كل، أو بعض من كل، أو بدل اشتمال، أو أو بدل غلط. فهنا المقصود به بدل اشتمال، يعني: ما يشتمل

عليه الشهر الحرام؛ لأنهم لا يقصدون السؤال عن الشهر الحرام، هم يسألون عن القتال في الشهر الحرام، هذا معنى اشتمال، يعني اشتمل الشهر الحرام على القتال. مثل لما تقول أنت الآن: أعجبني زيد ذكاؤه، أنت تقصد الذكاء لا زيد، ما اشتمل عليه زيد وهو الذكاء؛ هذا يسمى اشتمال، أيضًا: أعجبني عمرو لباسه، أعجبني خالد خُلُقه. ومثله في سورة في سورة البروج الآية: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾[البروج: 4-5]. أصحاب الأخدود: النار، أي: أصحاب النار، النار بدل اشتمال. إذًا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ أي: يسألونك عن القتال فيه.

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ هذه لها قصة، وهو أن النبي ﷺ بعث سرية تتصدى لعير لقريش، كانت العير هذه بين الطائف ومكة في وادي نخلة، عير فيها أربعة أشخاص من قريش، وهذه السرية أمَّر عليها ﷺ عبد الله بن جحش، وانطلقوا فصدوا هذه العير -عير قريش- وكانوا في آخر شهر جمادى ودخل عليهم رجب - رجب شهر محرم- ولم يعلموا أن الشهر قد دخل، فقتلوا اثنين، هم كانوا يمكن ثلاثة تقريبًا أو أربعة، قتلوا اثنين واثنين فروا أو واحد فر، ثم وصل الخبر إلى أهل مكة -قريش-، فقالوا: محمد يقتل في الشهر الحرام! ومحمد ينتهك الأشهر الحرم! فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: حرام ولا يجوز.

لكن أفعال قريش أشد من هذا، أفعال قريش ماذا صنعت؟ فيقول: هو حرام وهذا خطأ منهم، وكانوا هم يظنون أنه لم يدخل الشهر الحرام، يُلتمس لهم عذر، لكن أنتم ما هي أعذاركم؟ وماذا صنعتم أنتم؟ ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ هذا أشد، صد عن سبيل الله: تمنعون الناس من الدخول في الإسلام، وتكفرون بالإسلام، وأيضًا ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يقول: جاءت "والمسجدِ الحرامِ" مجرورة لأنها معطوفة على "سبيل الله"، هذا وجه، والوجه الثاني أنها معطوفة على الضمير: "وكفر به والمسجد الحرام" لكن النحاة لا يعطفون الظاهر على الضمير ولذلك هو خرج من هذه المسألة قال: لا ظاهر على ظاهر.

قال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ أهل الحرم؛ كمحمد وأصحابه، أنتم أخرجتموهم، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: أنتم فعلتم الآن أفعالًا سيئة كثيرة، وتقارنون فعلكم بقتل محمد في الشهر الحرام، أصحابه أخطأوا خطأ، لكن أنتم تفعلون أفعال متعمدين، أفعال عظيمة، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الشرك أعظم من القتل، والفتنة يدخل فيها الصد عن سبيل الله، يدخل فيها الشرك، وإيذاء المسلمين كله أشد وأكبر من القتل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بطلت، تبطل أعماله إذا مات، هذه مسألة خلافية، هل المرتد تبطل أعماله بالردة أو الموت؟ هذا فيه خلاف، لأن في آية أخرى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، وآيات أخرى تجيب على هذا السؤال: هل يحبط العمل بمجرد الردة؟ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: 5] إذا ارتد؛ حبط عمله، وهناك آية أخرى مثل الآية التي معنا "الموت" ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ لو جاء شخص الآن وتلفظ بالكفر والردة، أكيد أنه ارتد وخرج عن الإسلام، هل أعماله تبطل أم لا تبطل؟ نقول لو فرضنا أن أنه عاد مرة ثانية للإسلام، وهو قد حج، فعلى الرأي الأول أنها تبطل، نقول لا بد من إعادة الحج؛ لأنك الآن دخلت في الإسلام من جديد وأعمالك الماضية سقطت، هذا قول، والقول الثاني قالوا: لا، إذا ارتد ومات بطلت أعماله، أما إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام تعود أعماله، وهذا هو الصحيح؛ لأن الله قال: ﴿فَيَمُتْ﴾ وهو لم يمت.

٢١٩- ﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ القمار. وقد ذكرناه في سورة المائدة، وذكرنا النفع به.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: ماذا يتصدقون ويعطون؟

﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ يعني: فضلَ المال. يريد: أن يعطي ما فضل عن قوته وقوت عياله. ويقال: "خذ ما عفا لك" أي: ما أتاك سهلا بلا إكراه ولا مشقة.

ومنه قوله عز وجل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾؛ أي: اقبل من الناس عفوهم، وما تطوعوا به من أموالهم؛ ولا تستَقْص عليهم.

الشرح

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، قال (ابن قتيبة): (الميسر: القمار) لم يفسر لنا الخمر، لأنه معروف عندهم، لا أحد يجهل الخمر، الميسر هو الذي فيه إشكال. قال (﴿وَالْمَيْسِرِ﴾ القمار. وقد ذكرناه في سورة المائدة، وذكرنا النفع به) قال ذكرناه في المائدة رغم أننا لا زلنا في البقرة: أي ذكره إما في كتاب "تأويل مشكل القرآن"، أو ربما أنه بدأ في سور أخرى ثم عاد للبقرة، بعض المفسرين هكذا، مثل الجلالين أول ما بدأ الكهف، ثم رجع إلى الفاتحة والبقرة. ابن كثير في تفسيره بدأ من سورة الأنعام، فسرها إلى أن وصل آخر القرآن، ثم عاد وبدأ بالفاتحة والبقرة. فهذا جاري عند العلماء.

يقول لك: هو القمار. الميسر أو القمار: هو المغالبة المحرمة، نوع من الألعاب ونحوها أو المغالبات المحرمة، ويدخل في ذلك المراهنة، المراهنة على المسابقات، لو جئت لآخر وقلت: "أنا أريد أن أتسابق، نتسابق أنا وإياك الآن مسافة خمسة كيلومتر، الذي يصل إلى الهدف يدفع خمسة آلاف" هذه مقامرة، مراهنة، الميسر لا يجوز. لكن لو كان المال من غير اثنين جائز؛ مثلًا أنا أقول: "أنت يا فلان ويا فلان تسابقا إلى خمسة كيلومتر إلى آخر الهدف، الذي يصل إلى النهاية أنا أعطيه خمسة آلاف" هذا جائز، هذه مسابقة مشروعة، المسابقة على الأقدام، المسابقة على الخيول، المسابقة على الإبل وغيرها، مسابقات في أي شيء، هذه إذا كان المال من طرف ثالث هذا جائز. في حديث النبي ﷺ قال: «لا سبَقَ إلا في نَصلٍ أو خُفٍّ أو حافِرٍ». المسابقات العلمية ومسابقات القرآن الكريم جائزة، بشرط ألا يكون المال من أحد الطرفين، فإن كان من أحد الطرفين

لا يجوز، أو كان فيه جهالة، وفيه غرر، أو مكاسبات محرمة تؤدي إلى حرام، كقولك: "أنا أراهنك أن غدًا سيكون كذا" هذا غيبي، لا يجوز، الأشياء الغيبية لا يجوز [الخوض فيها]، إلا إذا كان عن طريق الوحي، مثل ما راهن أبو بكر المشركين راهنهم على أن الروم ستنتصر على الفرس، وقال في بضع سنين: أراهنوني أن تنتصر. وانتصرت؛ لأن النبي أخبره. ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: 2-4]. أخبر الوحي؛ فأخبرهم هو.

هذه مقامرة: القمار، المغالبات المحرمة، البيوع المحرمة يدخل فيها القمار، كل ذلك مكاسب محرمة، ومثله الآن ما يسمونه بلعبة الورق، يلعبون لعبة الورق، ولعبة الشطرنج وغيرها، كل الألعاب التي فيها مغالبات محرمة لا يجوز. يقول لك: "نلعب ورقة والذي يفوز أعطيه صك البيت، أعطيه سيارتي؛ هذي مفاتيحها" حرام، لا يجوز.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، قال المؤلف هنا: (أي: ماذا يتصدقون ويعطون؟)، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ هنا النفقة فسرها المؤلف بالصدقة، ماذا تعطي وتتصدق؟ ما الذي تتصدق به؟ هنا النفقة عامة؛ يدخل فيها الصدقة، ويدخل فيها النفقة المستحبة ليست الواجبة كالزكاة، نحن نتكلم عن المستحب. قال: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ يعني: فضل المال؛ ما زاد على ما عندك، وهذا يدل على أنها في المستحبات. يسألونك ماذا ينفقون؟ قل: أنفقوا ما زاد، يعني لا تكلف نفسك، خذ ما زاد عندك وأنفق. قال: (أن يعطي ما فضل عن قوته وقوت عياله. ويقال: "خذ ما عفا لك" أي: ما أتاك سهلا بلا إكراه ولا مشقة) العفو هنا: الزيادة. قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ [الأعراف: 95]، يعني حتى زادوا. قال ﷺ: «أعفوا اللحى»، أي اجعلوها تزيد، اتركوها، فالعفو الزيادة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: 199]، يعني: خذ ما تيسر، لا تكلف على الناس، لا تشق على الناس. "وأمر بالمعرف" أي: اقبل من الناس عفوهم وما تطوعوا به، ولا تستقصِ عليهم، لا تتعب نفسك معهم. المؤلف هنا ركز على كلمة ما الذي ينفقه، وكلمة العفو: الزيادة وما سَهُل، ولا تشق على نفسك، أنفق ما مما تيسر.

٢٢٠- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي تثمير أموالهم، والتنزه عن أكلها لمن وليها - خيرٌ.

﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ فتواكلوهم.

﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم؛ حكمهم في ذلك حكم إخوانِكم من المسلمين.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: من كان يخالطهم على جهة الخيانة والإفساد لأموالهم، ومن كان يخالطهم على جهة التنزه والإصلاح.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: ضَيَّقَ عليكم وشدّد. ولكنه لم يشأ إلا التسهيل عليكم. ومنه يقال: أعْنَتَنِي فلان في السؤال؛ إذا شدّد عليَّ وطلب عَنَتِي، وهو الإضرَار. يقال: عَنِتت الدابة، وأعْنَتَها البيطار؛ إذا ظَلَعَت.

الشرح

قال المؤلف: (﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي تثمير أموالهم، والتنزه عن أكلها لمن وليها - خيرٌ.) أي: تثمير أموالهم؛ يسألونك عن اليتامى؛ عن أحوال اليتامى وأموال اليتامى، ﴿قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ يعني: [إذا] عندك يتيم أصلح له ماله، ولا تأخذ من ماله شيئًا وأنت في غنى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فتواكلوهم فهم إخوانكم من المسلمين. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: من كان يخالطهم على وجه الخيانة والإفساد لأموالهم، ومن كان يخالطهم على وجه التنزه والإصلاح. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ أعنتكم من العنت، وهي الشدة والتضييق والصعوبة والكلفة، قال [ابن قتيبة]: (أي: ضَيَّقَ عليكم وشدّد. ولكنه لم يشأ إلا التسهيل عليكم. ومنه يقال: أعْنَتَنِي فلان في السؤال؛ إذا شدّد عليَّ وطلب عَنَتِي، وهو الإضرَار. يقال: عَنِتت الدابة، وأعْنَتَها البيطار؛ إذا ظَلَعَت) البيطار أي الذي يعالجها. فالمقصود أن العنت هنا التضييق والشدة.

معنى الآية، قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ لماذا يسألون عنهم؟ لأنه جاء وعيد شديد في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10] فلما سمع الصحابة هذه الآية، ما استطاع أحد منهم أن يكفل يتيم، وحتى من كان من أقاربهم؛ كأن يكون أبناء إخوته أو أخواته، بدأ يعزل لهم طعامهم إذا كانوا في البيت، ويعزل أموالهم ولا يتولاها، خوفًا من أن يقع في هذا الوعيد: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ فقال الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أنت لما تتولى اليتيم تصلح له أفضل، قال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» تتولى اليتيم خير من أن يضيع ماله، من يتولاه إذا لم تتولاه؟ فيسألونه فيقول: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ خذوا أموالهم وأصلحوها، نمّها واشتغل بها، ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ في الطعام والشراب والزواج، لا بأس، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ الذي يفسد والذي يصلح يعلمه الله، كل واحد الله يعلم نيته، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ يعني: شق عليكم، الله فتح لكم المال، ولو شاء لقال: لكن لا تأخذ ولا تشتغل ولا تعمل باليتيم، اتركه. وهذا سيكون عليك مشقة، خاصة إذا كان في بيت واحد، سيكون هناك مشقة.

٢٢١- ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ أي: لا تتزوجوا الإماءَ المشركاتِ.

﴿وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [أي: لا تزوِّجوا المشركين] المسلماتِ ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾.

٢٢٢- ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي: ينقطعَ عنهن الدمُ. يقال: طَهُرت وطَهَرت؛ إذا رأت الطُّهْر، وإن لم تغتسل بالماء. ومن قرأ (يَطَّهَّرْنَ) أراد: يغتسلن بالماء. والأصل: "يتطهرن". فأدغم التاء في الطاء.

٢٢٣- ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ كناية. وأصل الحرث: الزَّرْع. أي: هُنَّ للولد كالأرض للزرع.

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم.

﴿وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾ في طلب الولد.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾، الله عز وجل يذكر الآن أحكامًا تتعلق بما يحتاج الناس إليه، الخمر والميسر بيّن حكمهما، النفقة بيّن لك حكمها، قال: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، اليتامى بين لكم أحكامهم، الآن ينتقل إلى الزواج، حكم الزواج. قال: الزواج مباح ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 3] لكن انتبه تتزوج مشركة كافرة؛ لا تتزوج بالكافرة، وبيّن ﷻ العلة بأن قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ ويدخل في ذلك الفاسقة، الفاسقة التي لا تلتزم طاعة الله، لا تصلي، ولا تخاف من الله، وتخرج سافرة ولا تبالي بأحكام الله، هذه لا تصلح للمسلم العاقل الطائع، هذي تفسد عليك دينك وتفسد عليك أولادك. نحن لا نقول حرام الزواج منها إذا كانت في حوزة الإسلام، أي مسلمة، لا نقول حرام؛ نقول اتركها وخذ من هي أولى، ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي لا تزوجوا إحدى الإماء المشركات حتى يؤمنّ، ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾، أي لا تزوجوا المشركين المسلمات حتى يؤمنوا، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لك: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ أي: لا تتزوج بالمشركة مهما كانت، إن كانت على أعلى درجة في الجمال والمال والحسب والنسب، كل ذلك لا تلتفت إليه؛ فاظفر بذات الدين، فلا تلتفت إلى أي شيء، مشركة لا تتزوجها إن كانت حرة أو أمة، لا يجوز إذا كانت كافرة، فاتركها.

والمشركين لو جاءوك لا تزوجوهم، ولا تنكحوا المشركين المؤمنات، ما تزوجه مؤمنة حتى يؤمن هو، وحتى هي تؤمن.

في آية في سورة المائدة. قال ﷻ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: 5]، هل يجوز أن نتزوج بالكتابية؟ وإن لم تؤمن ولم تدخل في شريعة محمد ﷺ ما زالت في شريعتها؟ تقول: "أنا على دين اليهودية أو النصرانية"، مثل الموجود الآن. نقول: أباحه الله، قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: 5]، إذا كانت عفيفة، لا تقع في الحرام ولا في الزنا، ولا في الفواحش، وعلى دين اليهودية أو النصرانية؛ هذه أباح الله الزواج منها، استثناها من هذه الآية، وإن كانت على غير دين الإسلام استثناها، جائز. قال الله عز وجل: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: 5] أي الذبائح والنساء يجوز.

بعض أهل العلم يقول: لا يجوز الزواج بالكتابية، لأنها في الواقع الآن مشركة، الواقع الآن تقول: "ربي عيسى" إما تعتقد أن عيسى هو ربها، أو تعتقد أن عيسى ولد الله، أو تعتقد أن الله ثالث ثلاثة، فكيف تتزوج بواحدة هذه عقيدتها؟ بعضهم منع وقال لا يجوز الزواج بها في هذه الحال. وبعضهم يقول جائز ولو اعتقدت ما اعتقدت، فالله أباح، الله أعلم بحالها وقد أباح لنا. ولكن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن جاء بعدهم كانوا يتورعون بالزواج منهم، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ينهى بعض الصحابة عن الزواج بالكتابية، والأولى الزواج بالمسلمة، بنات المسلمين موجودات، فكيف أذهب وآخذ واحدة أتزوجها كتابية ويهودية ونصرانية وأنا عندي المسلمة؟ وبعدها ما الذي سيترتب إذا أخذت يهودية وتزوجتها أو نصرانية، أولادك من الذي سيتولاهم ويربيهم؟ قد تربيهم على عقيدة [غير إسلامية]؛ فالأولى ترك هذا الشيء. لكن لا نعتقد نحن أن زواج الكتابية -اليهودية والنصرانية- حرام، لأن الله أباحه، لكن تركه أولى، أو البعد عن هذا هو الصحيح.

قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ هذا في سياق الحيض والمحيض والمرأة الحائض. قال عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ يسألونك عن

المحيض، والمحيض يقتضي الزمان والمكان. يسألونك عن المحيض، أي: يسألونك عن المرأة في زمن المحيض، ويسألونك عن المرأة في مكان المحيض، هل يجوز قربانها في مكان الحيض وهو الفرج؟ هذا هو ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ هو أذى؛ أذى على المرأة وأذى على الرجل؛ المرأة تتأذى بآلامه الشديدة، ورائحته كريهة، تعاني في وقت الحيض، وأنت لو اقتربت منها هذا عليك أذى: ضرر صحي ما يجوز، وضرر ديني محرم. قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ اعتزلوا النساء في المحيض، جاء النبي ﷺ فسر هذا؛ هل نعتزلها يعني لا نأكل معها ولا نشرب ولا ننام؟ ليس هذا المعنى؛ كل واشرب ونم معها، كل ذلك جائز، مباشرة تجوز إلا في الفرج، هذا هو المحرم فقط.

قال ﷻ: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ في معنى يطهرن، هل الطهارة هنا انقطاع الدم وأم الاغتسال بالماء؟ قال المؤلف هنا: (أي: ينقطعَ عنهن الدمُ. يقال: طَهُرت وطَهَرت؛ إذا رأت الطُّهْر، وإن لم تغتسل بالماء) إذًا حتى يطهرن، أي: حتى ينقطع الدم، أصبحت الآن في حكم الطاهر، أول في حكم الحائض، الآن انتقلت من حكم الحائض وحكم الطاهر. لكن أكمل الآية، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ هذه غير الأول، أي: تطهّرن بالماء، وإذا قرأت الآية: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ﴾ قال المؤلف: (ومن قرأ (يَطَّهَّرْنَ) أراد: يغتسلن بالماء) من قرأها بهذه القراءة يعني حتى ينقطع الدم وتغتسل، حتى يطّهرن أي: يغتسلن. قال: (والأصل: "يتطهرن". فأدغم التاء في الطاء) لتقارب المخرج تجانس أو التقارب.

إذًا عرفنا الآن أن الآية قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي بالماء واغتسلن، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ الشاهد من الكلام أن المرأة إذا كانت حائضًا فلا يجوز للرجل أن يقترب، أي المراد به: الجماع أو أن يواقعها، أن يباشرها في الفرج. يجوز له بشرطين: انقطاع الدم والاغتسال، لو لم تغتسل عند الحنفية يجوز، يجوز إذا انقطع الدم لأن الله ﷻ قال: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ فإن انقطع الدم أبيحت له. والجمهور على أنه لا بد من الانقطاع والاغتسال، إن لم تجد الماء فتتيمم، لكن لا بد من الاغتسال.

قال المؤلف: (﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ كناية) هذه عبارة فيها كناية من كنايات القرآن، الحرث للزرع، أرحام النساء مثل الأرض تزرع الولد فيها، فينبت الولد في بطنها ثم يخرج، كما أنك تزرع الأرض، تضع فيها البذر وتسقيه بالماء؛ فينبت الزرع. الجامع بينهما أن كلاهما منبت، كلاهما يأتي بالشيء. قال (ابن قتيبة): (وأصل الحرث: الزَّرْع. أي: هُنَّ للولد كالأرض للزرع)

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: كيف شئتم ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ قدموا أنفسكم أي: اطلبوا الولد، اطلب بالمباشرة أن تحصل على الذرية، ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي: واتقوا الله أن تقعوا في الحرام، واتقوا الله أن تلهيكم النساء عن طاعة الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ تشجيع على الطاعات والعبادات، وألا يكون هذا الأمر يلهيك، تجد بعض الناس يمضي الليل كله، يضيع ليله كله، وإن كانت المرأة لها حق عليك، وأيضًا فيه أجر، قال النبي ﷺ: «وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ» قالوا : أَيَأْتِي أحدُنا شهوتَه يا رسولَ اللهِ ويكونُ له فيها أجرٌ ؟ قال : «أَرأيتُم لَو وَضعَها في حَرامٍ، أكانَ عليه فيها وِزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في حلالٍ كان له أَجْرٌ» فتعف أنت المرأة وتعف نفسك، لكن لا يستهلك عليك الوقت، هذا المقصود.

٢٢٤- ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ يقول: لا تجعلوا الله بالحلف به - مانعا لكم من أن تبروا وتتقوا. ولكن إذا حلفتم على أن لا تصلوا رحما، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا؛ وعلى أشباه ذلك من أبواب البر -: فكفِّروا، وأتوا الذي هو خير.

٢٢٥- ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾؛ واللغو في اليمين: ما يجري في الكلام على غير عَقْد. ويقال: اللغو أن تحلِف على الشيء تَرَى أنه كذلك وليس كذلك. يقول: لا يؤاخذُكم الله بهذا.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: بما تحلفون عليه وقلوبكم مُتَعَمِّدةٌ، وتعلمون أنكم فيه كاذبون.

الشرح

قال ابن قتيبة: (﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾ يقول: لا تجعلوا الله بالحلف به - مانعا لكم) كيف تكون عرضة بمعنى مانعًا؟ مثل الخشبة العارضة يسمونها عارضة، تجد الخشبة أحيانًا توضع في حظائر البقر والغنم والإبل، يضعون عارضة لكيلا تخرج البهيمة، هذه يسمونها عارضة خشب. فالله عز وجل يقول: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً﴾ يعني: لا تجعل الحلف يمنعك من فعل الشيء. مثلًا يأتي شخص ويحلف قال: "والله لا أتصدق هذا الشهر على فلان، والله لا أتصدق عليه هذا الشهر كاملًا" الحلف هذا لا يمنعك من الصدقة؛ كفّر عن يمينك وأت الذي هو خير وتصدق عليه، مثل أبو بكر رضي الله عنه، أبو بكر كان يتصدق على رجل يقال له مسطح بن أثاثة، كان من فقراء المهاجرين، فحلف أبو بكر ألا يتصدق عليه، لأنه تكلم في عرض عائشة رضي الله عنها: "والله لا أعطيه شيئًا" فأنزل الله الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: 22].

أنت إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها خيرًا منها، فأت الذي خير وكفّر عن يمينك. يأتيك أحد ويقول: "والله لا أزور جاري فلان" أتحلف؟ كفّر عن يمينك وزِرْه، لأن هذه طاعة لا تقطعها ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ تتركوا البر والتقوى والإصلاح، هذا معناه. يقول (ابن قتيبة): (لا تجعلوا الله بالحلف به - مانعا لكم من أن تبروا وتتقوا. ولكن إذا حلفتم على أن لا تصلوا

رحما، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا؛ وعلى أشباه ذلك من أبواب البر -: فكفِّروا، وأتوا الذي هو خير). من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيرًا منها، فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير، هذا هو. بعض الناس يقول لك: "اليوم عندنا وليمة عند فلان، هل نذهب؟ هو دعانا قال: تعالوا كلكم" فيقول: "لا لا، أنا حالف لا أدخل بيته، عليّ اليمين" يمنع نفسه البر والإحسان والصلة بعذر قوله "عندي يمين"! كفّر عن يمينك وتعال.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ ما هو اللغو؟ قال (ابن قتيبة): (ما يجري في الكلام على غير عَقْد) يعني: على غير نية (ويقال: اللغو أن تحلِف على الشيء تَرَى أنه كذلك وليس كذلك. يقول: لا يؤاخذُكم الله بهذا) وفسر اللغو الآن بمعنيين: المعنى الأول: ما يجري على اللسان دائمًا، كمن يقول: "والله إني أذهب لفلان" أو يُسأل: "أأذن؟" فيجيب: "لا والله لم يؤذن"، فلو أنه [قد] أذن ليس عليك يمين؛ فهذا لغو، أو كسؤال: "أرأيت فلان؟" فتجيب: "والله ما رأيته اليوم" ثم تذكرت أنك قابلته، أو أي كلمة على اللسان كما قالت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم: «هو كلامُ الرَّجلِ في بيتِه كلَّا واللهِ وبلى واللهِ» [هذا الحلف الدائم] على اللسان هذا لغو، هذا التفسير الأول.

التفسير الثاني كما قال المؤلف: (ويقال: اللغو أن تحلِف على الشيء تَرَى أنه كذلك وليس كذلك) لو جاءك رجل وقال لك: "هل رأيت فلان في الشارع اليوم؟" فأجبت: "والله ما رأيته ولا قابلته أبدًا" ثم بعد ساعة تذكرت أنك قابلته عند سيارتك وجاء وسلّم عليك، تذكرت واستأت أنك حلفت، فهنا لا يمين عليه، لأنه كان يعتقد أنه ما رآه، هو يعتقد جزمًا؛ ثم ظهر أنه تذكر أنه رآه، نقول هذا لا عليه يمين، يقول جل جلاله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾ باللغو أو في الاعتقاد الذي تظنه ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ في آية أخرى: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89] قال المؤلف: (أي: بما تحلفون عليه وقلوبكم مُتَعَمِّدةٌ، وتعلمون أنكم فيه كاذبون) إذًا يقول: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ يؤاخذك الله على نيتك، أما على اللسان لا يؤاخذك الله، فإذا حلفت وأنت تعتقد أن هذا الشيء [غير صحيح] فهذا الذي تؤاخذ فيه، فلو حلفت: "والله لا أزور فلانًا" إذا خالفت عليك يمين، أو: "والله لا أركب [هذه السيارة]" فركبتها؛ عليك يمين، وإذا لم تركبها لا عليك شيء، لكن إذا ركبتها عليك يمين.

٢٢٦- ﴿يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يحلفون. يقال: آلَيْتُ من امرأتي أُولِي إيلاء؛ إذا حلف أن لا يجامعَها. والاسم الأليَّة.

﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي رجعوا إلى نسائهم.

٢٢٨- ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وهي الحِيَض: وهي: الأطهار أيضا. واحدها قُرْءٌ. ويُجمع على أقْرَاء أيضا. قال الأعشى:

وَفِي كلِّ عام أنت جَاشِمُ غَزْوَةٍ *** تَشُدُّ لأقْصاها عَزِيمَ عَزَائِكَا

مُوَرِّثةٍ مالا وفي الحَيّ رِفْعَةً *** لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا

فالقُروء في هذا البيت الأطهار. لأنه لما خرج للغزو: لم يغش نساءَه، فأضاع قُرُوءَهُنَّ؛ أي أطْهَارَهُن.

وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المستحاضة: " تقعد عن الصلاة أيام أقرائها "؛ يريد أيام حِيَضها.

قال الشاعر:

يا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ عليَّ فَارِضٍ *** لَهُ قُرُوءٌ كقُروء الحائضِ

فالقُرُوء في هذا البيت: الحِيَضُ. يريد: أن عدواته تَهِيجُ في أوقات معلومة، كما تحيض المرأة لأوقات معلومة.

وإنما جُعل الحيضُ قرأً والطهر قرأً: لأن أصل القرء في كلام العرب: الوقت. يقال: رجع فلان لقرئه، أي لوقته الذي كان يرجع فيه. ورجع لقارئه أيضا. قال الهذَليّ:

كَرِهْتُ العَقْرَ عَقْرَ بَنِي شُلَيْلٍ *** إذا هَبَّت لقارِئِها الرِّياحُ

أي لوقتها. فالحيض يأتي لوقت، والطهر يأتي لوقت.

﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ يعني: الحمل.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾؛ يريد: الرجعة ما لم تنقض الحيضة الثالثة.

﴿وَلَهُنَّ﴾ على الأزواج، ﴿مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ للأزواج.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ﴾ فِي الْحَقِّ ﴿دَرَجَةٌ﴾ أي: فضيلةٌ.

الشرح

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يؤلون: هذا نوع من اليمين، لما ذكر الله عز وجل الأيمان، ذكر نوعًا منها. يؤلون من نسائهم: هذا يمين خاص، أي: يحلف ألا يقترب من امرأته، يقول: "والله لا أقترب من امرأتي" وهذا لا يجوز، والله عز وجل جعل له حدًا، أربعة أشهر. فإن كنت تقول مثلًا: "والله لا أقربها شهر، أو شهرين" هذا جائز، أما إذا قلت: "والله لا أقربها مطلقًا" فنعطيك حد أربعة شهور، إذا تجاوزت الأربعة أشهر إما أن ترجع إليها أو تطلقها؛ أما تعلقها فلا يجوز. فلو قال: "والله لا أقربها سنة كاملة" أي: زاد عن الأربعة شهور، هذا لا يجوز.

قال (ابن قتيبة): (﴿يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ يحلفون. يقال: آلَيْتُ من امرأتي أُولِي إيلاء؛ إذا حلف أن لا يجامعَها. والاسم الأَلِيَّة. ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي رجعوا إلى نسائهم) قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ نعطيهم أربعة أشهر مدة، ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ رجعوا إلى نسائهم، انتهى الإيلاء.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول لك خيار أربعة شهور: أردت أن ترجع؛ ارجع. فإن انتهت أربعة شهور، طلق. ﴿فَإِن عَزَمُوا﴾ أبو حنيفة يقول لا، إذا انتهت أربعة شهور وأنت لم ترجعها، طلقت عليك مباشرة. والصحيح أنها لا تطلق ولا بد هو أن يطلق، أو يطلق الحاكم على لسانه، لا بد.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ القروء جمع قُرْء، هل القرء هو الحيض أم الطهر؟ فيه خلاف بين العلماء والفقهاء، وهذا من الاختلاف التضاد لا يمكن الجمع بينهما، قال المؤلف هنا ثلاثة قروء أي: ثلاثة حِيَض، رجح أنها الحيض بقوله (وهي الحِيَض) ثم قال (وهي: الأطهار أيضا) كأنه يقول: هي تأتي بمعنى الحيض وتأتي بمعنى الأطهار، وهذا في لغة العرب واسع، تأتي الكلمة بمعنيين متضادين، كقولك: "شاك السلاح" أي: أخرجه، وتأتي "شاك السلاح" أي: أدخله، كلاهما صحيح، فأحيانًا الكلمة الواحدة تعطي وجهين للكلمة متضادين، مثل كلمة "عسعس" تعني أقبل وأدبر، والذي يحكم على المعنى هو السياق، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: 17] أقبل وأدبر، أحيانًا تقول عسعس بمعنى: أدبر الليل وجاء الصبح، وأحيانًا تقولها بمعنى: أقبل الليل وذهب النهار. هنا يقول لك ﷻ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي ثلاث حيض، وأحيانًا نقول: ثلاث أطهار، ممكن.

قال (ابن قتيبة): (واحدها قُرْءٌ. ويُجمع على أقْرَاء أيضا)

قال (ابن قتيبة): (قال الأعشى: وَفِي كلِّ عام أنت جَاشِمُ غَزْوَةٍ *** تَشُدُّ لأقْصاها عَزِيمَ عَزَائِكَا

مُوَرِّثَةٍ مالا وفي الحَيّ رِفْعَةً *** لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا) أي من أطهارها، فقال المؤلف: (فالقُروء في هذا البيت الأطهار. لأنه لما خرج للغزو: لم يغش نساءَه، فأضاع قُرُوءَهُنَّ؛ أي أطْهَارَهُن) هذا بيت شعر يدل على أن القرء هنا بمعنى الطهر، وقال النبي ﷺ في المستحاضة: «تقعد عن الصلاة أيام أقرائها» أي: أيام حيضها.

قال الشاعر: (يا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ عليَّ فَارِضٍ *** لَهُ قُروءٌ كقُروء الحائضِ) يعني: له حِيَض كحِيَض الحائض. له قروء يعني: له مدة، فالقروء في هذا البيت: الحيض، يريد أن عداوته تهيج في أوقات معلومة كما تحيض المرأة بأوقات معلومة.

الآن المؤلف ذكر لك أنه ممكن أن يكون حيضًا، وممكن أن يكون طهرًا، وذكر أمثلة لكلا المعنيين، والمترجح ما أتى في الحديث، أي أنها حيض، فالرسول ﷺ هو أفصح العرب، وهو الذي يفسر القرآن، فلما قال للمرأة "دعي الصلاة أيام أقرائك" قصد بها الحيض، لا تترك الصلاة وهي طاهرة، فهذا عندي هو الأولى بما فسره النبي ﷺ فلا ألتفت لغيره. هناك قاعدة تفسيرية عند المفسرين تقول: إذا ثبت تفسير القرآن بالنص النبوي، فلا يُلتفت إلى غيره. يقول المؤلف: (وإنما جُعل الحيضُ قرأً والطهر قرأً: لأن أصل القرء في كلام العرب: الوقت. يقال: رجع فلان لقرئه، أي لوقته الذي كان يرجع فيه) وأنهى قوله: (فالحيض يأتي لوقت، والطهر يأتي لوقت).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي المطلقة، وهذه المطلقة المراد بها ذوات الأقراء؛ ذوات الحيض. عندنا مطلقات على أحوال، والحامل؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ حامل لا تعتد ثلاثة قروء، الحامل تعتد بوضع الحمل. امرأة حامل طُلقت، تعتد بالوضع؛ متى ما وضعت خرجت من عدة، هذه حالة. لو جاءت امرأة لا تأتيها الدورة، لا تحيض لصغرها أو لكبرها يائسة، نقول: عدتها ثلاثة أشهر، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ

فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: 4]. بقي من النساء المرأة التي لم يُدخل بها، يعني: أنت خطبت امرأة وعقدت عليها فأصبحت زوجتك، لكن ما دخلت بها، ما خلوت بها، هذه حكمها ليس لها عدة، لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: 49]. أصبح عندنا النساء أربع: ذوات الحيض تعتد ثلاث حيضات "ثلاثة قروء"، حامل بالوضع، الصغيرة والكبيرة ثلاثة شهور، والتي لم يدخل بها لا عدة لها.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ما الذي خلق الله في رحمها؟ الولد أم الدم؟ مؤلف يقول "الحمل"، لكن لا يجوز لها أن تكتم ما في بطنها، إذا شعرت في بطنها حمل، أو حللت ووجدت حمل الشهر الأول أو الثاني، ثم قالت: "أنا حضت ثلاث حيض" فيأتي شخص يخطبها وتعقد معه الزواج وتدخل به، وفي بطنها حمل من الأول، ثم إذا كبر الحمل ووضعت، ماذا تقول؟ تقول: ابن الجديد أم ابن القديم؟ تضيع الأنساب هكذا، فلا يحل أن تكتم حملها. وكذلك الحيض ممكن يأتي في سياق الآية؛ ولا يحل لها أن ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أن تكتم الحيض، بمعنى أنها تقول: "انتهت العدة". تستكثر طول العدة ثلاثة شهور إذا أتاها خاطب، فإذا قضت حيضة أو حيضتين تدعي انتهاء العدة. فلا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن من الحيض أو الولد.

قال ﷻ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ هذا في أحكام الرجعة، يعني المرأة إذا طلقت طلاقًا رجعيًا، الزوج أحق بها في رجعتها، يريد الرجعة ما لم تنقضِ الحيضة الثالثة، يقول الله ﷻ ما دامت أنها في العدة، فالزوج أولى بها، هو زوجها ما دامت في العدة. هذه يعني مسألة مهمة، لا يجوز لها أن تخرج من البيت، ولا يجوز للزوج أن يُخرجها، لأنها زوجته، ولا يجوز لها مثلًا أن تتحجب عنه أو ألا تنام معه، هي زوجة ما دامت في العدة. إذا انتهت العدة، حُرّم الجلوس عنده لأنه أجنبي، ولا يجوز أن تكشف له، وألا يمسها، ولا أن تبقى معه في خلوة البيت، كل هذا لا يجوز.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي للمرأة مثل ما لك؛ أن تطالبها بأشياء، فهي تطالبك بأشياء، أنت لك حقوق عليها وهي لها حقوق. فالإنسان يكون عادلًا في حكمه، مقسطًا في حكمه، أي مثلما أنك تريد من المرأة أنها تحسن اللباس وأن تكون على رائحة طيبة وأن تكون بشوشة الكلام وتجالسك. أنت لِمَ ما تكون كذلك؟ تأتي بروائح كريهة وتجلس عندها، وتأتي بملابس كريهة ومتسخة وتجلس عندها، وتكشر في وجهها وتعبس، وأنت تطالب منها أشياء وأنت لا تنفذ! ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما كان عنده مرآة ينظر فيها ويسرح شعره، فقال له رجل: يا ابن عباس أتفعل كذا؟ قال: أفعله لزوجتي، كان يسرح شعره ويتجمل عندها. مثل ما أنك تطالب؛ لها حق هي.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: عليهن في الحق درجة أعظم، أن الله جعل القوامة في يده، فهو قائم عليها.

٢٢٩- ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ يقول: الطلاق الذي يملك فيه الرجعةَ تطليقتان.

﴿فَإِمْسَاكٌ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ، ﴿بِمَعْرُوفٍ أو تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: تطليق الثالثة بإحسان.

﴿إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يعلمان أنهما لا يقيمان حدود الله.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: علمتم ذلك.

﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا جناح على المرأة والزوج.

﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ المرأة نفسها من الزوج.

٢٣٠- ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يريد: إن علما أنهما يقيمان حدوده.

الشرح

عندنا قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ هذا يسمى الطلاق الرجعي، الطلاق مرتان: الطلاق الرجعي الذي يملكه الرجل؛ يملك زوجته، فيه الطلقة الأولى والثانية، أما الثالثة لا يملكها، تخرج عنه، إلا إن تتزوج بزوج آخر ويحصل المسيس من الزوج الآخر؛ يقع عليها، أما مجرد عقد لا يكفي، هذا بالنسبة للطلاق، الطلاق نوعان: طلاق رجعي وطلاق بائن. هذه الآية في الطلاق الرجعي ثم يأتينا الطلاق البائن، الطلاق الرجعي بمعنى أن الرجل إذا طلق زوجته مرة، أو مرة أخرى قال "هي طالق" مرتين؛ يملكها يراجعها ما دام في العدة يراجعها، إذا خرجت من العدة لا يملك رجعتها لكن يملك أنه يخطبها ويتزوجها، يأتي إليها ويقول نرجع للزواج، لا مانع، يدفع لها مهرًا ويخطبها خطبة جديدة.

الآن الله عز وجل يقول: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ أي: الطلاق الذي يملك فيه الرجل الرجعة، تطليقتان الأولى والثانية، ثم قال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإمساك بعد ذلك بمعروف، له أن يراجعها؛ هذا دلالة على مشروعية الرجعة أنه ما دامت في العدة له أن يراجعها. ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ يعني: يتركها حتى تخرج من العدة، أو يطلقها الطلقة الثانية والثالثة بإحسان، ثم قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ يقول لا يحل للزوج أن يأخذ من مهرها، كما يقول: "لن أطلقك وسأضايقك وسأؤذيك حتى تدفعي المهر"، لا يحل، هذا لا يجوز. ﴿إِلا أَنْ يَخَافَا﴾ إلا في حالة واحدة، تسمى حالة الخلع أو الفسخ، فسخ النكاح أو خلعه

قال المؤلف: (﴿إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: يعلمان أنهما لا يقيمان حدود الله)، يعني المرأة إذا علمت أنها لن تقيم حدود الله مع هذا الزوج؛ كأن تكون أخلاقه سيئة أو عنده نقص في دينه أو نحو ذلك، فإذا علمت هي أنها لا تقيم حدود الله معه، لا تقيم شرع الله عنده، أو هو علم ذلك؛ فيفصل بينهما، ويسمى هذا الخلع.

الرجل إذا علم أن امرأته لا تصلح في خُلقها ولا دينها، يطلقها ويتزوج غيرها، المرأة إذا علمت أن الزوج لا يصلح في دينه ولا في خلقه، كأن يكون زوجها سيء؛ يشرب الخمور، ولا يصلي، وعلاقته السيئة، ويسرق الأموال، في هذه الحالة تطالب بالخلع، تطلب الطلاق، فإذا رفض أن يطلقها تطالب بالخلع؛ ترفع قضية تطالب فيها بالخلع، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فلا جناح على زوج المرأة أن ينفصل ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فيما افتدت به المرأة نفسها من الزوج، هذا معنى الخلع؛ تدفع له مهره الذي أعطاها، فتدفع له فيما افتدت به، تفدي نفسها، وهذه قصه المرأة لما جاءت إلى الرسول ﷺ تطالب بالخلع فقال: طلقها، قال: إني أمهرتها حديقة، قال النبي ﷺ للمرأة: «أَتَرُدِّينَ عليه حَدِيقَتَهُ؟» قالت: نعم، قال: «اقبَلِ الحديقةَ وطلِّقها تَطليقةً»، هذا يسمى الخلع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ هذه تعني: إذا طلقها الزوج الثاني، المرأة إذا طُلقت طلاقًا بائنًا (ثلاث طلقات) فلا يمكن أن يرجع لها زوجها أبدًا، إلا أن يتزوجها رجل جديد ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ تنكح زوجًا آخر أي: يتم الزواج والدخول بالمرأة، فإن طلقها الزوج الآخر -الزوج الجديد- لها أن ترجع إلى الأول، وتسقط الطلقات كلها، ويصير عقد جديد، متى ترجع للأول؟ ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إذا علم أنه سيعود إليها وتعود إليه بإقامة حدود الله، فلا جناح عليهما.

٢٣١- ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾؛ كانوا إذا طلق أحدهم امرأته: فهو أحقُّ برجعتها ما لم تغتسل من الحيضة الثالثة؛ فإذا أراد أن يضر بامرأته: تركها حتى تحيضَ الحيضة الثالثة، ثم راجعها. ويفعل ذلك في التطليقة الثالثة. فتطويله عليها هو: الضِّرار.

الشرح

الله جَلَّجَلَالُهُ يقول: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ قوله فبلغن أجلهن يعني: قاربت وشارفت الخروج من العدة، فأمسكها يعني: راجعها بمعروف، أو سرحها بإحسان: اتركها تخرج من عدتها، ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا أي: لا تراجعها على وجه الاعتداء فقط؛ أنك تعتدي عليها، كان في الجاهلية كما ذكر المؤلف يطلق الرجل زوجته، فإذا اعتدت بالحيض مثلًا وعرف أنها ستنقضي العدة في الحيضة الثالثة؛ فيأتي يراجعها، ثم يطلقها ويراجعها، ثم يطلقها ويراجعها حتى يضرها، فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أمسكها بمعروف أو اتركها، لا تعتدي هذا معنى الآية.

٢٣٢- ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن. يقال: عضل الرجل أيِّمَه؛ إذا منعها من التزويج.

﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يعني: تزويجًا صحيحًا.

٢٣٣- ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: على الزوج إطعام المرأةِ والوليدِ والكسوة على قدر الجِدَة.

﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها.

﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بمعنى: لا تضارَر. ثم أدغم الراء في الراء. أي: لا ينزعْ الرجل ولدها منها فيدفعَه إلى مُرْضع أخرى، وهي صحيحة لها لبن.

﴿وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ يعني: الأب. يقال: إذا أرضعت المرأة صبيها وأَلِفَها، دفعتهُ إلى أبيه: تُضارُّه بذلك.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ يقول: إذا لم يكن للصبي أب، فعلى وارثه نفقته.

و (الفِصَالُ): الفطام. يقال: فَصَلتُ الصبيَّ؛ إذا فطمته. ومنه قيل للحُوَار - إذا قطع عن الرضاع -: فصيل. لأنه فُصِل عن أمه. وأصل الفصل: التفريق.

٢٣٤- ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: منتهى العدة.

﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لا جناح عليهن في التزويج الصحيح.

الشرح

في الموضع الأول قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ هذا في آية: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ تعضلوهن من "العضل" أي: الحبس؛ لا تحبسوهن، يُقال: عضل الرجل أيّمه -أي المرأة التي عنده- إذا منعها من التزوّج. إذا طلق الرجل زوجته وانتهت العدة ثم أراد خطبتها فليس لوليها أن يمنعه إذا تراضوا بينهم، هذه نزلت في معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كانت أخته تحت رجل فطلقها، ثمّ خلى عنها حتى انقضت عدتها، ثم خطبها، فَحَمِي معقل من ذلك أنفًا فقال: خلّى عنها وهو يقدرُ عليها ثم يخطبها، فحال بينه وبينها، وكان الرجل وأخته راضين ببعضهما، فأنزل

الله هذه الآية، فما سمعها معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوجها. فإذا خطب الرجل امرأة وتزوجها ثم حصل ما حصل من الطلاق، ثم أراد أن يتزوجها مرة أخرى فلا مانع، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: تزويجًا صحيحًا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المولود له: هو الأب، وقوله تعالى: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ أي: رزق المرأة والمولود وكسوتها، يقول المؤلف: (على الزوج إطعام المرأةِ والوليدِ والكسوة على قدر الجِدَة) أي: على قدر ما عنده من المال ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: 7] كل واحد على قدر ما عنده إذا كان غنيًا أو فقيرًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي على قدر طاقتها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ لا يضار الطرفان، أصل تضار فيها مد لازم لأن الألف جاء بعدها حرف مشدد تمد مدًا لازمًا مثل: الطامة والصاخة والحاقة. لا تضار أصلها: لا تضارر -راءين- فلما أُدغمت إحداهما بالأخرى شُدّدت فأصبح فيها مد وأصبحت راء واحدة، ومعنى الآية: لا يقع ضرر على الأم ولا على الأب، لا أحد يضر الآخر، قال المؤلف في معنى المضارة: (لا ينزعْ الرجل ولدها منها فيدفعَه إلى مُرْضع أخرى، وهي صحيحة لها لبن) أنت طلقت هذه المرأة وعندها طفل، لا تأخذ طفلها بحجة أنه ولدك وتعطيه امرأة أخرى ترضعه، بل يُترك عند أمه، إذا كانت صحيحة وفيها لبن وهي لا تمانع؛ لا يجوز أنك تأخذ طفلها الصغير -المسكينة- وهي متعلق قلبها بهذا الطفل؛ حملته تسعة أشهر وهو في بطنها، ووجدت الآلام عند ولادته؛ ثم تأخذه تنزعه وتعطيه امرأة أخرى وهي تريده، لا يجوز، إذا كان هذا ملاحظ في جانب الحيوانات، تلاحظون الحيوانات لا تترك طفلها -سبحان الله العظيم- حتى في القطط وغيرها؛ لا تترك طفلها يمشي في طريق لا أحد عنده ، تحن عليه وتقربه وتأتي إليه، وتأتي له بالطعام، وأنت تأتي على هذه المرأة وتنزع طفلها! هذه قسوة قلب.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ حتى الأب لا يجوز أن يُضَر، قال ابن قتيبة: (إذا أرضعت المرأة صبيها وأَلِفَها، دفعتهُ إلى أبيه: تُضارُّه بذلك) أي تأخذ مثلًا شهرين أو ثلاثة أو أربعه أشهر، فيتعود الطفل

عليها ويريد أمه، ثم ترفض إرضاعه وتأخذه لوالده ليتحمل مسؤوليته، فتأتي به وتضعه عند أبيه فالطفل يتضرر، اعتاد على الأم فإن أتى له والده بمرضعة جديدة لا يقبلها، يتأذى بهذا، فإذًا تأذى [الأب] لا يجوز لها أن تترك الولد عند أبيه يبحث عن مرضعه، يمكن الطفل لا يقبل [غيرها] فلا يجوز، لا يضارّ الطرفان.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: لو فرضنا أن هذا المولود توفي أبوه فمن يكسو المرأة ومن ينفق عليها يكون الوارث؛ ينزّل منزلة الأب، فقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ يقول المؤلف: (إذا لم يكن للصبي أب، فعلى وارثه نفقته).

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي: الأب والأم يريدان أن يفصلا الولد عن الرضاعة، مثلًا أرضع سنة كاملة، قالوا ذلك يكفي، فيجوز قطع الرضاعة في خلال سنه أو سنه ونصف أو دون سنتين، يجوز إذا اتفق الطرفان. يقول المؤلف: (و (الفِصَالُ): الفطام. يقال: فَصَلتُ الصبيَّ؛ إذا فطمته. ومنه قيل للحُوَار - إذا قطع عن الرضاع -: فصيل. لأنه فُصِل عن أمه. وأصل الفصل: التفريق) الحوار: هو صغير الإبل صغير. وفي حديث النبي ﷺ في صلاة الضحى قال: «صَلَاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الفِصَالُ» أي تجد حرارة الشمس شديدة، الفصال هي أولاد الإبل، لأن الإبل تتحمل الشمس بقوة وتتحمل الرمل والأرض الحارة، أما الفصال الصغار لا تتحمل.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ هذا في آية عدة المرأة المتوفى عنها زوجها، تعتد أربعة أشهر وعشرًا ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ يعني: انتهت العدة؛ انتهت أربعة أشهر وعشر، قال تعالى إذا انتهت عدتها: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لا مانع أن تتجمل، لكن بالمعروف أي: تضع الكحل والحناء وتلبس الحلي والذهب، وتلبس ملابس الزينة، هذا كله جائز، لأنها ممنوعة في الحداد أربعة أشهر وعشر، تحد المرأة على زوجها؛ فلا تضع الكحل ولا الطيب ولا الحناء في رأسها ولا الأصباغ الأخرى ولا تلبس الملابس الجميلة ولا تخرج من بيتها إلا لضرورة؛ هذا يسمى الحداد، فإذا انتهت مدة الحداد فلها أن تلبس ما شاءت من الملابس الزينة، لكن بشرط كما قال تعالى "بالمعروف" أي بالأشياء المباحة، فليس معناه أن المرأة إذا انتهت عدتها

تنمص شعر الحاجبين، فالنمص محرم لعن الله النامصات والمتنمصات، وليس معناه أن تصل الشعر بالشعر تكون واصلة، وليس معناه أنها تلبس الملابس الشفافة والملابس المحرمة تظهر عورتها أمام الرجال وأمام المحارم عندها تأتي إلى إخوانها وعند أبيها وعند أقاربها لابسة إلى نصف الفخذ هذا لا يجوز، وغيرها من المحرمات، فتبدي زينتها المباحة التي أباحها الله لها، أما تخرج صدرها وشعرها أمام الرجال هذا يخالف قوله تعالى "بالمعروف" وإن تعارف الناس عليه؛ ليست العبرة بأعراف الناس المخالفة للشريعة، لو قال هذا المجتمع كلهم يلبسون إلى نصف الفخذ؛ نقول لا دخل لنا بهم، المجتمع لو لم يكن يلبس لا دخل لنا بهم، العبرة بالشريعة الذي حرمه الله حدود الله، هذا الذي يعني يمنع أو لا يمنع.

٢٣٥- ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ وهو: أن يُعَرِّض للمرأة في عدتها بتزويجه لها، من غير تصريح بذلك. فيقول لها: والله إنك لجميلة، وإنك لشابّة. وإن النساء لمنْ حاجتي؛ ولعل الله أن يسوق إليك خيرًا. هذا وما أشبهه.

﴿وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: نكاحا. يقول: لا تواعدوهن بالتزويج - وهن في العدة - تصريحا بذلك.

﴿إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلا مَعْرُوفًا﴾ لا تذكرون فيه نكاحا ولا رَفَثا.

﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي لا تُوَاقِعوا عُقْدَة النكاح.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾؛ يريد: حتى تنقضيَ العدة التي كُتب على المرأة أن تَعْتَدَّها. أي فُرض عليها.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ أي: يعلم ما تحتالون به في ذلك على مخالفة ما أراد؛ فاحذروه.

الشرح

هذه الآية في خطبة المرأة، إذا قيل لك هل تجوز خطبة المرأة؟ فنقول المرأة على ثلاثة أقسام:

* امرأة عند زوجها وفي عصمته: هذه لا يجوز خطبتها وهو يحرم، ويحدث أن يخطبها؛ يأتي إليها مثلًا في الوظيفة ويسأل عن أحوال زوجها، فإن شكته يقارن بينهما ويطلب منها الخلع ليتزوجها؛ هذا لا يجوز يخبب على امرأته ولا يجوز له أن يخطبها وهي في عصمة الزوج، فهذه خطبة محرمة.

* الحالة الثانية المرأة غير متزوجة: فيجوز أن تخطبها.

* الحالة الثالثة المرأة المعتدة: يجوز خطبتها تلميحًا وتعريضًا لا تصريحًا.

﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ تعريض، المرأة المعتدة إذا كانت معتدة في وفاة زوجها، أو في طلاق زوجها طلاقًا بائنًا، أما الطلاق الرجعي لا يجوز لأنها في عصمته، فالمعتدة بالطلاق البائن أو الوفاة يأتي إليها يقول مثلًا: ما شاء الله أنت شابة وأنت ما شاء الله جميله وأنت... أي يلمح أو يقول: والله أنا كنت أبحث منذ زمن عن امرأة وأريد أن أتزوج... فالتلميح جائز، أما التصريح لا يجوز، أن يقول: "أنا أريد أن أتزوجك" يصرح، هذا لا يجوز،

فتفسير قول الله سبحانه لكلمة "عرّضتم" كما قال المؤلف: (وهو: أن يُعَرِّض للمرأة في عدتها بتزويجه لها، من غير تصريح بذلك. فيقول لها: والله إنك لجميلة، وإنك لشابّة. وإن النساء لمنْ حاجتي؛ ولعل الله أن يسوق إليك خيرًا. هذا وما أشبهه) هذا سمى تعريض وهو جائز.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ التصريح لا يجوز في العدة، ﴿إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلا مَعْرُوفًا﴾ كما ذكرنا: لا تذكروا النكاح ولا الرفث ولا أي شيء؛ وإنما تعريض. ﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ لا تعزم عقدة النكاح وهي في العدة، أي: لا توقع أو تواقع عقدة النكاح ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: حتى تخرج من العدة، حتى تنقضي العدة، فإذا انقضت العدة اعزم عقد النكاح.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ يعلم ما تحتالون وما تقولون وما تتكلمون به ونواياكم كله يعلمه الله سبحانه وتعالى فيجازيكم على ذلك.

٢٣٦- ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني: المهر.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ أي: أعطوهن مُتْعَةَ الطلاق على قدر الغنى والفقر.

٢٣٧- ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ من المهر. أي: فلهن نصف ذلك.

﴿إِلا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: يَهَبْنَ.

﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ يعني: الزوجَ.

وهذا في المرأة: تُطلَّق من قبل أن يُدخل بها، وقد فُرِضَ لها المهرُ. فلها نِصْفُ ما فُرِض لها؛ إلا أن تهبَه، أو يتممَ لها الزوجُ الصداق كاملا.

وقد قيل: إن الذي بيده عقدة النكاح: الأبُ. يراد: إلا أن يعفو النساء عما يجب لهن من نصف المهر، أو يعفو الأب عن ذلك؛ فيكون عفوه جائزا عن ابنته.

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ حضّهم الله على العفو.

٢٣٨- ﴿وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ صلاة العصر. لأنها بين صلاتين في النهار، وصلاتين في الليل.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: مطيعين. ويقال: قائمين. ويقال: ممسكين عن الكلام.

والقنوت يتصرف على وجوه قد بينتها في "المشكل".

٢٣٩- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يريد: إن خفتم عدوًّا.

﴿فَرِجَالا﴾ أي: مُشَاةً؛ جمع رَاجِل. مثل قائم وقِيام.

﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ يقول: تصلي ما أمِنتَ قائما؛ فإذا خفتَ صلّيت: راكبًا، وماشيًا. والخوف هاهنا بالتَّيقُّن، لا بالظن.

الشرح

عندنا عدة مسائل مهمة، أولًا: المرأة قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه المرأة التي عقد عليها ولم يفرض لها مهرًا مباشرة ولم يدخل بها وطُلقت، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ يعني: لم يَخْلُ بها ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أو تفرضوا

لهن المهر، وثم طلقها، فيجب عليه أن يمتعها، هذه المتعة هنا واجبة لأنه لم يعطها مهر ولم يدخل بها، لو دخل بها لزمه المهر، لكن الآن هو لم يدخل، عقد ولم يدخل بها ولم يعطيها مهرًا، فالنتيجة يجب عليه أن يمتعها، والمتعة أن يعطيها أي شيء؛ كسوة، مال، هدية، أي شيء، يمتعها بالمتعة على قدره ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ فإن كان صاحب مال وعنده خير يعطيها شيئًا يناسب حاله، وإن كان فقير يعطيها شيء يناسب حاله، هذا بالنسبة للمرأة التي عقد عليها ولم يفرض لها وطلقها.

تأتينا حالة امرأة أخرى، عقد عليها ومَهَرَها -دفع لها المهر- وطلقها قبل الدخول، فلها نصف المهر، هذه ليس لها متعة بل نصف المهر، وإن متع لا مانع، لكن لا يلزمه المتعة؛ يلزمه نصف المهر يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ إن طلقتموهن "قبل أن تمسوهن" أي: قبل الدخول، وقد فرضتم لهن فريضة أي: أعطيتها المهر، ثم طلقتها قبل الدخول، فلك النصف ولها النصف، ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ إلا أن تعفو هي تتجاوز، تقول: أنا لا أريده خذ مهرك كاملًا، أو يعفو هو أيضًا، أحيانًا الزوج يقول: أنا أعطيتك المهر ولا أريد أن أرجع منه؛ خذيه كاملًا.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ أي المرأة تهبه ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي: الزوج، وهذا في المرأة التي تُطَلّق قبل أن يدخل بها وقد فرض لها المهر، فلها نصف ما فُرِض لها، إلا أن تهبه هي أو يتمم لها الزوج الصداق كامل. وقد قيل الذي بيده عقدة النكاح الأب؛ هذا الرأي الثاني، يراد بقوله ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ هو وليها "الأب" أو من يقوم مقامه، فيكون العفو جائزًا عن ابنته، وذكر المؤلف الرأي الأول ثم قال (وقيل) والصحيح هو الأول؛ لأن الذي بيده عقدة النكاح والذي يملك الطلاق هو الزوج، ثم هناك أمر آخر أقوى يرجح القول الأول، وهو أن القضية الآن بين الزوج والزوجة، فالمهر في المنتصف بين الزوج والزوجة، فهل المهر هذا بعد أن حصل الطلاق تأخذه الزوجة أم الزوج أم يتقاسماه؟ إذًا الولي لا علاقة له، الكلام بين الطرفين، فالذي يظهر -والله أعلم- أن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج، والرأي الثاني هو الأب.

قال بعدها: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: الذي يعفو أقرب للتقوى، المرأة إن تنازلت كانت أقرب للتقوى، والرجل إذا تنازل كان أفضل. ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ قال المؤلف: (حضّهم الله على العفو) وهذه المسالة حقيقة مهمة جدًا ينبغي لنا أن نفهمها، ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أنت جئت وخطبتها ونظرت إليها وجلست معها يمكن فترات، وأعطيتها مهرًا وأعطيتها هدايا، وتم العقد وأصبحت زوجة لك، لم تدخل بها لكنها أصبحت زوجتك، ثم بعد هذه الأمور تسيء العلاقة معها، وتسبها في المجالس وتقول هي سيئة فقط لأن الزواج لم يتم، أو هي تسبه أحيانًا تقول الزوج سيء الخلق، ولو جاء رجل يسأل عن هذه المرأة عند طلقيها فيخرج عيوبها، لا يجوز ذلك، استر عليها وهي تستر عليك ولا تنسوا الفضل بينكم، هذا الكلام الآن يقع ممن لم يدخل بها ولم يعاشرها أيام، فكيف بالمطلق؟ افرض أن هذا الرجل تزوج هذه المرأة وجلس معها مدة طويلة، سنين، وعنده أولاد، بعضهم يجلس معها ثلاثين سنة، أربعين سنة، ثم يطلقها، الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: أحسن إليها وهي تحسن إليك.

في حالة أخرى؛ حالة الاستدامة، رجل متزوج مع امرأته، تجد بعضهم يسيء علاقة مع زوجته ويسبها في المجالس وهي تسبه، وإذا ذهبت عند أهلها قالت: والله فلان فيه كذا وكذا، وهو إذا ذهب عند أحد بدأ يسب زوجته، والله يقول ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ بينك وبينها عشرة، لا داعي لأن تذكر أخلاقها السيئة، وأحيانًا تجد بعض الرجال يسب زوجته عند أبنائه، إذا جاء عند أولاده وهو جالس معهم قال: والله أمكم فيها كذا وكذا، هذا لا يصلح، ليس من الأدب ولا يجوز، ليس من الشرع، هذا معنى ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

ننتقل للتي بعدها عند قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ المراد بالصلاة الوسطى: صلاه العصر، قال المؤلف: (لأنها بين صلاتين في النهار، وصلاتين في الليل) صلاتين في النهار أي: الفجر والظهر، والليل أي: المغرب والعشاء، هذا تعليل جيد لكن عندنا تعليل أقوى وهو من السنة، وردت في السنة قال ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر» هذا صريح وتفسير القرآن بالسنة أولى.

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ "قانتين" هذه من الألفاظ المشتركة، قال المؤلف: (مطيعين. ويقال: قائمين. ويقال: ممسكين عن الكلام) كل هذه صحيحة ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ مطيعين، قائمين، ممسكين على الكلام، والقنوت يتصرف على وجوه قد بينها المؤلف في "المشكل". ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: خفتم العدو، هذه صلاة الخوف ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: صلوا وأنتم راجلين "تمشون" أو على الخيول أو على الدبابات أو نحو ذلك، قال مشاة وركبانًا، يقول ﷺ صل، فإن لم تأمن قائمًا؛ صلِّ على قدر حالك، فإذا خفت من العدو صل وأنت راكب ولو إيماءً؛ تصلي على قدر حالك، هذه تسمى صلاة الخوف، ولا يشترط لصلاة الخوف فيها استقبال القبلة إلا إذا استطاع، مثلًا يصلون صلاة الخوف مثل ما ذكر في سورة النساء: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102] فإذا أقيمت لهم الصلاة يصلون جهة قبلة، لكن إذا كان الحرب وقت المسائفة، الحرب قائمه وأنت على الخيل أو على الدبابة أو في الطائرة، فالطائرة تأخذ أوقات طويلة يدخل عليه وقت العصر والمغرب والعشاء، فنقول صل على قدر حالك وأنت في الطائرة الحربية، وأحيانًا في الدبابات على الحدود ونحو ذلك، يصلي على قدر حاجته إذا كانت الحرب قائمة، يصلي وهو في مكانه، وإن كانت القبلة خلفه يصلي، لو لم يجد طهارة يصلي، يصلي على قدر حاله هذا في صلاة الخوف.

٢٤٣- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ على جهة التعجب. كما تقول: ألا ترى ما يصنع فلان!!

٢٤٦- ﴿الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وجوههم وأشرافهم.

٢٤٧- ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: سَعَةً في العلم والجسم. وهو من قولك: بسطت الشيء؛ إذا كان مجموعا: ففتحتَه ووسعتَه.

٢٤٨- ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي: علامةَ ملكه.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ السكينةُ فعيلةٌ: من السكون.

﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾؛ يقال: شيءٌ من المَنِّ الذي كان ينزل عليهم، وشيء من رُضَاضِ الألواح.

٢٤٩- ﴿مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي: مُخْتَبِرُكُم.

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾ أي يعلمون.

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ﴾ الفِئَة: الجماعة.

٢٥٠- ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي صُبَّه علينا، كما يُفرغ الدّلوُ.

الشرح

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الاستفهام هنا على جهة التعجب، كما تقول: ألا ترى ما يصنع فلان؟ تتعجب منه. فالمؤلف يتكلم عن كلمة "ألم" أنها للاستفهام والتعجب، يتعجب لأنهم خرجوا فارّين من الموت فجاءهم الموت.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الملأ هم الأشراف من القوم؛ الوجهاء يسمَون ملأ، لأن نظرتهم تملأ العين.

في قصة طالوت، وطالوت: رجل صالح وهو الذي قاد الجيش ونصره الله، وجالوت هو عدو الله الذي قتله داود عليه السلام. داود كان صغيرًا في جيش طالوت، ولذلك آخر الآيات قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: 251].

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ هذا في وصف طالوت الصالح، بسطة أي: سعة، سعة في العلم والجسم، وهذا من أقوى أسباب قيادة الجيوش؛ ينبغي أن يكون القائد موصوفًا بالعلم وقوة الجسم، قال المؤلف رحمه الله موضحًا معنى بسطة: (وهو من قولك: بسطت الشيء؛ إذا كان مجموعًا: ففتحتَه ووسعتَه) بسط الشيء: توسعته، كما قال تعالى ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: 69] يعني سعة.

﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ آية: علامة، علامة ملكه عليكم. آية في القرآن لها عدة معاني، والآية تأتي بمعنى العبرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 67]. والآية تأتي بمعنى الدلالة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: 37] الدالة على قدرته سبحانه. والآية بمعنى العلامة، كما هنا ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ يعني علامة.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ قال المؤلف: (السكينةُ فعِيلةٌ: من السكون) وهي الطمأنينة. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ يقال شيء من المنّ الذي كان ينزل عليهم، أو من رضاض الألواح -الله أعلم-.

قال لهم طالوت كما ذكر الله ﷻ في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ يعني: مختبركم؛ من يصبر ومن لا يصبر. ولذلك قال ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فالذين أخذوا غرفة، هذه الغرفة روته وأشبعته وأذهبت عنه العطش، وجاوز النهر ومشى، والذين شربوا بقوا على عطشهم ولم يستفيدوا وضعفوا وتراجعوا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ هؤلاء هم الذين صبروا ولم يرجعوا واستمروا معه، قيل إن عددهم عدد أهل بدر -ثلاث مئة وبضعة عشر- ﴿يَظُنُّونَ﴾ أي: يعلمون. الظن من الألفاظ المشتركة في القرآن، يأتي الظن بمعنى اليقين والعلم، ويأتي الظن بمعنى الشك؛ وأكثر وروده في القرآن بمعنى اليقين. ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ أي: عندهم علم ويقين بلقاء الله.

﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ أي: جماعة. لمّا واجهوا القوم قالوا ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أفرغ علينا يعني: صبّ علينا الصبر صبًا، كما يفرغ الدلو، أي: اجعل الصبر قد دخل فينا.

٢٥٤- ﴿وَلا خُلَّةٌ﴾ أي: ولا صداقة تنفع يومئذ. ومنه الخليل.

٢٥٥- و (السِّنَةُ): النُّعَاسُ من غير نوم. قال ابن الرِّقاع:

وَسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ❊❊❊ فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

فأعلمك أنه وسنان؛ أي: ناعس، وهو غير نائم. وفَرْقُ الله سبحانه بين السِّنة والنوم، يَدُلُّك على ذلك.

﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يُثقله. يقال: آدَهُ الشيءُ يؤُودُهُ وآدَه يَئِيدُه، والوَأْد: الثّقل.

٢٥٦- ﴿لا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انكسار. يقال: فَصمتُ القدَح؛ إذا كسرتَه وقصمته.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ يقول المؤلف: (﴿وَلا خُلَّةٌ﴾ أي: ولا صداقة تنفع يومئذ) لماذا قال تنفع؟ لأن هناك صداقة نافعة. ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، فالخلّة ليست منفية على إطلاقها، وكذلك الشفاعة ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48] لكن تنفع غيرهم.

قال تعالى في آية الكرسي: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ فرق الله عز وجل بين السِّنة والنوم، السِّنة: مقدمات النوم؛ النعاس الذي يصيب الإنسان. يصيب الإنسان: السِّنة، النعاس، النوم، الرقود، الموت، كلها تصيبه، السِّنة قيل: هو مقدمات، والنعاس بداية النوم، والنوم الدخول في النوم المعروف، وإذا طال النوم وزاد واشتد يسمى رقود، ولذلك أصحاب الكهف قال فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: 18] لأن نومهم طويل، وفيه أيضًا غير النوم قال القيلولة ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4] النوم في النهار، وفيه الهجعة ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: 17] الهجعة هي النوم المتقطع، فكانوا قليلًا ما ينامون، حتى المتقطع ينامونه قليل... وهكذا، هذه كلها تدخل في معاني النوم أو في ألفاظ النوم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا يَئُودُهُ﴾ أي: لا يكرثه ولا يعجزه ولا يثقله، ﴿حِفْظُهُمَا﴾ يعني: حفظ السماوات والأرض وما فيها، ومعناه: حفظ السماوات والأرض وما فيها لا تُثقل الله عز وجل ولا يصعب عليه.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ العروة الوثقى: التوحيد. عروة الشيء كالإناء له عروتان، تستطيع حمل الإناء الثقيل إذا كانت له العروتان. فالتوحيد له عروة؛ من تمسك بها لا يسقط، هذه كنايات القرآن، وإلا لا يوجد عروة، لكن هذه من كنايات القرآن. مَثَّل وكنّى عن التوحيد بأن له عروة ومن تمسك بالتوحيد وهي: "لا إله إلا الله" سلم من الهلاك.

٢٥٨- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: حَاجَّه لأن آتاه الله الملك؛ فأعجب بنفسه وملكه فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾

أي: أعفو عمن استحق القتل فأحييه؛ و "أميت": أقتل من أريد قتله فيموت.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: انقطعت حجته.

٢٥٩- ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ أي: هل رأيت [أحدا كالذي حاج إبراهيم في ربه] أو كالذي مر على قرية؟! على طريق التعجب.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: خراب.

و ﴿عُرُوشِهَا﴾ سقوفها. وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ الله، أي: أحياه.

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغيرْ بممر السنين عليه. واللفظ مأخوذ من السَّنة. يقال: سانَهَتْ النَّخْلَةُ؛ إذا حملت عاما، وحَالَتْ عاما. قال الشاعر:

وَلَيْسَتْ بِسَنْهَاءٍ وَلا رُجَّبِيَّةٍ ❊❊❊ وَلَكِنْ عَرَايَا فِي السِّنِينَ الْجَوَائِحِ

وكأن "سَنَةً" من المنقوص: وأصلها: "سَنْهَةٌ". فَمَن ذهب إلى هذا قرأها -في الوصل والوقف- بالهاء: "يَتَسَنَّهْ".

قال أبو عَمْرو الشّيباني "لم يَتَسَنَّهْ": لم يتغير؛ من قوله: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾؛ فأبدلوا النون من "يَتَسَنَّنْ" هاء. كما قالوا: تَظَنَّيْتُ وَقَصَّيْتُ أظفاري، وخرجنا نَتَلَعّى. أي نَأْخُذ اللّعَاع. وهو: بقل ناعم.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: دليلا للناس، وعَلَما على قُدرتنا. وأضمر "فَعلْنا ذلك".

﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ بالراء، أي: نحييها. يقال: أنشرَ الله الميت فنَشَر.

وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ ومن قرأ ﴿نُنْشِزُهَا﴾ بالزاي، أراد: نحرك بعضها إلى بعض ونزعجه. ومنه يقال: نَشزَ الشيءُ، ونَشَزَتْ المَرْأةُ على زوجها.

وقرأ الحسن: "نَنْشُرُها". كأنه من النَّشْر عن الطَّيِّ. أو على أنه يجوز "أنشرَ الله الميت ونشره": إذا أحياه. ولم أسمع به [في "فَعَل" و "أفْعَلَ"].

الشرح

هنا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ هذا نمرود، نمروذ، بالذال أو الدال، ملك حاجّه لأنه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ يعني أعطاه الله الملك، فأعجب بنفسه وملكه، ولذلك اغتر بنفسه وملكه فبدأ يحاج، لو كان ليس عنده ملك لما حصل هذا الشيء، قال ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ لما قال لإبراهيم من ربك؟ قال: ربي الذي يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت أنا الرب، كيف تحيي وتميت؟ قال: أتى برجلين قد حكم عليهم بالقصاص فعفا عن واحد ونفذ القصاص في آخر، فقال هذا أحييته وهذا أمته. فيريد أن يموه على الناس، فلما رأى إبراهيم منه هذا الكلام وتمويهه على الناس أعرض عن هذا وأتى بدليل آخر، فقال: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأنت إن كنت تقدر فأتِ بها من المغرب. ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ بهت أي: تحير وانقطعت حجته.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمعنى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ وهل رأيت كذلك حوار هذا الرجل؟ أي على تقدير. ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ على سبيل التعجب؛ كله على التعجب. ﴿قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة؛ خراب ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها، قال تسقط الحيطان ثم تسقط العروش.

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ بعثه الله أي: أحياه ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير بمر السنين. فيكون "يتسنه" مأخوذ من السنة وهي: العام، أو يكون المعنى "يتسنَّه" أي يتغير، وهذا أقرب؛ لأن في سورة محمد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: 15] غير آسن أي: غير متغير، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26] أي متغير.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية هنا بمعنى: الدليل. الآية الأولى معناها "علامة" وهنا قال "الدليل"؛ دليل للناس وعلمًا على قدرتنا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَيْفَ نَنْشُرُها﴾ وفي قراءتنا ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ يقول المؤلف قرأ ابن عامر والكوفيون عاصم وحمزة والكسائي بالزاي، والباقون بالراء ﴿نُنْشِرُها﴾، إذًا قراءة الكوفيين مع ابن عامر الشامي يقرأونها بالزاي ﴿نُنشِزُهَا﴾ . قراءتنا نحن حفص عن عاصم ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ وبقية القراء السبعة:

أبو عمرو البصري والإمام نافع المدني وعبد الله بن كثير المكي؛ هؤلاء يقرأونها بالراء ﴿كَيْفَ نُنْشِرُها﴾ فابن قتيبة لم يكن يقرأ بالكوفية [رغم كونه كوفي]، بل يقرأ قراءة أبي عمرو البصري أو الإمام نافع المدني أو ابن كثير، والأقرب أبو عمرو البصري لأنه في منطقة العراق، هكذا يتضح لنا.

يقول المؤلف في معنى ننشرها: (أنشرَ الله الميت فنَشَر) أي أحياه كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: 22] أي بعثه. ومن قرأ [بالزاي] أراد أن يحركها، نشز أي: الارتفاع، أرض ناشزة أي: مرتفعة. فمعنى ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: كيف نرفع العظام بعضها على بعض.

٢٦٠- ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بالنظر. كأن قلبه كان معلَّقا بأن يرى ذلك. فإذا رآه اطمأن وسكن، وذهبت عنه محبة الرؤية.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: فضُمَّهُنَّ إليك. يقال: صُرْتُ الشيء فانْصار؛ أي: أمَلتُه فمال. وفيه لغة أخرى: "صِرْته" بكسر الصاد.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: رُبعا من كل طائر. فأضمر "فقطعهن"، واكتفى بقوله: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ عن قوله: فقطعهن. لأنه يدل عليه. وهذا كما تقول: خذ هذا الثوب، واجعل على كل رمح عندك منه عَلَما.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ يقال: عَدْوًا. ويقال: مشيًا على أرجلهن ولا يقال للطائر إذا طار: سعى.

٢٦٤ - و (الصَّفْوَانُ): الحجر. و (الوَابِلُ): أشدُّ المطر و (الصَّلْدُ): الأملس.

٢٦٥- ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي تحقيقًا من أنفسهم.

(الرَّبْوة): الارتفاع. يقال: رَبْوَة، ورُبوة أيضا.

﴿أُكُلَهَا﴾: ثَمَرُها.

(الطَّلُّ): أضعف المطر.

٢٦٦- (الإعْصَارُ): ريح شديدة تعصف وترفع ترابا إلى السماء كأنه عمود.

قال الشاعر:

إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لاقَيْتَ إعْصَارًا

أي: لاقيتَ ما هو أشد منك.

الشرح

عند قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يقول لأن النظر "المشاهدة" غير السماع؛ أنت عندما تسمع خبرًا تقول: ليس الخبر كالمعاينة، فأنت إذا رأيت الشيء بعينك يختلف إذا سمعته. هو عنده علم بأن الله قادر ولا يشك في ذلك إبراهيم عليه السلام

لكن أراد زيادة الإيمان قال المؤلف: (بالنظر. كأن قلبه كان معلَّقا بأن يرى ذلك. فإذا رآه اطمأن وسكن، وذهبت عنه محبة الرؤية).

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ يقول المؤلف: "فصرهن" فيها لغتان "صِرهن" بالكسر و "صُرهن" بالضم؛ الصاد مكسورة ومضمومة كلها صحيحة، ومعنى ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضم هذه الطيور إليك ثم قطعها، فانصار أي: أملته وضممته إلي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي قطعهن أولًا ثم اجعل على كل جبل جزءًا، فحذفت "قطعهن"؛ حُذِفت اكتفاءً بفهم الآية، الحذف كثير في القرآن، باب الحذف واسع جدًا. فمعنى الآية: فقطّعهن ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا -أي من هذه الطيور- قطعها واجعلها أجزاء.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تمشي على أرجلها، يقول: لأنها تمشي على أقدامها. دخل بعض المفسرين في مثل هذا الأمر وتوسعوا وقالوا الطيور ما هي؟ هل هي ديكة دجاج أو نسور أو حمام، هذا كله لا داعي له، هي طيور فقط، الله لم يبيّن لنا ما هي؛ ولا حاجة أن نعرف ما نوعه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ يقول قد ذكرته في المشكل، وهو يقصد ضرب المثل. "الصفوان" الحجر الأملس. و"الوابل" المطر الشديد، إذا نزل على هذا التراب الذي على الحجر، ضربه الماء بقوة فذهب. ثم قال تعالى: ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس، ليس عليه أي أثر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تحقيقًا من أنفسهم. ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: ينفقون أموالهم طلبًا لما عند الله، ويريدون أن يثبتوا أنفسهم، لأن الصدقة تدل على صدق صاحبها، فإذا تصدق ثبّت نفسه.

قال ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ الربوة: المكان المرتفع، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 50] المعين: الماء، والقرار: مستقر. يُقال "رَبوة" و "رُبوة".

"أُكلها" في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرها. و "الطل" الماء من المطر الضعيف. ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ إعصار: هو الريح الشديدة الذي يثير التراب ويحرق.

٢٦٧- ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يقول: تصدقوا من طيبات ما تكسبون: الذهب والفضة.

﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: لا تقصدون للرديء والحشف من التمر، وما لا تأخذونه أنتم إلا بالإغماض فيه. أي: بأن تترخَّصوا.

٢٧٢- ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُوَفَّوْن أجره.

٢٧٣- ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ لم يُرِد الجهل الذي هو ضد العقل؛ وإنما أراد الجهل الذي هو ضد الخِبرَة. يقول: يحسبهم من لا يَخْبُر أمرهم.

﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: إلحاحًا. يقال: ألحف في المسألة؛ إذا ألح.

٢٧٥- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم يوم القيامة.

﴿إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: من الجنون؛ [يقال: رجل ممسوس].

٢٧٩- ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: اعْلَمُوا. ومن قرأ: "فآذِنُوا بحرب". أراد: آذِنوا غيركم من أصحابكم. يقال: آذَنَنِي فأَذِنْت.

٢٨٠- ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي انتظارٌ.

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بما لَكُم على المعسر ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾

الشرح

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، قال المؤلف: (يقول: تصدقوا من طيبات ما تكسبون: الذهب والفضة)، ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني تجارات، هذه دليل على زكاة النقدين، ويدخل في ذلك عروض التجارة؛ المحلات التجارية والأموال الذهب والفضة، ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ هذه تدل على زكاة الزروع والثمار التي تخرج من الأرض، فيها العشر وفيها نصف العشر، قال ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ أي لا تقصد الرديء، قال المؤلف: (أي: لا تقصدون للرديء والحشف من التمر) الحشف من التمر أي: اليابس الرديء، أو الخضار أو أي شيء من الأموال، يخرج ملابس مثلًا، يتصدق بأشياء رديئة، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لا تنفق الشيء الضعيف الرديء، قال ﷻ: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال المؤلف: (وما لا تأخذونه أنتم

إلا بالإغماض فيه) أي: تغمض عينيك وتأخذه وأنت لا تريده، بأن تترخص فيه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ قال المؤلف: (﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تُوَفَّوْن أجره) أي: تعطون أجره كاملًا، هذا معنى الوفاة، وسمي الموت "الوفاة" لأنه يأخذ مدته في الحياة الدنيا حتى ينتهي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ معنى الجاهل هنا ليس ضد العقل كقولنا: هذا جاهل وهذا عاقل، بل الجاهل أي: الذي لا يعلم حالهم؛ يجهل حالهم، لا يخبرهم، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحًا: يلحون، هذا الفقير تجده جالس في بيته أو جالس في الطرقات أو عند المحلات، لكن لا يسأل الناس؛ فهذا الذي تظن أنه غني لا تدري عنه، ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ يظن أنه غني لأنه لا يسأل الناس ولا يلح عليهم، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي يسأل أحيانًا بهدوء، بطريقة خفية، مثلًا يأتي ويسلم عليك ويقول: أنا جئت أزورك وأسلم عليك، وهو يقصد أنك تعطيه، فهؤلاء هم الذين وصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ﴾ لا يقومون يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: من الجنون، يقال رجل ممسوس أي مصاب بالمس وهو الجنون، فهؤلاء أصحاب الربا يعرفون يوم القيامة بتخبطهم، إذا خرجوا من قبورهم يتخبطون يمينًا وشمالًا، لا يمشون مستقيمين، هذا التخبط الذي يصيبهم هم أكلة الربا، يوم القيامة الناس يعرفون أكلة الربا يتخبطون كالمجانين، مثل ما أنهم يعرفون المتكبرين بأنهم يُحشرون كالذر، المتكبرون يحشرون يوم القيامة يرونهم الناس مثل الذر؛ كالنمل، لأنه متكبر في الدنيا أهانه الله في الآخرة، يطؤهم الناس بأقدامهم لا يدرون عنهم، كل واحد له علامة في يوم الحشر، وكل شخص عاش على شيء في الدنيا يموت عليه؛ وإذا مات عليه بعث عليه، وإذا بعث عليه أيضًا يجازى عليه، فأهل القرآن -أهل العلم- يعيشون في الحياة الدنيا مع القرآن والعلم، يعيشون حياتهم كلها، فيموتون على القرآن والعلم، ويبعثون ويحشرون مع أهل القرآن؛ ويجازون بما عملوا في الدنيا، فكل واحد على ما عمل؛ أهل الفسق والفجور وأهل الفواحش يعيشون في الدنيا على الفواحش ويموتون عليها، نسمع نحن حالات عن هذا يغني ومات وهو يغني، وهذا يعمل فاحشة ومات على فعل

الفاحشة، ويشرب الخمر ويموت على الخمر ويبعث ويحشر مع أهل الخمور... وهكذا، نسأل الله العفو والعافية.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: إن لم تتركوا الربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعلمهم الله بالعواقب، وقُرأت "فآذِنُوا بحرب" أي: آذنوا غيركم؛ أخبروا غيركم من أصحابكم، يقول "آذنني فأذنت" أي أعلمني أو كما يقال "تعلمني فعلمت".

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ أي: صاحب عسرة، شخص عليه دين منك؛ أعطيته دين، أقرضته مالًا، ثم أصبح معسرًا، مثلًا أسلفته مالًا على أن يعيدها بعد سنة، جات السنة وإذ به معسر، قال الله عز وجل إذا كان معسرًا ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أعطه فرصة، لا تطالبه بحقوقك وتسجنه وتؤذيه، بل وسّع عليه، ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: انتظار إلى اليسار حتى يوسع الله عليه، ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أن تتصدق عليه أفضل، أعطيته سلفة؛ تصدق، تنازل عن بعضها، قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بما لَكُم على المعسر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾) لتتصدق بهذا، لا بد أن تتحقق أنه معسر حقيقة، وأن المال ذهب عليه بغير اختياره، أما بعضهم يأخذ أسلاف من الناس ويقول أنا معسر، هذا لا يُقبل منه، أو يأخذ سلف من الناس ويستخدمها في أشياء محرمة أو أشياء لا حاجة لها، فنقول هذا لا يُتَنازل عنه؛ هذا يؤدب.

٢٨٢- ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ أي: وَلِيُّ الحق.

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ أي: تنسى إحداهما الشهادة، فتذكرها الأخرى. ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الناسين.

﴿وَلا تَسْأَمُوا﴾ أي: لا تملوا.

﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا﴾ من الدَّيْن كان ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾

﴿أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أعْدَلُ.

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ لأن الكِتَابَ يُذَكِّرُ الشهودَ جميعَ ما شهدوا عليه.

﴿وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا﴾ أي: أن لا تَشُكُّوا.

﴿إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تَتَبايَعُونها بينكم.

﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ﴾ فيكتبَ ما لم يُمْلَلْ عليه.

﴿وَلا شَهِيدٌ﴾ فيشهدَ ما لم يستشهد. ويقال: هو أن يمتنعا إذا دُعِيا.

ويقال: "لا يُضَار" بمعنى لا يُضارَر "كاتب" أي: يأتيه فيشغله عن سوقه وصنعته. هذا قول مُجَاهد والكلبي.

٢٨٣- ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ جمع "رَهْن". ومن قرأ (فَرُهُنٌ مَقْبُوضة) أراد جمع "رِهَان" فكأنه جمع الجمع.

٢٨٥- ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ ["أحد" في معنى جميع. كأنه قال: لا نفرق بين رسله]، فنؤمنَ بواحد، ونكفرَ بواحد.

٢٨٦- ﴿وُسْعَهَا﴾ طاقتها.

(الإصْر): الثِّقْل أي: لا تثقل علينا من الفرائض، ما ثقلته على بني إسرائيلَ.

﴿أَنْتَ مَوْلانَا﴾ أي وليُّنا.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في آية الدين: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ فليملل هو "صاحب الدين" يأتي ويملل يقول: أنا عندي دين لفلان مقداره كذا، بعضهم لا يستطيع أن يتكلم؛ إما امرأة أو صبي أو هو ما عنده قدرة -ضعيف- فيأتي وليه يتكلم عنه، ولي الحق.

في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ لماذا قال رجل وامرأتان؟ قال السبب ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: تنسى؛ الضلال هنا معناه النسيان، كما قال إخوة يوسف في أبيهم ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8] أي نسيان، لا يقصدون الضلال ضد الهدى، يعرفون أن أباهم نبي، لا يقولون إن أبانا في ضلال مبين بمعنى أنه ضال وأنه لا يهتدي، بل أنه نسي أو أخطأ، لأن الضلال يأتي بمعنى الخطأ ويأتي بمعنى النسيان ويأتي بمعنى ما يقابل الهدى، فتجد بعض الناس لا يفهم الآيات القرآنية، مثل النسيان؛ النسيان هو الذهول، والنسيان هو الترك، في حق الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67] نقول تركهم الله، لا نقول ذهول؛ لأن الله لا يغفل. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أي تنسى إحداهما الشهادة ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ فتذكرها الأخرى، ومنه قول موسى ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: 20]، أي: من الناسين، موسى لا يقول أنا ضال وأنه في ضلال، بل يقول: أنا قتلت القبطي لأني كنت ناسي أن القتل لا يجوز.

قال ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ﴾ قال لا تسأموا من السآمة وهي: الملل، ﴿أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ حتى لو كان صغير أو كبير من الدين، لو أنك سلّفت عشر ريالات اكتبها، اكتبها عندك لو في الجوال أو في ورقة، اكتبها عندك؛ هذا أضبط، حتى لا يلحقه هو، فلو مات يصبح عليه دين، فهذا هو هذا المقصود ﴿أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ حتى لو كان قليل، لو قلم! أخذت قلمًا منك اكتبه عندي، لو أفترض أنني مت والقلم أخذته منك وأنت لم تخبرني، فهذا يكتب، السبب في كتابته قاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أعدل وأقوم للشهادة؛ لأن الكتاب يذكر الشهود جميع ما شهدوا به "أقوم للشهادة"، لو جاء يشهد وأنت سجلتها تكون أقوى، ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ ألا تشكّوا، هذه مقيدة عندك؛ مسجلة ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يعني تجارة المبايعات الحاضرة، يقول تتبايعونها بينكم لا مانع ألا تكتبها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ﴾ فيكتبَ ما لم يُمْلَلْ عليه) أي: لا يكتب شيئًا ما كُتب، بعضهم يحرّف في الكتابة، يكتب شيء ما كتب، أو مثلًا يقول اكتب أن على لفلان عليّ عشرة آلاف، فيأتي ويكتب خمسة آلاف، لا يجوز، فهذا من المضارة، قال ولا شهيد يشهد بما لم يُستَشهد، ويقال "لا يضارّ" أي يمتنع، قال

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: يأتيه فيشغله عن سوقه وصنعته) مثلًا أنا شهدت معك هذه القضية، فالآن هو ذهب إلى المحكمة قال أين الشاهد؟ لا تأتيني في أوقات غير مناسبة، الظهر أو في الليل وأي وقت، كلا، لا بد أن تقدّر [الظروف]، أنا شهدت معك لكي تقدرني لا لكي تؤذيني، هذا مقصود.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ الرهان جمع رهن، ومن قرأ ﴿فَرُهُنٌ﴾ هذا جمع الجمع، أي: رُهن جمع رهان، والرهان جمع رَهن، والمقصود بالرهان هي: الوثيقة، مثلًا جئتَ إليّ وقلت: أريد منك ألف ريال، أقول: أُعطيك ألف ريال لكن لا أملك القدرة على كتابته فأنا في سفر كقلم أو ما شابه فأعطني شيئًا، تقول: أعطيك الساعة هذه الساعة رهينة عندك حتى أرجع لك الألف، أو مثلًا يقول أعطيك الإبل، إذا كان معه إبل أو أغنام يعطيه حتى يرد عليه السلف.

يقول تعالى في آخر البقرة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (["أحد" في معنى جميع. كأنه قال: لا نفرق بين رسله]، فنؤمنَ بواحد، ونكفرَ بواحد) يقول أحد من رسله بمعنى أشخاص، ليس واحدًا، كأنه قال لا نفرق بين رسله، نؤمن بهم جميعًا.

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، بمعنى قدر الطاقة، ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ الإصر بمعنى: الثقل؛ أي لا تثقل علينا من الفرائض ما حملته على الذين من قبلنا كبني إسرائيل، بني إسرائيل من الأشياء التي حمّلهم الله من الثقائل أن الثوب إذا أصيب بنجاسة يقرض بالمقراض لا يُغسل، يُقص؛ فيفسد الثوب، الله عز وجل في أمة محمد وسع عليها، إذا أصيب بنجاسة يغسل، فهذه من الأشياء التي رفعها الله عن هذه الأمة، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿أَنْتَ مَوْلانَا﴾ أي وليُّنا) أنت ولينا.

سورة آل عمران

٧- ﴿فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي جَوْر. يقال: قد زُغْتُ عن الحق. ومنه قوله: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ أي عدَلت ومالت.

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي الكفر. والفتنة تتصرف على وجوه قد ذكرتها في كتاب "تأويل المشكل".

﴿أُولُو الأَلْبَابِ﴾ ذوو العقول. وواحد "أولو" ذو. وواحد أولات: ذات.

١١- ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كعادتهم يريد كفر اليهود ككفر مَن قبلهم. يقال: هذا دأْبُه ودِينُه ودَيْدَنُه.

١٤- ﴿الْقَنَاطِيرِ﴾ واحدها قنطار. وقد اختُلِفَ في تَفْسيرها. فقال بعضهم: القنطار ثمانية آلاف مثقال ذهب بلسان أهل إفريقية وقال بعضهم: ألف مثقال. وقال بعضهم: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ ذَهبًا. وقال بعضهم: مائة رطل.

﴿الْمُقَنْطَرَةِ﴾ المكملة. وهو كما تقول: هذه بَدْرَة مُبَدّرَة وألف مُؤَلَّفَة.

وقال الفرّاء: المقنطرة: المُضَعَّفة؛ كأن القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة.

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ الرَّاعِية يقال: سَامَتِ الخيلُ فهي سَائِمَةٌ إذا رعَت. وأَسَمْتُها فهي مُسَامَةٌ وسَوَّمْتُها فَهِي مُسَوَّمَةٌ: إذا رَعَيْتَها.

والمُسَوَّمَةُ في غير هذا: المُعَلَّمَة في الحرب بالسُّومَة وبالسِّيماء. أي بالعلامة.

وقال مجاهد: الخيل المسومة: المُطَهَّمَة الحسان. وأحسبه أراد أنها ذات سِيمَاء. كما يقال: رجل له سِيمَاءٌ وله شارةٌ حسنة.

﴿وَالأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم. واحدها نَعَمٌ. وهو جمع لا واحد له من لفظه.

﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزّرع.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي: المرجع. من "آبَ يؤُوب": إذا رجع.

١٧- ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المصلّين. و"القنوت" يتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب "مشكل".

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ يعني: المتصدقين.

١٨- ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل.

٢٤- ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: يختلقون من الكذب.

٢٧- ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: تدخل هذا في هذا فما زاد في واحدٍ نقص من الآخر مثله.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يعني: الحيوان من النطفة والبيضة.

﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يعني: النطفة والبيضة - وهما ميتتان - من الحي.

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تَقْدِيرٍ وتضييق.

الشرح

سورة آل عمران هي السورة الثالثة في القرآن بعد الفاتحة وبعد البقرة، وهي من السور الطوال، جمع بينهما النبي ﷺ وقرن بين البقرة وآل عمران فقال: « اقْرَؤُوا الزَّهْراوَينِ: البَقَرةَ وآلَ عِمرانَ؛ فإنَّهما يأتيانِ يَومَ القيامةِ كأنَّهما غَمامَتانِ أو غَيايَتانِ أو فِرقانِ من طَيرٍ صَوافَّ تُحاجَّانِ عن صاحِبِهما» ففيها فضائل، وسورة آل عمران أكثر آياتها تتحدث عن غزوة أحد، وهي على قسمين: القسم الأول حديث عن النصارى، وادعائهم أن عيسى هو ابن الله، أو أنه هو الله، وبيان شبهاتهم وإبطالها، نحو يمكن تقريبًا نصف السورة، ثم النصف الثاني الحديث عن غزوة أحد.

السورة مبنية على الثبات، ووسائل الثبات وما الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم من الثبات على الحق، ولذلك من دعائهم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]، لأن فيها شبهات كثيرة، لأن الله عز وجل قال ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7] ففيها متشابهات، من هذه المتشابهات دعوى النصارى، كثير ما يدّعون ويقولون: أين أبو عيسى؟ كيف يأتي شخص بدون أب؟ فهذا لا يمكن أن يدخل العقل، كيف يأتي شخص من دون أب؟ كيف تحمل مريم من غير أن يمسها رجل؟ فيقولون هذا يدل على أنه ابن الله، أو أنه الله، كيف رد القرآن عليهم؟ قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، أنت تتعجب من

عيسى لماذا لا تتعجب من آدم؟ آدم لا أم ولا أب، فإذا كنت تتهم عيسى بأنه ابن زنا [كما يدعي اليهود]؛ فاتّهم آدم، فرد القرآن عليهم بردود كثيرة.

يقول الله عز وجل هنا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ الزيغ هو: الميل، زاغت الأبصار أي: مالت وعدلت. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الحق؛ لا يريدون الحق، قال ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي هم يؤولون النصوص على ما يريدون، ويريدون إثارة الفتن بين المسلمين، والفتنة هنا هي الكفر، ابتغاء الكفر والخروج عن الإسلام، والفتنة في القرآن لها معاني كثيرة منها فتنة الشرك وآيات كثيرة في الفتنة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أصحاب العقول، أولو مفردها: ذو، ومفرد أولات [للمؤنث]: ذات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ معنى كلمة دأب أي: طريقة وعادة آل فرعون، طريقتهم وعادتهم في الكفر بالله، قال ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ القناطير واحدها قنطار، كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: 20] أي المال الكثير، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد اختُلِفَ في تَفْسيرها. فقال بعضهم: القنطار ثمانية آلاف مثقال ذهب بلسان أهل إفريقية وقال بعضهم: ألف مثقال. وقال بعضهم: مِلْءُ مَسْكِ ثَوْرٍ ذَهبًا) المسك المراد به الجلد، تملأ جلد الثور ذهب هذا قنطار، (وقال بعضهم: مائة رطل)، نقول الصحيح لا نحدده بشيء معين ونقول المال الكثير، القنطار هو المال الكثير من غير تحديد، وتختلف الكثرة من بلد إلى بلد، وقناطير جمع قنطار، ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ أي أموال فوق أموال كثيرة، مقنطرة أي: المكملة، بمعنى أموال مضاعفة أضعافًا مضاعفة، وإذا كان الشيء كثير تقول هذا كثير مكاثر، وأثواب فوق أثواب، ورجال فوق رجال، وليل إذا كان شديد السواد تقول ليل أليل أي شديد السواد، وإذا كان الظل طويل ممتد تقول ظل ظليل.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ معنى المسومة ذكر فيها عدة أقوال؛ قيل هي السائمة التي ترعى في البر، لأن الخيل إذا كانت ترعى كثير من العشب تكون أقوى، أي معناها الخيل التي رعت، وقيل المسومة أي المعلمة في الحرب، بمعنى عليها علامات، وقيل المسومة المطهمة الحسان التي ألوانها جميلة

وحسنة وشكلها جميل؛ وهذا -والله أعلم- هو أقرب شيء، لا نقول إنها مثلًا التي ترعى في البر أو أنها فيها علامات الجهاد، أقول أقرب ما يكون -والله أعلم- أنها الحسنة جميلة المنظر، لأن السياق هنا على أي شيء؟ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ فالخيل إذا كانت جميلة الشكل هي المقبولة. ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم، ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزروع، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذه زينة الدنيا التي يتمناها الإنسان؛ النساء والبنين، والذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث والزروع كلها، هذا يقابل ما عند الله؛ خير، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ حسن المرجع، ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ أي تتمتع فيه قليل وتذهب، لكن الله عنده حسن المآب، المرجع الحسن عند الله، فلا تغتر بالدنيا وتنسى الآخرة.

ثم وصف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المتقين قال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ القانتين: القائمين المصلين، دائمًا الذي يقوم كثيرًا ويطيل القيام يسمى قانت، الذي إذا أراد أن يصلي أطال القيام، سئل ﷺ أي الصلاة أفضل؟ قال: «أفضل الصّلاة طول القنوت» والخشوع وعدم الكلام، هذا هو القنوت، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب "مشكل"). ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ الذين يتصدقون بأموالهم.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، قال تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي يختلقون ويكذبون على الله، قوله تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يجعل الليل أطول من النهار أو العكس، يأخذ شيء من هذا وينقص من هذا، وإذا زاد هذا نقص هذا والعكس، وهذا من آيات الله، ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ هذه من آيات الله، عظمة الله وقدرته، كيف يخرج الحي من الميت؟ ما هو الحي وما هو الميت؟ مثل الإنسان المخلوق أخرجه الله من نطفة؛ النطفة ميتة، وخلق الله من هذا الميت حي، ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يخرج النطفة من الحي؛ من الإنسان، وكذلك البيضة والدجاجة أو البيضة والطائر، طائر يبيض، فهذا البيض ميت خرج من حي، والبيضة هذه ميتة يخرج الله منها حي، وهو الفرخ، وهذا من باب التمثيل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير.

٣٥- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي: قالت و"إذ" تزاد في الكلام على ما بينت في "تأويل المشكل".

﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عَتِيقًا لله عز وجل. تقول: أعتقت الغلام وحَرَّرْته؛ سواء. وأرَادت: إني نذرت أن أجعل ما في بطني مُحَرَّرًا من التَّعْبيد للدنيا لِيَعْبُدَك ويلزمَ بيتك.

٣٦- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾؛ وكان النذر في مثل هذا يقع للذكور. ثم قالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ فقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ -في قراءة من قرأ بجزم التاء وفتح العين- مُقَدَّمٌ ومعناه التأخير. كأنه: إني وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى؛ والله أعلم بما وضعَت.

ومن قرأه (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ) - بضم التاء فهو كلام متصل من قول أم مريم عليها السلام.

٣٧- ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ضَمَّها إليه.

و ﴿الْمِحْرَابَ﴾ الغرفَة. وكذلك روي في التفسير: أن زكريا كان يصعد إليها بِسُلَّم.

والمحراب أيضا: المسجد. قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾؛ أي: مساجد.

وقال أبو عبيدة: المحراب سيد المجالس ومقدمها وأشرفها؛ وكذلك هو من المسجد.

﴿أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ أي: من أين لك هذا؟

٣٩- ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قال ابن عيينة: "السيد: الحليم". وقال هو وغيره: "الحصور: الذي لا يأتي النساء". وهو "فَعُول" بمعنى "مَفْعول"، كأنه محصور عنهن أي مأخوذ محبوس عنهن. وأصل الحصر: الحبس. ومثله مما جاء فيه "فعول" بمعنى "مفعول": ركوب بمعنى مركوب، وحَلُوب بمعنى مَحْلُوب، وهَيُوب بمعنى مَهِيب.

الشرح

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: قالت و"إذ" تزاد في الكلام على ما بينت في "تأويل المشكل")، ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ أصلها قالت، فيقول المؤلف إن "إذ" زائدة، والصحيح أن "إذ" ليست زائدة، ولا يقال في القرآن زائد، وإنما "إذ" هذه ظرفية للزمان الماضي ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ أي: واذكر إذ قالت، ولذلك كثير من المفسرين يقولون "إذ" هذه ظرفية زمانية متعلقة بفعل محذوف تقديره واذكر؛ بمعنى: واذكر لقومك ما قالته امرأة عمران.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ "محررًا" أي حرًا عتيقًا لله، أولًا ذكر كثير من المفسرين أن امرأة عمران لا تلد، وفي يوم من الأيام رأت طائرًا يطعم صغيره، فاشتاقت إلى الولد فدعت ربها وسألت الله أن يرزقها، بالدعوة الصادقة الصحيحة وهي امرأة صالحة أثنى عليها القرآن وأثنى على زوجها عمران، بل سمّى سورة كاملة باسمه، أثنى عليها في سورة مريم لما قيل لمريم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28] يعني أمك كانت امرأة صالحة وأبوك صالح كيف تفعلين ذلك؟ هنا قالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ لما حملت وشعرت بالحمل ظنّت أنه ذكر، فقالت: إن هذا الابن أنا لا أريده؛ ما دام أن الله استجاب دعوتي وحملت به؛ أريد أن أجعله حرًا لبيت المقدس، يخدم البيت لا يخدمني ولا يخدم غيري، فهذا معنى "محررًا"، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: عَتِيقًا لله عز وجل. تقول: أعتقت الغلام وحَرَّرْته؛ سواء. وأرَادت: إني نذرت أن أجعل ما في بطني مُحَرَّرًا من التَّعْبيد للدنيا لِيَعْبُدَك ويلزمَ بيتك) بيتك أي: بيت المقدس، فجعلته لله.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وكان النذر في مثل هذا يقع للذكور، ثم قالت كيف نذرت إن كان ذكرًا أن يكون، فالآن أنثى ماذا أصنع بها؟ وقالت: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي: الذكر له مجال، والأنثى لها مجال، والذكر له خصائص، والمرأة لها خصائص، الأنثى يناسبها ما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجد فيها من خصائص، والذكر يناسبه ما أوجد فيه، وكل له وظيفته في الحياة، فلا تخلط هذا مع هذا أو تجعل هذا مكان هذا، هذا معنى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في قراءة من قرأ بجزم التاء وفتح العين) أي "وَضَعَتْ" (- مُقَدَّمٌ ومعناه التأخير. كأنه: إني وضعتها أنثىٰ وليس الذكر كالأنثى؛ والله أعلم بما وضعَت) فيه تقديم وتأخير، من قرأ قراءة أخرى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾ أي: وضعتُ أنا، هذه قراءة ثانية، الآية الأولى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وضعَتْ هي، وهنا الآن تقول الله أعلم بما وَضَعْتُ أنا، بضم التاء وإسكان العين فهو كلام متصل من قول أم مريم، لكن في الأول جملة معترضة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، أما هذه فهي من تتحدث.

قال ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفي قراءة أخرى ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي كفلها هو، وكفَّلها أي: كفَّلها الله عز وجل زكريا، أي ضمها إليه، قال ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى المحراب: (الغرفَةَ. وكذلك روي في التفسير: أن زكريا كان يصعد إليها بِسُلَّم) هي لما وضعتها أنثى تحيرت قالت ماذا أصنع كيف أضع أنثى هنا في المسجد؟ لكن لا بد أن تفي بنذرها، فجاءت بها وهي صغيرة عند هؤلاء الربانيين والذين يُعتبرون هم من كبار الذين في المسجد وقالت: دونكم هذه البنت قد نذرتها للمسجد، فتخاصموا فيها من يكفلها، لما تخاصموا قالوا نضع قرعة إذا ظهرت عليه القرعة يأخذها، فوضعوا القرعة ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 44] قيل إنهم ألقوها في نهر، الذي ظهر قلمه في الأعلى يعتبر هو الذي كفلها، فأظهر الله قلم زكريا فكفلها زكريا وقام برعايتها، فهنا قال: يصعد إليها، وزكريا قريب لها؛ لأنه زوج خالتها، وزكريا ابنه يحيى، ومريم ابنها عيسى، فعيسى ويحيى ابنا خالة، والمحراب قد يطلق على المسجد أيضًا، يطلق على الغرفة ويطلق على المسجد، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ﴾ [سبأ: 13]، وقال أبو عبيدة -معمر بن المثنى، صاحب كتاب مجاز القرآن-: (المحراب أشرف المجالس ومقدمها، وكذلك هو من المسجد) المحراب في المسجد هو المكان المرتفع أو يكون في صدر المسجد، الآن عندنا المكان المرتفع يسمى منبر، والمحراب الذي يصلي فيه الإمام الذي يكون داخل، فغالبًا يكون بعضها مرتفع.

بعدها قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن زكريا كلما دخل عليها قال ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أنّى استفهامية بمعنى: أين لك هذا، لما رأى زكريا هذه العلامات والنجابة فيها والذكاء دعا ربه، لأنه علم أن امرأة عمران لا يولد لها ودعَتْ فاستُجيب لها، فدعا هو وكان أيضًا شيخًا كبيرًا قد طعن في السن وامرأته عاقر ومع ذلك لم ييأس من الدعاء، دعا ربه فاستجاب الله له، فرزقه يحيى، ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ قال من صفاته ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال ابن عيينة: "السيد: الحليم". وقال هو وغيره: "الحصور: الذي لا يأتي النساء". وهو "فَعُول" بمعنى "مَفْعول"، كأنه محصور عنهن أي مأخوذ محبوس عنهن. وأصل الحصر: الحبس. ومثله مما جاء فيه "فعول" بمعنى "مفعول": ركوب بمعنى مركوب، وحَلُوب بمعنى مَحْلُوب، وهَيُوب بمعنى مَهِيب) كيف زكريا حصورًا؟ قال كثير من المفسرين -وهذا الذي عليه الأكثر- أن معنى حصورًا: أنه لا يأتي النساء، يعني لا يتزوج النساء ولا يأتيهن، وبعض المفسرين وهم المتأخرون منهم والذين

حرروا هذه المسألة قالوا إن معنى حصورًا أي محصورًا عن الأخلاق الرديئة والأعمال السيئة، بمعنى: حُصِر ومُنِع -الحصر من المنع- فحُصِر ومُنِع من الأخلاق السيئة، أي أن الله يثني عليه، ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ يمدحه الله عز وجل يقول سيدًا: الذي له السيادة والرفعة والمكانة، وحصورًا: الذي قد حُصِر من أن يقع فيما لا يليق من الأخلاق السيئة والأعمال الباطلة، هذا رأي، والرأي الأول قال إنه لا يأتي النساء، لكن هنا سؤال: هل إن كان الرجل لا يأتي النساء، لا شك أنه عيب؛ لأن الله مدح الأنبياء والمرسلين بأن لهم أزواجًا وأنهم تأتيهم الذرية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38] أثنى عليهم، فإذا جاءنا شخص لا يأتي النساء فهذا ضعف، هذا ليس مدحًا، كيف يمدح به الله هنا؟ فالذي يظهر -والله أعلم- أن حصورًا هنا ليس معناه لا يأتي النساء، معنى حصورًا أي: ممتنعًا مما لا يليق من الأخلاق السيئة والأعمال الباطلة، وهذا ما رجحه السعدي في تفسيره، قال إن الحصور هنا ليس معناه أنه لا يأتي النساء، هذا كلام مجرد لا دليل فيه، صعب أنك تحكم عليه بهذا الحكم فحملوا الحصور هنا على المعنى اللائق أولى من حمله على المعنى الذي لا يليق بالرجال عمومًا فكيف بالأنبياء؟ والله أعلم.

٤١- ﴿اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا﴾ أي: وحيا وإيماءً باللسان [أو باليد] أو بالحاجب. يقال: رمز فلان لفلانة؛ إذا أشار بواحدة من هذه. ومنه قيل للفاجرة: رَامِزَة ورَمَّازة؛ لأنها تَرْمُزُ وتُومِئُ ولا تعلن.

قال قتادة: إنما كان عقوبةً عوقب بها؛ [إذ] سأل الآية بعد مشافهة الملائكة إياه بما بُشِّر به.

٤٤- ﴿يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ﴾ أي: قداحهمُ، يَقْتَرِعون على مريم. أيُّهُم يَكْفُلُها ويحضنها. والأقلام واحدها قلم. وهي: الأزلام أيضا؛ واحدها زَلَم وزُلَم.

٤٥- ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أي: ذا جاه فيهما.

٤٩- و ﴿الأَكْمَهَ﴾ الذي يولد أعمى. والجمع كُمْه.

٥٢- ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من أعواني مع الله؟

٥٥- ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك من الأرض من غير موت.

٦١- ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي: إخواننا وإخوانكم.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتدَاعى باللعن. يقال عليه بَهْلَة الله وبُهْلته أي لعنته.

٦٤- ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: نَصَف. يقال: دعاك إلى السَّوَاء أي إلى النَّصَفة. وسواءُ كلِّ شيءٍ: وَسَطُه. ومنه يقال للنصفة: سواء؛ لأنها عدلٌ. وأعدلُ الأمور أوساطها.

٧٢- ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي: صدر النهار. قال قتادة: قال بعضهم لبعض: أعطُوهم الرِّضا بدينهم أوَّل النهار واكفروا بالعَشِيّ؛ فإنه أجْدَرُ أن تصدقكم الناسُ ويظنوا أنكم قد رأيتم منهم ما تكرهون فرجعتم؛ وأجْدَرُ أن يَرْجعوا عن دينهم.

٧٥- ﴿إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي: مواظبا بالاقتضاء. وقد بينت هذا في باب المجاز.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾؛ كان أهل الكتاب إذا بايعهم المسلمون قال بعضهم لبعض: ليس للأميين - يعنون العرب - حرمةُ أهل ديننا، وأموالُهم تحِلُّ لنا: إذ كانوا مخالفين لنا. واستجازوا الذَّهابَ بحقوقهم.

٧٨- ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ أي: يُقلِّبونَ ألسنتهم بالتحريف والزيادة.

(الرَّبَّانِيُّونَ) واحدهم رَبَّانِيّ. وهم: العلماء المعلِّمون.

٨١- ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عَهْدي. وأصل الإصْر الثِّقْل. فسمّي العهدُ إصرًا: لأنه يمنع من الأمر الذي أُخِذَ له وثُقِّل وشُدِّد.

الشرح

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً﴾ هذا زكريا، لما نادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى فقال: اجعل لي آية على الحمل، كيف أعرف به حتى أزداد طمأنينة وأُسَرُّ بذلك؟ والآية: العلامة، ﴿رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً﴾ أي: علامة، فأجابه: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ وفي سورة مريم قال: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سويًا بمعنى وهو سليم، سليم ليس فيه عاهة طوال ثلاثة أيام، ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ يقول له لن يستطيع أن يتحدث مع الناس إلا بالإشارة ﴿رمزًا﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: وحيا وإيماءً باللسان [أو باليد] أو بالحاجب. يقال: رمز فلان لفلانة؛ إذا أشار بواحدة من هذه) أي من هذه الإشارات (ومنه قيل للفاجرة: رَامِزَة ورَمَّازة؛ لأنها تَرْمِزُ وتُومِئُ ولا تعلن) قال قتادة: (إنما كان عقوبةً عوقب بها؛ [إذ] سأل الآية بعد مشافهة الملائكة إياه بما بُشِّر به) هذا رأي قتادة يقول إنها عقوبة، والصحيح أنها ليست عقوبة، هو أراد أن تطمئن نفسه وينشرح صدره ويُسَر بذلك، فسأل الله الآية تأكيدًا على هذا الأمر؛ فالله أجابه على هذه الآية فقال: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: يمسك لسانك عن الكلام ثلاثة أيام إلا بالذكر لله، لأنه قال بعدها: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ فأمسك الله لسانه عن الحديث مع الناس ثلاثة أيام إلا ذكر الله لم يُمسك عنه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ قال المراد بالأقلام: أقداح يقترعون على مريم، الأقداح هي الأسهم؛ فالمراد بالأقلام هنا الأسهم، هذا رأي، والرأي الثاني أنها أقلام حقيقية يقترعون بها على مريم أيّهم يكفلها ويحضنها، والأقلام واحدها قلم وهي الأزلام أيضًا واحدها زَلَم وزُلَم، لأنهم ألقوا أقلامهم في النهر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف عيسى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: ذو جاه ومكانة ومنزلة في الدنيا والآخرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الأكمه هو الذي يولد أعمى، ويجمع على كُمْه، قال عيسى للحواريين: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؟ أي: من أعواني مع الله؟ "إلى" قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناها "مع".

قال الله عز وجل في عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ معنى متوفيك ليس بمعنى الموت، وإنما هو النوم كما رجح ابن كثير وغيره، قال قابضك من الأرض من غير موت -يعني ليس موتًا- وإنما ينيمه ثم يقبضه ويرفعه ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ معنى ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي إخواننا وإخوانكم، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الابتهال: (﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتداعى باللعن. يقال عليه بَهْلَة الله وبُهْلته أي لعنته) أي لعنة الله، الابتهال هو شدة الدعاء؛ أن يشتد بالدعاء، وهذه تسمى آية المباهلة، يقول فيها عيسى عليه السلام: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: يدعو بعضنا على بعض، قال الله عز وجل لهؤلاء النصارى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ قل يا محمد لهم كلمة سواء أي: كلمة التوحيد، إلى السواء أي: إلى النصفة، وسواء كل شيء وسطه، ومنه يقال للنصفة سواء لأنه عدل وأعدِل، بمعنى تعالوا إلى كلمة نستوي نحن وإياكم فيها، وهي لا إله إلا الله.

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي صدر النهار وأوله، قال قتادة: (قال بعضهم لبعض: أعطُوهم الرِّضا بدينهم أوَّل النهار واكفروا بالعَشِيّ؛ فإنه أجْدَرُ أن تصدقكم الناسُ ويظنوا أنكم قد رأيتم منهم ما تكرهون فرجعتم؛ وأجْدَرُ أن يَرْجعوا عن دينهم) أي إذا آمنتم بمحمد وأصحابه أول النهار ثم كفرتم بهم، غيركم يقول لماذا كفروا؟ أكيد أن هذا الدين غير مناسب، فدخولهم وهم أهل العلم ثم خروجهم هذا يدل على أن هذا الدين غير مناسب ودين لا يصلح، ولذلك هم أرادوا [الردة لغيرهم] كما قالوا: "لعلهم يرجعون" بمعنى لعل غيرهم يرجع.

قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿إلا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي: مواظبا بالاقتضاء) تطالبه أن يقضيك (وقد بينت هذا في باب المجاز). ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ المراد بالأميين العرب، يقول اليهود والنصارى -أهل الكتاب-: إذا أخذنا أموال العرب ليس علينا إثم، كان أهل الكتاب إذا بايعوهم المسلمون قال بعضهم لبعض ليس للأميين -يعنون العرب- حرمة كحرمة أهل ديننا وأموالهم تحل لنا إذ كانوا مخالفين لنا، فاستجازوا الذهاب بحقوقهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ أي: يقلبون ألسنتهم بالتحريف والزيادة.

قوله تعالى: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ الربانيون قال جمعُه رباني وهم: العلماء المعلمون العالمون العاملون، هؤلاء هم الربانيون، في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي، وأصل الإصر: الثقل، وسمي العهد إصرًا لأنه يمنع من الأمر الذي أُخِذ له أو ثُقِّل عليه أو ثُقِّل وشدد.

٩٣- ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا﴾ أي: حلالا ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ومثله: الحِرْم والحَرَامُ واللِّبْس واللِّباس.

﴿إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾؛ قالوا: لحوم الإبل.

٩٦- ﴿بَكَّةَ﴾ ومكّة شيء واحد. والباء تبدل من الميم. يقال: سمَّد رأسَه وسبَّده؛ إذا استأصله. وشَرٌّ لازِم ولازِب. ويقال: بكّة: موضع المسجد؛ ومكة: البلد حوله.

٩٧- قال مجاهد في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ -: هو مَن إن حج لم يره بِرًّا وإن قعد لم ير قعوده مَأْثَمًا.

١٠١- ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ أي: يمتنع بالله. وأصل العِصْمَة: المَنْعُ. ومنه يقال: عَصَمَهُ الطعامُ؛ أي منعهُ من الجوع.

١٠٣- ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي: بدينه [وعهده].

﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ أي: حرف حفرة ومنه "أَشْفَى على كذا" إذا أشرف عليه.

١٠٤- ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي: مُعَلِّمون للخير. والأمَّة تتصرف على وجوه قد بينتها في "تأويل المشكل".

١١١- ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلا أَذًى﴾ أي: لم تبلغ عدواتهم لكم أن يَضروكم في أنفسكم؛ إنما هو أذى بالقول.

١١٢- ﴿إِلا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي بلسان وعهد. [والحبل] يتصرف على وجوه قد ذكرتها في "تأويل المشكل".

١١٣- ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: مواظبة على أمر الله.

١١٧- ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بَرْدٌ. ونُهِيَ عن الجراد: عما قتله الصِّر أي البرد.

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: زَرْعهم.

١١٨- ﴿لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي: دُخَلاء من دون المسلمين يريد من غيرهم.

﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا﴾ أي: شرا.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي ودوا عَنَتكم وهو ما نزل بكم من مكروه وضُر.

١١٩- ﴿هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: ها أنتم يا هؤلاء تحبونهم.

١٢٠- ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: نعمة.

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: مصيبة ومكروه.

﴿لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ أي: مكرهم.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ حِلًا يعني: حلالًا، ومثله الحِرْم والحرام، ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: 95] بقراءة ﴿وَحِرْمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ الحِرْم والحرام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومثله: الحِرْم والحَرَامُ واللِّبْس واللِّباس) اللِّبس واللِّباس معناهما واحد، لكن اللَبُوس معناه مختلف ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: 80]، اللَبُوس هو: لَبُوس الحرب؛ الدروع، واللِّباس واللِّبس هذا الذي يُلبس، واللَّبْس غير اللِّبس، تقول فيه لَبْس، المسألة عندي فيها لَبْس أي: غير واضحة، فيها غموض؛ هذا اللَّبْس ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9] أي: جعلناهم في زيادة شك.

قال ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، أبو يوسف وإخوته؛ حرم على نفسه لأنه أصيب بمرض، فنذر قائلًا إذا شفاني الله لأحرمنَّ على نفسي أكل الإبل وشرب ألبانها، فشفاه الله فحرم على نفسه فوفى بنذره، إذًا ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: لحوم الإبل، هذا فيه رد على اليهود الذين ينكرون النسخ ويزعمون أن ليس هناك نسخ، فأثبت الله لهم أن إسرائيل هو الذي حرم على نفسه، وأن التوراة فيها أحكام محرمة غير ما حرم إسرائيل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ بكة اسم من أسماء مكة، وكذلك البلد الأمين وغيرها، لكن يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (﴿بَكَّةَ﴾ ومكّة شيء واحد. والباء تبدل من الميم) هذا على قول؛ على لغة، (يقال: سمَّد رأسَه وسبَّده؛ إذا استأصله) وقيل بكة موضع المسجد فقط ومكة البلد حوله، بمعنى الحرم كله مكة، أما بكة فهي المسجد الحرام فقط، هذا قول.

(قال مجاهد في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ -: هو مَن إن حج لم يره بِرًّا وإن قعد لم ير قعوده مَأْثَمًا) أي من أدى الحج فقد أدى ما أمره الله، ومن كفر -قعد ولم يحج- فإن الله غني عنه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعتصم أصل الاعتصام: الامتناع، تقول اعتصمتُ أي: امتنعت، مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32] أي امتنع يوسف عليه السلام، وأصل العصمة المنع (ومنه يقال: عَصَمَهُ الطعامُ؛ أي منعهُ من الجوع)، هذا تحليل لغوي دقيق؛ لأنه يبين لك الكلمة، كيف من يعتصم بالله؟ بمعنى يمتنع بالله ويلجأ إلى الله، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي بدينه، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي على طرف وعلى حرف حفرة.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ كلمة "من" في "منكم" اختلف العلماء فيها، هل هي تبعيضية أي طائفة منكم؟ أم بيانية فيكون الجميع؟ هناك قولين والصحيح أنها بيانية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ أي: لتكونوا أمة تدعون إلى الخير، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة كلها، قال ﷺ: «مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيرْه بيدِه فإن لم يستطعْ فبلسانِه، فإن لم يستطعْ فبقلبِه، وذلك أضعفُ الإيمانِ» "مَنْ" اسم موصول وهو شرط، من رأى منكم منكرًا فليغيره؛ بيده بلسانه بقلبه... المهم يغيره، هذا الصحيح، قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: مُعَلِّمون للخير) أي معلمون يدعون للخير (والأمَّة تتصرف على وجوه قد بينتها في "تأويل المشكل") لأن الأمة من الألفاظ المشتركة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ أي لم تبلغ عداوتهم لكم أن يضروكم في أنفسكم إلا بمجرد القول، مجرد كلام، أما أن يتسلطون عليكم بالسيف فلا يستطيعون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ بعهد من الله أي: بأمان وعهد، بحبل من الله، أي: بينكم وبينهم عهد، أو من الناس؛ قد يكون من الناس من قوة ظاهرة ونحو ذلك يستطيعون، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ([والحبل] يتصرف على وجوه قد ذكرتها في "تأويل المشكل") لأن الحبل من الألفاظ المشتركة، هل هو الحبل الحقيقي أم الحبل المعنوي؟ الإسلام حبل الله، حبل الله المتين، القرآن له معاني.

في قوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ هذه في الثناء من الله على طائفة من بني إسرائيل آمنوا؛ قائمة مواظبة على أمر الله.

وفي قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ الصِّر: البرد، وحرث القوم أي: زرعهم. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي دخلاء من دون المسلمين، يريد: من غيرهم، بمعنى: لا تتخذونهم يدخلون عليكم وتولونهم أموركم وتظهرون لهم أسراركم، وهم المنافقون ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون في إفسادكم، ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ يتمنون عنتكم أي مشقتكم ووقوعكم في الضرر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ أولاء أي: يا هؤلاء، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: نعمة حسنة، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي مصيبة ومكروه، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ أي لا يضركم مكرهم.

١٢١ - ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ من قولك: بَوَّأْتُك منزلا؛ إذا أفَدتك إياه وأسكنتكَه. ومقاعد القتال: المُعَسْكر والمَصَافُّ.

١٢٢ - ﴿أَنْ تَفْشَلا﴾ أي: تجبُنا.

١٢٥ - ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ معلمين بعلامة الحرب. وهو من السِّيماء مأخوذ. يقال: كانت سيماء الملائكة يوم "بدر" عمائم صُفرًا. وكان حمزة مُسَوِّمًا يوم "أحد" بريشة. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر: "تَسوَّمُوا فإن الملائكة قد تسوّمت".

ومن قرأ "مسوَّمين" بالفتح أراد أنه فُعِل ذلك بهم. والسُّومَةُ: العلامة التي تعلم الفارس نفسه.

وقال أبو زيد: يقال سوم الرجل خيله: إذا أرسلها في الغارة. وسوَّمُوا خيلهم: إذا شنوا الغارة. وقد يمكن أن يكون النَّصْبُ من هذا أيضا.

١٢٧ - ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأسْر وقتل.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ قال أبو عبيدة: الكَبْت: الإهلاك. وقال غيره: هو أن يغيظهم ويحزنهم. وكذلك قال في قوله في سورة المجادلة: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ويقال: كبت الله عدوّك.

وهو بما قال أبو عبيدة أشبه. واعتبارُها قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾ لأن أهل النظر يرون أن "التاء" فيه منقلبة عن "دال". كأن الأصل فيه: يَكْبِدُهُم أي يصيبهم في أكبادهم بالحزن والغيظ وشدة العداوة. ومنه يقال: فلان قد أحرق الحزن كبدَه. وأحرقت العداوة كبده. والعرب تقول للعدو: أسود الكبد. قال الأعْشَى:

فما أُجْشِمْتُ من إتيان قَوْمٍ *** هُمُ الأعداءُ والأكبادُ سُودُ

كأن الأكباد لما احترقت بشدة العداوة اسودت. ومنه يقال للعدو: كاشح؛ لأنه يخبأ العداوة في كَشْحِه. والكَشْحُ: الخاصرةُ وإنما يريدون الكبد لأن الكبد هناك. قال الشاعر:

وَأُضْمِر أضْغَانًا عَلَيَّ كُشُوحُها

والتاء والدال متقاربتا المخرجين. والعرب تدغم إحداهما في الأخرى وتبدل إحداهما من الأخرى كقولك: هَرَتَ الثوب وهَرَدَه: إذا خرقه. كذلك كبت العدو وكبده. ومثله كثير.

الشرح

في هذه الآيات التي أوردها من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَوَّأْتُك منزلا؛ إذا أفدتك إياه وأسكنتكه) تبويء الشيء يعني إسكانه، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: 26]، أي: هيأنا له المكان، وأسكناه فيه وجعلناه يقيم فيه، قال ﴿تُبَوِّئُ﴾ أي: تهيئ لهم منزلًا، ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومقاعد القتال: المُعَسْكر والمَصَافُّ) أي: تصف الصفوف ويُوزَّع الجيش.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ الفشل هو: الجُبن، أن تفشلا أي: تجْبنا وتخافا، وفعلًا هذا حصل بطائفتين، لكن الله تولّاهما وردهما[7]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ مسوِّمين أي: معلِّمين، أو "مسوَّمين" أي: معلَّمين؛ على قراءة الكسر والفتح، وهو من السِيماء وهو العلامة، مثل ما ذكر هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (كانت سيماء الملائكة يوم "بدر" عمائم صُفرًا).

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ طرفًا أي: جزءًا، لم تكن الحرب لتبيد الكفار كلهم وإنما أخذت جزءًا منهم؛ لعل البقية يرجعون ويتوبون، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأسْر وقتل)، ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ هذا يتكلم عن الكبت والكبد، وأن التاء تقوم مقام الدال، وأصل الكبت هو إحزانهم وغيظهم وألا يكون لهم قوة وظهور.

---

(7) حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة، قوله: " إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا "، الآية، وذلك يوم أحد، والطائفتان: بنو سلِمة وبنو حارثة، حيان من الأنصار، همُّوا بأمر فعصمهم الله من ذلك = قال قتادة: وقد ذكر لنا أنه لما أنزلت هذه الآية قالوا: ما يسرُّنا أنَّا لم نَهُمَّ بالذي هممنا به، وقد أخبرنا الله أنه ولينا. الطبري (7721)

١٣٠ - ﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ يريد ما تضاعف منه شيئا بعد شيء. قال ابن عيينة: هو أن تقول: أَنْظِرْني وأَزِيدُك.

١٣٣ - وقوله ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ يريد سعتَها، ولم يرد العرض الذي هو خلاف الطول. والعرب تقول: بلاد عريضة أي واسعة "وفي الأرض العريضة مَذْهَبُ". وقال النبي صلى الله عليه وسلم للمنهزمين يوم أُحد: " لقد ذهبتم بها عريضة ". وقال الشاعر:

كَأَنَّ بِلادَ اللهِ - وَهْيَ عَرِيضةٌ - *** على الخائفِ المطلوبِ كِفَّةُ حابلِ

وأصل هذا من العَرْض الذي هو خلاف الطول. وإذا عَرُضَ الشيءُ اتسع وإذا لم يَعْرُض ضاق ودَقّ.

١٣٤ - ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ الصابرين. وأصل الكَظْم والصبر: حبس الغيظ.

١٣٥ - ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ أي: لم يقيموا عليه.

١٣٩ - ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعفوا. وهو من الوَهَن.

و (الْقَرْحُ) الجراح. والقُرح أيضا. وقد قُرِئَ بهما جميعا ويقال: القَرح - بالضم -: ألم الجراح.

١٤١ - ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يختبرهم. والتمحيص: الابتلاء والاختبار. قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

رأيتُ فُضَيلا كان شيئا مُلَفَّفًا *** فَكَشَّفَهُ التمحيصُ حتى بَدَا لِيَا

يريد الاختبار.

١٤٣ - ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيتم أسبابه. يعني السيف والسلاح.

١٤٤ - ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي كفرتم. ويقال لمن كان على شيء ثم رجع عنه: قد انقلب على عقبه. وأصل هذا أرجعه القهقرى. ومنه قيل للكافر بعد إسلامه: مرتد.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ قال سفيان بن عيينة: (هو أن تقول: أَنْظِرْني وأَزِيدُك)، الربا على نوعين: ربا الفضل؛ شيء بشيء، يعطيك مثلًا عشرة دراهم وتعطيه خمسة

عشر درهمًا، ربا النسيئة هو الذي يكون مؤجلًا، مثلًا تأخذ منه عشرة آلاف الآن وبعد سنة تعيدها مثلًا اثني عشر ألفًا، إذا جاءت السنة وما عندك يقول لك نعطيك مهلة والسنة القادمة تجلب مثلًا أربعة عشر ألفًا ويزيد.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ عرضها أي: سعتها؛ سعتها السماوات والأرض.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ كظم الغيظ هو: الصبر وحبسه، والغيظ هو الغضب والانتقام، فيكتم نفسه ويكظم غضبه وانتقامه، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يصروا أي: يقيموا ويستمروا؛ لم يستمروا على المعصية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ تهنوا أي: تضعفوا، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ قَرح أو قُرح، بعضهم قال القَرح: الجُرح، والقُرح بالضم: الألم، ألم الجراح. أذكر أني لما مرت معنا هذه الآية قيل: القَرح غير الجُرح؛ القَرح يشمل الجرح الجسدي ويشمل الحزن في النفس، انظر كيف التعبير القرآني! قال ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ لم قال "إن يمسسكم جرح"، لو قال إن يمسسكم جرح يكون في الجسد، لكن لما قال القرح يشمل ما أصابهم في أجسادهم وما أصابهم في أنفسهم من الحزن.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي الغرض من ذلك تمحيص المؤمن؛ اختبارهم حتى ترتفع درجاتهم.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ تمنون الموت أي تمنوا اللقاء، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ كيف يرون الموت والموت لا يُرى؟ بمعنى يرون آثاره؛ وهي السلاح والسيف ونحوه، ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ كفرتم.

١٤٦- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ﴾ أي كثير من نبي.

﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ أي جماعات كثيرة. ويقال: الألوف. وأصله من الرِّبَّة. وهي الجماعة. يقال للجمع: رِبِّي كأنه نسب إلى الربَّة. ثم يجمع رِبِّي بالواو والنون. فيقال: رِبِّيُّون.

[﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي ضعفوا]. ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ ما خشعوا وذلّوا. ومنه أُخِذ المستكين.

١٥١- ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي حجة.

١٥٢- ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أي تستأصلونهم بالقتل. يقال: سنة حَسُوس: إذا أتت على كل شيء. وجراد مَحْسُوس إذا قتله البرد.

١٥٣- ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي تبعدون في الهزيمة. يقال: أصْعَد في الأرض إذا أمْعَن في الذهاب. وصعد الجبل والسطح.

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي جازاكم غما مع غم. أو غما متصلا بغم. والغم الأول: الجراح والقتل. والغم الثاني: أنهم سمعوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قُتل فأنساهم الغمّ الأول.

و (الأَمَنَةُ) : الأمن. يقال: وقعت الأَمَنَة في الأرض. ومنه يقال: أعطيته أمانا. أي عهدًا يأمن به.

﴿فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ أي قصور عالية. والبروج: الحصون.

١٥٥- ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ طلب زَلَلَهم. كما يقال: استعجلت فلانا. أي طلبت عجلتهُ واستعملته أي طلبت عمله.

١٥٦- ﴿ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ﴾ تباعدوا. و ﴿غُزًّى﴾ جمع غَازٍ. مثل صائم وصُوَّم. ونائم ونُوَّم. وعاف وعُفَّى.

١٥٩- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي فبرحمة. و "ما" زائدة.

﴿لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي تفرقوا.

١٦١- ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾. أي يخون في الغنائم.

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معناه قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة على عنقه شاة لها ثُغَاءٌ لا أعرفن كذا، لا أعرفن كذا، فيقول: يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت ". يريد: أن من غل شاة أو بقرة أو ثوبا أو غير ذلك؛ أُتي به يوم القيامة يحمله.

ومن قرأ "يُغَلّ" أراد يُخَان. ويجوز أن يكون يُلْفَى خائنا. يقال: أغللت فلانا أي وجدته غالا. كما يقال: أحْمَقْتُه وجدته أحمق. وأحمدته وجدته محمودا.

وقال الفَرَّاء. من قرأه "يُغَلّ" أراد: يُخَوَّن. ولو كان المراد هذا المعنى لقيل يُغَلَّل. كما يقال: يُفَسَّق ويُخَوَّن ويُفَجَّر.

١٦٣- ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي هم طبقات في الفضل. فبعضهم أرفع من بعض.

١٦٥- ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ يقول أصابتكم مصيبة يوم "أحد" قد أصبتم مثليها من المشركين يوم "بدر"

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي بمخالفتكم وذنوبكم. يريد مخالفة الرُّماة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد.

١٦٧- ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ يقول: كثّروا فإنكم إذا كَثَّرْتم دفعتم القومَ بكثرتكم.

١٦٨- ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي ادفعوه. يقال: دَرَأَ الله عنك الشرك أي دفعه.

١٧٥- ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يخوفكم بأوليائه كما قال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذركم ببأس [شديد].

١٧٨- ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي نُطيل لهم. يعني الإمهال والنَّظْرَة. ومنه قوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.

١٧٩- ﴿حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ يقول: حتى يخلِّص المؤمنين من الكفار.

١٨٠- ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يَلْزَم أعناقهم إثْمُه. ويقال: هي الزكاة يأتي مانِعُها يوم القيامة قد طُوِّق شجاعًا أقرع يقول: أنا الزكاة.

١٨١- ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال رجل من اليهود حين نزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ -: إنما يستقرض الفقير من الغني والله الغني فكيف يستقرض؟ فأنزل الله هذه الآية.

١٨٥- ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أي نحّي عنها وأُبْعِد.

١٨٦- ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: لَتُخْتَبَرُنَّ. ويقال: لَتُصَابُنَّ. والمعنيان متقاربان.

١٨٨- ﴿بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي بمنجاة ومنه يقال: فاز فلان أي نجا.

١٩٦- ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ أي تصرّفهم في التجارات وإصابتهم الأموال.

١٩٧- ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي بئس الفِراش والقرار.

١٩٨- ﴿نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي ثوابا ورزقا.

٢٠٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ أي صَابِروا عدوَّكم.

﴿وَرَابِطُوا﴾ في سبيل الله. وأصل المرابطة والرِّباط: أن يربط هؤلاء خيولهم، ويربط هؤلاء خيولهم في الثغر. كل يُعِدُّ لصاحبه. وسمي المقام بالثغور رِباطًا.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: تفوزون ببقاء الأبد. وأصل الفلاح: البقاء. وقد بيناه فيما تقدم.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ (كأيّ) أي: كثير، قاتل معه ربيّون كثير، وقُرِأت قُتِل معه ربيون كثير، و"قُتِل" أبلغ لأن الصحابة قُتل منهم، بمعنى: يقول ﷺ إذا أنتم حصل لكم هذا وقُتل منكم عدد في أحد، أنبياء قبلكم كثير قُتِل معهم ربيون، إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ أي ضعفوا، ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي خشعوا وذلوا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ سلطان أي: حجة، كلما جاءت كلمة "السلطان" في القرآن معناها حجة؛ هذا قول ابن عباس. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ تحسونهم أي تجزّونهم وتستأصلونهم ولا تبقون منهم أحدًا.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ ما معنى تصعدون؟ هل تصعدون يعني تنزلون في الصعيد في الأرض؟ أم تصعدون أي يصعدون الجبل؟ نقول هذا كله حصل، والآية تحتمل الأمرين أن بعض الصحابة لما رأوا ما رأوا من ضرب المشركين بقوة؛ منهم من صعد الجبل، ومنهم من نزل في الصعيد في الأرض، أي أصعد في الأرض بمعنى إذا ذهب وأمعن فيها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أثابكم أي: جازاكم، لأنه يأتي على الخير والشر، ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: 36] أي جوزوا، الثواب هو الجزاء سواء في باب الخير أو باب الشر، وهنا قال ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أي جازاكم ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي غمًا على غم، الغم الأول الجِراح، والغم الثاني الحزن لمّا سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل.

في قوله تعالى: ﴿اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ من الزلل، ﴿ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ضربوا في الأرض أي: سافروا وتباعدوا، الضرب هو السفر أو التباعد، ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أي: غُزاة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ قال ابن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما زائدة)، والصحيح أنها للتأكيد، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ انفضوا أي: تفرقوا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وعلى قراءة ﴿أَن يُغَلَّ﴾ أن يَغُل أي: هو (النبي) يَغُل، فإذا كان النبي ﷺ لا يمكن أن يَغُل، فالمؤمن من باب أولى ألا يقع منه غَلول؛ والغلول هو: الأخذ من الغنيمة بغير علم، وفي حديث إن رجلًا من المجاهدين -نسأل الله العافية- قال: (إن رجلًا يعذب في النار في قبره بشملة أخذها في الغنيمة ولم يُعلَم عنه)[8]، فالأخذ من الغنيمة بغير علم من كبائر الذنوب، (أو يُغَلَّ) أي يُغَلَّ النبي؛ يؤخذ منه.

قال ﷻ: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ درجات أي: طبقات في الفضل، ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ قال ﷻ بمعنى ما أصابكم في أُحُد من الهزيمة قد أصبتم أنتم أهل مكة بأشد.

---

[8] صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا كانَ يَوْمُ خَيْبَرَ، أقْبَلَ نَفَرٌ مِن صَحابَةِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فقالوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، فُلانٌ شَهِيدٌ، حتَّى مَرُّوا علَى رَجُلٍ، فقالوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، فقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: كَلَّا، إنِّي رَأَيْتُهُ في النَّارِ في بُرْدَةٍ غَلَّها، أوْ عَباءَةٍ، ثُمَّ قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: يا ابْنَ الخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنادِ في النَّاسِ، أنَّه لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلَّا المُؤْمِنُونَ، قالَ: فَخَرَجْتُ فَنادَيْتُ: ألا إنَّه لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلَّا المُؤْمِنُونَ (الرقم: 114)

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ ادفعوا: أي كثِّروا، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كثّروا فإنكم إذا كَثَّرْتم دفعتم القومَ بكثرتكم).

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ادرءوا أي: ادفعوا، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي يخوفكم بأوليائه كما قال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذركم ببأس شديد). ﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾ نطيل، نعطيهم أعمارًا وصحة وعافية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ قال حتى يميز الخبيثَ من الطيب، بمعنى الذي يميز الخبيث هو الله أي يُمَيِّز، وفي قراءة ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ بضم الثاء في الخبيث.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يُقال يُطَوَّق بماله؛ الزكاة إذا منعها يُمَثَّل له شجاع أقرع؛ ثعبان أقرع له زبيبتان شديد السم، يتابعه في المحشر حتى يطوقه، يقول: أنا مالك أنا كنزك، البقية واضحة مثل ﴿زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أي نُحِّي وأُبعد، ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ الاختبار، ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ المفازة: النجاة، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي لا يغرنّك تصرفهم، ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ النُزُل: ما يعد للضيف هذا الأصل، والمقصود الثواب والرزق، والبقية كلها واضحة.

سورة النساء

١ - ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي نشرَ في الأرض.

﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ مَن نَصَب أراد: اتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها.

ومَن خفض أراد: الذي تساءلون به وبالأرحام. وهو مثل قول الرجل: نَشَدْتُكَ بالله وبالرحم.

٢ - ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم مضمومة إليها.

والحوب الإثم. وفيه ثلاث لغات: حُوب. وحَوْب. وحَابٌ.

٣- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي: فإن علمتم أنكم لا تعدلون بين اليتامى. يقال: أقسط الرجل: إذا عدل. ومنه قول النبي صلى الله عليه وعلى آله: "المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة" ويقال: قسط الرجل: إذا جار بغير ألف. ومنه قول الله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَلا تَعُولُوا﴾ أي: ذلك أقرب إلى ألا تجوروا وتميلوا. يقال: عُلْت عليَّ أي جرت علي. ومنه العَوْلُ في الفَرِيضة.

٤ - ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ يعني المهور. واحدها صَدُقَةٌ. وفيها لغة أخرى: صُدْقَةٌ.

﴿نِحْلَةً﴾ أي: عن طيب نفس. يقول ذلك لأولياء النساء لا لأزواجهن؛ لأن الأولياء كانوا في الجاهلية لا يعطون النساء من مهورهن شيئا. وكانوا يقولون لمن ولدت له بنت: هنيئًا لك النَّافِجةُ. يريدون أنه يأخذ مهرها إبلا فيضمها إلى إبله. فَتُنْفِجُها. أي تعظِّمُها وتُكَثِّرُها. ولذلك قالت إحدى النساء في زوجها:

لا يأخذ الحُلْوَانَ مِنْ بَنَاتِيَا

تقول: لا يفعل ما يفعله غيره. والحلوان هاهنا: المهور.

وأصل النِّحْلة العطية. يقال: نَحَلْتُه نحلة حسنة. أي أعطيته عطية حسنة. والنحلة لا تكون إلا عن طيب نفس. فأما ما أخذ بالحكم فلا يقال له نحلة.

٥- ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ أي: لا تعطوا الجهلاء أموالكم، والسفه الجهل. وأراد هاهنا النساء والصبيان.

﴿قِيَامًا﴾ وقِوَامًا بمنزلة واحدة. يقال: هذا قوام أمرك وقيامهُ أي: ما يقوم به أمرك.

٦- ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي: اختبروهم.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: بلغوا أن ينكحوا النساء.

﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي: علمتم وتبينتم. وأصل آنست: أبصرت.

﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ أي: تأكلوها مُبَادَرَة أن يكْبروا فيأخذوها منكم.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: ليترك ولا يأكل.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي يقتصد ولا يسرف.

الشرح

كما ذكرنا، المؤلف يتعرض للألفاظ التي تحتاج إلى بيان. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ قال معنى بث أي: نشر، البث في الأرض؛ يبثه ينشره.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ مَن نَصَب أراد: اتقوا الله الذي تساءلون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها) أي: اتق الله عز وجل وخف من الله عز وجل الذي أنت تسأله بقولك "أسألك بالله" فينبغي أن تخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك الأرحام؛ اتق أن تقطع الأرحام لأن قطيعة الرحم أمر عظيم حتى عند العرب وفي الجاهلية، في قراءة بالجر - بالخفض- هذه قراءة حمزة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ﴾، وهي مثل ما تقول العرب: "ناشدتك بالله وبالرحم" وهم لا يريدون القسم؛ لأنه لا يجوز القسم إلا بالله، لا يجوز أن تقسم بالأرحام، الأرحام مخلوقة، فلا يجوز، وإنما هو على وجه التعظيم لا على القسم، هذه القراءة ردها النحويون؛ قالوا هذه قراءة ضعيفة، المؤلف ما تعرض لها، لكن كثير من العلماء ردوا على من رد هذه القراءة، لأن بعض النحاة يقول: "لا يُعطف الظاهر على الضمير" (لأرحامِ) ظاهر و(به) ضمير، بقراءة حمزة ﴿بِهِ وَالْأَرْحَامِ﴾ أنت عطفت الظاهر

على الضمير، وهذا ضعيف لأن الظاهر أقوى من الضمير، وردوها قائلين: "إلا بإعادة الحرف الجار (به وبالأرحامِ)، وإلا لا تُعطف"، وموقف النحاة من رد قراءة ثابتة هذا موقف لا يقبل، ولا يسَلَّم لهم، لأن القراءات والقرآن فوق النحو، والنحو تحته، لا نحكم القرآن أمام قواعد النحو، نحكم قواعد النحو أمام القرآن، فالقرآن فوقه، وهذا وجه.

والوجه الثاني أنه يجب عليهم التسليم للقرآن ما دام قراءة ثابتة يجب عليهم أن يسلموا، والأمر ثالث أن العرب كانت تستعمل هذا الشيء، فأنتم إذا رددتم هذه القراءات تردون كلام العرب وأشعارهم، كقول الشاعر "وما بك والأيامِ من عجب" فهذا شاعر عربي فصيح، معناه أنكم تقدحون بلغتكم، وفي أيضًا مواضع أخرى في القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الحج: 25].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾، قال مع أموالكم، يرى المؤلف نيابة الحروف بعضها عن بعض، مرت معنا هذه المسألة أكثر من مرة، ومن العلماء من يقول: "تُضمّن الأفعال والحروف تبقى على ما هي عليه" وهذا رأي شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: التضمين أولى. كيف نضمن هنا؟ يقول ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي مع أموالكم، بدل حرف الجر "إلى" نضع "مع"، نقول لا، الحرف يبقى، والمعنى أي: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم، ولذلك المؤلف قال مضمومة، ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ الحُوب معروف؛ هو الإثم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي تعدلوا، كما أشار المؤلف لأنهم كانوا أولياء على البنات اليتامى، فإذا كبرت البنت تزوجها، فلا يقسط لها لا في مهرها ولا في كسوتها ولا في نفقتها ولا في سكناها، فقال الله عز وجل إذا أنتم لا تقسطون في اليتامى اتركوهم وانكحوا غيرهن ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾، وضّح المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين قَسَطَ وأَقْسَطَ: أَقْسَطَ يعني عَدَلَ، وقَسَطَ يعني جارَ، هذه من الألفاظ الدقيقة جدًا، حرف واحد إذا سقط تغير المعنى، قَسَطَ غير أَقْسَطَ.

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي لا تجوروا في الحكم، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ المؤلف تكلم عن الصدُقات والنِّحلة، يقول الصدُقات هي المهور جمع صَدُقة، وهي المهر؛ ما يعطى المرأة من مهرها أو نفقتها أو أجرها، أما معنى نحلة قال أي أعطوهن عن طيب نفس، وتكلم عن موقف الجاهلية من كلمة نحلة وأنهم كانوا يأخذون مهر النساء، ومن المسلمين الآن من يفعل ذلك، تجد بعض القبائل وبعض المجتمعات يأخذ الرجل الولي مهر ابنته، يأخذه أو يأخذ أكثره ويعطيها القليل، هذا موجود لكنه من أعمال الجاهلية، الله عز وجل أضافه إلى النساء، قال ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ ولم يقل (صدقات الأولياء) هذا يتبع المرأة، أعطه للمرأة سلّمه لها، ولذلك أنا ألاحظ أحيانًا أن الأولى أن يُسلَّم المهر للزوجة وليس للولي، والآن في الأنظمة الحديثة المعاصرة تستطيع أن تسلمه للمرأة إما بشيك مصدق باسمها ما يصرف إلا لها أو بالتحويل، وهذا الأولى لأنك الآن أنت تمتثل للآية، قال ﷻ: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ﴾ أي المخطوبات، أي المرأة المخطوبة، أولًا قال (النساء) ثم قال (صدقاتهن)، فالأولى أن يُعطَى المهر للمرأة، إلا إذا جرت العادة أنه يعطي الولي والولي يعطيه البنت، ولأن البنت أحيانًا إذا أُعطيت قد تضيعه إذا عُرف ذلك أو لا تحسن التصرف فيه، هذه حالات كما ذكر القرآن ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5].

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ أي لا تعطوها، أي الأموال، السفه: الجهل، والسفيه: خفة العقل، وعدم حسن التصرف، المراد به النساء والصبيان، كيف يقصد النساء والصبيان؟ أولًا تفسير السفهاء بالنساء والصبيان تفسير مأثور عن السلف، والسلف أعلم بالقرآن وهم أقرب إلى النبي ﷺ وإلى عصره وفهم القرآن وفهم لغة العرب، هذا من وجه، الوجه الثاني أنه لا يريد النساء على الإطلاق ولا يريد الصبيان على الإطلاق، تجد من الصبيان من هو أعقل من بعض الكبار، فلا يريد به الجميع، يريد به أن السفه يغلب على الصغار ويغلب على النساء، فيه من النساء من هي أسفه من السفيه ولا تحسن التصرف، ولذلك الله جعل الولاية بيد الرجل وجعل النفقة بيد الرجل وجعل العصمة بيد الرجل، لأنها يغيب عنها أشياء كثيرة، وقد يوجد من النساء من لا تحسن التصرف في مالها ولا في بيتها، وقد يوجد من النساء آحاد منهن من هي أعقل من الرجال، والنبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع» قال أربع ما قال كثير،

فهذا الذي يغلب، فتفسير السلف بالنساء لأنه هو الغالب، لا نحكم على كل امرأة ونقول لها أنتِ سفيهة؛ هذا خطأ، لكن نقول من تتصرف بهذا التصرف تكون سفيهة، وكذلك الأولاد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ أي ما تتقومون به معاشكم، ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ هنا نعرف متى يأخذ اليتيم ماله، بشرطين: أن يبلغ سن النكاح وهو الحلم، والأمر الثاني ﴿آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ عرفت أنه يحسن التصرف، فإذا جمع بين الأمرين، لأنه قد يبلغ النكاح وقد يبلغ أربعين سنة وخمسين سنة ولا يزال سفيهًا، الشرط الثاني قال ﴿آنَسْتُم﴾ أي أحسستم منهم رشدًا.

هل يجوز للولي الذي يقوم على هؤلاء اليتامى أن يأخذ مقابل عمله؟ هو الآن يعمل لهم يعني يسكنهم عنده وينفق عليهم ويشتري لهم الكسوة والنفقة وما يحتاجون إليه، وأحيانًا يسجلهم في المدارس وأيضًا هو الذي يذهب بهم إلى المدارس بسيارته، فهل يجوز له أن يأخذ أجرة أم لا يجوز؟ هذا ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ أي يبادرون على أخذ المال، كل هذا تحذير من تصرفات بعض من فيهم الجشع والطمع، تجد عنده يتيمًا صغيرًا وهذا اليتيم وارث من أبيه لو افترضنا مليون ريال، يأتي الولي هذا سواء كان عمه أو أخاه أو نحو ذلك، ويأخذ هذا المال ثم يبدأ يشتغل فيه وينميه ويأخذ المكاسب له، من أباح لك المكاسب؟ قال: أنا أنميه، تنميه وهو مال الطفل ومال اليتيم، لا يجوز لك إلا بإذن، فيأتي يبادر حتى لا يسلمه، حتى تجد بعضهم يبلغ الحلم لا يسلم له المال يقول وليه: نحن نشتغل لك بالمال ننميه لك، وهو يأخذ الأرباح، قد تكون هذه الفترة كلها عشر سنين أو خمس عشرة سنة قد ربح على قدر الأصل وزيادة؛ فلا يجوز، من قام بالولاية إن كان فقيرًا فليأخذ بالمعروف كما ذكر ﷻ: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ يأكل شيئًا قليلًا مقابل جهده وعمله وأجرته، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ ليستعفف ويبتعد عن هذا.

٧- قال قتادة وكانوا لا يُوَرِّثون النساء فنزلت: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ مُوجَبًا فرضه الله. أي أوجبه.

٩- ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا﴾ مبينة في كتاب "المشكل".

﴿قَوْلا سَدِيدًا﴾ من السّداد وهو الصواب والقصد في القول.

١٢- وقوله: ﴿يُورَثُ كَلالَةً﴾ هو الرجل يموت ولا ولد له ولا والد. قال أبو عبيدة: هو مصدر من تَكَلَّلَه النَّسب. وتكلله النسب: أحاط به. والأب والابن طرفان للرجل. فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه. فسمي ذهاب الطرفين: كلالة. وكأنها اسم للمصيبة في تكلل النسب مأخوذ منهُ نحو هذا قولهم: وجهت الشيء: أخذت وجههُ، وثغّرت الرجل: كسرت ثغره.

وأطراف الرجل: نسبه من أبيه وأمه. وأنشد أبو زيد:

فكيفَ بأطْرَافِي إذَا ما شَتَمْتَنِي *** وَمَا بَعْد شَتْمِ الوالِدينِ صُلُوحُ

أي: صلاح.

١٥- ﴿وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ يعني الزنا.

وقوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ منسوخة نسختها:

١٦- ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ﴾ يعني الفاحشة.

﴿فَآذُوهُمَا﴾ أي عزروهما. ويقال: حدوهما.

﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: لا تُعَيروهما بالفاحشة. ونحو هذا قول رسول الله صلى الله عليه وعلى آله في الأَمَة: "فليجلدها الحد ولا يعيرها".

الشرح

في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ يقول المؤلف قال قتاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكانوا لا يُوَرِّثون النساء فنزلت) كانوا لا يورثون النساء ولا الصبيان، يقولون: لا نورث إلا من يحمل السيف ويدافع ويأتي بما نحتاج

إليه، أما المرأة فجالسة في البيت والصبي لا يدفع عن نفسه فلا يعطيهم من الميراث، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن لهؤلاء نصيب ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مُوجَبًا فرضه الله. أي أوجبه).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ قال هذا بينته في كتاب المشكل، أي تفسير الآية مر معنا في كتاب تأويل مشكل القرآن وهذا كتاب قرأناه وانتهينا منه، وهذه الآية أيضًا مرت معنا في مواضع أخرى تفسيرها، قال تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من السّداد وهو الصواب والقصد في القول).

ثم تأتي آيات المواريث، لم يتكلم المؤلف عن آيات المواريث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ لأنها واضحة جدًا، وإنما وقف مع الكلالة ما الراد بها، الكلالة أشكلت على بعض الصحابة، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لا أزال أسأل النبي ﷺ عن كلالة حتى طعن بأُصبع في صدري، قال: «تكفيك آية الصيف التي في آخر النساء» فالكلالة من الألفاظ التي أشكلت حتى على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والذي قضى بها هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «الكلالة من لا والد له ولا ولد» أي شخص يموت ليس له أصول الآباء والأمهات، ليس له والد وليس له ذريه، قال أبو عبيده -معمر بن مثنى صاحب كتاب المجاز- قال: (هو مصدر من تَكَلَّلَه النَّسب، وتكلله النسب: أحاط به) من الإكليل وهو التاج الذي يُلبس، لأنه يحيط بالرأس، والأب والابن طرفا للرجل؛ ذريته وأصوله هم طرفا للرجل، قال: (فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه. فسمي ذهاب الطرفين: كلالة) عمومًا الكلالة المراد بها من يرث الميت إذا كان الميت ليس له ذرية ولا آباء، هذا الكلالة، والكلالة هم الأخوة كذلك يدخلون، والأخوة على ثلاث أنواع: إخوة أشقاء، إخوة لأب، إخوة لأم، الأخوة الأشقاء والأخوة من الأب ذكرهم الله في آخر سورة النساء في الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهنا المراد بالكلالة الأخوة من الأم، إذا مات ميت وترك زوجته وليس له ذرية، وترك أمه لأن الأم ترث ولا تحجب، الأم لا تحجب الأخوة وترث، لو كان في أب؛ لأبعَدَ الأخوة كلهم وأخذ الميراث، إذا لم يملك آباء نقول الآن الزوجة لها نصيب وهو الربع لعدم وجود الفرع الوارث، والأم مع وجود الأخوة تأخذ السدس، يأتي الأخوة نصيبهم في الآية ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ

﴿وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ هذه يسميها أهل العلم ميراث الكلالة أو قسمة الكلالة، وهم الأخوة لأم في هذه الآية، قراءة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وله أخ أو أخت من أم».

الآية التي بعدها: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ المراد بالفاحشة إذا أطلقت في القرآن: الزنا، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ منسوخه، نسختها الآية التي بعدها ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ نؤذيهم بالتعزير أو بالحد ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: لا تعيروهما، والصحيح -والله أعلم- أن هذه الآية ليست منسوخة لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل لها حدًا، جعل لها نهاية قال: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ هنا النقطة ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ما هو السبيل؟ الآية هذه مجملة وفُسرت بالأحاديث أو بالآيات الأخرى، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة، والرجم» لا نقول بالنسخ ما دام لها طريق آخر.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ هذه الآية هي التي اختلف فيها العلماء في المراد بـ "يأتيانها منكم"، قيل الزنا وقيل مقدمات الزنا وقيل اللواط وقيل السحاق بين امرأتين... فيها أقوال، فلو سلّمنا أنها ما دون الفاحشة؛ فإنهم يُعزّرون، يعزر من يأتي هذا العمل دون الوطء فإنه يعزر، وقيل أنهما البكر؛ المرأة والرجل إذا كان بكرين ولم يحصل منهم هذا الشيء، إما أنهما يعزران وإما أن يحدّان، والحد وهو الجلد مئة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي إذا لم تُرفع القضية إلى القاضي وإلى الحاكم، فتابا بينهما وأصلحا، أي وقعا في الفاحشة وتابا، فأعرض عنهما ولا تعيرهما بالفاحشة ويتوب الله عليهما.

١٩- ﴿لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ قالوا. كان الرجل إذا مات عن امرأته وله ولد من غيرها، ألقى ثوبه عليها فيتزوجها بغير مهر إلا المهر الأول. ثم أضرّ بها ليرثها ما ورثت من أبيه. وكذلك كان يفعل الوارث أيضا غير الولد.

والكَرْه هاهنا بمعنى الإكراه والقهر. فأما الكُرْه بالضم فبمعنى المشقة. يقول الناس: لتَفْعَلَن ذلك طوعا أو كَرها. أي طائعا أو مكرها. ولا يقال: طوعا أو كُرها بالضم.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: صاحبوهن مصاحبة جميلة.

٢٠- ﴿بُهْتَانًا﴾ أي ظلما.

٢١- ﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يعني المجامعة.

﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي وثيقة. قال ابن عباس: هو تزوجهن على إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان.

٢٢- ﴿وَسَاءَ سَبِيلا﴾ أي قبح هذا الفعل فعلا وطريقا. كما تقول: ساء هذا مذهبا. وهو منصوب على التمييز. كما قال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

٢٣- ﴿وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ أزواج البنين.

٢٤- ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي حرم عليكم ذوات الأزواج إلا ما ملكت أيمانكم من السبايا اللواتي لهن أزواج في بلادهن.

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرضه الله عليكم.

﴿مُحْصِنِينَ﴾ متزوجين.

﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي: غير زناة. والسفاح: الزنا. وأصله من سَفَحْت القربة إذا صببتها. فسمي الزنا سفاحا. كما يسمى مِذَاءً لأنه يسافح يصب النطفة وتصب المرأة النطفة ويأتي بالمَذْي وتأتي المرأة بالمَذْي. وكان الرجل في الجاهلية إذا أراد أن يفجر بالمرأة قال لها سافحيني أو ماذِيني. ويكون أيضا من صب الماء عليه وعليها.

﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أعطوهن مهورهن.

٢٥- ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلا﴾ أي لم يجد سعة.

﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني الحرائر.

﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يعني الإماء.

﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف.

﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ غير زَوَانٍ.

﴿وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي متخذات أصدقاء.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ أي: تزوجن. وقال بعضهم: أسلمن. والإحصان يتصرف على وجوه قد ذكرتها في كتاب "المشكل".

﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ أي زَنَيْن.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني البكر الحرة. سماها محصنة وإن لم تتزوج لأن الإحصان يكون لها وبها إذا كانت حرة. ولا يكون بالأمة إحصان.

﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني الحد. وهو مائة جلدة. ونصفها خمسون على الأمة.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي خشي على نفسه الفجور. وأصل العَنَت: الضرَر والفساد.

الشرح

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ يقول هذا كان من أعمال الجاهلية أنه إذا مات الرجل جاء أهل البيت وأخذوا زوجته، فإما يتزوجها أحدهم، وإما يزوجونها من يشاؤون ويأخذون المهر، فكانوا يتحكمون بزوجة أبيهم فمنعهم الله قال ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾ ليست المرأة ميراث، ليست متاع حتى تُورَث، ترثونها أو تقول أنا أتزوجها أو فلان يتزوجها أو تقول نحن نزوجها من نشاء ونأخذ المهر؛ أصبحت ميراث، لا يحل ذلك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ هذا خطاب للأزواج أنه يجب عليهم أن يعاشروا زوجاتهم بالمعاشرة الحسنه.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بهتانًا أي: ظلمًا، كرجل تزوج بامرأة ثم أراد أن يتزوج بأخرى، فيطلق الأولى ويأخذ مهرها؛ المهر الذي أعطاه للأولى ليتزوج به الأخرى، هذا موجود حتى الآن؛ يضغط على الأولى بشدة وقوة لأنه لا يملك المال لزواج الثانية، فالله عز وجل قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي أفضى بعضكم بالجماع، كيف أنت الآن تستحل هذا الشيء وتدفع المهر ثم تأتي وتأخذ المهر منها؛ وقد أخذن النساء منهم ميثاقًا غليظًا ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمّا يراد بالميثاق الغليظ: (أي وثيقة. قال ابن عباس: هو تزوجهن على إمساك بمعروف، أو تسريح بإحسان) أنت عند العقد قيل لك نسلّم لك البنت ونزوجك البنت هذه تدفع المهر وتتقي الله فيها وتخاف الله وتقوم بحقها... وإلى آخره، فأُخِذ منك الميثاق أن تمسكها بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان؛ هذا الميثاق.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ لا يجوز للرجل أن يتزوج بزوجة أبيه بمجرد العقد، لو أن هذا الأب عقد على امرأة ولم يدخل بها، فقط بمجرد عقد، ثم طلقها، فليس لأحد أبنائه أن يتزوج بها لأنها أصبحت منزلة الأم، ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لو حصل هذا الزواج في الجاهلية قبل نزول الآيات، إذا دخل في الإسلام لا يؤاخذ على فعله، وأما الزوجة تطلق مباشرة، لا يجوز تركها على ذمته ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي قبح هذا الفعل.

يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ هذا في المحرمات، ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في المحرمات سبع من النسب وسبع في غير النسب، من النسب هن: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وفي من الرضاعة وفي بالمصاهرة مثل أمهاتكم وأمهات نسائكم بالمصاهرة، وربائبكم بالمصاهرة، وزوجة الابن تسمى الحليلة ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ أي زوجات الأبناء، هذه كلها محرمات، وأضف على المحرمات المحصنات أي المتزوجات ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ المرأة في ذمة زوج لا يجوز خطبتها بأي طريقة، لا يجوز تتصل بها وتقول: والله أنا أريد أن أتزوجك، أنت حاولي أن تتخلصي من زوجك وأنا أريد أن أعطيك كذا وكذا، يفعلونها، فهذا المراد. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ

﴿أَيْمَانُكُمْ﴾ في السبي، إذا حصل غزو وسبيت هذه النساء فتصبح مملوكات، لكن لا يجوز وطئهن إلا بعد الاستبراء، في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كتاب الله يعني الزموا كتاب الله الذي فرضه عليكم، ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ محصنين أي: متزوجين، الإحصان مثل ما ذكر المؤلف يأتي على عدة معاني: معنى الزواج ومعنى العفاف ومعنى الحرية... له عدة معاني، والسفاح هو غير الزواج، من السفح وهو: صب الشيء.

يقول ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي لم يجد سعة ومال ﴿أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يعني بها الحرائر، الإحصان هنا: الحرية، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا لم يستطيع الرجل أن يتزوج بالحرة لقلة ماله فليتزوج أمة، الأمة يكفيها شيء قليل، لكن بشرطين: الشرط الأول ألا يجد قدرة على زواج الحرة، والشرط الثاني أن يخشى على نفسه الوقوع في الزنا، لأن الله قال في آخره ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أن تكون مؤمنة ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أعطها مهرها ولو قليل ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف، لابد أن تكون عفيفة لا تكون فاجرة ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾، ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ أصبحت محصنة تزوجت، ثم وقعت في الزنا فإذا أحصنّ ثم وقعت في الزنا أو لم تتزوج، فوقعت في الزنا فحكم الله في الأمة إذا وقعت في الفاحشة أن تجلد، لا تُرجَم الأمة؛ تجلد خمسين جلدة، الحرة إذا وقعت في الفاحشة إن كانت بكرًا تجلد مئة جلدة، وإن كانت ثيبًا ترجم حتى الموت، كما رجم النبي ﷺ الغامدية، إذا كانت مملوكه من هذه الآية ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ النصف خمسين والرجم لا نصف فيه، فنجعل حكمها سواء متزوجة أو بكر؛ حدها خمسون جلدة، وكذلك المملوك لو كان متزوج ما يرجم المملوك؛ وإنما يجلد خمسين جلدة، متزوج أو غير متزوج، يقول تعالى ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ يعني به: الحد. ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ العنت: الصعوبة، بعض الناس ما يملك نفسه لا بد أن يتزوج لا يستطيع أن يصبر، لا يصبر على النساء، فنزوجه ولو مملوكة يقضي حاجته ولو مع المملوكة.

٢٩- و ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير استحقاق.

﴿إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ مثل المضاربة والمقارضة في التجارة فيأكل بعضكم مال بعض عن تراض.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضا على ما بينت في كتاب "المشكل".

٣١- ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يعني الصغائر من الذنوب.

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيمًا﴾ أي: شريفا.

٣٢- ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لا يتمنى النساء ما فضّل به الرجال عليهن.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ أي: نصيب من الثواب فيما عملوا من أعمال البر.

﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ أيضا ﴿نَصِيبٌ﴾ منه فيما عملن من البر.

٣٣- ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ أولياء. ورثة عصبة.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد الذين حالفتم.

﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من النظر والرِّفْدِ والمعونة.

٣٤- ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ أي: لغيب أزواجهن بما حفظ اللهُ أي: بحفظ الله إياهن.

﴿وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ يعني: بغض المرأة للزوج. يقال: نَشَزَت المرأة على زوجها ونَشَصَت: إذا تَرَكته ولم تطمئن عنده. وأصل النشوز: الارتفاع.

﴿فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا﴾ أي: لا تجنوا عليهن الذنوب.

٣٥- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: التباعد بينهما.

الشرح

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بغير استحقاق) قال ﷺ أموالكم لأن المؤمنين كالنفس الواحدة، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11] أي: لا يلمز بعضكم بعضًا، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا وكأن المؤمنين نفس واحدة، ويمكن هذه الآية أن تحمل على أن الإنسان

لا يأكل مال غيره –مال أخيه– ولا ماله هو بالباطل، أي لا تجعل مالك تصرفه في الباطل، تجد بعضهم يشتري المحرمات وهذا لا يجوز لا لك ولا لغيرك، المال أمانه عندك يجب عليك أن تتقي الله فيه، سوف تُسأل عنه، قال ﷺ: «لا تَزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسأَلَ» حتى «وعن مالِه؛ من أين اكتسَبَه؟ وفيم أنفَقَه؟».

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ يقول إذا كانت تجارة بين المسلمين بعضهم لبعض، وبشرط أن تكون التجارة هذه عن تراضي، البيع والشراء عن تراضي أي لا تلزمه بقوة، مثل المضاربة بحيث إنك تعطيه مال ويتكسب فيه، أو المقارضة بحيث أنك تقرضه مالًا في التجارة، فيأكل بعضكم مال بعض عن تراضي، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا كالسابقة، وكذلك الآية هذه تحتمل الأمرين: لا تقتل أنت نفسك بتعاطي المحرمات والمخدرات أو استعمال الآلة القاتلة على نفسه وينتحر، يقتل نفسه إما يلقي نفسه من أعلى أو يأخذ آلة قتل ويقتل نفسه، فلا تقتلوا أنفسكم ولا تقتلوا إخوانكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ السيئات الصغائر من الذنوب، كيف عرفنا أن السيئات صغائر؟ لأن أحيانًا تأتي كلمة الذنوب والسيئات، فالذنوب هي الكبائر والسيئات هي الصغائر، لأن الله ﷻ هنا قال "تجتنب كبائر"، فلما قال كبائر عرفنا أن السيئات هي الصغائر، ولأن السيئات –الصغائر– تكفّرها الأعمال الصالحة، ويصعب القول أن معناها الصغائر مطلقًا، الأصل فيها أن السيئات هي الصغائر، لكن حسب سياق كل آية ، أحيانًا السيئات في بعض المواضع تختلف، تحتاج منا إلى استقراء، نرى الآيات القرآنية ونحكم عليها، لكن الأصل أن السيئات في الصغائر والذنوب في الكبائر، لأن التكفير يأتي في الآيات مع السيئات ولا يأتي "نكفر عنكم ذنوبكم".

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: لا يتمنى النساء وكذلك الرجال ما لم يكتبه الله لهم، مثلًا رجل له منصب عظيم في الدولة أو شرّفه الله بشيء من المكانة في المجتمع، لا تتمنَّ ما له، والتمني والطلب في مثل هذا لا بأس به، قال النبي ﷺ: «لا حسدَ إلا على اثنتينِ رجلٌ آتاه اللهُ مالًا فهو ينفقُ منه آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ ورجلٌ آتاه اللهُ القرآنَ فهو يقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ» فأنت تتمنى أن تكون حافظ القرآن هذا لا بأس به، لكن التمني الذي هو الحسد بمعنى أن تزول النعمة من هذا

الشخص وتكون عندك بدلًا عنه، هذا الذي لا يجوز، تتمنى أن هذا الرجل الذي عنده مكانة في المجتمع أن تسلب منه وتكون عندك هذا المحرم، أما مثلًا إمام مسجد تتمنى أن تكون مثله حتى تصبح إمامًا للمسجد دون زوال ذلك عنه هذا جائز لا مانع فيه، لكن إذا تمنيت ما عند هذا الشخص أن تكون عندك وليست عنده هذا محرم، هذا الحسد، أو تتمنى شيئًا لا يمكن يحصل لك مثل المرأة، المرأة تتمنى مثلًا أن يكون لها نصيب في الميراث مثل نصيب الرجل، هذا تمني شيء لا يجوز، ولذلك قال لا تتمنى النساء ما فُضّل به الرجال عليهن، فمثلًا تتمنى امرأة أن تكون إمامًا في المسجد أو خطيبة في الجمعة، هذه كلها مخالفة للشرع، ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ الباب مفتوح عندك للطلب والدعاء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الموالي: (أولياء. ورثة عصبة) وغيرهم. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العقد هنا: المحالفة، الحلف، كأن يكون بيني وبينك عقد، ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ المقصود بالنصيب: النظر والرفد والمعونة، أي المساعدات والنصرة والمعونة والإكرام ونحو ذلك، لأن بعض أهل التفسير يقول: "فآتوهم نصيبهم" هذا ميراث الولاء، كأن آتي أنا وأنت ونتفق على أن نجمع المال بيني وبينك، مالي مالك ومالك مالي، ودمي دمك ودمك دمي، وميراثك لي وميراثي لك، بمعنى ترث ما أرثك، هذا نسخ في الإسلام، لا ميراث إلا ما قسمه الله فقط.

الآية الأخيرة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ حافظات للغيب أي: لغيب أزواجهن، إذا غاب الأزواج يحفظونهم في غيبهم ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن، هذه فيها عدة تفاسير لكن اختار المؤلف أن الحافظات للغيب أي لغيب أزواجهن عندما يغيب الزوج عنها تحفظه، هذا في جانب والجانب الآخر المرأة الناشز، ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي تترفع عن ما أوجب الله عليها، تترفع أي تبغض الرجل ثم لا تستجيب له، فمثل هذه ما حكمها؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ انظر إلى حكمة القرآن الكريم، قال اهجرها في المضجع عند النوم، أمّا في البيت مع الأطفال لا تبين شيء، لأن الأولاد يأخذون ويسمعون وينتبهون، فإذا بدأت تسب أمهم عندهم هذا يورث عندهم

أشياء كثيرة، تسبها أو تشتمها أو تتناقش أنت وهي في أمور هذه اتركها في أماكن بعيدة، دع البيوت هادئة، هذا العاقل، أما يثير هذه الأشياء فالأبناء مساكين يضيعون فيها لا يدرون هل الحق مع الأم أم مع الأب؟ عندما يعيشون هذه الأشياء تتراكم عليهم فيما بعد، فلذلك حكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ قال لك بعيد عنهم، الغرفة الخاصة هذا شيء آخر، ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ واضربوهن ضربًا غير مبرح. بعدها قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فإن أطعنكم واستجبن لكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ لا تجنوا عليهن وتذكرها بالذنب بقولك أنتِ فعلتِ كذا وكذا، بل انسَ الماضي وافتح صفحة جديدة وانتهى.

تنتقل الآيات بعدها إلى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ علينا أن تنتبه للآيات القرآنية، تلاحظ أول السورة تتكلم عن أصل بني آدم، اللذين هما آدم وحواء، ثم الذرية والأولاد والزواج وعقود الزواج، تكلمت عن عقود الزواج كلها، ما يسمى الآن بيت الأسرة، والآن تنتقل من بيت الأسرة إلى العلاقات، العلاقات بين المسلمين بعضهم ببعض: بالوالدين وبذي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل... هذه كلها علاقات عامة، انظر إلى السورة كيف تنتقل في المواضيع.

ثم بعد ذلك تنتقل مع علاقات خارجية، مع أهل النفاق وأهل الكتاب والمشركين وإلى آخره، السورة تؤكد على العلاقات.

٣٦- ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ القرابة.

﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الغريب والجنابة: البُعد. يقال: رجل جنب أي غريب.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ الرفيق في السفر.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الضيف.

و (المختال) ذو الخيلاء والكبر.

٤٠- ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: زنة ذرة. يقال: هذا على مثقال هذا أي: على وزن هذا، والذرة جمعها ذر وهي أصغر النمل.

﴿يُضَاعِفْهَا﴾ أي يؤتي مثلها مرات. ولو قال: يضعِّفها لكان مرة واحدة.

٤٢- ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ أي يكونون ترابا، فيستوون معها حتى يصيروا وهي شيئا واحدا.

﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هذا حين سئلوا فأنكروا فشهدت عليهم الجوارح.

٤٣- ﴿وَلا جُنُبًا إِلا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ يعني المساجد لا تقربوها وأنتم جنب إلا مجتازين غير مقيمين ولا مطمئنين.

﴿الْغَائِطِ﴾ الحدث. وأصل الغائط: المطمئن من الأرض. وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة أتوا غائطا من الأرض فَفَعَلوا ذلك فيه. فكنى عن الحدث بالغائط.

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أي تعمدوا.

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي ترابا نظيفا.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ معناه: الجار القريب لك بالنسب، فله حقان: حق القرابة وحق الجوار، ثم قال: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ والمقصود به: جارك الذي ليس بقريب، فهو بعيدٌ من جهة النسب، فالجار الجُنُب هو الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة أو صلة رحم، ثم قال: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ اختار المؤلف أن المراد به هو الرفيق في السفر، إذا سافر معك شخص، فهذا يسمى الصاحب بالجنب، وله حق؛ لأن الله تعالى -عند تأمل الآية- أمر بالإحسان إليهم جميعًا، فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

﴿إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ...﴾ فالمعنى: وأحسنوا بذي القربى، وأحسنوا باليتامى، وبالمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب. فكل هؤلاء مأمورٌ بالإحسان إليهم. فإذا كان معك رفيقٌ في السفر، فينبغي أن تُحسن إليه، بل أن تقوم بخدمته وتُكرمه، وقيل أيضًا -وهو قولٌ لبعض المفسرين- أن الصاحب بالجنب هو الزوجة؛ لأنها رفيقة الإنسان في حياته، فينبغي أيضًا أن يحسن إليها وأن يتعامل معها بالمعاملة الطيبة.

قال: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ ابن السبيل: هو الضيف، أو المسافر المنقطع الذي يدخل بلدةً وليس معه شيء، لا زاد ولا راحلة، فينبغي إعانته ومساعدته، ولذلك جعل الله له نصيبًا من الزكاة، فينبغي أن يُعان؛ ففي السابق كان المسافر إذا ضلّت راحلته أو نفد زاده ولم يجد مأوى أو مساعدة فقد يَهْلك، فإذا دخل قرية، كما فعل موسى والخضر عليهما السلام حين ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 77]، يريد طعامًا أو مساعدة ومكان للنوم، فمثل هذا يجب الوقوف معه ومساعدته.

ثم خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ وقد فسّر المؤلفُ المختال بأنه ذو الخيلاء والكبر، فما مناسبةُ هذا الختام للآية؟ ولماذا لم تُختم بصفة أخرى كالعزة والحكمة مثلاً؟ السبب هو أن المذكورين في الآية -من الوالدين والأقارب والجيران والرفقاء وابن السبيل- كثيرٌ منهم في موضع ضعف وحاجة، فناسب التحذير من التكبر والخيلاء عليهم، والأمر بالتواضع لهم، ولذلك قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

ثمّ قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المراد بالذرة كما ذكر المؤلف أنها أصغر النمل، ونُقِل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها النملة الحمراء الصغيرة، ويرى بعض المفسرين أن المراد بالذرة والتي تجمع على ذرّات وليست تجمع على ذرّ، فالذرات هي: الهباء الدقيق الذي يُرى في شعاع الشمس الداخل من النافذة، ويحتمل المعنيان، والله أعلم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾، هناك قراءة ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ بالألف و ﴿يُضَعِّفْهَا﴾ بتشديد العين، فذكر المؤلف أن ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ تعني المضاعفة مراتٍ كثيرة، أما ﴿يُضَعِّفْهَا﴾ بالتشديد فتعني المضاعفة مرةً واحدة.

قوله تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي يتمنى الذين كفروا أن يُسوَّوا بالأرض، فيصيرون ترابًا مثلها. وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ هذا يكون حين تُسأل جوارحهم فتشهد عليهم بما كانوا يفعلون، فلا يستطيعون الكتمان، وقد يُشكل هذا مع قولهم في موضع آخر: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، حيث كتموا شركهم، والجمع بينهما أن يوم القيامة له مواطن وأحوال مختلفة؛ ففي موطنٍ يكتمون بألسنتهم، وفي موطنٍ تُنطَقُ جوارحهم فلا يستطيعون الكتمان.

ثم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ المراد -كما ذكر المؤلف- النهي عن قربان مواضع الصلاة (المساجد) للجُنُب، إلا على سبيل الاجتياز والمرور دون مُكثٍ، فلا يجوز للجنب المكث في المسجد. وعليه، فالمعتكف إذا أصابته جنابة -كأن يحتلم وهو نائم- فعليه المبادرة بالخروج من المسجد للاغتسال، ولا يجوز له البقاء فيه على جنابته، وإن لم يجد ماءً فيتيمم، وإن وجد ماءً لا يكفي للاغتسال فيتوضأ؛ لأن الوضوء يخفف الجنابة، وقد فُعِل هذا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم حيث كانوا يتوضؤون أحيانًا وهم جُنُب لدخول المسجد وسماع حديث النبي ﷺ، فالوضوء يخفف الجنابة.

ثم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ الغائط كناية عن الحدث (قضاء الحاجة)، وأصله المكان المنخفض من الأرض الذي كانوا يقصدونه لقضاء الحاجة بعيدًا عن الأعين، وقوله جل جلاله: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أي: اقصدوا وتعمَّدوا، ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هو وجه الأرض الطاهر، كالتراب النظيف الطاهر.

٤٤- ﴿نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي حظا.

٤٦- ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وعلى آله: اسمع لا سَمِعْت.

﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أراد أنهم يحرفون "راعنا" من طريق المراعاة والانتظار إلى السب بالرعونة. وقد بينت هذا في "المشكل".

﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ أي: لو قالوا: اسمع وانظرنا. أي لو قالوا: اسمع ولم يقولوا: لا سمعت وقالوا: انظرنا - أي انتظرنا - مكان راعنا. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ والعرب تقول: نظرتك وانتظرتك بمعنى واحد.

٤٧- ﴿نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: نمحو ما فيها من عينين وأنف وحاجب وفم.

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ أي: نصيرها كَأَقْفَائِهِمْ.

٥١- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ ألم تُخْبَر. ويكون أما ترى أما تعلم وقد بينا ذلك في كتاب "المشكل".

﴿بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ كل معبود من حجر أو صورة أو شيطان فهو جبت وطاغوت.

ويقال إنهما في هذه السورة رجلان من اليهود يقال لأحدهما: حُيَيّ بن أخطب وللثاني كعب بن الأشرف.

وإيمانهم بهما تصديقهم لهما وطاعتهم إياهما.

وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ يعني الشيطان.

٥٣- (النَّقِيرُ) النقطة التي في ظهر النواة. يقول: لا يعطون الناس شيئا ولا مقدار تلك النقطة.

(وَالفَتِيلُ) القشرة في بطن النواة. ويقال: هو ما فتلته بإصبعيك من وسخ اليد وعرقها.

(القِطْمِيرُ) الفُوفَة التي تكون فيها النواة. ويقال: الذي بين قمع الرطبة والنواة.

٥٤- ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بالناس: النبي صلى الله عليه وسلمُ على كل ما أحلَّ الله له من النساء.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ يعني داود النبي عليه السلامُ وكانت له مائة امرأة؛ وسليمان وكانت له تسعمائة امرأة وثلثمائة سرية.

٥٩- ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني الأمراء الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث بهم على الجيوش.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ بأن تردوه إلى كتابه العزيز، (وردوه إلى الرَّسُولِ) بأن تردوه إلى سنته.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ أي وأحسن عاقبة.

٦٥- ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما اختلفوا فيه.

﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: شكا ولا ضيقا من قضائك. وأصل الحرج: الضيق.

٦٦- ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: فرضنا عليهم وأوجبنا.

٧١- ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات. واحدتها ثُبَةٌ. يريد جماعة بعد جماعة.

﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: بأجمعكم جملة واحدة.

الشرح

نتنقل إلى مواضع أخرى؛ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى الذين أُعطوا حظًّا يسيرًا من العلم، ولذلك قال ﴿أُوتُوا نَصِيبًا﴾ ولم يقل "آتيناهم الكتاب"، للإشارة إلى قلة ما حصلوا عليه من علم الكتاب بحق. هؤلاء ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۝ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ...﴾، فقولهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ هذا من قول اليهود للنبي ﷺ، وهو دعاءٌ عليه، بمعنى: اسمعْ حال كونِكَ غيرَ مسموعٍ لما تُحبّ، أو اسمعْ لا سَمِعْتَ! وهو يُقصد به الإهانة والدعاء عليه بالصمم أو بعدم الاستجابة.

وكذلك قولهم: ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، فكلمة ﴿رَاعِنَا﴾ تحتمل معنى حسنًا وهو طلب المراعاة والانتظار، وتحتمل معنى سيئًا مشتقًا من "الرُّعونة" وهي الحمق والخفة والغباء، وكان اليهود يستخدمونها مع النبي ﷺ ويلوون بها ألسنتهم قاصدين المعنى السيئ سخريةً واستهزاءً، ولذلك نُهي المؤمنون عن استعمالها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: 104]، لأن راعنا تحتمل المعنيين، واليهود كانوا يأتون للنبي ﷺ ويقولون: "يا محمد راعنا" ويضحكون، فالصحابة كانوا يقولونها بقصد المعنى الحسن "راعنا" أي انظرنا، فلما سمع الله استهزاء اليهود أُمِرَ الصحابة رضي الله عنهم بلفظ

﴿انظُرْنَا﴾ الذي لا يحتمل إلا المعنى الحسن، ومعناها: انتظرنا أو أمْهِلنا، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ هذا وعيدٌ وتهديدٌ لهم بأن يُمحى أثرُ الوجه من عين وأنف وفم، فتصبح كالقفا ملساء، أو أن تُجعل الوجوهُ ناحيةَ القفا، أو أن يكون الطمس باللعنة والمسخ ﴿كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ فمُسخوا قردة وخنازير، وقد ذكر المؤلف هنا معنى ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي نصيرها على أقفائها.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ الجبت والطاغوت يطلقان على كل ما يُعبد من دون الله، أو يُطاع في معصية الله، كالأصنام والسحر والشيطان والكهان، وذكر المؤلف أنه قد يُراد بهما هنا حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وهما من زعماء اليهود الذين ذهبوا إلى مشركي مكة يُحرِّضونهم على قتال النبي ﷺ، وفضَّلوا المشركين وعبادتهم على المؤمنين وتوحيدهم لمّا سألهم المشركون: أيُّ الفريقين أهدى سبيلًا؟ إذ كانوا هم أهل السقاية وأهل الرفادة ومن يعمر البيت ويخدم الحجاج والمعتمرين، فادعوا أنهم هم من يجمع الناس وليس محمد ﷺ الذي شتتهم وفرّق الجماعة، فقالوا للمشركين: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ثم ذكر المؤلف تفسير ﴿نَقِيرًا﴾ وأنها النقطة في ظهر النواة، و﴿الْفَتِيلِ﴾ وأنه الخيط في شق النواة، و﴿قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13] وأنه القشرة الرقيقة الملفوفة على النواة، وهذه كلها أشياء حقيرة جدًا تُضرب بها الأمثال في القلة والحقارة، والمعنى: أن هؤلاء اليهود لو كان لهم نصيب من الملك، لما أعطوا الناس شيئًا ولو كان بهذا المقدار الضئيل لشدة بخلهم وحرصهم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ ذكر المؤلف أن المراد بـ "الناس" هنا هو النبيُّ ﷺ، وأنهم حسدوه على ما آتاه الله من

النبوة والفضل، ومن ذلك ما أحلَّ الله له من النساء، والرد عليهم جاء في قوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾، وفيه إشارة إلى أن التعدد كان موجودًا لدى أنبياء بني إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام وبشكل أوسع، فلا وجه لاعتراضهم على النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، يُلاحظ أنه كُرِّر فعل الأمر ﴿أَطِيعُوا﴾ مع الله ومع الرسول، ولم يُكرَّر مع ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن طاعة أولي الأمر ليست مستقلة، بل هي تابعة ومقيدة بطاعة الله ورسوله ﷺ؛ فيُطاعون في المعروف وما لا معصية فيه، و﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ هم -على أرجح الأقوال- يشملون العلماء والأمراء، فالعلماء هم أولو الأمر في بيان الشرع، والأمراء هم أولو الأمر في تنفيذ أحكام الشرع وسياسة الناس، ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، "شجر" أي: فيما اختلفوا فيه وتنازعوا، وأصل الشَّجْر: التداخل والتشابك، ومنه الشجرة لتشابك أغصانها، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: ضيقًا أو شكًّا مما حكمت به، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: ينقادوا لحكمك انقيادًا تامًّا ظاهرًا وباطنًا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي اخرجوا للجهاد جماعات متفرقة، سرية بعد سرية، ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين كلكم مرة واحدة.

٧٥- ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: وفي المستضعفين بمكة. و (البُرُوجُ) الحصون و (المُشَيَّدَةُ) المُطَوَّلَةُ.

٧٨- ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: خصب.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: قحط.

﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: بشؤمك. ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾

٧٩- ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: من نعمة.

﴿فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ أي: بلية.

﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أي: بذنوبك. الخطاب للنبي والمراد غيره.

٨٠- ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: محاسبا.

٨١- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ بحضرتك.

﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: قالوا وقدَّروا ليلا غير ما أعْطَوْك نهارا. قال الشاعر:

أَتَوْنِي فَلَمْ أرْضَ ما بَيَّتُوا *** وكانوا أتوني بشيء نُكُرْ

والعرب تقول: هذا أمر قُدِّرَ بليل وفرغ منه بليل. ومنه قول الحارث بن حِلِّزَة:

أَجْمَعُوا أمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا *** أصْبَحُوا أصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

وقال بعضهم: بَيَّتَ طائفة: أي بدَّل وأنشد:

وَبَيَّتَ قَوْلي عبد الملي *** ك قَاتَلَكَ اللهُ عَبْدًا كَفورا

٨٣- ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ أشاعوه.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذوو العلم منهم.

﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ أي: يستخرجونه إلا قليلا.

٨٥- ﴿شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ من الثواب.

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أي: نصيب. ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي: مُقْتدِرًا أقات على الشيء: اقتدر عليه. قال الشاعر:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ❊❊❊ وَكُنْتُ على إسَاءَتِهِ مُقِيتًا

والمُقِيت أيضا: الشاهد للشيء الحافظ له. قال الشاعر:

أَلِيَ الفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إذا حُو ❊❊❊ سِبْتُ إنِّي على الحساب مُقِيتُ

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ العطف هنا يقتضي أن القتال مطلوب لأمرين: في سبيل الله (لإعلاء كلمته)، وفي سبيل المستضعفين (لإنقاذهم)، فـ ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على لفظ الجلالة المجرور بـ "في"، أو منصوب بفعل محذوف تقديره: "وتخليص المستضعفين"، أي ما لكم لا تقاتلون نصرة في سبيل الله ونصرة للمستضعفين.

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي في حصون عالية منيعة وقصور، "المشيدة": المطولة المرفوعة.

ثم بيّن الله تعالى موقف المنافقين وضعاف الإيمان: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ كالخصب والنصر ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كالقحط والهزيمة ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أي بسببك يا محمد وبشؤم اتباعك، فردّ الله عليهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي كلٌّ من الحسنة والسيئة بتقدير الله وقضائه، ثم فرّق بينهما في الآية التالية من حيث المصدر والسبب: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: ما أصابك من نعمة فمن الله تفضُّلًا وإحسانًا منه، وما أصابك من بلية ومصيبة فمن نفسك أي بسبب ذنوبك ومعاصيك، وإن كان كل ذلك يقع بتقدير الله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي لست موكَّلًا بحفظ أعمالهم ومحاسبتهم عليها، إنما عليك البلاغ، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي يُظهر المنافقون الطاعة والانقياد بحضرة النبي ﷺ، ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ﴾ أي خرجوا وانصرفوا، ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ والتبييت: تدبير

الأمر ليلًا، فمعنى الآية أي: دبَّروا وقَدَّروا ليلًا خلاف ما أظهروه لك نهارًا من الطاعة، وأضمروا المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أذاعوا أي: أشاعوا، أي إذا وصلهم خبر يتعلق بأمن المسلمين أو الخوف عليهم، سارعوا بإشاعته ونشره دون تثبّت أو معرفة بمصلحة ذلك. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي إلى العقلاء منهم وأهل العلم والرأي والخبرة منهم، ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ لعلم حقيقته ومآلاته أهلُ الاستنباط والفهم الدقيق الذين يستخرجون معناه الحقيقي ودلالاته وما يترتب عليه من المصلحة أو المفسدة.

قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ وهي الشفاعة في الخير والمعروف، فيكون له نصيب من أجرها وثوابها، ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ وهي الشفاعة في الشر والباطل، فيكون له نصيب من وزرها وعقابها، والكِفْل هو النصيب، ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ اختلف في معنى "المقيت" هنا؛ فذكر المؤلف أنه بمعنى المقتدر، وقيل أيضًا: الحفيظ، والشهيد، والقائم على كل شيء بالتدبير، وموصل الأقوات، وهذه المعاني مترابطة؛ فالله هو الحافظ لكل شيء، المقتدر عليه، القائم بتدبيره، وهو الذي يوصل القوت (الرزق من الطعام) إلى مخلوقاته، فالاسم يجمع معاني القدرة والحفظ والرعاية والرزق.

٨٨- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ أي فرقتين مختلفتين.

﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ أي نكّسهم وردَّهم في كفرهم.

وهي في قراءة عبد الله بن مسعود: "رَكَّسَهُمْ" وهما لغتان: رَكَسْتُ الشيء وأرْكَسْتُه.

٩٠- ﴿إِلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ﴾ أي يتصلون بقوم.

﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: عهد. ويتصلون ينتسبون، وقال الأعشى - وذكر امرأة سُبِيَتْ:

إِذَا اتَّصَلَتْ قَالَتْ: أَبَكْرَ بنَ وَائِلٍ ❊❊❊ وَبَكْرٌ سَبَتْهَا والأنُوفُ رَوَاغِمُ

أي انتسبت. وفي الحديث "من اتصل فَأَعِضُّوه" يريد من ادّعى دَعْوى الجاهلية.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي ضاقت. والحَصر: الضيق.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: المَقَادَة. يريد استسلموا لكم.

٩١- ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء منافقون يعطون المسلمين الرضا ليأمنوهم ويعطون قومهم الرضا ليأمنوهم.

٩٢- ﴿إِلا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ أي يتصدقوا عليهم بالدِّية فأدغمت التاء في الصاد.

٩٥- ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ أي: الزَّمانَة. يقال: ضرِير بَيِّن الضّرر.

١٠٠- (المُرَاغَمُ) و (المُهَاجَرُ) واحد. تقول: راغمت وهاجرت [قومي] وأصله: أن الرجلَ كان إذا أسلم خرج عن قومه مُرَاغِمًا لهم. أي مُغَاضِبًا، ومهاجرا. أي مقاطعا من الهجران. فقيل للمذهب: مراغم، وللمصير إلى النبي صلى الله عليه وسلم: هجرة - لأنها كانت بهجرة الرجل قومه.

عَزِيزُ المَرَاغَمِ وَالمَذهَبِ

١٠٣- ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: من السفر والخوف.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي: أتموها.

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أي مُوَقَّتًا. يقال: وقَّتَه الله عليهم وَوَقَتَهُ أي جعله لأَوْقَات، ومنه: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ و (وُقِتَتْ) أيضا مخففة.

الشرح

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾، قال المؤلف: أي فرقتين مختلفتين، وكلمة ﴿فِئَتَيْنِ﴾ منصوبةٌ على الحال، فالمعنى: ما لكم أيها المؤمنون حالَ كونكم منقسمين إلى فرقتين بشأن المنافقين؟ لِمَ هذا الاختلاف في شأنهم، ونفاقهم وكفرهم واضحٌ بيّن؟ فكيف تختلفون فيهم، فيرى بعضكم أنهم مؤمنون، ويرى آخرون أنهم كفار؟ والحقُّ أن المنافق كافرٌ خارجٌ عن الإسلام؛ لأنه يُبطن الكفر ويُظهر الإيمان، فالسؤال استنكاري: لماذا يقع منكم هذا الاختلاف؟ ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾، وقد فسرها المؤلف بقوله: أي نكّسهم وردهم في كفرهم، فهم كفار.

ويشير المؤلف إلى قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وهو المراد عند إطلاق "عبد الله" في كتب القراءات والتفسير غالبًا)، ففي قراءته: (رَكَّسَهم)، ويوضّح المؤلف أن (أَرْكَسَ) و (رَكَّسَ) لغتان بمعنى واحد، كالفعل (وصّى) و (أوصى)، وكلاهما من الأفعال التي وردت بها قراءات متواترة، ومعنى (أركسهم) أو (ركسهم) كما ذكر المؤلف: نكّسهم وقلَبَهم وردهم إلى الكفر، فـ(رَكَسَه) أي قلبه ونكسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: 65] أي: قُلِبوا ورُدُّوا إلى حالهم الأول.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، يوضّح المؤلف معنى ﴿يَصِلُونَ﴾ بأنهم ينتسبون ويتصلون بقومٍ بينكم وبينهم ميثاق وعهد، وهؤلاء مستثنون من القتال، فلا يُعتدى عليهم؛ لوجود هذا العهد الذي يربطهم بقوم معاهَدين، ومثال ذلك العهد الذي كان بين المسلمين وقريش، والذي تضمّن عدم اعتداء أيٍّ من الطرفين على حلفاء الطرف الآخر وأي فرد منه، وكان سبب نقض قريش للعهد هو اعتداؤها على قبيلة خزاعة التي كانت في عهد النبي ﷺ وحلفه، فعندئذٍ عُلِم نقضُ العهد، فالمقصود بالآية: استثناءُ مَن له صلةٌ بقومٍ معاهَدين، فلا يُتعرَّض له، وقد استشهد المؤلف ببيت الأعشى لإثبات أن (اتصلت) تأتي بمعنى (انتسبت)، حيث قال الشاعر عن امرأة: (إذا اتصلتْ قالت...) أي: إذا انتسبتْ وفَخَرتْ بنسبها.

أما الحديث الذي أشار إليه المؤلف "من اتصل..." هو «فيبدو أنه يشير إلى حديث: مَن تَعَزَّى بعَزَاءِ الجاهليةِ، فأَعِضُّوه بهَنِ أبيهِ ولا تَكْنُوا» [رواه أحمد والنسائي وغيرهما وصححه الألباني]. ومعناه: من افتخر

بآبائه وأجداده على طريقة الجاهلية، فازجروه بكلام صريح يُذكِّره بقبح فعله دون تورية، وربما قصد المؤلف ربط معنى الانتساب بالحديث، لكن لفظ الحديث (تعزى) أي انتسب وافتخر انتساب الجاهلية، وهذا الموضع يحتاج لمراجعة لتحديد مراد المؤلف بدقة.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي ضاقت، فالحَصَر هو الضيق. وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ فسره المؤلف بـ (المقادة)، أي الانقياد والاستسلام، و(السَّلَم) بفتح السين واللام، و(السِّلْم) بكسر السين وسكون اللام، و(السلام)، كلها تأتي بمعنى الاستسلام والمصالحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، فالمراد أنهم أظهروا لكم الاستسلام والانقياد.

ثم ذكر تعالى صنفًا آخر: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾، يصف المؤلف هؤلاء بأنهم منافقون يسلكون طريقين متضادين: يُظهرون للمسلمين ما يُرضيهم ليأمنوا جانبهم، ويُظهرون لقومهم الكفار ما يُرضيهم ليأمنوا جانبهم أيضًا.

وفي قوله تعالى في سياق دية القتل الخطأ: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾، أصل ﴿يَصَّدَّقُوا﴾ هو (يَتَصَدَّقُوا)، ومعناه: أن يتنازل أولياء المقتول عن الدية ويتصدقوا بها ويعفوا عنها، وهذا الإدغام (إدغام التاء في الصاد فتصير صاد مشددة) جائزٌ لغةً ومستعمل في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ [الحديد: 18]، فأصلها: المتصدقين والمتصدقات.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ كلمة (غَيْر) فيها قراءات؛ فقراءة الجمهور بالنصب على الاستثناء أو الحال، وقُرئت بالرفع على أنها نعت لـ﴿الْقَاعِدُونَ﴾، وبالجر على أنها نعت لـ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، فتُقرأ بالفتح والضم والكسر، وكلها قراءات متواترة صحيحة، والمقصود بـ﴿أُولِي الضَّرَرِ﴾ كما ذكر المؤلف: أهلُ الزَّمانة، أي مَن به مرضٌ مزمن أو عاهةٌ تمنعه من الجهاد، كالأعمى والأعرج والمريض مرضًا مقعدًا، فهؤلاء معذورون ومرفوعٌ عنهم الحرج والجهاد، وقد ورد أن هذه الآية نزلت بسبب عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ضريرًا (أعمى)، فلما نزلت الآية أولًا بدون الاستثناء: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، شقَّ ذلك على أهل الأعذار، فقال ابن أم مكتوم: يا رسول الله، كيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ فأنزل الله تعالى الاستثناء: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾، وقد جاء في حديث زيد بن ثابت

رضي الله عنه في صحيح البخاري أنه كان يكتب للنبي ﷺ هذه الآية، فلما جاء ابن أم مكتوم وشكا حاله، أُنزِل الوحي على النبي ﷺ وفخِذُه على فخِذ زيد، حتى قال زيد: «كادت تَرُضُّ فخذي من ثِقَلِ الوحي»، ثم أُمر زيد أن يكتب ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾. قال زيد: «فكأنِّي أنظر إلى مَلْحَقِهَا عند صَدْعٍ في الكتف». فالاستثناء نزل لبيان عذر هؤلاء، ومع أن عبد الله بن أم مكتوم كان معذورًا ورفع الله عنه الحرج، إلا أنه شهد معركة القادسية مجاهدًا، دخل بسيفه يقاتل الفُرس واستُشهِد فيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، يوضح المؤلف أن (المُراغَم) و (المُهاجَر) بمعنى متقارب أو واحد في هذا السياق، وأصل (المُراغَم) من الرَّغَم وهو التراب، والمقصود مساحات كبيرة فيهاجر في سبيل الله ولا يجلس في بلاد الكفر يضيّق على نفسه، وفيه معنى المُغاضبة والمفارقة قهرًا للمخالفين، فالمهاجر يُرغِم أنف قومه بمفارقته لهم وهجرته عنهم إلى مكان يجد فيه سعةً ومنعةً لدينه، فالمعنى: يجد أرضًا يهاجر إليها ومخرجًا ومنعةً وسعةً في الرزق، وفي الآية حثٌّ على الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام وعدم البقاء في ضيق تحت تسلط الكافرين، ويقال: رَغِمَ أنفُ فلان، أي لصق بالتراب ذلًا وهوانًا.

ثم قال تعالى بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي إذا زال الخوف، سواء في السفر أو الحضر، فأدُّوا الصلاة تامةً بأركانها وشروطها وهيئتها الكاملة، بخلاف صلاة الخوف التي يُغتفر فيها بعض الإخلال والنقص للضرورة، فقد قال تعالى في صلاة الخوف ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ ولم يقل سبحانه "فليقيموا الصلاة" لأن فيها خلل ونقص، أما بعد الاطمئنان قال جل جلاله: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فإقامة الصلاة أي: تمامها بأركانها وواجباتها كلها، ثم بيّن فرضيتها وتوقيتها بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ فسر المؤلف ﴿مَّوْقُوتًا﴾ بأنه مُؤَقَّتٌ، أي مفروضٌ في أوقات محددة، لا يجوز تقديمها عنها ولا تأخيرها إلا لعذر شرعي، فلكل صلاة وقتٌ معلومٌ يبدأ وينتهي، كوقت المغرب الذي يبدأ بغروب الشمس، ووقت الظهر الذي يبدأ بزوال الشمس عن كبد السماء وميلها جهة الغرب وظهور ظل الأشياء بعد تناهي قصره.

١٠٤ - ﴿وَلا تَهِنُوا﴾ لا تضعفوا.

﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي في طلبهم.

١١٢ - ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ أي يقذف بما جناه بريئًا منه.

١١٧ - ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا﴾ يعني اللات والعُزَّى ومَنَاةَ.

﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي: مَارِدًا. مثل قدِير وقادر والمَارِد: العَاتِي.

١١٨ - ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي حظا افترضته لنفسي منهم فأُضِلّهم.

١١٩ - ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ أي يقطعونها ويشقّونها. يقال: بَتَكَهُ إذا فَعَل ذلك به.

﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يقال: دين الله. ويقال: يغيرون خَلْقَه بالخِصَاء وقطع الآذان وفَقْءِ العيون. وأشباه ذلك.

١٢٨ - ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي: عنها.

﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا﴾ أي يتصالحا. هذا في قسمة الأيام بينها وبين أزواجه فترضى منه بأقل من حظِّها.

١٣٥ - ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ من اللَّيّ في الشهادة والميل إلى أحد الخصمين.

١٤١ - ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ نَغْلِبْ عليكُم.

١٤٨ - ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلا مَنْ ظُلِمَ﴾ يقال: مُنِعَ الضِّيَافَةَ.

١٥٤ - ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ كل من أرسل إليه رسول فاستجاب له وأقر به فقد أخذ منه الميثاق.

١٥٧ - ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يعني العلم أي: ما قتلوا العلم به يقينا. تقول: قَتَلْتُهُ يَقِينًا وقتلته علمًا للرأي والحديث.

١٥٩ - ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يريد: ليس من أهل الكتاب في آخر الزمان عند نزوله - أحد إلا آمَنَ به حتى تكون المِلَّة واحدة، ثم يموت عيسى بعد ذلك.

١٧١ - ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي لا تفرطوا فيه. يقال: دين الله بين المُقَصِّر والغالي. وغَلا في القول: إذا جاوز المِقْدَار.

١٧٢ - ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي: لن يَأْنَف.

١٧٦ - ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: لئلا تضلوا. وقد بينت هذا وما أشبهه في كتاب "تأويل المشكل".

الشرح

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ الوَهَن: الضعف. أي: لا تضعفوا في طلب العدو ومتابعته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ الرمي هنا بمعنى القذف والاتهام، أي: يرتكب الخطيئة ثم يتهم بها شخصًا بريئًا منها، فيُلصق جريمته بغيره، وهذه الآية لها سبب نزول وقصة معروفة في كتب التفسير، لكن المؤلف هنا يركز على بيان معنى المفردة الغريبة (يرمي) ولا يتطرق للتفسير التفصيلي؛ لأن كتابه مختص بغريب القرآن.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ المراد بالإناث هنا -كما ذكر المؤلف- الأصنام التي كان يعبدها المشركون، وقد سموها بأسماء مؤنثة كاللات والعزى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ [النجم: 23]، ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ الشيطان المريد هو المتمرد العاتي المتجرد من كل خير، أي: سلب الخير كله؛ لا خير فيه. ويقال: غلامٌ أمرد، أي: ليس على وجهه شعر، فالمعنى فيه تجرد وخلو، فالشيطان المريد هو الذي خلا وتجرد من كل خير.

قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي حظًا مقدَّرًا معلومًا افترضه الشيطان لنفسه من عباد الله ليغويهم.

ثم قال إبليس: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ التبتيك هو القطع والشق، وهذا إشارة إلى ما كان يفعله أهل الجاهلية ببعض الأنعام من شق آذانها وتحريم الانتفاع بها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكل ذلك من وحي الشيطان وتزيينه لهم.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ ذكر المؤلف في تفسير تغيير خلق الله قولين: الأول: أنه تغيير دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها. والثاني: أنه تغيير الخِلْقة الحسيّة، كالخِصاء، وتقطيع الآذان، وفقء العيون،

ونحو ذلك مما كانوا يفعلونه بالبهائم أو بالناس، ويدخل في هذا المعنى -عند بعض العلماء- تغييرُ هيئة الإنسان بما يخالف الخلقة الأصلية لغير حاجة أو ضرورة، كالنمص (نتف شعر الحاجبين)، والوشم، والتفليج (برد الأسنان)، ونحو ذلك مما ورد النهي عنه، وقد جاء في الحديث: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله» [متفق عليه]، ويندرج تحتها الآن ما يسمى بعمليات التجميل ونحوها، أما تغيير الخلقة لإزالة عيب طارئ أو تشوه بسبب حادث ونحوه، فلا يدخل في التحريم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ وفي قراءة: (يَصَّالَحَا)، والمعنى واحد: أن يتصالح الزوجان، وغالبًا ما يكون هذا الصلح بأن تتنازل الزوجة عن بعض حقها في النفقة أو المبيت مقابل البقاء في عصمة زوجها وعدم فراقه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُوا﴾ من اللَّيّ، وهو التحريف والميل في الشهادة وعدم الإدلاء بها على وجهها الصحيح، ميلًا مع أحد الخصمين. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نغلبكم ونتسلط عليكم.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ الأصل أن الله لا يحب إعلان القول السيء، لكنه استثنى المظلوم، فيجوز له أن يجهر بالسوء في حق ظالمه؛ كأن يدعو عليه أو يشتكيه ويذكر ظلمه، وضرب المؤلف لذلك مثالًا بمن مُنع حق الضيافة، فيجوز له أن يذكر ذلك ويشتكي.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الميثاق هو العهد المؤكد، ووصفه بالغلظة لشدته وتأكيده، وقد أخذ الله المواثيق على الأنبياء وعلى أممهم بالإيمان والاتباع.

قوله تعالى عن اليهود في شأن قتل عيسى عليه السلام: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: ليس لهم علمٌ حقيقي بقتله، وإنما يتبعون الظن والتخرص، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: ما تحققوا من قتله، أو لم يقع قتله على وجه اليقين، أو كما فسره المؤلف بشكل قد يُستغرب: ما قتلوا العلم به يقينًا، أي لم

يحصل لهم العلم اليقيني بقتله. والمعنى الراجح هو نفيُ وقوع القتل لعيسى على وجه اليقين. ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ يحتمل عوده على عيسى عليه السلام، أو على الكتابي، وقد رجح المؤلف -تبعًا لقول كثير من المفسرين- أنه يعود على عيسى، والمعنى: أنه ما من أحد من أهل الكتاب الموجودين في زمن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان إلا وسيؤمن به الإيمان الصحيح قبل أن يموت عليه السلام، وليس كإيمانهم الحالي بأنه الرب أو ابن الله، بل الإيمان الحقيقي الصحيح، ويحتمل أن يعود الضمير على الكتابي، أي: ما من كتابي (يهودي أو نصراني) إلا وسيؤمن بعيسى عند احتضاره ومعاينته للموت، ولكنه إيمان لا ينفعه حينئذ.

قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو هو مجاوزة الحد والإفراط، أي: لا تتجاوزوا الحد في دينكم، سواء في شأن عيسى أو غيره، ودين الله وسط بين الغلو والتقصير، قوله جل جلاله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي: لن يأنف ولن يترفع ولن يتكبر المسيح عليه السلام عن عبادة الله، قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ (أن) هنا بمعنى (لئلا) أو (كراهة أن)، أي: يبين الله لكم الأحكام كراهةَ أن تضلوا، أو لئلا تضلوا عن الحق.

سورة المائدة

١ - ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أي بالعهود. يقال: عَقَد لي عقدًا أي جعل لي عهدا؛ قال الحُطَيْئَةُ:

قَوْمٌ إذا عَقَدُوا عَقْدًا لِجَارِهِمُ *** شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فَوقَه الكَرَبَا

ويقال: هي الفرائض التي أُلْزِمُوها.

﴿بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم والوحوش كلها.

﴿إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ مما حُرِّم.

﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ واحدهم حرام. والحَرَام والمُحَرَّمُ سواء.

ثم تلا ما حرم عليهم وهو الذي استثناه فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾.

٢- وكذا ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ ما جعله عَلَمًا لطاعته. واحدها شَعِيرة مثل الحرم. يقول: لا تحلّوه فتصطادوا فيه، وأشباه ذلك.

﴿وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ فتقاتلوا فيه.

﴿وَلا الْهَدْيَ﴾ وهو ما أُهْدِي إلى البيت. وهو من الشَّعَائِر. وإِشْعَارُه أن يُقلَّد ويُجَلَّل ويطعن في سَنامه ليعلم بذلك أنه هَدْيٌ. يقول: فلا تستحلوه قبل أن يبلغ محلّه.

﴿وَلا الْقَلائِدَ﴾ وكان الرجل يقلِّد بعيره من لِحَاء شجرِ الحرم فيأمن بذلك حيث سلَك.

﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ يعني العَامِدِين إلى البيت. واحدهم آمٌّ.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي يريدون فضلا من الله، أي رزقًا بالتجارة.

﴿وَرِضْوَانًا﴾ بالحج.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ أي خرجتم من إحرامكم.

﴿فَاصْطَادُوا﴾ على الإباحة.

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يكسبنكم. يقال: فلان جارم أهله: أي كاسبهم. وكذلك جَرِيمَتُهُمْ وقال الهُذَلِيّ ووصف عقابا:

جَرِيمَة نَاهِضٍ فِي رأْسِ نِيقٍ *** تَرَى لِعِظَامِ ما جَمَعَتْ صَلِيبَا

والناهض: فرخها. يقول هي تكسب له وتأتيه بِقُوتِه.

﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي: بغضهم يقال: شنأته أشنأه: إذا أبغضته.

يقول: لا يحلمنكم بغض قوم نازلين بالحرم على أن تعتدوا فتستحلوا حُرْمَةَ الحَرَمِ.

٣- ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي ذبح لغير اللَّهِ وذكر عند ذبحه غيرُ اسم الله. واسْتِهْلالُ الصَّبِيِّ منهُ أي صوته. وإِهْلالُ الحج منهُ أي التَّكَلُّم بإيجابه والتلبية.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي تَخْتَنِق.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ التي تضرَب حتى تُوقَذُ أي تُشْرِف على الموت. ثم تترك حتى تموت وتؤكل بغير ذكاة. ومنه يقال: فلان وَقِيذٌ. وَقَذَتْه العبادة.

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ الواقعة من جبل أو حائط أو في بئر. يقال: تردَّى: إذا سقط. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ أي تردَّى في النار.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي تنطحها شاة أخرى أو بقرة. فعيلة بمعنى مَفْعُولة.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي افْتَرَسَهُ فأكل بعضَه.

﴿إِلا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما لحقتم من هذا كلِّه وبه حياة فذبحتموه.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ وهو حجر أو صنم منصوب كانوا يذبحون عنده يقال له: النُّصُب والنُّصْب والنَّصْب. وجمعه أنْصاب.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ﴾ وهي القِدَاح. واحدها: زَلَم وزُلَم. والاستقسام بها: أن يضرَب بها ثم يعمل بما يخرج فيها من أمر أو نهى. وكانوا إذا أرادوا أن يقتسموا شيئا بينهم وأحبوا أن يعرفوا قسم كلِّ امرئ تَعَرَّفُوا ذلك منها. فأخذ الاستقسام من القسم وهو النَّصيب. كأنه طلب النصيب.

و (المَخْمَصَةُ): المجاعة. والخَمْصُ الجوع. قال الشاعر يذم رجلا:

يَرَى الخَمْصَ تَعْذِيبًا وَإِنْ يَلْقَ شَبْعَةً ... يَبِتْ قَلْبُهُ من قِلَّة الهَمِّ مُبْهَمَا

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾ أي منحرف مائل إلى ذلك. والجَنَفُ: الميل. والإثم: أن يتعَدى عند الاضطرار فيأكل فوق الشّبع.

٤- ﴿الْجَوَارِحِ﴾ كلاب الصيد. وأصل الاجتراح: الاكتساب. يُقال: امرأة لا جارح لها، أي: لا كاسب. ويقال ما اجترحتم: أي ما اكتسبتم.

﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أصحاب كلاب.

الشَّرحُ

هذه السورة هي سورة المائدة، وتسمى أيضًا بسورة العقود؛ لاشتمالها على ذكر العديد من العقود والعهود، سواء التي بين الله وعباده أو التي بين العباد بعضهم مع بعض، وتُعد سورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، ولذلك يقلّ فيها النسخ، وهي تشتمل على كثير من الأحكام التي يحتاجها المسلم، خاصة فيما يتعلق بالطعام والشراب والذبائح ونحوها، مما أباحه الله أو حرّمه.

وسميت بسورة المائدة لأحد سببين رئيسين:

الأول: لذكر قصة مائدة بني إسرائيل التي طلبوها من عيسى عليه السلام في أواخر السورة: ﴿رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 114].

والثاني -وقيل أيضًا-: لاشتمالها على ذكر الكثير مما يُحتاج إليه للمائدة من الأطعمة والأشربة المباحة والمحرمة، فقد فصّلت السورة في ذكر الأطعمة والذبائح المحرمة والمباحة، وكذلك الأشربة كتحريم الخمر.

مسألة أسماء السور: هل هي توقيفية من الله ورسوله، أم اجتهادية من الصحابة؟ الراجح أن أغلب الأسماء المشهورة توقيفية، وما زاد على الاسم المشهور قد يكون اجتهاديًا أو وصفيًا، فالسورة قد يكون لها أكثر من اسم، فالأصل أن الوحي هو الذي سمى السور بأسمائها المعروفة، فسورة البقرة سميت بذلك بنص حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «اقرءوا سورة البقرة...» [رواه مسلم]، أما تسميتها بـ "فسطاط القرآن" فهذا قد يكون وصفًا لها أو اسمًا اجتهاديًا من الصحابة.

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ فسرها المؤلف بالعهود، وهي تشمل العهود التي بين العبد وربه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، والعهود التي بين الخلق فيما بينهم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾، ما المراد بـ ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾؟ ذكر المؤلف أنها الإبل والبقر والغنم، وكذلك يدخل فيها الصيود المباحة وكل الوحوش التي يجوز أكلها، ويتضح من سياق الآية أنها تشمل أيضًا الصيد المباح من غير هذه الثلاثة كبقر الوحش والظباء والغزلان؛ وذلك لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فاستثناء الصيد في حال الإحرام يدل على أنه داخل في عموم ما أُحلَّ في الأصل، وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إلا ما سيأتي تفصيل تحريمه عليكم، وهو المذكور في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...﴾، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ تنبيه على أن إباحة بهيمة الأنعام والصيد مقيدة بعدم استحلال الصيد في حال الإحرام أو في منطقة الحرم

المكي، فالصيد محرم على المُحرِم إطلاقًا، كما أنه محرم في حدود الحرم، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 95].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ الشعائر جمع شعيرة، وهي الأعلام والمعالم التي جعلها الله دليلًا على طاعته؛ فيشمل ذلك مناسك الحج والعمرة، والأماكن المعظمة كالحرم ومزدلفة ومنى، فالنهي عن إحلال شعائر الله بمعنى النهي عن انتهاك حرمتها بأي شكل، كالقتال في الأماكن المحرمة أو إيذاء الحجاج والمعتمرين أو التعرض للهدي أو ارتكاب المعاصي فيها.

وقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي لا تستحلوا القتال فيه، وهي الأشهر الحرم الأربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

وقوله ﷻ ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ الهدي هي ما يُهدى إلى البيت الحرام، فالنبي ﷺ أهدى إلى البيت مئة من الإبل، فما يُهدى إلى البيت يساق من الهدي الذي ينحره الحجاج، كانوا يسوقونه معهم من بلادهم، فيتعرض لهم أناس ويسرقونه منهم، وكانوا يُشعرون الهدي، أي يعلِّمونه بعلامة تدل على أنه مهدى للحرم، كأن يقلدوه بشيء أو يجرحوا سنامه ليسيل الدم، فيُعرف أنه هدي إلى الحرم فلا يُتعرض له.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ هي إما الهدايا المقلَّدة نفسها، أو الإشارة إلى تقليد أنفسهم أو دوابهم بلِحاء شجر الحرم أو غيره علامة على توجههم للحج أو العمرة ليأمنوا في طريقهم.

وقوله: ﴿وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: ولا تستحلوا أذى القاصدين للبيت الحرام (آمِّين جمع آمّ، وهو القاصد)، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ فهم يقصدون البيت لطلب الرزق بالتجارة، وطلب رضوان الله بأداء الحج أو العمرة، فلا يجوز التعرض لهم بسوء؛ لأنهم ضيوف الرحمن.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي إذا تحللتم من إحرامكم، فقد أُبيح لكم الصيد خارج الحرم المكي والذي كان محرمًا عليكم بسبب الإحرام ، فالتحريم مؤقت بسبب الإحرام، أما الصيد في حدود الحرم المكي فهو محرم على المحرم وغير المحرم، فلا يجوز صيد طيره، ولا تنفيره، ولا أخذه، ولا قطع شجره أو حشيشه؛ لتعظيم حرمة المكان.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي: لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على الاعتداء عليهم وترك العدل معهم، فالعدل واجب حتى مع الأعداء والمبغضين، وكان أهل الجاهلية يعظمون الحرم حتى إن الرجل ليلقى قاتل أبيه فيه فلا يتعرض له.

ثم فصّل تعالى المحرمات من الأطعمة فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ الإهلال هو رفع الصوت، والمراد هنا ما ذُبح وذُكر عليه اسم غير الله، أو ذُبح تقربًا لغير الله، كأن يقول الذابح: باسم المسيح، أو باسم فلان، فهذا حرام أكله، حتى لو سمى الله وذكر معه غيره، فلا يؤكل إلا مما ذُكر اسم الله وحده عليه عند الذبح.

﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ هي التي تموت بسبب الاختناق، كأن تعلق في حبل أو تدخل رأسها في مكان ضيق فتموت، وهي يُحرم أكلها.

﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ هي التي تُضرب ضربًا شديدًا بعصا أو حجر أو غيره حتى تشرف على الموت ثم تموت من أثر الضرب، ويدخل في حكمها ما يموت بسبب الصعق الكهربائي أو الإغراق في الماء الحار إذا لم يُذَكَّ قبل موته، وهذا يثير قضية اللحوم المستوردة وطرق الذبح في بلاد غير المسلمين، ومدى موافقتها للشريعة، مما يدعو إلى التثبت والاحتياط للدين، خاصة مع وجود بدائل من بلاد المسلمين أو جهات موثوقة تلتزم بالذبح الشرعي، ومع ذلك، لا يمكن الجزم بتحريم كل ما يرد من أهل الكتاب، فالأصل حل ذبائحهم بنص

القرآن ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: 4]، لكن عند قيام الشكوك القوية وغلبة الظن بعدم التذكية الشرعية، فالاحتياط أولى، عملًا بحديثه ﷺ: «الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام» [متفق عليه].

﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ هي التي تسقط من مكان عالٍ كجبل أو سطح أو تقع في بئر فتموت، ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ هي التي تموت بسبب نطح بهيمة أخرى لها، ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي ما افترسه حيوان مفترس كالأسد أو الذئب أو السبع فأكل بعضه ومات بسبب ذلك.

ثم استثنى تعالى من هذه الأنواع فقال: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ وهذا الاستثناء يعود على ما أمكن إدراكه حيًا من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع، فإذا أُدركت هذه البهيمة وفيها حياة مستقرة قبل أن تموت، وذُبحت ذبحًا شرعيًا (ذُكِّيت)؛ حلّ أكلها، أما إذا ماتت قبل التذكية، فهي حرام.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ النُّصُب هي حجارة أو أصنام كانت تُنصب في الجاهلية ويُذبح عندها تقربًا إليها، فالذبائح التي تُذبح على النصب أو لها حرام.

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ الاستقسام بالأزلام هو طلب معرفة قسم ونصيب الإنسان أو طلب معرفة ما يُقدِم عليه أو يُحجم عنه بواسطة قِداح (سهام)، فكانوا يستخدمونها للبهيمة قبل الذبح فيكتبون عليها أنصبة "افعل" أو "لا تفعل" أو "غُفْل"، ثم يضربون بها، فما خرج عملوا به، وهو نوع من الشرك والكهانة وطلب علم الغيب المحرم، أما علاقتها بالذبح والبهائم فقد ذكر المؤلف وجهًا آخر للاستقسام بها يتعلق بقسمة لحم الجزور الذي يشتركون فيه، فيجعلونه أجزاء غير متساوية، ثم يجرون القرعة بالأزلام لمعرفة نصيب كل واحد، وهذا من الميسر المحرم وفيه ظلم واعتداء.

ثم قال تعالى في شأن المضطر: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ المخمصة هي المجاعة الشديدة، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي غير مائل ومنحرف للإثم عمدًا، بأن لا يكون مضطرًا حقيقة، أو بأن يأكل من المحرم فوق قدر الحاجة، بل فقط ما يسد الرمق، فالمضطر يباح له الأكل من هذه المحرمات بقدر ما يدفع عنه الهلاك.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ هذا في بيان ما يصيده الكلب المعلَّم أو الصقر المعلَّم، فالجوارح هي الكواسب من الحيوانات أو الطيور التي تُعلَّم الصيد، و ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ أي معلِّمين لهذه الجوارح، أو أصحاب كلاب تعلمونها الصيد، وما يصطادونه حلال بشروط معروفة في الفقه.

١٢- (النَّقِيبُ): الكَفِيل على القوم والنِّقَابة والنِّكَابة شبيهٌ بالعِرافة.

﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: عظّمتموهم. والتعزير: التعظيم. ويقال: نَصَرْتُمُوهُمْ.

﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي قصد الطريق ووسطه.

١٣- (القاسية) والعاتية والعاسية واحد، وهي اليابسة.

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا نصيبًا مما أُمروا به.

و (الخَائِنَةُ) الخيانة. ويجوز أن يكون صفة للخائن، كما يقال: رجل طاغية وراوية للحديث.

٢١- ﴿الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ دمشق وفلسطين وبعض الأردنّ.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي جعلها لكم وأمركم أن تدخلوها.

٢٦- ﴿فَلا تَأْسَ﴾ أي لا تحزن. يقال: أَسِيتُ على كذا: أي حزنتُ فأنا آسى أسًى.

٢٧- ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أي خبرهما.

و (القُرْبَانُ): ما تقرَّب به إلى الله من ذبح وغيره.

٢٩- ﴿أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: تنقلب وتنصرف بإثمي أي: بقتلي. وإثمك: ما أضْمَرت في نفسك من حسدي وعداوتي.

٣٠- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: شايعته وانقادت له. يقال: طَاعَتْ نَفْسُه بكذا ولساني لا يَطُوع لِكذا. أي: لا ينقاد. ومنه يقال: أتيته طائعا وطوعا وكرها.

ولو كان من أطاع لكان مطيعا وطاعة وإطاعة.

٣٢- ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: يُعَذَّب كما يعذَّب قاتل الناس جميعا.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أُجِرَ في إحيائها كما يؤجر من ﴿أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وإحياؤه إياها: أن يعفو عن الدم إذا وجب له القَوَد.

٣٣- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

٣٥- ﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القُرْبة والزُّلْفَة. يقال: توسل إليَّ بكذا أي تقرّب.

٣٨- ﴿نَكَالا مِنَ اللَّهِ﴾ أي عظة من الله بما عوقبا به لمن رآهما. ومثله قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾.

الشرح

تطرق المؤلف إلى كلمة (النَّقِيبُ) هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ فالنقيب هو الضامن أو الكفيل أو العريف على قومه، يكون مسؤولًا عنهم أو مشرفًا عليهم.

هذا في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن قلوب بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وفي قراءة أخرى (قَسِيَّة)، والمعنى متقارب، أي: صلبة يابسة لا تلين لذكر الله ولا تقبل الحق.

هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ فالخائنة قد تكون مصدرًا بمعنى الخيانة، أو وصفًا للمبالغة، أي جماعة خائنة أو نفس خائنة.

و على لسان موسى عليه السلام لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ والأرض المقدسة هي المطهرة المباركة، وقد اختلف في تحديدها، فقيل: بيت المقدس وما حوله، وقيل تشمل فلسطين، وقيل تمتد لتشمل أجزاء من الشام كما ذكر المؤلف -دمشق والأردن وما حولها-، و"كتب الله لكم" أي: قدَّرها لكم وأمركم بدخولها إن أطعتم. قوله تعالى لموسى عن القوم الفاسقين الذين عصوا: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ لا تأس أي: لا تحزن.

قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي سهلت له نفسه الأمّارة بالسوء وهيّأت له وشجعته على قتل أخيه حتى ارتكب تلك الجريمة العظيمة.

وفي قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ بيانٌ لعظم حرمة النفس البشرية، فمن اعتدى على نفس واحدة بالقتل ظلمًا فكأنما استباح دماء الناس جميعًا في العِظم والإثم، ومن كان سببًا في نجاة نفس من الهلكة أو عفا عن قاتل مستحق للقصاص، فكأنما أحيا الناس جميعًا في الأجر والفضل، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ وإحياؤه إياها: أن يعفو عن الدم إذا وجب له القَوَد) القَوَد أي القِصاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ المحاربة لله ورسوله تكو ن بمخالفة أمرهما، والاعتداء على دينهما وأوليائهما، ونشر الفساد في الأرض، وقطع الطريق، وغير ذلك من صور الصد عن سبيل الله ومحاربة شرعه، وقد يصل إلى سب الله وإنكاره مجاهرة، كل ذلك يدخل في الحرب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ المعنى: اتقوا الله أيها المؤمنون، واطلبوا ما يقربكم إليه من طاعته والعمل الصالح.

قال ﷻ: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: عقوبةً زاجرةً وعبرةً لغيرهما، هذا في عقوبة السارق.

٤٢- ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: للرُّشَى: وهو من أَسْحَتَه الله وسَحَتَه: إذا أبطله وأهلكه.

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل.

٤٤- ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ العلماءُ وكذلك (الأحبار) واحدهم حَبْر وحِبْر.

﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ أي استُودِعُوا.

٤٥- ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ أي للجارح وأجْرٌ للمَجْرُوح.

٤٨- ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي أمينا عليه.

﴿شِرْعَةً﴾ وشَرِيعة هما واحد.

و (المِنْهَاجُ): الطريق الواضح. يقال: نهجت لِيَ الطريق: أي أوضحتَه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لجمعكم على دين واحد. والأمَّة تتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب "تأويل المشكل".

٥٢- ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في رضاهم: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي: يدور علينا الدّهرُ بمكروه -يعنون الجَدْب- فلا يُبَايِعُونَنَا. ونَمْتارُ فيهم فلا يميروننا. فقال الله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أي بالفرج. ويقال: فتح مكة.

﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يعني الخصْب.

٦٤- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: ممسكة عن العطاء مُنْقبِضَة وجعل الغُلَّ لذلك مَثَلا.

٦٦- ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يقال: من قَطْرِ السماء ونبات الأرض.

ويقال أيضا هو كما يقال: فلان في خير من قَرْنِه إلى قَدَمه.

٦٧- ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي يمنعك منهم. وعصمةُ الله إنما هي مَنْعُهُ العبدَ من المعاصي. ويقال: هذا طعامٌ لا يَعصمُ أي لا يَمنعُ من الجوع.

٧٥- ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: تقدمت قبلَه الرسل. يريد أنه لم يكن أول رسول أُرسِلَ فيعجب منه.

وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ هذا من الاختصار والكناية، وإنما نَبَّه بأكل الطعام على عاقبته وعلى ما يصير إليه وهو الحدَث؛ لأن مَن أَكَلَ الطعام فلا بد له من أن يُحدث.

﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ وهذا من ألطف ما يكون من الكناية.

﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ مثل قوله: ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾ أي: يصرفون عن الحق ويعدلون. يقال: أَفِك الرجل عن كذا: إذا عدل عنه. وأرض مَأْفُوكَةٌ: أي محرومة المطر والنبات. كأن ذلك عدل عنها وصُرف.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ هذه صيغه مبالغة، سَمَّاعُونَ للكذب، هؤلاء اليهود سَمَّاعُونَ للكذب أي: كثيرو السماع للكذب، وأَكَّالُونَ: كثيرو الأَكْلِ للسحت، والمراد بالسحت الحرامَ عمومًا، ويدخل فيه الرشاوى -الرشوة-؛ لأَنَّهُمْ كانوا يأخذون الرِّشَاوى؛ كان كبارهم من حكامهم وعلماءهم يأخذون الرشوة ليقضوا لمن يدفع لهم رشوة، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو من أَسْحَتَه الله وسَحَتَه: إذا أبطله وأهلكه)، مسحوت تعني باطل، كل جسم نبت من سحت فالنار أَوْلَى، أي من حرام.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أَي بالعدل، ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ والربانيون هم العلماء، وهي جمع رباني سمي رباني لأَنَّهُ تربى على أَيدي الأَنبياء فأَصبح ربانيًا، وأَحيانًا يقال رِبِّيون -رِبِّيّ- أَي: تتلمذوا على أَيدي من فوقهم من الأَنبياء ونحوهم، والأَحبار: جمع حبر أَو حَبر يجوز بالكسر والفتح حَبر وحِبر، ابن عباس يقال له "حَبر هذه الأُمَّةِ" أَي عالم هذه الأُمَّةِ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا﴾ أي: بما اسْتُودِعُوا، وأراد بـ "اسْتُحْفِظُوا" التوراة؛ لأَنَّ القرآن تميز بأَنَّ الله حفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، أَمَّا الكتب السابقة فإِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكّل حفظها إِلَيْهِمْ، فمن حفظها حفظت عنده، ومن ضيع ضاعت، لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ إِلَى أَن قال تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أَي: للجارح وأَجر للمجروح، من تصدق به فهو كفَّارة، أي من تنازل عن أَخْذِ حقه فهو صدقة، كالتنازل عن القصاص، بمعنى أَنَّهُ لا يطالب بالقصاص ويعفو، فإِذا عفا فهو كفارة له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مهيمنًا عليه أَي: أَمينًا عليه ومحيطًا به، أَصل الهيمنة: الإِحاطة بالشيء، والقرآن قد أَحاط بالكتب السابقة وموجز لها.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الشرعة هي: الشريعة، الشرعة جمع ومفردها شريعة، والمنهاج: الطريق الواضح، (يقال: نهجت لِيَ الطريق: أي أوضحتَه).

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على الإِيمان وعلى الدين الواحد، والأُمَّةُ هنا مراد بها الجماعة، والأُمَّةُ من الأَلفاظ المشتركة تطلق ويراد بها عدد من المعاني، فيراد بالأُمَّةِ القدوة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: 120]، والأُمَّةُ قد يراد بها الطريقة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]، ويراد بالأُمَّةُ الزمن: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، وكما ورد هنا الأُمَّةُ معناها الجماعة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ﴾ [القصص: 23].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ هؤلاء المنافقون يسارعون في إرضائهم، يقولون: نخشى أَن يدور علينا الدهر، الدائرة تعني: يدور عليهم الدهر فيصيبهم بمكروه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: يدور علينا الدّهرُ بمكروه -يعنون الجَدْب- فلا يُبَايِعُونَنَا. ونَمْتارُ فيهم فلا يميرونا) معنى نمتار من النمير: الرزق، كما قال ﷻ: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف:65] أي يأخذون منهم الرزق ويطلبون منهم أَن يعينوا؛ لأَنَّهُمْ أَدَّبُوا لا يملكون شيئًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أَي بالفرج، ويقال فتح مكة، الله أَعلم، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ أي: فرج من عند الله كالخصب ونحوه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أَي ممسكة عن العطاء منقبضة، وجعل الغلة لذلك مثلًا.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من قَطْرِ السماء ونبات الأرض) من فوقهم المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض. قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَي: يمنعك ويحفظك من الناس، هذه الآية نزلت أَنَّ النبي ﷺ كان يجعل له حارسًا يحرسه بالليل، فكان في ليلة من الليالي نزلت عليه هذه الآية وكان عنده سعد بن أَبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: يا سعد اذهب إِلَى بيتك قال: كيف أَذهب؟ قال: إِنَّ الله عصمني، فقرأ عليه هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [9].

---

[9] روى "الترمذي" (3046) عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ :وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ مِنَ الْقُبَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ».

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أَي مضت قبله رسل كثيرون، قال ﷻ: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي كيف تجعلون عيسى إِلَهًا وأُمَّهُ آلهة وهم فقراء وضعاف؟ كلهم مخلوقين، وضرب مثال "كانا يأكلان الطعام" هذا يدل على ضعفهم واحتياجهم، ولا وَأَشد من ذلك قال: كناية على الحدث، الغني لا يكون هكذا؛ يحتاج إِلَى الطعام ويحتاج إِلَى أَن يخرج الطعام أَو يخرج الفضلات، هذا يدل على ضعف فكيف يعبد؟ ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أَي: يصرفون.

٩٠- ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار. يقال: يَسَرْتُ: إذا ضرَبت بالقِدَاح والضارب بها يقال له: ياسر وياسرون ويُسْر وأَيسار. وكان أصحاب الثروة والأجواد في الشتاء عند شدّة الزمان وكَلَبِهِ يَنْحَرُون جَزُورًا ويجزِّئونها أجزاء ثم يضربون عليها بالقداح، فإذا قَمَر القَامِرُ جَعَلَ ذلك لذوي الحاجة وأهل المسكنة. وهو النَّفْع الذي ذكرَه الله في سورة البقرة - فقال: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ وكانوا يتمادحون بأخذ القداح ويتسابون بتركها ويعيبون من لا يَيْسِرُون ويسمونهم الأَبْرَام. واحدهم بَرَم.

﴿وَالأَنْصَابُ﴾ حجارة كانوا يعبدونها في الجاهلية.

﴿وَالأَزْلامُ﴾ القِدَاح. وقد ذكرتها في أول هذه السورة.

﴿رِجْسٌ﴾ وأصل الرجس: النَّتَن.

٩٣- ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي إثم.

﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي شربوا من الخمر قَبْلَ نزول التحريم. يقال: لم أَطْعَمْ خبزًا ولا ماءً ولا نَومًا. قال الشاعر:

فإن شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ *** وإن شئت لم أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدًا

والبَرْدُ: النوم. والنُّقَاخ: الماء العذب.

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾ يريد: اتقوا شرب الخمر وآمنوا بتحريمها.

٩٤- ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني بيض النعام.

﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعني الصيد.

٩٥- و (النَّعَم) الإبل. وقد تكون البقر والغنم. والأغلب عليها الإبل.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي مثلُه.

٩٦- ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ ما صيد من السمك ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما نَضَب عنه الماء وما قذفه البحر وهو حيّ.

﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ أي منفعة لكم ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ يعني المسافرين.

٩٧- ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ أي قِوامًا لهم بالأمن فيه.

١٠٣- ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ البحيرة: الناقة إذا نتجت خمسة أبطن. والخامس ذكر نَحَرُوه فأكلَه الرجال والنساء.

وإن كان الخامس أنثى بَحروا أذنها أي: شَقُّوها. وكانت حراما على النساء لحمها ولبنها فإذا ماتت حلّت للنساء.

و (السَّائِبَةُ) البعير يُسَيَّب بِنَذْر يكون على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلغه منزله أن يفعل ذلك.

و (الوَصِيلَةُ) من الغنم. كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا: فإن كان السابع ذكرًا ذبح. فأكل منه الرجال والنساء.

وإن كان أنثى تُرِكت في الغنم.

وإن كان ذكرا وأنثى قالوا: قد وَصَلَت أخاها. فلم تذبح لمكانها. وكانت لحومها حراما على النساء. ولبن الأنثى حراما على النساء إلا أن يموت منهما شيء فيأكله الرجال والنساء.

و (الحَام): الفحل الذي ركب ولد ولده. ويقال: إذا نتج من صلبه عشرة أبطن. قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلإ ولا ماء.

﴿يَفْتَرُونَ﴾ يختلقون الكذب.

١٠٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ قد ذكرتها في كتاب تأويل "المشكل".

١٠٧- ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي: ظهر.

﴿الأَوْلَيَانِ﴾ الوَلِيَّان.

١٠٩- ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا﴾ قيل: تدخلهم حيرة من هول القيامة وهول المسألة.

١١٠- ﴿أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قَويتك وأعنتك.

﴿وَكَهْلا﴾ ابن ثلاثين سنة.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: الخط.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني الفقه.

١١١- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي: قَذَفْتُ في قلوبهم؛ كما قال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

١١٢- (المَائِدَةُ) الطعام. من مَادَنِي يَميدُني. كأنها تميدُ للآكلين. أي: تعطيهم. أو تكون فاعلة بمعنى مفعول بها. أي: ميد بها الآكلون.

١١٤- ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: مجمعا.

﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ أي: علامة.

١١٦- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ بمعنى إذ يقول الله يوم القيامة. فعل بمعنى يَفْعَل. على ما بينت في كتاب "المشكل".

١١٨- ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: عبيدك. عبدٌ وعِباد كما يقال: فَرْخ وفِرَاخ وكَلْب وكِلاب.

الشرح

عندنا من الآيات من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ المراد بالميسر: القمار، والقمار: كل معاملة محرمة أو فيها تغلّب على الآخَرِينَ بغير حق وأَخْذُ المال بغير وجه بأي طريقة محرمة، وسُمِّيَ الميسر ميسرًا من قولهم: يَسَرْتُ إذا ضَرَبْتُ بالقِداح، ياسر وياسرون ويُسُر إذا ضربوا بالقداح، يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أَصحاب الأَموال والثروة كانوا إذا جاء الشتاء يأتون على الإبل فيذبحونها، فإذا كانت جزورًا -مذبوحة- قطعوها أَقطاع وجزؤها أَجزاءً، مثلًا عشرة أَجزاءٍ، هذه العشرة الأَجزاء مختلفة، جزء مثلًا خمسة كيلو وجزء ربع كيلو... مقسمة على أَجزاءٍ مختلفة، ثم يأخذون الأَقداح هذه أَو الأَزلام، ثم يخرجون أَرقامًا، مثلًا هذا رقم

واحد، اثنان، ثلاثة إِلَى عشرة، فيأتون لشخص ويقول: أَدخل يدك، فيخرج فإِذا هو أَحد عشر، خمسة كيلو، ويأخذه اثنان يأخذ أَقل شيء، هذا فيه ظلم لا يجوز، كيف يدفعون مبالغ متساوية ثم كل شخص يأخذ حقه مختلفًا، فيقول إِنَّ أَصحاب الأَموال الطائلة، كانوا يأخذون الذي يكسبونه، فيعطونه الفقراء وأهل المسكنة والحاجة، فيُمدَحون على ذلك؛ هذا الذي ذكره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لما قال فيها منافع: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219] منافع الخمر والميسر هي التكسب.

و(الأَنصاب) هي حجارة كانوا يعبدونها في الجاهلية، هذا على رأي، وفي تفسير آخَرُ أَنَّ الأَنصاب حجارة تنصب فيُذبح عليها لغير الله، يقولون: باسم العزة باسم المسيح باسم كذا، فإِذًا هذه الحجارة التي يضعونها حتى يذبحوا عليها محرمة.

و(الأَزلام) تقدم شرحها وعرفناها أَنَّهَا أَقداح توضع ويختارون منها ويعتقدون بها، مثلًا يريد رجل أَن يسافر أَو يريد أَن يتزوج أَو يريد أَن يتجر بتجارة فيتردد في هذا الأَمر، فيلجأ للأزلام؛ يضع فيها ثلاثة أَقداح ثم يخرج الأَول مكتوب عليه: "افعل" فيفعل، والثاني "لا تفعل"، والثالث "أَعد"، فإِذا خرج له افعل مضى، وإِذا خرج له لا تفعل فلا يفعل، وإِذا خرج أَعد يعيد حتى يظهر له أَحد هذا الأَمرين، هذا كله اعتقادات باطلة، أَبدلنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالاستخارة؛ أَن تصلي ركعتين وتمضي، فإِذا الله شرح لك صدرك لهذا الأَمر فامضِ به، وإِذا صرفك الله عنه فانصرف، والاستخارة لا تعني أَنَّكَ تصلي مرة مرتين، لا، يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «طفقت شهرًا وأَنَا أَستخير الله» شهر! فبعض الناس يريد مثلًا أَن يسافر أَو يريد أَن يدخل في مشروع أَو يريد أَن يتزوج أَو يريد أَن يفعل كذا، فيستخير الله ولا يتضح له الأَمر، طيب أَعد مرتين أو ثلاث أو أَربع، صل ركعتين واستخر الله عز وجل، دعاء الاستخارة بعضهم يقول قبل السلام وبعضهم يقول بعد السلام، وكلها صحيح، إِذا قبل السلام تدعو بالسر: اللّٰهم إني أسألك بعلمك وأستقدرك بقدرك فإِنَّكَ تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أَعلم إِنَّكَ أَنت علام الغيوب... دعاء الاستخارة المعروف قبل السلام أو بعده.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ جناح أي: إثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ وضّح المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد بالطعام هنا هو شرب الخمر لمن شربوه قبل التحريم وارتفعوا عنه بعده، والماء والشرب يسمى طعام كما في قصة الملأ من بني إسرائيل قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: 249] قال لم يطعمه وهو نهر، فيُسمّى الشراب طعامًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ تناله الأَيدي مثل البيض أو الفراخ والصغار، أَو بالرماح يضربه حتى يسقط الصيد، هذه الآية اسْتَنْبَطَ منها بعض العلماء المعاصرين اسْتِنْبَاطًا حقيقة دقيقًا جدًا يقول: الإِنسان أَحيانًا يبتلى بشيء بيده مثل الجوالات، أَحيانًا يبتلى بأَن يدخل إِلَى مواقع إِبَاحِيَّةٍ محرمة وينظر إِلَى الصور، هذا يدخل في قوله تعالى ليبلونكم الله بشيء تناله أَيديكم، الله مطلع عليك يعلم من يخافه بالغيب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ والمراد بالنعم: الإِبل، وقد يدخل فيها البقر والغنم.
قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ صيد البحر أي: السمك، مأكولات البحر عمومًا، ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أَي: ما خرج من البحر، وقذفه البحر متاعًا لكم، وللسيارة أي: للمسافرين.

قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ قيامًا للناس أَي قوامًا يتقوّمون به.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ هذه عادات المشركين في تحريم ما أَحل الله، في الإِبل يحرمون بهذه الأَوصاف كما ذكر، فالبحيرة التي تبحر أُذُنَهَا فلا أَحد يعتدي عليها ولا أَحد يأكلها ولا أَحد يركبها، وكذلك الوصيلة والحام وهو الذكر وهكذا، هذه كلها يختلقون ويفترون على الله كذبًا فما حرمها الله حتى تحرمونها.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ هذه مرت معنا من قبل وفسرناها. قال ﷻ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ فإن عثر أي: ظهر، والأَوَّلِيَان أي: الوليّان، هذه الآية أَصعب آية في كتاب الله يقول ابن عطية: أَصعب آية في كتاب الله من حيث الحفظ والتلاوة والإِعراب والمعنى -تفسيرها ومعانيها ودلالاتها - وعدة أَوجه، فيها صعوبة.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ كيف يقول الرسل لا علم لنا؟ من ذهول الموقف وشدته أنساهم، قوله تعالى ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أيّدتك أي: قويتك، والمراد بروح القدس جبريل عليه السلام، ﴿وَكَهْلًا﴾ أَي ثلاثين سنة، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ المراد بالوحي هنا: الإِلهام، الوحي له معاني عدة وهو من الأَلفاظ المشتركة في القرآن، لفظ الوحي ورد في القرآن أَكثر من ثمانين مرة وله معاني عدة، من معانيه الإِلهام، الحواريون هم أَتباع عيسى أَلهمهم مثل ما أَلهم النحل، وأَوْحَى إِلَى أُمِّ موسى أَي أَلهمها، ومثل ما أَوْحَى إِلَى الأَرض ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: 5]، هذا كله إِلهام.

(المائدة) تمد مثلما تمد السفرة، إذا كانت طاولة عليها أطعمة تسمى مائدة، وإذا لم يكن عليها أطعمة - فارغة- تسمى الخِوان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال تأتي بمعنى يقول، (فعل بمعنى يَفْعَل).

سورة الأنعام

مكية كلها: إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة

من قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ إلى قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾

٢- ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلا﴾ بالموت.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ عنده للدنيا إذا فَنِيت.

٦- و (القَرْنُ) يقال: هو ثمانون سنة. قال أبو عبيدة يروون أن أقل ما بين القرنين ثلاثون سنة.

﴿مِدْرَارًا﴾ بالمطر. أي غزيرًا. من دَرَّ يَدِرّ.

٧- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ أي صحيفة. وكذلك قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ أي صحفا. قال المَرَّار:

عَفَتِ المَنَازِلُ غَيْرَ مِثلا لأَنْقُسِ *** بَعْدَ الزمان عَرَفْتَهُ بالقِرْطَسِ

فوقفت تَعتَرِف الصحيفة بعدما *** عَمَسَ الكتاب وقد يرى لم يَعْمسِ

والأَنقسُ: جمع نِقس مثل قِدْح وأقْدُح وأقْدَاح. أراد: غير مثل النِّقْس عرفته بالقرطاس. ثم قال: "فَوَقَفَت تعترفُ الصحيفة" فأعلمك أن القرطاس هو الصحيفة. ومنه يقال للرامي إذا أصاب: قَرْطَسَ. إنما يراد أصاب الصحيفة.

٨- ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ يريد: لو أنزلنا ملكا فكذبوه أهلكناهم.

٩- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ أي: لو جعلنا الرسول إليهم ملكا.

﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا﴾ أي في صورة رجل. لأنه لا يصلح أن يخاطبهم بالرسالة ويرشدهم إلا مَن يرونه.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي: أضللناهم بما ضَلُّوا به قبل أن يبعث الملك.

١٢- ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجبها على نفسه لخلقه.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ هذا مردود إلى قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

١٤- ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: مبتدئهما. ومنه قول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة" أي على ابتداء الخلقة. يعني الإقرار بالله حين أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم.

٢٢- ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ أي أين آلهتكم التي جعلتموها لي شركاء. فنسبها إليهم لِمَا ادّعَوْا لها من شَرِكته جلّ وعز.

٢٣- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي مقالتهم. ويقال حُجَّتُهم. وقد ذكرت هذا في كتاب "تأويل المشكل" في باب الفتنة. وبينت كيف هو.

٢٤- ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يدعون ويختلقون.

٢٥- (الوَقْرُ) الصَّمَم. والوِقر: الحمل على الظهر.

٢٦- ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي عن محمد.

﴿وَيَنْأَوْنَ﴾ أي يبعدون.

٣١- ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ أي آثامهم. وأصل الوِزْر: الحمل على الظهر. قال الله سبحانه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي أثْقَلَه حتى سُمِعَ نَقِيضُه.

٣٣- ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي لا يَنْسِبُونَكَ إلى الكذب. ومن قرأ "لا يُكْذِبُونَكَ" أراد: لا يُلْفُونَكَ كاذبا.

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ والجحود [الإنكار] على ما بيناه.

٣٥- (النَّفَقُ) في الأرض: المَدْخَل. وهو السَّرَب. و (السُّلَّم في السماء): المَصْعَد.

٣٦- ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي يجيبك من يسمع. فأما الموتى فالله يبعثهم. شبههم بالموتى

٣٨- ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما تركنا شيئا ولا أغفلناه ولا ضيعناه.

٤٢- ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ الفقر. وهو البؤس.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ البلاء.

٤٣- ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ أي فهَلا إذ جاءهم بأسنا.

٤٤- ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة وجهرة مُعَاينة.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ يائِسون مُلْقُونَ بأيديهم.

٤٥- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ أي آخرهم. كما يقال: اجْتُثَّ أصْلُهم.

٤٦- ﴿يَصْدِفُونَ﴾ يُعْرِضُون. يقال: صَدَفَ عني وصد أي: أعْرَضَ.

٥٣- ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: ابتلينا بعضا ببعض.

٥٥- ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: نأتي بها مُتَفَرِّقَة شيئًا بعد شيء، ولا ننزلها جملة.

الشرح

الآيات متتابعة وكثيرة، سورة الأنعام مكية، وذكر كثيرٌ من المفسرين أنها نزلت جملةً كاملةً، وشيَّعها سبعون ألف مَلَك مع نزولها، فالسورة عظيمةٌ تخاطب المشركين، وتبيِّن عقائدهم، وفي الحلال والحرام، وفيما يتعبدون به من المشركين أو من عبادة الشرك.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾، ما الفرق بين الأجلين؟ قال المؤلف في تفسير قضى أجلًا أي: الموت، وأجلًا مسمىً عنده قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (للدنيا إذا فَنِيت) أي الأجل الأول أجل خاص، قضى أجل لكل واحدٍ أن يموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ هذا نهاية الدنيا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القرن هنا ثمانون سنة، وقال أبو عبيدة - أبو عبيدة هذا مَعْمَر بن المثنى - قال: يَرَوْنَ أن أقل ما بين القرنين ثلاثون سنةً. القرن: بعضهم يقول إنه مائةُ سنةٍ، والجيل ثلاث وثلاثون سنةً، لكن كل هذا تقريبي ليس عليها دليل أو ليست نصًا، ولكنها قريبة، فمثلًا مضي القرون، بعضهم قال القرن يُسمَّى للسنوات إذا بُعِثَ نبي فيهم ثم مضى، وبعضهم يقول القرن مائة سنةٍ، وتحديدها متقارب، لكن المراد به مضي سنين طويلةٍ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ مدرارًا: ماءً غزيرًا، المطر يَدُرُّ دَرًّا أي بشدةٍ وقوةٍ. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ القرطاس هو الصحيفةُ.

قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لماذا قضي الأمر إذا أنزل الله الملك؟ قال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ على اقتراحهم؛ لأن أي قوم يقترحون آية ثم تأتي ثم لم يؤمنوا نزل بهم العذاب، مثلما فعل الله عز وجل بثمود لما اقترحوا الناقة ثم كفروا بها نزل بهم العذاب، يقول: لو اقترحتم مَلَكًا يأتيكم يدعوكم مثل ما يدعوكم محمد ﷺ ثم لم تؤمنوا به وكفرتم به، انتهى الأمر؛ كذَّبوه فأهلكناهم، هذا أمر.

الأمر الثاني: لو أنزل الله مَلَكًا لجعله رجلًا مثلهم، لا يمكن أن يخاطبهم الملك ، لا يتصورونه أصلًا، لم يرَ أحد مَلَكًا بصورته الحقيقية إلا النبي ﷺ مرتين فقط، المَلَك صعبة رؤيته بصورته الحقيقية، رآه النبي ﷺ في الأبطح وهو نازل من غار حراء متوجه إلى مكة فرآه جالسًا على كرسي قد سَدَّ الأفق ما بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، لا يمكن أن يأتيهم يدعوهم إلى التوحيد وإلى الطاعة بهذا الشكل، ولو جاءهم بصورة رجل لقالوا: هذا رجل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها.

قوله تعالى: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا مردودٌ إلى قول: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ في الآية التي تسبقها، المقصود بمردود؛ هذا علم المناسبات، ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير إلى علم المناسبات، فلو بُحِثَ في علم المناسبات عند السلف تجد لهم اعتناءً واهتمامًا بهذا، فهو يربط الآيات بعضها ببعض.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا واضح أي مبتدئها، ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ لم يقل سبحانه: أين شركائي، في آيات أخرى قال: أين شركائي؛ أي الذين أنتم زعمتم أنهم شركاء معي، وإذا قال أين شركاؤكم؛ أي الذين أنتم تعبدونهم.

ثم قال ﷻ: ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ الفتنة لها معانٍ كثيرة في القرآن، ولذلك المؤلف أشار وقال: ذكرناها في كتاب "تأويل مشكل القرآن" أي هي من الألفاظ المشتركة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ينهون عنه: ينهون عن محمد ﷺ، يقولون لا تؤمنوا به لا تصدقوه، وينأون عنه: يبعدون عنه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أي: لا ينسبونك إلى الكذب، ومن قرأ "لا يُكْذِبُونَك" قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أراد: لا يُلْفُونَكَ كاذبا) أي لا يجدونك كاذبًا، قراءة نافع والكسائي بالتخفيف، تخفيف الذال "يُكْذِبُونَك"، والباقي قرأوه بتشديد الذال، الجمهور على قراءته "يُكَذِّبُونَكَ" أي لا ينسبونك إلى الكذب، "لا يُكْذِبُونَك" لا يجدونك كذابًا أو كاذبًا، هذه فروق دقيقة جدًا.

بقية الألفاظ واضحةٌ جدًا ولا تحتاج إلى تفسير مضاف إلى ما ذكره ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه.

٥٨- ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ من عقوبة الله.

﴿لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لَعَجَّلته لكم فانقضى ما بيننا.

٦٠- ﴿جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ أي كسَبتم.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يبعثكم في النهار من نومكم.

الشَّرحُ

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ الضمير "فيه" يعود إلى أقرب مذكور قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار بعد الموت، وهذا دليلٌ على أن "يتوفاكم" معناها ينيمكم -من النوم-، الوفاة هنا معناها النوم كما في قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] أي ينام وليس قبض الروح، النبي عيسى لم يمت وسينزل آخر الزمان، وفي آية الزمر أيضًا: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]، ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي يوقظكم في النهار من نومكم.

﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ الموت.

٦٥- ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ الحجارة والطوفان.

﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ الخسف.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ من الالتباس عليكم حتى تكونوا شِيَعًا أي فرقا مختلفين.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتال والحرب.

٦٧- ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ﴾ أي: خبر.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: غاية.

٦٨- ﴿يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالاستهزاء.

٧٠- ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: تسلم للهلكة. قال الشاعر:

وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ ❊❊❊ بَعَوْنَاهُ ولا بِدَمٍ مُرَاقِ

أي بغير جرم أَجْرَمْنَاه. والبَعْوُ: الجناية.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء الحار. ومنه سمي الحمام.

الشرح

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أي يجعلكم شيعًا وفرقًا مختلفين تتقاتلون فيما بينكم وهذا أشد ما سبقها من أنواع العذاب.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معناها الحبس، وقال بعضهم معناها التسليم، من سَلَّم، لها عدة معانٍ وهي كلها متقاربةٌ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء الحار. ومنه سمي الحمّام) الحمّام ليس المراد به الحمّام مكان قضاء الحاجة المعروف عندنا الآن، لا، الحمّام هو مكان الاستحمام، مكان الاغتسال والاستحمام، كانت هناك حمامات خاصة بالاغتسال، كانت في الشام لأن الشام منطقة باردة فكانوا يحفرون تحت الأرض خنادق ويضعون فيها مياه ثم يدخلونها، مثل المسابح الآن، وتكون حارةً تحت لأنه لو يغتسل في العراء بَرَد، والحمّام من الحميم وهو الحرارة، وليس الحمّام الذي معروف عندنا الآن مكان الخلاء.

٧١- ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ﴾ أي: هوت به وذهبت.

﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ يقولون له: ائتنا. نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر. وأصحابه: أبوه وأمّه.

٧٤- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ قد ذكرته في كتاب "تأويل المشكل"

٧٥- ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ملكهما. زيدت فيه الواو والتاء وبنى بناء جَبَرُوت ورَهَبُوت.

٧٦- ﴿جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أظلم. يقال جَنَّ جَنَانًا وجُنُونًا وأجَنَّه الليل إجنانًا.

الشرح

في قوله تعالى: ﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا القول نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر وأصحابه، لا دليل عليه، بدليل حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما أَنْزَلَ اللَّهُ فِينَا - آل أبو بكر- شيئًا مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عُذْرِي» تعني آيات الأفك، فقوله هنا نزلت في أبي بكر؛ يقول المحقق: لم أقف على روايةٍ صحيحةٍ ولا ضعيفة، حتى ضعيفة لا يوجد.

كلمة "ملكوت" في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ صيغة مبالغة، قولك ملكوت أبلغ من قولك مُلك، وجبروت أقوى من قولك جابر جبر أو نحوه.

سُمِّي المجنون مجنونًا لذهاب عقله، ويقال للّيل "جَنَّه الليل" إذا أظلم وغطّى، أصلها من التغطية، والجنين سُمِّي جنينًا في بطنه لأنه مستتر، والجن سُمُّوا جِنَّةً لاستتارهم، والجَنّة سُمِّيت جنةً لاستتارها بالأشجار، هذا معناه.

٧٧- ﴿بَازِغًا﴾ طالعا. يقال: بزغت الشمس تَبْزُغُ.

٧٨- ﴿أَفَلَتْ﴾ غابت.

٨٢- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يخلطوه بشرك. ومنه قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

٩١- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما وصفوه حَقَّ صفتِه ولا عرفوه حقَّ معرفته. يقال: قَدَرْت الشيء وقَدَّرْته. وقدرت فيك كذا وكذا، وقدرته.

٩٢- ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مكة لأنها أقدمها.

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سبب تسمية مكة بأم القرى: (لأنها أقدمها)، والحقيقة لها عدة أسباب لتلك التسمية، منها: لأنها تجمع القرى كلها، حتى ذكروا الآن في الاكتشافات العلمية -علم الأرض- أن المركز والوسط في الأرض بالنسبة للقارات كلها هي مكة، أصبحت أم القرى لأن القرى كلها محيطة بمكة، وقال بعض: أم القرى لأنها هي أصل القرى، إلا أنها دُحِيَتْ من جميع الأراضي -جميع القرى-، فلهم عدة أسباب.

٩٣- ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي الهَوَان.

٩٤- ﴿فُرَادَى﴾ جمع فَرْد. وكأنه جمع فَرْدَان. كما قيل: كَسْلان وكُسَالَى وسَكْرَان وسُكَارَى.

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: مَلَّكناكم.

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء.

﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطعت الوُصَلُ التي كانت بينكم في الدنيا من القرابة والحِلْف والمَوَدَّة.

٩٦- و (الحُسْبَانُ) الحساب. يقال: خذ كل شيء بحسبانه [أي بحسابه].

٩٨- ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الصلب.

﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في الرحم.

٩٩- (القِنْوَانُ) عُذُوقُ النَّخْل. واحدها قِنْوٌ. جمع على لفظ تَثْنِيَتِهِ غير أن الحركات تلزم نونه في الجمع وهي في الاثنين مكسورة، مثل: صِنْو وصِنْوانِ في التَّثنية. وصِنْوانٌ في الجمع.

﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وهو غضّ.

﴿وَيَنْعِهِ﴾ أي إدراكه ونُضْجه. يقال: يَنَعَت الثَّمَرَة وأيْعَنَت: إذا أدْرَكَت. وهو اليَنَع واليَنِع واليُنُوع.

١٠٠- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ يعني الزَّنادقة، جعلوا إبليسَ يخلق الشرَّ، والله يخلق الخير.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ أي اخْتَلَقُوا وخَلَقوا ذلك بمعنى واحد كذِبا وإفْكًا.

الشرح

كلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تعني وصلكم، تقول: إصلاح ذات البين عن العلاقة، فالبين معناها الوصل، ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي انفصلت العلاقات.

هذه الألفاظ: لفظ القِنْوان والصِنْوان، إن جئت بها بصيغة الجمع تجمعها على قُنْوان جمع قِنْو وهو عِذْق النخلة، وإن أردت أن التثنية بنفس الصيغة تقول: عندي قِنْوانِ اثنان، وعندي ثلاثين قُنْوان أي كثيرة، قُنْوان يعني عذوق هي صيغة الجمع والتثنية لا تختلف إلا بالحركة وتكون مكسورةً في التثنية ومضمومةً في الجمع صِنْوان وقِنْوان.

معنى اليَنْع: النضج، يقول الله عز وجل: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر هذه النخيل والأعناب وغيرها والأشجار، ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ ما الفرق بين أثمر وينعه؟ في النخيل -سبحان الله العظيم- والأعناب وغيرها والأشجار، في بداية ظهورها الناس يتطلعون عليها فيقال: الآن بدأت النخيل تُثمر وبدأت البرتقال والأشجار وهذه تُثمر وهي صغيرة ما تؤكل الآن، فيتباشرون بينهم ما شاء الله هذا البستان أثمر ثمرةً طيبةً هذه السنة في بدايته، ثم يتركونه ويغيبون عنه، ثم يأتون بعد شهر شهرين وإذا هو قد استوى وصالحٌ للأكل، فقال الله عز وجل: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي وينعه: إذا نضج. التأمل في حالتين، ولذلك أصحاب النخيل الآن عندما تظهر أكمام النخيل للتلقيح يتباشرون أن النخلة أطلعت هذه السنة، ثم يلقحونه ويتركونه ثلاثة شهور ثم إذا جاء اللون بدأوا يتباشرون "ما شاء الله بدأت الثمرة تثمر الآن" فهذا معنى السر في قوله: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ﴾ وقت الثمرة إذا أثمر ﴿وَيَنْعِهِ﴾ عند النضج.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أصل التركيب "وجعلوا الجن شركاء لله"، و ﴿وَخَرَقُوا﴾ كلمة خرقوا أقوى من خلقوا أو اختلقوا، خرقوا خرق يعني ليس له أصل.

١٠٥- ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي قرأْت الكتب. و"دَارَسْتَ": أي دَارَسْتَ أهل الكتاب. و"دَرَسَتْ": انمحَت.

١١١- ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا﴾ جماعة قبيل أي أصناما، ويقال: القَبيل: الكَفيل كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا﴾ أي ضُمَنَاء. ومن قرأها "قِبَلا" أراد: معاينة.

١١٢- ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ ما زُيِّن منه وحُسِّنَ ومُوِّه. وأصل الزخرف: الذهب.

١١٣- ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ أي: ليكتسبوا وليدّعوا ما هم مُدَّعون.

١١٦- ﴿يَخْرُصُونَ﴾ يَحْدِسُون ويوقِعون. ومنه قيل للحازر: خَارِصٌ.

١٢٠- ﴿ظَاهِرَ الإِثْمِ﴾ الزنا.

﴿وَبَاطِنَهُ﴾ المُخَالَّة.

١٢١- ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ أي: يقذفون في قلوبهم أن يجادلوكم.

الشرح

في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ فيها ثلاث قراءات، ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي من المدارسة أو من الدراسة، ﴿وَلِيَقُولُوا دَارَسْتَ﴾ أي مدارسة بينك وبين شخص، ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسَتْ﴾ أيضًا قراءة تعني اندرست وانمحت ومضت.

معنى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا﴾ مثل ما يقال: فلان يقول أنا قبيلك، أي أنا كفيلك أنا أضمن لك، هذا المعنى الأول، أو قُبُلًا بمعنى جماعاتٍ.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي يحدِسون من الحدس، ويوقعون أي يتوقع، يقول لك: أظن كذا، هذا هو التخريص، وهو تقدير الشيء؛ التقدير والحدس والتخمين.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ المخالة تعني الخليل؛ تتخذ خليلًا.

الوحي في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ تعني: القذف في القلوب، الشياطين لا يملكون الوحي، فالوحي هنا معناه الوسوسة.

١٢٢ - ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: كان كافرا فهديناه.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ إيمانا.

﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أي يهتدي به.

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: في الكفر.

١٢٣ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر. وأكابر لا ينصرف. وهم العظماء.

١٢٤ - ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ذلة.

١٢٥ - ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ أي: يفتحه. ومنه يقال: شرحت الأمر. وشرحت اللحم: إذا فتحته.

(الحَرِجُ) الذي ضاق فلم يجد منفذا إلا أن (يَصَّعَّد فِي السَّمَاءِ) وليس يقدر على ذلك.

١٢٧ - ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: الجنة. ويقال: السلام الله ويقال: السلام السلامة.

الشرح

قوله تعالى: ﴿صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الذلة والهوان.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، سبب تسمية الجنة بدار السلام قيل: لأنها سالمةٌ من الآفات والموت والأذى، وقيل: لأن السلام هو الله فالدار مضافة إلى الله ﷻ، فمعنى دار السلام أي دار الله، دار كرامة الله.... فيها عدة تأويلات.

١٢٨ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ﴾ أي: أضللتم كثيرا منهم.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: أخذ كل من كل نصيبا.

﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا﴾ أي الموت.

١٣٥ - ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على موضعكم. يقال: مكان ومكانة. ومنزل ومنزلة. وتسع وتسعة. ومتن ومتنة. وعماد وعمادة.

١٣٦ - ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ﴾ أي: مما خلق من الحرث وهو الزرع. والأنعام الإبل والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾ أي حظا. وكانوا إذا زرعوا خَطُّوا خطا فقالوا: هذا لله وهذا لآلهتنا. فإذا حصدوا ما جعلوا لله فوقع منه شيء فيما جعلوا لآلهتهم تركوه. وقالوا: هي إليه محتاجة.

وإذا حصدوا ما جعلوا لآلهتهم فوقع منه شيء فيما جعلوه لله أعادوه إلى موضعه.

وكانوا يجعلون من الأنعام شيئا لله. فإذا ولدت إناثها ميتا أكلوه. وإذا جعلوا لآلهتهم شيئا من الأنعام فولد ميتا عظموه ولم يأكلوه. فقال الله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

١٣٧ - ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم. والرّدى: الهلاك.

١٣٨ - وقوله: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ أي زرع حرام. وإنما قيل للحرام: حِجْر لأنه حُجِرَ على الناس أن يصيبوه. يقال: حَجرْت على فلان كذا حَجرا. ولما حجرْتَه وحَرَّمْتَهُ: حِجرا.

الشرح

قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ ما تعنيه الآية هو أن الجن استمتعوا والإنس استمتعوا أيضًا، كلٌ له مصالح؛ الجن والإنس الذين يذهبون إليهم، فالمصلحة للاثنين.

في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ كان الناس في الجاهلية إذا سقط في الحوض الذي لله أخذوه، وإذا سقط ما كان لله في حوضهم أخذوه ولم يردوه عليه، هذه قسمتهم، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ .

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ معنى الحجر هو المنع الحرام.

﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يعني "الحامي".

﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ يعني "البحيرة": لأنها لا تركب ولا يحمل عليها شيء، ولا يذكر اسم الله عليها.

١٣٩- ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ يعني "الوصيلة" من الغنم، و"البحيرة" من الإبل.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ يعني الإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: بِكَذِبِهم.

١٤٠- ﴿قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا﴾ أي جهلا.

١٤١- و ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي: ثمره. سماه أُكُلا لأنه يُؤْكل.

﴿مُتَشَابِهًا﴾ في المنظر.

﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في الطعم.

﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: تصدّقوا منهُ.

﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك.

الشرح

هذه الآيات السابقة بيانٌ لموقف المشركين واعتقاداتهم الباطلة الفاسدة في التحليل والتحريك، يحرمون ما شاءوا في الزروع وفي الحروث، ويحرمون في الأنعام الذين يشتهونه ويقول: هذا حرام وهذا حجر وهذا حلال وهذا كذا ومحرم على أزواجنا الإناث، كل هذه معتقدات باطلة أبطلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ هذه محرمات فقط، أما هذه المعتقدات كلها باطلة، ومن شدة بطلانهم أيضًا قتلهم أولادهم سفهًا بغير علم، كل هذه من عاداتهم وتقاليدهم الباطلة.

١٤٢- و (الحَمُولَةُ): كبار الإبل التي يحمل عليها.

و (الفَرْشُ): صغارها التي لم تُدْرِك. أي لم يحمل عليها وهي ما دون الحِقَاق. والحِقَاقُ: هي التي صَلُح أن تُرْكَب أي حق ذلك.

١٤٣- ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: ثمانية أفراد. والفرد يقال له: زوج. والاثنان يقال لهما: زوجان وزوج. وقد بينت تأويل هذه الآية في كتاب "المشكل".

١٤٥- ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أي سائلا.

﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ما ذُبِح لغيره وذُكر عليه غير اسمه.

١٤٦- ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ أي كُلَّ ذي مِخْلب من الطير وكلَّ ذي ظِلْفٍ ليس بمشقوق. يعني الحافر.

﴿شُحُومَهُمَا إِلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ يقال: الأَلْيَةَ.

﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ المَبَاعِر؛ واحدها حَاوِية وحَوِيّة.

١٥١- (الإمْلاقُ) الفقر. يقال: أملق الرجل فهو مملق: إذا افتقر.

١٥٣- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يريد السبل التي تعدل عنه يمينا وشمالا. والعرب تقول: الزم الطريق ودع البُنيات.

الشرح

معنى الحمولة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحمولة هي كبار الإبل يُحمل عليها، وصغار الإبل فَرْشًا لأنها قريبة من الأرض مفروشة، وبعضهم يقول تفسير آخر: الحمولة هي الإبل والفرش هي البقر والأغنام لأنها لا تُرفض.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ أي كُلَّ ذي مِخْلب من الطير وكلَّ ذي ظِلْفٍ ليس بمشقوق. يعني الحافر) أي مثل الإبل والبط ليس مشقوق فكانت هذه محرمة على اليهود، أما الدجاج والأغنام مشقوقة الأظلاف فهذه لم تُحرّم عليهم إلا ما سيذكر منها مثل شحومهما أو ما حملت ظهورهما.

قوله تعالى: ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ الحوايا هي الأمعاء.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: (يريد السبل التي تعدل عنه يمينا وشمالا. والعرب تقول: الزم الطريق ودع البُنيات) والبنيات من بنيات الطريق، أي متفرّقة.

١٥٤- ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ مفسر في كتاب "المشكل".

١٥٦- ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ يريد هذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى قبلنا. فحذف "لا".

﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ﴾ أي قراءتهم الكتب وعلمهم بها (غافلين)

١٥٧- ﴿أَوْ﴾ لئلا ﴿تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أعرض.

١٥٨- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي هل ينتظرون.

﴿إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ عند الموت.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ طلوعُ الشمس من مغربها.

١٥٩- ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي فرقا وأحزابا.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي ليس إليك شيء من أمرهم.

١٦٢- ﴿وَنُسُكِي﴾ ذبائحي. جمع نَسِيكةٍ. وأصل النُّسُك: ما تقربت به إلى الله.

١٦٥- ﴿خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ أي سكان الأرض يخلف بعضكم بعضا: واحدهم خليفة.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي فضَّل في المال والشرف.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ أي يختبركم فيعلم كيف شكركم.

الشرح

كل الآيات هذه غالبًا واضحة ليس فيها غموض، والآيات كلها بيَّنها ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانٌ واضحٌ -والحمد لله-.

سورة الأعراف

٢- ﴿فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ أي: شك. وأصل الحَرَج: الضيق والشاك في الأمر يضيق صدرًا؛ لأنه لا يعلم حقيقته. فسمى الشك حَرَجًا.

٤- ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ يعني العذاب.

﴿بَيَاتًا﴾ ليلا.

﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القائلة نصف النهار.

٥- ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ أي: قولهم وتداعِيهم.

٩- ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يجحدون. والظلم يتصرف على وجوه قد ذكرناها في "المشكل".

١٢- ﴿مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي: أن تسجد. و"لا" زائدة للعلة التي ذكرناها في "المشكل".

١٦- ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دينك. يقول: لأَصُدَّنهم عنه.

١٧- ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ مفسر في كتاب "المشكل".

١٨- ﴿مَذْءُومًا﴾ مذموما بأبلغ الذم.

﴿مَدْحُورًا﴾ أي: مَقْصِيًّا مبْعَدًا. يقال: اللّهم ادْحَر عني الشيطان.

٢٠- ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ أي: ليظهر.

﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ أي: سُتِرَ. والتَّواري والمُواراة منه.

٢٢- ﴿وَطَفِقَا﴾ أي: جعلا وأقْبلا. يقال: طَفِقْت أفعل كذا.

﴿يَخْصِفَانِ﴾ أي: يصلان الورق بعضه ببعض ويلصقان بعضه على بعض. ومنه يقال: خَصَفْتُ نعلي: إذا طبَّقت عليها رقعة.

٢٦- (والرِّيشُ) و (الرِّياشُ): ما ظهر من اللباس. وريش الطائر: ما ستره الله به.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: خير من الثياب؛ لأن الفاجر وإن كان حسن الثوب فإنه بادِي العورة. و "ذلك" زائدة. قال الشاعر في مثل هذا المعنى:

إِنِّي كأَنِّي أَرَى مَنْ لا حَيَاءَ لَهُ ❊❊❊ ولا أَمَانَةَ وَسْطَ القوم عُرْيَانَا

وقيل في التفسير: إن لباس التقوى: الحياء.

٢٧- ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أصحابه: وجنده.

٢٩- ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يقول: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد من المساجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم: لا أصلي حتى آتى مسجدي.

٣١- وقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت عراة بالنهار والنساء منهم بالليل إلا الحُمْس-وهم قريش ومن دان بدينهم- ولا يأكلون من الطعام إلا اليسير إعظاما لحجِّهم. فأنزل الله هذه الآية.

٣٣- ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي حُجَّة.

٣٧- ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: حظهم مما كتب عليهم من العقوبة.

٣٨- ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: ادخلوا مع أمم.

﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾ تداركوا. أدغمَت التاء في الدال وأدخلت الألف ليسلم السكون لما بعدها. يريد: تتابعوا فيها واجتمعوا.

٤٠- ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [أي ليس لهم عمل صالح تفتح لهم به أبواب السماء] ويقال: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا.

﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ﴾ أي يدخل البعير.

﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: في ثقب الإبرة. وهذا كما يقال: لا يكون ذاك حتى يشيب الغراب. وحتى يَبْيَضَّ القارُ.

الشرح

هذه سورة الأعراف مكية -نزلت بمكة-، إذا نظرنا إليها نظرةً دقيقةً وجدناها هي السورة التي اشتملت على التهديد والتخويف ونزول العقوبات بالأمم؛ هذه السورة كلها تدور على هذا الأمر، ولذلك

تلاحظ في أول آياتها ماذا؟ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، هذه افتتاحية عجيبة بأن السورة كلها تهديد في نزول العقوبات بالأمم.

ومجيئها بعد "الأنعام"؛ ففي الأنعام أقام الله الحجة على الكفار بالتوحيد والتشريع، بأن الذي يجب أن يوحَّد هو الله، وأن لا يشرك معه غيره، ويجب أن نعلم جميعًا أن الذي يُشرِّع هو الله؛ فلا شريعة إلا شريعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلما قررهم ذلك التقرير وأقام عليهم الحجة، هددهم بسورة الأعراف؛ قال: إما أن تسلكوا طريق النجاة والسلامة وتتبعوا نبيكم محمدًا ﷺ، وإلا نزل بكم ما نزل بمن ذكر في سورة الأعراف؛ حيث ذكر الله أممًا أهلكها الله.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، أي: لا تشك فيه ولا يضيق صدرك؛ فالحرج: الضيق والشك، أي: لا تشك ولا يضيق صدرك.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ بياتًا أي: في النوم؛ وقت النوم، ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ وقت القيلولة وسط النهار؛ لأن النهار إذا اشتد واشدت الشمس دخل الناس بيوتهم ليرتاحوا، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾ [النور: 58].

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ المراد بالدعوة هنا أي: قولهم وتداعيهم، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يجحدون.

ودائمًا يحيل المؤلف إلى كتابه "مشكل تأويل القرآن"؛ لأن هذا الكتاب ألفه بعده، فيقول: لا حاجة أن أعيد مرةً ثانيةً، ارجعوا للكتاب الأول.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، كيف "ألا تسجد" والمعنى "أن تسجد"؟ يقول المؤلف هنا: "لا" زائدة، ويستعمل المؤلف كثيرًا كلمة "زائدة" وهذا من ناحية إعرابية أو لغوية، لكن ينبغي أن لا يقال مثل ما ذكرنا، والمعنى: ما منعك من عدم السجود؟ ليس فيها تكلّف ولا صعوبات؛ ما الذي منعك من أن لا تسجد؟ ما الذي جعلك أن لا تسجد؟ ما الذي دفعك إلى عدم السجود.

قال – الشيطان مهددًا –: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أقعد لهم صراطك أي: على دينك، على أبواب المساجد، وعلى أبواب الطرقات، وأبواب الحج، وأبواب كذا؛ يجلس يمنعهم حتى يضلهم ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ما ترك شيئًا فيهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مذمومًا بأبلغ الذم، ومدحورًا أي: مقصيًا مبعدًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ أي: ليظهر ما خفي وستر عنهما، كيف كانا مستورين في الجنة؟ قيل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألبسهم شيئًا مثل الأظفار يسترون به، ثم لما وقعوا في المعصية زال عنهم هذا، سقط، فانكشفت عوراتهما.

ومن طبيعة فطرة الإنسان –آدم وذريته– الستر، الإنسان مفطور على الستر، ولذلك العاقل من الناس ما يتكشف أمام الناس ويظهر عورته، ولذلك تلاحظ النشء الصغار من البنات إذا أعطيتها اللباس القصير لا تقبله؛ لأنها مفطورة على الحياء، فما تقبل هذا الشيء، قال ﷻ: ﴿مَا وُورِيَ﴾ أي: سُتِر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ طفقا بمعنى أقبلا، يَخْصِفَانِ أي: يصلان الورق؛ لما انكشفت عورتهما بسبب طاعة الشيطان؛ بدءا يبحثان عما يستر العورة في الجنة، فأخذا من أوراق الجنة ووضعا بعضها على بعض يستران بها عوراتهما، ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من خصف النعل، يعني يلصق إحداهما بالأخرى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾، وفي قراءة: "ورِياشًا"؛ الريش والرياش هو اللباس الذي يكون فوق الثياب، مثل المعطف وغيره، ولذلك سمي ريش الطائر "الريش" لأنه فوق وله جمال.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذلك" زائدة، وهذا ما ينبغي، بل هي للتأكيد، فالله ﷻ يقول في هذه الآية: البس الملابس لستر عورتك، لكن هنالك لباس أحسن من اللباس كله؛ وهو لباس الطاعة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أي: أصحابه وجنده؛ الشيطان يرى الناس والناس لا يرونه ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾؛ هؤلاء لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم؛ إذا مات الكافر أخذت الملائكة روحه وصعدت بها إلى السماء فتغلق دونها أبواب السماء، فترجع بها إلى الأرض فتلقى في "سجّين"؛ هذه روح الكافر، أما روح المؤمن فتفتح لها أبواب السماء. وأعمال الكفار لا تصعد إلى السماء، ترد عليهم.

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، الجمل: هو البعير، ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: في فتحة الإبرة (ثقب الإبرة)، هذا لا يمكن، وهذا يسمى من باب التعليق على المستحيل؛ لا يمكن، كما يقول بعض الناس: "حتى يشيب الغراب"؛ الغراب لا يشيب، فهو يموت وهو أسود، يقولون: "إذا شاب الغراب تعال"، أو يقول لك: "حتى يبيُض القار"؛ القار الأسود الذي يوضع في الشوارع (القطران) لا يبيض فهو أسود دائمًا ويستمر سواده. في قراءة: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجُمَّلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ "الجُمَّل: هو حبل ثخين تربط به السفن، وهذا بعيد، قراءة لا أدري عن صحتها، ويظهر أنها ليست قراءة متواترة، يقول هي موجودة في مصحف ابن عباس.

٤١- ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش.

﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: ما يغشاهم من النار.

٤٣- (الغِلُّ) الحسد والعداوة.

٤٤- ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادى مناد بينهم: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

٤٦- و ﴿الأَعْرَافِ﴾ سور بين الجنة والنار سمي بذلك لارتفاعه وكل مرتفع عند العرب: أعْرَاف. قال الشاعر:

كُلُّ كِنَازٍ لَحْمُهُ نِيَافِ ❊❊❊ كالعَلَمِ المُوفِي على الأعْرَافِ

و (السِّيماءُ): العلامة.

٥١- ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ أي: نتركهم.

٥٣- ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ﴾ أي هل ينتظرون إلا عاقبته. يريد ما وعدهم الله من أنه كائن ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ في القيامة.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي تركوه وأعرضوا عنه.

٥٦- ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفا منه ورجاء لما عنده.

٥٧- ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ كأنها تبشر. ورحمته ها هنا: المطر، سماه رحمة: لأنه كان برحمته.

ومن قرأها (نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) أراد جمع نَشُور ونَشْرُ الشيء ما تفرق منه. يقال: اللّهم اضمم إلي نشري. أي ما تفرق من أمري.

﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ أي حملت. ومنه يقال: ما أستقِلُّ به.

٥٨- ﴿لا يَخْرُجُ إِلا نَكِدًا﴾ أي إلا قليلا. يقال: عطاء مَنْكُودٌ: مَنزور.

٦٣- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ أي على لسان رجل منكم.

٦٦- ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي في جهل.

٦٩- ﴿آلاءَ اللَّهِ﴾ نعمه. واحدها ألًى ومثله في التقدير ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي وقته. وجمعه: آناء.

٧٤- ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي أنزلكم.

٧٨- ﴿جَاثِمِينَ﴾ الأصل في الجُثُوم للطير والأرنب وما يَجْثُم. والجُثُوم البروك على الركب.

٨٣- ﴿الْغَابِرِينَ﴾ الباقين يقال: من مضى ومن غَبَر أي ومن بقي.

٨٩- ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ أي احكم بيننا. ويقال للحاكم: الفتاح.

٩٢- ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي لم يقيموا فيها. يقال: غنينا بمكان كذا: أقمنا. ويقال للمنازل: مَغَانٍ. واحدها مغْنى.

٩٥- ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أي كثروا. ومنه الحديث "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تُحفى الشّوارب وتُعْفَى اللحى" أي تُوَفَّر.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾، هذه في قصة الأعراف؛ ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، فأذن مؤذن أي: نادى منادٍ، والأعراف: هي سور بين الجنة والنار، سمي بذلك لارتفاعه، وكل مرتفع عند العرب يسمى "أعرافًا"، ومنه عُرف الديك لارتفاعه. الأعراف سور عظيم بين الجنة والنار، يوضع عليه من تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فمن غلبت حسناتهم على سيئاتهم دخلوا الجنة، ومن غلبت سيئاتهم حسناتهم -أو لم تكن لهم حسنات- دخلوا النار، وهناك من تتساوى سيئاتهم وحسناتهم، وهؤلاء يتركون حتى يحكم الله فيهم، فيتركون على الأعراف ومصيرهم إلى الجنة؛ لكنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد زمن، هؤلاء ينظرون إلى أهل الجنة ويتمنون أن يكونوا منهم، وإذا صُرفت أبصارهم -لا يريدون الالتفات إلى النار لكن تصرف أبصارهم بقوة- فينظرون إلى أهل النار، فيتعوذون بالله من حال أهل النار.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: نتركهم. كلمة "ننساهم"؛ الله لا ينسى بمعنى النسيان الذي هو الذهول والغفلة، هذا لا يجوز أن يوصف الله به، لكن النسيان بمعنى الترك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما ينظرون إلا عاقبة أمره؛ التأويل هنا بمعنى عاقبة الأمر.

يقول ﷻ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ ادعوه خوفًا: خائفين من العقوبات، خائفين من أن يصيبكم شيء، وطمعًا: رجاءً فيما عنده.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، وفي قراءة "نُشُرًا"؛ بُشرًا: مبشرات، ونُشُرًا: منتشرةً، واضحةً ظاهرةً. وفي قوله سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ﴾ أي ثقلت؛ السحاب يكون خفيفًا، أحيانًا في المناطق المرتفعة والجبال يأتيك السحاب ويدخل عليك لخفته، لأنه لم يُلقح، فإذا لُقح أصبح ثقيلًا؛ ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: 12].

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾؛ الأرض لا يخرج نباتها إلا نكدًا، أي: مُنكَّدًا، يعني بصعوبة.

ثم دخل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على القصص القرآنية؛ قال ﷻ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: على لسان رجل منكم، وهذا في خطاب الأنبياء.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾؛ القائل هم قوم عاد، قالوا لهود عليه السلام ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: أنت جاهل.

في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ هذا صالح عليه السلام أي: أنزلكم.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من الجثوم، وهو البروك على الأرض بحيث إنهم سقطوا لا يتحركون.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الباقين في الهلاك.

وفي قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾؛ هذا على لسان شعيب عليه السلام، أي: احكم بيننا؛ "افتح" يعني احكم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾؛ لم يقيموا فيها.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾، قال: "عفوا" يعني كثروا وأُعطوا الصحة والعافية.

١١١ - ﴿أَرْجِهْ﴾ أي أخره. وقد تهمز. يقال: أرجأت الشيء وأرجيته ومنه قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ يقرأ بهمز وغير همز. ومنه سميت المُرْجِئَةُ.

١١٣ - ﴿إِنَّ لَنَا لأَجْرًا﴾ أي جزاء من فرعون.

١١٦ - ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أرهبوهم.

١١٧ - ﴿تَلْقَفُ﴾ تَلْتَهِم وتَلْقَم.

١٢٦ - ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي صُبَّه علينا.

١٢٧ - ﴿الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أشرافهم ووجوههم. وكذلك الملأ من قومه [في كل موضع].

١٣٠ - ﴿أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ بالجَدْب. يقال: أصابت الناس سَنَةٌ: أي جَدْب.

١٣١ - ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ يعني الخصْب.

﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي هذا ما كنا نعرفه وما جرينا على اعتياده.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي قحط.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى﴾ وقالوا: هذا بشؤمه.

﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا عند موسى.

١٣٣ - ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ السيل العظيم. وقيل: الموت الكثير الذريع. وطوفان الليل: شدة سواده. وقال الراجز:

وَعَمَّ طُوفَانُ الظَّلامِ الأَثْأَبَا

١٣٣ - ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ بين الآية والآية فَصْلٌ ومُدَّة.

١٣٤ - و (الرِّجْزُ) العذاب.

١٣٦ - و (الْيَمّ) البحر.

١٣٧ - ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ أي: يبنون، والعروش: البيوت. والعروش: السقوف.

١٣٨ - ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ أي: يقيمون عليها مُعَظِّمين. كما يقيم العاكفون في المساجد.

١٣٩ - ﴿مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مُهْلَكٌ. والتَّبَارُ: الهلاك.

١٤١- ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: في إنجائه إياكم نِعْمَةٌ من الله عظيمة.

١٤٣- ﴿تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ أي: ظهر. أو ظهر من أمره ما شاء. ومنه يقال: جَلَوْت العروس: إذا أبرزتها. ومنها يقال: جَلَوْت المِرْآة والسيف: إذا أبرزته من الصدأ والطَبَع وكشفت عنه.

﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: ألصقه بالأرض. يقال: ناقةٌ دَكَّاء: إذا لم يكن لها سنام. كَأَنَّ سنَامها دُكَّ -أي أُلْصِق- ويقال: إنَّ دككت دققت فأبدلت القاف فيه كافا. لتقارب المخرجين.

﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أي: مغشيا عليه.

١٤٩- ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا. يقال: سقط في يد فلان: إذا ندم.

١٥٠- ﴿أَسِفًا﴾ شديد الغضب. يقال: آسفني فأسفت. أي: أغضبني فغضبت. ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

١٥٤- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي: فيما نسخ منها.

١٥٥- ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي: اختار من قومه. فحذف "مِنْ" والعرب تقول: اخترتك القوم. أي اخترتك من القوم.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخره، الإرجاء التأخير. قال ﷺ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: جزاءً من فرعون. ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أرهبوهم؛ أي جاؤوا بسحرٍ عظيمٍ واسترهبوهم وأخافوهم. ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تلقم. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صُبَّ علينا الصبر صبًّا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ يقول: الجدب والقحط. الفرق بين السنة والعام؛ فإن السنة دائمًا تكون في الجدب، والعام في الخير والعطاء؛ ولذلك قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]؛ فالعام دائمًا يكون للخير، والسنة يقال لها: "سنة مجدبة".

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي: الخصب. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ قال: سيل عظيم؛ أصيب قوم فرعون، أصابهم الله بالسيل العظيم، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ بين الآية والآية فَصْلٌ ومُدَّة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: العذاب. ومعنى اليم: البحر. وفي قوله ﷻ: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ﴾ أي: يلازمونها في العبادة. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾؛ التبار: الهلاك.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: الإنجاء، أو تعذيب فرعون بالبلاء.

قال تعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ ثم قال الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ﴾ أي: ظهر شيئًا قليلًا، ظهر منه شيء قليل جدًا لا يذكر؛ جعل الجبل مندكًا: متساويًا ملتصقًا. قال "دَكًّا" ولم يقل "دكاء"؛ يقول "دَكًّا" تعني: ألصقه بالأرض، "الدكاء" في سورة الكهف: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ [الكهف: 98] أي: سواه بالأرض، وهنا قال ﴿دَكًّا﴾ أي: ألصقه بالأرض.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عباد العجل، ندموا أشد الندم. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: شديد الغضب، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي: نسخة التوراة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾؛ اختارهم موسى عليه السلام للاعتذار عن عبادتهم العجل عند الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ أي: يختار من قومه.

١٥٦ - ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تُبنا إليك. ومنه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ كأنهم رجعوا عن شيء إلى شيء.

١٥٧ - ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ أي: يجدون اسمه مكتوبا أو ذِكْرَه.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ فكل خبيث عند العرب فهو مُحَرَّم.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: الثِّقل الذي كان بنو إسرائيل أُلزِمُوه.

وكذلك ﴿وَالأَغْلالَ﴾ هي الفرائض المانعة لهم مِنْ أشياء رُخِّصَ فيها لأمة محمد صلى الله عليه وعلى آله.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ عظّموه.

(الأَسْبَاطُ): القبائل. واحدها سبط.

١٦٠ - ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت. يقال: انبجس الماء كما يقال: تفجر.

١٦٣ - ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: يَتَعَدَّوْن الحق. يقال: عَدَوْتُ على فلان إذا ظلمته.

﴿شُرَّعًا﴾ أي: شَوَارِعَ في الماء. وهو جمع شَارع.

١٦٥ - ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد.

١٦٧ - ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعْلَمَ. وهو من آذنتك بالأمر.

﴿مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يأخذهم بذلك ويوليهم إيّاه. يقال: سُمْتُ فلانا كذا. وسوءُ العذاب: الجزية التي ألزموها إلى يوم القيامة والذلة والمسكنة.

١٦٨ - ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي: فرقناهم.

﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: اختبرناهم بالخير والشر والخصب والجدب.

١٦٩ - ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ والخَلْف: الرّدِيء من الناس ومن الكلام، يقال: هذا خَلْف من القول.

١٧١ - ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ أي زَعْزَعْناه. ويقال: نَتَقْتُ السِّقَاءَ: إذا نَفَضْته لتقتلع الزبدة منه. وكان نَتْقُ الجبل أنّه قُطِعَ منه شيء على قدر عسكر موسى فأظلّ عليهم. وقال لهم موسى: إما أن تقبلوا التوراة وإما أن يسقط عليكم.

١٧٥ - ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي أدركه. يقال: أتبعت القوم: إذا لحقتهم وتَبِعْتُهم: سِرْتُ في إثْرهم.

١٧٦ - ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ أي ركن إلى الدنيا وسكن.

﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ تطرده.

﴿يَلْهَثْ﴾ وهذا مفسر في كتاب "المشكل".

١٧٩- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي خلقنا لجهنم. ومنه ذُرِّيَّةُ الرجل: إنما هي الخَلْق. ولكن همزها يتركه أكثر العرب.

١٨٠- ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: الرحمن والرحيم والعزيز. وأشباه ذلك.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: يجورون عن الحق ويعدلون. فيقولون: اللات والعزى ومناة، وأشباه ذلك. ومنه قيل: لحد القبر. لأنه في جانب.

١٨٣- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أؤخرهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: شديد.

١٨٤- ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي جنون.

١٨٧- ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى ثُبُوتها. يقال: رسا في الأرض: إذا ثبت؛ ورسا في الماء: إذا رسب. ومنه قيل للجبال: رواسٍ.

﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها. يقال: جلّى لي الخبر: أي كشفه وأوضحه.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي خفي علمُها على أهل السماوات والأرض، وإذا خفي الشيء ثقل.

﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي مَعْنِيٌّ بطلب علمها. ومنه يقال: تَحَفَّى فلان بالقوم.

١٨٩- ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت بالحمل.

﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا﴾ ولدًا سويًا بشرًا ولم [تجعله بهيمة] مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

١٩٩- ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: الميسور من الناس.

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [أي بالمعروف].

٢٠٠- ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ أي يستخفنك. ويقال: نزغَ بيننا: إذا أفسد.

٢٠٢- ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي يطيلون لهم فيه.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ شياطينهم. يقال: لكل كافر شيطان يغويه.

٢٠٣- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلا اخترت لنا آية من عندك. قال الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾.

٢٠٥- ﴿وَالآصَالِ﴾ آخر النهار. وهي العشى أيضا.

٢٠٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني الملائكة.

الشرح

هذا ما تبقى من سورة الأعراف. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾؛ هدنا أي: تبنا إليك، وهذه من معاني الهداية؛ تطلق ويراد بها التوبة. والمؤلف قال: (ومنه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾)؛ فاليهود سموا "يهودًا" أو سموا بالذين هادوا من التوبة، هذا رأيٌ، وبعضهم يقول لا، إنهم نسبةٌ إلى "يهوذا" وهو أحد أبناء يعقوب، -والله أعلم-؛ قد يكون هذا المعنى صحيحًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾؛ قال: يجدون اسمه مكتوبًا أو ذكره أو أوصافه، ثم قال ﷻ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ في تفسير كلمة الخبائث قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فكل خبيث عند العرب فهو مُحَرَّم)؛ وهذا يحتاج إلى قيدٍ أو تعبيرٍ أدق؛ الخبيث: كل ما تستخبثه العرب والعقل السليم والشرع؛ لابد، أحيانًا العرب قد تستحل أشياء هي خبائث والقرآن حرمها والشريعة حرمتها، فبعضهم يأكلون أشياء من الخبائث ويستحلونها، وليس كل ما تستحله العرب أو تستخبثه يكون على الإطلاق؛ فقد تستخبث أشياء طيبةً.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾؛ الأثقال والأغلال كلها، يعني من باب التخفيف؛ أن محمدًا ﷺ جاء بالتيسير. قال ﷻ: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾؛ التعزير قال هو: التبجيل والتعظيم.

((الأَسْبَاطُ): القبائل. واحدها سبط) من هم الأسباط؟ الصحيح أنهم قبائل بني إسرائيل، والأسباط ليسوا أبناء يعقوب عليه السلام المباشرين؛ لا، بل الأسباط هم قبائل بني إسرائيل المتفرعة من أبناء يعقوب عليه السلام، يعني يعقوب عليه السلام عنده اثنا عشر ابنًا، هؤلاء الأبناء تفرعت منهم أسباطٌ وقبائلُ؛ ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160] أي: قبائلَ، ولذلك تسمع في القرآن يقول لك: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: 136]؛ لا نقول الأسباط هم أبناء يعقوب؛ فأبناء يعقوب -ما عدا يوسف- لم يوحَ إليهم، الأسباط هم الأنبياء الذين في قبائل بني إسرائيل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ انبجست أي: انفجرت، وهذا نسميه تفسيرًا تقريبيًا وليس دقيقًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60] ففي البقرة قال "انفجرت" وهنا قال "انبجست"، الفرق بينهما: الانبجاس بداية ظهور الماء، والانفجار قوته؛ ولذلك لاحظ أن الأعراف مكيةٌ والبقرة مدنيةٌ؛ فبدايته ثم اشتد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، معنى شرعًا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: شَوَارِعَ في الماء. وهو جمع شَارع) أي كثيرةً؛ الشيء الكثير يشرع الماء فتصبح "شِرعةً" أو "شرعًا"، يعني شريعة الماء، إذا أصبح الماء كثيرًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم ربك، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾؛ أي هم اليهود بأنهم تنكبوا وعاندوا وأصروا على كفرهم، فعاقبهم الله بسوء العذاب وقطعهم وفرقهم فرقًا؛ قبل نحو مائة سنة أو أكثر لم تكن لهم دولة، كانوا مفرقين في العالم؛ يهودٌ في ألمانيا، ويهودٌ في اليمن، ويهودٌ في المغرب، ويهودٌ في روسيا، مشتتين، قد قطعهم الله في الأرض أممًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾؛ "الخَلْفُ" -بالسكون- دائمًا يراد به الرديء؛ ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [مريم: 59]، لكن بفتح اللام "خَلَف" يراد به المدح، مثل الذين يأتون بعد السلف؛ فيقال: "طريقة السلف وطريقة الخَلَف". فالخَلَف (بالفتح) وصفٌ يراد به المدح، والخَلْف (بالسكون) يراد به الذم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾؛ هؤلاء السبعون الذين ذهبوا مع موسى عليه السلام ترددوا ولم يقبلوا، فنتق الله الجبل فوقهم، أي: قلعه من جذوره حتى يقبلوا.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾؛ هذا في قصة الرجل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ لما كان تحت ولاية الله ما جاءه الشيطان، فلما خرج تسلط عليه الشيطان؛ ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

ومعنى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: ركن إلى الدنيا. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا لجهنم ذريةً كثيرةً، ذرأهم بمعنى خلقهم، ويقال بالهمز وغير الهمز؛ تقول: "ذريئة" و"ذرية".

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى ترسو وتثبت؟ متى تقع؟ فأجابهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ معنى ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي: لا يكشفها.

ومعنى حَفيّ في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ أي: معنيٌّ بها، تهتم بها جدًا، اهتمامك بها يجعلك كأنك حفيٌّ. ولذلك إبراهيم عليه السلام ماذا يقول عن ربه؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47] يعني عناية الله بي عظيمةٌ، وأنت تقول: "زرتُ فلانًا فوجدتُ عنده حفاوةً" يعني اهتمامًا بي كثيرًا، يعني اهتم بي واعتنى بي؛ هذه هي الحفاوة، "حفي" هنا: ﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، أي أنك تطلب علمها، وليس لك أن تطلبها؛ ليس الأمر لك، "تحفو" يعني تطلب بقوةً وتسأل عنها، وكأنك أنت عندك علمٌ بها وما عندك علمٌ.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قصة آدم وحواء: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾؛ في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾، معنى "مرت به" أي استمرت، ليست "مرت" من المرور؛ لا، هذا خطأ. هذه من الآيات التي يقع فيها كثيرٌ من الناس في الخطأ؛ "مرت" يعني استمرت بالحمْل.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾؛ هذه أعظم آيةٍ في الأخلاق، أعظم آيةٍ في كتاب الله في الأخلاق؛ هذه الآية اشتملت على ثلاثة أشياء: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: خذ العفو أي ما تيسّر، لا تكلف نفسك؛ إذا جلست مع زملائك لا تشق

عليهم، خذ ما تيسر، إذا جلست مع أولادك وزوجتك خذ ما تيسر؛ لا تلح بكثرة السؤال عن الكيف والسبب وغيرها، دع الأمور تمرّ بخفة؛ خذ العفو، وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين.

بقية الآيات واضحةٌ جدًا.

سورة الأَنْفَالِ

﴿الأَنْفَالِ﴾ الغنائم. واحدها نَفَلٌ. قال لَبِيد:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْر نَفَلْ ❊❊❊ وبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ

٧- ﴿ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ ذات السلاح. ومنه قيل: فلان شاكُّ السلاح.

٩- ﴿مُرْدِفِينَ﴾ رَادِفين يقال: ردفته وأردفته: إذا جئت بعده.

(الأَمَنَةُ): الأمن.

١١- ﴿رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ كيده. والرِّجز والرِّجْس يتصرفان على معان قد ذكرتها في كتاب "المشكل".

١٢- ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أي الأعناق. و (البَنَانُ): أطراف الأصابع.

١٣- ﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ نابذُوه وبَايَنُوه.

١٦- ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ يقال: تَحَوَّزْتُ وتحيَّزت. بالياء والواو. وهما من انحزت. و (الفِئَةُ): الجماعة.

﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ﴾ أي: رجع بغضب.

١٩- ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تسألوا الفتح، وهو النصر.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وذلك أن أبا جهل قال: اللّهم انصر أحبّ الدينين إليك. فنصر الله رسولَه.

٢٢- ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني شر الناس عند الله.

﴿الصُّمُّ﴾ عما بعث رسوله صلى الله عليه وسلم من الدين.

﴿الْبُكْمُ﴾ يعني الذين لا يتكلمون بخير ولا يفعلونه. والبكم: الخرس.

٢٤- ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ بين المؤمن والمعصية وبين الكافر والطاعة. ويكون: يحول بين الرجل وهواه.

٢٥- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يقول: لا تصيبن الظالمين خاصة، ولكنها تعم فتصيب الظالم وغيره.

٢٩- ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي مَخْرَجًا.

٣٠- ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يحبسوك. ومنه يقال: فلان مُثْبَتٌ وَجَعًا: إذا لم يقدر على الحركة. وكانوا أرادوا أن يحبسوه في بيت ويسدوا عليه بابه ويجعلوا له خرقا يدخل عليه منه طعامه وشرابه. أو يقتلوه بأجمعهم قتلة رجل واحد. أو ينفوه.

و (المُكَاءُ): الصَّفِيرُ. يقال: مكَا يَمْكُو. ومنه قيل للطائر: مُكَاء لأنه يَمْكُو. أي: يَصْفِر.

و (التَّصْدِيَةُ): التصفيق. يقال: صدى إذا صفّق بيده، قال الراجز:

ضَنَّتْ بخَدّ وثَنَتْ بِخَدِّ *** وإنِّيَ مِنْ غرْو الهوى أُصَدِّي

الغَرْو: العجب. يقال: لا غَرْو من كذا وكذا: أي لا عجب منه.

٣٧- ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ أي: يجعله رُكَامًا بعضه فوق بعض.

٤٢- ﴿الْعُدْوَةِ﴾ شَفِير الوادي. يقال: عُدْوة الوادي وعِدْوته.

٤٣- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ أي: في نومك ويكون: في عينك؛ لأن العين موضع النوم.

٤٦- ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي دَوْلَتكم. يقال: هبت له ريح النصر. إذا كانت له الدّولة. ويقال: الريح له اليوم. يراد له الدّولة.

٤٨- ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أي رجع القَهْقَرى.

٥٧- ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ أي تظفر بهم.

﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: افعل بهم فعلا من العقوبة والتَّنْكِيل يَتَفَرّق بهم مَنْ وراءَهم من أعدائك. ويقال: شرّد بهم سَمِّع بهم بلغة قريش.

قال الشاعر:

أُطَوِّفُ فِي الأبَاطِحِ كُلَّ يَوْمٍ *** مَخَافَةَ أَنْ يُشَرِّدَ بِي حَكِيمُ

ويقال: شرّد بهم أي نكِّل بهم. أي اجعلهم عظة لمن وراءهم وعبرة.

٥٨- ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ ألق إليهم نَقْضَك العهدَ لتكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء.

٥٩- ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي فاتوا. ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾

٦٠- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: من سلاح.

٦١- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ أي مالوا للصلح.

٦٨- ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي قضاء سبق بأنه سيحل لكم المغانم.

٧٣- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يريد هذه الموالاة أن يكون المؤمنون أولياء المؤمنين. والمهاجرون أولياء الأنصار. وبعضهم من بعض - والكافرون أولياء الكافرين. أي: وإن لم يكن هذا كذا، كانت فتنة في الأرض وفساد كبير.

٧٥- ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ﴾ الواحد منه "ذو" من غير لفظه وهو و"ذو" واحد.

الشرح

بسم الله. هذه سورة الأنفال، مثل ما ذكر ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها مدنيةٌ، نزلت في السنة الثانية، بعد غزوة بدر وهي تتحدث عن غزوة بدر، كما أن آل عمران تتحدث عن غزوة أحد.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾؟ الأنفال: هي الغنائم.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتُرِيدُونَ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ الشوكة: أي السلاح؛ الآية بمعنى: لا تريدون الحرب، تريدون الغنائم، تريدون أن تحصلوا على قافلة أبي سفيان المحملة بالأرزاق، إمّا العير أو النفير؛ فتريدون العير دون المواجهة، ولكن الله أراد هذا الأمر وصار خيرًا في عز الإسلام والقضاء على الشرك.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ كلمة مردفين تحتمل أمرين: إما أن يكون بعضهم خلف بعضٍ، أو يكون الخيل عليها اثنان من الملائكة أحدهما يردف الآخر معه، يقول: أردفته أي جئت بعده، أو أردفته أي حملته معي.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: لتكونوا أنتم الأعلى، هذا معنى التعبير، لتكون قوتكم فوقهم فتضربون أعناقهم؛ فأعناقهم تسقط أمامكم، ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: الأيدي حتى يسقط السلاح الذي في يده.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾؛ أي: ينحاز إلى فئةٍ أخرى.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا﴾ أي: تطلبوا الفتح والنصر ونزوله عليكم؛ ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، هذا خطابٌ للمشركين، المشركون كانوا يستفتحون ويقولون: الآن فرصة لنا، محمدٌ وأصحابه قد جاءوا، ونحن أكثر عددًا وعدةً، سنقضي عليهم وننهيهم؛ فظنوا أنهم سينتصرون، ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أبا جهلٍ قال: "اللّهم انصر أحب الدينين إليك"، فنصر الله دين رسوله محمدٍ ﷺ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي: بين الإنسان المؤمن والمعصية، أو بين الكافر والطاعة، يحول الله عَزَّوَجَلَّ أي: يمنعه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؛ أن العقوبة إذا نزلت تعمّ الصالح والطالح، هذا معنى لا تصيبن؛ لا تظن أنها تصيب الظلمة فقط، لا، حتى غير الظلمة تصيبهم، وكل يبعث على ما هو عليه. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: مخرجًا.

معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في الآية: ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾؛ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: يسجنوك؛ يغلقون عليك بيتك حتى لا تخرج، أو يقتلوك، أو يخرجوك من مكة.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾؛ المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق. كانوا يطوفون بالبيت عراةً، الرجال في النهار والنساء بالليل، وكان طوافهم تصفيقًا وصفيرًا فقط، أهذه عبادة! ليست عبادةً.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: قوتكم. ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ الشيطان رجع القهقرى.

قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أي: نكّل بهم، حتى يعتبر غيرهم بهم.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: إذا علمت وبدأت لك ظهرت لك علامات الخيانة من قومٍ، فانبذ العهد الذي بينك وبينهم حتى يعرفوا أنه ليس بينك وبينهم عهد.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: لا تحسبن يا محمد أو أيها المخاطب الذين كفروا سبقوا؛ هذه قراءةٌ، والقراءة الأخرى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾، قراءة حفص: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ نغير الحرف يتغير كل شيء، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ و﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾؛ الكلمة واحدةٌ لم تتغير، لكن مَن هم الذين يحسبون؟ يرجع الفعل إلى مَن؟ إذا قرأتها: "ولا يحسبَنَّ"؛ أي الكفار لا يظنون، وإذا قرأتها: "تحسبَنَّ"؛ أي أنت.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾؛ من القوة أي: من سلاحٍ، على أي صورةٍ من صور السلاح.

قوله ﷻ: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ أي: مالوا للصلح؛ السَّلْم والسِّلْم كلاهما معناهما الصلح.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ أي: لولا أن الله قد كتب الغنائم بأنها حلالٌ لهذه الأمة.

سورة التوبة

١ - ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي تَبَرؤٌ من الله ورسوله إلى من كان له عهد من المشركين.

٢ - ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي اذهبوا آمنين أربعة أشهر أو أقل [من كانت مدة عهده إلى أكثر من أربعة أشهر أو أقل] فإن أجله أربعة أشهر.

٣- ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي إعلام. ومنه أذَان الصلاة إنما هو إعلام بها. يقال: آذَنْتُهم إيذَانًا فأَذِنُوا إذْنًا. والأذن اسم مبنى منه.

﴿الْحَجِّ الأَكْبَرِ﴾ يوم النَّحْر. وقال بعضهم: يوم عَرَفَة. وكانوا يسمون العُمْرَة: الحج الأصغر.

٤ - ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعينوه والظهير: العَوْن.

﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ﴾ يريد: وإن كانت أكثر من أربعة أشهر. هؤلاء بَنُو ضَمرة خاصة.

٥ - ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ وآخرها المُحَرَّم.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني من لم يكن له عهد.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: أسروهم. والأسير: أخِيذ.

﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ احبسوهم. والحَصْر: الحبس

﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: كل طريق يرصدونكم به.

٨- و (الإلُّ): العهدُ ويقال: القرابة، ويقال: الله جل ثناؤه. و (الذمة): العهد.

١٦ - (الْوَلِيجَةُ): البِطَانة من غير المسلمين، وأصله من الولوج. وهو أن يتخذ الرجل من المسلمين دخيلا من المشركين وخليطا ووُدًّا.

٢٨- ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أي: قذَر.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقرا بتركهم الحمل إليكم التجارات، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾

٢٩- ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ﴾ يقال: أعطاه عن يد وعن ظهر يَدٍ: إذا أعطاه مبتدئا غير مُكافئ.

٣٠- ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يشبهون. يريد أن من كان في عصر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يقولون ما قاله أَوَّلُوهم.

٣١- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد: أنهم كانوا يحلّون لهم الشيء فيستحلونه. ويُحَرِّمون عليهم الشيءَ فيحرمونه.

٣٦- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الحساب الصحيح والعدد المستوي. والأربعة الحرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. ورجب الشهر الأصم.

وقال قوم: هي الأربعة الأشهر التي أَجَّلَهَا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم المشركين فقال: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم. واحتجوا بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وأنكروا أن يكون رجب منها. وكانت العرب تعظم رجب وتسمّيه مُنْصِلَ الأَسِنَّة ومُنصلَ الأَلِّ؛ لأنهم كانوا ينزعون الأسنة فيه والأَلَّ وهي الحراب. ويسمونه أيضا: شهر الله الأصم؛ لأنهم كانوا لا يحاربون فيه لأنه محرم عليه. ولا يسمع فيه تداعي القبائل أو قعقعة السلاح. قال الأعشى:

تَدَارَكَهُ في مُنْصِلِ الأَلِّ بعْدَمَا ❊❊❊ مَضَى غير دَأْدَاءٍ وقد كادَ يَذْهَبُ

وقال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْر يصف إبلا:

رَعَيْنَا المُرَارَ الجَوْنَ مِنْ كُلِّ مِذْنَبٍ ❊❊❊ شهورَ جُمَادَى كلها والمُحَرَّما

يريد بالمحرم رجبا.

وأما قوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ فإنما عنى الثلاثة منها؛ لأنها متوالية لا أَنَّهُ جعل فيها شوَّالا وأخرج رجبًا.

ويقال: إن الأربعة الأشهر التي أَجَّلها رسول الله المشركين من عشر ذي الحجة إلى عشر ربيع الآخر وسماها حُرُمًا لأن الله حرم فيها قتالهم وقتلهم.

٣٧- و ﴿النَّسِيءُ﴾ نَسْءُ الشهور، وهو تأخيرها. وكانوا يؤخرون تحريم المحرم منها سنة، ويحرمون غيره مكانه لحاجتهم إلى القتال فيه، ثم يردونه إلى التحريم في سنة أخرى. كأنهم يستنسئون ذلك ويستقرضونه.

﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ أي ليوافقوا.

﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يقول: إذا حرموا من الشهور عدد الشهور المحرمة لم [يُبَالُوا] أن يحلُّوا الحرام ويحرِّموا الحلال.

٣٨- ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ أراد تثاقلتم فأدغم التاء في الثاء وأحدث الألف ليسكن ما بعدها. وأراد: قعدتم ولم تخرجوا [وركنتم] إلى المقام.

الشرح

سورةُ التوبةِ سماها المؤلفُ بسورةِ التوبةِ، وهذا هو الاسمُ المشهورُ، وتسمى بـ"براءة" ولها أسماءٌ كثيرةٌ، وأكثرُها أوصافٌ أو أسماءٌ اجتهادية من الصحابةِ.

سورةُ التوبةِ لم تُفتتح بالبسملةِ، هي الوحيدةُ فقط؛ لأنها نزلتْ بالسيفِ، أو لأنَّ اللهَ لم يُنزلْ بها البسملةَ ولم يأمرْ رسولَهُ أن يأتيَ بالبسملةِ فيها، قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ يقولُ البراءةُ من "تبرأتُ من الشيءِ"، يقولُ أي: تبرؤٌ من اللهِ ورسولِهِ إلى مَن كانَ له عهدٌ من المشركينَ؛ أي معناها نقضُ العهودِ والمواثيقِ التي بينَ المؤمنينَ والمشركينَ.

هذهِ السورةُ -أو صدرُ هذهِ السورةِ إلى آيةِ أربعينَ تقريبًا- نزلتْ عن النبيِّ ﷺ في العامِ التاسعِ، وحجَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه بالناسِ، ولما حجَّ أبو بكرٍ بالناسِ بعثَ النبيُّ ﷺ عليًا رضي الله عنه بصدرِ هذهِ السورةِ ليقرأَها على المشركينَ، وقالَ: «ألا لا يحجُّ بعدَ هذا العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ».

ثم اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعطى المشركينَ مهلةً؛ الذين لهم عهود بينَهم وبينَ النبيّ ﷺ يُعطَوْنَ مهلةً حتى تنقضيَ عهودُهم ولا ينقضوا عهودَهم، والذين ليس لهم عهود فيُعطَوْنَ مهلةً أربعةَ أشهرٍ، أو تكونُ عهودُهم أقلَّ من الأربعةِ أشهرٍ فيُعطَوْنَ المهلةَ لينظروا في الإسلامِ ليدخلوهُ.

قالَ: ﴿فَسِيحُوا﴾ أي: اذهبوا آمنينَ، لن يتعرضَ لكم أحدٌ ولن يقاتلَكم أحدٌ؛ فانظروا في الإسلامِ لعلكم تدخلونَ فيهِ، ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هذهِ الأربعةُ الأشهرِ على الصحيحِ -مع وجودِ خلافٍ فيها- الصحيحُ أنها أربعةُ أشهرٍ هي "أشهرُ المهلةِ"؛ وليست "الأشهرَ الحرمَ"، هذا هو الصحيحُ أنها ليستِ الأشهرَ الحرمَ؛ فالأشهرُ الحرمُ باقيةٌ قبلَ الإسلامِ وبعدَ الإسلامِ في التحريمِ، ليس لها علاقة هنا. إعطاؤُهم فرصةً أربعةَ أشهرٍ، قيلَ: هذهِ الأربعةُ الأشهرِ هي التي بدأتْ من العاشرِ من شهرِ ذي الحجةِ، لمَّا حجَّ أبو بكرٍ رضي الله عنه بالناسِ ووصلَ إليهِ عليٌّ رضي الله عنه، فقرأَ على المشركينَ هذهِ الآيةَ؛ أُعطوا فرصةً ينظروا في الإسلامِ ويذهبوا آمنينَ؛ تبدأُ من عشرِ ذي الحجةِ إلى عشرِ ربيعٍ الآخرِ، هذهِ الأشهرُ الأربعةُ وهو القولُ الذي ذكرَهُ المؤلفُ في آخرِهِ.

ثم قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: إعلامٌ لهؤلاءِ المشركينَ أو للناسِ عمومًا ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾؛ قيلَ: هو يومُ عرفةَ، وقيلَ: هو يومُ النحرِ، والصحيحُ أنهُ يومُ النحرِ، وهذا هو تفسيرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ووردَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم وعن الصحابةِ أنَّ الحجَّ الأكبرَ هو يومُ النحرِ، وهو الذي وقفَ فيهِ أبو بكرٍ رضي الله عنه ونادى في الناسِ، وأذانُهُ وإعلامُهُ لهؤلاءِ يومَ الحجِّ الأكبرِ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾؛ أي أيضًا رسوله صلى الله عليه وسلم بريءٌ من المشركينَ، ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ مهلةً لكم.

قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾؛ أي الذين لهم عهود ولم ينقضوها ولم يظاهروا عليكم أحدًا -أي لم يعينوا عليكم أحدًا-؛ فأتموا إليهم هؤلاءِ عهودَهم حتى تنتهيَ، فمَن كان عهدُهُ دونَ أربعةِ أشهرٍ يُعطى مهلةَ أربعةِ أشهرٍ، يقال هؤلاءِ هم بنو ضمرةَ، أو غيرُهم ممن كان بينهم وبينَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم عهد.

قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾؛ المرادُ بالأشهرِ الحرمِ هنا فيها خلاف، والصحيحُ ما ذكرناهُ -واللهُ أعلمُ- أنها أشهرُ المهلةِ، قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، أو يقالُ: إنها الأشهرُ الحرمُ المعروفةُ (ذو القعدةِ وذو الحجةِ والمحرمُ ورجبٌ)، لكنَّ الذي يظهرُ -واللهُ أعلمُ- أنها أشهرُ المهلةِ؛ لأنهُ بعدَ المهلةِ يُقتلُ المشركُ حيثُ كان، فقد انتهتِ العهودُ.

يقولُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؛ ﴿إِلًّا﴾ أي: العهدُ والقرابةُ، والذمةُ: العهدُ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ وليجة: البطانةُ من غيرِ المسلمينَ، يقولُ اتخذوا بطانةً من غيرِ المسلمينَ، كما قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: 118].

يقولُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ قالَ: قذرٌ، والنجاسةُ هنا نجاسةٌ حسية ومعنوية، والمعنويةُ أظهرُ؛ لأنَّ المشركَ نجسٌ نجاسةً معنويةً، وإذا نَجُسَ نجاسةً معنويةً فإنهُ أيضًا ينجسُ نجاسةً حسيةً؛ بمعنى أنهُ لا يتنزهُ عن النجاساتِ الحسيةِ، فلا يغتسلُ من جنابةٍ، ولا يتطهرُ من قذرٍ ونحوِهِ.

يقولُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقرًا، بسببِ أنكم إذا قاتلتم أهلَ مكةَ وقاتلتم المشركينَ فسيصيبُكم الفقرُ؛ لأنَّ مكةَ يأتيها الرزقُ والأرزاقُ تأتيها من كلِّ مكانٍ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي إذا خفتم من المشركينَ أن يمنعوكم من الخيرِ ويمنعوكم من الأرزاقِ؛ فقد يفتحُ اللهُ لكم خيرًا من ذلكَ، وهو مقاتلةُ اليهودِ والنصارى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، حتى يعطوا جزيةً؛ يعني يرزقُكم اللهُ بدفعِ الجزيةِ من اليهودِ والنصارى. قالَ: ﴿عَن يَدٍ﴾، قالَ أي: ظهرِ يدٍ؛ إذا أعطى مبتدئًا غيرَ مكافئٍ.

قولُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي اليهودُ والنصارى؛ لمَّا قالتِ اليهودُ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، وقالتِ النصارى: المسيحُ ابنُ اللهِ ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي يُشبهونَ الكفارَ في عبادتِهم أو في دعواهُم أنَّ للهِ ولدًا، يشبهونَهم في هذهِ الدعوى، قالَ ﷻ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ كيفَ اتخذوهم أربابًا؟ كما قالَ عديُّ بنُ حاتمٍ: "ما اتخذناهم أربابًا يا رسولَ اللهِ"، قالَ: «أليسوا يحلونَ ما حرَّمَ اللهُ فتستحلونَهُ، ويحرمونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرمونَهُ؟» قالَ: بلى، قالَ: «فتلكَ عبادتُهم». فمعناه أنهم كانوا يحلونَ لهم الشيءَ فيستحلونَهُ، ويحرمونَهُ فيحرمونَهُ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هذهِ الأشهرُ الحرمُ المعروفةُ: ذو القعدةِ، وذو الحجةِ، والمحرمُ (ثلاثةٌ سُرُدٌ)، ورجبُ (الفردُ)؛ هذهِ هي الأشهرُ الحرمُ؛ لأنها جاءتْ في تقسيمِ الأشهرِ الاثني عشرَ. المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ تكلَّمَ كلامًا طويلًا في هل هي أشهرُ المهلةِ أو أشهرُ الحرمِ؟ والصحيحُ أنَّ أشهرَ المهلةِ مرَّتْ وانتهتْ، وهذهِ أشهرُ الحرمِ.

قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ النسيءُ هو التأجيلُ والتأخيرُ، وكانوا يؤخرونَ لأنَّ الأشهرَ الثلاثةَ عليهم طويلة، وهم يعتمدونَ على السلبِ والنهبِ في أرزاقِهم، فإذا أعطوا هذهِ المدةَ الطويلةَ لا يقتلونَ أحدًا ولا يتعرضونَ لأحدٍ؛ ستطولُ عليهم فيصيبُهم الجوعُ، فماذا صنعوا؟ قدَّموا وأخَّروا؛ فقالوا نجعلُ ذي القعدةِ محرَّمًا، وذي الحجةِ محرَّمًا، ونبدلُ صَفَر مكانَ محرَّمٍ، ومحرَّمٍ مكانَ صَفَر؛ فقدَّموا وأخَّروا، وضيَّعوا الأشهرَ والسنينَ، فهذا هو معنى النسيءِ؛ يؤخرونَ تحريمَ المحرَّمِ بعدَ صَفَر حتى يقولوا هذا صَفَر، وصَفَر نقاتلُ فيهِ؛ فتحايلوا على اللهِ ﷻ. قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُوَاطِئُوا﴾ أي: ليوافقوا عِدَّةَ ما حرَّمَ اللهُ، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قوله ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ أي: تثاقلتم؛ والتثاقلُ يعني عدمُ الحرصِ على القيامِ بسرعةٍ، "ثقيلُ القيامِ".

٤٠- ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ السكينة: السكون والطمأنينة. (عليه) قال قوم: على أبي بكر واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلمُ كان مطمئنا يقول لصاحبه: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ والمَذْعُورُ صاحبه فأنزل الله السكينة.

﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أي قواه بملائكة. قال الزهري الغار في جبل يسمى "ثورا" ومكثا فيه ثلاثة أيام.

٤١- ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا﴾ أي: لينفر منكم من كان مخفا ومثقلا. و"المخف": يجوز أن يكون: الخفيف الحال، ويكون: الخفيف الظهر من العيال. و"المثقل": يجوز أن يكون: الغني. [ويجوز أن يكون الكثير العيال]. ويجوز أن يكون [المعنى] شبابا وشيوخا. والله أعلم بما أراد. وقد ذهب المفسرون إلى نحو مما ذهبنا إليه.

٤٢- ﴿الشُّقَّةُ﴾ السَّفَر.

٤٧- ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالا﴾ أي شرا. [والخبال] والخبل: الفساد.

﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ من الوَضْع، وهو سرعة السير. يقال: وضَع البعير وأوضَعْته إيضاعا. والوجِيفُ: مثله. و ﴿خِلالَكُمْ﴾ فيما بينكم.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يعني الشرك.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين يسمعون ما يقولون ويقبلونه.

٥٠- ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي ظفر.

﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ أي نكبة يفرحوا بها و ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي أخذنا الوَثيقَةَ فلم نخرج.

٥٢- ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ الشهادة. والأخرى: الغنيمة.

٥٧- ﴿أَوْ مُدَّخَلا﴾ أي: مُدخلا يدخلونه.

﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ أي لرجعوا عنك إليه.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون [روغانا عنك] ومنه قيل: فرس جَمُوح إذا ذهب في عَدْوه فلم يثنه شيء.

٥٨- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبك ويطعن عليك. يقال: هَمَزْتُ فلانا ولَمَزْته. إذا اغتبته وعبته [ومنه قوله تعالى]: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾.

الشرح

عندنا الآن من الآية الأربعين وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ هذه أنزلها الله في عام الهجرة لما تختفّى النبي ﷺ في غار ثور فقال ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وأيده بالملائكة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ خفافًا وثقالًا تحتمل عدة معاني ذكرها المفسرون؛ خفيف الظهر وثقيل الظهر، وخفيف الأولاد، وسلاح وبدون سلاح، وصغار وكبار، هذه كلها عدة تفاسير.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ الشقة: السفر، المسافة البعيدة تحتاج إلى سفر طويل. في قوله ﷻ: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ خبالًا أي شرًا، والخبال: الشر، والوضع: سرعة السير ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يسرعون للإرجاف وإظهار الفتنة. بعدها قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي في هؤلاء في صفوف المسلمين، منافقون يسمعون ويثيرون مثل هذه الأشياء.

تفسير المؤلف واضح حين قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ الشهادة. والأخرى: الغنيمة.). قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ مدخلًا: أي مدخلًا يدخلونه، ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي وهم يسرعون. قوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ ومنهم أي ينافقون، يلمزك في الصدقات: يعيبك، ويطعن عليك في الصدقة، فإذا أتى بصدقة قليلة قال: الله غني عنك، وإذا أتى بصدقة كثيرة، قال: هذا يرائي في صدقته، يعني لا يسلم منهم، لا من يتصدق بالقليل ولا بالكثير.

٦٠- ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ وهم ضُعفاء الأحوال الذين لهم البُلْغة من العَيْش.

﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين ليس لهم شيء. قال قتادة الفقير: الذي به زَمَانَة؛ والمسكين: الصحيح المحتاج.

﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي عمال الصدقة وهم السّعاة.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يَتَأَلَّفُهم على الإسلام.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي المُكَاتَبِين. أراد: فَكَّ الرِّقاب من الرِّق.

﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ مَنْ عليه الدَّيْن ولا يجد قضاء. وأصل الغرم: الخسران. ومنه قيل في الرهن: له غُنْمُه وعليه غُرْمه. أي ربحه له وخسرانه أو هلاكه عليه. فكأن الغارم هو الذي خسر ماله. والخُسْران: النقصان. ويكون الهلاك. قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ وقد يشتق من الغُرْم اسم للهلاك خاصة. من ذلك قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي هلاكا. ومنه يقال: فلان مُغْرَمٌ بالنساء أي مهلك بهن. ويقال: ما أشد غَرَامه بالنساء وإغْرَامه، أي هلاكه بحُبِّهن.

الشرح

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لكلمة "الفقراء": (الذين لهم البُلْغة من العَيْش)، البلغةُ؛ تعني عندهم شيءٌ قليلٌ لا يسدُّ كفايتَهم، ليس عندهم إلا قليل جدًا، أو معدومونَ أحيانًا، ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ (الذين ليس لهم شيء) كأنَّه يرى أنَّ المسكينَ أشدُّ من الفقيرِ، مع أنَّ الأشهرَ أنَّ الفقيرَ أشدُّ من المسكينِ؛ يقولُ: المسكينُ عندَهُ قوتُ يومِهِ، والفقيرُ عندَهُ نصفُ قوتِهِ -أي أقلَّ- أو ليسَ عندَهُ شيء، والفقيرُ أشدُّ لأنَّ اللهَ ابتدأ بِهِ فقالَ: ﴿الْفُقَرَاءِ﴾ ثم ﴿الْمَسَاكِينِ﴾، المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأى أنَّ المسكينَ أشدُّ، بقوله: المسكينُ لأنَّ الحاجةَ أسكنتْهُ حتى سقطَ على الأرضِ؛ لم يعد يستطع الحراك من الفقرِ، كلٌّ له وجه. قال قتادةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال قتادة الفقير: الذي به زَمَانَة) الزمانةُ هي المرضُ، أي فيهِ عاهةٌ، والمسكين هو الصحيحُ المحتاجُ.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ العاملونَ عليها هم الجُباةُ والسعاةُ الذين يذهبونَ يأتونَ بالزكاةِ؛ لأنها أحيانًا تكونُ لأصحابِ مزارعَ، وأصحابِ أغنامٍ، وأصحابِ إبلٍ، فيضطرونَ يذهبونَ إليهم يأخذونَ منهم الزكواتِ؛ اللهُ ﷻ أمر بإعطائهم من الزكاة، لكن يُعطوا إذا لم تكن لهم مرتبات شهرية من الدولةِ أو من الحاكمِ أو من الأميرِ؛ إذا لم يُصرفْ لهم نعطيهم لأنهم تفرغوا لهذه الأشياءِ فيُعطَوْنَ من الزكاةِ، أما إذا كانت لهم مرتبات مثلَ وقتِنا الحاضرِ -الآنَ هم موظفو الدولةِ يُعطَوْنَ رواتبَ، فأحيانًا يذهبونَ إلى مناطقَ بعيدةٍ في المملكةِ ويجبونَ الزكواتِ من أصحابِ المصانعِ، ومن أصحابِ المزارعِ، والبهائمِ (الأغنامِ والإبلِ)، فإذا عندهم مرتبات لا يُعطَوْنَ، والذي يظهرُ الآنَ - في العصرِ الحاضرِ القرب- لا أظنُّ أنه يوجد جُباةٌ يذهبونَ لجمع الزكاة؛ لأنهُ أصبحَ كلُّ شيءٍ إلكترونيًا غالبًا، إلا إذا كان في الصحراءِ عندَهُ إبلٌ ممكنٌ، لكن أصحابُ المزارعِ مسجلةٌ كلُّ معلوماتِهم، وأصحابُ المحلاتِ التجاريةِ والشركاتِ والمؤسساتِ، كلُّ هذهِ في هيئةِ الزكاةِ والدخلِ.

قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؛ الذينَ كانَ النبيُّ ﷺ يتألفُهم على الإسلامِ؛ إمَّا نخافُ من عداوتِهم وبطشِهم فنعطيهم نُسكتُهم من الزكاةِ، أو نرغبُهم في الإسلامِ؛ أحيانًا تعطيهِ حتى يدخلَ في الإسلامِ.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ هذا يدخلُ فيهِ المكاتَب؛ العبيدُ المماليكُ الذين يكاتبون أسيادَهم فيُعطَوْنَ حتى يخلصوا أنفسَهم للحريةِ، ويدخلُ في ذلكَ أيضًا الأسارى؛ الأسيرُ إذا كانَ عندَ عدوٍّ -مثلَ بينكَ وبينَ دولةٍ حرب وأخذوا أسارى- فنعطيهم حتى يفكوا الأسيرَ.

قوله تعالى: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ يدخلُ في الغارمينَ -أصحابُ الديونِ- الذين عليهم غرامات وعليهم ديون، كذلك الذين عليهم ديات؛ كمن قتلَ شخصًا خطأً عليهِ دية فيُعطى من الزكاةِ، فهؤلاءِ يسمَّونَ الغارمينَ، وأيضًا من أخذَ أسلافًا ومبالغَ يشتغلُ فيها ثم خسرَ وعليه ديونُ الناسِ فيطالبونهُ؛ يُعطى إذا لم يكن عندَهُ، أما إذا كان عندَهُ مرتب شهريّ -راتب- يستطيعُ بهِ، أو عندَهُ أشياءُ يقدرُ على يبيعها ويعوضُ؛ فلا يُعطى، فلذلكَ الزكاةُ من أهمِّ الأمورِ التي يحتاجُ الإنسانُ فيها إلى فحصٍ، وإلى تتبعٍ؛ ولا تُعطى لأي واحدٍ

كمن يأتيك في الشارعِ يقولُ لكَ: أنا محتاجٌ، أو امرأةٌ: أنا عندي أولادٌ وعندي كذا وعليَّ دَيْنٌ؛ لا يُعطوا حتى يتحقق من أمرهم؛ صحيحٌ أم كذبٌ، فمثلُ هذهِ الأمورِ تحتاجُ إلى دقةٍ لا بدَّ من التأكدِ منهم، لأنَّ الناس دخلوا فيها كمهنةٍ؛ يبدأُ يشحذُ في الشوارعِ والطرقاتِ ثم يتبين أنه غني.

إذًا هو ذكرَ بعضَ أهلِ الزكاةِ، أهلُ الزكاةِ ثمانية؛ ذكرَ بعضَهم وبعضُهم واضحٌ مثلَ قولهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، هذهِ واضحة ومرتْ معنا.

٦١- ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يقبل كل ما قيل له.

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ أي يقبل منكم ما تقولون له خيرًا لكم إن كان ذاك كما تقولون ولكنه ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدِّق الله ويصدق المؤمنين.

٦٧- ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا أمر الله فتركهم.

٦٩- ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾ أي استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا.

٧٠- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ مدائن قوم لوط؛ لأنها ائتفكت أي انقلبت.

٧٣- ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف.

﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالقول الغليظ.

٧٤- وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ليس ينقمون شيئا ولا يعرفون من الله إلا الصنع [الجميل] وهذا كقول الشاعر:

ما نَقِمَ النَّاسُ من أُميّة إلا *** أنهم يَحْلُمُون إن غضبوا

وأنهم سادةُ الملوكِ فلا *** تصلحُ إلا عليهمُ العَرَبُ

وهذا ليس مما ينقم. وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئا.

وكقول النابغة:

ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

أي ليس فيهم عيب.

٧٩- ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أي: يعيبون المتطوعين بالصدقة.

﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ﴾ أي: طاقتهم. والجُهد الطاقةُ، والجَهد: المشقة. يقال: فعلت ذاك بجهد. أي: بمشقة.

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جزاهم جزاء السخرية.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أُذنٌ أي: يسمعُ، هذا من ألفاظِ المنافقينَ؛ اليهودُ عندهم ألفاظ سيئة والمنافقونَ عندهم ألفاظ سيئة؛ هم يستهزئونَ يقولونَ: "محمدٌ يسمعُ كلَّ شيءٍ، قلْ له أيَّ شيءٍ سيسمعُهُ، فإن اعتذرت قبل منك"، فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: نعم هو أُذنٌ، لكن ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾، ليسَ أُذنَ شرٍّ، أي خير لكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾؛ هذهِ من الألفاظِ المشتركةِ المهمةِ جدًا؛ هل النسيانُ معناهُ الذهول أم الترك؟ نقولُ في حقِّ اللهِ "التركُ"، لا يقالُ الذهول؛ اللهُ لا يذهلُ وينسى؛ نَسِيَ بمعنى تَرَكَ، أما الإنسانُ فيصدقُ عليهِ التركُ والنسيانُ.

﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77] أي لا حظَّ لهم ولا نصيبَ، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ أي بحظِّهم في الدنيا. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ بِالْخَاطِئَةِ﴾؛ مَن همُ المؤتفكاتُ؟ هم قومُ لوطٍ؛ سمُّوا بذلك لأنهُ أُفِكَتْ عليهم ديارُهم؛ قُلِبَتْ عليهم. ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: 9]؛ أي يُصرفَ ويُمنعَ ويُقلبَ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ أي ليس لهم الجرأة لينقموا ويعترضوا عليهم ولا يقبلونَ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي أن اللهُ أعطاهم وأغناهم، فينقمونَ! ولا عيبَ فيهم كما استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولا عَيْبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ) ما عيب هؤلاءِ إلا أنَّ سيوفَهم قد تكسرتْ [من كثرة القتال]، وهذا ليسَ عيبًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾؛ أي يعيبونَ المتطوعينَ بالصدقةِ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾؛ الجُهد: الطاقة، والجَهد: المشقة، هناك فرقٌ بينَ الجُهدِ والجَهدِ، والكُرهِ والكَرهِ، كقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: 19]، و ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15].

٨٣- ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ واحدهم خالف وهو من يَخْلُف الرجلَ في ماله وبيته.

٨٦- ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذوو الغنى والسعة.

٨٧- ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يقال: النساء. ويقال: هم خساس الناس وأدنياؤهم. يقال: فلان خَالِفَةُ أهلِه: إذا كان دُونهم.

٩٠-[﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ هم] الذين لا يجدُّون إنما يَعْرِضُونَ ما لا يريدون أن يفعلوه. يقال: عذَّرت في الأمر إذا قصّرت وأعْذَرت حذّرت.

ويقال: المعذِّرون هم الْمُعْتَذِرُون. أدغمت التاء في الذال. ومن قرأ "الْمُعْذِرُون". فإنه من أَعْذَرت في الأمر.

٩٨- ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أي غُرْمًا وخُسْرَانًا.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان بالمكروه. ودوائر الزمان: صُرُوفُه التي تأتي مرّة بالخير ومرّة بالشر.

٩٩- ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ دعاؤه.

وكذلك قوله ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم ﴿إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: دعاؤُك تَثْبِيتٌ لهم وطمأنينة.

١٠١- ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالقتل والأسر. وقال الحسن: عذاب الدنيا وعذاب القبر.

١٠٤- ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يقبلها. ومثله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اقبله.

١٠٦- ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: مُؤَخَّرُون على أمره.

١٠٧- ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: مُضارّة.

﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي: ترقُّبا بالعداوة، يقال: رَصدتُه بالمُكافأَة أرصُدُه، إذا ترقّبته. وَأَرْصَدْتُ له في العداوة، وقال أبو زيد: رَصَدْتُه بالخير وغيرِه أرصُدُه رَصَدًا وأنا رَاصِدُه. وأرْصَدْتُ له بالخير وغيره إِرْصَادًا وأنا مُرْصِدٌ له.

وقال ابن الأعرابي: أرْصَدْتُ له بالخير والشر جميعا بالألف.

١٠٩- ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على حرْف جُرُفٍ هَائِر.

والجُرُف: ما ينجرف بالسيول من الأودية.

والهَائِر: الساقط، ومنه يقال: تَهَوَّر البناء: إذا سقط وانهار.

١١٢- ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون. وأصل السائح: الذاهب في الأَرض. ومنه يقال: ماء سَائِحٌ وسَيْحٌ: إذا جرى وذهب. والسائح في الأرض ممتنع من الشهوات. فشبه الصائم به. لإمساكه في صومه عن المطعم والمشرب والنكاح.

١١٤- (الأَوَّاهُ) المُتَأَوِّه حزنا وخوفا. قال المُثَقِّبُ العبْدِيّ وذكر ناقته:

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ ❊❊❊ تَأَوَّهُ آهةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

١١٧- ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أي: تعدل وتميل.

١١٨- ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: بما اتسعت. يريد: ضاقت عليهم مع سعتها.

﴿وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ﴾ أي: استيقنوا أن لا يُنْجِيَهم من الله ومن عذابه غيرُه شيء.

١٢٠- و (الْمَخْمَصَةُ): المجاعة. وهو الخمص.

١٢٢- ﴿لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: جميعا.

﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ أي: هلا نفر!

١٢٥- ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفرًا إلى كفرهم.

١٢٨- ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد عليه ما أَعْنَتكم وضركم.

الشرح

قال تعالى: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾؛ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واحدهم خالف وهو من يَخْلُف الرجلَ في ماله وبيته)، هذا وجهٌ، وفي قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يعني النساء؛ رضوا أن يجلسوا مع النساء لا يجاهدون.

قوله تعالى: ﴿أُولُو الطَّوْلِ﴾؛ أي: ذوو الغنى والسعةِ. وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾؛ يقالُ النساءُ، ويقالُ هم خِساسُ الناسِ وأدنياؤُهم. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾؛ أي جاؤوا يعتذرونَ إلى الرسولِ، أو أنهم معذِّرونَ أي: قصّروا في هذا الشيءِ وليس عندهم حجة، لا يريدونَ أن يجاهدوا؛ فهي لها عدةُ أوجهٍ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِرْصَادًا﴾ كلمة إرصاد تُطلق على الخير والشر، والأكثر استعمالًا على الشر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: 21] وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾؛ أي مراقبٌ، والرصدُ هو المراقبةُ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿السَّائِحُونَ﴾؛ معناهُ الصائمونَ، قالَ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لإمساكه في صومه عن المطعم والمشرب والنكاح)، هذا وجه، وفي التفسيرِ الآخرِ: أنَّ السائحينَ هم الذين يسيحونَ في الأرضِ للجهادِ والحجِّ ونحوِهِ، وهذا عليهِ أكثرُ المفسرينَ؛ أنَّ السائحينَ مَن يسيحُ في الأرضِ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 2]؛ يعني للجهادِ والحجِّ ونحوِهِ.

معنى (الْأَوَّاهُ) في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ الرجلِ الحزينِ، صاحبُ خوفٍ وحزنٍ ورجوعٌ إلى اللهِ.

أما ما بقي من التفسيرات فسورةُ التوبةِ واضحةُ المعاني والألفاظِ.

سورة يونس

مكية كلها

٢- ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ يعني: عملا صالحا قدَّمُوه.

٥- ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: جعله ينزل كل ليلة بمنزلة من النجوم، وهي ثمانية وعشرون منزلا في كل شهر، قد ذكرتها في "تأويل المشكل".

٧- ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يخافون.

١١- ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لو عجل الله للناس الشر إذا دَعَوْا به على أنفسهم عند الغضب وعلى أهليهم وأولادهم، واستعجلوا به كما يستعجلون بالخير فيسألونه الرزق والرحمة: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لماتوا.

١٥- ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل آيةَ عذاب آية رحمةٍ، وآية رحمةٍ آيةَ عذاب.

١٦- ﴿وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم به.

١٩- ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: نَظِرَةٌ إلى يوم القيامة.

٢١- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ يعني: فرجًا من بعد كرب.

﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: قولا بالطعن والحيلة يجعل لتلك الرحمة سببًا آخر.

٢٢- ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: دَنَوْا لِلْهَلَكَة. وأصل هذا أن العدو إذا أحاط ببلد، فقد دنا أهله من الهلكة.

٢٤- ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ﴾ يريد أن الأرض أنبتت بنزول المطر فاختلط النبات بالمطر، واتصل كل واحد بصاحبه.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: زينتها بالنبات. وأصل الزخرف: الذهب. ثم يقال للنقش وللنور والزهر وكل شيء زين: زخرف. يقال: أخذت الأَرض زُخْرُفها وزخارفها: إذا زخرت بالنبات كما تَزْخَر الأودية بالماء.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: [على] ما أنبتته من حب وثمر.

﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أي: كأن لم تكن عامرة بالأمس. والمغاني المنازل. واحدها مَغْنى. وغَنِيتُ بالمكان: إذا أقمت به.

٢٦- ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ أي: المِثْل.

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ التَّضْعِيفُ حتى تكون عشرا، أو سبعمائة، وما شاء الله. يدل على ذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾.

﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي: لا يغشاها غبار. وكذلك الْقَتَرَة.

٢٧- ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانع.

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ جمع قِطْعَة. ومن قرأها: "قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ" أراد اسم ما قُطع. تقول: قطعتُ الشيءَ قَطْعًا. فتنْصِبُ أوّلَ المصدر. واسم ما قطعتَ [منه] فسقط: "قِطْعٌ".

٢٨- ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرَّقْنَا بينهم. وهو من زال يَزُول وَأَزَلْت.

(هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ) أي: تَقْرَأُ في الصحفِ ما قدَّمت من أعمالها. ومن قرأ ﴿تَبْلُو﴾ بالباء أراد: تختبر ما كانت تعمل.

وقال أبو عمرو: وَتَصْدِيقُهَا ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وهي قراءة أهل المدينة. وكذلك حُكيت عن مُجَاهد.

٣٣- ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: سبق قضاؤُه.

٣٥- ﴿أَمَّنْ لا يَهِدِّي﴾ أراد من لا يَهْتَدِي. فأدغم التاء في الدال. ومن قرأ "يهدي" خفيفة. فإنها بمعنى يهتدي [قال الكسائي: يقول قوم من العرب هديت الطريق بمعنى: اهتديت].

الشرح

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾؛ يقصدُ بها سبحانه منازلِ القمرِ. قال تعالى: ﴿لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾؛ أي ما أدراكم به من هذا القرآنِ، وما علمتم بهِ ولا تدرونهُ.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾: (أي: نَظِرَةٌ إلى يوم القيامة)؛ النظرةُ تعني التأجيلُ. قوله سبحانه: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾؛ أي: كأن لم تكن عامرة، ما أقاموا فيها.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ "الزيادةُ" فسرها ابن قتيبة: (المثل)، لكن النبيُّ ﷺ فسرها في الحديثِ أنها "رؤيةُ اللهِ عزَّ وجلَّ"؛ فلا نصرفُ تفسيرَ النبيِّ ونأخذُ تفسيرًا آخرَ؛ فهو أولى من غيرِهِ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾؛ المقصودُ بها: وقتٌ من الليلِ، أو قِطَعُ الليلِ، أو أزمنةُ الليلِ وأوقاتٌ من ساعاتِ الليلِ.

وباقي الآيات واضحة.

٣٧- ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: يُضافُ إلى غيره، أو يُخْتَلَقُ.

٣٩- ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: عاقبته.

٥٨- ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ فضله: الإسلام. ورحمته: القرآن.

٦١- ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تأخذون فيه. يقال: أفَضْنا في الحديث.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي ما يبعد ولا يغيب.

﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: وزن نملة صغيرة.

٦٤- ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يقال: الرؤيا الصالحة.

﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ الجنةُ.

﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا خُلْف لمواعيده.

٦٦- ﴿وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحْدِسُونَ وَيَخْزُرُونَ.

٦٨- ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي: ما عندكم من حجة.

٧١- ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ﴾ ادعوا ﴿شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: غَمًّا عليكم. كما يقال: كَرب وكُربة.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: اعملوا بي ما تُريدون.

﴿وَلا تُنْظِرُونِ﴾ ومثله ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أي: فاعمل ما أنت عامل.

٧٨- ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لِتَصْرِفَنَا. يقال: لَفَتُّ فلانا عن كذا إذا صرفته. والالتفات [منه] إنما هو الانصراف عما كنت مقبلا عليه.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾ أي: المُلْكُ والشَّرَفُ.

٨٣- ﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ وهم أشراف أصحابه.

﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يقتلهم ويعذّبهم.

٨٧- ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: نَحْوَ القبلة. ويقال: اجعلوها مساجد.

٨٨- ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: أهلكها. وهو من قولك: طَمَسَ الطَّرِيقُ: إذا عَفَا وَدَرَسَ.

﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قَسِّها.

٩٠- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ لحقهم. يقال: أتبعت القوم؛ أي: لحقتهم. وتبعتهم: كنت في أثرهم.

﴿وَعَدْوًا﴾ أي: ظلما.

٩٢- ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قال أبو عبيدة: نلقيك على نَجْوَة من الأرضِ، أي: ارتفاع. والنَّجْوَة والنَّبْوة: ما ارتفع من الأرض.

﴿بِبَدَنِكَ﴾. أي: [بجسدك] وحدك.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ لمن بعدك.

٩٣- ﴿بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أنزلناهم منزل صِدْق.

٩٤- ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ المخاطبة للنبي صلى الله عليه وعلى آله، والمراد غيره، كما بينت في كتاب "المشكل".

٩٨- ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ عند نزول العذاب.

﴿إِلا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهم آمنوا قبل نزول العذاب. أي: فهلا آمنت قرية غير قوم يونس فنفعها إيمانها!

ويقال: فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها عند نزول العذاب إلا قوم يونس.

١٠١- ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الدلائل.

﴿وَالأَرْضِ﴾ واعتبروا.

الشرح

هذهِ نهايةُ سورةِ يونسَ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: أن يضافَ إلى غيرِهِ أو يختلقَ؛ بمعنى يُكذبَ أو يقالَ إنهُ من بشرٍ، ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: 103].

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾؛ معنى التأويلِ هنا العاقبةُ، عاقبةُ الأمرِ؛ لأنَّ التأويلَ عندَ العلماءِ لهُ معنيانِ: إمَّا تأويلٌ بمعنى التفسيرِ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران:7] أي تفسيرَهُ، والتأويلُ يأتي بمعنى عاقبةِ الأمرِ، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: 100] أي عاقبتُها ونتيجتُها، كأنهُ يريدُ أن يبينَ لكَ أنَّ التأويلَ هنا بمعنى العاقبةِ، وأكثرُ استعمالِ القرآنِ للتأويلِ -لو تتبعتَ آياتِ التأويلِ- تجدُها بمعنى العاقبةِ.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾؛ أي فضلُ الإسلامِ ورحمةُ القرآنِ. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تأخذونَ فيهِ؛ من "أفضنا في الحديثِ"، أي تتحدثونَ فيهِ، يفيضُ في الكلامِ.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ وما يعزبُ: يغيبُ، عَزَبَ عن الشيءِ أي غابَ عنهُ. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾؛ الذرةُ هنا: وزنُ نملةٍ صغيرةٍ، وهذا وجهٌ من أوجهِ التفسيرِ أنَّ الذرةَ نملةٌ صغيرةٌ، وقيلَ هي النملةُ الحمراءُ، وقيلَ الذرةُ هي الذرات ما يكونُ في شعاعِ الشمسِ، وهذا كلُّهُ ممكنٌ.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قالَ المؤلفُ هنا: البشرى الرؤيا الصالحةُ يراها أو تُرى لهُ، وهذا معنى من معاني البشرى، لكنَّ البشرى عامةٌ؛ لهم البشرى بالطاعاتِ والاستقامةِ وانشراحِ الصدرِ، والطمأنينةِ والهدايةِ، سعةُ الرزقِ، كلُّ هذهِ داخلة، فالبشرى عامة.

قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، قالَ في الآخرةِ: الفوزُ بالجنةِ. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا خلفَ لمواعيدِهِ. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ يخرصون -بالصاد- هي نفسها يخرسون -بالسين- خرس وخرص، وتأتي بمعنى حرز، والمقصود من الخرص: التخمين وادعاء غير الحقيقة، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يدّعون دعاوى باطلة، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: 10] الذين يكذبون ويقولون أقوالًا غير صحيحة.

قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾؛ هذا نوحٌ عليه السلام يقولُ لقومِهِ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، أجمعوا أمرَكم أي: اعقدوا أمرَكم واجتمعوا عليهِ، وأتوا بشركائِكم أيضًا أجمعوهم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: يعني لا يكونُ عليكم لهُ غمة ولا كرب ولا شدة، اتركوه كما هو عاديًا، لا تشدُّون أمرَكم بحيثُ إنكم تشتدُّون لهُ، الأمرُ يسيرٌ؛ وكأنهُ يردُّ عليهم بقوله: الأمرُ لا يشكلُ عندي شيئًا، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾؛ اجتمعوا كلُّكم عليَّ ثم اقضوا إليَّ؛ اعملوا ما تريدونَ ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تُمهلونني. مثلَ ما قالَ محمدٌ ﷺ للكفارِ، قالَ لهم كما بين قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آيةِ الأعرافِ: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[الأعراف: 195-196]. قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾؛ الالتفاتُ هو الانصرافُ، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾.

قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾، قالَ ملئِهم أي: أشرافه وأصحابه؛ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بالقتلِ والتعذيبِ. وفي قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: اجعلوا بيوتَكم متوجهةً إلى جهةِ القبلةِ -بيتِ المقدسِ-، فإنَّ قومَ موسى عليه السلام يصلونَ إلى جهةِ القبلةِ، لأنهم من شدةِ الأمرِ بدأوا يصلونَ في بيوتِهم، لا يستطيعونَ الصلاة خارجًا من فرعون، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أو "اجعلوا بيوتكم

مساجدَ"، وهنا دعوةُ موسى عليه السلام على فرعون: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾؛ اطمسْ عليها أي: أهلكْها، ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قسّها.

ثم قال جل جلاله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾؛ أتبعَهم أي: لحقَهم. قالَ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نلقيكَ على نَجْوةٍ؛ والنجوةُ هي المكانُ المرتفعُ من الأرضِ. قالَ: نخرجُكَ من البحرِ لمَّا أهلكَهُ اللهُ وأغرقَهُ في البحرِ، أخرجَهُ على نجوةٍ -على مكانٍ مرتفعٍ- حتى رآهُ بنو إسرائيلَ واطمأنوا؛ لأنهُ ما اطمأنتْ نفوسُهم أنَّ فرعونَ هلكَ، كانَ هناكَ خوفٌ من أنَّ فرعونَ يأتيهم، فلا يزالون يخافونَ؛ فأرادَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يثبتَ لهم موته، فأخرجَهُ على شاطئِ البحرِ فرأوهُ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾.

قيلَ إنَّ فرعونَ لمَّا أخرجَهُ اللهُ على هذهِ النجوةِ كانَ عليهِ درعٌ من ذهبٍ ورأوهُ حقيقةً، ثم بعدَ ذلكَ ذهبَ بهِ البحرُ فأصبحَ طعامًا للحيتانِ؛ نسألُ اللهَ العفوَ والعافيةَ، لا أظنهم أخذوه وحنّطوه، والله أعلم.

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾؛ هذا من الخطاباتِ التي ظاهرُها التوجهُ للرسولِ ولكنَّ المرادَ بهِ غيرُهُ، وهذهِ تكلَّمَ عنها المؤلفُ في كتابِ "المشكل". بقيةُ الآياتِ واضحةٌ.

سورة هود

مكية كلها

١ - ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ فلم تُنْسَخ.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالحلال والحرام. ويقال: فُصِّلت: أُنزلت شيئا بعد شيء، ولم تنزل جملة.

﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: من عند حكيم خبير.

٣- ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي: يعمِّركم وأصل الإمتاع: الإطالة. يقال: أَمْتَعَ اللهُ بك ومتّع الله بك إِمْتَاعا وَمَتَاعا. والشيء الطويل: مَاتِعٌ. ويقال: جبل ماتِعٌ. وقد مَتَع النَّهار: إذا تطاوَل.

٥- ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يطوون ما فيها ويسترونه ﴿لِيَسْتَخْفُوا﴾ بذلك من الله.

﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يسترون بها وَيَتَغَشَّوْنَهَا.

٦- ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال ابن مسعود: مستقرها: الأرحام. ومستودعها: الأرض التي تموت فيها.

٨- ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى حين بغير توقيت. فأما قوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ فيقال: بعد سبع سنين.

٩- ﴿لَيَئُوسٌ﴾ فَعولٌ من يَئِسْت. أي: قَنُوط.

١٠- ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: البلايا.

١٥- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نؤتهم ثواب أعمالهم لها فيها.

﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون.

١٧- ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ مفسر في كتاب "المشكل".

٢٢- ﴿لا جَرَمَ﴾ حقا.

٢٣- ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: تواضعوا لربهم. وَالإِخْبَاتُ: التواضع والوقار.

٢٧- ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ شِرَارُنَا. جمع أَرْذَل. يقال: رجُل رَذْل وقد رَذل رذَالة ورُذُولة.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: ظاهر الرأي. بغير همز. من قولك: بدا لي ما كان خَفِيًّا: أي ظهر. ومن همزه جعله: أوَّل الرأي. من بدأت في الأمر فأنا أبدأ.

٢٨- ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي على يقين وبيان.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عَمِيتم عن ذلك. يقال: عَمِيَ عليَّ هذا الأمر. إذا لم أفهمه، وعميت عنه؛ بمعنى.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: نُوجِبُهَا عليكم ونأخذكم بفهمها وأنتم تكرهون ذلك؟!

٣٥- ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي: اخْتَلَقْتُه.

﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ أي: جُرْمُ ذلك الاختلاق - إن كنتُ فعلْتُ.

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ في التكذيب.

٣٧- و ﴿الْفُلْكَ﴾ السفينة. وجمعها فُلْكٌ، مثل الواحد.

٤٠- ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي من كلِّ ذكرٍ وأنثى اثنين.

﴿وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي سبق القول بِهَلَكَتِهِ.

٤١- ﴿مَجْرَاهَا﴾ مسيرُها.

﴿وَمُرْسَاهَا﴾ حيث ترسى وترسو أيضا. أي: تقف.

٤٣- ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: يمنعني منه.

﴿قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ﴾ لا معصوم اليوم.

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ﴾ ومثله: ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق.

٤٤- ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: نقص. يقال: غاض الماء وغضتُه. أي: نقص ونقصته.

﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فُرِغ منه، فغرِق مَن غرق، ونجا مَن نجا

و ﴿الْجُودِيِّ﴾ جبل بالجزيرة.

٤٦- ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لمخالفته إياك. وهذا كما يقول الرجل لابنه إذا خالفه: اذهب فلست منك ولست مني. لا يريد به دفع نسبه. أي: قد فارقتك.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾؛ أحكمت أي: لم تُنسخ؛ أُحكمت وضُبطت وأُتقنت وأُثبتت بثباتٍ واضحٍ بينٍ لا إشكال فيه؛ لأن المحكم يقابله المتشابه، والمتشابه إما أن يكون منسوخًا أو يكون غير واضح الدلالة، فالقرآن يقول الله عز وجل عنه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي آياته قد وُضحت للناس وبُينت وليس فيها غموض إلا فيما هو يحتاج إلى بيان.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾؛ بمعنى فصل الله فيها وبين فيها الحلال والحرام والأوامر والنواهي وإلى آخره؛ تفصيلًا دقيقًا، ويقال "فُصلت" أي: أُنزلت شيئًا بعد شيء ولم تنزل جملة واحدة، يحتمل أن التفصيل هو تفريقها نزولًا، أو تفصيل الآيات ببيان أحكامها؛ فلا تجد الآيات إلا مفصلة في مواضعها.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ أي من عند الحكيم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن "حكيم" ترجع إلى "أُحكمت"، و"خبير" ترجع إلى "فُصلت". ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾؛ أي يعطيكم أعمارًا تتمتعون فيها المتاع الطيب.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾؛ يطوون ما فيها ويسترونه، هذا معنى يثنون صدورهم؛ أي يخفون ما في صدورهم ويسترونه، أو أنهم يثنون صدورهم بأن يطأطئوا رؤوسهم إذا جاءهم الداعي أو جاءهم الرسول، فإنهم يحاولون الاختفاء عنه فيخفضون رؤوسهم بحيث لا يُرون، ﴿لِيَسْتَخْفُوا

﴿مِنْهُ﴾ أي من الداعي أو من الله؛ وهو يحتمل الأمرين. ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾؛ يقول أيضًا: تجدهم يسترون بثيابهم حتى لا يراهم أحد، ويظنون أن الله لا يراهم.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾؛ أي ما تستقر فيه وتستودع فيه، وتفسير ابن مسعود وجه من أوجه التفسير؛ أن الدابة يعلم الله ﷻ استقرارها في الأرحام، ومستودعها في الأرض عندما تموت.

قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ معنى "الأمةِ" هنا معناها الزمنُ، تأتي بمعنى الزمنِ، وتأتي بمعنى الجماعةِ؛ لها عدةُ معانٍ وهي من الألفاظِ المشتركةِ، قالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾؛ "ليؤوسٌ" من القنوطِ، الذي ييأسُ ويقنطُ. قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: ذهبتِ المصائبُ والبلاءُ عني.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؛ يقولُ: ﴿أَفَمَن كَانَ﴾ يقصد سبحانه محمدًا ﷺ على بينةٍ وهو القرآنُ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾؛ قيلَ الملَكُ، وقيلَ الكتبُ السابقةُ، عدةُ تفاسيرَ المؤلفُ أشارَ إليها في أنه ذكرَها في كتابِهِ "تأويل مشكل القرآن". قيلَ إنَّ الشاهدَ هو جبريلُ، وقيلَ الشاهدُ هو القرآنُ؛ عدةُ أقوالٍ.

﴿وَأَخْبَتُوا﴾؛ الإخباتُ هو التواضعُ. في قصةِ نوحٍ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]؛ "الأرذلونَ" هم أسافلُ الناسِ الذين لا يُلتفتُ إليهم؛ وهنا الأشرارُ، أو الذي لا يُلتفتُ إليهِ أو نحوُ ذلكَ.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾؛ فرق بين أن تقولَ "بادئ" و"بادي"؛ بَدَا وبَدأَ؛ "بَدَا" بمعنى ظهرَ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي ظهرَ لهم، و "بَدأَ" من الابتداءِ، بَدأَ الشيءُ مثل: بَدأَ الصبحُ؛ تحتملُ لو قلتَ بَدا الصبحُ أي ظهرَ، وبَدأَ بمعنى ابتدأَ وقتُهُ. فمعنى ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾؛ أي هم يقولون لنوح عليه السلام: أن هؤلاءِ الذينَ

اتبعوكَ لا يفكرون، فلا تظنَّ أنَّ الذينَ آمنوا معكَ عندهم معرفة، مجردَ أنهم سمعوا عنك فقط قالوا نتبعك، لأنهم لا يفكرون.

يقولُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْفُلْكَ﴾؛ "الفلكُ" يُجمعُ ويُفردُ؛ تقولُ: ركبتُ الفلكَ، ورأيتُ الفلكَ كلَّها؛ إذا رأيتَ عشرَ سفنٍ تقولُ رأيتُ الفلكَ. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ مَجْرَاهَا أي: تجري مسيرَها، وَمُرْسَاهَا: ترسو أي تقفُ عندَهُ، دعا نوحٌ عليه السلام قالَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي على بركةِ اللهِ تجري وترسو.

قال ابن نوح عليه السلام: ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فقالَ: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ أي لا معصومَ؛ ليسَ هناكَ أحدٌ معصومٌ هذا اليومَ إلا مَن رحمَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي نقصَ الماءُ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾؛ أي فُرغَ من هذا الأمرِ، فهلكَ مَن هلكَ ونجا مَن نجا، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قيل جبلٌ بالجزيرةِ، اللهُ أعلمُ بذلكَ.

٥٠- ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ جعله أخاهم؛ لأنه منهم.

٥٤- ﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: أصابك بِخَبَل، يقال: عَرَاني كذا وكذا واعْتَرَانِي: إذا أَلَمَّ بي. ومنه قيل لمن أتاك يطلب نائلك: عار. ومنه قول النابغة:

أَتَيْتُكَ عَارِيًا خَلَقًا ثِيَابِي *** عَلَى خَوْفٍ تُظَنُّ بِيَ الظُّنُونُ

٥٩- ﴿عَنِيدٍ﴾ العنيد والْعَنُود والعاند: المعارض لك بالخلاف عليك.

٦٠- ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أُلحقوا.

٦٣- ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: غير نُقصان.

٦٩- ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: مَشْوِيّ. يقال: حَنَذْتُ الجمل: إذا شويته في خَدٍّ من الأرض بِالرَّضَفِ، وهي الحجارة المُحْمَاة. وفي الحديث: أن خالد بن الوليد أكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأُتي بِضَبٍّ مَحْنُوذٍ.

٧٠- ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى العجل، يريد رآهم لا يأكلون.

﴿نَكِرَهُمْ﴾ أَنْكَرَهُمْ. يقال: نَكِرْتُك، وأَنْكَرْتُك، وَاسْتَنْكَرْتُك.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: أَضْمَر في نفسه خوفا.

٧١- ﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال عِكْرمة: حاضت، من قولهم: ضحكت الأرْنب: إذا حاضت.

وغيره من المفسرين يجعله الضحك بعينه. وكذلك هو في التوراة؛ وقرأت فيها: "أنها حين بُشِّرت بالغلام ضحكت في نفسها وقالت: مِن بعد ما بليت أعود شابّةً، وسيدي إبراهيم قد شاخ؟ فقال الله لإبراهيم عليه السلام: لِمَ ضحكتِ سَرَّا - وسَرَّا اسمها في التوراة. يعني سارَة - وقالت: أَحَقٌّ أن أَلِدَ وقد كبرت؟ فجحدت سَرَّا وقالت: لم أضحك. من أجل أنها خشيت. فقال: بلى لقد ضحكت".

﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بعدَ إسحاق. قال أبو عبيدة: الوراء: وَلَدُ الْوَلَدِ.

﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ فُعل من السوء.

٧٧- ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد. يقال: يوم عَصِيب وَعَصَبْصَب.

٧٨- ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون إليه. يقال: أُهْرِعَ الرجلُ: إذا أسرع على لفظ ما لم يُسَمَّ فَاعلُه كما يقال: أُرعد. ويقال: جاء القوم: يُهْرَعُون، وهي رِعْدة تحلّ بهم حتى تذهب عندها عقولهم من الفزع والخوف إذا أسرعوا.

﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي: تزوجوهن فَهُنَّ أطهر لكم.

﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي: في أضيافي. والواحد يدل على الجمع. كما يقال: هؤلاء رَسُولي ووكيلي.

٧٩- ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: لم نتزوجهن قبلُ، فَنستحقَّهن.

٨٠- ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: عشيرة.

٨١- ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: سرْ بهم ليلا.

﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: ببقية تبقَى من آخره. والقِطْعُ والقِطْعةُ: شيء واحد.

٨٢- ﴿حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ يذهب بعض المفسرين إلى أنها "سَنْكِ وَكِلْ" بالفارسية وَيَعْتَبِرُهُ بقوله عز وجل: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ يعني الآجُرَّ. كذلك قال ابن عباس.

وقال أبو عبيدة السجيل: الشديد. وأنشد لابن مُقْبِل:

ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّينَا

وقال: يريد ضربا شديدا.

ولست أدري ما سجيل من سجين. وذَاك باللام وهذا بالنون. وإنما سجين في بيت ابن مقبل "فِعِّيلٌ" من سَجَنْتُ. أي حَبَسْت. كأنه قال: ضَرْبٌ يُثْبِتُ صَاحِبَه بمكانه. أي يحبسه مقتولا أو مُقَارِبًا للقتل. و"فِعِّيلٌ" لما دام منه العمل. كقولك: رجل فِسِّيقٌ وَسِكِّيرٌ وسِكِّيتٌ: إذا أدام منه الفسق والسكر والسكوتَ. وكذلك "سِجِّينٌ". هو ضرب يدوم منه الإثبات والْحَبْسُ.

وبعض الرواة يرويه "سِخِّين" - من السُّخُونة - أي ضربا سُخْنا.

﴿مَنْضُودٍ﴾ بعضه على بعض كما تُنْضد الثيابُ وكما يُنضد اللبن.

٨٣- ﴿مُسَوَّمَةً﴾ معلمة بمثل الخواتيم. والسُّومَةُ: العلامة.

٨٦- ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: ما أبقى الله لكم من حَلال الرزق خير من التَّطْفِيف.

٨٧- ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ أي: دينك. ويقال: قراءتك.

٨٩- ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يكسبنَّكم ويجرّ عليكم شقاقي، أي: عداوتي، أن تَهْلِكُوا.

٩١- ﴿وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: قتلناك. وكانوا يقتلون رَجْمًا. فسمّى القتل رجما. ومثله: قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٩٢- ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: لم تلتفتوا إلى ما جئتكم به عنهُ، تقول العرب: جعلتني ظِهْرِيًّا وجعلت حاجتي منك بظهر؛ إذا أعرضت عنه وعن حاجته.

٩٣- ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا إني معكم منتظر.

٩٥- ﴿أَلا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ يقال: بعِدَ يبْعُدُ: إذا كان بُعْد، هلكة. وَبَعُدَ يَبْعُدُ: إذا نأى.

٩٩- ﴿الرِّفْدُ﴾ العطية. يقال: رَفَدْتُه أَرْفِدُه؛ إذا أعطيته وأعنته.

و ﴿الْمَرْفُودُ﴾ المعطى. كما تقول: بئس العطاء والمعطى.

١٠٠- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي: من أخبار الأمم.

﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي: ظاهر للعين.

﴿وَحَصِيدٌ﴾ قد أُبيد وحُصِدَ.

١٠١- ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: غير تخسير. ومنه قوله عز وجلّ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: خسرت.

١٠٧- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ مبيَّن في كتاب "المشكل".

١٠٨- ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع. يقال: جَذَذْتُ، وَجَدَدْتُ وَجَذَفْتُ، وَجَدَفْتُ؛ إذا قطعت.

١١٠- ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: نَظِرَةٌ لهم إلى يوم الدين.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا.

١١٢- ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: امض على ما أُمِرت به.

١١٤- ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: ساعة بعد ساعة. واحدتها زُلْفَةٌ. ومنه يقال: أَزْلَفَنِي كذا عِنْدَك؛ أي: أدناني.

وَالْمَزَالِفُ: المنازل والدَّرَج. وكذلك الزُّلَف. قال الْعَجَّاج:

طَيَّ اللَّيَالِي زُلَفًا فَزُلَفَا ❊❊❊ سَمَاوَةَ الْهِلالِ حَتَّى احْقَوْقَفَا

١١٦- ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: فهلا.

﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي: أولو بقيّة من دين. يقال: [قوم] لهم بقيّة وفيهم بقية. إذا كانت بهم مُسْكَةٌ وفيهم خير.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ ما أعطوا من الأموال؛ أي: آثروه واتبعوه فَفُتِنُوا به.

١١٨- ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ في دينهم.

١١٩- ﴿إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ فإن دينهم واحد لا يختلفون.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني: لرحمته خلق الذين لا يختلفون في دينهم. وقد ذهب قوم إلى أنه للاختلاف خلقهم الله. والله أعلم بما أراد.

١٢٠- ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: في هذه السورة.

١٢١- ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على مواضعكم واثْبُتُوا ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾

١٢٢- ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ تهديد ووعيد.

الشرح

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾؛ جَعَلَهُ الله أخاهم لأنهُ منهم؛ أخا النسبِ لا في الدينِ. قال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾؛ الاعتراكُ أي: أصابكَ بخبَلٍ أو جنونٍ أو نحوِ ذلكَ. قوله ﷻ: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ العنيدُ: المعاندُ المعارضُ الذي لا يقبلُ. ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: خسرانًا ونقصانًا. ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾؛ الحنيذُ: المشويُّ.

وقولهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَضَحِكَتْ﴾؛ الصحيحُ أنها ضحكتْ من الضحكِ وهو السرورُ؛ لأنها لمَّا سمعتِ الملائكةَ أنهم جاؤوا لإهلاكِ قومِ لوطٍ -وإن نَجَّى اللهُ لوطًا- فرحتْ بهلاكِ الظلمةِ المجرمينَ فضحكتْ من ذلكَ، وقيلَ ضحكتْ بمعنى حاضتْ؛ وهذا رأي، يقالُ: ضحكَ الوادي إذا سالَ بالماءِ، والحيضُ سيلانٌ؛ فهذا من هذا المعنى، لكنَّ الصحيحَ هو قولُ الجمهورِ أنَّ الضحكَ هنا بمعنى السرورِ والابتسامةِ لأنها فرحتْ، فرحتْ لسببين: بالبشارةِ بالولدِ وهلاكِ قومِ لوطٍ، فضحكتْ؛ أي سُرَّت بهذا الشيءِ. والذينَ قالوا حاضت فسلوها أنه لمَّا قالوا لها إنكِ ستحملينَ، من شدةِ الفرحِ حاضتْ.

في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾؛ أي ولدُ الولدِ؛ يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ -عليهم السلام-. وبقيةُ الآياتِ واضحةٌ مرتْ معنا؛ ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، و ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ يعني وقتًا وزمنًا من الليلِ، ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ يعني معلمةً. ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ أي: ما أبقى اللهُ لكم من الخيرِ أفضلُ من الحرامِ. ﴿أَصَلَاتُكَ﴾ قالَ: دينُكَ وقراءتُكَ؛ والصحيحُ أنَّ الصلاةَ هي الصلاةُ لأنَّ كلَّ نبيٍّ لهُ صلاةٌ.

قال تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا يكسبُكم الشقاقُ والعداوةُ أن تكونَ سببًا في هلاكِكم. قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ أي: هلاكًا؛ لأنَّ البُعدَ هو الهلاكُ، والبَعْد: الذي يأتي بعد ذلك. قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾؛ أي العطيةُ "العطاء"؛ أرفَدَهُ يَرْفِدُهُ أي أعطاهُ وأعانَهُ. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ أي: من أخبارِ الأممِ الماضيةِ. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: خسارةٍ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: امضِ على ما أُمرتَ. ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي قِطعَ الليلِ وأوقاتَهُ. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي مختلفين في دينهم ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فكانوا على دينٍ واحدٍ، وأما الذينَ تفرقوا فهم الذينَ كانوا سببًا في هلاكِهم. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلقَهم إما للرحمةِ أو للاختلافِ، كلُّهُ يحتملُ؛ ولذلكَ قالَ المؤلفُ: "اللهُ أعلمُ بما أرادَ".

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ السجيلُ هو الطينُ كما فسرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ الذارياتِ قالَ: ﴿مِن طِينٍ﴾ [الذاريات: 33]؛ فتبينَ أنَّ السجيلَ هو الطينُ.

سورة يوسف

مكية كلها

٥- ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: يحْتَالُوا لك ويَغْتَالُوك.

٦- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يختارُك.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ أي: من تفسير غامضها، وتفسير الرؤيا.

٧- ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ أي: مواعظُ لمن سأل.

٨- ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ. يقال: الْعُصْبَة من العَشَرَةِ إلى الأربعين.

٩- ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يَفْرُغ لكم من الشغل بيوسفَ.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد إهلاكه.

﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: تائبينَ.

١٢- ﴿يَرْتَعْ﴾ بتسكين العين: يأكلْ. يقال: رَتَعَت الإبل؛ إذا رعت. وَأَرْتَعْتُها: إذا تركتها ترعى.

ومن قرأ: (نَرْتَعِ) بكسر العين - أراد: نتحارس ويرعى بعضُنا بعضا، أي: يحفظ. ومنه يقال: رعاك الله؛ أي: حفظك.

١٥- و ﴿الْجُبِّ﴾ الرَّكِيَّة التي لم تُطْوَ بالحجارة. فإذا طُوِيَت: فليست بِجُبّ.

١٧- ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نَنْتَضِلُ، يسابق بعضنا بعضا في الرمي. يقال: سَابَقْتُه فسبقتُه سَبْقا. والْخَطَر هو: السَّبَق بفتح الباء.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي: بِمُصَدِّقٍ لنا.

١٨- ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: مكذوب به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: زَيَّنت. وكذلك "سول لهم الشيطان أعمالهم" أي: زَيَّنَها.

١٩- ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قومٌ يَسيرون.

﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: وَارِدَ الماءِ ليستقيَ لهم.

﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي: أرسلَها. يقال: أَدْلَى دَلْوَه؛ إذا أرسلَها للاستقاء. وَدَلَى يَدْلُو: إذا جذبها ليخرجَها.

﴿قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ﴾ وذلك: أن يوسفَ تعلّق بالحبل حين أدْلاهُ، أي: أرسلَه. (وَأَسَرُّوهُ) أي: أسرُّوا في أنفسهم أنه بضاعةٌ وتجارةٌ.

٢٠- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ يكون: اشْتَرَوْه؛ يعني: السيارة. ويكون: باعوهُ، يعني: الإخوة. وهذا حرف من الأضداد. يقال: شريت الشيء؛ يعني: بعته واشتريته. وقد ذكرت هذا وما أشبهه في كتاب "تأويل المشكل".

و (الْبَخْسُ) الخسيس الذي بُخس به البائعُ.

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ يسيرةٍ سهُل عددُها لقلّتِها؛ ولو كانت كثيرة: لَثَقُل عددُها.

٢١- ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: أكرمي منزله ومُقامه عندكِ. من قولك: ثويتُ بالمكان؛ إذا أقمت به.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: نَتَبَنَّاه.

٢٢- ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ إذا انتهى منتهاه قبل أن يأخذ في النقصان. وهو جمع. يقال: لواحده أَشُدّ. ويقال: شَدٌّ وَأَشُدٌّ. مثل: قَدّ وأَقُدّ. وهو الجلْد. ولا واحد له.

وقد اختلف في وقت بلوغ الأشدّ، فيقال: هو بلوغ ثلاثين سنة. ويقال: بلوغ ثمان وثلاثين.

٢٣- ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هَلُمَّ لك. يقال: هَيَّتَ فلانٌ لفلان؛ إذا دعاه وصاح به. قال الشاعر:

قَدْ رَابَنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا *** لَوْ كَانَ مَعْنِيًّا بِهَا لَهَيَّتَا

٢٤- ﴿لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي: حُجَّته عليه.

٢٥- ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وجداه ﴿لَدَى﴾ عند ﴿الْبَابَ﴾

٢٩- ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ قال الأصمعي: يقال: خَطِئَ الرجلُ يَخْطَأُ خِطًا -: إذا تعمد الذنب. فهو خَاطِئ. والخطيئة [منه] وأخطأ يخطئ -: إذا غَلِطَ ولم يتعمَّد. والاسم منه الْخَطَأُ.

٣٠- ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: بلغ حُبُّهُ شَغَافَهَا. وهو غلاف القلب. ولم يرد الغلاف إنما أراد القلب. يقال: قد شَغَفْتُ فلانا إذا أصبت شَغَافَهُ. كما يقال: كَبَدْتُه؛ إذا أصبت كَبِدَهُ. وَبَطَنْتُهُ: إذا أصبت بطنه. ومن قرأ: "شَعَفَهَا" - بالعين - أراد فتنها. من قولك. فلان مَشْعُوفٌ بفلانة.

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: بقولهن وغِيبتهن.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أعتدت من العتاد.

﴿مُتَّكًا﴾ أي: طعاما. يقال: اتكأنا عند فلان: إذا طعمنا. وقد بينت أصل هذا في كتاب "المشكل".

ومن قرأ "مُتْكًا" فإنه يريد الأُتْرُجّ. ويقال: الزُّمَاوَرْد.

وَأَيًّا مَّا كان فإني لا أحسبه سُمّي مُتَّكًا إلا بالقطع؛ كأنّه مأخوذ من الْبَتْك.

وأبدلت الميم فيه من الباء. كما يقال: سَمَّدَ رأْسَه وَسَبَّدَه. وَشَرٌّ لازِم ولازِب. والميم تبدل من الباء كثيرا لقرب مخرجهما. ومنه قيل للمرأة التي لم تُخْفَض، والتي لا تَحبس بولها: مَتْكَاء - أي: خَرْقَاء - والأصل بَتْكَاء.

ومما يدل على هذا قوله: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾؛ لأنه طعام لا يُؤكل حتى يُقطع. وقال جُوَيْبِر، عن الضحاك: [الْمُتْك] كلّ شيء يُجَزُّ بالسكاكين.

﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ هَالَهُن فَأَعْظَمْنَه.

٣٢- ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع.

٣٦- ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ يقال: عنبا. قال الأصمعي: أخبرني الْمُعْتَمِرُ بنُ سليمانَ أنه لقي أعرابيًّا معه عنب، فقال: ما معك؟ فقال: خمر. وتكون الخمر بعينها؛ كما يقال: عصرت زيتا؛ وإنما عصرت زيتونا.

٤٢- ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عند سيدك. قال الأعشى يصف ملكا:

رَبِّي كَرِيمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمَةً ❊❊❊ وَإِذَا يُنَاشَدُ بِالْمَهَارِقِ أَنْشَدا

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ يقال: ما بين الواحد إلى تسعة. وقال أبو عبيدة: هو ما [لم] يبلغ العقد ولا نصفه. يريد: ما بين الواحد إلى الأربعة.

الشرح

تفسير المؤلف رحمه الله واضح جدًا في معظم الآيات، نأتي إلى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَرْتَعْ﴾؛ هذه فيها قراءات: (يَرْتَعْ)، (وَنَرْتَعِ)، إذا قلت "رتع" تختلف عن إذا قلت "أرتع". إذا قلت: "رتعت الإبل"؛ هي من نفسها ترتع. وتقول: "رتع فلان" إذا بدأ يأكل من ربيع الأرض. وإذا قلت: "أرتعتها"؛ أي تركتها هي ترتع. ففرق بين "أرتع" و"رتع"، أي بالهمزة يختلف المعنى، وسيأتي بعد قليل في كلمة أخرى مشابهة.

في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾؛ أي: "ننتضل" من النضل وهو الرمي، أي يتسابقون على الرمي أو نحو ذلك. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾؛ معنى "كذب" أي: مكذوب. كيف كان القميص مكذوبًا؟ قالوا: لأنهم لما أتوا به وهو قد لطخوه بالدم، جاءوا به ولم يتمزق! لما نظر يعقوب قال: يعني ذئب يأكل ولا يمزق الثوب؟ فعرف؛ عرف أنها خطة فعلوها، وأنهم دبروها، ولذلك قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فعلم أن المسألة ليس فيها ذئب، ولا فيها ذبح، ولا فيها أكل، ولذلك لا يزال يذكر يوسف عليه السلام في حياته كلها: ﴿تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، ثم في الأخير قال عليه السلام: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾؛ لأنه يعرف أن يوسف عليه السلام لم يمت؛ لأن يوسف عنده خبر بأنه سيكون نبيًا، فكيف يموت؟ فلذلك لم يقبل كلامهم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ ما معنى "شروه"؟ أي باعوه، هذا المشهور؛ و﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 207] أي يبيع نفسه، فـ "شرى" معناها باع، و"اشترى" بمعنى أخذ السلعة، "اشترى" معناها أخذ، ومثله "ابتاع" و"باع". ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ والمعني أن إخوة يوسف عليه السلام باعوه،

إخوة يوسف كانوا يراقبون يوسف وهو في الجب يتابعونه ويأتون إليه، حتى قيل إن الأكبر عنده رحمة، فكان يأتي بالطعام لأخيه ويضعه عنده في البئر، ومكث -قيل إنه مكث أيامًا- الله أعلم. لما جاءت هذه السيارة ورأوا واردهم يأخذ الماء ووجد هذا الغلام، في هذا الوقت جاء إخوة يوسف مسرعين، قالوا: هذا عندنا عبد آبق ونحن نريد أن نبيعه، تريدون أن تشتروه؟ أعطونا أي شيء. فباعوه بثمن بخس، هم يريدون التخلص منه، فقالوا القافلة ستأخذه معهم، ولن يقتلوه، سيكرمونه، دعوه يذهب مع القافلة مقابل مبلغًا ليتخلصوا منه. "الآبق"؛ أي العبد الهارب الذي هرب من سيده، فادعوا أنه عبد هارب فلا يريدونه. وقيل إن الذي اشتراه من مصر، لما باعه أصحاب القافلة، بأي مبلغ، والله أعلم، لكن الذي يدل عليه السياق ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ هم إخوة يوسف.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾؛ أي: كمل في نضجه وهو سن الثلاثين فما فوق، أي من الثلاثين إلى الأربعين، هذه قوة الشباب، بعدها من الأربعين وما بعدها يبدأ ينزل الإنسان يضعف، فهذا معناه قبل الثلاثين هو لا يزال في صعود.

في قصة المرأة، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، "هيت لك" هذه فيها سبع قراءات: (هَيْتَ)، و(هِيتَ)، و(هِيْتُ)، وإلى آخره فيها عدة قراءات. "هيت لك": هلمَّ، معناها -هذا اسم فعل نسميه أهل العلم اسم فعل- "هيت لك" يعني أقبل، تعال. فهي غلقت الأبواب ثم تجملت في أحسن حال ثم طلبت منه، والغالب أن الرجل هو الذي يطلب المرأة، لا المرأة تطلب الرجل. ثم الأمر الثاني أنه ما عندهم أحد وهو في مكان مأمون عنده سيدته، وسيدته تطلبه، ولأنها تفرض عليه أوامر، فتهيأت الأمور من كل جهة، ومع ذلك الله عصمه؛ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، وإلا لو فعل ما فعل ما أحد يدري عنه، ولكن الله سبحانه وتعالى عصمه من هذه الفاحشة.

وفي هذا حقيقة دروس وعبر لمن تزين له نفسه في أجهزة الجوالات، فيدخل على صور نساء كاسيات عاريات، ثم تزين نفسه وينطلق معها ويبدأ يتابع هذه الصور، وهي صور ما هي بحقيقية، ومع ذلك النظرة

كما قال ﷺ: «العين تزني وزناها النظر»، فتجده ينظر في أشياء محرمة فتجره نفسه. على الإنسان أن يتذكر يوسف وقد غلقت له الأبواب وتهيأت له المرأة وألقت بنفسها تقول تعال، ومع ذلك قال عليه السلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾؛ فأين هؤلاء من هؤلاء الذين يجلسون على الجوالات ويفتحون المقاطع والأفلام السيئة المحرمة؟ مصيبة! وقال بعض السلف: "نظرت نظرة محرمة فنسيت القرآن"، مجرد نظرة! الإنسان أحيانًا ينظر نظرة محرمة في سوق، في شارع، في مسجد، في محل تجاري كذا، ينظر إلى امرأة ثم لا يدري ما أثر هذه النظرة عليه.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾؛ هذا مختلف فيه أيضًا، المؤلف يقول: الحجة، حجة له.

قوله "ربي" هذه فيها تفسيرات، الصحيح أنه السيد، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يعني سيدي -الذي هو زوجك- أكرمني لما قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، ليس من باب الوفاء له أنني أخونه في زوجته، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. كما قال في الآية الكريمة: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾ [يوسف: 50] في آية أخرى، الرب هنا معناه السيد. تأتينا الآن

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾، في القراءة (قد شعفها) بالعين؛ أي فتنها، أو "شغفها" أي وصل إلى شغاف القلب وهو غلاف القلب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾، قيل المتكأ: المكان الذي يتكئ فيه مثل المجلس، وقيل المتكأ: هو الطعام، وهو الأترج، فأحضرت لهن أترجًا وقدمت لهن، أو أي نوع من الطعام، الله أعلم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي سيدك، معنى الرب هنا السيد. ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾؛ قيل هو لبث سبع سنوات، وقيل من الواحد إلى التسعة تسمى بضع سنين، من الواحد إلى التسعة.

٤٤- ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ أي: أخْلاط أحلام. مثل أضْغَاث النبات يجمعها الرجل فيكون فيها ضُرُوب مختلفة. والأحلام واحدها حُلُم.

٤٥- ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد حين. يقال: بعد سبع سنين. ومن قرأ (بَعْدَ أَمَةٍ) أراد: بعد نسيان.

٤٦- ﴿الصِّدِّيقُ﴾ الكثيرُ الصدقِ. كما يقال: فِسِّيقٌ وشِرِّيبٌ وسِكِّيرٌ؛ إذا كثر ذلك منه.

٤٧- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: جِدًّا في الزراعة ومتابعةً. وتقرأ (دَأْبًا): بفتح الهمزة. وهما واحد. يقال: دَأَبْتُ أَدْأَبُ دَأْبًا وَدَأَبًا.

٤٨- ﴿تُحْصِنُونَ﴾ أي: تُحْرِزُون.

٤٩- ﴿يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: يُمْطَرُون. والْغَيْثُ: المطرُ.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يعني: الأعنابَ والزيت. وقال أبو عبيدة (يعصرون): يَنْجُون والْعُصْرة النَّجَاة. قال الشاعر:

وَلَقَدْ كَانَ عُصْرَةَ الْمَنْجُودِ

أي: غياثا ومنجاةً للمكروب.

٥١- ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما أمْرُكُنَّ، ما شَأْنُكُنَّ؟

﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي: وضَح وتَبَيَّن.

٥٩- ﴿خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي: خير الْمُضِيفِين.

٦٥- ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ من الميرة. يقال: مار أهلَه ويَميرُهم مَيْرًا، وهو مَائِرٌ أهلَه؛ إذا حمل إليهم أقواتَهم من غير بلده.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: حِمْلَ بعير.

٦٦- ﴿إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: تُشْرِفوا على الْهَلَكَة وتُغْلَبوا.

﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: كفيلٌ.

٦٧- ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾؛ يريد: إذا دخلْتم مصرَ، فادخلوا من أبواب متفرّقة. يقال: خاف عليهم العين إذا دخلوا جملة.

٦٩- ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضَمَّه إليه. يقال: آوَيْتُ فلانا إليَّ بِمَدّ الألف -: إذا ضممتَه إليك. وَأَوَيْتُ إلى بني فلان - بقصر الألف -: إذا لجأت إليهم.

﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ من البُؤْس.

٧٠- ﴿السِّقَايَةَ﴾ المكيالَ. وقال قتادة: مَشْرَبَةُ المَلِك.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: قال قائلٌ، أو نادى مُنادٍ.

﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ القومُ على الإبل.

٧٢- ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ وصَاعه واحدٌ.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: ضمين.

٧٥- ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: يُستعبد بذلك. وكانت سنة آل يعقوب في السارق.

٧٦- ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: احتلنا له. والكيد: الحيلة. ومنه قوله: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في سلطانه.

٧٧- ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾؛ يعنون يوسف، وكان سرق صنما يُعْبَد وألقاه.

٨٠- ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ أي: يَئِسُوا.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي: اعتزلوا الناس ليس معهم غيرُهم يتناجَوْن ويتناظَرُون ويَتَسَارُّون. يقال: قوم نَجِيٌّ؛ والجميع أَنْجِيَة. قال الشاعر:

إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَهْ ❊❊❊ وَاصْطَرَبَتْ أَعْنَاقُهُمْ كَالأَرْشِيَهْ

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ أي: أعقلهم. وهو: شَمْعُون. وكأنه كان رئيسَهم. وأما أكبرُهم في السن: فَرُوبيلُ. وهذا قول مجاهد. وفي رواية الكلبي: كبيرهم في العقل، وهو: يَهُوذا.

٨١- ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ يريدون: حين أعطيناك المَوْثق لنأتينَّك [به] ؛ أي: [لم] نعلم أنه يسرقُ فيؤخذ.

٨٤- ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى﴾؛ والأسف: أشدُّ الحسرة.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: كاظمٌ. كما تقول: قديرٌ وقادرٌ. والكاظمُ: المُمسكُ على حزنه، لا يُظهره، ولا يشكوه.

٨٥- ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزالُ تذكر يوسُفَ. قال أوس بن حَجَر:

فَمَا فَتِئَتْ خيلٌ تَثُوبُ وتَدَّعِي

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: دَنِفًا. يقال: أحْرَضهُ الحزن؛ أي: أدنفه. ولا أحسبه قيل للرجل الساقطِ: حَارِضٌ؛ إلا من هذا. كأنَّه الذاهبُ الهالكُ.

﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يعني: الموتى.

٨٦- و (الْبَثُّ) أشد الحزن. سمي بذلك: لأن صاحبه لا يصبر عليه، حتى يَبُثَّه، أي: يشكوَه.

٨٨- ﴿بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ أي: قليلةٍ؛ ويقال: رَدِيئة؛ لا تنفق في الطعام، وتنفق في غيره. لأن الطعام لا يؤخذ فيه إلا الجيدُ.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ يعنون: [تفضلْ بما] بين البضاعة وبين ثمن الطعام.

٩٢- ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا تعْيير عليكم بعد هذا اليوم بما صنعتُم. وأصل التَّثْريب: الإفسادُ. يقال: ثَرَّب علينا؛ إذا أفسد. وفي الحديث: "إذا زَنَتْ أَمةُ أحدكم: فليجلدها الحدَّ، ولا يُثَرِّبِ". أي: لا يُعَيِّرْها بالزنا.

٩٤- ﴿لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تُعَجِّزون. ويقال: لولا أن تُجَهِّلُونِ، يقال: أَفْنَدَهُ الهرمُ؛ إذا خلَّط في كلامه.

١٠٠- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على السرير.

١٠٥- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: كم من دليل وعلامةٍ.

﴿فِي﴾ خَلْق

﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

١٠٦- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يريد: إذا سئلوا: من خلقهم؟ قالوا: الله. ثم يشركون بعد ذلك. أي: يجعلون لله شركاء.

١٠٧- ﴿غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: مُجَلِّلَةٌ تغشاهم. ومنه قولُه تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ أي: خبرُها.

١٠٨- ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: على يقين. ومنه يقال: فلان مُسْتَبْصِرٌ في كذا، أي: مُسْتَيْقِنٌ له.

١١٠- ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ مُفَسَّرٌ في كتاب "تأويل المشكل".

١١١- ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ أي: يُخْتَلَق ويُصنَعُ.

الشرح

هذه بقية سورة يوسف. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾؛ هناك الرؤى والأحلام؛ الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فالأحلام دائمًا تكون رؤى إما فيها كذب أو عدم صدق أو عدم وقوع، فهي أضغاث أحلام. ولذلك هم قالوا: "أضغاث أحلام لا تلتفت إليها، اتركها"، كأنها مجرد خزعبلات تأتيك في النوم ومن الشيطان فاتركها؛ لأنهم لم يعرفوا تفسيرها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ فعجزوا.

وهذا أيضًا فيه -سبحان الله العظيم- أن الأمور إذا أراد الله عز وجل إظهارها هيأ لها أسبابًا، فلما أراد إظهار يوسف عليه السلام جعل الملك يرى رؤيا، وفي نفس الوقت جعل هؤلاء يعجزون عن تفسيرها؛ فلو

فسروها ما ظهر يوسف! فلما عجزوا، وكان الساقي الذي نجا تذكر يوسف عليه السلام، ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي بعد نسيان، قال: ﴿أَرْسِلُونِ﴾ قال: أرسلوني إلى يوسف. وجاء إلى يوسف، ويوسف عليه السلام لم يقل: "أولًا أخرجوني ثم أفسر لكم"، بل أعطاهم التفسير ليعرفوه، فأعطاهم التفسير وذهبوا؛ هذا من وجه، ومن وجه آخر أن العالم -أو الذي مَنَّ الله عليه بالمعرفة- يجب عليه أن يبادر بالإجابة، فهو بادر بالإجابة وأعطاهم إياها فذهبوا إليه.

وفي تفسير: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي الفتيان اللذين كانا معه في السجن، "بعد أمة" أي بعد زمن، قيل سبع سنوات، وفي قراءة "بعد أَمَهٍ" أي نسيان، طيب (ادكر) يعني تذكر بعد النسيان.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾؛ قال: كثير الصدق. لما أعطاه الرؤيا قال: ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ عجاف أي: ضعاف ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾. قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي متواصلة، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾. قال: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾؛ لماذا؟ قال حتى لا يأكله السوس، لو أخرجوه من السنبل ووضعوه لأكله السوس، ولذلك تسمع أحيانًا أن البر إذا أُخذ في سنبله ودُفن في الأرض لو بعد سنين يخرج لم يتغير، فهو قال: "ذروه" اتركوه لأجل السبع سنوات هذه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُحْصِنُونَ﴾؛ أي تحرزون. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾؛ أي يمطرون مطرًا قويًا ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: تكثر الفواكه عندهم والنباتات والخضار حتى يصل الأمر إلى أنهم يزيدون على ذلك بالعصر، يعني يأكلون ويعصرون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾؛ ما خطبكن أي: ما شأنكن، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي ظهر وبان. ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾؛ أي المضيفين. ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛

النمير من الميرة وهي الطعام، قال المؤلف: هي الذي يُحمل ويُؤتى به من بلد يسمى ميرة. ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ وهذا كلام يعقوب، أي تشرفوا على الهلكة لا تملكون أنفسكم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾؛ هذا قال خشية العين لأنهم عشرة، ويخشى عليهم، أو أحد عشر؛ هم عشرة في الأول ثم جاء الأحد عشر لأنه قال: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، فالعشرة جاؤوا جميعًا دفعة واحدة، فخشي عليهم العين وقال تفرقوا.

فلما دخل ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي ضمه إليه. جعل السقاية في رحل أخيه، ﴿صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾؛ أي الصاع، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾؛ أي أضمن حمل البعير، يقول: من يأتيني بصاع الملك أعطيه حمل بعير وأضمن ذلك. قالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾. ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ أي إذا وجدناه معكم. أنتم الآن أحد عشر شخصًا وبالتأكيد معكم الصاع، نبحث في حملكم، فما جزاؤه من وُجِد عنده؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾؛ لماذا قال هكذا؟ لأن يوسف عليه السلام أراد أن يحكموا بحكم يعقوب، وحكم يعقوب أن السارق يصبح مملوكًا، فلو قضى بحكم مصر لكان السارق يعاقب فقط، لكنه أراد أن يأخذه؛ ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾؛ يقولون إن بعض العرب سمع هذه الآية فتعجب منها، "خلصوا نجيًا" جمعت أمورًا كثيرة؛ لما يئسوا من يوسف قالوا: "أعطنا أخانا، نعطيك واحدًا منا"، فلما لم يستجب لهم ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أي انفردوا وبدؤوا يتناجون: ماذا يقولون لأبيهم؟ وكيف سيذهبون إليه؟ فكلمة "خلصوا نجيًا" فيها بلاغة قرآنية ما يستطيع أن يعبر بها أي إنسان. ولذلك في آية أخرى في سورة الحجر قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: 94]، لما سمعها أعرابي سجد، فقيل له: أتسجد عند هذه؟ قال: أسجد لبلاغتها! وقيل إن الفرزدق هو من سمع أعرابيًا تعجب من "خلصوا نجيًا".

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ ﴿يَا أَسَفَىٰ﴾ أي ينادي الحسرة والشدد، يقول ﴿يَا أَسَفَىٰ﴾؛ يعني تحسر على ذهاب يوسف تحسر عليه، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي يكظم حزنه فلا يظهر لهم الشكوى، وإنما يشكو إلى ربه؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ والبث أشد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾؛ أي لا تزال تذكر يوسف، ومعنى ﴿حَرَضًا﴾؛ أي يصل إلى درجة المرض الذي لا يفارقه (مرض الهم) ويسقط من شدة المرض، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي تموت.

فلما رجعوا إلى يوسف عليه السلام قالوا: ﴿جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾؛ بمعنى ضعيفة وقليلة، قيل إنها كانت نِعالًا. يوسف عليه السلام لما رآهم بهذه الحال وهم فقراء ويتكلمون بهذا الأسلوب ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فَرَقَّ لهم عليه السلام، وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي لا أعيركم ولا أذكركم بأشياء مضت، وهذا من أقوى صور العفو عند المقدرة؛ لما قدر عليهم وصاروا بين يديه عفا عنهم. ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ هذا قول يعقوب، تفنّدون: أي تحكمون عليَّ بالتخريف والهرم، لأنه قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. وقيل إن ريح يوسف لما فصلت العير من مصر –والمسافة بعيدة آلاف الكيلوات– شمَّ يعقوب ريحه، ﴿لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي ريح قميصه، لولا أن تحكموا عليَّ بأنني قد وصلت درجة الهرم والخلط في الكلام، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي لا تزال تتذكر شيئًا قديمًا.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ سرير الملك. وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي علامات تدل على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

وإحاطته وعلمه، ومع ذلك يعرضون عنها. وفي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ أي يخلطون مع الإيمان شركًا؛ لأنهم يعرفون الله ويشركون به.

في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾؛ أي تغشاهم وتجللهم. ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ أي على يقين وعلم ومعرفة. وفي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؛ أي انقطع رجاؤهم وينتظرون الفرج فجاء، وهذه إشارة إلى أن الفرج بعد اليأس؛ مثلما فرَّج الله عن يوسف تفريجات كثيرة، لا تيأسوا أيها الرسل سيأتيكم الفرج.

سورة الرعد

مكية كلها

٢- ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذَلَّلَهما وقصرهما على شيء واحد.

٣- ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من كل الثمرات لونين حُلْوًا وحامِضًا. والزَّوْجُ: هو اللون الواحد.

٤- ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ يعني قرى متجاورات.

و (الصِّنْوَانُ) من النخل: النخلتان أو النخلات يكون أصلها واحدا.

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ يعني متفرق الأصول. ومن هذا قيل: بَعْضُ الرَّجلِ صِنْوُ أبيه.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾ أي: في الثمر.

٦- ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي بالعقوبة.

وأصل المَثُلَة: الشِّبْهُ والنَّظِيرُ وما يعتبرُ به. يريد من خلا من الأمم.

٧- ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي يدعوهم.

٨- ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ أي: ما تنقص في الحمل عن تسعة أشهر من السقط وغيره.

﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على التسعة. يقال: غاض الماء فهو يغيض إذا نقص، وغِضْتُه.

١٠- ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: مُتَصَرِّف في حوائجه. يقال: سَرَبَ يَسْرَب. وقال الشاعر:

أَرَى كلَّ قومٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ *** ونحنُ خلعْنَا قَيْدَهُ فهو سارِبُ

أي: ذاهب.

١١- ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يعني: ملائكة يعقب بعضها بعضا في الليل والنهار، إذا مضى فريق خلفَ بعده فريق.

﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: بأمر الله.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أي: وَلِيّ. مثل: قادر وقدِير. وحافظ وحفيظ.

١٢- ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ للمسافر، ﴿وَطَمَعًا﴾ للمقيم.

١٣- ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي: الكيد والمكر. وأصل المحال: الحيلَةُ. والحولُ: الحيلة. قال ذُو الرُّمَّة:

وَلَيْسَ بين أقوامٍ فكلٌّ ❊❊❊ أعَدَّ له الشَّغَازِبَ والمِحَالا

١٤- ﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي: لا يصير في أيديهم منه إذا دعوهم إلا ما يصير في يديْ مَن قَبَضَ على الماء ليبلغَه فاه. والعرب تقول لمن طلب ما لا يجد: هو كالقابض على الماء.

قال الشاعر:

فإني وإيَّاكم وشوقًا إليكم ❊❊❊ كقابضِ ماءٍ لَمْ تَسِقْهُ أناملُهْ

لم تَسِقْهُ: أي لم تحمله، والوسق: الحِمْلُ.

١٥- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: يستسلم وينقاد ويخضع. وقد بينت هذا في تأويل "المشكل".

١٧- ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: على قدرها في الصغر والكبر.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ أي: زبدًا عاليًا على الماء.

﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: حلى.

﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أو آنية. يعني: أن من فِلِزِّ الأرض وجواهرها مثل الرصاص والحديد والصُّفر والذهب والفضة - خبثًا يعلوها إذا أُذِيبَتْ، مثل زبد الماء.

(والجُفَاءُ) ما رَمَى به الوادي إلى جَنَبَاتِهِ. يقال: أَجْفَأَت القِدْرُ بزبدها: إذا ألْقت زبدها عنها.

الشرح

نمر على بعض الآيات تحتاج التي إلى بيان. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ أي ذللها. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ الزوج: الصنف وأحيانًا يطلق على اللون والأشكال، ولذلك قال: ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: 53] أي أصناف. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾؛ قال المؤلف: (يعني قرى متجاورات)، أو يكون الأرض قطع متجاورات بمعنى أرض متجاورة ومختلفة؛ فتجد هذه صلبة وهذه رملية وهذه لونها أصفر وهذه لونها أسود، فهي مختلفة، دليل اختلافها على أن وراءها خالقًا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾؛ الصنوان: النخيل المجتمعة مع بعض (أصلها واحد)، تجد مجموعة نخل ثلاث أو أربع مع بعض؛ هذا صنوان، وغير صنوان كل واحدة وحدها بعيدة عن الأخرى، وهذا أيضًا كل التقدير والتدبير يدل على قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾؛ أي العقوبات. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾؛ الغيض النقص، فالرحم أحيانًا يكمل إلى تسعة أشهر وأحيانًا ينقص يسقط ونحو ذلك أو يزيد، كل هذا بقدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، ﴿وَمُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾؛ قيل سارب بالنهار أي: ظاهر يمشي، وقيل سارب أي: دخل في السرب، دخل في مكانه أو في مسكنه، والمؤلف أخذ بمعنى سالب يعني ظاهر أي يمشي ذاهب بالنهار، فالمستخفي بالليل أو الظاهر بالنهار عند الله ﷻ سواء.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾؛ ملائكة، ثمانية ملائكة: أربعة بالليل وأربعة بالنهار، اثنان خلفه واثنان أمامه، ﴿لَّهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ غير الملائكة التي تكتب الأعمال، هذه الملائكة يسمونهم

حَفَظَة؛ عندنا كَتَبَة وعندنا حَفَظَة. انظروا كيف لبني آدم معه الملائكة والله عز وجل حافظه بالملائكة، يحفظونه من أمر الله أن يصيبه شيء إلا إذا أراد الله أن يصيبه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾؛ خوفًا من أثره السيّئ قد يكون غرقًا ونحوه، ﴿وَطَمَعًا﴾ في الماء. قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي قال شديد الانتقام، والمحال الحيلة بحيث إنه يأخذ الإنسان. هؤلاء الذين يعبدون من دون الله ضرب الله لهم مثلًا فقال: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾؛ أي عبادتك لأصنام لا تستجيب لك مثل الذي بسط كفيه إلى الماء، إذا بسطت كفيك إلى الماء ثم خرجت بها لا تمسك شيئًا وأنت باسط كفيك لم تقبضها، وقيل بمعنى الذي يدخل يده في الماء ثم يقبض الماء بيديه لا يمسك شيئًا، فهذا مثلًا ضربه الله ﷻ بحال هؤلاء الذين يعبدون من دونه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾؛ طوعًا يعني الذي يسجد طائعًا، والكره الذي يسجد من غير طاعة يعني يكره إكراهًا. قوله ﷻ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾؛ أي الزبد الذي يعلو على الماء، الرغوة التي يكون لونها أبيض وتحمل معها الأوراق والعشب ونحو ذلك تعلو على الماء، يضرب الله ﷻ مثلين: مثل مائي ومثل ناري ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾، بأن الحق يبقى والباطل يذهب، هذا معناه قالوا: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يلصق بجنبات الأودية لا يستفاد منه.

٢٢- ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون السيئة بالحسنة، كأنهم إذا سفهَ عليهم حلموا. فالسَّفَهُ سيِّئَةٌ والحِلْمُ حسنة. ونحوه ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ويقال: دَرَأَ اللَّهُ عنّي شَرَّكَ: أي دفعه. فهو يَدْرَؤُه دَرْءًا.

٢٤- ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ أي يقولون: سلام عليكم. فحذف اختصارًا.

٣١- ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أراد لكان هذا القرآن. فحذف اختصارًا.

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أفلم يعلم. ويقال: هي لغة للنخع.

وقال الشاعر:

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْب إذْ يَأْسِرُونَنِي *** أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

أي أَلَمْ تَعْلَمُوا.

﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تَقْرَع أو مصيبة تنزل. وأراد أن ذاك لا يزال يصيبهم من سَرَايَا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣٢- ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أمهلتهم وأَطَلْت لهم.

٣٣- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو الله القائم على كل نفس بما كسبت يأخذها بما جنت ويثيبها بما أحسنت. وقد بينت [معنى] القيام في مثل هذا في كتاب "المشكل".

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ منه قوله تعالى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72] في قتيلِ بني إسرائيلَ، ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ يعني تدافعتم، كلُّ واحدٍ يدفعُ التهمةَ على الآخرِ. فمعنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون السيئةَ بالحسناتِ، فيعملون الحسناتِ حتى تُزيلَ وتُذهبَ السيئات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114].

ذكر المؤلف بعدها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ وهذا من بابِ الحذفِ في القرآنِ، والحذف كثيرٌ؛ الملائكةُ تدخلُ على المتقين في جناتِ النعيمِ، يدخلون عليهم كلهم: سلامٌ عليكم، أي يقولون: سلامًا.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ هذا أيضًا من اختصاراتِ وهي بمعنى: "ولو أن قرآنًا سيّرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن"، هذا هو التقديرُ، لكن حُذف للعلمِ به.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أفلم يعلم، والنخعُ هذه قبيلةٌ تستعملُ كلمةَ (يَئِسَ) معناها (علمَ)، الأصلُ في كلمةِ "يئِس" من اليأسِ والقنوط ضد الرجاء، هذا الأصلُ، ﴿لَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف:87] أي لا تقنطوا، لكنها جاءت هنا في الآيةِ هذه في سورةِ الرعدِ فقط، اليأسُ هنا معناه العلمُ، هذه من الألفاظِ المشتركةِ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وهذا من الألفاظِ المشتركةِ، القيامُ هنا ما معناه؟ ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، اسمُ (القيوم) للهِ معناه؛ القيومُ: القائمُ بنفسهِ، لا يحتاجُ لأحدٍ من خلقهِ، غنيٌّ، قائمٌ على خلقهِ، على كلِّ نفسٍ، فالآية بمعنى: لولا اللهُ ما عاشت هذه النفسُ ولا استقامت ولا استطاعت؛ فقيامُ اللهِ عليها بالرزقِ، مثل ما ذكر هنا، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يأخذها بما جنت ويثيبها بما أحسنت) الإثابةُ بالحسناتِ، والعقوبةُ بالسيئاتِ، أو نحو ذلك. المهمُ اللهُ عز وجل هنا قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، كلمةُ ﴿كَسَبَتْ﴾ هي التي جعلت المؤلفَ يقولُ الحسنات والسيئات، وإلا فاللهُ عز وجل قائمٌ على كلِّ نفسٍ في رزقها وفي عيشها وفي كلِّ ما تحتاجُ إليهِ.

٣٨- ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي وقت قد كُتِب.

٣٩- ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي ينسخ من القرآن ما يشاء.

﴿وَيُثْبِتُ﴾ أي يدعه ثابتًا فلا ينسخهُ، وهو المُحْكَمُ.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي جُمْلَتُهُ وأصلُه. وفي رواية أبي صالح: أنه يمحو من كتب الحفظة ما تكلم به الإنسان مما ليس له ولا عليه، ويثبت ما عليه وما له.

٤١- ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي بموت العلماء والعُبَّاد، ويقال: بالفتوح على المسلمين. كأنه ينقص المشركين مما في أيديهم.

﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي لا يَتَعَقَّبُه أحدٌ بتغيير ولا نقص.

الشرح

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ السلفُ من الصحابةِ والتابعين ومن جاء بعدهم يفسرون أحيانًا الآياتِ القرآنيةِ بالمثالِ، وهنا أعطاك مثالًا واحدًا، قال لك: مثل النسخِ في القرآنِ، وإلا فكلمةُ ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يدخلُ فيها كلُّ ما قدرهُ اللهُ من الإزالةِ والإثباتِ، كلُّ ما قدرهُ؛ فيمحو السيئاتِ ويبدلها بالحسناتِ، يمحو الآجالَ ويعطي الأجلَ، فهي عامةٌ، قد يمحو الأرزاقُ أحيانًا يكتبُ لك رزقًا فيُغيَّر، فهو يرجعُ إلى اللهِ عز وجل. والمقادير أو الأقدار أنواع؛ هناك التقديرُ العامُ الذي في اللوحِ المحفوظِ، وهناك تقدير يسمى التقدير العمري الذي يُكتبُ لك في بطنِ أمك؛ رزقك، والتقدير السنوي في ليلةِ القدرِ، والتقدير اليومي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]، فهذه التقاديرُ تختلفُ، فأحيانًا تتغيرُ بقدرةِ اللهِ عز وجل، فهذا معنى ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ على وجهِ العمومِ، لكن السلفَ يفسرون أحيانًا بتقريبِ الصورةِ فقط كمثالٍ.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ هذه أيضًا عامة لكن المؤلف يُمَثّل لك، يقول لك: "مثل موت العلماء" هذا نقص من الأرض، أو مثلًا الفتوحات نقص من أراضي الكفار؛ فهي عامة.

سورة إبراهيم

مكية كلها

٥- ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بأيام النِّعم.

٧- ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ مبيَّن في سورة الأعراف.

٩- ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال أبو عبيدة: تركوا ما أمروا به، ولم يُسلِموا.

ولا أعلم أحدًا قال: ردَّ يدَه في فيه؛ إذا أمسك عن الشيء! والمعنى: رَدُّوا أيديهم في أفواههم، أي عضُّوا عليها حنقًا وغيظا. كما قال الشاعر:

يَرُدُّونَ فِي فِيهِ عَشْر الحَسُودِ

يعني: أنهم يَغيظُون الحسودَ حتى يعض على أصابعه العشر، ونحوه قول الهُذَلي:

قَدَ افْنَى أَنَامِلَهُ أَزْمُهُ ❊❊❊ فَأَضْحَى يَعَضُّ عَلَيَّ الوَظِيفَا

يقول: قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى يعضُّ عليَّ وظِيفَ الذراع، وهكذا فسر هذا الحرفَ ابنُ مسعود واعتبارُه قولُه عز وجل في موضع آخر: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾

١٥- ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: استنصَرُوا. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

١٦- ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامَه.

﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ والصديد: القيْحُ والدمُ. أي: يُسقى الصديدَ مكان الماء. كأنه قال: يُجعلُ ماؤه صديدًا.

ويجوز أن يكون على التشبيه. أي يُسقَى ماءً كأنه صديدٌ.

١٧- ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من كل مكان من جسده. ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

١٨- ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريحِ. شبه أعمالَهم بذلك: لأنه يُبطلها ويَمحَقُها.

٢١- ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: مَعْدِلٍ. يقال: حاصَ عن الحق يحيصُ؛ إذا زاغ وعَدَل.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ ﴿تَأَذَّنَ﴾ مرت معناها في الأعراف: أعلمَ، (أَذَّنَ) بمعنى أعلمَ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ هذه استعارة بلاغية، يقول لك: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ يقول المؤلف: لم يضعوا الأيدي في أفواههم، ولكن حالهم تُنبئ إلى أنهم ردوا أيديهم فيها. هذا معنى اختاره المؤلف، وقد يكونون ردوا بأيديهم فقد يصلون إلى هذا. ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ [آل عمران: 119]؛ ليس من الضروري إنه يأخذ الأنامل ويعضها، هذا كناية عن الغيظ والحقد والحسد عليكم.

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مِّن وَرَائِهِ﴾ يعني قدامه؛ أمامه، هذه نسميها في لغة العرب "الأضداد"؛ هذه تسمى ضدًا، يأتي بالعبارة ويعطيك ضدها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ هذه حتى العوام يستعملونها "يحيص الشيء" يقول إذا حاص يعني يعدل أو يذهب يمينًا وشمالًا.

٢٢- ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: فُرِغ منه، فدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ.

٢٤- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ شهادة أن لا إله إلا الله،

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يقال: هي النخلةُ. ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها؛ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾

٢٥- ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ يقال: كلَّ ستةِ أشهر؛ ويقال: كلَّ سنةٍ.

٢٦- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ يعني: الشرك.

﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قال أنس بن مالك: هي الحَنْظَلَةُ.

﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ﴾ أي: اسْتُؤْصِلَتْ وقُطعتْ.

﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: فما لَها من أصل.

فشبَّه كلمةَ الإيمان في نفعها وفضلها؛ بالنخلة: في عُلُوِّها وثباتها وحملها. وشبَّه كلمة الشرك، بحنظلةٍ قطعتْ: فلا أصلَ لها في الأرض، ولا فرع لها في السماء، ولا حَمْلَ.

٢٨- ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دارَ الهلاك. وهي: جهنم.

٣١- ﴿وَلا خِلالٌ﴾ مصدر "خَالَلْتُ فلانًا خلالا ومُخَالَّةً" والاسم الخُلة، وهي: الصداقة.

٣٥- ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ أي: اجنُبْني وإيَّاهُمْ.

٣٦- ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أي: ضَل بهن كثيرٌ من الناس.

٣٧- ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تنزعُ إليهم.

٤٣- ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين. يقال: أهْطَعَ البعير في سَيْره واسْتَهْطَعَ؛ إذا أَسْرَعَ.

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ والمُقْنِع رأسه: الذي رفعه وأقبل بطرفه على ما بين يديه. والإقناعُ في الصلاة هو من إتمامها.

﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: نظرُهم إلى شيء واحد.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ يقال: لا تَعِي شيئًا من الخير. ونحوه قول الشاعر في وصف الظَّلِيم:

.. جُؤْجُؤُهُ هَوَاء

أي: ليس لِعَظْمِهِ مُخٌّ ولا فيه شيء.

ويقال: أفئدتهم هواء مَنْخُوبَةٌ من الخوف والجبن.

٤٩- ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ أي: قد قُرن بعضُهم إلى بعض في الأغلال. واحدها: صَفد.

٥٠- ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أي: قُمُصُهم. واحدها: سِرْبَال. ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾.

ومن قرأ: "مِنْ قَطْرٍ آنٍ" أراد: نحاسًا قد بلغ منتهى حرِّه أنَى فهو آنٍ.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ الحين: كل سنة؛ والتمر طبيعته معروفة، لأن المراد بالشجرة الطيبة كما فسرها ابن عمر عند النبي ﷺ أنها النخلة، والنخلة تثمر في السنة مرة، قد تثمر في السنة مرتين في مناطق لا ندري عنها -الله أعلم-، لكن المشهور هنا أن النخيل يثمر في السنة مرة، المقصود بـ "الحين" السنة.

انظر كيف وأنت تقرأ وتتقدم مع المؤلف ترى عجائب القرآن، إن مررت بالبلاغة ذكرها؛ من حذف، أو استعارة، مرت معنا استعارة مثل ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، أو تشبيه كما هنا؛ تشبيه دقيق، شبه التوحيد والشرك بالنخلة والحنظلة، فتأمل البلاغة القرآنية معك في القرآن، ومنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ يعني مكة، التي تهوي هي الأجساد، لا الأفئدة؛ الأفئدة تحن، ولذلك ابن القيم يقول: البيت -بيت الله الكعبة- كالمغناطيس للقلوب، مثل المغناطيس يمسك القلوب، فأنت بمجرد خروجك من مكة تريد أن ترجع مرة ثانية، هذا معناه، انظر إلى عبارة القرآن، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفْئِدَةً﴾ لم

يقل: اجعل أناسًا، اجعل القلوب، ثم ماذا حالها؟ قال: ﴿تَهْوِي﴾ بقوة، لم يقل تأتي، بل تلقي بنفسها؛ تهوي، هذه البلاغة القرآنية.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ المهطع هو الشخص الذي إذا أسرع في مشيته مد عنقه، فالمهطع من يمد عنقه وهو يمشي بسرعة، والمقنع يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، الذي رفعه وأقبل بطرفه على ما بين يديه، أي رفع رأسه مثل المهطع. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي فارغةً من كلِّ شيءٍ، من أي أشغالٍ، مثل ما ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن أم موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ لماذا قال فؤاد ثم قال قلب وهما واحد؟ لأن فيه فرق؛ قالوا: الفؤاد إذا كان محتميًا من (تَفَأَّدَ) يعني احترق، سُمي الفؤاد فؤادًا لاحتراقه، فهي الآن وقت احتراقٍ، فلما ربطها على قلبها لم يقل فؤادها، لا يتناسب ربط القلب؛ طمأنينة دون حرقة الآن، زالت الحرقة، فلما زالت قال: قلب، لما كانت الحرقة موجودة قال: فؤاد، هذه دقة عبارات القرآن! ففي تفسير ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي فارغة من كل الأشغال إلا ما يرونه أمامهم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ من القطران فيها قراءتان، القطران هو المعروف مثل القار الأسود، والقراءة الثانية الشاذة (مِنْ قِطْرٍ آنٍ) يعني نحاس؛ النحاس إذا احتمى وذاب.

سورة الحجر

مكية كلها

٤- ﴿إِلا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: أجل مؤقت.

٧- ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ﴾ أي: هلا تأتينا بالملائكة. و "لولا" مثلها أيضا: إذا لم يكن يحتاج [إلى جواب. وقد ذكرناها في المشكل].

١٠- ﴿فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾ أي: أصحابِهم.

١٣- ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: تقدمتْ سيرةُ الأولين في تكذيب الأنبياء.

١٤- ﴿فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: يَصْعَدُون. يقال: عرج إلى السماء؛ أي صعد. ومنه تقول العامة: عُرج بروح فلان. والمعارجُ: الدَّرَج.

١٥- ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ غُشِيَتْ. ومنه يقال: سُكِرَ النهر؛ إذا سُدَّ. والسِّكْرُ: اسم ما سَكَرْتَ [به] . وسُكْرُ الشَّرابِ منه، إنما هو الغطاءُ على العقل والعين.

وقرأ الحسن: سُكِرَتْ - بالتخفيف - وقال: سُحِرَتْ. والعامة تقول في مثل هذا: فلان يأخذ بالعين.

١٦- ﴿جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يقال: هي اثنا عشر برجًا. وأصل البرج: القصر والحِصْنُ.

١٧-١٨- ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ يقول: حفظناها من أن يصل إليها شيطان، أو يعلمَ من أمرها شيئًا إلا استراقا، ثم يتبعه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أي كوكب مضيء.

١٩- ﴿مَوْزُونٍ﴾ مقدَّر. كأنه وُزِنَ.

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ مثل الوحش والطير والسباع. وأشباه ذلك: مما لا يرزقه ابن آدم.

٢٢- ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ قال أبو عبيدة: "لواقح" إنما هي ملاقحُ، جمع ملقحة. يريد أنها تلقح الشجر وتلقح السحاب. كأنها تنتجه.

ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير بهذا الاستكراه. وهو يجد العرب تسمي الرياح لواقح، والريح لاقحًا. قال الطِّرِمَّاح وذكر بُرْدًا مدَّه على أصحابه في الشمس يستظلون به:

قَلِقٌ لأفْنَانِ الرِّيَا ... ح لِلاقِحٍ مِنْهَا وَحَائِلْ

فاللاقح: الجنوب. والحائل: الشمال. ويسمون الشمال أيضا: عقيما. والعقيم التي لا تحمل. كما سموا الجنوب لاقحا. قال كُثَيِّر:

وَمَرُّ بِسِفْسَافِ التّرَابِ عَقِيمُهَا

يعني الشمال، وإنما جعلوا الريح لاقحًا - أي حاملا - لأنها تحمل السحاب وتقلبه وتصَرِّفه، ثم تحمله فينزل. [فهي] على هذا الحاملُ. وقال أبو وَجْزَةَ يذكر حميرًا وَرَدَتْ [ماء]:

حَتَّى رَعَيْنَ الشَّوَى مِنْهُنّ في مَسَكٍ ... مِنْ نَسْلِ جَوَّبَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجِ

ويروى: "سلكن الشوى"؛ أي: أدخلن قوائمهن في الماء حتى صار الماء لها كالمَسَك. وهي الأسورة. ثم ذكر أن الماء من نَسْل ريح تَجُوب البلاد.

فجعل الماء للريح كالولد: لأنها حملته وهو سحاب وحلّته. ومما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالا﴾ أي: حملت.

٢٦- (الصَّلْصَالُ): الطين اليابس لم تصبه نار. فإذا نقرته صوَّتَ فإذا مسته النار فهو فَخَّار. ومنه قيل للحمار: مُصَلْصِل. قال الأعشى:

كَعَدْوِ المُصَلْصِلِ الجَوَّالِ

ويقال: سمعت صَلْصَلَة اللجام؛ إذا سمعت صوت حِلَقِه.

﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ جمع حَمْأَة. وتقديرها: حَلْقَة وَحَلَق. وبَكَرَةُ الدَّلْو وبَكَر. وهذا جمع قليل.

و (الْمَسْنُونُ) المتغير الرائحة.

وقوله: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ في قول بعض أصحاب اللغة منه. وقد ذكرناه في سورة البقرة.

و (المسنونُ) [أيضا] : المصبوبُ. يقال: سننت الشيء؛ إذا صببته صبًّا سهلا. وسُنَّ الماء على وجهك.

٤٧- (الْغِلُّ) : العداوة والشحناء.

٥٥- ﴿فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ أي: اليائسين.

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أخبرناه.

٧٠- ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: [أو] لم ننْهك [عن] أن تضيف أحدًا؟! وكانوا نَهَوْه عن ذلك.

٧٥- ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ المتفَرِّسين. يقال: توسمتُ في فلان الخير؛ أي: تبينته.

٧٩- ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي: لبطريق واضح بين. وقيل للطريق: إمامٌ؛ لأن المسافر يأتم به، حتى يصير إلى الموضع الذي يريده.

٨٢- ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ يريد: أمنوا أن تقع عليهم.

٨٨- ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: أصنافا منهم.

٩٠- ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ قوم تحالفوا على عَضْهِ النبي صلى الله عليه وسلم وأن يذيعوا ذلك بكل طريق، ويخبروا به النزاع إليهم.

٩١- ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: فرَّقوه وعَضُّوه. قال رُؤْبة:

وَلَيْسَ دينُ اللَّهِ بِالْمُعَضَّى

ويقال: فرَّقُوا القول فيه. فقالوا: شعر. وقالوا: سِحر. وقالوا: كهانة. وقالوا: أساطير الأولين.

وقال عِكْرِمة العَضْهُ: السحر، بلسان قريش. يقولون للساحرة: عاضِهَةٌ. وفي [الحديث]: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة".

٩٤- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر ذلك. وأصله الفَرْق والفتحُ. يريد: اصدع الباطلَ بحقِّك.

٩٩- ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت.

الشرح

قال في قوله تعالى: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: أيُّ أمةٌ إلا ولها وقتٌ تنتهي فيه. وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾؛ (لوما) و (لولا) كلها أدوات شرط -حروف شرط-، ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يعني هلا تأتينا بالملائكة، قد يكون حرف تحضيضٍ، ويكون حرف امتناع؛ لامتناع أو امتناع لوجود إذا كانت شرطية؛ (لولا زيدٌ حضر لأكرمته) هذه شرطية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الشيع: الأصحاب، لأن الأولين كفروا وهؤلاء كفروا فأصبحوا كلهم كالأصحاب، مثل قوله: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: 53] وكلهم على معنى شيعة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 83] أي من شيعة نوح عليه السلام، أي من المؤيدين له أصحاب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تقدمتْ سيرةُ الأولين في تكذيب الأنبياء) أي سيرتهم في تكذيبهم الأنبياء. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾؛ قال أُغلقت وغُشيت. وقت تلت الآية ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي لو جعلنا لهم سلمًا يعرجون للسماء، قالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أي لن يؤمنوا، سيبحثون عن شيءٍ يردون به الحق.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ المراد بالبروج هنا الكواكب، وأصلًا البروج هي المنازل التي فيها الكواكب؛ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1] أي المنازل التي فيها الكواكب؛ لأن الكواكب

تنزل في منازل. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ السماء حفظها الله من كل شيطانٍ رجيمٍ بعد بعثة النبي ﷺ، إلا من استرق السمع فتبعه شهاب، أي إذا أراد أن يسترق السمع ويأخذ السمع جاءه الشهاب، أحيانًا يضربه الشهاب فيموت، وأحيانًا لا يصيبه فينقلها إلى غيره.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يقول الأرض جعلنا فيها معايش لكم من الحيوانات والأطعمة ونحوها، لكن هناك حيوانات ما تستطيع أن تجعلها معايش لك كالحيوانات المتوحشة كالذئب مثلًا والكلب ونحوه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ هذه واضحة، أي أن الرياح تلقح الأشجار. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الصلصال هو الطين إذا يبس يحدث صوتًا، إذا طُبخ سُمي فخارًا، والحَمأ المسنون: حَمَأ جمع حَمأة، وأصل الحمأة الطين الأسود، والمسنون المتغير لونه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أي لوط عليه السلام، أي أخبرناه بهلاك قومه، ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي لا تستضيف أحدًا يأتيك، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي المتفرسين الذين عندهم الخبرة والمعرفة في هذه الأشياء، قال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ الضمير "إنهما" يعود إلى قوم لوط وقوم شعيب -عليهما السلام-، أي بطريقٍ واضحٍ، يعني مدين ولوط في طريق الشام إلى مكة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ المراد بالأزواج هنا ليس النساء، الأزواج: أصناف الدنيا بخضرتها الحلوة بأي شيء؛ لأنها تأتي أصنافًا كثيرةً، أصنافها في الأطعمة وفي الملابس وفي المراكب وفي المساكن وفي الأزواج أو في الجواري كل شيء، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ يعني أصنافًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ قال العضين يعني قطعوه أعضاءً فقالوا هذا كذا وهذا كذا وهذا كذا، وأتهموا الرسول ﷺ بأن هذا ساحرٌ وهذا كهانةٌ وهذا كذا. قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير المقتسمين: (قوم تحالفوا على عَضْهِ) عضْه تعني: وصفه بأوصافٍ كثيرةٍ؛ مرةً قالوا كاهن ومرةً قالوا ساحر وقالوا شاعر وكذا، وأصل العضه التقطيع، منه الأعضاء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ هذه نزلت في دعوة النبي ﷺ لما كان يدعو دعوةً سريةً، الآن بدأت الدعوة الجهرية، نزلت بعد ثلاث سنوات، فبدأ بالدعوة الجهرية. يقول أحد الأعراب لما قرأت عليه هذه الآية ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ سجد عندها، قال: تسجد عندها وليست سجدةً؟ قال: أسجد لبلاغتها، عبارةٌ قويةٌ. فاصدع؛ الصدع أصلًا كسر الشيء، تقول: "انصدع الكأس" انكسر، فكأنه يصدع بما يؤمر يعني يظهره بقوة. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾: الموت.

سورة النحل

مكية كلها

١ - ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ يعني القيامة. أي هي قريب فلا تستعجلوا. وأتى بمعنى يأتي. وهذا كما يقال: أتاك الخير فأبشر. أي سيأتيك.

٢ - ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: بالوحي.

٥ - ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ (الدِّفْءُ): ما استدفأت به. يريد ما يتخذ من أوبارها من الأكْسِيَةِ والأخْبِيَة وغير ذلك.

٦ - ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ إذا راحت عِظَامَ الضرُوع والأسْنِمة، فقيل: هذا مال فلان.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ بالغداة. ويقال: سَرَحَت الإبل بالغداة وسَرَّحتها.

٧ - ﴿بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ أي بمشقة. يقال: نحن بِشِقٍّ من العيش، أي بجهد. وفي حديث أمّ زَرْع: "وجدني في أهل غُنَيْمَةٍ بِشِقّ".

٩ - ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من الطرق جائر لا يهتدون فيه. والجائرُ: العادِلُ عن القصد.

١٠ - ﴿مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ يعني المرعى. قال عِكْرِمَة: لا تأكل ثمرَ الشجر فإنه سُحْت. يعني الكلأ.

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي تَرْعَون. يقال: أَسَمْتُ إبلي فسَامَت. ومنه قيل لكل ما رعى من الأنعام: سائمة، كما يقال: رَاعِيَة.

١٤ - ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ السفن.

﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: جَوَارِيَ تَشُقُّ الماء. يقال: مَخَرَت السفينة. ومنه مَخْرُ الأرض، إنما هو شَقُّ الماء لها.

١٥ - ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالا ثوابت لا تبرح. وكل شيء ثَبَتَ فقد رسا.

﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئلا تميد بكم الأرض. والميد: الحركة والميل. ومنه يقال: فلان يَمِيدُ في مشيته: إذا تَكَفَّأَ.

٢١- ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: متى يبعثون.

٢٦- ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: من الأساس. وهذا مثل. أي أهلكهم كما أهلك من هدم مسكنه من أسفله فخرَّ عليه.

٢٨- ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: انقادوا واستسلموا. والسلم: الاستسلام.

٤٤- ﴿بِالْبَيِّنَتِ وَالزُّبُرِ﴾ الكتب. جمع زبور.

٤٧- ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: على تَنَقُّص. ومثله: التَّخَوُّن، يقال: تَخَوَّفته الدهور وتخوَّنته، إذا نقصته وأخذت من ماله أو جسمه.

٤٨- ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ أي: تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب. والْفَيْءُ: الرّجوع. ومنه قيل للظل بالعَشِيّ: فَيْءٌ، لأنه فَاءَ عن المغرب إلى المشرق.

﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ أي مُسْتَسْلِمَة منقادة. وقد بينت هذا في كتاب "المشكل"

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون. يقال: دخر لله.

٥٢- ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: دائما. والدين: الطاعة. يريد: أنه ليس من أَحَدٍ يُدَانُ له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلكة، غير الله. فإن الطاعة تدوم له.

٥٣- ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ أي: تضجُّون بالدعاء وبالمسألة. يقال: جَأَرَ الثور يَجْأَر.

و ﴿الضُّرُّ﴾ البلاء والمصيبة.

٥٦- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ هذا ما كانوا يجعلونه لآلهتهم من الحظ في زروعهم وأنعامهم. وقد ذكرناه في سورة الأنعام.

٥٧- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾. أي تنزيها له عن ذلك.

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين.

٥٨- ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي حزين قد كَظَم فلا يشكو ما به.

٥٩- ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي على هَوَان.

﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يَئِدُه.

٦٠- ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ شهادةُ أن لا إله إلا هو.

٦٢- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أي الجنة. ويقال: البنين.

﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أي معجلون إلى النار. يقال: فَرَطَ مني ما لم أحسبه.

أي سبق. والفارِط: المتقدِّم إلى الماء لإصلاح الأَرْشِيَةِ والدِّلاء حتى يَرِدَ القوم. وأَفْرَطْتُه: أي قدّمته.

٦٦- ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ذهب إلى النَّعَم. والنّعم تؤنث وتذكر و (الْفَرْثُ) ما في الكَرِش.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾ لأن اللبن كان طعامًا فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فَرْثٌ في الكرش، وخلص من الدم لبن.

﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: سهلا في الشراب لا يَشْجَى به شاربه ولا يَغَصّ.

٦٧- ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: خمرًا. ونزل هذا قبل تحريم الخمر.

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني: التمر والزبيب. وقال أبو عبيدة: السَّكَرُ: الطُّعم. ولست أعرف هذا في التفسير.

الشرح

سورة النحل سورةٌ طويلةٌ وهي سورةٌ مكيةٌ، سماها بعض المفسرين "سورة النِّعم" بما فيها من النعم العظيمة؛ يعني نعمة الطعام والشراب والنكاح والأولاد والملابس، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها أشياء كثيرة، والمراكب والسفن، والإبل وحتى المساكن ﴿بُيُوتِكُمْ﴾ كثيرٌ من النعم التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وأعظم

هذه النعم نعمة التوحيد والإيمان والطاعة التي ركزت السورة عليها؛ تقرير توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ يعني قريب، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبّر بالصيغة الماضية ﴿أَتَىٰ﴾ كأنه جاء لسرعته، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ المراد بالروح: الوحي؛ لأن فيه حياةً وفيه روحًا، كقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ ما يستدفع به من الألبسة والأكسية والأخبية، (الخباء) الذي يدخل فيه الإنسان مثل بيوت الشعر ونحوها. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تريحون: أي تأتي وقت الروحة، (الروحة) العودة و(الغدوة) الذهاب في الصباح مبكرًا، فالإبل والغنم والماشية إذا خرجت في أول النهار تخرج وهي ضامرة البطن وضامرة الحليب، فيخرجها صاحبها بسرعة حتى تذهب ولا ينظر إليها ولا يلتفت إليها، أما إذا عادت فهو ينتظر ويشتاق إليها لأنه فقدها ولأنها تأتي ممتلئة البطون وممتلئة الضروع، ولذلك قدم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ﴾ فجمالها حينما تأتي في العودة أكثر، جمالٌ وقد امتلأت الضروع والأسنمة، فالجمال مُنْصبٌّ على هذا وهذا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ بالمشقة والتعب. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يعني قصد الطريق المستقيم، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ يعني يعود الطريق المستقيم إلى طريق الله، وهناك طرقٌ أخرى جائرة ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، فاحذر الطرق الأخرى، الطرق الجائرة التي لا يهتدون فيها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون، (السائمة) الإبل السائمة التي ترعى في البر، ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعى من شجر البر. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ تمخر تشق الماء بقوة. وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي انقادوا واستسلموا. وفي قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي

تَنَقُّصٍ، تنقص بالأموال والأولاد ونحو ذلك. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي مستمرًا لا ينقطع، مثل ما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ -لفتة جميلة- أن المعبودات التي من دونه تنتهي، لكن دين الله واصب مستمر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَجْأَرُونَ﴾ معنى تجأرون: يجأر تعني إذا صاح بقوة بالدعاء، نجد بعض الناس إذا اضطر بالدعاء يرفع صوته بقوة، ورفع الصوت أصلًا غير مشروع؛ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 3]، هذا الذي ينبغي. أما رفع الأصوات مثل ما يحدث في الطواف غلطٌ؛ يشوش على الآخرين، وليس من السنة أنك ترفع صوتك، تجأر بالصوت بقوة، حتى الإنسان في الطواف يريد فرصة ليدعو بأدعيةٍ خاصةٍ فلا يستطيع، كلما أراد أن يدعو جاء من يشوش عليه بأصواتٍ عجيبةٍ، حتى إنك تسمع أحيانًا أصواتًا لا تدري ما يقولون. وأنا أذكر واحدًا جاءني في المسعى بين الصفا والمروة قال: يا أخي أنا كنت أدعو وسمعت أصواتًا ليست عربية لا أدري ما يقولون "هو هو هو"، فيسأل: ما هذه الأدعية؟ هذا ليس من الإسلام بشيء، أصوات تُردد دون معنى وتدفع أحيانًا آخرين بالترديد خلفهم. وكذلك الآن مع التقنية الجديدة يمكنك وضع سماعات وتستمع وتردد مع الجهاز فقط، لا حاجة لرفع الصوت ويدخلون على الناس إزعاجًا لا داعي له، كل هذه الأمور يفترض أن ينبه عليها الناس وتوضح أخطاءهم؛ يشوشون على الناس الآخرين ويرددون وهم لا يدرون ماذا يقولون. أذكر قال لي أحد في طواف العمرة سمع من يقول: "اجعله حجًا مبرورًا" وهم يرددون وراءه، وهو ليس بحج أصلًا! فأخطاءٌ كثيرةٌ، الله المستعان.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم: شديد الحزن. ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يعني على هوانٍ، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي يدفنه؛ يئده. كثيرٌ من الآيات واضحة جدًا. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني البنات أي نعم.

٦٨- ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [أي: ألهمها. وقيل:] سخَّرها. وقد بيَّنت في كتاب "المشكل" أنه قد يكون كلاما وإشارة وتسخيرًا.

﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ كل شيء عُرِشَ من كَرْم أو نبات أو سقف: فهو عَرْش ومَعْرُوش.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من الثمرات. وكلّ هاهنا ليس على العموم. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

٦٩- ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا﴾ أي: منقادة بالتَّسْخِير. وذُلُل: جمع ذَلُول.

٧٠- ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو الهَرَم؛ لأن الهرم أسوأ العمر وشرّه.

﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: حتى لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئا لشدة هرمه.

٧١- ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ يعني: فضّل السادة على المماليك.

﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ يعني: السادة.

﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أي: لا يجعلون أموالهم لعبيدهم حتى يكونوا والعبيد فيها سواء. وهذا مَثَل ضربه الله لمن جعل له شركاء من خلقه.

٧٢- ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ الحفدة: الخدم والأعوان. ويقال: هم بنون وخدم.

ويقال: الحفدة الأصهار. وأصل الحَفْد: مُدَارَكَةُ الخطو والإسراع في المشي. وإنما يفعل هذا الخدم. فقيل لهم: حفدة، واحدهم حافد، مثل كافر وكفرة. ومنه يقال في دعاء الوِتْر: وإليك نَسْعَى ونَحْفِد.

٧٣- وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا﴾ نَصَبَ شيئًا بإيقاع رزق عليه. أي: يعبدون ما لا يملك أن يرزقهم شيئًا. كما تقول: هو يخدم من لا يستطيع إعطاءه درهما.

٧٦- ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾ أي: ثِقْلٌ على مولاه. أي على وليه وقرابته. مَثَل ضربه لمن جعل شريكًا له في خلقه.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ مَثَل ضربه لنفسه.

٨٠- ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يعني قِبَابَ الأَدَمِ وغيرها.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ في الحَمْل.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ يوم سفركم ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾

و (الأثاث): متاع البيت من الفُرُش والأَكْسِيَة. قال أبو زيد: واحد الأثاث: أَثَاثَة.

٨١- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالا﴾ أي ظلال الشجر والجبال.

و (السَّرَابِيلُ): القُمُص.

﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ أراد تقيكم الحر والبرد. فاكتفى بذكر أحدهما إذا كان يدل على الآخر. كذلك قال الفرَّاء.

﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يعني الدُّرُوع تقيكم بأس الحرب.

٨٣- ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي يعلمون أن هذا كله من عنده، ثم ينكرون ذلك، بأن يقولوا: هو شفاعة آلهتنا.

٩٢- (الأنكاث): ما نقض من غزل الشعر وغيره. واحدها نِكْث، يقول: لا تؤكدوا على أنفسكم الأيْمان والعهود ثم تنقضوا ذلك وتحنثوا فتكونوا كامرأة غزلت ونسجت، ثم نقضت ذلك النسج فجعلته أنكاثا.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دَخَلا وخيانة.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي: فريق منكم.

﴿أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: أغنى من فريق.

١٠٠- ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ لم يرد أنهم بإبليس كافرون. ولو كان هذا كذا كانوا مؤمنين. وإنما أراد الذين هم من أجله مشركون بالله. وهذا كما يقال: سار فلان بك عالمًا، أي سار من أجلك.

١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ أي: نَسخْنا آية بآية.

١٠٣- ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يميلون إليه ويزعمون أنه يُعلِّمك. وأصل الإلحاد: الميل.

١٠٦- ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي فتح له صدرًا بالقبول.

١١١- ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي يأتي كل إنسان يجادل عن نفسه [غدا].

١١٢- ﴿رَغَدًا﴾ كثيرًا واسعًا.

١١٨- ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني: اليهود.

١٢٠- ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي معلما للخير يقال: فلان أمة. وقد بينت هذا في كتاب "المشكل".

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي مطيعًا.

١٢١- ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ جمع نُعْمٍ. يقال: يوم نُعْمٍ ويوم بُؤْس، ويُجمع أَنْعُم وأَبْؤُس. وليس قول من قال: إنه جمع نِعْمة بشيء؛ لأن فِعْلَة لا يجمع على أَفْعُل.

١٢٧- ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ تخفيف ضَيِّق. مثل: هَيْنٍ ولَيْنٍ. وهو إذا كان على هذا التأويل صِفَةٌ. كأنه قال: لا تك في أمر ضَيِّق من مكرهم.

ويقال: إن "ضَيْق" و "ضِيق" بمعنى واحد. كما يقال: رَطْلٌ ورِطْلٌ.

ويقال: أنا في ضِيقٍ وضِيقَة. وهو أعجب إليَّ.

الشرح

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ من العروش، ذكر لي بعضُ من يعمل بالمناحل يقول: أفضلُ النحل ما كان في الجبال، ولذلك بدأ الله به قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مِنَ الْجِبَالِ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾؛ فسبحان الله العظيم، لفتات جميلة.

يقول هنا سبحانه: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أي: السادة والمماليك، هذه إشارةٌ إلى: كيف لو كنت أنت السيدُ وعندك مملوكٌ فما تجعل رزقك أنت وهو سواءً، فكيف بالله عز وجل! تصرف شيئًا لله لمخلوقٍ تواسيه!

في قوله تعالى: ﴿حَفَدَةً﴾، المراد بالحفدة قيل هم أبناءُ الأبناء كما هو معلومٌ عندنا، يقول: "أولاده وأحفاده"، وقيل هم المماليك، وأصلهم السرعة وهو (الحَفْد)، إما سرعة مجيء الأبناء أبناء، أو سرعة المماليك للعمل.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ أي الأظلةً من الأشجار والجبال ونحوها. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ يعني الملابس والقمص، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي الحروب.

نقطةٌ جميلة أشار إليها: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ أي الشيطان ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ يعني: جعلوه شريكًا مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا مقصوده.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي معلمًا للخير، إمامًا قانتًا.

في قوله: ﴿أَنْعُمِهِ﴾ أنعم: جمع نُعْمٍ وليس جمع نعمة؛ (النِّعمة) تجمعه على (نِعَم) بالكسر، تقول: "هذه نِعمة ونِعَم"، لكن (أَنْعُم) هذا يختلف.

سورة بني إسرائيل

مكية كلها

٤- ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أخبرناهم.

٥- ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ أي عاثوا بين الديار وأفسدوا؛ يقال: جَاسوا وحَاسوا. فهم يَجُوسون وَيَحُوسُون.

٦- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ أي الدَّوْلَة.

﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر عددًا. وأصله: مَنْ يَنْفِرُ مع الرجل من عشيرته وأهل بيته. والنَّفِيرُ والنَّافرُ واحد. كما يقال: قَدِير وقَادِر.

٧- ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ يعني من المَرَّتَين.

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ من السَّوْء.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي ليدمِّروا ويخرِّبوا.

٨- ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي مَحْبِسًا. من حَصَرْتُ الشيء: إذا حبسته. فَعِيل بمعنى فاعل.

الشرح

سورة بني إسرائيل: وهي سورة الإسراء. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ جاسوا: تجسسوا وتحسسوا. جاسوا وحاسوا يعني: عاثوا.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾؛ النفير يطلق على الجميع، تقول: هؤلاء نفير، ويمكن قوله للواحد: هذا نفير، بمعنى نافر؛ مثل قدير وقادر.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ نقول حصيرًا من الحصر وهو يحصرك ويحيط بك حبسًا، وقد يعني حصيرًا بمعنى مِهادًا؛ كالحصير الذي يُجلس عليه، فتحتمل الآية المعنيين.

١١- ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي يدعو على نفسه وعلى خادمه وعلى مَالِه، بما لو استُجيب له فيه، هلك.

﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولا﴾ أي يَعْجَلُ عند الغضب. والله لا يعجل بإجابته.

١٢- ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ يعني مَحْوَ القمر.

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مُبْصَرًا بها. وقد ذكرت هذا وأمثاله في "المشكل".

الشرح

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أحيانًا الإنسان يدعو دعاء الشر كدعاء الخير، تأتيه أحيانًا مواقف فيدعو على نفسه كمن يصاب بمرض مثلًا فيدعو على نفسه بالموت، وأحيانًا يدعو على ولده، أو يدعو على فلان. فيقول: لا يدعو الإنسان على نفسه؛ لأنه قد يُستجاب له.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾؛ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعلنا آيتين، فمحونا آية الليل، (آيتين) يعني مظلمة ومبصرة، فمحا آية الليل فجعلها مظلمة، وآية النهار مبصرة يبصر الناس فيها. فالأصل الظلمة والنور طارئ.

١٣- ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال أبو عُبَيْدَة: حظَّهُ. وقال المفسّرون: ما عمل من خير أو شر ألزمناه عنقه. وهذان التفسيران يحتاجان إلى تبيين. والمعنى فيما أرى- والله أعلم -: أن لكل امرئ حظًّا من الخير والشر قد قضاه الله عليه. فهو لازم عنقه. والعرب تقول لكل ما لزم الإنسانَ: قد لزم عنقه. وهو لازم صَلِيفَ عُنُقه. وهذا لك عليَّ وفي عنقي حتى أخرج منه. وإنما قيل للحظ من الخير والشر: طائر؛ لقول العرب: جرى له الطائر بكذا من الخير، وجرى له الطائر بكذا من الشر؛ على طريق الفأل والطِّيَرة، وعلى مذهبهم في تسمية الشيء بما كان له سببًا. فخاطبهم الله بما يستعملون، وأعلمهم أن ذلك الأمر الذي يجعلونه بالطائر، هو مُلْزِمُه أعناقَهم. ونحوه قوله: ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ وكان الحسن وأبو رجاء ومجاهد يقرؤون: (وكل إنسان ألزمناه طيره في عنقه) بلا ألف. والمعنيان جميعًا سواء؛ لأن العرب تقول: جَرَت له طَيْرُ الشمال. فالطَّيْرُ الجماعة، والطائر واحد.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ أي نخرج بذلك العمل كتابا. ومن قرأ "ويخرج له يوم القيامة كتابا" أراد: ويخرج ذلك العملُ كتابا.

١٤- ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أي كافيًا. ويقال: حاسبًا ومُحَاسبًا.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾؛ يقول: كل إنسان عمله في عنقه؛ مقدر عليه أن يعمل كذا وكذا بحكم الله السابق.

١٦- ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي أكْثَرْنَا مُتْرَفِيهَا. يقال: أَمَّرْتُ الشيءَ وأمَرْتُه، أي كثَّرته. تقدير فَعَّلت وأَفْعَلْت، ومنه قولهم: مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ أي كثيرة النِّتاج. ويقال: أَمِرَ بنو فلان يأمرون أمرًا؛ إذا كثروا. وبعض المفسرين يذهب إلى أنه من الأمْر. يقول: نأمرهم بالطاعة ونفرض عليهم الفرائض، فإذا فسقوا حقَّ عليهم القول، أي وَجَب.

ومن قرأ (أَمَّرْنَا) فهو من الإمارة. أي جعلناهم أُمراء.

وقرأ أقوام (آمَرْنَا) بالمد. وهي اللغة العالية المشهورة. أي كَثَّرْنا.

٢٣- ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾ أي أمر ربك.

٢٥- (الأَوَّابُ): التائب مرة بعد مرة. وكذلك التَّوَّاب، وهو من آب يَؤُوب، أي رجَع.

٢٨- ﴿قَوْلا مَيْسُورًا﴾ أي لَيِّنا.

٢٩- ﴿مَحْسُورًا﴾ أي تَحْسِرُكَ العطيةُ وتقطعك، كما يَحْسِرُ السفر البعير فيبقى منقطعًا. يقال: حسَرت الرجلَ فأنا أَحْسِرُه، وحسِر فهو يحسِر.

٣٠- ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ يوسِّع عليه.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي يضيِّق عليه.

(فَلا تُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ) أي: لا تُمَثِّلْ إذا قتلت بالقَوَد، ولا تقتل غير قاتلك.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾؛ (أمَرْنَاهم) أو (أمَّرناهم) كلها محتملة؛ أمَرناهم بالطاعة، أو أمَرناهم بالفسق أمرًا قدريًا، أو (أمَّرناهم) أي: جعلناهم أمراء بيدهم التصرف.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَحْسُورًا﴾ مثلًا أقول لك: احسر رأسك عند المطر؛ يعني اكشفه، حاسر الرأس أي كاشفه.

٣٤- ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: يتناهَى في الشَّبَاب إلى حدّ الرجال. ويقال: ذلك ثمانية عشر سنة. وأَشُدُّ اليتيم غير أَشُدِّ الرجل في قول الله عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وإن كان اللفظان واحدًا؛ لأن أَشُدَّ الرجل: الاكتهال والحُنْكَةُ وأن يشتد رأيُه وعقله. وذلك ثلاثون سنة، ويقال: ثمان وثلاثون سنة. وأشدُّ الغلام: أن يشتد خَلْقُه، ويتناهى ثَبَاتُه.

٣٥- ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ الميزان، يقال: هو بلسان الروم. وفيه لغة أخرى: (قُسْطَاس) بضم القاف. وقد قرِئ باللغتين جميعًا.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ أي أحسن عاقبة.

٣٦- ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبعه الحدْسَ والظُّنُون ثم تقول: رأيتُ ولم تر، وسمعتُ ولم تسمع، وعلمتُ ولم تعلم.

وهو مأخوذ من القفاء كأنك تقفو الأمور، أي تكون في أَقْفَائِها وأواخرها تتعقبها. يقال: قَفَوْتُ أثرَه. والقَائِف: الذي يعرف الآثار ويتبعها. وكأنه مَقْلوب عن القافي.

٣٧- ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بالكبر والفخر.

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ أي: لا تقدر أن تقطعها حتى تبلغ آخرها. يقال: فلان أَخْرَقُ للأرض من فلان، إذا كان أكثر أسْفارا وغَزْوًا.

﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾ يريد: أنه ليس للفاجر أن يَبْذَخَ ويستكبر.

الشرح

(قسطاس) هذه التي يقولون إنها ليست عربية، مثلها "إستبرق" و"سندس"؛ مثلها كلمات كثيرة جمعوها وأُلفت فيها مؤلفات يسمونها (المعرب). هذه الكلمات هل أصلها عربية أو غير عربية؟ الصحيح أنها وإن قيل إنها غير عربية، فقد توافقت مع العربية أو عُرِّبت.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ يعني الظنون؛ لا تقف على أشياء ظنية، لا بد أن تتأكد. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾؛ نهي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن التكبر بصورة بلاغية، يقول: ماذا تصنع إذا تكبرت؟ أتبلغ الجبال أو تخرق الأرض؟

٣٩- ﴿مَدْحُورًا﴾ مَقْصِيًّا مُبْعَدًا، يقال: اللّهم ادْحَر الشيطان عني.

٤٠- ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا﴾ كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

٤٢- ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلا﴾ يقول: لو كان الأمر كما تقولون لابتغى من تدعونه إلها، التَّقَرُّبَ إلى الله؛ لأنه ربّ كل مَدْعُوّ. ويقال: لابتغوا سبيلا أي طريقا للوصول إليه.

٤٦- ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع كِنَان. مثل غِطاء وأغطية.

٤٧- ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي: مُتَنَاجون: يُسَارُّ بعضهم بعضا.

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلا مَسْحُورًا﴾ قال أبو عبيدة: يريدون بشرا ذا سَحْرٍ، أي ذا رِئَةٍ ولست أدري ما اضطره إلى هذا التفسير المستكره؟ . وقد سبق التفسير من السلف بما لا استكراه فيه. قال مُجَاهد في قوله: ﴿إِلا رَجُلا مَسْحُورًا﴾ أي مَخْدُوعًا؛ لأن السحر حيلة وخديعة. وقالوا في قوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي من أين تخدَعون؟ و ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المُعَلَّلِينَ. وقال امرؤ القيس:

ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ

أي نُعَلَّل، فكأنا نخدع. وقال لَبِيد:

فإن تسألينا: فيمَ نحن؟ فإنَّنا *** عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

أي المُعَلَّل. والناس يقولون: سحرْتني بكلامك. يريدون خدعتني.

وقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ يدل على هذا التأويل لأنهم لو أرادوا رجلا ذا رِئَةٍ، لم يكن في ذلك مَثَلٌ ضربوه. ولكنهم لما أرادوا رجلا مَخْدُوعًا – كأنه بالخديعة سُحِر – كان مثلا ضربوه، وتشبيها شبّهوه. وكأن المشركين ذهبوا إلى أن قومًا يعلّمونه ويخدعونه. وقال الله في موضع آخر حكاية عنهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وقول فرعون: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ لا يجوز أن يكون أراد به: إني لأظنك إنسانًا ذا رِئَةٍ؛ وإنما أراد: إني لأَظنك مَخْدُوعًا.

(والرُّفَاتُ): مَا رُفِتَ. وهو مثل الفُتَات.

٥١- ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يحركونها كما يحرك اليائسُ من الشيء المستبعدُ له رأسَه. يقال: نَغَضَتْ سِنُّهُ؛ إذا تحركت. ويقال للظليم: نَغْضٌ؛ لأنه يحرِّك رأسَه إذا عدا.

الشرح

المؤلف يريد أن يرد على من يقول إن المراد بـ(مسحور) يعني مصابًا في رِئته (السَّحَر)، كقولنا: السَّحَر والنَّحَر، وقولنا: بين سحره ونحره، فالسَّحْر مكان الرئة، فيقول: أنت مصاب في رئتك فأنت تتكلم بسبب مرضك؛ فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرفض هذا القول، بل يقول الأصح (مسحور) أي مصاب بالسحر، هذا أولى، فكأنه يرد على أبي عبيدة (معمر بن المثنى).

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويقال للظليم: نَغْضٌ" فما هو الظليم؟ هو ذكر النعام؛ يسمى ظليمًا، فالظليم إذا بدأ يسرع يحرك رأسه بقوة، النعام يرجع رأسه للخلف فيبدأ يحركه بقوة حتى يندفع.

٥٧- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني الذين يعبدون من دونه ويَدْعُونَهم آلهة، يعني الملائكة، وكانوا يعبدونها.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي القُرْبة.

٥٨- ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مكتوبا. يقال: سَطَرَ؛ أي كتب.

٥٩- ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي آتينا ثمود آية – وهي الناقة – مبصرة، أي بيِّنة، يريد مُبْصَرًا بها. كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي كذبوا بها. وقد بينت الظلم ووجوهه في كتاب "المشكل".

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ﴾ أي وما نرسل الرسلَ بالآيات.

٦٠- ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ يعني ما رآه ليلة الإسراء.

﴿إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ يقول: فُتِنَ أقوامٌ بها، فقالوا: كيف يكون يذهب هذا إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة؟ فارتدوا؛ وزاد اللَّه في بصائر قوم منهم أبو بكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبه سُمِّيَ صِدِّيقًا.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ يعني شجرة الزَّقُّوم.

٦٢- ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي فضَّلت.

﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ لأَستأصلنَّهم. يقال: احْتَنَكَ الجرادُ ما على الأرض كلَّه؛ إذا أكله كلَّه. واحْتَنَكَ فلانٌ ما عند فلان من العلم: إذا استقصاه، ويقال: هو من حَنَكَ دابَّتَهُ يَحْنُكُها حَنْكًا: إذا شد في حَنَكِها الأسفل حبلا يقودها به. أي لأَقُودَنَّهم كيف شئتُ.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يقول: هؤلاء الملائكة الذين تدعونهم، هم أنفسهم يدعون الله، فكيف تدعون أشخاصًا هم يدعون الله؟ هذا معنى الآية.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ أي الشيطان يقول لذرية آدم آخذهم مع حَنَكَهم، كل واحد يأخذ بحنكه ويمشي، الشيطان يأخذ بحنك الإنسان ويبدأ يسيره أينما أراد يذهب به إلى أن يوقعه في جهنم، هذا معناه ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾؛ أي تحكّمٌ بيده مثل ما تأخذ البعير تسيره كيفما شئت.

٦٣- ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي مُوَفَّرًا. يقال: وفَّرت عليه ماله ووَفَرْتُه: بالتخفيف والتشديد.

٦٤- ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ أي اسْتَخِفَّ. ومنه يقال: استَفَزَّني فلان.

و (الرَّجِلُ) الرَّجَّالة. يقال: رَاجِلٌ ورَجْل. مثل تاجر وتَجْرٌ، وصاحب وصَحْبٌ.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ﴾ بالنَّفقة في المعاصي؛ ﴿وَ﴾ في ﴿الأَوْلاد﴾ بالزنا.

٦٦- ﴿يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي يسيرها. قال الشاعر:

فتى يُزْجي المطِيَّ على وَجَاها

٦٨- (الحَاصِبُ) الريح. سميت بذلك: لأنها تَحْصب، أي ترمي بالحصباء، وهي: الحصى الصغار.

٦٩- و (الْقَاصِفُ) الريح التي تقصف الشجر، أي تكسره.

﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي مَنْ يَتْبَعُنا بدمائكم، أي يطالبنا.

ومنه قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي مطالبةٌ جميلة.

٧١- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَمِهِمْ﴾ أي بكتابهم الذي فيه أعمالهم، على قول الحسن. وقال ابن عباس – في رواية أبي صالح –: برئيسهم.

﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا﴾ والفَتِيلُ: ما في شِقِّ النّواة.

٧٣- ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي يَسْتَزِلُّونَك.

﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتختلق غيره.

﴿وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا﴾ أي لو فعلت ذاك لَوَدُّوك.

٧٥- ﴿ضِعْفَ الْحَيَاةِ﴾ أي ضِعف عذاب الحياة.

﴿وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي ضِعف عذاب الممات.

٧٦- ﴿وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ﴾ أي بَعْدَك.

٧٨- ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ غروبها. ويقال: زوالها. والأول أحب إليَّ؛ لأن العرب تقول: دَلَكَ النجم؛ إذا غاب.

قال ذو الرُّمَّة:

مَصَابيحُ لَيْسَتْ باللَّوَاتي تَقُودُها ❊❊❊ نُجُومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوَالكِ

وتقول في الشمس: دَلَكَت بَرَاحِ يريدون غربت. والناظر قد وضع كفه على حاجبه ينظر إليها. قال الشاعر:

والشمس قد كادت تكون دَنَفًا *** أَدْفَعُها بالرَّاح كَيْ تَزَحْلَفَا

فشبهها بالمريض في الدَّنَف، لأنها قد همَّت بالغروب. كما قارب الدَّنِف الموت. وإنما ينظر إليها من تحت الكف، ليعلم كم بقي لها إلى أن تغيب ويتوقى الشعاع بكفه.

و ﴿غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ظلامه.

و ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ أي قراءة الفجر.

٧٩- ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي اسْهَرْ به. يقال: تهجَّدت: إذا سهرت. وهَجَدْت: إذا نمت.

﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي تطوعا.

٨٣- ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي تَبَاعَد.

﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي قانطًا يائسًا.

٨٤- ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي على خَلِيقَتِه وطبيعته. وهو من الشَّكل، يقال: لست على شَكْلي ولا شاكِلَتِي.

٨٨- ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي عَوْنًا.

٨٩- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي وجهنا القول فيه بكل مثل. وهو من قولك: صَرَفْت إليك كذا؛ أي عَدَلْت به إليك. وشُدّد ذلك للتكثير. كما يقال: فُتِّحت الأبواب.

٩٠- ﴿يَنْبُوعًا﴾ أي عينا وهو مَفْعُولٌ من نَبَعَ يَنْبَعُ. ومنه يقال لمالِ علي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَنْبُع.

٩٢- ﴿كِسَفًا﴾ أي قِطَعًا. الواحد: كِسْفَةٌ.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ أي ضَمِينا. يقال: قبلت به أي كفلت به. وقال أبو عبيدة: مُعَايَنَةً. ذهب إلى المقابلة.

٩٣- ﴿بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أي من ذَهَب.

٩٧- ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي سكنت يقال: خَبَت النار - إذا سكن لهبها - تَخْبُو. فإن سكن اللهب ولم يطفأ الجمر، قلت: خَمَدت تَخْمُدُ خُمُودًا. فإن طفئت ولم يبق منها شيء، قيل: هَمَدَت تَهْمِد هُمُودًا.

﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي نارًا تَسَعَّر، أي تَتَلَهَّب.

١٠٠- ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي ضَيِّقًا بخيلا.

١٠٢- ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي مهلكا. والثُّبُور: الهَلَكَة.

وفي رواية الكلبي: إني لأعلَمُك يا فرعون مَلْعونا.

١٠٣- ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ أي يَسْتَخِفَّهُمْ حتى يخرجوا.

١٠٤- ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جميعًا.

١١٠- ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تخفها.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا﴾ أي بين الجهر وبين الإخفاء طريقا قَصْدًا وَسَطًا.

وَالتَّرْتِيلُ في القراءة: التَّبْيِين لها. كأنّه يَفْصِل بين الحرف والحرف، ومنه قيل: ثَغْرٌ رَتَلٌ ورَتِل؛ إذا كان مُفَلَّجًا. يقال: كلام رَتِلٌ، أي مُرَتَّل؛ وثَغْرٌ رَتِلٌ، يعني إذا كان مستوى النبات؛ ورجل رِتل – بالكسر – بَيِّنُ الرَّتَل: إذا كان مُفَلَّجَ الأسنان.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي وقت الظهيرة، وقت الظهر؛ لأنها توجهت للغروب. فإذ غربت أو توجهت للغروب، فالناظر إليها يضع يده؛ لأنه إذا لم يضع يده بدأ يدلك عينه، "دلوك" هذا معناه.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي اسهر به، الفرق بين تهجّد وهجد؛ يقال: تهجدتُ إذا سهرت، وهجدتُ إذا نمت؛ فـ(هاجد) يعني نائم، و(متهجد) يعني قائم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ لها معانٍ: خبت وخمدت وهمدت واشتعلت.

ما تبقى معانيها واضحة جدًا، وأكثرها علّقنا عليها، وبهذا تنتهي سورة الإسراء (أو سورة بني إسرائيل).

سورة الكهف

مكية كلها

١ - ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا﴾ مُقَدَّم ومؤخَّر. أراد: أنزل الكتاب قيِّمًا ولم يجعل له عِوَجًا.

٢ - ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي لينذر ببأس شديد؛ أي عذاب.

٦ - ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أي قاتل نفسك ومهلك نفسك. قال ذو الرُّمَّة:

ألا أيها البَاخِعُ الوجْدُ نَفْسَهُ *** لشيءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المَقَادِرُ

﴿أَسَفًا﴾ حُزْنًا.

٨ - (الصَّعِيد) المُسْتَوي. ويقال: وجه الأرض. ومنه قيل للتراب: صعيد؛ لأنه وجه الأرض.

و (الجُرُزُ) التي لا تُنْبِتُ شيئًا. يقال: أرض جُرُز وأَرَضُون أَجْرَاز.

٩ - ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ أي أحسبت.

و ﴿الرَّقِيم﴾ لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف، ونصب على باب الكهف. والرَّقِيمُ: الكِتاب. وهو فَعِيل بمعنى مَفْعُول. ومنه: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أي مكتوب.

١١ - ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي أَنَمْنَاهُم. ومثله قول أبي ذَرّ: قد ضرب الله على أصْمِخَتِهِمْ.

(وَالأَمَدُ) الغاية.

١٤ - ﴿رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي ألهمناهم الصبرَ وثَبَّتْنَا قلوبَهم.

﴿شَطَطًا﴾ أي غُلُوا. يقال: قد أَشَطَّ عليَّ: إذا غلا في القول.

١٦ - ﴿مِرْفَقًا﴾ ما يُرْتَفَقُ به.

١٧ - ﴿تَزَاوَرُ﴾ تَمِيل.[10]

﴿تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ تعدل عنهم وتُجَاوِزُهُم. قال ذو الرُّمَّة:

---

[10] وهذه لها ثلاث قراءات: تزَاوَرُ، تَزَّاوَرُ، تَزَوَرُ

إلى ظُعُنٍ يَقْرِضْنَ أَجْوَازَ مُشْرِفٍ *** شِمَالا وعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الفَوَارِسُ

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ أي متسع وجمعها فَجَوَات وفِجَاءٌ. ويقال: في مَقْنَأَةٍ والتفسير الأول أشبه بكلام العرب.

و (الْوَصِيدُ) الفِناء. ويقال: عتبة الباب. وهذا أعجب إليَّ؛ لأنهم يقولون: أَوْصِد بابَك. أي أغلقه. ومنه ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي مُطْبَقَة مُغْلَقَة. وأصله أن تلصق الباب بالعتبة إذا أغلقته. ومما يوضح هذا: أنك إن جعلتَ الكلبَ بالفِناءِ كان خارجًا من الكهف. وإن جعلته بعتبة الباب أمكن أن يكون داخل الكهف. والكهف وإن لم يكن له باب وعتبة – فإنما أراد أن الكلب منه بموضع العتبة من البيت، فاستعير على ما أعلمتك من مذاهب العرب في كتاب "المشكل".

وقد يكون الوصيد الباب نفسه، فهو على هذا كأنه قال: وكلبهم باسط ذراعيه بالباب. قال الشاعر:

بأرضِ فَضَاءٍ لا يُسَدَّ وَصِيدُها *** عليَّ ومعروفي بها غير مُنْكَرِ

١٩- ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أحييناهم من هذه النَّوْمة التي تشبه الموت.

(الْوَرِقُ) الفِضّة دراهم كانت أو غير دراهم. يدلك على ذلك أن عَرْفَجَةَ بن أسعد أصيبت أنفه يوم الكُلاب فاتخذ أنفًا من ورِق فأَنْتَنَ عليه – أي من فضة – فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفًا من ذهب.

﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ يجوز أن يكون أكثر، ويجوز أن يكون أجود، ويجوز أن يكون أرخص. والله أعلم. وأصل الزكاء: النَّماء والزيادة.

﴿وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي لا يُعْلمنّ. ومنه يقال: ما أشعر بكذا. وليت شعري. ومنه قيل: شاعر، لِفِطْنَتِه.

٢٠- ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم. وقد تقدم هذا.

٢١- ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي أظهرنا عليهم وأطْلَعْنا، ومنه يقال: ما عثرت على فلان بِسُوء قط.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ يعني المُطَاعِين والرؤساء.

٢٢- ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي ظنا غير يقين.

٢٥- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ ولم يقل: سنة. كأنه قال: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة. ثم قال: سنين. أي ليست شهورا ولا أياما. ولم يخرج مخرج ثلاثمائة درهم.

وروى ابن فضيل عن الأجلح، عن الضّحاك، قال: نزلت "ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة". فقالوا: أيام أو أشهر أو سنين؟ فنزلت ﴿سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

٢٦- ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وقد بيَّنَ لنا قبل هذا كم لَبِثوا. والمعنى أنهم اختلفوا في مدة لُبْثهم. فقال الله عز وجل: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وأنا أعلم بما لبثوا من المختلفين.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أَبْصَرَهُ وأسمعه!.

٢٧- ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي مَعْدِلا. وهو من أَلْحَدْتُ ولحدْتُ: إذا عَدلت.

٢٨- ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا تتجاوزهم إلى زينة الحياة الدنيا.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي نَدَمًا. [هذا] قول أبي عبيدة: وقول المفسرين: سَرَفًا. وأصله العَجَلَةُ والسَّبق. يقال: فَرَطَ مني قول قبيح: أي سَبق. وفَرَسٌ فُرُطٌ: أي متقدم.

٢٩- و (السُّرَادِقُ) الحجرة التي تكون حول الفسطاط. وهو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة. وهو الظل ذو الثلاث شعب، الذي ذكره الله في سورة ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾.

و (المُهْل) دُرْدِيّ الزيت. ويقال: ما أُذِيبَ من النّحاس والرّصاص.

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي مَجْلسًا. وأصل الارتفاق: الاتكاء على المِرْفق.

٣١- ﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع: إسوار.

و (السُّنْدُس) رقيق الديباج.

و (الإِسْتَبْرَق) ثخينه. ويقول قوم: فارسي معرب، أصله: اسْتَبْرَهَ، وهو الشديد.

و ﴿الأَرَائِكِ﴾ السُّرُر في الحجال، واحدها أريكة.

٣٣- ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تنقص منه.

٤٠- ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي مَرَاميَ. واحدها: حُسْبَانَة.

(الصَّعِيدُ) الأملس المستوي.

و (الزَّلَقُ) الذي تزل عنده الأقدام.

٤١- ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: غائرًا. فجعل المصدر صفة. كما يقال: رجل نَوْمٌ ورجل صَوْم ورجل فِطْر؛ ويقال للنساء: نَوْح: إذا نُحْنَ.

٤٢- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أي أُهلِك.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ أي نادما وهذا مما يوصف [به] النادم.

﴿خَاوِيَةٌ﴾ خربة.

و (الْعُرُوش) السّقوف.

الشَّرح

هذه سورة الكهف مكية، وذكر المؤلف: ﴿بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾؛ أي مهلك نفسك وقاتلها. وأصل "البَخْع" هو عرق بين الرأس والرقبة إذا قُطع مات صاحبه، فيقول: يا محمد، كأنك شخص قد أصيب بالبَخْع في هذا العرق فيموت من شدة حرصه، يلاحقهم في بيوتهم ﴿تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8].

قال: ما هو (الصَّعِيدَ)؟ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجه الأرض. و﴿جُرُزًا﴾: الأرض التي لا تنبت. ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ قال المؤلف: أحسبتَ والرَّقِيم؛ هذا استفهام نسميه عند العلماء "استفهام تعجب"؛ أي: أتظن وتتعجب من حالهم؟ فلا تظن هذا الأمر. ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾، قالوا: الرقيم هو لوح كُتبت فيه أسماؤهم، لما دخلوا الكهف كتبوا أسماءهم على هذا اللوح، وقيل غير هذا المعنى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾؛ هذه كناية عن النوم العميق، يقال: "ضُرب على أذنه" أي نام نومة عميقة. ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ هذا التثبيت، كقولك: "اللّٰهم اربط على قلبي" أي ثبتني.

قال: ﴿مِرْفَقًا﴾؛ أي ما يرتفق به، والمرفق: المكان الواسع الذي يستفيد الإنسان منه، ولذلك تسمى "مرافق الدولة" أي أماكن واسعة كالحدائق ونحوها. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا طلعت الشمس ﴿تَّزَاوَرُ﴾؛ أي تميل عند طلوعها. هذا فيه دلالة على أن الكهف جهته جهة الشمال؛ فإذا طلعت الشمس صباحًا تميل (تزاور) عنهم قليلًا، لكنها تأخذ وقتًا عند طلوعها لأنها قادمة من جهة الشمال الشرقي، وإذا غربت ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾،

والقرض: قطع الشيء بسرعة، فتأتيهم ولا تطول، دقائق وتذهب؛ وهذا استنبط منه العلماء أن جهة الكهف شمالًا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ الوصيد قيل: وسط الكهف، وقيل: هو الباب، ويمكن أن يكون الأمر جميعًا، أي هو جالس في الوسط عند الباب للحراسة، وأصابه ما أصابهم من النوم. قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي بعد هذه المدة الطويلة، ثلاث مئة وازدادوا تسعًا؛ بعثهم الله بعد هذه النومة الرقدة الطويلة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾؛ قال: الورق الدراهم؛ النقود. والآن تسمعون في بعض الأفلام يقولون: "شعورهم طالت وأظافرهم كذلك"، وهذا غير صحيح ولا دليل عليه؛ والدليل أنهم لما سأل بعضهم بعضًا: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، ولم ينكر بعضهم على بعض قائلين: "تغير شكلك"، فهذا دليل على أنهم يظنونها مدة قصيرة، ولذلك لو تخرج أحد من قبره له أكثر من مائتي سنة في قبره أو ثلاثمائة سنة وتسأله: كم لبت في قبرك، لقال: لبثت لحظات، لا يشعرون، ولذلك عندما يُسأل الكفار: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: 112] الدنيا لا يعلمون عنها وسيقولون: ﴿بِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: 113] والبعث من القبر يقولون بعده: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: 52] يظنون أنها نومة قصيرة. كذلك الشمس لو كانت شرقية أو غربية لآذتهم، ولكن هذه الشمس تأتيهم قليلًا فيستفيدون منها ولا تضرهم، هذه حكمة الله.

وكذلك قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ دليل على أن الناس لم يستطيعوا الوصول إليهم مع أنهم قريبون من المدينة، بدليل أنهم أرسلوا أحدهم ليأتي بطعام، ومن المؤكد أن أهلهم فقدوهم وبدأوا يبحثون عنهم، ومع ذلك لم يستطع أحد من البشر وحتى الوحوش والسباع لم يصلوا إليهم مع مرور ثلاثمائة سنة؛ لحراسة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليهم لأن الله تولى أمرهم حتى أعثر الله الناس عليهم.

ولماذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كلمة ﴿سِنِينَ﴾؟ حتى يثبت أن المدة بالسنين وليست بالشهور والأيام، لبثوا ثلاث مائة سنة، ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ قالوا هذا الاختلاف بين التقويم الهجري مع غيره، فإن السنين الهجرية أكثر؛ فازدادوا تسعًا، فهم لبثوا ثلاث مائة سنة وزيادة؛ ما يعادل ثلاثة قرون.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: أهل الطاعة. ﴿سُرَادِقُهَا﴾؛ هو الجدار المحيط بالشيء، سرادق النار أي الجدران المحيطة بها، قد تكون جدران من نار ولكنها محيطة بها.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ هذه كناية عن الإهلاك، وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ كناية عن الندم، القرآن مليء بالكنايات وهذه منها، مثل: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ [آل عمران: 119] كناية عن شدة الغيظ، وهكذا.

٤٤- ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ﴾ يريد: يومئذ [يتولون الله ويؤمنون به ويتبرءون مما كانوا يعبدون] .

﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي عاقبة.

و (الهَشِيمُ) من النبت المتفتت. وأصله: من هَشَمْتُ الشيء إذا كسرته. ومنه سمي الرجل: هاشما.

٤٥- ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أي تنسفه.

﴿مُقْتَدِرًا﴾ مُفْتَعِلٌ من قَدَرْت.

٤٦- ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يقال: الصلوات الخمس. ويقال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلا﴾ أي خير ما تؤمِّلُون.

٤٧- ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي لم نُخَلِّف يقال: غادرت كذا وأَغْدَرْتُه: إذا خلّفته ومنه سمي الغدير؛ لأنه ماء تُخَلِّفه السيولُ.

٥٠- ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي خرج عن طاعته. يقال: فَسَقَت الرُّطبة إذا خرجت من قِشْرِها.

٥٢- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ أي: مَهْلِكًا بينهم وبين آلهتهم في جهنم. ومنه يقال: أَوْبَقَتْهُ ذنوبُه. وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ ويقال: مَوْعِدًا.

٥٣- ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أي علموا .

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي مَعْدِلا .

٥٥- ﴿إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ أي سنتنا في إهلاكهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا﴾ وقِبَلا أي مُقَابَلة وعِيانًا. ومن قرأ بفتح القاف والباء أراد استئنافًا.

٥٨- ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلا﴾ أي مَلْجَأ. يقال: وَأَلَ فلان [إلى كذا وكذا]؛ إذا [لجأ]. ويقال: لا وَأَلَتْ نَفْسُك؛ أي لا نَجَت. وفلان يُوَائِلُ، أي يسابق لِيَنْجُوَ.

٦٠- ﴿حُقُبًا﴾ أي زمانًا ودهرًا. ويقال الحُقُب: ثمانون سنة.

٦١- ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أي فاتخذ الحوت طريقه في البحر. ﴿سَرَبًا﴾ أي مذْهبًا ومَسْلَكًا.

٦٣- ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ سبيلا ﴿عَجَبًا﴾

٦٤- ﴿قَصَصًا﴾ أي يَقْتَصَّان الأثَرَ الذي جاء فيه.

٧١- ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي عجبًا.

٧٣- ﴿وَلا تُرْهِقْنِي﴾ أي لا تُغْشِني ﴿عُسْرًا﴾

٧٤- ﴿شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي منكرًا.

٧٧- ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ أي ينكسر ويسقط.

٧٩- ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ أَمامَهم.

٨١- ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي رحمة وعطفا.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي طريقا.

٨٦- ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حَمْأة. ومن قرأ: حَامِيَةٍ، أراد حارة قال الشاعر يذكر ذا القَرْنَيْن:

فأَتَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَآبِها *** في عينِ ذِي خُلُبٍ وثَأْطٍ حَرْمَدِ

والخُلُب: الطين في بعض اللغات. والثَّأْط: الحمْأَة. والحَرْمَدُ: الأسْوَد.

٩٣- ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ أي بين الجبلين. ويقال للجبل: سدّ.

٩٦- ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قِطَعُه. واحدها: زُبْرَة. والزُّبَرُ: القِطَعُ.

و ﴿الْقِطْرِ﴾ النُّحاس.

٩٧- ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يَعْلُوه. يقال: ظَهَرَ فلان السَّطْحَ، أي علاه.

٩٨- ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي أَلْصَقَه بالأرض. يقال: ناقة دَكَّاء: إذا لم يكن لها سنام.

١٠٢- ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا﴾ والنزل ما يقدم للضيف ولأهل العسكر.

١٠٨- ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا﴾ أي تَحَوُّلا.

١١٠- ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي يخاف لقاء ربه، قال الهُذَلِيّ:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا *** وحَالَفَهَا في بيتِ نُوبٍ عَوَامِلِ

أي لم يَخَف لَسْعَهَا.

الشرح

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾؛ قيل: هي الصلوات الخمس، وقيل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. نقول: الباقيات الصالحات هي كل الأعمال التي تبقى لك في الآخرة، وتشمل التسبيح، وقراءة القرآن، والصلاة، وسائر الأعمال من حجٍّ وغيره.

قال: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾؛ أي لم نخلّف. لاحظ هنا، حُشروا وعُرضوا على ربك، وقال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، أي جمعنا جميع الخلق، ما تركنا أحدًا منهم.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وهنا يركز المؤلف على تحليل الكلمة-: " غادرت كذا وأَغْدَرْتُه: إذا خلّفته ومنه سمي الغدير؛ لأنه ماء تُخَلِّفه السيولُ"، نغادر ونترك، والغدير سُمي غديرًا لأنه بقاء السيل؛ السيل ذهب وتركه فبقي هو.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾؛ معنى موبقًا أي: أي مهلكًا أو موعدًا للهلاك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾؛ "ظنوا" هنا معناها جزموا واعتقدوا، أي أنهم ساقطون في النار، علموا أنهم سيسقطون فيها، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي عدولًا يفرون إليه. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾؛ أي ملجًا.

قال: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؛ قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي دهورًا وسنينًا طويلة. ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾؛ المعني هو الحوت؛ لأن الحوت كان ميتًا، وكان ينقله معه من مسافة لمسافة، وتركه عند الصخرة وذهبوا، ثم استراحوا في مكان فقال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾. قال: والله نسيت الحوت. قال: أين؟ قال: عند الصخرة. قال: هذا الذي نريد، سنجد الرجل عنده. فعادوا، والحوت ماذا صنع؟ لما شم رائحة الماء بدأ يحفر ودخل، جعل له سربًا حتى دخل في الماء وذهب، وهذه آية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه عادت له حياته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ المعني في الآية هو موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ تعجب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمّا رأى هذا الحوت وهو يدخل، ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا؛ فوجدا هذا الرجل أو العبد، وهو الخضر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾؛ أول شيء قال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي شيئًا عظيمًا، ثم "نكرًا" أي منكرًا. لما خرق السفينة قال: "إمرًا" أي شيئًا عظيمًا، ولما جاء في قتل الغلام قال: "نكرًا"؛ لأن قتل النفس لا يمكن قبوله، فلم يصبر عليه.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾؛ أي يميل إلى السقوط. ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾؛ قالوا: "وراءهم" يعني أمامهم، وهذه من الألفاظ التي تسمى "الأضداد"، ومثله قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: 20] أي من أمامهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾؛ قُرِئت "حامية" و"حمئة"؛ فالحمئة هي الطين الأسود، يعني كأنك ترى الشمس عند الغروب وأنت على الشاطئ كأنها سقطت في طين أسود، أو "حامية" أي شديدة الحرارة كأنها لهب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، وجاء أيضًا: ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾؛ والسدان أو الصدفان هي جبال، قيل إنها جبال القوقاز الموجودة الآن في شمال الأرض؛ لأن ذا القرنين ذهب أولًا إلى جهة الغرب حتى وصل إلى المحيط الأطلسي -عند سواحل موريتانيا وغانا وتلك المناطق- ثم عاد مرة أخرى إلى شرق الأرض عند قريب من جزر إندونيسيا، ثم كانت الرحلة الثالثة إلى الشمال حيث وصل إلى جبال القوقاز، فوجد هؤلاء القوم وهم يأجوج ومأجوج، فأراد أن يغلق عليهم سدًّا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾؛ "دكاء" بالمد أي مستوية، ليس كالدك؛ دك الأرض مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: 21]، أي جعلها ترابًا مستويًا، أما دكاء تعني مستوية.

بقية السورة واضحة، وبهذا تنتهي سورة الكهف من "غريب القرآن".

سورة مريم

مكية كلها

٤- ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يريد: لم أكن أُخَيَّب إذا دعوتك.

٥- ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ وهم العَصَبَة.

﴿مِنْ وَرَائِي﴾ أي من بعد موتي. خاف أن يرثه غير الولد.

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي﴾ يعني الولد يرثه الحُبُورَةَ. وكان حَبرًا.

٦- ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ المُلْكَ. كذلك قيل في التفسير.

٧- ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي لم يُسَمَّ أحد قبله: يَحْيَى فأما قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ فإنه أراد - فيما ذكر المفسرون - شبيها. ولو أراد أنه لا يُسَمِّي الله غيره، كان وجها.

٨- ﴿مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أي يَبَسًا. يقال: عَتَا وعَسَا، بمعنى واحد. ومنه يقال: مَلِك عاتٍ؛ إذا [كان] قاسي القلب غيرَ ليِّن.

١٠- ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي سليما غير أخرس.

١١- ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أي أَوْمَأَ.

﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ أي صلُّو ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ والسُّبْحَةُ: الصلاة.

١٣- ﴿وَحَنَانًا﴾ أي رحمة. ومنه يقال: تحنَّن عليّ. وأصله من حنين الناقة على ولدها.

﴿وَزَكَاةً﴾ أي صدقة.

١٦- ﴿انْتَبَذَتْ﴾ اعتزلت يقال: جلست نُبْذَهُ ونَبْذَهُ، أي ناحيته.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ يريد مُشَرِّقَةً.

و (الْبَغِيُّ) الفاجرة. والبِغَاء: الزنا.

٢٣- ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي جَاءَ بِهَا وأَلْجَأَهَا. وهو من حيث يقال: جاءت بي الحاجة إليك، وأَجَاءَتْنِي الحاجة إليك. والمَخَاض: الحَمْل.

﴿وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ والنِّسْي: الشيء الحقير الذي إذا ألقى نُسِي. ويكون كلَّ ما نُسِي. قال الشاعر:

كأَنَّ لها في الأرض نِسْيًا تَقُصُّه ❊❊❊ على أُمِّها وإنْ تُحَدِّثك تَبْلَتِ

[تبلت: تقطع. مثل تبتل].

٢٤- و (السَّرِيُّ) النهر.

٢٦- ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي صمتا. والصَّوم هو الإمساك. ومنه قيل للواقف من الخيل: صَائِم.

٢٧- ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي عظيما عجيبا.

٢٨- ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ كان [في] بني إسرائيل رجل صالح يسمى: هارون، فشبَّهوها به. كأنهم قالوا: يا أخت هارون، يا شِبْهَ هارون في الصلاح.

٤٦- ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأَشتمنَّك.

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي حينًا طويلا. ومنه يقال: تَمَلَّيت حبيبك. والمَلَوَان: الليل والنهار.

٤٧- ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي بارًّا عوَّدني منه الإجابة إذا دعوتُه.

٥٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي ذكرًا حسنا عاليا.

٦١- ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي آتيًا. مفعول في معنى فاعل.

٦٢- ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي باطلا من الكلام.

٦٤- ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قول الملائكة، أو قول جبريل صلى الله عليه.

٦٨- ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جَاثٍ. وفي التفسير جماعات.

٧٣- ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ أي منزلا.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلسا. يقال للمجلس: نَدِيٌّ ونادي. ومنه قيل: دار النَّدْوَة، للدار التي كان المشركون يجلسون فيها ويتشاورون في رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٧٤- و (الأَثَاثُ) المتاع.

و (الرِّئْيُ) المَنْظرُ، والشَّارَةُ، والهَيْئة.

٧٥- ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ أي يَمُدّ له في ضَلالته.

٨٠- ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي المال والولد الذي قال: لأُوتَيَنَّهُ.

﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لا شيء معه.

٨٢- ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي أعداء يوم القيامة. وكانوا في الدنيا أولياءهم.

٨٣- ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ تزعجهم وتحرِّكهم إلى المعاصي.

٨٤- ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي أيام الحياة. ويقال: الأنفاس.

٨٥- ﴿وَفْدًا﴾ جمع وافِد. مثل رَكْب جمع راكب، وصحْب جمع صاحب.

و (الْوِرْدُ) جماعةٌ يريدون الماء.

٨٧- ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي وعدًا منه له بالعمل الصالح والإيمان.

٨٩- ﴿جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي عظيما.

٩٠- ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْن.

﴿هَدًّا﴾ أي سقوطا.

٩٦- ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ أي محبة في قلوب الناس.

٩٧- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي سهلناه وأنزلناه بلغتك.

و (اللُّدُّ) جمع أَلَدّ. وهو الخَصْمُ الجَدِل.

و (الرِّكْزُ) الصوت الذي لا يُفْهَم.

الشرح

هذه سورة مريم، وذكر المؤلف فيها بعض الكلمات التي تحتاج إلى بيان وهي من غريب القرآن.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ السورة مكية نزلت في مكة، بل هي تعتبر من أوائل ما نزل في مكة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، هذا من دعاء زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ قال قوله ذلك، يعني: لم أكن أُخَيَّب إذا دعوتك، وهذا من حسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يعني هذا تعليم لنا؛ كيف الإنسان إذا أراد أن يدعو ربه أن يتأدب معه وأن يحسن الظن بربه بأن الله يستجيب.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾؛ يقول: الموالي هم العَصَبَة الذين حوله، ملتفين حوله، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ أي بعد موتي، ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي﴾؛ المراد بالإرث هنا إرث العلم، كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16] أي إرث العلم، فقوله هنا: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني الولد يرثه الحُبُورَةَ" الحُبورة يعني: أن يحصل على هذا العلم وهذه النبوة وهذا الخير.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾؛ أي لم يُسَمَّ أحد من قبل بهذا الاسم "يحيى"، أي لم يسبقه إنسان سُمي به، وفرق بينه وبين قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65]؛ فسميًا الأول بمعنى الاسم، أما هذه تعني شبيهًا ونظيرًا لله، وحتى لو قلنا إنه لا يُسمى "الله" إلا لله سبحانه صح ذلك؛ لأن هناك من الأسماء لا تصح إلا لله، وهناك من الصفات لا تكون إلا لله.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؛ قال: يُبسًا، عتا وعسا بمعنى واحد، أي: قد بلغ بي العمر مبلغًا.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾؛ "سويًا" هذه صفة ليست لليالي وإنما هي صفة لزكريا؛ يقول: آيتك ألا تكلم الناس، لا تتحدث ولا تقدر ولا تستطيع أن تتحدث معهم، ولكن ذلك ليس من عيب، أنت سويٌّ، يعني أنت سليم، هذا معناه.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ إشارة، ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي صلّوا، ﴿وَحَنَانًا﴾ قال: رحمة، ﴿فَانْتَبَذَتْ﴾ اعتزلت وابتعدت عنهم في ناحية بعيدة، يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي مَشرِقًا، أي جهة الشرق، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي فاجرة؛ والبغيُ البغاءُ غير الزنا، المرأة البغية هي التي تأذن للرجال بمقابل يسمى بغيًا، والتي تسمح للرجال بغير مقابل تسمى امرأة زانية.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾؛ معنى "أجاءها" أي ألجأها، أي: جاء بها وألجأها إلى هذا الشيء حتى نزل الحمل، والمخاض هو الحمل أو وقت نزول الحمل، وفي قوله تعالى: ﴿نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾؛ تقول: شيئًا حقيرًا لا يلتفت إليه، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو النهر.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي عظيمًا، وفي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾؛ ليس هارون أخو موسى الرسول، وإنما بنو إسرائيل يسمون بهارون ويسمون بموسى كما نسمي نحن بمحمد وبأسماء الصحابة عمر وعثمان وغيرهم؛ وهذا ليس المراد به الأخ الشقيق، وإنما هو رجل صالح يثني عليه الناس دائمًا.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي مدة طويلة، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي بارًّا عوَّدني منه الإجابة؛ من الحفاوة والاحتفاء بالشيء، أي الاهتمام به والعناية به واستجابة الشخص ونحو ذلك.
قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾؛ آتيًا، (مأتيًا) بمعنى آتٍ، يعني اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿جِثِيًّا﴾؛ جمع جاثٍ، وفي التفسير جماعات، يعني جماعات جاثية على ركبها؛ لأن الجاثي هو من يجثو على ركبتيه.

﴿أَثَاثًا﴾؛ المتاع معروف، ﴿وَرِئْيًا﴾؛ المنظر الذي يعجبك والهيئة التي تعجبك.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾؛ أي تزعجهم وتحركهم بقوة إلى المعاصي وتدفعهم إليها.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾؛ أي ركوبًا على النجائب وعلى الإبل، تقودهم الملائكة وتدخلهم الجنة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾؛ قال: أي محبة في قلوب الناس، أو ودًا بأن الله يحبهم؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، أي أن الله سبحانه وتعالى سيجعل في قلوب بعضهم البعض محبة وهذا واقع، والله يحبهم عز وجل بلا شك.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ "تحس" أي تبصر، ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ولو صوتًا خفيفًا ما يوجد.

سورة طه

مكية كلها

٥- ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قال أبو عبيدة: علا. قال: وتقول استويت فوق الدابة، واستويت فوق البيت.

وقال غيره: استوى: استقر. واحتج بقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ أي استقررت في الفلك.

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي انتهى شبابه واستقر، فلم يكن في نَبَاتِه مَزِيد.

٧- ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ ما أسررتَه ولم تظهره.

﴿وَأَخْفَى﴾ ما حدَّثتَ به نفسك.

١٠- ﴿آنَسْتُ نَارًا﴾ أبصرتُ. وتكون في موضع آخر: علمتُ كقوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي علمتم.

١٤- ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ أي لتذكرني فيها.

١٥- ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أسترها من نفسي. وكذلك هي في قراءة أُبَيّ: "أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي".

﴿فَتَرْدَى﴾ أي تَهلِك. والرَّدَى: الموت والهلاك.

١٨- ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أخْبِطُ بها الوَرَق.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي حوائج أخرى. واحدها: مَأْرُبَةٌ ومَأْرَبَةٌ.

٢١- ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أي: نردُّها عصًا كما كانت.

٢٢- ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أي إلى جَيْبِك.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي من غير بَرَص.

٢٧- ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ أي رُتَّةً كانت في لسانه.

٣١- ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ أي: ظهري. ومنه يقال: آزَرْتُ فلانا على الأمر، أي قويته عليه، وكنت له فيه ظَهيرًا.

فأما وَازَرْتُه: فصرت له وزيرًا.

وأصل الوِزَارَة من الوِزْر – وهو الحِمْل – كأن الوزير يحمل عن السلطان [الثِّقْل].

٣٦- ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي طَلِبَتَكَ. وهو فُعْلٌ من سَأَلْت. أي أُعطيتَ [ما] سألت.

٣٨- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ﴾ أي قَذَفْنا في قلبها. ومثله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾.

الشرح

سورة طه مكية، وأول ما تكلم المؤلف عن الاستواء، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على مذهب أهل السنة والجماعة، ولذلك أثبت المعنى فقال: "علا واستقر"، وهذا هو الصحيح.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿آنَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتُها بعيني، أو تكون بمعنى "علمت"؛ لأن "آنس" تأتي بمعنى أبصر وبمعنى علم. وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي لتذكرني فيها؛ لأن الصلاة سبب لذكر الله عز وجل والتعلق به. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي أسترها من نفسي، وهذا هو الصحيح.

﴿فَتَرْدَى﴾ أي تهلك. ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أي أخبط الورق؛ أضرب الورق فيتساقط فتأكله الغنم. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أي حوائج أخرى في العصا. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي نردها كما كانت عصًا بعدما انقلبت حية.

الآية الثانية قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي من غير برص أو نحوه. قال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما دعا: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ والعقدة هي "الرُّتّة" أي ثقل في اللسان يمنع نطق الحروف، وكان لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيه أكثر من عقدة، فطلب استحياءً من الله أن يفك عنه عقدة، ففك عقدة واحدة، ولو فك العقد كلها لأصبح فصيحًا؛ ولذلك لما ذهب إلى فرعون قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: 52] أي لا يفصح، فما زالت العقدة معه. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾؛ أي طلبك الذي طلبت، قد أجبناه وأعطيناك ما تريد.

٣٩- و ﴿الْيَمِّ﴾ البحر.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي لتَرَبَّى بِمَرْأى مني، على مَحَبَّتِي فيك.

٤٠- ﴿عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ أي يَضُمه. ومثله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي اختبرناك.

٤٢- ﴿وَلا تَنِيَا﴾ أي لا تَضْعُفَا ولا تَفْتُرا. يقال: وَنَى في الأمر يَنِي. وفيه لغة أخرى: وَنِي يَوْنَى.

٤٥- ﴿نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: يَعْجَلَ ويُقْدم. والفَرْطُ: التقدم والسَّبق.

٥٠- ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ أي أعطى كل ذكر خَلْقا مثله من الإناث.

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي هدى الذكر لإتيان الأنثى.

٥١- ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ أي فما حالها؟ يقال: أصلح الله بالك؛ أي حالك.

٥٣- ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي ألوانا، كل لون زَوْج.

٥٤- ﴿لأُولِي النُّهَى﴾ أي أولي العقول. والنُّهْيَةُ: العقل. قال ذو الرُّمة:

[لِعِرْفَانِها والعَهْدُ نَاءٍ] وقدْ بَدَا *** لِذِي نُهْيَةٍ إلا إلى أُمِّ سَالِمِ

٥٨- ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي وسطًا بين قريتين.

٥٩- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ يعني يومَ العيد. ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ للجمع في العيد.

٦٠- ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي حِيَله.

٦١- ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي يُهلككم ويَسْتَأْصِلكم. يقال: سَحَتَه الله وأَسْحته.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ أي كذب.

٦٢- ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي تناظروا.

﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أي تَرَاجَعُوا الكلام.

٦٣- ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ يعني الأشرَاف يقال: هؤلاء طريقة قومهم؛ أي أشرافهم. ويقال: أراد سُنَّتكم ودِينكم. والمُثْلى مؤنث أمْثل، مثل كُبْرَى وأكْبر.

٦٤- ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي حِيَلكم.

﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي جميعًا. وقال أبو عبيدة: الصَّفّ: المُصَلَّى. وحكى عن بعضهم أنه قال: ما استطعت أن آتيَ الصفّ اليومَ، أي المُصَلَّى.

٦٧- ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي أضمرَ خوفًا.

٦٩- ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي حيث كان.

٧٢- ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما يجوزُ أمرُك فيها.

٧٧- ﴿يَبَسًا﴾ يابسًا. يقال لليابس: يبَس ويَبْس. ﴿لا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أي لحاقا.

٧٨- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ أي لحقهم.

٨٠- و (الطُّورُ) الجبل.

٨١- ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ أي هلك. يقال: هَوت أُمُّه. أي هلكتْ.

٨٦- ﴿أَسِفًا﴾ أي شديد الغضب.

٨٧- ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي بقدر طاقَتِنا.

﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي أحمالا من حُليّهم. ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ يَعنُون في النَّار.

٩٥- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ أي ما أمرك وما شأنك؟

٩٦- ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ يقال: إنها قَبْضَةٌ من ترابِ مَوْطِئِ فرس جبريلَ، صلى الله عليه.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي قذفتُها في العِجْل.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي زَيَّنَتْ لي.

٩٧- ﴿أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ أي لا تخالط أحدا. ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أي يوم القيامة.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي مُقيمًا.

﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالنار. ومن قرأ: (لَنَحْرُقَنَّه) أراد لَنبرُدنَّه.

﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ﴾ أي لنُطَيِّرَنَّ تلك البُرَادة أو ذلك الرّماد في البحر.

٩٨- ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي وسع علمه كل شيء.

١٠٠- ﴿يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أي إثمًا.

١٠١ - ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أي في عذاب ذلك الإثم.

١٠٢ - ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي بِيض العيون من العمى: قد ذهب السَّوَادُ والنَّاظِرُ.

١٠٣ - ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يُسَارُّ بعضهم بعضًا. يقال: خَفَتَ الدعاء وخَفَت الكلام: إذا سكن.

١٠٤ - ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي رأيًا.

١٠٦ - ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ والقاع من الأَرض: المُسْتَوِي الذي يعلوه الماء، والصَّفْصَفُ: المستوي. يريد لا نَبْتَ فيها. و(الأَمْتُ): النَّبَكُ.

١٠٨ - ﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ﴾ أي لا يَعْدِلُون عنه ولا يُعَرِّجون في اتباعهم.

﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ﴾ أي خَفِيتْ.

﴿فَلا تَسْمَعُ إِلا هَمْسًا﴾ أي إلا صوتًا خفيًّا. يقال: هو صوت الأقدام.

١١١ - ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ أي ذَلَّتْ. وأصله من عَنِيتُه: أي حبسته. ومنه قيل للأسير: عانٍ.

١١٢ - ﴿وَلا هَضْمًا﴾ أي نَقِصَةً. يقال: تَهَضَّمَنِي حقِّي وهَضَمنِي. ومنه هَضِيمُ الكَشْحَيْن: أي ضامر الجَنْبَيْنِ، كأنهما هُضِمَا. وقوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي مُنْهَضِم.

١١٤ - ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ من وحيه إليك. وكان رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله - يبادر بقراءته قبل أن يتمم جبريلُ، خوفًا من النسيان.

١١٥ - ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ أي ترك العهدَ.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي رأيا مَعْزُومًا عليْه.

١١٩ - ﴿وَلا تَضْحَى﴾ أي لا يصيبك الضُّحَى، وهو الشمس.

١٢٤ - ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي ضَيِّقَة.

١٢٨ - ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي يُبَيِّنْ لهم.

١٢٩ - ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي لولا أن الله جعل الجزاء يوم القيامة، وسبقت بذلك كلمتُه لكان العذاب لزاما، أي ملازمًا لا يفارق. مصدر لازَمْتُه. وفيه تقديم وتأخير. أراد: لولا كلمة سبقتْ وأجلٌ مسمى - لكان العذاب لِزَامًا. وفي تفسير أبي صالح: لزاما: أَخْذًا.

١٣٠ - ﴿آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ ساعاته. واحدها إِنْيٌ.

١٣١ - و ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ﴾ أي زينتها، وهو من زَهْرَة النبات وحُسْنه.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ أي لِنَخْتَبِرَهُم.

١٣٢ - ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي لا نسألك رزقا لخلْقنا، ولا رزقا لنفسك.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾، والوحي في القرآن له معانٍ كثيرة، أشهرها وحي الرسالة كقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: 163]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الشورى: 3]؛ فهذا الوحي معروف، لكن قد يخرج عن هذا المعنى إلى معانٍ كثيرة، منها "الإلهام"؛ أي ألهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أم موسى، وألهم الحواريين، وكذلك قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: 5] أي ألهم الأرض، وقوله: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] له معانٍ، حتى إن الوحي أحيانًا يراد به الرمز، كقوله جل وعلا في قصة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11]. وأحيانًا يطلق ويراد به وسوسة الشياطين: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]، فسماه وحيًا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾؛ تصنع يعني تربى بمرأى من الله، و"على عيني" أي بمراعاة مني ومتابعة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ قال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ: "أي هدى الذكر لإتيان الأنثى" يعني أن الله خلق الخلق ثم هدى الذكور لإتيان الإناث؛ وهذا المعنى صحيح، لكنه جزء من المعاني، وهذه طريقة السلف يفسرون بالمثال أحيانًا، لكننا نقول إن الآية أعم؛ فالله هدى هذا الخلق، قد تكون هداية إلى الله، أو هداية لمعرفة أعمالهم في الدنيا وكيف يبنون ويصنعون، وكيف يغوصون في البحار، فهي هداية عامة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾؛ قال: الأزواج يراد بها الألوان والأصناف، فالزوج يطلق في القرآن ويراد به اللون والصنف.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾؛ قال: هو يوم العيد، ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾، ولماذا اختار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الوقت؟ حتى يظهر الحق، لأنه يوقن أن الله سيظهر الحق على يديه وسيبطل هذا الباطل، ولذلك اختار يوم العيد لأن الناس قد تركوا أعمالهم واجتمعوا، والضحى لظهور الأمر فيه؛ فلم يقل: نجلس في قصرك يا فرعون ونختبئ، بل قال: اظهروا ليرى الناس كلهم؛ لأنه على يقين بنصر الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾؛ لما هددهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يخوفهم بالله تعالى في البداية قائلًا: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾، بدأوا يتنازعون؛ قال بعضهم: "هذا موسى على حق"، وقال آخرون: "هو ساحر وسنغلبه"، ثم تذكروا وعود فرعون فتمسكوا بها وأسروا النجوى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾؛ "بِمَلْكِنا" قُرِئت بعدة قراءات، قُرِئت بفتح الميم وضمها وكسرها، ومعناها: بالفتح معناها "ليس بإرادتنا ولا طاقتنا"، ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾؛ يقال إن بني إسرائيل كان عندهم مناسبة فاستعاروا حليًا من الأقباط ليلبسوها، فلما خرجوا مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليلًا بقي الحلي معهم، فصار كأنه عارية يجب ردها، فلما جاوزوا البحر سألوا عما يصنعون به، فقال لهم السامري: "اجمعوه ونحرقه بالنار"، فصنع لهم منه العجل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾؛ المراد بالرسول هنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذا الرأي، لأنه حضر وقت إغراق فرعون، أما السامري فهو منافق من بني إسرائيل، خرج مع الجماعة وأظهر نفاقه لاحقًا عندما شعر بأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ سينتصر وأن فرعون هالك، كحال المنافقين الذين كانوا يخرجون مع النبي ﷺ مثل عبد الله بن أبي بن سلول الذي أتى بجميع الفتن والمصائب، ومع ذلك النبي ﷺ لا

يمنعه من الخروج، فخرج في أحد، ولما وصلوا الجبر رجع بثلث الجيش، وفي غزوة المريسيع خرج معهم، ولما رجعوا اتهم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقذفها، وأثار حادثة الإفك، فهم يخرجون مع المؤمنين وهم منافقون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ أي لا يخالط أحدًا ولا يمسه أحد، كأنه أصيب بمرض ينفر الناس منه؛ وذكر الشارح تشبيهًا بحال الناس في بدايات "كورونا" حين كان الواحد يخشى المصافحة أو لمس الأشياء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾؛ قيل: سود الوجوه زرق العيون، أو بيض العيون من العمى، والظاهر أن الزرقة مرادة من شدة الخوف، مع سواد الوجوه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾؛ القاع هي الأرض المستوية، والصفصف المستوي الذي لا ترى فيه ارتفاع ولا نزول ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾؛ فالأمت هو الارتفاع والعوج هو النزول.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾؛ أي ذلت الوجوه ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾؛ أي لا يظلم بأن تضاف إليه سيئات غيره، ولا يهضم حقه من حسناته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾؛ المراد بالنسيان هنا "الترك"، أي ترك ما أُخِذ عليه من العهد، لأن النسيان في القرآن يطلق على الذهول وعلى الترك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي ضيقة. وقيل إن "ضنك" تشير حروفها الثلاثة إلى: (ض) الضيق و (ن) النكد و (ك) الكآبة، فمن أعرض عن ذكر الله سبحانه أصيب بهذه الأمراض النفسية؛ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ نسأل الله العافية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾؛ التقدير: "لولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان العذاب لزامًا". قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعاته.

سورة الأنبياء

١ - ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي قربتْ القيامةُ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾

٦ - ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: ما آمنت بالآيات.

٨ - ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كقولهم: ﴿مَا هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فقال الله: ما جعلنا الأنبياء قبله أجسامًا لا تأكلُ الطعام ولا تموتُ، فنجعلَه كذلك.

١٠ - ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي شرَفُكم وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.

١١ - ﴿قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي أهلكنا. وأصل القَصْم: الكسر.

١٢ - ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي يَعْدُون. وأصل الرَّكْض: تحريك الرجلين؛ تقول: رَكَضْتُ الفرس: إذا أَعْدَيْتَهُ بتحريك رجليك فعدا. ولا يقال: فَرَكَضَ، ومنه قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ﴾.

١٣ - ﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي إلى نعمكم التي أَتْرَفَتْكُمْ.

١٥ - ﴿خَامِدِينَ﴾ قد ماتوا فسكَنُوا وخَمَدوا.

١٧ - ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا﴾ أي ولدًا. ويقال: امرأةً. وأصل اللهو: النكاحُ. وقد ذكرت هذا في كتاب "تأويل المشكل".

﴿لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي مِنْ عندِنا لا عندِكم.

١٨ - ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي يكسره. وأصل هذا إصابة الرأسِ والدماغِ بالضرب وهو مقتل.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي زائلٌ ذاهب.

١٩ - ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يعيون. والحَسِير: المنقطع به الواقف إعياءً أو كلالا.

٢١ - ﴿هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ أي يُحيون الموتى.

٢٤- ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حُجَّتكم.

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ﴾ يعني القرآن.

﴿وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ يعني الكتب المتقدمة من كتب الله. يريد أنه ليس في شيء منها أنه اتخذ ولدًا.

٢٧- ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لا يقولون حتى يقولَ ويأمر وينهى، ثم يقولون عنه. ونحوه قوله: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تقدِّموا القول بالأمر والنهي قبلَه.

٢٨- ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي خائفون.

٣٠- ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي كانتا شيئا واحدًا مُلْتَئِمًا، ومنه يقال: هو يَرْتُق الفَتْقَ، أي يَسدُّه. وقيل للمرأة: رَتْقَاء.

﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ يقال: كانَتَا مُصْمَتَتَيْنِ، فَفَتَقْنَا السماءَ بالمطر، والأرضَ بالنبات.

٣٢- ﴿سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ من الشياطين، بالنجوم.

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي عمَّا فيها: من الأدلة والعبر.

٣٧- ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي خُلقتْ العجلةُ في الإنسان، وهذا من المقدم والمؤخر، وقد بينت ذلك في كتاب "المشكل".

٤٣- ﴿وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي لا يجيرُهم منَّا أحدٌ؛ لأن المُجِيرَ صاحبٌ لجاره.

٤٤- ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي نَفْتَحُها عليك.

٤٤- ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ مع هذا؟!.

٥١- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وهو غلام.

٥٨- ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي فُتَاتًا. وكل شيء كسرته: فقد جَذَذْتَهُ. ومنه قيل للسَّويق: جَذِيذٌ.

٦٠- ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي يَعيبُهم. وهذا كما يقال: لئن ذكرتني لَتَنْدَمَنَّ. يريد: بسوء.

٦١- ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي بِمَرًى من الناس: لا تأتوا به خِفْيَة.

٦٥- ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي رُدُّوا إلى أوّل ما كانوا يعرفونها به: من أنها لا تَنْطق؛ فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾؛ فحذف "قالوا" اختصارًا.

٦٩- ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا﴾ أي وسلامةً. لا تكوني بردًا مُؤْذِيًا مضرًّا.

٧٢- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ دعا بإسحاق فاستُجيب له، وزِيدَ يعقوبُ نافلةً. كأنه تطوُّعٌ من الله وتفضُّلٌ بلا دعاء، وإن كان كلٌّ بفضله.

٧٨- ﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ رعتْ ليلا. يقال: نَفَشَت الغنمُ بالليل، وهي إبلٌ، نَفَشٌ ونُفَّشٌ ونُفَّاشٌ. والواحد نَافِشٌ. وسَرَحَتْ، وسَرَبَتْ بالنَّهار.

٨٠- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعني الدُّروع.

﴿لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي من الحرب.

٨١- ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدة الحر. وقال في موضع آخر: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾ أي ليِّنَةً كأنها كانت تشتدُّ إذا أراد، وتَلِينُ إذا أراد.

٨٧- ﴿وَذَا النُّونِ﴾ ذا الحوتِ. والنُّونُ: الحوت.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نُضَيِّقَ عليه. يقال: فلان مُقَدَّر عليه، ومُقَتَّر عليه في رزقه. وقال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضَيَّق عليه في رزقه.

٩٣- ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي تفرّقوا فيه واختلفوا.

٩٤- ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا نجْحَدُ ما عَمِل.

٩٥- ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أي حرامٌ عليهم أن يرجعوا. ويقال: حرامٌ: واجبٌ. وقال الشاعر:

فإنَّ حَرَامًا لا أرى الدهرَ باكيًا *** على شَجْوِهِ إلا بكَيتُ على عَمْرو

أي واجبًا.

ومن قرأ: "حِرْمٌ" فهو بمنزلة حَرَام. يقال: حِرْمٌ وحرامٌ؛ كما يقال: حِلٌّ وحلالٌ.

٩٦- ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ أي من كل نَشْزٍ من الأرض وأكَمَةٍ.

﴿يَنْسِلُونَ﴾ من النَّسَلان. وهو: مُقَارَبَةُ الخطْو مع الإسراع، كمشيِ الذئبِ إذا بادر. والعَسَلان مِثله.

٩٧- ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني يوم القيامة.

٩٨- ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ما أُلقي فيها، وأصله من الحَصْبَاء، وهي: الحصى.

يقال: حَصَبْتُ فلانًا: إذا رميتَه حَصْبًا – بتسكين الصاد – وما رَمَيْتَ به: حَصَبٌ، بفتح الصاد. كما تقول: نَفَضْتُ الشجرة نَفْضًا. وما وقع من ثمرها: نَفَضٌ؛ واسم حصى الحجارة: حَصَبٌ.

١٠٤- ﴿السِّجِلِّ﴾ الصحيفة.

١٠٥- ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يقال: أرض الجنة، ويقال: الأرض المقدَّسة، ترثها أمةُ محمد صلى الله عليه وعلى آله.

١٠٩- ﴿آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم وصرتُ أنا وأنتم على سواء، وإنما يريد نابَذْتكُم وعاديتكم وأعلمتكم ذلك، فاستوَيْنا في العلم. وهذا من المختصر.

الشرح

هذا ما ذكره المؤلف رحمه الله في بيان الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى بيان من سورة الأنبياء، ومثل ما ذكرنا، هذا كتاب "غريب القرآن" يأتي على الألفاظ التي تحتاج إلى بيان، فلا يفسر الآيات كلها وإنما يمر على ما يحتاج إلى توضيح.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾؛ المقصود به يوم القيامة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾؛ يعني الأنبياء، ما جعلناهم أجسادًا لا تأكل ولا تشرب، وإنما جعلناهم أجسادًا تأكل وتشرب وتموت؛ فلماذا تستغربون من محمد ﷺ أنه يأكل ويشرب وينام؟

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ معنى ذكركم: شرفكم، فيه شرف لكم وفيه تذكير لكم؛ فكلمة "ذكر" تأتي بمعنى التذكير وتأتي بمعنى الشرف، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[الزخرف: 44]، وقوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[ص: 1-2] أي الشرف والتذكير، كلاهما.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾؛ القصم: هو الكسر، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ يعدون، يعني يمشون بسرعة، وأصل الركض هو ضرب الأرض بالقدمين، ولذلك قال الله لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[ص: 42] أي اضرب بها الأرض؛ ولأن الذي يمشي بسرعة غالبًا ما تسمع لخطواته ضربًا للأرض بقدميه، فمعنى "يركضون" في الآية ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي أنهم إذا رأوا العذاب نزل بهم فروا منه، يخرجون من بيوتهم مسرعين، ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾؛ ما ينفعكم الركض، العذاب قد أحاط بكم، ﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾؛ ارجعوا إلى أماكنكم التي كنتم مترفين منعمين فيها.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ ما معنى تسألون؟ قال بعض المفسرين: لعلكم تُسألون لأنهم كانوا يجلسون في مجالسهم -هؤلاء المترفون- ويأتيهم الناس يسألونهم الحوائج؛ فيقال لهم تهكمًا: ارجعوا إلى أماكنكم التي كنتم تجلسون فيها مطمئنين والناس يأتون يسلمون عليكم ويسألونكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَامِدِينَ﴾؛ يعني: ساكنين، ماتوا عن آخرهم. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾؛ لما ادعى المشركون لله الولد، قال الله عز وجل: لو أردنا أن نتخذ ولدًا أو زوجة لاتخذناه من عندنا نحن وليس من عندكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ الحسر هو الانقطاع، يقال حسر عن رأسه إذا أزال الشيء عنه، فالحسر هو الانقطاع، وهؤلاء الملائكة من شدة عبادتاهم وطاعتهم لا ينقطعون أبدًا ولا يتوقفون، يسبحون الليل والنهار.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي الملائكة لا يتقدمون عليه بالكلام ولا بالأمر أو النهي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؛ قيل إن السماوات والأرض كانتا قطعة واحدة فرفعت السماء عن الأرض وأصبح بينهما فجوة، والرأي الثاني أن السماوات كانت لا تمطر والأرض لا تنبت، ففتقها الله؛ فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، وهذا هو الصحيح؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ أي: خُلقت العجلة في الإنسان، يعني أن الإنسان خُلق والعجلة من طبيعته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ لا يصحبون أي: لا يُجارون. كما لو وقعْتَ في مشكلة وأردت شخصًا أن يجيرك وينقذك، فيأتي لينقذك، فهؤلاء الآلهة لا تدفع العذاب عنهم ولا تجيرهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ هذا الموضع الثاني، الأول مرَّ معنا في الرعد وهذا في الأنبياء، أي: نفتحها عليك، وهو نفس المعنى الماضي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾؛ يعني بمرأى منهم. وسبحان الله، إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يظهر الحق أظهره علانية؛ فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال له فرعون سنجمع لك السحرة، اختار

موسى يوم العيد والضحى ليجتمع الناس كلهم ويشاهدوا آية الله سبحانه، وهنا قالوا عن إبراهيم: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ حتى يشهدوا، فعرفوا أن الحق مع إبراهيم، وهكذا إذا أراد الله أن يظهر أمره، وكذلك رؤيا الملك التي فسرها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان لأي شخص أن يفسره، لكن أراد الله أن يظهر أمر يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فجعل المفسرين يعجزون عن التفسير ليقضي الله أمره، وهكذا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾؛ القصة أن المزارع يحرسها الناس بالنهار، فإذا جاء الليل دخلوا في أماكنهم للراحة، فإذا دخلت بهيمة في النهار فصاحب الزرع هو المسؤول، وإذا دخلت في الليل فصاحب البهيمة هو المسؤول؛ والنفش: هو الرعي ليلًا، والهمل أن تترك الأغنام في النهار، هذه القصة حدثت في زمن داوود عليه السلام، دخلت أغنام في زرع فأكلته وقضت عليه، فترافعوا إلى داوود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فحكم داوود بأن يأخذ صاحب الزرع الأغنام عوضًا عن زرعه إذا تساوا في المقدار، وكان سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جالسًا فقال: يا أبتاه أوغير ذلك؟ قاصدًا حلًا أرفق بالطرفين؛ وهو أن يأخذ صاحب الزرع الأغنام ينتفع بألبانها ودرّها، ويقوم صاحب الغنم بإصلاح الزرع حتى يعود كما كان، فإذا عاد الزرع استرد صاحب الغنم غنمه، فكان حكم سليمان أرفق بالطرفين، وكلاهما حكم صحيح؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ بعض الناس يظن أن "نقدر" هنا من القدرة، وهذا لا يمكن في حق الله جل علاه؛ بل "نقدر" هنا معناها "نضيق"، كقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: 7] أي ضُيق عليه. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ وقرئ "حِرْمٌ" وهي قراءة الأخوين (حمزة والكسائي).

سورة الحج

مكية كلها إلا ثلاث آيات

٢- ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أي تسلو عن ولدها وتتركه.

٤- ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي على شيطانه ﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾

٥- ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ تَامَّة.

﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ غير تامَّة. يعني السّقط.

﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كيف نخلقكم ﴿فِي الأَرْحَامِ﴾

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ يعني قبل بلوغ الهَرَم.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي الخَرَف والهرم.

﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي مَيِّتَةً يابسةً. ومثل ذلك همود النار: إذا طَفِئت فذهبت.

﴿اهْتَزَّتْ﴾ بالنبات.

﴿وَرَبَتْ﴾ انتفخت.

﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من كل جنس حسن، يُبْهِجُ، أي يَشْرح. وهو فعيل في معنى فاعل. يقال: امرأة ذات خَلْق باهِج.

٩- ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي متكبر مُعرض.

١١- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على وجه واحد ومذهب واحد.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد.

١٣- ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أي الوَلِيّ.

﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي الصاحب والخليل.

١٥- ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أي لن يرزقه الله. وهو قول أبي عبيدة، يقال: مَطرٌ نَاصِرٌ، وأرض مَنْصُورَةٌ. أي مَمْطورَة. وقال المفسرون: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا.

﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي بحبل إلى سقف البيت.

﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أي حِيلتُه غيظَه لِيَجْهَد جهْده، وقد ذكرت ذلك في تأويل المشكل بأكثر من هذا التفسير.

١٩- ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي الماء الحار.

٢٠- ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ أي يُذاب. يقال: صَهَرت النار الشَّحْمة. والصُّهارة: ما أُذيب من الأَلْيَة.

٢٥- ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ المقيم فيه والبادي، وهو الطارئ من البدو، سواء فيه: ليس المقيم فيه بأولى من النَّازح إليه.

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ أي من يرد فيه إلحادا. وهو الظلم والميل عن الحق. فزيدت الباءُ كما قال: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾؛ وكما قال الآخر: سُودُ المحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ. أي: لا يقرأن السُّور. وقال الآخر: نَضْرِبُ بالسيف وَنَرجُو بالفَرَجْ

٢٦- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي جعلنا له بيتًا.

٢٧- ﴿يَأْتُوكَ رِجَالا﴾ أي رَجَّالةً، جمع رَاجِل، مثل صاحب وصِحَاب.

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي رُكْبَانًا على ضُمْرٍ من طول السفر.

﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي بعيد غامض.

٢٨- ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ يقال: التجارة.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ يوم التَّرْوِيَة، ويوم عَرَفَة، ويوم النَّحر. ويقال: أيام العشر كلها.

٢٩- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ والتَّفَثُ: الأَخْذ من الشارب والأظفار، ونتف الإبطين، وحلق العَانَة.

﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ سمي بذلك لأنه عتيق من التَّجَبُّر، فلا يتكبر عنده جبّار.

٣٠- ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني رَمْيَ الجِمَار، والوقوفَ بجمع، وأشباه ذلك. وهي شعائر الله.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يعني في سورة المائدة من الميتةِ والمَوْقُوذَةِ والمُتَرَدِّيَةِ والنَّطِيحَةِ.

٣١- ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ هذا مثل ضربه الله لمن أشرك به، في هلاكه وبعده من الهدى.

(السَّحِيقُ) البعيد. ومنه يقال: بُعْدًا وسُحْقًا، وأَسْحَقَهُ الله.

٣٦- ﴿صَوَافَّ﴾ أي قد صُفَّت أيديها. وذلك إذا قُرِنَت أيديها عند الذبح.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت. ومنه يقال: وَجَبت الشمس: إذا غابت.

﴿الْقَانِعَ﴾ السائل. يقال: قَنَعَ يَقْنَعُ قُنُوعًا؛ ومن الرِّضا قَنِعَ يَقْنَعُ قَنَاعَةً.

﴿الْمُعْتَرَّ﴾ الذي يَعتريك: أي يُلِمُّ بك لتعطيه ولا يَسْأَل. يقال: اعْتَرَّني وعَرَّني، وعَرَانِي واعْتَرَانِي.

٣٧- ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾ كانوا في الجاهلية: إذا نحروا البُدْنَ نَضَحُوا دماءَها حول الكعبة؛ فأراد المسلمون أن يصنعوا ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾.

٤٠- ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ للصَّابئين.

﴿وَبِيَعٌ﴾ للنَّصارى.

﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ يريد بيوت صَلَوَات، يعني كنائس اليهود.

﴿وَمَسَاجِدُ﴾ للمسلمين. هذا قول قتادة وقال: الأديان ستة: خمسة للشيطان، وواحد للرحمن، فالصابئون: قوم يعبدون الملائكة، ويصلون للقبلة ويقرأون الزَّبور. والمَجُوس: يعبدون الشمس والقمر، والذين أشركوا: يعبدون الأوثان. واليهود والنصارى.

٤٥- ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ يقال: هو المبني بالشِّيد. وهو الجِصُّ. والمَشِيد: المُطَوَّل. ويقال: المَشِيدُ والمُشَيَّد سواء في معنى المطول، وقال عَدِيّ بن زَيْد:

شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْـ ❊❊❊ ـسًا فَلِلطَّيْرِ فِي ذَرَاهُ وُكُورُ

٥١- ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مُسَابِقِين.

٥٢- ﴿إِلا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي تلا القرآن.

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ في تلاوته.

٥٤- ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخضع وتَذِلّ.

٥٥- ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ كأنه عَقُمَ عن أن يكون فيه خير أو فرج للكافرين.

٦٧- ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي عيدًا.

٧١- ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي برهانا ولا حُجَّة.

٧٢- ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي يتناولونهم بالمكروه من الشتم والضرب.

٧٨- ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي اختاركم.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ضيق.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ يعني القرآن.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي قد بلغكم.

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأن الرسل قد بلّغتهم.

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ أي الوَلِيّ.

﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي الناصر. مثل قَدِير وقَادِر، وسميع وسامع.

الشرح

هذه السورة -سورة الحج- من أعاجيب السور كما ذكر بعض أهل العلم؛ لأنها اشتملت على أنواع وأشكال من النزولات؛ ففِيها نزول مكي وفيها مدني، وفيها سفري وفيها حضري، وفيها صيفي وفيها شتائي، وفيها ليلي وفيها نهاري. وقد اختُلف في تحديدها هل هي مكية أم مدنية؟ وهو خلاف قوي؛ فبعضهم يقول مكية، وبعضهم مدنية، وبعضهم يقول هي آخر ما نزل في مكة وأول ما نزل في المدينة؛ أي إن جزءًا كبيرًا منها في مكة والجزء الآخر في المدينة، وإذا تأملتَ وجدتَ هذا الكلام فيها حقيقة؛ لأنها تتحدث عن أمور تتعلق بالخصائص المكية في أولها -كالبعث والجنة والنار وموقف المشركين والمؤمنين- وفي نصفها الثاني عن أحكام تتعلق بالمسلمين، وهي أحكام الحج والأضاحي.

في أوائلها نداء للناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾؛ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ قال: أي تسلو عن ولدها وتتركه، تغفل المرأة عن ولدها؛ والمرأة لا يمكن في الدنيا أن تغفل عن ولدها أبدًا، فإذا جاء يوم القيامة ورأت الأهوال تركت الولد من شدة الهول، وتضع كل ذات حمل حملها.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ مخلقة أي نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم تتخلق، يعني تتصور وتتشكل فيوضع فيها الرأس واليدان والرجلان ونحوه، أو غير مخلقة بمعنى أنها ليست خلقة تامة فتسقط، ويسمى السقط، ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾؛ فالناس في هذه الدنيا منهم من يموت وهو صغير أو شاب، ومنهم من يمد الله في عمره حتى يرد إلى أرذل العمر.

قوله سبحانه: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي: متكبر معرض، والعِطف هو الجانب؛ جانب الإنسان، وللإنسان عِطفان، فإذا ثنى جانبه دلَّ ذلك على الغرور والاستكبار وأنه لا يتقبل الحق. وبعض الناس يخطئ في فهم الآية

فيظن أن "ثاني" من العدد (واحد، اثنان) وينتظر "ثالث عطفه"، وهذا خطأ؛ بل "ثاني" هنا من ثنى يثني، وهي كناية عن التكبر.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾؛ بيت الله الحرام والمسجد الحرام المقيم فيه من أهل مكة والقادم من بعيد كلهم سواء عند الله سبحانه في الحكم، فالعاكف أي المقيم، والباد القادم من بعيد، كلهم في الحكم سواء. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ قال "يرد" ولم يقل "يفعل"، فمجرد الإرادة كافٍ. يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو أن رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم». وهذا مشاهد، فقد جاءت قصص كثيرة ممن أرادوا الإفساد في الحرم فكشف الله أمرهم وأصابهم العذاب قبل أن يصلوا.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾؛ والرجال جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ أي على كل إبل ضامر: وهي الهزيلة من شدة المشي والمسافات. وهذا أيضًا مُشاهد، فقد سمعنا قصصًا كثيرة عن الأولين كانوا يحجون على الأقدام يأتون من أقصى الأرض من الهند وأفريقيا، ويمكثون الأشهر الطويلة حتى يؤدوا الفريضة، وهذا يدل على أن الحج فرض عين على كل قادر مستطيع، فلا ينبغي التخلف عنه، والحج على الفور؛ فتجد بعض الناس بلغ الأربعين ولم يحج الفرض، وإذا سألتَه تعذر بالزحام أو الحر أو المال وهو يسافر لأقصى الأرض في غير الحج، وكما قال ﷺ: «حجوا قبل أن لا تحجوا»؛ أي يأتيك زمان لا تستطيع فيه.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: مسافات بعيدة، ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾؛ منافع دينية كالأجور وتكفير السيئات، ومنافع دنيوية: كالتجارات ونحوها. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وهي أيام العشر.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾؛ أي الأوساخ التي تصيبهم؛ فالقادم من مسافات بعيدة مع الحر والشمس والإحرام تصيبه الأوساخ، وتطول شعورهم وأظافرهم، فإذا حجوا حلقوا ورأوا نظافتهم.

قوله تعالى: ﴿صَوَافَّ﴾؛ أي قد صُفَّ بعضها إلى بعض، أو صُفت يداها قريبًا من بعض. وهذا حدث مع النبي ﷺ حين نحر مائة من الإبل؛ نحر ثلاثًا وستين بيده ثم أكملها علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فكانت تُصفُّ قريبًا من بعضها.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي سقطت ذنوبهم، ﴿فَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾. قيل القانع: هو السائل، والمعتر: هو الذي يتعرض لك ولا يسأل، وقيل العكس؛ القانع هو الذي يجلس في بيته مقتنعًا بما كتب الله له ولا يسأل الناس إلحافًا يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، والمعتر هو الذي يعترضك في الطريق ويسألك.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾؛ هذه أماكن عبادات، والصلوات هنا ليس المراد بها الركعات التي نصليها، بل هي كنائس اليهود؛ وأصلها في لغتهم "صلوتا" ويقصدون بها مكان العبادة، وهذا لا بد من بيانه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؛ تمنى هنا بمعنى "قرأ" أو "تلا"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78] أي مجرد تلاوة دون معرفة للمعاني أو تطبيق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي من ضيق، فقد وسع الله عليكم.

والآيات واضحة، والمؤلف كما ذكرنا يمر على الآيات التي تحتاج إلى بيان فيبينها رحمه الله رحمة واسعة.

سورة المؤمنون

مكية كلها

٣- ﴿اللَّغْوِ﴾ باطل الكلام والمزاح.

١٠- ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ قال مجاهد: هو البستان المخصوص بالحسن، بلسان الرُّوم.

١١- ثم قال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فأَنَّثَ. ذَهَبَ إلى الجنة.

١٢- ﴿مِنْ سُلالَةٍ﴾ قال قتادة: اسْتُلَّ آدم من طين، وخُلِقت ذريتُه من ماءٍ مَهين. ويقال للولد: سلالة أبيه، وللنُّطْفَة: سُلالة، وللخمر: سلالة. ويقال: إنما جعل آدم من سلالة، لأنه سُلَّ مِنْ كل تُرْبة.

١٤- ﴿عَلَقَةً﴾ واحدة العَلَق، وهو الدم.

و (المضغة) اللَّحمة الصغيرة. سميت بذلك لأنها بقدْر ما يُمْضَغُ، كما قيل: غرفة، بقدر ما يُغْرَف.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي خلقناه بنفخ الروح فيه خلقًا آخر.

١٧- ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سبع سماوات كل سماء طَرِيقة. ويقال: هي الأفْلاك كلُّ واحد طَرِيقة. وإنما سميت طَرَائِق بالتَّطَارق؛ لأن بعضها فوق بعض. يقال: طارقت الشيء، إذا جعلت بعضَه فوق بعض. يقال: ريش طَرَائِق.

٢٠- ﴿وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾ مثل الصِّبَاغ. كما يقال: دِبْغٌ ودِبَاغ ولِبْس ولِبَاس.

٢٧- ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أي أدخِل فيها. يقال: سَلَكْتُ الخيط في الإبرة وأَسْلَكته.

٣٣- و ﴿أَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وسَّعنا عليهم حتى أُتْرِفُوا، والتُّرْفَةُ [منه]، ونحوها: التُّحْفَة، كأنّ المُتْرَف هو الذي يتحف.

٤١- ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي هَلْكَى كالغُثَاء، وهو ما علا السَّيْل من الزَّبَد [والقَمْش] لأنه يذهب ويتفرّق.

٤٤- ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ أي تَتابع بِفَتْرَةٍ بين كل رسولين وهو من التَّوَاتُر. والأصل وَتْرَى. فقلبت الواو كما قلبوها في التَّقْوى، والتّخمة والتُّكلان.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أخبارًا وعبرًا.

٥٠- ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ أي عَلَمًا ودليلا.

و (الرَّبْوَةُ) الارتفاع. وكلُّ شيء ارتفع أو زاد، فقد رَبَا، ومنه الرِّبا في البيع.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يُسْتَقَرُّ بها للعمارة.

﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء ظاهر. يقال: هو مَفْعُول من العين. كأنّ أصلَه مَعْيُون. كما هو يقال: ثوب مَخِيط، وبُرٌّ مَكِيل.

٥١- ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ خوطب به النبي، صلى الله عليه؛ وحْدَه على مذهب العرب في مخاطبة الواحد خطاب الجمع.

٥٢- ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم دين واحد، وهو الإسلام. والأمة تنصرف [عَلى وجوه] قد بينتها في "تأويل المشكل".

٥٣- ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفوا في دينهم.

(زُبَرًا) بفتح الباء جمع زُبْرَة، وهي القطعة. ومن قرأ ﴿زُبُرًا﴾ فإنه جمع زَبُور، أي كُتُبًا.

٥٦- ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي نُسْرِع. يقال: سارعت إلى حاجتك وأسرعت.

٦٣- ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي في غطاء وغفلة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال قتادة: ذكر الله. ﴿الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ثم قال للكفار ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ ثم رجع إلى المؤمنين فقال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي من دون الأعمال التي عدَّدَ ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾

﴿يَجْأَرُونَ﴾ أي يَضِجُّون ويَسْتَغِيثُون بالله.

٦٦- ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ أي ترجِعون القَهْقَرَى.

٦٧- ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ يعني بالبيت تَفْخَرُون به، وتقولون: نحن أهلُه ووُلاتُه.

﴿سَامِرًا﴾ أي متحدثين ليلا.

و (السَّمَرُ) : حديث الليل. وأصل السَّمَر: الليل. قال ابن أَحْمَرَ:

من دونهم إِنْ جِئْتَهُمْ سَمَرًا

أي ليلا ويقال: هو جمع سامِر. كما يقال: طَالِبٌ وطَلَب وحارِسٌ وحَرَس. ويقال: هذا سامِرُ الحيِّ يراد المتحدثون منهم ليلا. وسَمَرُ الحي.

﴿تَهْجُرُونَ﴾ تقولون هُجْرًا من القول. وهو اللَّغو منه والهذيان. وقرأ ابن عباس: "تُهْجِرُون" -بضم التاء وكسر الجيم- وهذا من الهُجْر وهو السَّب والإفْحاش في المنطق. يريد سبهم النبيَّ صلى الله عليه ومن اتبعه.

٦٨- ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أي يَتَدَبَّروا القرآن.

٧١- ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ أي بِشَرَفِهم.

٧٢- ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي خَرَاجًا، فهم يَسْتَثْقِلُونَ ذلك.

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي رزقُه.

٧٤- ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أي عَادِلُون، يقال: نَكَبَ عن الحق: أي عدَل عنه.

٧٦- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ يريد: نَقْصَ الأموال والثمرات.

﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي ما خَضَعُوا.

٧٧- ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يعني الجوع.

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي يَائِسُون من كل خير.

٨٩- ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي تُخْدَعون وتُصْرَفون عن هذا.

٩٦- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [أي] الحُسْنَى من القول. قال قتادة: سلِّم عليه إذا لقيته.

٩٧- و ﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ نَخْسُها وطَعْنُها. ومنه قيل [للعائب: هُمَزَةٌ] كأنه يطعن ويَنْخَس إذا عاب.

١٠٠- و (الْبَرْزَخُ) ما بين الدنيا والآخرة [وكل شيء بين شيئين] فهو بَرْزَخٌ. ومنه قوله في البحرين: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي حاجزًا.

١١٠- ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ -بكسر السين- أي تَسْخَرُون منهم. وسُخريا -بضمها- تُسَخِّرُونَهُم، من السُّخْرة ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي شغلكم أمرهُم عن ذكري.

١١٣- ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي الحُسَّاب.

١١٧- ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي لا حُجَّة له به ولا دليل.

الشرح

هذه سورة المؤمنون، وما ذكر فيها المؤلف من الألفاظ التي تحتاج إلى بيان، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، اللغو: باطل الكلام، والمزاح الذي ليس في مكانه؛ لأن المزاح أحيانًا جائز، فالنبي ﷺ مزح مع أصحابه، لكن كثرة المزاح، والمزاح الذي ليس في مكانه قد يكون مخلًا بالشخص ومخلًا بأخلاقه، هذا هو اللغو المعني الإعراض عنه، وفي لفتة جميلة ذكرها الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى» فأبعد الناس عن الكلام الحرام هم أولئك؛ فإذا كان اللغو الذي هو مباح يعرضون عنه، فمن باب أولى أن الغيبة والنميمة والاستهزاء إلى آخره من المحرمات هم أبعد الناس عنها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾؛ الموصوفون بهذه الصفات هم الوارثون الذين يرثون الفردوس. والفردوس قال: البستان المخصوص بالحسن بلسان الروم، أو نقول: اسم من أسماء الجنة، أو اسم لموضع من مواضع الجنة كما جاء في الحديث قوله ﷺ: «إذا سألتم اللهَ الجنةَ فاسألوه الفِردوسَ ، فإنها أعلَى الجنةِ ، وأوسطُ الجنةِ وسقفُها عرشُ الرحمنِ».

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ لِمَ قال "فيها" ولم يقل "فيه" والفردوس مذكر؟ لأنه ﷻ ذهب إلى المعنى وهي "الجنة".

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾؛ قال: استل آدم من طين، هذه الطينة التي استل منها آدم وخلق منها قد استلت من أنواع الطين؛ فطينة لينة، وطينة فيها قسوة، وطينة حمراء، وسوداء، وبيضاء، فلما استلت له هذه الأنواع من الطين ظهرت في بني آدم؛ فتجد منهم لون كذا ولون كذا، وتجد منهم القاسي واللين، والسمح في كلامه، والعسر في أفعاله؛ فاختلف الناس رجوعًا لأصله.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾؛ والعلقة معروفة وهي قطعة الدم، والمضغة قطعة اللحم التي تمضغ.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾؛ وهي السماوات السبع؛ لأن بعضها فوق بعض، والطرائق أيضًا توضع في الصنعة؛ فالإسكافي الذي يصنع الحذاء يضع طرائق بعضها على بعض؛ قطعة جلد على جلد ثم يخيطها فتسمى طرائق.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾؛ وهي شجرة الزيتون، فيها صبغ للآكلين لأن زيتها إدام مع الطعام.

ثم انتقلت الآيات إلى قصة نوح عليه السلام ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛ وأصل الغثاء الذي لا ينفع، وهو الذي يكون فوق السيل في الأودية من الأعواد والزبد، والله أهلك هؤلاء حتى أصبحوا مثل هذا الشيء.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾؛ الربوة: المكان المرتفع، وذات قرار: أي مستقرة، ومعين: أي ماء.

ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أمتكم هنا ليس معناها الجماعة، بل الأمة هنا بمعنى الدين؛ لأن كلمة "أمة" تأتي على معاني متعددة: فتأتي بمعنى الجماعة، وبمعنى القدوة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120] أي قدوة، وبمعنى الطريقة والإسلام ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22] أي على طريقة، وتأتي بمعنى الزمن ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45] أي بعد عدد من السنين. فقوله تعالى ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم دين واحد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾؛ بالجمع "زُبُرًا" أو بالفتح "زُبَرًا".

قال جل جلاله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾؛ ذكر أن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي أعمال أهل الصلاح والطاعة، الذين ﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، فيكون في الجملة تقديم وتأخير، ولكن الذي يظهر -والله أعلم- أن الآية باقية بدون تقديم وتأخير؛ أي أن هؤلاء الكفار في غفلة ولهم أعمال يعملونها.

قوله تعالى: ﴿يَجْأَرُونَ﴾؛ ومعناه يضجون ويستغيثون بالله، والجؤار: رفع الصوت بقوة.

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾؛ مستكبرين أي الكفار، "به" أي بالحرم والبيت العتيق يفتخرون به ويقولون: نحن أهل الحرم، "سامرًا" الحديث بالليل. "تهجرون" قيل من الهذيان واللغو والكلام الفاسد، وفي قراءة نافع ﴿تُهْجِرُونَ﴾ أي من السب ونحوه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾؛ والخرج والخراج -بقراءة أخرى- بمعنى واحد وهو الأجرة والمال.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾؛ استكانوا أي: خضعوا وتذللوا، تذللوا لربهم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾؛ أي ادفع السيئة بالكلام الطيب. يقول قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سلم عليه إذا لقيته"، أي إذا كان بينك وبينه عداوة فقابلها بالمودة وتصفح عنه. هذا في جانب عدوك من بني آدم، أما في جانب عدوك من الشيطان فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾؛ فاستعذ بالله يذهب عنك، وشيطان الجن أهون من شيطان الإنس؛ فإذا استعذت بالله ذهب "الوسواس الخناس" يوسوس ويخنس أي يذهب بسرعة، أما شيطان الإنس فلا يذهب بالاستعاذة، ولذلك أمر الله بمعاملته بالحسنى لعل ذلك يكسبه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾؛ قال: حاجز وهو القبر. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾؛ أي استهزاءً، وإذا قرأت ﴿سُخْرِيًّا﴾ فهي من التسخير، أي تستعملونهم عبيدًا وخدمًا عندكم.

سورة النور

مدنية كلها

١ - ﴿فَرَضْنَاهَا﴾ فرضنا ما فيها.

٨- ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي يَدْفعه عنها. والعذاب: الرَّجْم.

١١ - ﴿جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ أي بالكذب.

وقوله: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني عائشة. أي تُؤْجَرُون فيه.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ أي [عُظْمَهُ] قال الشاعر يصف امرأة:

تَنَامُ عَن كِبْرِ شَأْنِهَا فإذا *** [قَامَتْ رُوَيْدًا تكادُ تَنْغَرِفُ]

أي تنام عن عظم شأنها؛ لأنها مُنَعَّمَة.

١٢ - ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي بأمثالهم من المسلمين. على ما بينا في كتاب "المشكل".

١٣ - ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي هَلا جاءوا.

١٤ - ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ [أي خضتم فيه].

١٥ - ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تَقْبَلُونه. ومن قرأ "تَلِقُونه" أخذه من الْوَلْق وهو الكذِب. وبذلك قرأت عائشة.

٢١ - ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أي ما طَهُرَ.

﴿اللَّهَ يُزَكِّي﴾ أي يُطَهِّر.

٢٢ - ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ أي لا يحلِف. وهو يَفْتَعِل من الأَلِيَّةِ، وهي اليمين. وقُرِئَت أيضًا: ولا يَتَأَلَّ على يَتَفَعَّل.

﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ أراد أن لا يؤتوا. فحذف "لا". وكان أبو بكر حلف أن لا ينفق على مِسْطَح وقرابته الذين ذكروا عائشة، وقال أبو عبيدة: لا يَأْتَلِ، هو يَفْتَعِل من أَلَوْتُ. يقال: ما أَلَوْتُ أن أصْنع كذا وكذا. وما آلو [جهدًا] قال النابغة الجعدي:

وَأَشْمَطَ عُرْيَانًا يَشُدُّ كِتَافَهُ *** يُلامُ على جَهْدِ القِتَالِ وما ائْتَلا

أي ما تَرَكَ جَهدًا.

٢٥- ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ الدين هاهنا الحساب. والدين يتصرف على وجوه قد بينتها في كتاب "المشكل".

٢٦- ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ من الكلام.

﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الناس.

﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ من الناس.

﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ من الكلام.

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يعني عائشة.

وكذلك الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِين على هذا التأويل.

٢٧- ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي حتى تستأذنوا ﴿وَتُسَلِّمُوا﴾ والاستئناس: أن يعلم من في الدار. تقول: استأنست فما رأيت أحدًا؛ أي استعلمت وتعرَّفْتُ. ومنه: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي علمتم. قال النابغة:

كأَنَّ رَحْلِي وقَدْ زَالَ النَّهارُ بِنَا *** بِذِي الجَلِيلِ على مُسْتَأْنِسٍ وَحِدِ

يعني ثورًا أبصر شيئًا فهو فَزِع.

٢٩- ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ بيوت الخَانَات.

﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ أي منفعة لكم من الحر والبرد.

والسترُ والمتاع: النَّفْع.

٣١- ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يقال: الدُّمْلُج والوِشَاحان، ونحو ذلك.

﴿إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ يقال: الكف والخاتم. ويقال: الكُحْل والخاتم.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾ يعني الإِخْوَة.

﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني المسلمات. ولا ينبغي للمسلمة أن تتجرد بين يَدَيْ كافرة.

﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ﴾ يريد الأتْبَاع الذين ليست لهم إِرْبَةٌ في النساء، أي حاجة، مثل الخَصِيّ والخُنْثَى والشيخ الهِرِم.

﴿أَوِ الطِّفْلِ﴾ يريد الأطفال. يدلك على ذلك قوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي لم يعرفوها ولم يفهموها.

﴿وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي لا يضربن بإحدى الرِّجلين على الأخرى ليصيب الخلخالُ الخلْخَالَ، فيعلم أن عليها خلْخَالَيْن.

٣٢- ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ والأَيَامَى من الرجال والنساء: هم الذين لا أزواج لهم. يقال: رجل أيِّم، وامرأة أيِّم؛ ورجل أرْمَل، وامرأة أرْملة ورجل بِكْر، وامرأة بِكْر: إذا لم يتزوجا. ورجل ثيب، وامرأة ثيب: إذا كانا قد تزوَّجا.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ أي من عبيدكم. يقال: عَبْدٌ وعِبَاد وعَبِيد. كما يقال: كَلْبٌ وكِلاب وكَلِيب.

٣٣- ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أي يريدون المُكَاتَبَةَ من العبيد والإماء، على أنفسهم.

﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ عفافًا وأمانة.

﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ﴾ أي أعطوهم، أو ضَعُوا عنهم شيئًا مما يلزمهم.

﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي لا تكرهوا الإماء على الزنا.

﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي لتأخذوا من أجورهم على ذلك.

﴿وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقال: للإماء.

الشرح

سورة النور، سميت بسورة النور لأمرين؛ الأمر الأول: لذكر آية النور فيها ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، والأمر الثاني: أنها نور في البيوت وفي القلوب لمن يتمسك بما فيها من الآداب والأخلاق.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾؛ أي أنزلناها وفرضنا ما فيها من الفرائض؛ ففيها فرائض عظيمة وحدود ونحوها.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾؛ أي: عن هذه المرأة، وهذا في قصة اللعان. وقصة اللعان أن يتهم الرجل امرأته -مثلًا- وهي لا تقر بذلك، فيترافعان إلى القاضي، والرجل ليس عنده بينة كما قال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك»، وهو قد وجد ما وجد؛ كما قال أحد الصحابة: «إذ وجد أحدنا على امرأته رجلًا ماذا يصنع؟»، فإذا اتهم الرجل امرأته بشيء من الفاحشة، يؤتى بالرجل والمرأة ويقام بينهما اللعان، واللعان هو الفاصل بينهما؛ يلاعن الرجل امرأته وهي تلاعنه، ثم يُفَرَّق بينهما إلى الأبد؛ فلا يراها ولا تراه ولا يجتمعان أبدًا إلى يوم القيامة، هذا معنى اللعان.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾؛ أي يدفع عن هذه المرأة (الحد) إذا شهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فيما قال، وفي الخامسة يقول: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فإذا شهد الرجل قيل لها: ماذا تقولين؟ إن سكتت واعترفت أقيم عليها حد الزنا (الرجم)، وإن دفعت التهمة ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾؛ أي يدفع عنها التهمة أن تشهد هي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وفي الخامسة ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. وجعل "الغضب" في جانب المرأة وهو أشد؛ لأن الزنا والفاحشة

قد تكون المرأة أقرب فيها من الرجل، ولأن الرجل يطهر فراشه ولا يرضى فيه بالسوء؛ ولذلك صار جانب اللعنة في الرجل والغضب في المرأة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾؛ هذه في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واتهامها بالفاحشة، ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ يعني عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن الأجر أعظم. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ كبره أي: عظمه؛ وهو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين، هو الذي أشاع الفاحشة في صفوف المسلمين في غزوة المريسيع (أو المصطلق) لما رأى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد تأخرت، وجاء صفوان بن معطل وحملها على ناقته وبدأ يسوقها، فنظر عبد الله بن أبي بن سلول فقال: انظروا إلى زوجة نبيكم مع من؟ وماذا فعل بها؟. ثم بدأ ينشر الفاحشة حتى تقبلها بعض المسلمين، لذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أيها المؤمنون؛ فأول أمر أن تظن بأخيك المسلم الظن الحسن، وقوله: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي كأنهم نفس واحدة، وهذا هو الواجب. ولذلك في شأن أزواج النبي ﷺ؛ زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سألها النبي ﷺ: «ماذا تقولين في عائشة؟» قالت: «أحفظ سمعي ولساني، لا أقول فيها إلا خيرًا»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فنجت»؛ أي نجت من الوقوع في التهمة، فالإنسان فور سماعه بخبر عن شخص مؤمن لا يعرف عنه إلا الصلاح، فالأصل هو البراءة والظن الحسن، لذلك شدد الله عليهم فقال سبحانه: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾؛ ليس عندهم شهداء، فكيف يتهمون؟ وقال ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ أي خضتم فيه، وقال ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي تتقبلونه وتتناقلونه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾؛ "يأتل" من الإيلاء وهو الحلف واليمين، والإيلاء غالبًا يكون في الامتناع عن الشيء، واليمين قد يكون في الامتناع وقد يكون في فعل الشيء، لكن الإيلاء غالبًا تأتي بمعنى يمتنع، ولذلك يسمى إيلاء الرجل من امرأته إذا امتنع من مباشرتها؛ ومن امتنع أربعة أشهر يُفرّق بينهما، وهذه الآية نزلت خاصة في مِسطح بن أثاثة، وهو صحابي مهاجر شهد بدرًا، لكنه وقع في

الإفك، فأقام النبي ﷺ عليه حد القذف، فحلف أبو بكر -وكان قريبًا له وينفق عليه لفقره-: «والله لا أعطيه شيئًا من الصدقة»، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ﴾، وقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فرجع أبو بكر إلى صدقته.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾؛ المراد بالدين هنا الجزاء، فالدين في القرآن يأتي بمعنى الجزاء، ويأتي بمعنى الشرع كقوله: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30].

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ الصحيح أن كلمة الخبيثات للخبيثين يعني النساء أو المرأة الخبيثة تكون للرجل الخبيث، هذا معنى أو الكلام الخبيث، كلمات الخبيثات للرجل الخبيث، كلمات الخبيثات، يعني من الممكن أن تفسر الخبيثات بالنساء، وتفسر بالكلمات السيئات -الكلمات الخبيثات-، وممكن أن تفسر بالأحوال؛ أحوال الخبيثين تنطبق عليهم أحوال الخبيثات وهكذا كلها جائزة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾؛ ما معنى تستأنسوا؟ قال: تجدوا الأنس؛ لأن الطارق لا يدري ماذا يرد عليه، وصاحب البيت لا يدري من وراء الباب، فالاستئناس أن تُعرّف بنفسك فتقول: "أنا فلان"، حتى يزول ما وراء الباب من وحشة أو خوف، ولذلك كان من سنة النبي ﷺ السلام والتعريف بالنفس ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ هذه فيها إشكالية؛ ما المراد بـ"إلا ما ظهر منها"؟ والصحيح أن معناها: ما ظهر بغير اختيارها، كظهور أسفل الملابس من تحت العباءة، أو ظهور الحذاء، أو ظهور شيء من وجهها بسبب الريح بغير قصد، أما القول بأن المراد "الوجه والكفان" فهو قول باطل؛ بدليل قوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ ولم يقل "إلا ما أظهرته"، وهناك فرق كبير، كما أن الجمال والزينة تكمن في الوجه، فكيف يستثنى وهو مقصود الحجاب؟

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾؛ المراد النساء المسلمات، فهل يجوز للمرأة أن تبدي زينتها لامرأة أجنبية (غير مسلمة)؟ يرى البعض وجوب الحذر من إبداء كامل الزينة أمام العاملات أو الأجنبيات غير المسلمات إذا خُشيت الريبة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾؛ كأن يكون رجلًا كبيرًا مسنًا لا شهوة له، وقد اعتاد دخول البيت، أو كان من المقعدين أو المرضى الفقراء الذين ليس لهم حاجة في النساء؛ فهذا لا مانع أن تظهر المرأة أمامه ببعض زينتها.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾؛ والطفل هنا اسم جنس (أي الأطفال)، ولا يتحدد بسن معينة بل بالتمييز؛ فإذا كان الطفل يميز الجمال ويصف المرأة ويظهر اهتمامًا بصفاتها فهذا قد يكون عنده شهوة ويُمنع من الدخول على النساء، أما إذا كان لا يدرك من أمر النساء شيئًا فلا مشكلة في دخوله.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾؛ وهذا ما يسميه العلماء "سد الذرائع"، فالأصل أن ضرب الرجل ليس ممنوعًا، لكن لما كان يؤدي إلى تحريك الشهوة بصوت الخلخال والحلي مُنع؛ فصوت الحلي قد يكون أشد تحريكًا للشهوة من النظر أحيانًا.

والبقية واضحة في "مكاتبة" المملوك لسيده؛ وهي أن يطلب العبد من سيده أن يعتقه مقابل أقساط مالية يؤديها من عمله، وتجوز إذا علم السيد في عبده خيرًا في دينه وصلاحه وقدرته على التجارة.

٣٥- ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ﴾ في قلب المؤمن.

﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي: الكُوَّةُ غيرُ النافذةِ.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي سراجٌ.

﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيءٌ، منسوب إلى الدُّر.

ومن قرأ: (دِرِّيءٌ) بالهمز وكسر الدال، فإنه من الكواكب الدَّرارئ وهن: اللائي يَدْرَأْن عليك، أي يطلُعن. وتقديره: فِعِّيلٌ، من "دَرَأْتُ" أي دفعتُ.

﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي ليستْ في مَشْرُقَةٍ أبدًا، فلا يصيبها ظلٌّ. ولا في مَقْنَأَةٍ أبدًا، فلا تُصيبُها الشمسُ. ولكنها قد جمعت الأمرين فهي شرقية غربية: تُصيبُها الشمسُ في وقت، ويُصيبها الظلُّ في وقت.

٣٧- ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ أي تتقلب عمَّا كانت عليه في الدنيا: من الشك والكفر؛ وتتفتَّحُ فيه الأبصارُ من الأغْطية.

٣٩- (السَّرَابُ) ما رأيتَه من الشمس كالماء نصف النهار. و "الآل": ما رأيته في أول النهار وآخره، الذي يَرفعُ كل شيء.

﴿بِقِيعَةٍ﴾ والقِيعَةُ: القاع. قال ذلك أبو عبيدةَ. وأهلُ النظر من أصحاب اللغة يذكرون: أن "القِيعة" جمع "القاع"؛ قالوا: والقاعُ واحدٌ مذكر، وثلاثةٌ: أقْواعٌ، والكثيرةُ منها: قِيعانٌ وقِيعةٌ.

٤١- ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ قد صَفَّتْ أجنحتَها في الطيران.

٤٣- ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي يَسُوقُه.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ بعضَه فوق بعض.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ يعني المطرَ.

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ أي من خَلَلِه.

﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوءُه.

الشرح

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بنوره يهتدي من في السماوات والأرض. وهل نور الله حسي أم معنوي؟ الحقيقة كلاهما؛ فنور الله حسي كالإضاءة، ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: 69]، وهو نور معنوي بمعنى الهداية من الضلال.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ هذا تشبيه حال بحال، مثل نوره في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المشكاة هي الكوة؛ فتحة في الجدار غير نافذة؛ لا تطل على الخارج، شبيهة برف داخل الجدار وتكون غالبًا مطلية بالجص الأبيض لتعكس النور بقوة، كانت قديمًا في المساجد يوضع فيها السراج أو المصحف. فشبه الله قلب المؤمن بالمشكاة فيها مصباح، و: هو السراج الذي يوضع في هذه الكوة، ويُشعل بالنار والزيت، وهذا الزيت كان من زيت الزيتون الصافي الأصلي، يعطي إضاءة قوية، والكوّة تزيد هذه الإضاءة.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ الزجاجة: تحيط بالمصباح لتعكس نوره وتزيده ضياءً، كأنها ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي مضيء بقوة كالدُّر، والدر ما يستخرج من الحلي من البحر، ومن قرأ "دريء" بالهمزة، فهو من الكواكب الدراري التي تدرأ أي تطلع وتدفع الظلام. وقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ الشجرة المباركة هي شجرة الزيتون، وقوله ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي ليست في جهة الشرق فقط فتصيبها الشمس صباحًا وتُحرم منها مساءً، ولا في جهة الغرب فقط، بل هي في مكان متوسط (أو شمالي) تصيبها الشمس والظل بأوقات موزونة، مما يجعل زيتها في غاية الصفاء والإنارة.

وقد شبه الله نور الهداية في قلب المؤمن بهذا النور القوي؛ فقلب المؤمن إذا ازداد بالطاعة أعطى إضاءة قوية.

ثم قال تعالى عن المؤمنين: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾؛ أي تتغير عما كانت عليه في الدنيا من الشرك والكفر، وتتفتح فيه الأبصار من الأغطية. وهذه الآية جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾، حيث أن المؤمنون يخافون من هذا اليوم الذي تتقلب فيه قلوب غير المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾. السراب ما رأيته من الشمس كالماء نصف النهار، أحيانًا في منتصف النهار ترى على بعد مسافة وأنت تمشي في الصحراء أو في طريق أمامك ماء، إذا وصلته ما وجدته؛ هذا يسمى السراب، يقول: السراب ما رأيت في الشمس في نصف النهار.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِقِيعَةٍ﴾؛ الباء حرف جر، والقيعة: القاع تُجمع على قيعة وعلى قيعان، الأرض المنخفضة المستوية، من بعيد ترى كأن فيها ماء وليس فيها ماء.

قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ صافات من: صفّت أجنحتها في الطيران، إذا طارت تصف أجنحتها، أي تفل الجناح، ومثل ما يقال: يصفون في الصف، يصفون صفوفهم من المسجد أي متلاصقين. إذا طار الطائر يمد جناحه، فتجد ريش الجناح مصفوف بعضها على بعض، هذا معناه قد صفت أجنحتها في الطيران.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سحابًا﴾ يزجي أي: يسوقه بهدوء، والإزجاء دفع الشيء بهدوء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾؛ أي بعضه فوق بعض متراكم، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾؛ الودق: المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾؛ فيعمل وسطه ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ﴾؛ السنا: الضوء.

٤٩- ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ أي مُقِرِّين خاضعين.

٥٣- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا﴾ وتمَّ الكلام. ثم قال: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ أراد: هي طاعة معروفة.

وفي هذا الكلام حذفٌ للإيجاز، يُستدلُّ بظاهره عليه. كأن القوم كانوا يُنافِقون ويَحلِفون في الظاهر على ما يُضمرون خلافَه؛ فقيل لهم: "لا تُقسموا؛ هي طاعةٌ معروفة، صحيحةٌ لا نفاق فيها؛ لا طاعةٌ فيها نفاقٌ".

وبعض النحويين يقولون: الضَّميرُ فيها: "لِتكنْ منكم طاعةٌ معروفة".

٥٤- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول.

﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ.

﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من القبول. أي ليس عليه ألا تقبلوا.

٥٨- ﴿لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يعني: العبيدَ والإماءَ.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ يعني: الأطفالَ؛ (ثَلاثَ مَرَّاتٍ).

ثم بيَّنهن، فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ يريد: عند النوم.

ثم قال: ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ يريد هذه الأوقات، لأنها أوقاتُ التَّجرُّد وظهورِ العورة:

فأمَّا قبلَ صلاة الفجر، فللخروجِ من ثياب النوم، ولُبسِ ثياب النهار.

وأمَّا عند الظهيرةُ فلوضعِ الثياب للقائلة.

وأمَّا بعدَ صلاة العشاء، فلوضعِ الثياب للنوم.

ثم قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد هذه الأوقات.

ثم قال: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ ؛ يريد: أنهم خدمُكم، فلا بأس أن يدخلوا في غير هذه الأوقات الثلاثة، بغير إذن. قال الله عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ أي يَطُوفون عليهم في الخدمة. وقال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- في الهِرَّة: "ليستْ بنجِسٍ؛ إنَّما هي من الطَّوَّافِينَ عليكم والطَّوَّافاتِ" جعَلَها بمنزلة العبيد والإماء.

٥٩- ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ في كل وقت.

﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الرجال.

٦٠- ﴿وَالْقَوَاعِدُ﴾ يعني: العُجْزَ. واحدها: قاعدٌ.

ويقال: "إنما قيل لها قاعدٌ: لقعودها عن المحيض والولد".

وقد تقعد عن المحيض والولد: ومثلُها يرجو النكاح، أي يطمعُ فيه.

ولا أراها سميتْ قاعدًا، إلا بالقعود. لأنها إذا أَسَنَّتْ: عجزتْ عن التَّصرُّفِ وكثرة الحركة، وأطالت القعودَ؛ فقيل لها: "قاعدٌ" بلا هاء؛ ليُدلَّ بحذف الهاء على أنه قعودُ كبَرٍ. كما قالوا: "امرأةٌ حاملٌ" بلا هاء؛ ليُدلَّ بحذف الهاء على أنه حمل حَبَلٍ. وقالوا في غير ذلك: قاعدةٌ في بيتها، وحاملةٌ على ظهرها.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ يعني: الرِّداءَ.

﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ فلا يُلْقِينَ الرِّداءَ.

﴿خَيْرٌ لَهُنَّ﴾ والعربُ تقول: "امرأةٌ واضعٌ": إذا كبِرتْ فوضعتْ الخِمار. ولا يكون هذا إلا في الهِرمة.

الشرح

قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾؛ أي مقرين خاضعين مسرعين، إذا كان الحق لهم يأتوا إليه، إذا الحق ليس لهم لا يأتون.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾؛ أي الكلام، هذا يسمونه الوصل والفصل، عِلم الوصل والفصل علم مهم جدًا في قراءة القرآن وفهم الآيات، كيف أن هذه الآية انتهت أو بقيت. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي المنافقون ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قوة الأيمان؛ أيمان مغلظة ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ أي للجهاد ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا حاجة للقسم، ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أراد هذه الطاعة -الجهاد- هي طاعة معروفة، أي يقول هذا الخروج للجهاد طاعة لا يحتاج القسم لخروجهم، وهذا منفصل ليس متصلًا بما قبله.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ تولوا: أعرضوا، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ -أي الرسول- ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ والرسالة، ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من القبول.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾؛ هذا استئذان خاص، عندنا استئذان عام واستئذان خاص؛ الاستئذان العام: أي شخص بالغ قد بلغ سن التكليف لا يجوز له أن يدخل على النساء الأجانب، لا يجوز مهما كانت الحالة، ولو أذنت له، أولًا لسببين: السبب الأول أنها متكشفة لم تتحجب (قد تكون متحجبة)، السبب الثاني أنه خلوة، إياكم والدخول على النساء، فلا يجوز الدخول إلا بمحرم إذا وجد المحرم جالس أو مجموعة نساء، وسن التكليف هو البلوغ.

إذا كان دون التكليف نقول له يجوز الدخول إلا في أوقات ثلاثة أوقات حرجة؛ بعد صلاة العشاء، أو قبل الفجر، أو وقت الظهيرة؛ لأن هذه خلوات، خلوات الرجال مع النساء في البيوت، فلا يجوز لهم الدخول. أما عن كيفية دخولهم فنقول: كانوا في السابق بيوتهم الأبواب عليها ستور قماش أو لا عليها شيء أحيانًا مفتوحة، أو الأبواب مغلقة وتدفعها بقوة وتدخل، فكان الصغار يدخلون بسرعة والغلمان والمماليك الخدم يدخلون البيت. ولذلك عمر رضي الله عنه كان نائمًا وقت الظهيرة، وتعرف الإنسان إذا أراد أن ينام يلبس ملابس

النوم لا ينام بملابس الذي يخرج بها، فكان نائمًا فدخل أحد الصبيان وقد تكشف عمر، فقال عمر لرسول الله ﷺ: «لو منعتم هؤلاء الصبيان للدخول في هذه الأوقات الحرجة الثلاثة»، فنزلت الآية مؤيدة لرأي عمر؛ هذه يسمونها العلماء "موافقات عمر"، موافقات القرآن لرأي عمر، وافقه. قال عمر مرة: «يا رسول الله لو تتخذ مقام إبراهيم مصلى» فنزلت الآية. قال مرة في موقف لما مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول: «كيف تصلي على منافق؟ لا تصل عليه»، فقال رسول الله ﷺ: «سأصلي عليه»، فصلى النبي ﷺ فجاءت الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾، هذه يسمونها موافقات عمر. أسرى بدر؛ قال عمر لما استشار النبي ﷺ الصحابة، استشار عمر وأبا بكر، قال أبو بكر: «هم أبناء عمنا ولعلنا نفك أسرهم ويؤمنون ويدخلون في الإسلام»، قال عمر: «السيف يا رسول الله، هؤلاء أخرجونا من ديارنا وقتلونا وحاربونا نجازيهم بالسيف قطع الرؤوس»، فنزل القرآن مؤيدًا لرأي عمر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾. أكثر من خمسة عشر موقفًا من مواقف عمر يأتي القرآن يؤيده؛ هنا الاستئذان، قال: يا رسول الله لا يدخلون هؤلاء، فجاء القرآن مؤيدًا له.

يقول تعالى: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ المماليك، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ الصغار الأطفال، ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ما هي؟ قال: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾. وقوله في الظهر ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ﴾ أي إذا وضعتم، لأن المرء أحيانًا ينام وأحيانًا لا ينام – ما يسمونه القيلولة–، أما قبل الفجر وقبل العشاء؛ لأن هذه غالبًا الأصل أنه يخلع ثيابه، قال سبحانه: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾، سماها عورات لأنه غالبًا يكون متكشفًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ يقول في غير الأوقات هذه يمكن للصغير والغلمان الخدّام للبيت أن يدخلوا، وهذه الآية إذا أردنا أن نطبقها في وقتنا الحاضر إذا كان الرجل أو الأب في غرفة لا يجوز لأحد الأبناء أن يفتح الباب ويدخل هكذا، لا بد أن يطرق الباب، أو الأم في غرفة، وكذلك

أيضًا الأبناء والبنات؛ إذا كان الابن في غرفة وقد أغلق الباب على نفسه لا تفتح الباب، قد يكون في حالة لا يريد أن يراه أحد، أو البنت كذلك، أو كان نائمًا لا تفتح الباب مباشر حتى لو كان الأب والأم لا يفتحان الباب إلا أن يطرقا الباب للاستئذان، فإذا أذن له قال "تفضل ادخل" دخل؛ لأن الباب هذا بمنزلة البيت، فلا يجوز الدخول في مثل هذه الحالة حتى لو في أي مكان، لو كنت في فندق وأنت تسكن في غرفة وصاحبك في غرفة لا تفتح الباب مباشر تدخل عليه، استأذن، وهكذا في جميع الأحوال، إلا إذا كان الباب مفتوحًا؛ فتح الباب دليل على أنه يأذن لكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ أي الخدم والأطفال يطوفون يخدمونكم في البيت، وهذا فيه دلالة على أن الأطفال الصغار ينبغي أن يُعلموا بالقيام بخدمة البيت وتدربهم على الأعمال، لذلك قال الله عز وجل: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾ يعني يطوفون عليكم في كل الوقت. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أصبحوا في حكم الرجال فلا يدخلون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ القواعد جمع قاعد، ولا يُقال قاعدة لأن هذا خاص بالنساء مثل ما يقال طالق وحائض، سُمِّيت قاعد لأنها قعدت عن الحمل والولادة أو عن الحيض، قال قاعد بلا هاء لأنها خاصة، يقال امرأة حامل ما تقول حاملة لأنه خاص بالنساء. ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾؛ لا يرغب في زواجهن لكبر سنهن، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾، قال الثياب يعني الرداء أي الحجاب؛ إذا كانت المرأة الكبيرة في السن التي ليس فيها جمال الشابات والفتيات، كبرت بالسن قد علاها الشيب واختلف شكلها بكبر السن؛ الله عز وجل يقول لا مانع في أنها تكشف. هذا لو فهمناه نستفيد منه أن غير القاعد مطلوب منها أنها تتحجب، الشابة جميلة الحسنة الخلقة لا يجوز لها أن تكشف أمام الرجال، يجب عليها أن تغطي وجهها وأن تتحجب عن الرجال، والجمال في الوجه؛ ومن قال أن الحجاب تغطية الرأس ويجوز كشف الوجه والكفين؛ فنقول هذا لا دليل عليه، الله سبحانه منعها للفتنة؛ لأن الرجال يفتنون بالنساء

في وجوههن والجمال في الوجه، فإذا كانت تتجمل في وجهها بالكحل والخضاب ثم تخرج أمام الرجال فهذه فتنة، والأدلة كثيرة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: 53]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 59]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 31]. وقوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ليس استثناء الوجه والكفين، بل ما يظهر بغير اختيارها بسبب مثلًا الهواء يكشف شيئًا من ملابسها أو شيء من قدميها أو يديها، هذا يظهر بغير اختيارها، ولذلك ما قال "إلا ما أظهرته"، لو قال "إلا ما أظهرته" قلنا كشف الوجه، قال ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾؛ دل على أنه بغير اختيارها، لو انكشف الوجه أو ظهرت اليدين بسبب الرياح ليس عليها حرج.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾، قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ﴾ أي لو تتغطى أفضل؛ مع أنها كبيرة أرشدها الله إلى الغطاء أفضل لها حتى لو كانت كبيرة؛ لأنه قد يفتن بها، قد يأتي من يُفتن بها ولو كانت كبيرة.

٦١- ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ في مؤاكلة الناس. وكذلك الباقون: وإن اختلفوا فكان فيهم الرَّغيبُ والزَّهيد. وقد بينت هذا في كتاب "المشكل"، واختلافَ المفسرين فيه.

﴿وَلا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ يريد: من أموال نسائكم ومَن ضَمَّتْهُ منازلُكم.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ يعني: بيوت العبيد. لأن السيد يملك منزل عبده.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ أي مُجْتَمِعِين.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي مُفترِقين. وكان المسلمون يتحرَّجون من مؤاكلة أهل الضُّرِّ -: خوفًا من أن يَستأثِرُوا عليهم - ومن الاجتماع على الطعام: لاختلاف الناس في مأكلهم، وزيادةِ بعضهم على بعض. فوسَّع الله عليهم.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قال ابن عباس: "أراد المساجد، إذا دخلتَها فقل: السلامُ علينا وعلى عباد الله الصالحين".

وقال الحسن: "ليُسلِّم بعضكم على بعض. كما قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ .

٦٢- ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يريد يوم الجمعة، ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ لم يقوموا إلا بإذْنه.

ويقال: بل نزل هذا في حفر الخندق؛ وكان قوم يَتَسَلَّلُون منه بلا إذن.

٦٣- ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ يعني: فخِّموه وشرِّفوه، وقولوا: يا رسول الله، ويا نبيَّ الله، ونحوَ هذا. ولا تقولوا: يا محمدُ، كما يدعو بعضكم بعضًا بالأسماء.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ أي من يَسْتَتِرُ بصاحبه في اسْتِلالِهِ، ويخرجُ. ويقال: لاذ فلان بفلان؛ [إذا استترَ به].

و"اللِّوَاذُ": مصدر "لاوَذْتُ به"، فعْل اثنين. ولو كان مصدرًا لـ "لُذْتُ" لكان "لِيَاذًا". هذا قول الفرَّاء.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾؛ ليس على هؤلاء حرج في الأكل ومؤاكلة الناس، خص الله تعالى هؤلاء الثلاثة: لأن الأعمى أحيانًا الناس يتحرجون منه لأنه إذا جاء عند الأطعمة تجد يده تدور في الصفحة تدور في الطعام فيكرهونه الناس، فقال الله عز وجل ليس عليه جناح يأكل معكم دعوه يأكل، والأعرج لأن جلوسه يأخذ مكانًا واسعًا أحيانًا فيتضايق الناس منه فيقول ليس عليه حرج، ولا على المريض حرج الناس أيضًا لا يرغبون فيه يخشون من مرضه ولا يرغبون أن يجالسوه، فقال الله عز وجل كل هؤلاء يدخلون ويجالسون ويأكلون.

قال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾؛ يعني بيوت العبيد أو السيد، أو الأب مع أبنائه أحيانًا يكون معه مفتاح البيت، فيدخل يأكل لا مانع. ثم قال ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي تأكلون جميعًا على مائدة واحدة أو متفرقين، كل ذلك جائز، لكن الأكل على صحن واحد وعلى طعام واحد أفضل وأعظم بركة، الطعام الواحد أبرك، فجاء أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، قال: «فلعلكم تفترقون؟» قالوا: نعم، قال: «فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه» الأكل متفرقين جائز لكنه أقل بركة.

يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾؛ يقول هنا المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ البيوت المراد بها المساجد، وقيل البيوت: هي البيوت وهذا هو الصحيح إن المراد بها البيوت، إذا دخلت بيتك ولو لم يكن فيه أحد سلم على نفسك ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أو سلموا على الحاضرين الموجودين، فالسنة إذا دخلت بيتك فتحت الباب ودخلت أن تقول السلام عليكم أو دخلت غرفتك أو نحو ذلك أن تسلم، طردًا للشياطين وإحضار للملائكة، وترد عليك الملائكة أحيانًا، تقول بسم الله وتقول السلام إذا دخلت بيتك أن تقول بسم الله تأتي بدعاء الدخول. تحتمل "على أنفسكم" تسلم على نفسك إذا لم يجد أحدًا، أو "على أنفسكم" يعني على من هم موجودون مثل ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11] أي لا تلمزوا غيركم، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾

[النساء: 29] لا تقتلوا غيركم؛ يحتمل أنك لا تقتل نفسك ولا تقتل غيرك. وفي البقرة أي نعم ﴿لَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾ [البقرة: 84] أي يخرج بعضكم بعضًا.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾؛ يعني اجتماع في جمعة أو في غير جمعة، لا يذهب إلا بإذنه.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾؛ أفخموه وشرفوه، لا تقل يا محمد وإنما تقول يا رسول الله، ولذلك القرآن الكريم القرآن كلام الله ما فيه نداء للرسول كذا يا محمد ما في، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: 67]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ [المائدة: 41]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [الأحزاب: 45]، لا يوجد نداء للرسول باسمه، مع أن الله نادى أكثر الأنبياء ﴿يَا نُوحُ﴾ ناداه ﴿يَا مُوسَىٰ﴾، أما محمد ﷺ لعلو مقامه لا ينادى باسمه، لا يقال يا محمد يا محمد، ولا يقوله حتى البشر حتى الصحابة أو غير الصحابة ما يقولون يا محمد إلا إذا كان لم يدخل في الإسلام أو جاهلًا، جاء مثل بعض الأعراب جاءوا إلى الرسول قالوا يا محمد، جاء أعرابي على ناقته فلما دخل المسجد قال: "أين محمد فيكم؟" هذا يدل على أن النبي ﷺ كان يجلس مع أصحابه بتواضع لا يعرف من بينهم، فيسأل "أين محمد فيكم؟" فيقول "محمد هكذا"، ما قال رسول الله، حتى رفع الصوت لا يُرفع الصوت عند مناداته.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾؛ تسلل أي لواذًا أي: يسترون ويخرجون بغير أحد بغير علم. اللواذ مصدر لاذ يلوذ؛ إذا اختفيت. قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ مخالفة النبي ﷺ قد تكون سببًا في الفتنة أو العذاب الأليم.

سورة الفرقان

مكية كلها

١- ﴿تَبَارَكَ﴾ من البرَكة.

٣- و (النُّشُورُ): الحياةُ بعد الموت.

﴿افْتَرَاهُ﴾ تَخَرَّصَه.

١٢- ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: تغيظًا عليهم. كذلك قال المفسرون.

وقال قوم: "بل يسمعون فيها تَغَيُّظَ المعذبين وزفيرَهم". واعتبروا ذلك بقول الله جل ثناؤه: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ واعتَبر الأوَّلون قولَهم، بقوله تعالى في سورة الملك: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وهذا أشْبَهُ التفسيرَين -إن شاء الله- بما أريد؛ لأنه قال سبحانه: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾؛ ولم يقل: سمعوا فيها، ولا منها.

١٣- ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: بالهَلَكة. كما يقول القائل: واهَلاكاه!.

١٨- ﴿نَسُوا الذِّكْرَ﴾ يعني: القرآنَ.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي هَلْكى، وهو من "بَارَ يَبُور": إذا هلَك وبطَل. يقال: بار الطعامُ، إذا كَسَد. وبارت الأيّمُ: إذا لم يُرغبْ فيها. وكان رسول الله -صلى الله عليه- يتعوَّذُ بالله من بَوَار الأيِّم.

قال أبو عبيدة: "يقال: رجل بُورٌ، [ورجُلان بُورٌ]، وقوم بور. ولا يجمع ولا يثنى". واحتج بقول الشاعر:

يا رسولَ المَلِيكِ! إنَّ لِساني ❊❊❊ راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ

وقد سمعنا [هم يقولون]: رجل بائرٌ. ورأيناهم ربما جمعوا "فاعِلا" على "فُعْلٍ"، نحو عائذٍ وعُوذٍ، وشارِفٍ وشُرْفٍ.

١٩- ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا﴾ قال يُونُس: الصَّرفُ: الحيلةُ من قولهم: إنه لَيَتَصرَّف [أي يحتال].

فأما قولهم: "ما يُقبَل منه صَرْفٌ ولا عدْلٌ"؛ فيقال إن العدل الفَرِيضةُ، والصرفَ النافلةُ. سميتْ صرفًا: لأنها زيادةٌ على الواجب.

وقال أبو إدريسَ الخَولانِيُّ "مَن طلبَ صَرْف الحديث -يبتغي به إقْبالَ وجُوه الناس إليه - لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ".

أي طلب تحسينه بالزيادة فيه.

وفي رواية أبي صالح: "الصَّرْف: الدِّيةُ. والعَدْلُ: رجلٌ مثلُه" كأنه يُراد: لا يُقبلُ منه أن يفتديَ برجل مثله وعدلِه، ولا أن يَصرفَ عن نفسه بديةٍ.

ومنه قيل: صَيْرَفِيٌّ، وصرَفتُ الدراهمَ بدنانير. لأنك تصرفُ هذا إلى هذا.

﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ أي يكفرْ.

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ يعني: الشريفَ للوضيع، والوضيعَ للشريف.

٢١- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يخافون.

٢٢- ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي: حرامًا محرَّمًا أن تكون لهم بُشْرَى.

وإنما قيل للحرام حِجْرٌ: لأنه حُجِرَ عليه بالتحريم. يقال: حَجَرتُ حُجْرًا. واسمُ ما حجرتَ عليه: حِجْرٌ.

٢٣- ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عَمَدْنا إليه.

﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ وأصل "الهباء المنثور": ما رأيته في الكُوَّة، مثلَ الغُبار، من الشمس. واحدها: هَبَاءة.

و "الهباء المُنْبَثُّ": ما سطع من سنابك الخيل. وهو من "الهَبْوَة". والهبوةُ: الغبار.

٢٥- ﴿تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ أي تتشقق عن الغمام. وهو: سحابٌ أبيضُ، فيما يُذْكر.

٢٧- ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا﴾ أي سببًا ووُصْلةً.

٣٠- ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ هجروا فيه، أي: جعلوه كالهذَيان. والهُجْر الاسم. يقال: فلان يَهْجُر في منامه، أي: يَهْذِي.

٣٨- ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ والرسُّ: المَعْدِن. قال الجعديُّ:

تَنَابِلَةٌ يَحْفِرُونَ الرِّسَاسَا

أي آبارَ المعدن. وكلُّ رَكِيَّة تُطْوَى فهي: رسٌّ.

٣٩- ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلَكْنا ودمَّرْنا.

٤٣- ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ يقول: يتَّبع هواه ويَدَعُ الحقَّ، فهو له كالإله.

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾ أي كَفِيلا. وقيل: حافظًا.

٤٥- ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ وامتدادُه: ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي مستقِرًّا دائمًا لا تَنْسَخُهُ الشمس.

٤٦- ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي خفيًّا. كذلك هو في بعض اللغات.

٤٧- ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي سِترًا.

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحةً. وأصل السُّبَات: التمدُّدُ. وقد بينت هذا في كتاب "المشكل".

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي ينتشِرُون فيه.

٥٠- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني المطرَ: يَسقي أرضًا، ويتركُ أرضًا.

٥٢- ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ أي بالقرآن.

٥٣- ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي خَلاهما. يقال: مَرَج السلطانُ الناسَ؛ إذا خَلاهم. ويقال: أَمْرَجَ الدابةَ؛ إذا رعاها.

و (الْفُرَاتُ) العذْبُ.

و (الأجَاجُ) أشدُّ المياه ملوحةً. وقيل: هو الذي يُخالطُه مرارة. ويقال: ماءٌ مِلحٌ؛ ولا يقال: مالحٌ.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي حاجزا -وكذلك الحَجْز والحِجَاز-: لئلا يختلطا.

٥٤- ﴿خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ يعني من النُّطْفة.

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا﴾ يعني: قَرَابةَ النَّسب.

﴿وَصِهْرًا﴾ يعني: قرابةَ النكاح.

٥٥- ﴿ظَهِيرًا﴾ أي عونًا.

٦٢- ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي يَخْلُفُ هذا هذا. قال زهير:

بها الْعِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ❊❊❊ وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

"الآرَامُ ":الظِّبَاءُ البيض. والآرام: الأعلام. واحده: أَرِمٌ. أي إذا ذهب فَوْجُ الوحش، جاء فوجٌ.

٦٣- ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ أي عبيدُ الرحمن. نسبَهم إليه -والناسُ جميعًا عبيدُه-: [لاصطفائه] إيَّاهم. كما يقال: "بيت الله" -والبيوتُ كلُّها لله- و "ناقةُ اللَّهِ".

﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي مشيًا رُوَيْدًا.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ أي سَدَادًا من القول: لا رَفَثَ فيه، ولا هُجْرَ.

٦٥- ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ أي هَلَكةً.

٦٨- ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي عقوبةً. قال الشاعر:

[عَقُوقًا] والعُقُوقُ له أَثامُ

أي عقوبة.

٧٢- ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ لم يَخُوضُوا فيه، وأكرَمُوا أنفسَهم عنه.

٧٣- ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي لم يتغافلوا عنها: فكأنهم صمٌّ لم يسمعُوها، عميٌ لم يَرَوْها.

٧٧- ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ مفسر في كتاب "المشكل".

الشرح

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾؛ افتتحت بهذا اللفظ "تبارك" سورتان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: 1] و﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾. معنى (تبارك) نقول: من البركة، والبركة هي الخير الكثير. هل يجوز للإنسان أن يقول: "يا فلان أنت تباركت علينا"؟ لا لأن هذه من خصائص الله، صيغة (تبارك) خاصة بالله، تبارك وتعالى وتعاظم كلها ألفاظ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده، فلا تقول: "تعاليت يا فلان" لأن هذه من خصائص الله. أما المخلوق فممكن نسميه رجلًا مباركًا؛ والاسم موجود عندنا كثيرًا؛ (مبارك)، هذا مستعمل وجائز. وأنت تقول: "هذا اليوم يوم مبارك، وهذا الدرس درس مبارك، وكتاب مبارك"، هذا جائز. وكذلك يجوز أن تقول: "حلّت البركة علينا" أو "حصلت البركة من الله علينا بحضورك"، فهذا جائز؛ أما (تبارك) فـ(تبارك الله) فقط.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿نُشُورًا﴾؛ النشور هو الإحياء بعد الموت، يَنْشُرُه يعني يحييه، ﴿ثُمَّ نُنْشِرُهَا﴾ [البقرة: 259] يعني نحييها. وقوله ﷻ: ﴿افْتِرَاءً﴾؛ أي تخرّصه، والافتراء هو الكذب والتخرّص.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾؛ تغيظًا أي: هي تغيظ عليهم؛ تريد الانتقام وتغضب عليهم. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بل يسمعون فيها تَغَيُّظَ المعذبين وزفيرَهم" هذا قول بعض المفسرين؛ أي تغيّض أهل النار وزفيهم (المُعَذّبين)، واعتبروا ذلك بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: 106]، هذا وجه محتمل، لكن المتبادر أن النار يُسمَع لها تغيظ وزفير؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: 8] أي الانتقام والغضب عليهم. الزفير هو دفع الهواء من الرئتين (يزفر)، والشهيق هو سحب الهواء (يشهق)؛ فالنار شبهها الله ﷻ بأنها مثل ما تسحب الهواء ثم تدفعه بقوة –هواء النار الحار الحميم– تسحبه وتدفعه بقوة، فإذا زفرت زفرة واحدة؛ يكاد يهلك من أمامها، هذا المقصود. ويشبهونه أيضًا بصوت الحمير، فإن صوت الحمار له زفير وشهيق. وهنا استنباط جميل: نقول نحن إن التغيظ والزفير من النار؛ لأن الله قال: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾، ولو قال: "سمعوا فيها" لكان دليلًا على أنه من أهل النار.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، الثبور هو الهلاك. ﴿نَسُوا الذِّكْرَ﴾؛ أي القرآن، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾؛ أي هلكًا.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾؛ الصرف الحيلة، إنه ليتصرف يعني يحتال، ولا يقبل منه صرف ولا عدل؛ العدل الفريضة، والصرف النافلة (وسميت صرفًا لأنها زيادة على الواجب)، أي لا يستطيعون نصرهم ولا صرفهم. وقيل الصرف الدية: "الصَّرْف: الدِّيةُ. والعَدْلُ: رجلٌ مثلُه" كأنه يُراد: لا يُقبلُ منه أن يفتديَ برجل مثله وعدلِه، ولا أن يَصرفَ عن نفسه بديةٍ".

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾؛ أي يكفر. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾؛ أي: الشريف للوضيع، والوضيع للشريف، والوضيع هو الرجل الأقل مكانة، والشريف هو الأعلى مكانًا، فهذا يفتن بهذا، وهذا يفتن بهذا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ أي لا يخافون اللقاء، لأن (يرجو) تأتي بمعنى يخاف. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي حرامًا محرمًا، أي ألا تكون لهم البشرى. ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، من القائل؟ قيل: الملائكة، وقيل: أهل النار؛ (حجرًا محجورًا) لأنه حرام محرم، حُجر عليهم بالتحريم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾؛ أي: عمدنا إلى هذا العمل فجعلناه هباءً منثورًا. والهباء هو ما يُرى في الشباك والكوة والنافذة في الشمس، ترى الهباء المنثور يتطاير؛ هذا هو الهباء المنثور، وهو الهباء المنبث.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾؛ تشقّق أصلها (تتشقق)، والغمام هو سحاب أبيض فيما يذكر. قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾؛ أي سببًا ووصلًا واتصالًا. ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾؛ هجروه، أي جعلوه كالهذيان؛ والهُجْر -بالضم- الاسم، يقال: "فلان يهجر في منامه" أي يهذي. وهذا معنى أي: أنه جعل القرآن يقرؤه كالهذيان لا يستفيد منه ولا يفهمه. أو يقال: الهَجْر هو الترك، وهذا هو المتبادر؛ هجر القرآن يعني عدم قراءته، وتركه، وعدم العمل به. ولذلك يقولون: من مر عليه أربعون يومًا ولم يختم القرآن عُدَّ من الهاجرين؛ فلا يجوز للمسلم أن يمر عليه أربعون يومًا (شهر وعشرة أيام) وهو لم يختم ولا ختمة واحدة، فهذا من هجران القرآن. السلف كان ختمهم كل ثلاثة أيام، أو كل سبعة أيام، وعلى الأقل عشرة أيام أو أسبوعين أو شهر. كان ابن مسعود يختم في كل جمعة؛ تأتي الجمعة

الثانية فيختم، وهو السنة (السنة سبعة أيام وعلى الأقل ثلاثة أيام). لكن أن يترك القرآن يمر شهران أو ثلاثة شهور أو أربعة شهور، وبعضهم من رمضان إلى رمضان ما ختم ولا ختمة، فهذا من الهجران.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾؛ من هم؟ قيل: الرَّس هو المعدن، وقيل: هي آبار المعدن، وقيل: هي ركيّة (أي بئر)؛ فالرس هو البئر. وقيل: إنهم سموا أصحاب الرس لأنهم أتوا إلى نبي لهم فأخذوه وألقوه في بئر ورصّوا عليه التراب، والله أعلم. وأصحاب الرس لم يذكرهم الله بالتفصيل، وإنما ذكرهم في موضعين في القرآن الكريم: في سورة الفرقان وفي سورة قاف.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾؛ أي أهلكنا إهلاكًا. ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾؛ يتبع هواه ويدع الحق فهو كالإله، أي اتخذ هواه إلهًا، وجعل هواه معبودًا من دون الله (وهذا الأصل فيه تقديم وتأخير).
قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؛ أي كفيلًا حافظًا.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾؛ امتداده ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، هذا هو الظل. فالظل إذا بدأ النهار وطلع (صلاة الفجر)، يبدأ النهار يظهر والليل يذهب؛ هذا نسميه ظلًا إلى أن تطلع الشمس؛ فإذا طلعت الشمس انتهى الظل، ثم يأتي ظل آخر؛ الفَيْء، ويسمونه فيئًا وهو ظل الشمس، كظل الشخص لما تأتي الشمس على الجدار ترى خلف الجدار ظلًا، هذا ظل لا يبقى، ويسمى فيئًا لأنه يرجع، فإذا استرفعت الشمس ذهب. وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ مستقرًا لا تنسخه الشمس، لكن إذا جاءت الشمس ذهبت به، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يعني خفيًا شيئًا فشيئًا.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أي سترًا، ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾؛ أي راحة. ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾؛ أي ينتشرون فيه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي المطر، صرفناه بينهم؛ يسقي أرضًا دون أرض. ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾؛ أي بالقرآن. ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾؛ أي بحر الملح وبحر العذب. وهذا اكتُشف الآن في الإعجاز العلمي؛ أنك لو أتيت بعلبة ماء عذبة وصببتها في البحر لم يختلط، ﴿جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي حاجزًا قد لا يرى، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حاجزًا حصينًا بحيث لا يختلط، وهذه قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيها مصالح عظيمة؛ فلو أن الماء العذب الذي يأتي من الأنهار -مثل نهر دجلة والفرات- ويصب في الخليج أو في البحر المالح اختلط به، لماتت حيوانات البحر لأنها تعيش على المالح، ولما انتُفع به، فمن حكمة الله عز وجل أنه لا يختلط.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾؛ أي نطفة، ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ النسب والصهر؛ ما الفرق بينهما؟ النسب للذكور، والصهر للإناث. أي الرجل يكون عنده ذكر وأنثى؛ فالذكر يُنسب إليه (نسب)، والأنثى إذا تزوجها رجل أصبح هذا الرجل صهرًا له لأنه أخذ ابنته؛ فالولد إذا تزوج يكون هذا نسبًا، والزوج يكون صهرًا (قرابة الصهر وقرابة النسب).

معنى ﴿ظَهِيرًا﴾؛ عونًا. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ قال: يخلف بعضه بعضًا، هذا يأتي وهذا يذهب. وفي قراءة أخرى (خَلْفَةً)؛ أي النهار خلف الليل.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾؛ الإضافة هنا للتشريف؛ مثل ما يقال: (بيت الله) و(ناقة الله). قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ يعني بهدوء، أي مشيًا رويدًا. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؛ قالوا سدادًا. وما معنى سلامًا؟ إما يحتمل أنك تسكت إذا خاطبك جاهل فسبّك وشتمك، وإما أن ترد بأحسن فتقول: "عفا الله عنك، سامحك الله"؛ هذا هو قول السلام.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ غرامًا أي ملازمًا لهم، والمؤلف يقول: هلكًا (أي يهلكهم)، أو غرامًا ملازمًا لهم كما يلازم الغريم غريمه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾؛ عقوبة، يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والعُقُوقُ له أَثامُ" والآثام هو العقوبة. ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾؛ لم يخوضوا فيه وأكرموا أنفسهم، أي إذا مروا باللغو مروا كرامًا فلم يتكلموا ولم يخوضوا فيه وأكرموا أنفسهم. ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ أي لم يتغافلوا عنها فكأنهم صم لم يسمعوها أو عمي لم يروها، بل إذا خروا سجدًا يخرون وهم يسمعون ويرون؛ يعني يتأملون ويتدبرون ويفهمون.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾؛ فُسِّر هذا في كتاب "المشكل"؛ (ما يعبأ) يعني ما يلتفت إليكم، ولا يأبه بكم، ولا يعتبركم شيئًا. ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾؛ أي لولا أنكم آمنتم ودعوتموه ما عبأ بكم ولا التفت إليكم. ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؛ يقول: سيكون العذاب لازمًا لكم.

سورة الشعراء

مكية كلها إلا خمس آيات من آخرها

٧- ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل جنس حَسَن.

١٤- ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ﴾ أي عندي ذنبٌ.

١٦- ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرسول يكون بمعنى الجميع، كما يكون الضيفُ. قال: ﴿هَؤُلاءِ ضَيْفِي﴾ وكذلك الطفلُ؛ قال: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا﴾ وقال أبو عبيدة: "رسولٌ بمعنى: رسالة". وأنشد:

لَقَدْ كَذَبَ الواشُونَ; ما بُحْتُ عندَهمْ *** بِسِرٍّ, ولا أرسَلْتُهمْ برَسولِ

أي: برسالة.

١٩- ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ للنِّعمة.

٢٠- ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ قال أبو عبيدةَ "يعني من الناسِين". واستَشْهد بقوله عز وجل في موضع آخرَ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أي تَنْسَى، ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾.

٢٢- ﴿عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اتَّخذتَهم عبيدًا.

٣٦- ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي أخِّره وأخاه.

٥٠- ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ﴾ هي من "ضَارَه يَضُوره ويَضِيره" بمعنى: ضَرَّه. وقد قرئ بها: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾؛ يعني: لا يَضُرُّكم شيئًا.

٥٤- ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ أي طائفة.

٦٠- ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ﴾ لَحِقُوهم.

﴿مُشْرِقِينَ﴾ مُصْبِحين حين شَرَقت الشمس، أي طَلَعتْ. يقال: أَشْرَقْنا؛ أي دخلنا في الشُّروق. كما يقال: أمْسَيْنا وأصْبَحْنا؛ إذا دخلنا في المَساء والصَّباح. ومنه قول العرب في الجاهلية: "أَشْرِقْ ثَبِيرُ، كَيْما نُغِيرَ". أي ادخُلْ في شروق الشمس.

٦٣- و (الطَّوْد) الجَبَل.

٦٤- ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ قال الحسن: أهلَكْنا.

وقال غيره: جَمَعْنا. أراد: جمعناهم في البحر حتى غَرِقوا. قال: ومنه قيل: "ليلةُ المُزْدَلِفَة" أي ليلة الازْدِلاف، وهو الاجتماع. ولذلك قيل للموضع: "جَمْعٌ".

ويقال: ﴿أَزْلَفْنَا﴾ قَدَّمْنا وقرَّبْنا. ومنه "أَزْلَفَك الله" أي قَرَّبك. ويقال أزلَفَني كذا عند فلان؛ أي قَرَّبَنِي منه منظرًا. و "الزُّلَفُ": المَنازل والمَراقي؛ لأنها تَدْنوا بالمسافر والراقي والنازل.

وإلى هذا ذهب قَتادةُ فقال: قَرَّبهم الله من البحر حتى أغرقهم فيه، ومنه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي أُدْنِيَتْ.

وكلُّ هذه التأويلات متقاربةٌ يرجعُ بعضها إلى بعض.

٨٩- ﴿إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي خالصٍ من الشِّرْك.

٩٤- ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي أُلقُوا على رءوسهم. وأصل الحرف: "كُبِّبُوا" من قولك: كَبَبتُ الإناء. فأبدَلَ من الباء الوسطى كافًا: استثقالا لاجتماع ثلاث باءات. كما قالوا: "كُمْكِمُوا" من "الكُمَّة" - وهي: القَلَنْسُوَة- والأصل: "كُمِّمُوا".

١١٨- ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ أي احكم بيني وبينهم واقض. ومنه قيل للقاضي: الفَتَّاحُ.

١١٩- و ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ المملوء. يقال: شَحَنْتُ الإناء، إذا ملأته.

١٢٨- (الرِّيعُ) الارتفاعُ من الأرض. جمع "رِيعَة". قال ذو الرُّمَّة يصف بازِيًا:

طِرَاقُ الْخَوَافِي مُشْرِفًا فَوْقَ رِيعَةٍ *** نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَتَرَقْرَقُ

والرِّيع أيضًا: الطريقُ. قال المُسَيَّبُ بن عَلَسٍ -وذكر ظُعُنًا-:

فِي الآلِ يَخْفِضُهَا ويَرْفَعُها *** رِيعٌ يلُوحُ كأنَّه سَحْلُ

و "السَّحْلُ": الثوب الأبيض. شَبَّه الطريق به.

والآيَةُ: العَلَم.

١٢٩- و (المَصَانِعُ) البناء. واحدها: "مَصْنَعَة".

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كيْما تَخْلُدوا. وكأن المعنى: أنهم كانوا يَسْتَوْثِقُون في البناء والحصون، ويذهبون إلى أنها تُحَصِّنُهُم من أقدار الله عز وجل.

١٣٠- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ يقول إذا ضَرَبْتُم: ضَرَبْتُم بالسياط ضَرْب الجبَّارين، وإذا عاقبتُم قتلتُم.

١٣٧- (إِنْ هَذَا إِلا خَلْقُ الأَوَّلِينَ) أراد: اخْتلاقَهم وكذبهم. يقال: خَلَقْتُ الحديثَ واخْتَلَقْتُهُ؛ إذا افْتَعَلْتُهُ. قال الفرَّاء: "والعربُ تقول للخُرافات: أحاديثُ الخَلْق".

ومن قرأ: ﴿إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ أراد: عَادتهم وشأنَهم.

١٤٨- ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ والهضيمُ: الطَّلْع قبل أن تَنْشَقَّ عنه القشور وتَنْفتح. يريد: أنه منضمٌ مُكتَنز. ومنه قيل: أهضَمُ الكَشْحَيْن، إذا كان مُنْضَمَّهما.

١٤٩- ﴿فَارِهِينَ﴾ أَشِرين بَطِرين. ويقال: الهاء فيه مبدلة من حاء، أي فَرِحِينَ. و"الفرحُ" قد يكون: السرورَ، ويكون: الأشَرَ. ومنه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي الأَشِرين.

ومن قرأ: (فَارِهِينَ) فهي لغة أخرى. يقال: فَرِهٌ وفارِهٌ، كما يقال: فَرِحٌ وفارِحٌ.

ويقال: (فَارِهِينَ) حاذِقين.

١٥٣- ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من المُعَلَّلين بالطعام والشراب. يريدون: إنَّما أنت بشرٌ. وقد تقدم ذكر هذا.

١٥٥- ﴿لَهَا شِرْبٌ﴾ أي حظٌّ من الماء.

١٦٨- ﴿مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي من المُبْغِضين. يقال: قَلَيْتُ الرجلَ، أي أبغضته.

١٧٦- ﴿الأَيْكَةِ﴾ الغَيْضَةُ. وجمعها: "أيْكٌ".

١٨٤- (الْجِبِلَّةَ): الخَلْق. يقال: جُبِلَ فلانٌ على كذا وكذا؛ أي خُلِق. قال الشاعر:

والموتُ أعظمُ حادثٍ *** مِمَّا يَمُرُّ على الجِبِلَّةْ

١٨٧- (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا) أي قطعةً.

﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ يقال: كِسْفٌ وكِسْفةٌ، كما يقال: قِطْعٌ وقِطْعةٌ. و "كِسَفٌ" جمع "كِسْفَة"، كما يقال: قِطَعٌ [جمع قطعة].

١٩٧- ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي علامةً.

١٩٨- ﴿عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾ يقال: رجلٌ أعجمُ، إذا كانت في لسانه عُجْمَةٌ، ولو كان عربيَّ النَّسبِ، ورجلٌ أعجميٌّ: إذا كان من العَجَم، وإن كان فصيحَ اللسان.

٢٠٠- ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ يعني: التكذيب، أدخلناه ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾

٢١٢- ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي عن الاستماع بالرَّجْم.

٢٢٣- وقوله: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي يَسْتَرِقُونه.

٢٢٤- ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ قوم يتَّبعونهم يَتَحَفَّظون سبَّ النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ويَرْوونه.

٢٢٥- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ أي في كل وادٍ من القول، وفي كل مذهب.

﴿يَهِيمُونَ﴾ يذهبون كما يذهب الهائمُ على وجهه.

الشَّرحُ

سورة الشعراء يقول المؤلف: هي مكية كلها إلا خمس آيات من آخرها. يعني سورة الشعراء مكية نزلت في مكة، ومنها: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾؛ هذه قالوا إنها نزلت في المدينة، والله أعلم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ معنى (زوج كريم) أي النباتات التي أنبتها الله أزواج؛ يتلاقح بعضها مع بعض، أزواج أو أصناف، نقول: أصناف؛ لأن الأزواج معناها أصناف. ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي من كل صنف، وهذا الصنف كريم، ومعنى كريم أي: حسن، من كل زوج كريم؛ أي: من كل جنس حسن؛ أزواج من نبات شتى، أزواج يعني أصناف، من نبات شتى يختلف. كريم معناه حسن، وأصل كلمة الكريم تطلق على الشيء الجميل، وتطلق أيضًا على الشيء الذي يعطيك؛ تقول: "فلان كريم"

يعني عطاؤه كثير، فالنبات يعطيك الكثير؛ فهو منطبق عليه، وجميل حسن. ولذلك قالت النسوة: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31] يعني جميل حسن، يصفن جمال يوسف عليه السلام؛ جماله جمال فائق. هذا معنى كلمة كريم في القرآن إذا وُصف بها النبات، نستفيد منها معنيين: المعنى الأول أن النبات حسن جميل منظره، والمعنى الثاني أن عطاءه كثير.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ الذنب أنه قتل قتلًا خطًا، (عليَّ ذنب) أي عندي ذنب. قال: لَمّا قال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾، فأرسل الله عز وجل قال: "اذهبا" اثنين. قالوا لما وصلوا إلى فرعون في سورة طه، قالوا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47] بالتثنية، وفي سورة الشعراء ما قال (رسولا)، قال: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. نقول: المراد به الجنس، أو المراد به المصدر؛ والمصدر يطلق على الواحد والاثنين والجماعة. أو أنه المتكلم (موسى) فتمثل كلمة رسول موسى عليه السلام. يقول: الرسول هنا يكون بمعنى الجميع والواحد، كما يكون الضيف؛ تقول: "هؤلاء ضيفي"، ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] ، فهذا مصدر. وكذلك الطفل مصدر: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي أطفالًا. وقال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة؛ ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ يعني رسالة. وكما قال الشاعر: (لقد كذب الواشون ما بحتَ عندهم... بسرٍّ ولا أرسلتهم برسولِ)؛ أي برسالة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ يقول فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، يعني تكفر النعمة؛ لأننا أنعمنا عليك وربيناك صغيرًا، ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، وكفرت هذه النعمة؛ فكلمة (كافرين) هنا يعني جاحدين النعمة.

قال موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾؛ الضلال يطلق بمعنى ضد الهدى، تقول: "هذا مهتدي وهذا ضال". والضلال يطلق أيضًا بمعنى التيه؛ تقول: "ضلّ الطريق" يعني تاه في الطريق. ويطلق

بمعنى الناسي؛ قال هنا: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي من الناسين؛ كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: 282] أي تنسى، فعرفنا أن (تضل) يعني تنسى. وفي قول أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8] ليس الضلال هنا ضد الهدى، وإنما معناه مثل ما ذكرنا؛ إما نسيان، وإما أن يكون معناه التيه وعدم التذكر.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ يعني جعلتهم عبيدًا تستخدمهم. قالوا: ﴿أَرْجِهْ﴾؛ أي أخره وأعطه وقتًا. قالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾؛ السحرة قالوا لفرعون افعل ما تفعل ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾، ﴿لَا ضَيْرَ﴾ يعني ما يضرنا، يقال: ضاره يضيره ويدوره بمعنى ضره. وقد قرئ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120]، (لا يضِرْكم)؛ قرأ نافع والبصريان (أبو عمرو ويعقوب البصري العاشر).

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾؛ يعني جماعة قليلة. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾؛ لحقوهم مشرقين، أمن جهة الشرق أم من شروق الشمس؟ البحر الأحمر جهة الشرق من مصر، فموسى عليه السلام اتجه شرقًا وفرعون اتجه شرقًا وهو يتبعه. و(مشرقين) يعني في الوقت؛ لأنه بعد طلوع الشمس. نقول كلاهما معنى صحيح؛ (مشرقين) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: أَشْرَقْنا؛ أي دخلنا في الشُّروق. كما يقال: أمْسَيْنا وأصْبَحْنا؛ إذا دخلنا في المَساء والصَّباح".

معنى ﴿كَالطَّوْدِ﴾؛ كالجبل العظيم. ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾؛ (ثَمّ) بمعنى هناك، والذين أزلفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هم فرعون ومن معه. قال: أنجينا موسى، وأزلفنا الآخرين؛ أي قربهم؛ لما دخل موسى عليه السلام في البحر ومن معه بعد أن ضرب البحر وخرج، الله عز وجل أوحى إليه قال: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: 24]؛ اتركه على ما هو عليه ساكنًا، لأنه يزلفهم ويقربهم حتى يدخلون، فإذا دخلوا أُغلق عليهم.

أزلفنا: قربناهم وجمعناهم كلهم، ومنه (مزدلفة) لأنها تجمع الحجاج في مكان واحد. يقول: جمعناهم، ومنها ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق: 31] أي قربت وأدنيت.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾؛ هذا من كلام إبراهيم عليه السلام، قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: خالص من الشرك. ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾؛ أي ألقوا على رؤوسهم، (كبكبوا) منه: كببتُ الماء إذا ألقيته من أعلى إلى أسفل (تكب الماء). فكُبكبوا يعني ألقوا على رؤوسهم في نار جهنم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾؛ هذا من نوح عليه السلام يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: افتح بيني وبين قومي؛ يعني احكم بيننا واقضِ بيننا، والقاضي يسمى فتاحًا لأنه يحكم. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾؛ السفينة المملوءة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾؛ نزلت في قوم عاد، ريع جمع ريعة وتعني: المكان المرتفع بين الجبلين، حتى في مكة الآن موجود: (ريع بخش) و(ريع الحجون)، الطريق بين جبلين عاليين يسمى ريعًا. ومعنى ﴿بِكُلِّ رِيعٍ تَعْبَثُونَ﴾ قالوا إنهم كانوا قومًا مستكبرين متكبرين ومتغطرسين ومسرفين على أنفسهم، فكان من شدة إسرافهم يبنون بكل ريع ويضعون منازل عالية مثل الأبراج؛ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ قيل إنهم يضعون خيامًا أو أعمدة بيوت من شدة قوتهم وإسرافهم. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾؛ قال: المصانع برك الماء يجمعون فيها الماء، ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ يقول: أنتم تضعون برك مياه تظنون أن المياه هذه تمدكم في الأعمار؟ ما تمدكم، (لعلكم تخلدون) يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " أي كيْما تَخْلُدوا. وكأن المعنى: أنهم كانوا يَسْتَوْثِقُون في البناء والحصون، ويذهبون إلى أنها تُحَصِّنُهُم من أقدار الله عز وجل." ويظنون أن هذه الحصون

والمياه تعطيهم مدة أطول. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾؛ إذا ضربتم ضربتم بقوة من شدة قوتهم في السياط وغيره.

لما دعاهم قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني اختلاقهم وكذبهم. وفي قراءة: (إِنْ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الأَوَّلِينَ)؛ خُلُق وخَلْق، يعني عادة الأولين وشأنهم، وخَلْق معناها اختلاق وكذب؛ أي هذا كله من الأولين ونحن ماشون على هذا الطريق.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾؛ الهضيم الطلع قبل أن تنشق عنه القشور وتنفتح، يريد أنه منضم ومكتنز، ومنه قيل: "أهضم الكشحين" إذا كان منضمًا. هذا معنى ذكر المؤلف لـ (طلعها هضيم) أنها قبل أن تنشق تكون مكتنزة ومنضمًا بعضها إلى بعض في الكافور؛ إذا طلع من النخل يكون ملتفًا بعضه على بعض. وقد يكون -والله أعلم- أن (هضيم) تعني سهل الهضم؛ فالتمر الآن (النخل أول ما يخرج البلح البسر الأصفر أو الأحمر ثم بعد ذلك يتحول إلى تمر)، فالتمرة إذا اكتملت أخذتها هضيمًا يعني سهلة التناول والأكل والمضغ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ وفي قراءة (فَرِهِينَ)؛ الفَرَه معناه الأشر والبطر، يعني الاستكبار والتكبر، أو بمعنى فرحين. ﴿تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾؛ يتخذون من الجبال بيوتًا وينحتونها. أتى رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالقراءتين؛ (فرهين) متكبرين، و(فارهين) حاذقين؛ يعني شغل فيه حذق وفيه مهارة.

قالوا له: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾؛ هذه تحتمل معنيين؛ (المسحَّر) يعني من السحر أي مصاب بالسحر (مسحور)، أو مصاب بمرض شديد في الرئة (السَّحْر)؛ فالسَّحْر هو ما بين سحره ونحره، والسَّحْر قريب من الصدر. يقال هذا فلان مسحور أو مسحَّر؛ أي مصاب بمرض. قالوا هنا: من المعلَّلين بالطعام والشراب، يريدون: إنما أنت بشر هذا معناه، أو مثل ما ذكرنا من السَّحْر.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ (لها شرب) يعني لها يوم ولكم يوم، لها حظ من الماء ولكم حظ.

قال لوط عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾؛ (من القالين) يعني من المبغضين، (قَلَى) بمعنى أبغض.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ الأيكة تعني: الغيضة، والأيكة هي الشجرة الملتفة الكبيرة تسمى أيكة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾؛ قال: الأمم الماضية والخلق الأول. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي قطعًا من السماء، يعني عذابًا من السماء.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي هذا القرآن، أولم يكن لهم علامة تدل على أنه من عند الله؟ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾؛ الأعجمي: هو رجل أعجم أي في لسانه عجمة، أي لا ينطق بالعربية وليس بفصيح.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي التكذيب. في سورة الحجر قال: ﴿نَسْلُكُهُ﴾، وهنا قال: ﴿سَلَكْنَاهُ﴾؛ كلاهما بنفس المعنى، فعل ماضٍ وفعل مضارع. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؛ الشياطين أي معزولون عن الاستماع بالرجم، لا يستطيعون الاستماع، ولو سمعوا شيئًا خُطف الخطف، لكنهم معزولون؛ يلقون السمع ويسترقونه ويلقونه بعضهم على بعض.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾؛ هل الشعراء يتبعهم الغاوون كلهم؟ حسان رضي الله عنه شاعر، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه شاعر، نقول: الغالب؛ الغالب أن الشعراء يقولون ما لا يفعلون. ولذلك

في قصة بني أمية؛ أحد أمراء بني أمية دخل عليه رجل شاعر وكان يتكلم ويتغزل بامرأة، وقال: "فعلتُ وفعلتُ وفعلتُ كذا" في غزل، أي وصل إلى آخر مبلغ مع المرأة، والمرأة معروفة عنده. فقال الأمير: "ائتوا به واجلدوه؛ فقد فعل الفاحشة فيقام عليه فيها الحد"، فرد عليه الشاعر وقال: "اسمع كلام الله ماذا يقول عن الشعراء: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾"، فقال الأمير: "قد عفوت عنك"؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون في الغالب. و ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي من يتعب هؤلاء الشعراء هم الغاوون، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوم يتَّبعونهم يَتَحَفَّظون سبَّ النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ويَرْوونه." أي يسبون النبي ﷺ ويروونه بأشعار، كانوا شعراء في الجاهلية يقصدون ويشعرون في سب النبي ﷺ، فهذا مقصود والله أعلم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾؛ المراد بالوادي هنا ليست الأودية التي بين الشعاب والجبال، بل هو وادٍ معنوي؛ (في كل وادٍ) أي في كل مجال يهيمون، في كل مكان وفي كل مذهب يذهبون ويدخلون فيه، (يهيمون) أي يذهبون فيه كالهائم على وجهه، والهائم هو الذي لا يدري أين يذهب، فهم يقولون أشياء لا يدرونها.

سورة النمل

مكية كلها

٦- ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ أي: يُلْقَى عليك فتَلَقَّاه أنت، أي تأخذُه.

٧- (الشِّهَابُ) النارُ. والشهاب: الكوكب؛ في موضع آخر.

و (القَبَسُ) النارُ تُقْبَسُ. يقال: قَبَستُ النار قبْسًا. واسم ما قبَست: "قَبَسٌ".

١٠ - (الْجَانُّ) الحَيَّة التي ليست بعظيمة.

﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ لم يرجع. ويقال: لم يلتفت يقال: كَرَّ على القوم وما عَقَّب.

ويرى أهل النظر: أنه مأخوذ من "العَقِب".

١٠-١١- ﴿يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلا مَنْ ظَلَمَ﴾ مفسَّرٌ في كتاب "تأويل المشكل".

١٢- ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ أي هذه الآيةُ مع تسع آيات.

١٦- ﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ قال قتادة: النملُ من الطير.

١٧ - ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يدفعون. وأصل "الوَزْع": الكفُّ والمنعُ. يقال: وزَعتُ الرجل؛ إذا كففته. و "وازِعُ الجيش" هو الذي يكفُّهم عن التفرُّق، ويردُّ من شذَّ منهم.

١٩- وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهِمْني. وأصل "الإيزَاع": الإغراء بالشيء. يقال: أوْزَعْتُه بكذا، أي أغريتُه به. وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا. ومنه قول أبي ذُؤَيْب في الكلاب:

أُولَى سَوَابِقِها قَرِيبًا تُوزَعُ

أي تُغْرَى بالصيد.

٢١- ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقال: نتْفُ الرِّيش.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بعُذرٍ بَيِّنٍ.

٢٣- ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي سرير.

٢٥- ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي المستَتِرَ فيهما.

وهو من "خبَأْتُ الشيءَ": إذا أخفيته. وقالوا: "خبْءُ السماء: المطر. وخَبْءُ الأرض: النباتُ".

٢٩- ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ أي شريفٌ: بشرف صاحبِه. ويقال: بالخاتِم.

٣١- ﴿أَلا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ من "العُلوِّ": أي لا تتكبَّروا.

٣٧- ﴿لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي لا طاقة.

٣٩- ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي شديدٌ وثيقٌ وأصله: "عِفْرٌ" زيدتْ التاء فيه. يقال: عِفْرِيتٌ نِفْرِيتٌ، وعِفْرِيَةٌ ونِفْرِيَةٌ، وعُفَارِيَةٌ ولم يُسمع بـ"نُفَارِيَة".

﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي من مجلسك الذي قعدت فيه للحكم.

قال الله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أي في مجلس. ويقال للمجلس: مَقَامٌ ومقامةٌ. وقال في موضع آخر: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي في مجلسٍ.

٤٠- وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ قيل في تفسير أبي صالح: "قبل أن يأتيك الشيءُ من مَدِّ البصر" ويقال: بل أراد قبْل أن تَطْرِفَ.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ أي رأى العرش.

٤١- ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غيِّروه. يقال نَكَّرْتُ الشيء فتَنكَّر، أي غيَّرتُه فتغيَّر.

٤٤- (الصَّرْح) القصر. وجمعه: "صُروحٌ". ومنه قول الهُذَلِي:

تَحْسَبُ أَعْلامَهُنَّ الصُّروحَا

ويقال "الصَّرحُ: بلاطٌ اتُّخِذ لها من قَواريرَ، وجُعل تحته ماء وسمكٌ".

و (المُمَرَّدُ) الأمْلس. يقال: مَرَّدْتُ الشيءَ؛ إذا بَلَّطته وأمْلسته. ومن ذلك "الأمْرَدُ": الذي لا شعرَ على وجهه.

ويقال للرملة التي لا تُنْبِتُ: "مَرْدَاءُ".

ويقال: الممرَّدُ المطوَّل. ومنه قيل لبعض الحصون: "مارِدٌ". ويقال في مَثَل "تَمَرَّدَ مارِدٌ، وعَزَّ الأبْلَقُ". وهما حِصْنان.

٤٧- ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أي تَطَيَّرنا وتشاءَمْنا بك. فأدغَمَ التاء في الطاء، وأثبَتَ الألف: ليسلمَ السكونُ لما بعدها.

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي ليس ذلك مني، وإنَّما هو من الله.

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تُبْتَلُون.

٤٩- ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي تحالَفُوا بالله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنهلكنهم ليلا،

(ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلَكَ أَهْلِهِ) مُهْلَكَهُم.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي لنقولن له [ذلك] وإنا لصادقون.

٦٠- (الحَدَائِقُ) البساتينُ. واحدها: "حَدِيقَةٌ". سميت بذلك: لأنه يُحْدَقُ عليها، أي يُحْظَرُ [عليها حائطٌ]. ومنه قيل: حَدَّقْتُ بالقوم؛ إذا أحطت بهم.

﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ ذاتَ حُسن.

٦٥- ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ مَتَى يُبعثون.

٦٦- ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ أي تَدَارَك ظنهم في الآخرة، وتَتَابَع بالقول والحَدْس.

﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ أي من عِلْمِها.

٧٢- ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ﴾ أي تَبِعَكم. واللام زائدة، كأنه "رَدِفَكم".

وقيل في التفسير: "دَنَا لكم".

٨٢- ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي وَجَبَتِ الحُجَّة.

٨٣- ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرهم.

٨٨- ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي واقفةً: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ﴾ تَسِيرُ سَيْرَ ﴿السَّحَابِ﴾ هذا إذا نُفِخ في الصُّورِ. يريد: أنها تُجْمَعُ وتُسَيَّرُ، فهي لكثرتها كأنها جامدةٌ: وهي تَسيرُ. وقد بينا هذا في كتاب "تأويل المشكل".

الشرح

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾؛ تلقى القرآن أي: يُلقى عليك فتتلقاه أنت؛ أي تأخذه من جبريل عليه السلام. يأخذه من جبريل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والآية تقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾؛ يعني من الله، فنقول: بالواسطة، يتلقى القرآن من الله عز وجل بواسطة جبريل؛ فإن الله يتكلم به فيسمعه جبريل، فينزل به فيلقيه على النبي ﷺ.

قال: ﴿بِشِهَابٍ﴾ في قصة موسى عليه السلام، الشهاب: النار، والشهاب يطلق أيضًا على الكوكب؛ ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10] هذا كوكب. وفي موضع آخر قال: ﴿بِقَبَسٍ﴾، وفي موضع آخر أيضًا: ﴿جَذْوَةٍ﴾؛ فالجذوة والقبس والشهاب هو أن تأخذ قطعة نار؛ يقال: قبستُ النار قبسًا، واسم ما قبستَ يسمى قَبَسًا؛ فالقبس قطعة من النار وشعلة تأخذها معك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾؛ العصا لما ألقاها كأنها جان. في سورة أخرى قال: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ في طه؛ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، ثم قال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: 19-20]. وفي سورة أخرى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 107]؛ الثعبان هو الذكر الكبير الضخم من هذه الدواب (من هذه الحيات)، والحية قالوا: هي الصغيرة أو الأنثى الصغيرة، والجان أصله من الجن. فكيف نجمع بينها؟ نقول -والله أعلم-: (الجان) هنا لسرعتها وخفتها؛ كأنها جان في الحركة.

ولما كان موسى عليه السلام عند جبل الطور وألقى عصاه فإذا هي حية، وهي صغيرة من الثعابين سريعة الجري. ولما جاء عند فرعون وألقاها انقلبت ثعبانًا؛ لأنه ضخم وذكر كبير، حتى لما جاء السحرة وألقوا حبالهم وعصيهم انقلبت ثعبانًا وبدأت تلقف ما صنعوا. قال المؤلف الجان: الحية التي ليست بعظيمة (يعني صغيرة) ولكنها سريعة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لما فر هاربًا خاف منها ولم يعقب؛ أي لم يرجع ولم يلتفت. يقال: "كرّ على القوم وما عقّب"، ويرى أهل النظر أنه مأخوذ من العَقِب؛ (لم يعقب) يعني لم يرجع إلى خلفه، والعقبة هي الرجوع إلى الخلف، والعَقِب أصله مؤخرة القدم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾؛ قال: هذا فسرناه في كتاب "المشكل". وكان قبل هذا إشكال؛ ما وجه الإشكال هنا؟ يقول: ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، لِمَ قال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾؟ يعني لكن من ظلم؛ يفسر لك يقول: قد يكون صاحب الظلم أو الذي عنده مظلمة سابقة يكون عنده خوف، لكن موسى عليه السلام إن قلنا مثلًا أنه ظلم فقد تاب بعده، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ فهذا لا عليه الخوف.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾؛ قال: أي هذه الآية مع تسع آيات، ذكر منها خمس آيات متتالية في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ [الأعراف: 133] خمس آيات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾؛ قال قتادة: النمل من الطير لأن النمل فيها -ترى بعض النمل يطير- ولكن الله أعلم أن الطير هنا المقصود به الطير المعروف مثل الهدهد وغيره. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ الوزع (يوزع) يعني يجمع أولهم على آخرهم، يجمعون في مكان واحد. وهو الذي يكفهم عن التفرق؛ يقال: "وزع

فلان الجيش" أي كفهم عن التفرق وجمعهم على بعض، ولذلك أهل النار في سورة فصلت قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾ [فصلت: 19-20] يعني يجمعون؛ يُجمع أولهم على آخرهم.

وقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ أوزعني أي ألهمني، من الإيزاع وهو إغراء الشيء؛ يقال: "أوزعته بكذا" أي أغريته به.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ ما هو العذاب الذي توعد به الهدهد؟ قال: ينتف ريشه، هذا عذاب بالنسبة له، وقيل: إنه يضعه في الشمس؛ ينتف ريشه ويجعله في الشمس. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ يعني بعذر بيّن.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾؛ العرش هو السرير، سرير الملك. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ يعني المختبئ والمستتر في السماوات والأرض، فيخرجه الله عز وجل؛ فخبء السماء قال: المطر، وخبء الأرض: النبات.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾؛ هذه الملكة، (كريم): شريف بشرف صاحبه، وقيل: إنه كتاب كريم لأن عليه ختم سليمان. ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾؛ من العلو، أي لا تتكبروا عليّ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ أي لا طاقة لهم بها. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾؛ العفريت هو الشديد القوي الوثيق، قال: أصلها (عَفَر) ثم زيد فيها الياء والتاء للمبالغة (العفريت)، يقال: "فلان تعفرتَ" إذا اشتد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؛ ما المراد بالمقام؟ قال: إن سليمان كان يجلس بعد الفجر حتى تشتد الشمس قبيل الظهر (يعني على الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ينتهي مقامه)، فقال له: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك هذا؛ مجلسك الذي أنت جالس فيه (ساعتين، أربع ساعات، خمس ساعات)، ما تقوم من مقامك إلا والعرش أمامك؛ هذا يقوله عفريت من الجن، لكن الآخر ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ قيل: الذي عنده علم من الكتاب هذا رجل صالح أعطاه الله كرامة، وبأنه في لحظة يأتي به، فجاء العرش بلحظة قبل أن يرتد إليه طرفه وإذا به أمامه، حتى إنه قيل إن الملكة لما أرادت الخروج -وهي لا تفارق قصرها أبدًا لا في الليل ولا في النهار- فلما خرجت أغلقت وأحكمت الأبواب وجعلت عليه حرسًا شديدًا على القصر، فجاء وأتى به إلى الشام؛ إذا أراد الله الشيء كان بلحظة، فرُفع العرش من مكانه من قصرها وجيء به في مسافة بعيدة (وهم كم يمكثون؟ يمكثون أشهرًا في قطع هذه المسافة)، وهو جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[الدخان:51]؛ أي في مجلس، ويقال للمجلس مقام، وهو أتى بكلمة ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ من سورة الدخان؛ فالمجلس الذي يجلس فيه الإنسان يسمى مقامًا، (مقام أمين).

قال بعدها: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؛ قيل في تفسير أبي صالح: قبل أن يأتيك الشيء من مد البصر، وقيل بل أراد: قبل أن تطرف عينك (يعني تتحرك). ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾؛ أي رأى العرش مستقرًا عنده. انظر كيف التواضع؛ يعني عنده جيوش وعنده ملك، وقبل ذلك رسالة ووحي ونبوة، ويتواضع أشد التواضع! قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾؛ خائف وهو لا يدري ما أُخفي عليه.

قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ أي غيّروه، يقال: "نكرتُ الشيء" فتنكّر أي تغيّر؛ (نكروا لها عرشها) أي غيّروه حتى إذا جاءت -لأن عندهم علمًا أنها ستأتي- إذا جاءت نقول: أهذا عرشك أم لا؟ نكروا لها، وهي

ذكية؛ قد أعطاها الله ذكاءً، فلما رأته ما استطاعت أن تنكر وما استطاعت أن تصدق؛ يعني كيف يأتي عرشها قبلها؟ ولا تستطيع أن تقول: لا، هذا ليس بعرشي؛ فهي تعرف عرشها الذي تجلس عليه، فلما رأته وفيه تغييرات، سُئِلت: أهذا عرشك يا بلقيس؟ قالت: (كأنه هو)، فجاءت بجواب محتمل؛ لأنها إن قالت هو فمعانه فهو (عرشها تعرفه)، وإن قالت لا، فلأنه يستحال يأتي بهذه اللحظة، فلذلك أتت بجواب يدل على ذكائها، حتى إيمانها يدل على ذكائها. انظر إلى فرعون؛ فرعون مصر جاءه موسى عليه السلام بالآيات وحاول معه، لكنه ظل متمسكًا ولم يتنازل حتى غرق، وهذا بسبب غبائه؛ فرعون كان غبيًا وهو الذي أهلك نفسه. لكن هذه المرأة عاقلة، وفي غالب النساء ليونة يتقبلن بسرعة، وفيها ذكاء؛ لما رأت أنه لا قدرة لها قالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، فقالت: لا، أنا أستسلم، فذهبت إليه وأسلمت.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾؛ يقول: الصرح البلاط، واتُّخذ لها من قوارير؛ يعني قصر الصرح هو المساحة أو الساحة التي تكون عند دخولك القصر، تمشي على أرض فضاء فهذا يسمى الصرح، والصرح أحيانًا يطلق على كل ما يكون عاليًا؛ ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا﴾. قيل: إن سليمان جعل تحته مثل البحر الواسع ثم غطّاه بزجاج والأسماك تتحرك تحتها، فالرائي له يراه ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾؛ يعني زجاج يلمع بشدة، الرائي له يظن أنه ماء، فقيل لها: ادخلي الصرح، فكشفت عن ساقيها ظنًا منها أنه ماء، قال: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ لا تظني أنه ماء بل هذا زجاج. وفيه دلالة على أن المرأة العاقلة تغطي ساقيها وتغطي ما لا يظهر عادة؛ ولذلك هي كشفت عن ساقها لأن الأصل أنه مغطى. قال: إنه صرح ممرد؛ يعني أملس، يقال للذي لا شعر له: "رجل أمرد"، وممرد، ويقال للشيطان: "مَريد"، والأرض المرداء هي التي لا تنبت؛ وهذا الصرح الممرد يعني أملس ناعم شديد النعومة وزجاجي يكشف ما تحته.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قصة صالح: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾؛ (اطيرنا) أصلها تطيرنا وتشاءمنا بك؛ لأنك لما جئتنا جئتنا بالمصائب فتشاءمنا بك. ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي المصائب التي أصابتكم هي من الله بسبب ذنوبكم، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تبتلون.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ هؤلاء الرهط (تسعة رهط في المدينة)، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه، واجتمعوا قالوا: إن صالحًا يأتي من هنا (من طريق هذا الجبل)، فإذا مر بالليل نجتمع عليه ونلقي عليه حجرًا وننهيه، ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾؛ فلما خطط تسعة الرهط واجتمعوا على أن يلقوا عليه وكانوا ينتظرون صالحًا ليأتي، الله مكر بهم فألقى عليهم حجرًا فماتوا. (تقاسموا بالله) أي تحالفوا، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي لنهلكنّه ليلًا، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ ما حضرنا ولا شهدنا مهلكهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقول.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ الحديقة هي البستان الواسع العظيم؛ لأنه يُحدِق به (أي تلف عليه الأشجار)، تحدق عليه مثل حدقة العين ملتفة، (ذات بهجة) أي ذات حسن.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي متى يبعثون. ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾؛ أي تدارك ظنهم في الآخرة وتتابع القول والحدث، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي من علمها. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾؛ أي تبعكم، والردف هو الرديف الذي يتبع الآخر.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾؛ فإذا وجب (قال: وجبت الحجة عليهم)، وهذا في آخر الزمان؛ دابة من الأرض وهي من علامات الساعة الكبرى يخرجها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. قيل: إنها تخرج من جوار الكعبة، وقيل: من مكة، وقيل: من أماكن أخرى. تخرج دابة عظيمة لا يعلم عظمها إلا الله، فتأتي إلى الناس وتكلمهم وتَسِمُهم وتميزهم؛ تبين المؤمن من الكافر فيُعرف هذا كافر

وهذا مؤمن، وهذا في آخر الزمان من علامات الساعة الكبرى. وقد ذُكرت بعض علامات الساعة الكبرى في القرآن: كالدابة، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها (في سورة الأنعام).

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ أن يُحبس أولهم على آخرهم كما ذكرنا. ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾؛ هذا يوم القيامة، ترى الجبال تظنها واقفة جامدة وهي تمر مرًا سريعًا، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: 3]، قال: هذا إذا نُفخ في الصور، يريد أنها تُجمع وتُسيّر، فهي لكثرتها كأنها جامدة وهي تسير وتذهب.

سورة القصص

٣- ﴿مِنْ نَبَإِ مُوسَى﴾ أي من خَبَرِه.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي فِرَقًا وأصْنافًا في الخدمة.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ يعني: بني إسرائيلَ.

٥- ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ للأرض.

٧- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ أي ألقَيْنا في قلبها. ومثله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾.

﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر.

٨- ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لم يلتقطوه في وقتهم ذاك لهذه العلةِ. وإِنَّما التقطوه: ليكونَ لهم ولدًا بالتَّبَنِّي؛ فكان عدوًّا وحُزْنًا فاختُصر الكلامُ.

١٠- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ قال أبو عبيدة: "فارغًا من الحزن لعلمها أنه لم يُقتل"؛ أو قال: لم يَغْرَق. وهذا من أعجب التفسير. كيف يكون فؤادُها من الحزن فارغًا في وقتها ذاك، واللهُ سبحانه يقول: ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ ؟! وهل يُربَطُ إلا على قلب

الجازع والمحزون؟! والعربُ تقول للخائف والجبان: "فؤاده هواء". لأنه لا يَعِي عزمًا ولا صبرًا. قال الله ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾. وقد خالفه المفسرون إلى الصواب فقالوا أصبح فارغًا من كل شيء إلا من أمر موسى؛ كأنها لم تهتمَّ بشيء -مما يهتم به الحيُّ- إلا أمْرَ ولدِها.

١١- ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ أي قُصِّي أثرَه واتَّبعيهِ.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أي عن بُعدٍ منها عنه وإعراضٍ: لئلا يَفْطُنوا لها. و"المجانبةُ" من هذا.

﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بها.

١٢- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ أي منعناه أن يرضع [منهن] و"المراضع": جمع "مُرْضِع".

﴿يَكْفُلُونَهُ﴾ أي يَضُمُّونه إليهم.

١٤- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قد تقدم ذكره.

﴿وَاسْتَوَى﴾ أي اسْتَحْكَم وانتهى شبابُه واستقرَّ: فلم تكن فيه زيادةٌ.

١٥- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ يقال: نصفُ النهار.

﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي من أصحابه. يعني: بني إسرائيلَ.

﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أي من أعدائه. و "العَدوُّ" يدل على الواحد، وعلى الجمع.

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أي لَكَزَهُ. يقال وَكَزْتُهُ ولَكَزْتُهُ [ونَكَزْتُهُ ونَهَزْتُهُ] ولَهَزْتُهُ؛ إذا دَفَعته.

﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي قتله. وكلُّ شيء فَرَغتَ منه: فقد قَضَيتَه، وقضيتَ عليه.

١٨- ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظرُ سوءًا ينالُه منهم.

﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي يستغيثُ به. يعني: الإسرائيليَّ.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ يجوز أن يكون هذا القولُ للإسرائيليّ. أي أغْوَيْتَنِي بالأمس حتى قتلتُ بنُصرتِك رجلا. ويجوز أن يكون لعدوِّهما.

﴿يَسْعَى﴾ أي يُسرِعُ [في مشيه].

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ﴾ يعني: الوُجوهَ من الناس والأشراف.

﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ قال أبو عبيدة: "يتشاورون فيك ليقتلوك". واحتَج بقول الشاعر:

أحارُ بنَ عمرٍو! كأنِّي خَمِرْ ❊❊❊ ويَعْدُو على المرءِ ما يَأْتَمِرْ

وهذا غلط بيّنٌ لمن تدبر، ومضادَّةٌ للمعنى. كيف يعدو على المرء ما شاور فيه، والمشاورةُ بركة وخير؟! وإنما أراد: يعدو عليه ما همّ به للناس من الشر. ومثله: قولهم: "مَن حفر حفرة وقع فيها".

وقوله: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ﴾ أي يَهِمُّون بك. يَدُلُّك على ذلك قولُ النَّمِر بن تَوْلَب:

اعْلَمَنْ أنْ كلَّ مُؤْتَمَرٍ *** مُخْطِئٌ في الرَّأي أحْيَانَا

فإذَا لم يصِبْ رَشَدًا *** كانَ بعضُ اللَّومِ ثُنْيَانَا

يعني: أن كل من ركب هواهُ وفعل ما فعل بغير مشاورة فلا بد من أن يخطئَ أحيانًا. فإذا لم يُصبْ رُشْدًا لامَهُ الناسُ مرتَيْن: مرةً لركوبه الأمرَ بغير مشاورة، ومرةً لغلطه.

ومما يدلك على ذلك أيضا قولُه عز وجل: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ لم يُرِد تَشاوَرُوا، وإنما أراد: هُمُّوا به، واعتَزِموا عليه. وقالوا في تفسيره: هو أن لا تُضِرّ المرأةُ بزوجها، ولا الزوجُ بالمرأة.

ولو أراد المعنى الذي ذهب إليه أبو عُبيدةَ، لكان أوْلَى به أن يقول: "إن الملأَ يَتآمَرُون فيك" أي يَسْتَأمِرُ بعضُهم بعضًا.

٢٢- ﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي تِجَاهَ مدينَ ونحوها. وأصله: "اللِّقاءُ". زيدتْ فيه التاءُ. قال الشاعر:

فالْيَوْمَ قَصَّرَ عن تِلْقَائِهِ الأَمَلُ

أي عن لقائه.

﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي قَصْدَه.

٢٣- ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ أي جماعةً.

﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي تكُفَّان غَنَمهما. وحُذِف "الغنمُ" اختصارًا.

وفي تفسير أبي صالح: "تحبسُ إحداهما الغنمَ على الأخرى".

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي ما أمرُكما؟ وما شأنُكما؟.

(يَصْدُرَ الرِّعَاءُ) أي يرجعَ الرعاءُ. ومن قرأ: ﴿يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ؛ أراد: يردَّ الرعاءُ أغنامَهم عن الماء.

٢٧- ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي تُجازيَني عن التَّزْويج، والأَجرُ من الله إنَّما هو: الجزاءُ على العمل.

٢٨- ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ قال المفسرون: لا سبيل عليَّ. والأصلُ من "التَّعدِّي"، وهو: الظلم. كأنه قال: أيَّ الأَجَلَيْنِ قضيتُ، فلا تعتدِ عليَّ بأن تُلزمَني أكثرَ منه.

٢٩- ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي قطعةٍ منها. ومثلها الجِذْمة وفي التفسير: "الجذوةُ عودٌ قد احترق".

٣٢- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ أي أدْخِلْ يدَك، يقال: سَلَكتُ يدي وأسلكتُها.

(الجَنَاحُ) الإبْطُ. والجَناح: اليد أيضا.

﴿الرَّهْبِ﴾ والرَّهَبُ [والرُّهْبُ] والرَّهْبةُ واحدٌ.

﴿بُرْهَانَانِ﴾ أي حُجَّتان.

٣٤- ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي مُعينًا. يقال: أردأْتُه على كذا، أي أعنْتُه.

٣٥- ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي حُجَّةً.

٣٨- ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي اصنعْ لي الآجُرَّ.

﴿فَاجْعَلْ لِي﴾ منه ﴿صَرْحًا﴾ أي قصرًا عاليًا.

٤٥- ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي مقيمًا. يقال: ثَوَيْتُ بالمكان؛ إذا أقمت به. ومنه قيل للضيف: الثَّوِيُّ.

٤٨- (سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا) أي تَعاوَنَا.

الشَّرحُ

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نبأ يعني خبر، في قوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾؛ والفرق بين النبأ والخبر، أن النبأ أدق عبارة من الخبر؛ لأن الأنباء لا تكون إلا في الأمور الجازمة القوية التي يحتاج الناس إليها، ولذلك سمي النبي نبيًا لأنه يخبر بأخبار لا يعرفها البشر. لو تتبعنا كلمة النبأ في القرآن لوجدنا أن هناك فرقًا بين النبأ والخبر؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: 1-2] ولم يقل عن الخبر، وقال: ﴿إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: 6].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾؛ فرعون جعلهم فرقًا وأصنافًا في الخدمة، ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيل.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾؛ المراد بالوحي هنا -مثل ما مر معنا- الإلهام؛ إلهام فطري ألقى الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قلبها أن تصنع هذا الصنيع؛ أن ترضعه ثم تضعه في اليم. ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي في البحر، فوضعته في تابوت كما ذكر الله عز وجل في سورة أخرى، ثم وضعته في البحر، والبحر أو اليم ألقاه على الشاطئ عند قصر فرعون؛ ﴿فَالْتَقَاطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أخذوه ثم فتحوا هذا التابوت فوجدوا فيه هذا الرضيع الصغير، فأتوا به إلى زوجة فرعون فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، ألقى الله في قلبها محبة هذا الطفل؛ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فمنعته من قتله ووضعته على صدرها ولا تريد أن تفارقه، وهو يحتاج إلى الطعام فبدأ يبكي بشدة، فبدأوا يبحثون عمن يرضعه فأتوا بالمراضع وأدخلوا النساء في قصر فرعون، فحرم الله المراضع جميعًا؛ لا يمكن لأي امرأة أن ترضعه، حرم الله عليه ذلك حتى لا ترضعه إلا أمه. قال هنا: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، فأتت أخته من بعيد حتى لا يشعروا بها وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾؛ أنا آتيكم به، فأتت بأمه فأرضعته، وقيل إنهم ذهبوا به إلى أمه، فلما أتى الطفل إلى أمه وأرضعته سكن ورضع ففرحوا بذلك وأرسلوا إليها الهدايا وأعطوها أجرتها. فانظر كيف الفرج! حفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لها ولدها ورزقها وصارت لها مكانة عندهم فقالوا: "تعالي عندنا"، فقالت: "لا، أنا أجلس في مكاني"، وبدأوا يكرمونها من أجل هذا الطفل؛ فكما قال الله عز وجل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾؛ لما أخذ اليم التابوت وذهب به قلقت أشد القلق، فأصبح فؤاد أم موسى فارغًا من كل شيء من كل الهموم؛ ما عاد عندها أي هم تهتم به لا في أكل ولا في شرب ولا في نوم، همها الوحيد هو: أين ذهب وكيف سيأتي؟ ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ يعني لولا أن الله ربط على قلبها لتحدثت به، ولكن الله ربط على قلبها فكتمت الأمر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾؛ يوسف عليه السلام قال الله عز وجل فيه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وهنا في موسى قال: ﴿أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾؛ زاد كلمة (استوى) لأن موسى عليه السلام

كانت فيه قوة، أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوة واستحكم في شبابه. قصته مع دخوله المدينة في وقت غفلة (وقت وسط النهار)، وجد رجلين: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ من جماعته من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ من الأقباط. فبنو إسرائيل استنصروا بموسى، فجاء موسى فوكزه؛ قالوا الوكز هو جمع أصابع يده وضربه بها يريد أن يدفع صدره، فسقط ميتًا. كانت قوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قوة شديدة وهو لا يريد قتله، فقتله خطًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ فإذا الذي استنصره بالأمس (الإسرائيلي) يستغيث به على رجل آخر (قبطي آخر). فالتفت إليه موسى وقال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ تريد أن تغويني؟ بالأمس قتلتُ واحدًا وتريد اليوم أن أقتل شخصًا آخر؟ المؤلف يقول هذا محتمل، ويحتمل أن يكون القول للقبطي؛ والله أعلم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾؛ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول ليس معناها يتشاورون، وإنما يقول: يهمون بقتلك. وهي متقاربة، لكن المؤلف كأنه يقول: لا، إن معنى يتشاورون بعيد هنا. لكن ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني تشاوروا، وفرعون يقول للملأ عنده: ﴿مَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي بم تشيرون؟

لما ذهب تجاه مدين وجد عليه أمة من الناس (جماعة)، ووجد من دونهم امرأتين تذودان (تكفان أغنامهما)، فقال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾؛ لا نختلط بالرجال، نحن ننتظر حتى يذهب الرجال فإذا ذهبوا سقينا أغنامنا ورجعنا، قالت حتى (يُصدِر) الرعاء أي يذهبوا، أو (يَصدُر) أي يرجعوا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾؛ هذه اتفاقية بين صاحب مدين (أبو البنتين) وبين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يزوجه ويعمل عنده ثماني أو عشر سنوات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾؛ الجذوة هي القطعة. ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾؛ يعني اطبخ الطين بالنار حتى يصبح آجُرًّا ثم ابنِ به صرحًا حتى يكون قويًا. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾؛ أي مقيمًا في مدين.

٥١- ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي أتْبَعنا بعضه بعضًا، فاتَّصل عندهم. يعني: القرآن.

٥٧- ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ أي ألم نُسْكِنْهُم إيَّاه ونجعله مكانًا لهم؟!.

٥٨- ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي أشِرَت. وكأن المعنى: أبْطَرَتْهَا معيشتُها. كما تقول: أَبْطَرَكَ مالُك، فَبَطِرتَ.

٥٩- ﴿فِي أُمِّهَا رَسُولا﴾ أي في أعظَمِها.

٦١- ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي محضَرِي النارِ.

٦٣- ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي وَجَبتْ عليهم الحُجةُ، فوجب العذابُ.

٦٦- ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ﴾ أي عَمُوا عنها -من شدة الهول يومئذٍ- فلم يُجيبوا. و"الأنباءُ": الحُججُ هاهنا.

٦٨- ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي يختارُ للرسالة.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي لا يُرسل اللَّهُ الرسلَ على اختيارهم.

٧١- (السَّرْمَدُ) الدائمُ.

٧٥- ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: أحضَرْنا رسولَهم المبعوث إليهم.

٧٦- ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ أي تميلُ بها العصبةُ -إذا حملتْها- من ثقلها. يقال: ناءتْ بالعُصبة، أي مالتْ بها. وأناءَت العصبةَ: أمَالَتْها. ونحوه في المعنى قوله: ﴿وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يُثْقِله حتى يَؤُودَه، أي يُميلَه.

و"العُصْبة": ما بين العشرة إلى الأربعين.

وفي تفسير أبي صالح: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ يعني: الكنز نفسه وقد تكون "المفاتحُ": مكان الخزائن. قال في موضع آخر: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي ما ملكتُموه: من المخزون. وقال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ نرى: أنها خزائنُه.

﴿لا تَفْرَحْ﴾ لا تأشَرْ، ولا تَبْطَرْ. قال الشاعر:

ولستُ بمِفْرَاحٍ إذا الدهرُ سَرَّني *** ولا جازعٍ من صَرْفه المُتَحَوِّلِ

أي لست بأَشِرٍ. فأمَّا السرورُ فليس بمكروه.

٧٧- ﴿وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي لا تترُك حظَّك منها.

٧٨- ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي لفضلٍ عندي. وروي في التفسير: أنه كان أَقْرأَ بني إسرائيلَ للتوراة.

﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ قال قتادة يدخُلُون النار بغير حساب. وقال غيره يُعْرَفون بسيمَاهم.

٨٠- ﴿وَلا يُلَقَّاهَا﴾ أي لا يُوَفَّقُ لها. ويقال: يُرزَقُها.

٨٢- ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ﴾ قال قتادةُ: هي "ألم تعلم! ". وقال أبو عبيدةَ: سبيلُها سبيلُ "أَلَمْ تَرَ؟ ".

وقد ذكرت الحرفَ والاختلاف فيه، في كتاب "تأويل المشكل".

٨٥- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي أوجب عليك العمل به. وقال بعض المفسرين أنزله عليك.

﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ قال مجاهد: يعني مكةَ. وفي تفسير أبي صالح: "أنَّ جبريل -عليه السلام- أتى رسول الله صلى الله عليه وسلمُ فقال: أتشتاقُ إلى مولِدِك ووطنِك، يعني: مكة؟ قال: نعم. فأنزل الله عز وجل هذه الآية: وهو فيما بين مكةَ والمدينةِ".

وقال الحسن والزُّهريُّ - أحدهما: "معادُه: يومُ القيامة"؛ والآخر: "معادُه: الجنة".

وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتُمُه.

الشَّرحُ

طيب، هذه إلى نهاية السورة. قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ أي أهل مكة، ﴿الْقَوْلَ﴾ أي القرآن؛ تتابع القرآن عليهم بدأ ينزل آيات آيات وسورًا سورًا حتى بلغهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾؛ أي نجعلهم يسكنون هذا الحرم الآمن الذي أمنهم الله فيه من كل خوف.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ قال معنى بطرت أي أشرت؛ التكبر والأشر والبطر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾؛ أي وجبت عليهم الحجة ووجب عليهم العذاب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ﴾؛ الأنباء أي: الحجج، ليس عندهم حجج يوم القيامة؛ لأنه قال: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ أي أحضرنا رسولهم، المراد بالشهيد الرسول.

وفي قصة قارون قال: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾؛ العصبة الجماعة، وتنوء يعني تثقل. المفاتِح غير المفاتيح، فالمفاتيح جمع مفتاح، والمفاتح جمع مفتح وهي الخزائن وخزائنه كثيرة؛ مثل ما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ [النور: 61] أي خزائنه، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59] أي خزائن الغيب، هذا هو الصحيح.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾؛ يقول على فضل عندي، وهذا من جحد النعمة وإنكارها؛ فما بك من نعمة فمن الله، كيف تقول هذا من عندي؟ بعضهم يجحد ويقول: "أنا لولا معرفتي وذكائي وحسن تصرفي لما حصل هذا"، وهذا يقع من بعض الناس؛ يقول لك: "أنا أفهم وأعرف ولولا أني فعلتُ كذا ما حصل كذا". حتى أحيانًا في بعض حوادث السيارات يقول لك: "لولا مهارة السائق لحصل كذا"، لا! لولا قدر الله ورحمته، كيف مهارة السائق؟! السائق ليس عنده مهارة لو شاء الله لكان كذا وكذا، فهذا أحيانًا يقدح في التوحيد؛ قول (لولا كذا لحصل كذا) كأنه يعارض القضاء والقدر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾، وفي آية قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، وفي آية قال: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ﴾. فمرة يقول يُسألون ومرة يقول لا يُسألون؛ فكيف نجمع؟ نقول: هذه مواضع يوم القيامة مختلفة؛ قد يُسأل في مكان وفي مكان لا يُسأل، أو يُسأل أناس دون أناس.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾؛ معنى ويكأن، نقول: هذا أسلوب من أساليب التعجب، إذا تعجبت من شيء تقول: ويكأن الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ قيل المعاد أنه سيعيدك يا محمد إلى مكة كما أخرجك منها قومك، فإن الله يعدك أن تعود إلى مكة منتصرًا عليهم، أو يُراد بالمعاد الجنة أو الآخرة، والله أعلم.

سورة العنكبوت

٢- ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ أي لا يُقْتَلُون و [لا] يعذَّبُون.

٣- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي ابتليناهم.

٥- ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي يخافُه.

١٢- ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي: دينَنا.

﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي: لِنحملْ عنكم ذنوبَكم. والواو زائدة.

١٣- ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أوْزارَهم.

﴿وَأَثْقَالا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ أوزارًا مع أوزارِهِم. قال قتادة: "من دعا قومًا إلى ضلالة، فعليه مثلُ أوزارِهم من غير أن ينْقُصَ من أوزارِهم شَيْءٌ".

١٤- ﴿الطُّوفَانُ﴾ المطر الشديد.

١٧- (الأَوْثَانُ) واحدها: وَثَنٌ. وهو: ما كان من حجارة أو جَصٍّ.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي: تَخْتَلِقُونَ كَذِبًا

٢١- ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: تُرَدُّون.

٢٢- ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: ولا من في السماء [بمعجزٍ].

٢٧- ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ بالولد الطَّيِّبِ، وحُسن الثناء عليه.

٢٩- ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ و"النادي": المجلسُ. و"المنكر" مَجْمَعُ الفواحش من القول والفعل. وقد اخْتُلِفَ في ذلك المنكرِ.

٤٠- ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني: الحجارةَ. وهي: الحَصْباءُ أيضا. يعني: قومَ لوطٍ.

٤٥- ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قالوا: المُصلِّي لا يكون في منكرٍ ولا فاحشةٍ ما دام فيها

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ يقول: ذِكرُ اللهِ العبدَ -ما كان في صلاته- أكبرُ من ذكرِ العبدِ للهِ.

ويقال: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي التسبيحُ والتكبيرُ أكبرُ وأحْرَى بأن يَنْهى عن الفحشاء والمنكر.

٤٨- ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ يقول: هم يجدُونك أُمِّيًّا في كتبهم فلو كنتَ تكتبُ لارْتابُوا.

٥٨- ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي لنُنزلَنَّهم.

ومن قرأ: (لَنُثْوِيَنَّهُمْ)، فهو من "ثَوَيْتُ بالمكان" أي أقمتُ به.

٦٠- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي كم من دابةٍ ﴿لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا ترفَعُ شيئًا لغدٍ؛ ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ قال ابن عُيَيْنَةَ:

"ليس شيءٌ يَخْبَأُ إلا الإنسانَ والنملةَ والفأْرةَ".

٦٤- ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ يعني: الجنةُ هي دارُ الحياة؛ أي لا موتَ فيها.

الشرح

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بداية سورة العنكبوت: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، أي: أيظن الإنسان أنه عندما يقول آمنت ودخلت في الإسلام لن تصيبه فتن؟! هذا لا يمكن، لا بد أن تصيبك فتن. قال: "لا يفتنون" أي: لا يقتلون ويعذبون؛ المؤلف يقول الفتنة هنا مراد بها فتنة القتل والعذاب، التعذيب والقتل، لأن الآية نزلت في مكة، والصحابة منهم من يُقتل ومنهم من يُعذب، فجاء القرآن يخاطبهم يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ فهذا معناه.

لكن انظر، المؤلف هنا قال: يقتلون ويعذبون؛ لأنه ذكر لك أعظم أنواع الفتن أو موافقة للسياق وموافقة لنزول الآية، لكن هنا قال: يفتنون يختبرون، يُختبر الإنسان هل هو صادق في إيمانه أو غير صادق؟ يُختبر بأي شيء؟ بالفتن والمحن عمومًا. الإنسان أحيانًا يصاب بمصيبة في زوجته، في نفسه، في ولده، في ماله، في بيته،

في كذا، الله يمتحنك، ليرى هل تصبر؟ بعض الناس يتسخط، بعض الناس يعبد الله على حرف، إن أصابه الخير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، بعضهم يخرج عن الإسلام، يقول: "أنا دخلت في الإسلام أظن أن الإسلام كله سعادة، لما أصبت بهذه المصائب لا، سأخرج!" فهذا امتحان يمتحنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هل هو صادق أو كاذب؟ هذا المقصود.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ابتليناهم. قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ قال المؤلف: يرجو يعني يخاف، الرجاء غير الخوف هذا هو الأصل، لكن قد يطلق بعضه على بعض، يطلق هذا على هذا، تقول: أرجو، يعني: أخاف. لِمَ؟ قال في الآية: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ يخاف بمعنى: أنه يخاف ثم يستعد.

وقال الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي: ديننا، ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي: لنحمل عنكم الذنوب. انظر كيف يمكرون؟ يقولون: "كونوا معنا واثبتوا معنا على ديننا نعبد الآلهة ولا نتبع دين الإسلام، ولو هناك خطايا أو شيء نحن نتحملها عنكم"، انظر كيف يبذلون أنفسهم! نتحملها عنكم. قال الله ردًا عليهم: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. ليحملن أثقالهم أي: أوزارهم، وأثقالًا مع أثقالهم أي: أوزارًا مع أوزارهم. قال قتادة: "من دعا قومًا إلى ضلالة، فعليه مثلُ أوزارِهم من غير أن ينْقُصَ من أوزارِهم شَيْءٌ"، نسأل الله العافية.

قول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ المراد بالطوفان الغرق، قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الطوفان المطر الشديد؛ لأنه يحيط بهم الماء.

قال "الأوثان"، الأوثان هذه في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، (أَوْثَانًا) جمع وثن وهو ما كان من حجارة أو جص. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تخلقون يعني: تختلقون، يعني توجدون شيئًا كذبًا، تختلقون الكذب.

قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ يعني إلى الله تردون وترجعون. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: ولا من في السماء، يعني لا أنتم تعجزون الذين في الأرض، ولا تعجزون الذين في السماء.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ الهاء في (أجره) عائدة إلى إبراهيم عليه السلام، قال: آتيناه أجره في الدنيا يعني بالولد الصالح الطيب وحسن الثناء عليه، ويثني الناس عليه، حتى المشركون في مكة يدعون أنهم ينتسبون إلى إبراهيم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ هذا لقوم لوط عليه السلام، النادي: المجلس، المكان الذي ينادون إليه فيجلسون فيه، مجالسهم في الطرقات أو داخل البيوت. المنكر هو: مجمع الفواحش من القول والفعل، وقد اختلف في ذلك المنكر، فهم يعملون أعمالًا غير فاحشة اللواط، يعملون أعمالًا سيئة وأقوالًا سيئة حتى في كلامهم كله منكر. ما هي الأعمال التي كانوا يعملونها أعمال قوم لوط؟ ذكر بعض المؤرخين كابن كثير وغيره، إنهم يأتون ببعض الحيوانات الذكور منها، يأتون بالذكور من الحيوانات مثلاً الثور والثور ويجعل هذا مقابل هذا تتناطح وتتضارب بقوة، ويأتون بالديك والديك حتى تتضارب بقوة، ويجلسون يضحكون عليهم، يعني إيذاء للحيوانات، وعندهم أعمال أخرى أيضًا سيئة، القرآن أبهمها لأنها لا تستحق الذكر.

لما جاء في العقوبات، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ حجارة وهي الحصباء أيضًا؛ يعني قوم لوط، عذبهم الله بالحجارة، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ الصيحة

لقوم ثمود، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ خسف الله بهم الأرض وأيضًا قارون، قارون خسفنا به وبداره، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ قوم نوح.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ قال: المصلي لا يكون في منكر ولا في فاحشة ما دام فيها؛ الصلاة الحقيقية التي يأتي الإنسان بها بخشوعها وتدبرها وفهمها، هذه تنهى عن الفحشاء والمنكر، أما الذي يصلي دون خشوع وتدبر فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ذكر الله العبد ما كان في صلاته، بمعنى: الله يذكرك، هذا كلام المؤلف، أن الله يذكر عبده في صلاته أكبر من كل شيء، قال: أكبر من ذكرك أنت أيها العبد لربك. ويقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ المراد به التسبيح والتكبير أكبر وأحرى بأن ينهى عن الفحشاء والمنكر، يعني كلمة ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ تحتمل أمرين: يعني أنت تصلي وتذكر الله في صلاتك، والله يذكرك في الملأ الأعلى أكبر من ذكرك أنت، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الحديث القدسي: «فإن ذَكَرَني في نَفسِه ذَكَرتُه في نَفسي، وإن ذَكَرَني في مَلَإٍ ذَكَرتُه في مَلَإٍ خَيرٍ منهم»، ويحتمل أن كلمة ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير أكبر في البعد عن الفاحشة، يعني ذكر الله أقوى وأحرى بأن ينهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر، ولذلك إذا وجدت شخصًا على منكر قلت له: "اذكر الله، اذكر الله لا تتكلم بالحرام، اذكر الله خير لك، ذكر الله أحسن من ذكرك الحرام".

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في بيان القرآن في محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ يقول: هم يجدونك أميًا في كتبهم، ولو كنت تكتب لشكوا فيه، قالوا: "هذا يكتب أكيد أنه يكتب ينقل عن غيره"، لكن لا يكتب ولا يقرأ ويأتي بهذا، المعجز بلا شك أنه من عند الله.

قال في حق المؤمنين: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ نبوئ: نقربنهم، وقرئت (لنثوينهم) من ثويت بالمكان أقمت، وما كنت ثاويًا يعني مقيمًا، قال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ أي: لنقيمنهم في الجنة في غرف. في حديث عجيب يقول ﷺ: «إنَّ في الجنَّةِ غرفًا يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها من ظاهرِها أعدَّها اللهُ لمَنْ أطعم الطَّعامَ وأفشى السَّلامَ وصلَّى باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ» يعني شفافة، هذه لمن حافظ على هذه الأشياء.

لو جاءك رجل وقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: 75] قال: الغرفة، ولم يقل غرف، كيف؟ وفي آية أخرى قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: 37] وهنا غرفات، الغرفة ما هي أصلاً؟ الغرفة هي المبنى العالي، والمبنى الواطي يسمى حجرة "الحجرات"، والغرفات عالية: ﴿لَّهُم مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: 20]. لو جاء شخص وقال لك: كيف تقول غرفات والقرآن يقول غرفة واحدة في سورة الفرقان؟ نقول: المراد بها جنس، أي الغرفة جنس الغرف، لا تعارض، أحيانًا تقول: خذ مالاً، ممكن ريال يمكن عشرات، المال جنس يدخل فيه أشياء كثيرة، مثل ما تقول جنة، مرة يقول الله عز وجل: ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133] جنة واحدة، ومرة يقول: جنات، ومرة يقول: جنتان. ونقول: لا تعارض في ذلك، الجنة والجنات جنس.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ﴾ يقول كأين معناها: كم؛ للتكثير، ﴿لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا ترفع شيئًا لغد، أي هذه الدابة لا تحمل رزقها، الله يرزقها، العجيب أغلب الحيوانات لا تخزّن، قيل ممكن فقط النمل هي التي تخزن، أما الحيوانات ما تخزن، الطيور تأكل اليوم ولا تترك شيئًا للغد ولا حبة واحدة، سبحان الله العظيم! ابن آدم يخزن أكثر مما يأكل، يقال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير"، لكن لا يمنع أن الإنسان يتوكل ويخزن، لا مانع. لكن انظر، يقول: لا تحمل رزق هذه الدابة فالله يرزقها. قال ابن عيينة سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس شيءٌ يَخْبَأُ إلا الإنسانَ والنملةَ والفأْرةَ"، يقول النملة والفأرة والإنسان هو الذي يجمع وغيرهم لا يجمع.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ يعني الجنة الدار الآخرة دار الفوز، ليس في الدار الآخرة -يعني النار-، الدار الآخرة الدار التي هي دار كرامته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال: هي الحيوان قال: هي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها. "حيوان" هذه أسلوب من أساليب القرآن، بمعنى الحياة الحقيقية، مثل ما تقول غضبان، سكران، هذه مبالغة في الشيء، لما تقول هذا رجل يغضب أو غاضب أي كمرة أو مرتين، أما غضبان أي وصل إلى أعلى درجة، يقول هذا رجل عنده شيء من السكر أو يشرب أو كذا، لكن عندما تقول هذا سكران يعني انتهى، فلما تقول إن الدار الآخرَة لَهي الحياة، يعني: حياة من الحياة الدنيا، لكن لما يقول حيوان لا تختلف مبالغة، وأنا أذكر كثير سألني: كيف يقول الله ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ كيف الدار حيوان؟ هو يظن حيوان يعني حيوان من الحيوانات، وهذا خطأ في الفهم، حيوان معنى الحياة .

سورة الروم

مكية كلها

١-٢- ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ مفسر في كتاب "تأويل مشكل القرآن".

٩- ﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ﴾ أي قَلَبُوها للزراعة. ويقال للبقرة: المثيرةُ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾.

١٠- (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى) وهي: جهنم -و ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنَّةُ؛ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ - ﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي كانت عاقبتُهم جهنمَ بأن كذَّبوا بآيات الله.

١٥- ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي يُسَرُّون. و "الحَبْرَة": السُّرُورُ. ومنه يقال: "كلُّ حَبْرَةٍ تَتْبَعُهَا عَبْرَةٌ".

١٨- ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي تَدخُلون في الظَّهِيرةِ وهو وقتُ الزَّوال.

٢٦- ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي مُقِرُّون بالعبوديَّة.

٢٧- ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال أبو عبيدةَ "وهو هيِّنٌ عليه؛ كما يقال:

الله أكبرُ أي كبيرٌ. وأنتَ أوحدُ أي واحدُ الناس. وإني لأوْجَلُ أي وَجِلٌ. وقال أوْس بن حَجَر:

وقد أُعْتِبُ ابنَ العمِّ إن كنتُ ظالمًا *** وأغفِرُ عنه الجهلَ إن كان أجْهَلا

أي إن كان جاهلا".

وفي تفسير أبي صالح: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي على المخلوق. لأنه يقاله له يوم القيامة: كن، فيكونُ. وأولُ خَلْقِه نطفةٌ، ثم عَلَقةٌ، ثم مُضْغةٌ".

٢٨- ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ مفسَّرٌ في كتاب "تأويل المشكل".

٣٠- ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي خِلْقَة الله التي خَلق الناسَ عليها؛ وهي: أنْ فَطَرهم جميعًا على أن يعلموا أن لهم خالقًا ومدَبِّرًا.

﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لا تغييرَ لما فَطَرهم عليه من ذلك. ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

٣١- ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي مُقبِلين إليه بالطاعة. ويقال: أنابَ يُنِيبُ؛ إذا رجع عن باطلٍ كان عليه.

٣٥- ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ ؟ أي عذرًا. ويقال: كتابًا. ويقال: برهانا.

﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ فهو يَدُلُّهُم على الشركِ. وهو مجاز.

٣٦- ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي نعمةً.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي مصيبةٌ.

٣٩- ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي ليزيدَكم من أموال الناس.

﴿فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: "هو الرجلُ يُهدِي الشيءَ يُريدُ أن يُثابَ أفضلَ منه. فذلك الذي لا يَرْبُو عند الله".

﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أي من صدقة.

﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي الذين يجدون التضعيف والزيادة.

٤١- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي أجْدَب البرُّ وانقطعتْ مادَّةُ البحر بذُنوب الناس.

٤٤- ﴿فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يعملون ويُوَطِّئُون. و"المِهادُ": الفراش.

٤٨- ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ أي المطرَ.

﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ أي من بين السحاب.

٤٩- ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي يائسين. يقال: أبلَسَ؛ إذا يئس.

٥٠- ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ يعني: آثارَ المطر.

٥٤- ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي من مَنِيٍّ.

٥٥- ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ يحلِفُون -إذا خرجوا من قبورهم-: أنهم ما لبثوا فيها غير ساعة.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ في الدنيا. أي كَذَبوا في هذا الوقتِ كما كانوا يكذِبُون من قبلُ. ويقال: أُفِكَ الرجلُ؛ إذا عُدِل به عن الصدق وعن الخير. وأرضٌ مأْفوكةٌ، أي محرومةُ المطرِ.

٥٦- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي لبثتم في القبور -في خَبَرِ الكتابِ- إلى يوم القيامة.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ معنى أثاروا الأرض: قلبوها للزراعة، ويقال البقرة المثيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: 71]، إثارة الأرض تحريكها، وأثاروا الأرض يعني حركوها بالزراعة والبناء، هم أناس قبلكم، أقوام أثاروا الأرض بالزراعة والبناء والمصانع وغيرها.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ﴾ هي جهنم، كما كانت الحسنى هي الجنة، فالسوأى جهنم، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26] الجنة، ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كانت عاقبتهم بأنهم كذبوا بآيات الله ؛ النار.

أما المؤمنون يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ يحبرون، أي: يُسرّون، والحَبرة: السرور، ومنه يقال: "كل حَبرة تتبعها عَبرة" هذا تفسير المؤلف. غير تفسير المؤلف بعضهم يقول يحبرون أي: يسمعون

الأصوات الجميلة في الجنة، ومنه التحبير "حبرت لك تحبيرًا" يعني حسنت الصوت؛ جمال الصوت، أصوات أهل الجنة من نساء الجنة الذين يسمعون أناشيد الجنة ونحوها، تدخل في السعادة والسرور.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ معنى تظهرون: وقت الظهيرة. ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ أي: مقرون بالعبودية.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: الخلق الثاني، قال: هين، أهون معنى هين، الله سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو أهون عليه أي: على المخلوق لا على الله؛ لأنه يقوم له يوم القيامة أو لأنه يقول له يوم القيامة: كن فيكون. سبحان الله العظيم! الإنسان أول ما يُخلق يمر بمراحل: نطفة، علقة، مضغة، ثم عظامًا، ثم تكسى، ثم يخرج، يقول يمر بمراحل، في الآخرة: لا ما يمر بمراحل، كن فيكون، هو الآن أصبح ترابًا، فيقول له الله سبحانه: كن، فيرجع كامل، سبحان الله العظيم!

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخلقة التي خلق الله الناس عليها وهو التوحيد، ما من مولود إلا يولد على الفطرة؛ على التوحيد، كما قال النبي ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه» ما قال أو يسلمانه؛ لأن الأصل الإسلام. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا تغيير للفطرة، ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ عبادة الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: مقبلين بالطاعة إليه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: عذرًا، حجة، كتابًا، ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ يدلهم على الشرك، أي استفهام، أعندهم حجة وسلطان يدلهم على الشرك؟ ما يوجد.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ نعمة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مصيبة؛ لأن المصيبة سيئة على الإنسان.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ يقول يربو يعني يزيد في أموال الناس. قال ابن عباس: هو الرجل يهدي الشيء يريد أن يُثاب أفضل منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، هو يهدي ليُعطى أكبر، هذا يدخل في المعنى، أو أنه يدفع المال قرضًا حتى يأخذ أكبر وهو الربا المعروف، قال: ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾ يعني: ما ينتفع ما ينتفع به صاحبه عند الله. ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ صدقة خالصة لله، ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: ضاعف لهم الحسنات.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجدب البر وانقطعت مادة البحر بذنوب الناس. من عمل صالحًا ﴿وَمَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِم يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطئون، يعني يقدمون لأنفسهم.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الودق هو المطر، من خلال السحاب: من وسط السحاب. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ يائسين. ﴿فانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ آثار المطر. ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هو المني.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ انظر الساعة الأولى غير الساعة الثانية، يوم تقوم الساعة: يوم القيامة، ما لبثوا غير ساعة: يعني لحظة، ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ في الدنيا، كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون، يقولون: ما لبثنا غير ساعة؛ يكذبون، هم لبثوا مدة طويلة في قبورهم فهم يكذبون في الدنيا ويكذبون في الآخرة، كذلك كانوا يؤفكون، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويقال: أُفِكَ الرجلُ؛ إذا عُدِل به عن الصدق وعن الخير. وأرضٌ مأْفوكةٌ، أي محرومةُ المطرِ".

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: لبثتم في القبور في خبر الكتاب إلى يوم القيامة، ردًا عليهم.

سورة لقمان

٦- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ نزلت في النَّضْر بن الحارث؛ وكان يشتري كتبًا فيها أخبارُ الأعاجم، ويحدثُ بها أهلَ مكةَ، ويقول: "محمدٌ حدثكم أحاديثَ عادٍ وثمودَ؛ وأنا أحدثُكم أحاديثَ فارسَ والرُّومِ وملوكِ الحِيرةِ".

١٤- ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي ضَعفًا على ضعفٍ. ﴿وَفِصَالُهُ﴾ فِطَامُه.

١٦- ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي يُظهِرْها اللهُ ولا تَخْفَ عليه.

١٨- ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تُعْرِضْ بوجهك وتتكبرْ. و"الأَصْعَرُ" من الرجال: المُعرِضُ بوجهه [كِبْرًا].

١٩- ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ أي أقبحَها. عَرَّفَه قبْحَ رفعِ الصوتِ في المخاطبة وفي الملاحاة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عاليةٌ.

٣٢- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ جمع "ظُلَّة". يريد: أَنَّ بعضه فوق بعض، فله سوادٌ من كثرته. والبحر ذو ظلال لأمواجه. قال الجَعديُّ:

يُعارِضُهُن أخضرُ ذُو ظِلالٍ ❊❊❊ على حافَاتِه فِلَقُ الدِّنَانِ

يعني: البحرَ.

و (الخَتَّارُ): الغدَّار. و"الخَتْرُ": أقبحُ الغدرِ وأشدُّه.

٣٣- ﴿لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي لا يُغني عنهُ ولا ينفعُه.

﴿الْغَرُورُ﴾ الشيطان؛ و"الغُرُور" بضم الغين: الباطلُ.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه نزلت في النضر بن الحارث، وكان يشتري كتبًا فيها أخبار الأعاجم ويحدث بها أهل مكة، ويقول: محمد يحدثكم أحاديث عن عاد وثمود وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم وملوك الحيرة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ضعفًا على ضعف، ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: فطامه، في عامين، يعني فطامه عن الرضاعة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يظهرها الله ولا تخفى عليه.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: تعرض بوجهك وتتكبر، والأصعر من الرجال المعرض بوجهه، فتجد بعض الناس يعرض بوجهه وعلى وجه التكبر، لا يريد أن يسلم ويصافح الناس.

لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة لقمان: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أقبحها، عرّف قبح رفع الصوت في المخاطبة وفي الملاحاة كقبح أصوات الحمير لأنها عالية، يقول: لا ترفع صوتك بصوت عالٍ، فإن أنكر الأصوات صوت الحمير، تجد بعض الناس صخّابًا في الأسواق يرفع صوته بجهارة وبقوة، يا أخي اخفض من صوتك، اغضض من صوتك، هذه وصية لقمان لابنه، و يقول: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ يعني اعتدل في مشيتك، لا تكن بطيئًا جدًا ولا تكن سريعًا، اعتدل في مشيتك، ولا تكن مائلاً أو منحنيًا، أو ترفع رأسك، اعتدل في مشيتك، واغضض من صوتك يعني: اجعل صوتك منخفضًا.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ قال: جمع ظلة، يراد أن بعضه فوق بعض فله سواد من كثرته، والبحر ذو ظلال لأمواجه، الأشياء العالية تعطي ظلالاً فيقول: إذا غشيهم أمواج عالية أصبحت لها ظلة سوداء بظلال يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال الشاعر الجعدي: "قال الْجَعديُّ: يُعارِضُهُن أخضرُ ذُو ظِلالٍ *** على حافَاتِه فِلَقُ الدِّنَانِ" يعني البحر أخضر ذو ظلال، يعني: البحر له أمواج.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ معنى الختار: الغدار الذي يعاهد ثم يغدر، يعاهد ثم يغدر؛ لأنه قال قبلها إذا غشيهم موج دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر كفروا، كيف تعاهد الله ثم تكفر؟ فوصفهم بالغدر. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾ أي: لا يغني عنه ولا ينفعه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الغَرور: هو الشيطان، أما الغُرور ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185] أي: الاغترار بالدنيا، فرق بين الغَرور والغُرور، قال: الغَرور بالفتح الشيطان، وبالضم الباطل.

سورة السجدة

وهي مكية كلها إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى قوله: ﴿كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

٥- ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أي يَقْضي القضاء.

﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ فيُنزلُه ﴿إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يصعَدُ إليه.

﴿فِي يَوْمٍ﴾ واحدٍ ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ أي مسافةُ نزولِه وصعودِه.

﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يريد: نزولَ الملائكةِ وصعودَها.

١٠- ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ ؟ أي بَطَلنا وصرنا ترابًا.

١١- ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ هو مِن "تَوَفِّي العدَدِ واستِيفائه". وأنشد أبو عبيدةَ:

إنَّ بَنِي الأَدْرَمِ لَيْسُوا من أحَدْ *** لَيْسُوا إلى قَيْسٍ ولَيْسُوا من أسَدْ

ولا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ في العَدَدْ

أي لا تجعلهم [قريشٌ] وفاءً لعَدَدها. والوفاء: التَّمام.

١٦- ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ أي ترتفعُ.

٢٦- ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي يُبيِّنْ لهم.

٢٧- ﴿الأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ الغليظة اليابسة التي لا نبتَ فيها. وجمعها: "أجْرازٌ". ويقال: سِنُونَ أجْرازٌ؛ إذا كانت سِنِي جَدْبٍ.

٢٨- ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ ؟ يعني: فتْحَ مكةَ.

٢٩- ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ يقال: "أراد قتْلَ خالدِ بن الوليد -يومَ فتحِ مكة- مَن قَتَل". والله أعلم.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقضي القضاء ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: يصعد إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ كم مقدار مسافة النزول والصعود؟ قال: ألف سنة، يعني نزول الملائكة وصعودها ألف سنة مما تعدون أنتم، في علم الله يوم واحد، الألف سنة عند الله يوم واحد. في آية أخرى قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47].

وقالوا: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بطلنا وصرنا ترابًا، يعني: ذهبنا في الأرض وصرنا ترابًا، لا أحد يدري عنا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تَوَفِّي العدَدِ واستِيفائه. وأنشد أبو عبيدةَ: إنَّ بَنِي الأَدْرَمِ لَيْسُوا من أحَدْ ... لَيْسُوا إلى قَيْسٍ ولَيْسُوا من أسَدْ، ولا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ في العَدَدْ. أي لا تجعلهم [قريشٌ] وفاءً لعَدَدها. والوفاء: التَّمام."

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ تتجافى جنوبهم: أي عن النوم، يستيقظون قيامًا لله يصلون، تتجافى يعني ترتفع، تبتعد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ والضمير يعود إلى من؟ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي: من لقاء موسى عليه السلام، لأن النبي ﷺ لقي موسى في ليلة الإسراء والمعراج، فلا تكن في مرية من لقاء موسى، أو من لقاء موسى عليه السلام ربه أنه لقي ربه؛ لأنه كلمه الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يهدي: يبين لهم. ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ الغليظة اليابسة لا نبت فيها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ﴾ قال المؤلف يعني فتح مكة، ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يوم الفتح قال إنزال العذاب به، ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19] يعني العذاب، ﴿لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يُمهلون، فالمراد بيوم الفتح هو نزول العذاب، وفسره هنا بفتح مكة، فتح مكة من باب التمثيل.

سورة الأحزاب

مدنية كلها

٤- ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ من تَبَنَّيْتُمُوه واتَّخَذْتُمُوهُ ولدًا.

يقول: ما جعلهم بمنزلةِ ولدِ الصُّلبِ؛ وكانوا يورِّثون من ادَّعَوه.

﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي قولُكم على التَّشبيهِ والمجازِ، لا على الحقيقة.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾

٥- ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي أعدلُ وأصحُّ.

٦- ﴿مَسْطُورًا﴾ أي مكتوبًا.

١٠- ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ أي عَدَلتْ.

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي كادت تبلُغ الحُلوقَ من الخوف.

١١- ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا﴾ أي شُدِّد عليهم وهُوِّل. و"الزِّلازلُ": الشدائدُ. وأصلها من "التحريك".

١٣- ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي خاليةٌ، فقد أمْكَن من أراد دخولَها، وأصل "العورة": ما ذهب عنه السِّترُ والحفظُ؛ فكأن الرجال سِترٌ وحفظٌ للبيوت، فإذا ذهبوا أعْوَرت البيوتُ. تقول العرب: أعْوَرَ مَنزلُك؛ إذا ذهب سِترُه، أو سقط جِدارُه. وأعْوَرَ الفارسُ: إذا بدا فيه موضعُ خللٍ للضرب بالسيف أو الطعن.

يقول الله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾؛ لأن الله يحفظها. ولكن يريدون الفِرارَ.

١٤- ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جوانبها.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي الكفرَ-: ﴿لآتَوْهَا﴾ أي أعطَوْا ذلك مَن أراده.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي بالمدينة.

ومن قرأ: (لأتوها) بقصر الألف أراد: لصاروا إليها.

١٩- ﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يقول: آذَوْكم بالكلام [الشديد].

يقال: خطيبٌ مِسْلَقٌ ومِسْلاقٌ. وفيه لغة أخرى: "صَلَقُوكُمْ"؛ ولا يُقْرأُ بها.

وأصل "الصَّلْق": الضربُ. قال ابن أحمرَ -يصف سوطا ضرب به ناقته-:

كأنَّ وَقْعتَه -لَوْذَانَ مِرْفَقِها- *** صَلْقُ الصَّفَا بأديمٍ وقْعُه تِيَرُ

الشرح

يقول: قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ الأدعياء جمع دَعيّ، والدعيّ هو الذي يتبناه الإنسان وهو ليس من أبنائه؛ ليس من صلبه؛ إنما يجد لقيطًا مفقودًا فيأخذه ويربيه عنده بالتبني، فيسمى ابنه بالتبني. كان هذا في الجاهلية موجودًا وفي أول الإسلام؛ فإن النبي ﷺ تبنى زيد بن حارثة حتى سُمي "زيد بن محمد"، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبطل هذا التبني، قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ أي من تبنيتموه واتخذتموه ولدًا، ما جعله الله بمنزلة ولد الصلب. وكانوا يورثون من ادعوه، فقال: لا يرث؛ لا يرث إلا أولاد الصلب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾؛ قال المؤلف: "أي على التشبيه والمجاز"، يقول: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعني أنتم تتكلمون بالأفواه فقط، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي أعدل وأصح، ولذلك لم يُذكر اسم واحد من الصحابة -حتى من كبار الصحابة- في القرآن كله إلا زيد؛ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، لأنه لما نزلت هذه الآية سُلب منه اسمه -وكان يفتخر هو بين الصحابة أنه ابن محمد- قال: «زيد بن الحارثة»، فلما سُلب منه شعر بفقد هذا الشيء، فعوضه الله بذكر اسمه في القرآن؛ تخليدًا لاسمه إلى يوم القيامة، فزيد هو الذي ذُكر في القرآن.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾؛ أي مكتوبًا. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾؛ زاغت أي: مالت وعدلت، أي خرجت؛ زاغت الأبصار دائمًا في المواقف المحرجة القوية تشخص الأبصار وتزيغ، ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي كادت تبلغ الحلوق؛ أي القلوب كادت تخرج من مكانها. في الدنيا بلغت القلوب، أي: كادت، أما في الآخرة تخرج؛ ذكر في غافر ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: 18]. هذا خبر؛ كادت تبلغ الحلوق من الخوف.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾؛ شُدِّد عليهم وهُوّل، والزلزال الشدائد وأصلها من التحريك؛ (زلزلوا) حُرِّكوا بقوة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ خالية، وقد أمكن من أراد دخولها. هذا كلام المنافقين، يقولون: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ يعتذرون؛ يقولون: ليس هناك أحد يحفظها، نخاف عليها ونخاف على نسائنا وعلى أموالنا. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأصل "العورة": ما ذهب عنه السِّترُ والحفظُ؛ فكأن الرجال سِترٌ وحفظٌ للبيوت، فإذا ذهبوا أعْوَرت البيوتُ" أي انكشفت البيوت؛ والأعور من الرجال أو من الإنسان فاقد العين؛ لأنه خلل ونقص.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾؛ لأن الله يحفظها ولكن ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ غيرهم أيضًا بيوتهم عورة، والرسول ﷺ عنده حجرات والصحابة تركوا بيوتهم وخرجوا، فكلهم عندهم عورة وليس أنتم فقط أيها المنافقون، لذلك رد عليهم الله تعالى قال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾، احتجاجهم ليس بصحيح.

قال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾؛ يقول: ﴿دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي من جوانبها؛ يعني لو دخل الكفار وأحاطوا بهم (بهؤلاء المنافقين) وسُئلوا الفتنة (الكفر) لأعطوهم وسلموا لهم؛ قالوا: تكفرون؟ قالوا: نعم نكفر؛ لأن المنافقين ليس عندهم إيمان، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ أي

الكفر ﴿لَآتَوْهَا﴾ أي أعطوها، أعطوا ذلك من أراده. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ أي بالمدينة؛ لأن الكفار أحاطوا بها، ما تلبثوا بالمدينة. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن قرأ: (لأتوها) بقصر الألف أراد: لصاروا إليها" (لأتوها) يعني جاؤوا إليها، مثل قوله تعالى ﴿فَأَتَى اللَّهُ﴾ [النحل: 26]، غير (آتى) فنقول: الله آتاه، أي أعطاه، و(أتى) أي جاء.

﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ أي آذوكم بالكلام، يقال: "خطيب مِسْلَق" و"سَلّاق". وفيه لغة أخرى (الصاد) "صلقوكم" ولكن لا يُقرأ بها، السلق يسلقك بلسانه، يعني: يؤذيك بلسان سليط ومؤذٍ.

٢٣- ﴿مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي قُتل. وأصل "النحب": النذرُ. وكان قوم نَذَروا -إن لقوا العدوَّ-: أن يُقاتلوا حتى يُقتَلوا أو يَفتحَ اللهُ؛ فقُتِلوا. فقيل: فلانٌ قَضى نحْبَه؛ إذا قُتل.

٢٦- ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي من حُصونهم. وأصل "الصَّياصي": قرونُ البقر؛ لأنها تمتنعُ بها وتدفعُ عن أنفسها. فقيل للحصون صياصي: لأنها تَمنع.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾؛ أي قُتل واستشهد، وأصل النحب: النذر. وكان قوم نذروا إن لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يُقتَلوا، فقال الله: قضى نحبه، أو يفتح الله فَقُتلوا، فقيل: فلان قضى نحبه أي قضى نذره؛ لأنه نذر أن يقدم نفسه إذا قُتل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ هؤلاء بني قريظة، لمَّا رجعَ النبيُّ ﷺ من الخَنْدَق، ووَضَعَ السِّلاحَ واغتسل، أتاه جِبْرِيلُ عليه السلام، فقال: «قد وضعتَ السِّلاحَ؟ واللهِ ما وضَعْناه، فاخرُج إليهم» قال: «فإلى أيْنَ؟» قال: «ها هُنا»، وأشار إلى بَنِي قُرَيْظَةَ، فخرج النبيُّ ﷺ إليهم، لأنهم هم الذين خانوا، أرادوا إدخال الأحزاب من جهتهم، هم في الجنوب الشرقي من المسجد النبوي، قبلة المدينة جنوب، وإذا خرجت من جهة القبلة جعلت القبلة خلفك التي على يسارك هذا هو البقيع، بعد البقيع هذه الجهة كانت ديار بني قريظة، الجهة هذه هي أسفل المدينة؛ ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، هذه المنطقة هي الأسفل، فأرادوا أن يأتوا من جهتهم؛ لأن يهود بني قريظة خانوا عهدهم، قالوا: تعالوا من جهتنا ونحن ندخلكم عليهم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾؛ الذين ظاهروا الكفار والمنافقين ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: حصونهم. وأصل الصياصي قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قرونُ البقر؛ لأنها تمتنعُ بها وتدفعُ عن أنفسها" فقيل للحصون صياصي؛ لأنها تمنع.

قصة أبي لبابة رضي الله عنه: أبو لبابة من الصحابة كان بينه وبين اليهود علاقة تجارة، فجاء أحد اليهود فقال: ماذا سيصنع محمد بنا؟ (يعني بعد الحرب)، فأشار إلى حلقه -أي الذبح-، فلما قال ذلك أخبر بعض الصحابة النبي ﷺ قالوا: إن أبا لبابة أخبرهم، فالنبي ﷺ لامه؛ كيف يخبرهم بالذبح؟ لم يقصد أنه يفشي سر رسول الله، ولكنه حدث بها هكذا، فندم أشد الندم؛ لما انتهى القتال مع هؤلاء رجع أبو لبابة إلى المسجد وربط نفسه في سارية المسجد؛ فقال: "لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت وعاهدَ اللهَ ألَّا يَطَأَ بني قريظة أبدًا، فلما بلغ رسولُ اللهِ خبرَه، -وكان قد استبطأه- قال: «أَمَا لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَإِذْ فَعَلَ مَا فَعَلَ مَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ»، فجاء وأطلق سراحه.

٣٠ و٣١- ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال أبو عبيدة: يُجعل الواحدُ ثلاثةً [لا] اثنين. هذا معنى قول أبي عبيدةَ.

ولا أراه كذلك؛ لأنه يقول بعدُ: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي يُطعهما: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ فهذا يدلُّ على أن "الضِّعفين" ثَمَّ أيضًا: مِثْلان.

وكأنه أراد: يُضَاعف لها العذابُ، فيجعل ضعفَيْن، أي مثلَيْن، كلُّ واحد منهما ضعفُ الآخر. وضعفُ الشيء: مِثلُه. ولذلك قرأ أبو عَمْرٍو: (يُضَعَّفْ) لأنه رأى أن "يضعَّف" للمِثْل و "يضاعف" لما فوق ذلك.

وهذا كما يقول الرجل: إن أعطيتَني درهمًا كافأتُك بضِعفَيْن -أي بدرهمين- فإن أعطيتَني فردًا أعطيتُك زوجَيْنِ؛ يريد اثنين. ومثلُه: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي مِثْلَين.

٣٢- ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي فلا تُلِنَّ القولَ ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي فجورٌ؛ ﴿وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا﴾ أي صحيحًا: لا يُطمع فاجرًا.

٣٣- (وَقِرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) من الوقار يقال: وَقَرَ في منزله يَقِرُ وَقُورًا.

ومن قرأ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ بنصب القاف؛ جعله من "القرار". وكأنه من "قَرَّ يَقَرُّ" بفتح القاف. أراد: "اقْرَرْنَ في بيوتكن"؛ فحذف الراء الأولى، وحوَّل فتحتها إلى القاف. كما يقالُ: ظَلْن في موضع كذا؛ من "اظْلَلْنَ". قال الله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾.

ولم نسمع بـ "قَرَّ يَقَرُّ" إلا في قُرة العين. فأمَّا في الاستقرار فإنما هو "قَرَّ يَقِرُّ" بالقاف مكسورةً. ولعلها لغةٌ.

٣٨- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي أحَلَّ الله له.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أنه لا حرجَ على أحد فيما لم يَحْرُم عليه.

٤٢- و (الأصيلُ) ما بين العصر إلى الليل.

٤٣- ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي يباركُ عليكم. ويقال: يغفرُ لكم.

﴿وَمَلائِكَتُهُ﴾ أي تستغفرُ لكم.

٥٠- ﴿آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مُهورَهن.

٥١- ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي تؤخرْ. يُهْمَزُ ولا يُهْمَزُ. يقال: أرْجَيْتُ الأمرَ وأرجأْتُه.

﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي تَضمُّ.

قال الحسن: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا خطب امرأةً لم يكن لأحد أن يخطبَها حتى يَدَعَها النبيُّ صلى الله عليه وسلمُ أو يتزوجَها".

ويقال: "هذا في قسمة الأيام بيْنَهن؛ كان يسوِّي بينَهن قبلُ ثم نزل. [أي] تؤخرُ من شئتَ فلا تُقْسِمُ له. وتَضُمُّ إليك مَن شئتَ بغير قسمة".

٥٢- ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ قَصَرَه على أزواجه، وحَرَّم عليه ما سواهنَّ إلا ما ملكتْ يمينُه من الإماء.

الشَّرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؛ هذا في مخاطبة نساء النبي ﷺ، قال أبو عبيدة: يجعل الواحد ثلاثة، هذا معنى قول أبي عبيدة؛ أي ضعفين مع العذاب الأول صار ثلاثة. لكن هذا رُدّ عليه قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا أراه كذاك؛ لأنه يقول بعدُ: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي يُطعهما: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ فهذا يدلُّ على أن "الضِّعفين" ثَمَّ أيضًا: مِثْلان" لما قال نؤتها أجرها مرتين- أجرها مرتين، فالعذاب ضعفين هما اثنان. وفسّر رحمه الله: "وكأنه أراد: يُضَاعف لها العذابُ، فيجعل ضعفَيْن، أي مثلَيْن، كلُّ واحد منهما ضعفُ الآخر. وضعفُ الشيء: مِثْلُه. ولذلك قرأ أبو عَمْرٍو: (يُضَعَّفْ) لأنه رأى أن "يضعَّف" للمِثْل و "يضاعف" لما فوق ذلك" هذا استنباط دقيق من ابن قتيبة رحمه الله. وهذا كما يقول

الرجل: "إن أعطيتني درهمًا كافأتك بضعفين" أي بدرهمين، "فإن أعطيتني فردًا أعطيتك زوجين" يريد اثنين، ومثله: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي مثلين.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي فلا تلنَّ القول (تلين القول). ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ أي فجور، المرض هنا فجور، مرض القلب نوعان في القرآن: مرض شبهات؛ وهذا خطير ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ هذا مرض الشبهات، ومرض الشهوات وهو المقصود به هنا قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي مرض شهوة وفجور. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ أي صحيحًا لا يُطمِع فاجرًا.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ عندنا قراءتان: (وَقِرْنَ) و(وَقَرْنَ)؛ (وَقِرْنَ) بالكسر من الوقار كأن الواو أصلية، ومن قرأ (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) بنصب القاف جعله من القرار وكأنه من قرّ يقرّ قرارًا، أي: اقررن في بيوتكن، فحذف الراء الأولى وحول فتحتها إلى القاف (قَرْنَ)، كما يقال "ظَلْنَ في موضع كذا" يعني اظللن، ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي أظللتم أو ظللتم.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾؛ فيما فرضه له أي: أحله الله له، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أي لا حرج على أحد فيما لم يحرم عليه.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَأَصِيلًا﴾؛ الأصيل ما بين العصر إلى الليل، أتت في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ الأصيل: العشي ما بعد العصر إلى الليل (إلى غروب الشمس) هذا الأصيل. والغداة من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس هذه الغداة؛ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أو ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: 205].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾؛ يبارك عليكم ويقال يغفر لكم، ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي تستغفر لكم الملائكة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿آتَيْتَهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي مهورهن. ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾؛ أي تؤخر، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يهمز ولا يهمز" أي: (تُرْجِي) و(تُرْجِئُ)؛ أرجيت الأمر أخرته، ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111] أي أخِّره.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾؛ تضمها. قال الحسن: كان النبي ﷺ إذا خطب امرأة لم يكن لأحد أن يخطبها حتى يدعها النبي ﷺ أو يتزوجها، ويقال هذا في قسمة الأيام بينهن؛ ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾ يعني في القسم وفي المبيت؛ يعني القسم والمبيت في حق النبي ﷺ ليس بواجب، أما غير النبي فواجب؛ فلا بد أن يقسم في المبيت ويقسم في النفقة وكل شيء، النبي ﷺ رُفع عنه ذلك يبيت عند هذه أيّهن فالأمر له، وكان النبي ﷺ يسوي بينهن قبل ثم نزلت الآية فتؤخر من شئت فلا تقسم لها وتضم من شئت فتقسم لها أو بغير قسمة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾؛ قصره الله عز وجل على أزواجه وحرم عليه ما سواهن إلا ما ملكت يمينه من الإماء. لماذا قصر الله على أزواجه؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما خاطب النبي أن يخير نساءه بين الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فخيّر الله النساء لأنهم كانوا يطالبون بالنفقة؛ أول من دخل النبي ﷺ عليها هي عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وقال: «إني أريد أن أذكر لك أمرًا ، فلا تقضي فيه شيئًا حتى تستأمري أبويك» وقرأ عليها الآية، فقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة. فلذلك عوضهم

الله قال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ﴾، مسألة زواج للنبي ﷺ في أول الأمر، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ أحل لهم كل من يريد: بنات عمك وبنات خالك أحل لهم، ثم لما جاءت آية التخيير واختاروا الله ورسوله كافأهم الله بألا يبدلهن النبي ولا يتزوج غيرهن، إلا ما ملكت يمينه ومنها مارية؛ مارية القبطية لما بدأ النبي ﷺ يرسل الرسائل للملوك أرسل إلى المقوقس ملك مصر رسالته فقبلها وأهدى إليه هدية (مارية)، فأخذها النبي ﷺ وهي مباحة له، فوطئها فحملت بإبراهيم ثم مات إبراهيم بعد ستة أشهر.

٥٣- ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي منتظِرين وقتَ إدراكه.

٥٩- ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ أي يلبَسْنَ الأرْدية.

٦٠- ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنُسلطَنَّك عليهم، ونُولِعَنَّك بهم.

٧٠- ﴿قَوْلا سَدِيدًا﴾ أي قصْدًا.

٧٢- ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ﴾ يعني: الفرائضَ.

﴿عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ بما فيها من الثواب والعقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا﴾ وعُرضتْ على الإنسان -بما فيها من الثواب والعقاب- فحَمَلها.

وقال بعض المفسرين: "إن آدمَ لما حضرتْه الوفاة قال: يا ربِّ! مَن أَسْتَخْلِفُ بعدي؟ فقيل له: اعرِضْ خلافتَك على جميع الخلق، فعَرَضها، فكلٌّ أباها غيرَ ولدِه".

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾؛ أي غير منتظرين نضجه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾؛ أن يلبسن عليهن الأردية، أي تغطي وجهها، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ﴾؛ فإذا كانت كاشفة وجهها تُعرف، هذه حجة على من يقول إن الحجاب ليس في الوجه واليدين؛ تجد الآن بعضهم يفتي في بعض الأمصار يقول أنها تتحجب لكن الوجه واليدين ليس داخلًا في الحجاب، فنقول: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يعني إذا غطت وجهها لا تُعرف، فكاشف الوجه تُعرف وفيه أدلة كثيرة جدًا، ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: 60]، دل على أن القاعد (المرأة الكبيرة) أباح الله لها أن

تكشف وجهها، فالفتاة يحرم عليها؛ لأن الزينة في الوجه (الزينة والمكياج والكحل كلها في الوجه)، لو أنها كشفت غير الوجه ما أحد انفتن بها مثل الوجه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي المنافقون، لنسلطنك عليهم ولا نُعولنك بهم. ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ قصدًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾؛ أي الفرائض ﴿عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ بما فيها من الثواب والعقاب ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾؛ عُرضت عليهم الأمانة (التكاليف) فامتنعوا وخافوا وهم جمادات، وعُرضت على الإنسان ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾؛ فحملها هذا الإنسان الضعيف. وقال بعض المفسرين: إن آدم لما حضرته الوفاة قال: "يا رب من أستخلف من بعدي؟" فقيل له: اعرض خلافتك على جميع الخلق، فعرضها، فكلٌّ أباها غير ولده.

سورة سبأ

مكية كلها

٢- ﴿مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي يَدخلُ.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يصعَدُ.

٣- ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لا يبعُدُ.

﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي وزنُ ذرةٍ، وهي: النملة الحمراء الصغيرة.

٥- ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ أي مسابِقِين. يقال: ما أنت بمُعاجِزِي، أي بمُسابِقِي. وما أنت بمُعْجِزِي، أي سابِقِي وَفائِتِي.

٩- ﴿كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ قطعةً. و "كِسَفًا": قِطَعًا؛ جمع كِسْفَةٍ.

١٠- ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي سَبِّحي. وأصله: التأْويبُ في السير؛ وهو: أن تسيرَ النهارَ كلَّه وتنزلَ ليلا. قال ابن مُقْبِل:

[لِحِقْنا بحيٍّ] أوَّبُوا السَّيرَ بعدَ مَا *** دَفَعْنا شُعاعَ الشمسِ والطَّرْفُ يَجْنَحُ

كأنه أراد: أوِّبِي النهارَ كلَّه بالتسبيح إلى الليل.

١١- (السابغات) الدُّروعُ الواسعةُ.

﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ أي في النَّسْج، أي لا تَجعل المساميرَ دِقاقًا فَتَقْلَقَ ولا غِلاظًا فتكسِّرَ الحَلَقَ. ومنه قيل لصانع [حَلَقِ] الدُّروعِ: سَرَّادٌ وزَرَّادٌ. تبدل من السين الزايُ، كما يقال: سَرَّاطٌ وزَرَّاطٌ.

والسَّرْدُ: الخَرَزُ أيضًا. قال الشَّمَّاخ:

كما تَابَعَتْ سَرْدَ العِنَانِ الْخَوَازِرُ

ويقال للإِثْفَى: مِسْرَدٌ وسِرَادٌ.

١٢- ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ﴾ أذَبْنا لهُ. يقال: سال الشيءُ وأسَلْتُه.

و(القِطْرُ): النُّحاس.

١٣- ﴿مَحَارِيبَ﴾ مساجدَ.

و (الْجَوَابِي): الحِياضُ. جمع جابِيَة، قال الشاعر:

تَرُوحُ على آلِ المُحَلَّقِ جَفْنَةٌ *** كجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقيِّ تَفْهَقُ

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ ثَوَابِتَ في أماكنها تُتركُ -لعظمِها- ولا تُنقلُ. يقال: رَسَا [الشيءُ]-إذا ثَبَت- فهو يَرْسُو.

ومنه قيل للجبال: رَوَاسٍ.

١٤- (المِنْسَأَةُ): العصا. وهي مِفْعَلَة من نسأتُ الدابة: إذا سُقتُها قال الشاعر:

إذَا دَبَبْتَ على المِنْسَاةِ من كِبَرٍ *** فَقَدْ تَبَاعَدَ عنكَ اللَّهْوُ والغَزَلُ

وقال الآخر:

وعَنْسٍ كألواحِ الإرَانِ نَسَأْتُها *** إذا قِيلَ للمَشْبُوبَتَيْنِ: هُمَاهُمَا

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ سقطَ ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ كان الناس يَرون الشياطينَ تعلم كثيرًا من الغيب والسر؛ فلمَّا خرَّ سليمانُ تبينتِ الجنُّ أي: ظهر أمرها، ثم قال: ﴿أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

وقد يجوز أن يكون ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ أي علمتْ وظهر لها العجزُ. وكانت تسترقُ السمعَ وتُلَبِّسُ بذلك على الناس أنها تعلم الغيبَ؛ فلما خرَّ سليمانُ زال الشكُّ في أمرها كأنها أقرتْ بالعجز.

وفي مصحف عبد الله "تبيَّنتِ الإنْسُ أنَّ الجنَّ لو كانوا يَعلمون الغيبَ".

الشَّرحُ

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي يدخل، والولوج الدخول. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ أي يصعد، والعروج إلى الأعلى.

في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ (لَا يَعْزُبُ) أي: لا يغيب عنه، و(مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) المراد بالذرة هي النملة الحمراء الصغيرة، هذا وجه، أو الذرة التي تجمع على ذرات وهي التي تخرج في شعاع الشمس، يحتمل هذا ويحتمل هذا؛ بأن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه مثقال ذرة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ وفي مواضع قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [العنكبوت: 22] المعجز والمعاجز بمعنى واحد؛ أي السابق أو الذي يسبقك أو يفوتك، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يفوته هؤلاء، لا يعجزونه ولا يسبقونه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ قطعًا من العذاب، جمع كسفة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾؛ أوبي أي: سبّحي وردّدي، وأصله التأويب في السير، وهو: أن تسير النهار كله وتنزل ليلًا. والمراد بالأوّاب: الرجّاع والمردد؛ ويعني بذلك سبحانه إذا سبّح داود عليه السلام سبّحت الجبال معه، وإذا ذكر الله ردّدت معه، وإذا قرأ الزبور تردّد معه؛ يُسمع صوت الجبال تردّد معه، ومع الجبال الطير أيضًا تسبح، ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 19]؛ إذا بدأ يقرأ الزبور اجتمعت الطيور حوله كأنها محشورة تجتمع لتستمع، كل من الطيور والجبال تؤوب وتردد، قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع أنها جبال حجر وجمادات... يأتيك بعض الناس يشكك ويقول: كيف جبل يسبح؟! كيف جبل يتكلم؟! نقول: هذا كلام رب العالمين، ليس كلامك أنت، لا بد أن تؤمن به وتصدّق. ولو أنهم الآن اخترعوا جمادات تتكلم كالجوال؛ لا يقول شيئًا، سكت! صدّق وآمِن به!

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾؛ هذه صفة للدروع؛ أي: اعمل دروعًا سابغات، وهي الواسعة الفضفاضة التامة الكاملة، مثل قوله: إسباغ الوضوء؛ أي تكميله وتتميمه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾؛ معنى السرد: هو النسج والخَرْز، وقيل: المسامير؛ لأنه يضع لها مسامير، فيقول له سبحانه: قدّرها تقديرًا جيدًا، حيث تقفل لك الدروع؛ لأن أول من صنع دروع الحرب هو داود عليه السلام، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80]؛ أي من الحرب، فكان يتقنها ويضبطها لأنه حداد، ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾. والعجيب هنا أن السرد والسرود تنطق بالزاي (الزرد)، والزرد والسرد هي المسامير، والزرد تدخل فيها الآن ما يسمى بالزّراديّة؛ لأنها تخلع المسامير.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾؛ أي أذبنا له، القطر هو النحاس، يسيل ويذوب لسليمان عليه السلام؛ فداود له الحديد، وسليمان له الريح والنحاس والجن، فلكلٍّ منهما مزايا أعطاه الله إياها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَحَارِيبَ﴾؛ مساجد. ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾؛ الجوابي هي الحياض الكبيرة جدًا، جمع جابية. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾؛ ثوابت في أماكنها، لا تتحرك لعظمها وكبرها، لا يمكن نقلها؛ راسية وثابتة في الأرض، وكانوا يقولون: إن القدر الواحد يدور عليه الخيل لِعِظمه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾؛ دابة الأرض هي الأرضة (النمل الأبيض)، والمنسأة هي العصا، وهي مشتقة من نَسَأت الدابة: إذا سقتها، فالعصا تسوق صاحبها وتدفعه. وسليمان عليه السلام كان يراقب الجن وهم يعملون ويحرسهم ويشُد عليهم، فقبض الله روحه ومات وهو متكئ على عصاه، وجلس فترة طويلة، قيل أنها بالأشهر وهم يظنون أنه ينظر إليهم، فلما أكلت الدابة العصا سقط سليمان عليه السلام، فأدركوا أنهم خائفين من النبي وأهلكهم العمل الشاق وهو ميت، ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾؛ تبيّنت الجن: أي ظهر أمرها وزال الشك، وتبين أنهم لا يعلمون الغيب كما كان الناس يظنون.

١٦- (الْعَرِمُ) المُسَنَّاةُ. واحدها: عَرِمَة قال الشاعر:

مِنْ سَبَأَ الحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذ ❊❊❊ يَبْنُونَ من دونِ سَيْلِه العَرِمَا

(الأُكُلُ): الثمر.

(الخَمْطُ): شجرُ العِضَاهِ. وهي: كل شجرة ذاتِ شوك. وقال قَتادةُ: الخمطُ: الأَرَاكُ؛ وبَرِيرُه أُكُلُه.

و (الأَثْلُ): شبيهٌ بالطَّرْفاء إلا أنه أعظم منه.

١٧- (وَهَلْ يُجَازَى إِلا الْكَفُورُ) قال طاوسٌ: يُجازَى ولا يُغفرُ له؛ والمؤمن لا يناقَشُ الحسابَ.

١٨- ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي جعلنا ما بيْنَ القريةِ والقريةِ مقدارًا واحدًا.

١٩- ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي عظة ومُعْتَبَرًا.

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي فرَّقناهم في كل وجه. ولذلك قالت العربُ للقوم إذا أخَذوا في وجوهٍ مختلفة: تفرَّقوا أيْدِي سَبَا. "وأيدي" بمعنى: مذاهبَ وطرُقٍ.

٢٠- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ وذلك أنه قال: لأضِلَّنَّهم ولأُغْوِيَنَّهُم [ولأُمنِّيَنَّهم] ولآمُرَنَّهم بكذا؛ فلمَّا اتَّبعوه [وأطاعوه] صَدَّق ما ظنَّه؛ أي فيهم. وقد فسرت هذا في كتاب "المشكل".

٢٣- ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ خُفِّف عنها الفَزَعُ.

ومن قرأ: فُرِّغَ أراد فُرِّغَ منها الفزعُ.

٢٤- ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [هذا] كما تقول: أحدُنا على باطلٍ؛ وأنتَ تعلم أن صاحبك على الباطل، وأنك على الحق. وقال أبو عبيدةَ: "معناها إنك لعلى هدًى، وإنكم لفي ضلال مبين".

٢٦- ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي يقضي. [ومنه قوله تعالى]: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي القُضاةِ.

٢٨- ﴿إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ أي عامةً.

٣٣- ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي مكرُكم في الليل والنهار.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي أظهروها، يقال: أسررتُ الشيءَ: أخفيتُه وأظهرتُه. وهو من الأضداد.

٣٤- (الْمُتْرَفُونَ) المتكبِّرون.

٣٧- ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ أي قُرْبَى ومنزلةً عندنا.

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ لم يُرد فيما يَرى أهلُ النظر -والله أعلم- أنهم يُجازون على الواحد بواحدٍ مثلِه ولا اثنَيْن. وكيف يكون هذا والله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وَ﴿خَيْرٌ مِنْهَا﴾؟!! ولكنه أراد لهم جزاء التَّضْعيفِ. وجزاءُ التَّضعيف إنَّما هو مِثْلٌ يضم إلى مثلٍ إلى ما بَلغ. وكأن "الضعف": الزيادةُ؛ أي لهم جزاءُ الزيادة.

ويجوز أن يُجعَل "الضِّعفُ" في معنى الجمع أي [لهم] جزاءُ الأضعاف. ونحوُه: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ أي مُضَعَّفًا.

٤٥- ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي عُشرَه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنْكاري. وكذلك: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾؛ أي إنْذاري، وجمعه: نُكُرٌ ونُذُرٌ.

٤٦- ﴿مَثْنَى﴾ أي اثنَيْن اثنين، ﴿وَفُرَادَى﴾ واحدًا واحدًا.

ويريد بـ"المَثْنَى": أن يتناظَرُوا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم؛ وبـ "فُرَادَى" أن يفكِّرُوا. فإن في ذلك ما دَلَّهم على أن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- ليس بمجنونٍ ولا كذَّابٍ.

٤٨- ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي يلقيه إلى أنبيائه صلوات الله عليهم.

٤٩- ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾ أي الشيطانُ ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾

٥١- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ أي عند البعث.

﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي قريبٍ على الله؛ يعني القبورَ.

٥٢- ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾؟ أي تناوُل ما أرادوا بلوغَه، وإدراكُ ما طلبوا من التوبة.

﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من الموضع الذي تُقبلُ فيه التوبةُ.

والتناوُشُ يُهمز ولا يُهمز. يقال: نُشْتُ ونأشْتُ كما يقال: ذِمْتُ الرجلَ وذَأَمْتُه؛ أي عبتُه.

وقال أبو عبيدةَ: نأشْتُ: طَلَبتُ. واحتَجَّ بقول رُؤْبةَ:

إليكَ نأْشُ القَدَرِ النَّؤُوشِ

وقال: "يريد طلبَ القَدَرِ المطلوبِ".

وقال الأصْمَعيُّ: "أراد تناوُلَ القدرِ لنا بالمكروه".

٥٣- ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي بالظنِّ أن التوبةَ تنفعُهم.

٥٤- ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان. وهذا مفسر في "تأويل المشكل" بأكثرَ من هذا التفسير.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾؛ العرم هو: الحاجز، لأن أهل اليمن وضعوا سدًا عظيمًا كبيرًا، فكانت الأمطار تجتمع فيه، ويفتحون فتحات بقدر حاجتهم لتجري في أودية فتسقي أشجارهم حتى أصبحت جنتين عن يمين وشمال، فلما عصوا الله وكفروا بنعمته، سلط الله عليهم -قيل فأرًا- فبدأ ينقب في هذا السد حتى سقط الجدار، فجاء السيل وهدم زروعهم، ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾؛ الأُكُل يعني: الثمر، والخمط: شجر ذي شوك تأكله الدواب، والأثل: شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه، والسدر معروف. فتفرقوا، وقالت العرب: "تفرقوا أيادي سبأ"؛ أي تفرقوا في كل وجه بعد أن انتهت جنتهم، فذهبوا إلى شمال الجزيرة وأنشأوا الغساسنة والمناذرة، وبعد سنين طويلة وُرِثَت اليمين وأنشأ الله فيها أقوامًا آخرين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَلْ نُجَازِيٓ إِلَّا الْكَفُورَ﴾؛ وفي قراءة (وهل نجازي إلا الكفور)، قال الطاوس: يجازى ولا ينظر له؛ فالمؤمن لا يناقش الحساب.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ القرى هي قرى الشام، فكان بين اليمن والشام مسافة بعيدة أكثر من ألفين كيلومتر، فمن نعمة الله عليهم جعل أناس يسكنون في الطريق بينهما، فلم يكن هناك مسافات بعيدة بين القرى، فكانوا يسيرون في أمن وأمان وخير، يشترون منه ويأكلون، فقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾؛ فما كان جوابهم؟ فقالوا من بطر النعمة: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وفي قراءة (ربنا بعّد)، فكفروا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي عبرةً يضرب بهم المثل. جاء رجل من اليمن إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشام، فدخل عليه، قال: من أي بلاد؟ قال: من بلاد اليمن، قال: أنت من بلاد الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾؟ قال: نعم، وأنت من الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا أَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾؟ أي رد عليه، فضحك معاوية على سرعة النباهة عنده والرد عليه.

فمعنى قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾؛ أي جعلنا ما بين قرية وقرية مقدارًا قريبًا. فكفروا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ جعلناهم أحاديث أيادي سبأ، بدأوا يضربون فيهم الأمثلة، وبدأوا يحكون قصتهم في كل مكان، والأحاديث جمع أحدوثة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾؛ صدق عليهم إبليس ظنه، وذلك أنه قال لأضلنهم، إبليس ظن فيهم فصدق إبليس ظنه؛ أي حقق ظنه فيهم أنه قال: لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وقال: لأغوينهم ولآمرنهم بكذا وكذا، فلما اتبعوه صدق ما ظنه عليهم فيهم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾؛ هذا في الملائكة، من قوله تعال: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، فُزِّع أي ذهب وزال الفزع وذهب عنهم الغم. الكلام للملائكة عندما يتكلم الله جل وعلا؛ إذا تكلم الله رجفت السماوات السبع رجفة قوية، فسقط كل ملك وصعق وأغمي عليه حتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم أول من يفيق جبريل فيكلمه الله تعالى فيسمع كلامه، ثم تفيق الملائكة بعدها فيقولون: ماذا قال ربنا؟ فيجيبون: ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فيقولون هم: قال الحق وهو العلي الكبير.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: إما نحن أو أنتم على الهدى والضلال، هذا من باب التسليم لهم؛ والتنزّل معهم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾؛ أن يقضي، والفتح القضاء، وهو ﴿الْفَتَّاحُ﴾، واسم الفتاح لم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع، ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي مكرهم في الليل والنهار. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾؛ أخفوها، قال المؤلف: أسرّوا من الأضداد؛ قد يكون معناها أخفى ومعناها أظهر. ﴿مُتْرَفُوهَا﴾؛ المقصود بالمترفين: المتكبرين.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ أي لا تنفعكم إلا في حالة واحدة: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾. الأموال تنفع أصحابها إذا كانوا مؤمنين والأولاد ينفعون آباءهم، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضعْفِ﴾، جزاء الضعف، هذه فيها إشكال، لأنه يقال: خذ هذا وضِعفَه معه يعني اثنين، والله يقول أضعاف، وأضعاف مضاعفة، ويقول عشر حسنات، كيف نجمع بين هذا وهذا؟ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما تكلم عنها: الضعف يعني مطلقًا، الضعف قد يكون في عشر، قد يكون في مئة، وقد يكون أضعافًا، فهذا المقصود.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ هذه في الأمم الماضية، المعشار أي: عُشر ما آتيناهم، يقول: أنتم يا أهل مكة ما أعطيناكم ولا عُشر الذين أعطينا السابقين، علمًا أنهم كانوا مترفين، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي كيف إنذاري.

قوله سبحانه: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾؛ اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، أي يتناظروا ويفكروا في أمر النبي ﷺ بانفراد أو جماعات: هل هو مجنون؟ هل هو كذاب؟ فيعلموا أنه صادق بارّ.

يقول تعالى: ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ أي يلقيه إلى أنبيائه، الحق يقذفه في قلوب الأنبياء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾؛ قال: الباطل الشيطان ونحوه. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾؛ عند البعث يفزعون، فلا فوت أي: لا يفوتون علينا، ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ قريب بالنسبة لله عز وجل، أي يؤخذون من قبورهم إلى نار جهنم.

قالوا: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾؛ التناوش والتناول بمعنى واحد، يتناولون ما يريدونه، وأنى لهم بمعنى: بعيد أن يصلوا إلى ما يطلبونه ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي بالظن، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان، أي أحال الله بينهم، منعهم مما يشتهون، إما عند الموت وهم يشتهون الجنة أو يشتهون الرغبة في الدنيا أو يشتهون كذا، أو بعد البعث يشتهون أن يفوزوا بالجنة، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

سورة فاطر

مكية كلها

٢- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي من غيثٍ.

٣- ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي احفَظُوها. تقول: اذكرْ أيادِيَّ عندك؛ أي احفَظْها. وكلُّ ما كان في القرآن -من هذا- فهو مثلُه.

٨- ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أي شُبِّهَ عليه.

٩- ﴿النُّشُورُ﴾ الحياةُ.

١٠- ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي يَبْطُلُ.

١٢- ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي جَوَارِيَ. ومَخْرُها: خَرْقُها للماء.

١٣- ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ القطميرُ: الفُوفَةُ التي تكون في النَّواةِ. وفي التفسير: أنه الذي بين قِمْعِ الرُّطَبَةِ وبين النَّواة. وهو من الاستعارة في قلة الشيء وتحقيره.

١٨- ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ يقول: إنْ دَعتْ نفسٌ ذاتُ ذنوبٍ قد أثقلَتْها ذنُوبها ليُحملَ عنها شيءٌ منها لم تَجِدْ ذلك؛ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ مَن تدعوه ﴿ذَا قُرْبَى﴾

١٩- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ مثلٌ للكافر والمؤمن.

٢٠- ﴿وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ﴾ مثلٌ للكفر والإيمان.

٢١- ﴿وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾ مثلٌ للجنة والنار.

٢٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ مثلٌ للعقلاء والجهال.

٢٤- ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي سلف فيها نبيّ.

٢٧-٢٨- ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ و"الجُدَدُ": الخُطوطُ والطَّرائِقُ تكون في الجبال فبعضُها بِيضٌ وبعضُها حمرٌ وبعضُها غرابيبُ سودٌ.

وغَرابيبُ: جمع غِرْبِيبٍ وهو: الشديد السواد. يقال: أَسْوَدُ غِرْبِيبٌ.

وتمام الكلام عند قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يقول: من الجبالِ مختلِفٌ ألوانُها.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي كاختلاف الثمرات. ثم يبتدئُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

٣١- ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي لما قبله.

٣٥- ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ ودارُ المُقام واحدٌ، وهما بمعنى الإقامة.

اللغوب: الإعْياءُ.

٣٧- ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم.

ويقال: الشيبُ. ومَن ذهب هذا المذهب فإنه أراد: "أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ حَتَّى شِبْتُمْ".

٤٣- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي يَنْتَظِرون، ﴿إِلا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ أي سُنَّتَنا في أمثالهم من الأَوَّلين الذين كفروا كُفْرَهم.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾؛ أي من خير، قال المؤلف: غيث وأمطار وخير.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ المراد بالذكر هنا: أنك تحفظ النعمة، احفظوها، احفظوها بالشكر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾؛ أي شُبِّه عليه، هو سيئ فكيف رآه حسنًا؟ أي في نفسه أنه حسن، تجد الآن أصحاب المعاصي زُيِّنت لهم أعمالهم فيرون أنها حسنة، فَيُزَيَّن له عمله. ولذلك

تجد أحيانًا أشكالًا قبيحة من الشعور والأشكال التي يفعلونها والملابس، وهو يظن أنه الأحسن، هذا اللباس الذي يلبسه أفضل شيء عنده، زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾؛ النشور: الحياة، النشر يعني البعث. ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ يبطل، من البوار وهو الهلاك. ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾؛ هذه مرت علينا في أول النحل ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا﴾ [النحل: 14]، هنا قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا﴾. قال: الفلك الجواري من السفن، مواخر تمخر الماء تدفعه بقوة وتخرق الماء. لماذا قدّم واخر "فيه" في الموضعين؟ لأن سورة النحل في سياق النعم، قال: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي أنعم الله عليه فقال مواخر، فقدّم المواخر وأخر (فيه) الذي هو البحر لأنها في سياق النعم. هنا في سياق إظهار آيات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الكون؛ لأن سورة فاطر لو تتأملها تقرأها قراءة دقيقة تجد الله أظهر فيها آيات الكون العلوية والسفلية، العلوية التي هي في قوله يولج الليل في النهار والشمس والقمر والأمطار هذه كلها علوية، والسفلية البحار: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ والسفن في البحار وخلق الجبال بألوان مختلفة ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾، وخلق الدواب بألوان مختلفة والأشجار، كل هذه نعم الله. فالذي يقرأ سورة فاطر يجد فيها تأملات عجيبة فيما يكون في هذا الكون العظيم من الآيات الدالة على ربوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعلى ألوهيته، السماوات والأرض كلها تدل أدلة واضحة على أن خالق الكون هو الله، أول آية: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه أول آية.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ هؤلاء الأموات ما يملكون من قطمير، القطمير: الفوفة التي تكون على النواة، اللفافة، القشر الأبيض الشفاف على النواة، على عبس النواة، هذا القشر اللفاف يسمى قطمير، والنقرة الصغيرة في النواة (النقير)، والسلك الأبيض الذي يأتي على بطن النواة هذا يسمى الفتيل، ﴿لَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 49]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124]، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾، انظر كيف يأتي بالأشياء الحقيرة جدًا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾؛ أي نفس مثقلة بالذنوب ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: كل يحمل ذنوبه إلا إذا كان دالًا عليه، إذا دل على الشر فهو يتحمله.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن، ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ الكفر والإيمان، ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ الجنة والنار، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ العقلاء والجهال. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي: ما من أمة إلا بعث الله فيها نذيرًا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾؛ الجدد: أي طرق جادة، تجد الجبل فيه طريق، الذين يعيشون في الجبال يعرفونها، هذه الطريق تجدها أحيانًا تكون بيضاء إذا كانت تضرب بالأقدام كثيرًا، ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾ طرائق بيضاء، وأحيانًا تكون حمر وبعضها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ حسب الجبال نوعها؛ جبال سود، جبال حمر، جبال بيض. والغرابيب جمع غربيب، ومنه سمي الغراب لسواده.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾؛ الدواب والأغنام والإبل وسائر الحيوانات ألوان عجيبة، والأنعام كذلك فيها ألوان عجيبة، هذا يدل على انفراده سبحانه بالخلق والتدبير والتصرف.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ ولذلك الأطباء آمنوا، الأطباء لما رأوا القلب والكبد والرئة ودورها ووظيفتها آمنوا مباشرة، صدقوا أن هذا المخلوق خلقه الله فآمنوا بأن وراء هذه المخلوقات خالق، حتى في عالم الذر حتى في عالم الفلك حتى في عالم البحار في عالم الجبال والأراضي كلها،

الذي له عقل كبير يعرف أن وراء هذا خالق، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد؛ اختلاف الجبال، اختلاف الأراضي، اختلاف الأشجار وألوانها وأشكالها تدل على أن وراء هذا الكون خالقًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الكتاب؛ أي لما قبله. ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ دار المقامة أي الإقامة. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي إعياء، لا تعب ولا إعياء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾؛ وجاءكم النذير قيل: محمد ﷺ، وقيل: الشيب؛ إذا علا الشيب الإنسان هذا نذير، نذير بقرب الرحيل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي شبتم، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لا ينتظرون إلا سنة أمثالهم الأولين الذين أهلكناهم، فهم ينتظرون الهلاك الذي ينزل بهم.

سورة يس

مكية كلها

٧- ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي وَجَب.

٨- ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ "المقمح": الذي يرفع رأسَه ويغُض بصرَه. يقال: بعيرٌ قامحٌ وإبِلٌ قِمَاحٌ؛ إذا رَوِيتْ من الماء وقَمَحتْ. قال الشاعر -وذكر سفينةً وركبانَها-:

ونحن على جَوانِبِها قُعُودٌ *** نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبِلِ القِمَاحِ

يريد إنا حبَسناهم عن الإنفاق في سبيل الله بموانعَ كالأغلال.

٩- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ والسَّدُّ والسُّدُّ الجبلُ. وجمعها: أسْدَادٌ.

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ أي أغشينا عيونَهم وأعميناهم عن الهُدَى. وقال الأسود بن يَعْفُرَ -وكان قد كُفَّ بصره-:

ومنَ الحَوادثِ -لا أبَا لَكَ- أَنَّنِي *** ضُرِبَتْ عليَّ الأرضُ بالأسْدَادِ

ما أهْتَدِي فيها لمَدْفَعِ تَلْعَةٍ *** بيْنَ العُذَيْبِ وبيْنَ أرْضِ مُرَادِ

١٢- ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من أعمالهم؛ ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ما استُنَّ به بعدهم من سُننهم. وهو مثل قوله: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي بما قَدَّم من عملهِ وأخَّر من أثرٍ باقٍ بعده.

الشَّرحُ

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ حق: أي وجب؛ بمعنى أن الله قدّره وأوجبه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾؛ المقمح: هو الذي يرفع رأسه ويغض بصره، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: بعيرٌ قامحٌ وإبِلٌ قِمَاحٌ؛ إذا رَوِيتْ من الماء وقَمَحتْ" أي رفعت رأسها، وهذا ملاحظ في الإبل؛ عندما تشرب تقمح رأسها، وذكر قول الشاعر:

ونحن على جوانبها (أي السفينة) قعودٌ *** نغض الطرف كالإبل القماحِ

فمعنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾؛ أي الأغلال إلى الأذقان، والذقن هو أسفل الوجه، وجُعِلت أغلال: رَبَطت أعناقهم إلى الأذقان، ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾. هذا تصوير لحالهم بحيث إنهم لا يدخلون في الإيمان لأن الله حق عليهم كلمة العذاب، فحبسهم عن الإنفاق في سبيل الله وعن الإيمان وعن وجوه الخير مطلقًا، وهذا تشبيه وتقريب للصورة، وفي آية أخرى في سورة الشعراء: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ هناك السَّد والسُّد: كلاهما بمعنى الجبل، وجمعهما أسداد. وبعضهم فرّق بين السَّد والسُّد، لكن المؤلف أخذ بقول أن المعنى واحد. والآية قُرِئت بالقراءتين: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾؛ أي أغشينا عيونهم وأعميناهم عن الهدى، وهذا كله تشبيه؛ أي جعل بين أيديهم سدًا وأغشاهم وأعماهم حتى لا يروا الحق ولا الهدى.

قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾؛ أي من أعمالهم، نكتب لهم ما عملوا، ﴿وَآثَارَهُمْ﴾؛ أي ما استُنّ به بعدهم من سننهم؛ يعني من سن سنة حسنة يكتب الله له أثرها، مثل الذي يبني مسجدًا، ومثل الذي يجعل طريقًا يعبر الناس معه ويسهله لهم، كأن يضع جسرًا بين جبل وجبل، أو يضع بئر ماء يُشرب منه بعده؛ فهذه آثارهم. ولذلك النبي ﷺ ماذا قال؟ -وقيل إنها نزلت في بني سلمة لما أرادوا الانتقال حول المسجد-: «دياركم تكتب آثاركم»؛ أي الزموا دياركم وابقوا فيها تُكتب آثار خطواتكم التي تمشونها إلى المسجد. ومثله قوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13]؛ أي بما قدم من عمله، وأخر من أثر باق بعده.

١٤- ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي قوَّيْنَا وشدَّدْنَا. يُقال: عَزِّز منه؛ أي قَوِّ من قلبِهِ. وتعزَّز لحمُ الناقة: إذ صَلُب.

١٨و١٩- ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ قال قَتادةُ: يقولون: إن أصابنا شرٌّ فهو بكم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ تَطَيَّرْتُم بنا؟

وقال غيره: طائرُكم معكم أين ذُكِّرْتُم.

و"الطَّائرُ" هاهنا: العملُ والرزقُ. يقول: هو في أعناقكم ليس من شؤمنا. ومثلُه: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾. وقد ذكرناه فيما تقدم.

٢٥- ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ أي فاشهَدُوا.

٣٤و٣٥- ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾

أي وليأكلوا مما عملتْه أيديهم. ويجوز أن يكون: إنا جعلنا لهم جناتٍ من نخيل وأعناب ولم تعملْه أيديهم.

ويقرأ: (وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ) بلا هاء.

٣٦- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي الأَجناسَ كلَّها.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾؛ أي قوينا وشددنا. قد يرسل الله عز وجل رسولًا واحدًا وهو الأصل، وأحيانًا يرسل رسولين مثل موسى وهارون عليهما السلام، وأحيانًا يرسل ثلاثة. هذه القرية على صغرها أرسل الله إليها ثلاثة، وجاء الرابع وهو الداعية؛ أتى من أقصى المدينة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾. هذا الداعية لم يقل إن الله أرسل ثلاثة رسلًا فهذا يكفي ولا شأن لي، بل جمعهم ودعا إلى الله عز وجل ليكون الرابع ولم يتوقف أو يتردد في أن يكون له دور وأثر، ولا يقف مكتوف الأيدي ويقول: هناك رسل يوحى إليهم ولا دخل لي. هذا حال بعض الناس اليوم؛ يقول: ما لي دخل في شأن غيري، وهناك مشايخ يقومون بالعمل. لا، فهذا جاء من أقصى المدينة حتى مات. هناك أمور ظاهرة لا تحتاج إلى أن يكون الإنسان متبحرًا في العلم؛ فيكون الحرام بين والحلال بين فعليه النصح، فمثلًا الجميع يعرف أن ترك الصلاة حرام وأنها واجبة، فلا يصح أن يقول: ما لي

دخل في أهل بيتي. فالدعوة لا بد أن تقوم على علم شرعي في الأمور الخفية التي تحتاج معرفة، أما الأمور الظاهرة فواجبة على الجميع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أصابنا الشر بكم، فهو بسببكم. هم دائمًا يقولون: ما أصابنا القحط وانقطاع الأمطار والفقر والأمراض إلا بسببكم؛ قالوها لموسى عليه السلام، وقالوا لمحمد ﷺ، دائمًا يتهمون الأنبياء. فرد الله عليهم: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾؛ أي أنتم السبب في هذا الشؤم والمصائب بسبب كفركم، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أئن ذُكِرتم تطيرتم بنا؟ وقال غيره: طائركم معكم أين ذُكِرتم؛ المراد بالطائر هنا العمل والرزق وهو في أعناقهم وليس من شؤمنا، ومثله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13].

وقال هذا الرجل المؤمن: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾؛ أي فاشهدوا لي بالإيمان. ثم قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ معنى ﴿وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ للمفسرين فيها معنيان: المعنى الأول، أن (ما) نافية؛ أي لم تعمله أيديهم، بل الذي عمله وخلقه وأوجده هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والمعنى الثاني، ليأكلوا من ثمره طازجًا جاهزًا، ويأكلوا مما عملته أيديهم من الطبخ أو العصر أو الأعمال الأخرى، والآية تحتمل المعنيين.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر المعنيين بقوله: "أي وليأكلوا مما عملته أيديهم. ويجوز أن يكون: إنا جعلنا لهم جناتٍ من نخيل وأعناب ولم تعملْه أيديهم" وقُرئت في قراءة شعبة بلا هاء: (وما عملت أيديهم)؛ هذه القراءة تقوي وترجح رأي أن المعنى: لم تعمله أيديهم، بل الله الذي عمله وحده؛ وهذا من باب ترجيح الأقوال والقراءات ببعضها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي الأجناس مطلقًا.

٣٧- ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام.

٣٨- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي موضعٍ تنتهي إليهُ فلا تُجَاوزُه؛ ثم ترجع.

٣٩- و (الْعُرْجُونُ) عُودُ الكِبَاسَةِ. وهو: الإهَانُ أيضًا. و (الْقَدِيمِ) الذي قد أتى عليه حَوْلٌ فاستَقْوَس ودَقَّ. وشُبِّهَ القمرُ -آخِرَ ليلةٍ يطلُع- به.

٤٠- ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فيجتمعا.

﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي لا يفوتُ الليلُ النهارَ فيذهبَ قبل مجيئه.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني: الشمسُ والقمرُ والنجومُ يَسْبحون أي يَجْرُون.

٤٣ و٤٤- ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مُغيثَ لهم ولا مُجِيرَ.

﴿وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ أي إلا أن نرحمَهم ونُمَتِّعَهم إلى أجَلٍ.

٤٩- ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ أي يَخْتَصِمون. فأدغم التاءَ في الصاد.

٥١- و (الأَجْدَاثُ) القبور. واحدها: جَدَثٌ.

﴿يَنْسِلُونَ﴾ قد ذكرناه في سورة الأنبياء.

٥٣- ﴿مُحْضَرُونَ﴾ مُشْهَدُون.

٥٥- (فِي شُغُلٍ فَكِهُونَ) أي يَتَفَكَّهون. قال: أبو عُبيدٍ تقول العرب للرجُل -إذا كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس-: إن فلانًا لَفَكِهٌ بكذا، قال الشاعر:

فَكِهٌ إلى جَنْبِ الخِوَانِ إذَا غَدَتْ *** نَكْبَاءُ تَقْطَعُ ثابتَ الأَطْنَابِ

ومنه يقالُ للمِزاح: فاكهةٌ. ومن قرأ: (فَاكِهُونَ) أراد ذَوِي فاكهةٍ؛ كما يقال: فلان لابنٌ تامرٌ.

وقال الفراء "هما جميعًا سواءٌ: فَكِهٌ وفاكِهٌ؛ كما يقال حَذِرٌ وحَاذِرٌ". وروي في التفسير: (فَاكِهُونَ) ناعمون. وفكهون: مُعْجَبُونَ.

٥٦- ﴿فِي ظِلالٍ﴾ جمع ظِلٍّ و (فِي ظُلَلٍ) جمعُ ظُلَّةٍ.

(الأَرَائِكُ) السُّرُر في الحِجَال. واحدُها: أَرِيكةٌ.

٥٧- ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي ما يَتَمَنَّوْن. ومنه يقول الناس: هو في خيرِ ما ادَّعى؛ أي ما تَمَنَّى. والعرب تقول: ادَّعِ [عليَّ] ما شئت؛ أي تَمَنَّ [عليَّ] ما شئت.

٥٨- ﴿سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ أي سلامٌ يقال لهم [فيها] كأنهم يَتَلَقَّوْنه من رب رحيم.

الشَّرحُ

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾؛ أي داخلون في الظلام، مثلما تقول: أمسينا؛ أي دخلنا في المساء، وأصبحنا؛ أي دخلنا في الصباح. مظلمون: دخلنا في الظلام.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؛ أي موضع تنتهي إليه فلا تجاوزه ثم ترجع. جاء في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ غَرَبَتِ الشَّمسُ: «أتَدري أينَ تَذهَبُ؟» قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: «فإنَّها تَذهَبُ حتَّى تَسجُدَ تَحتَ العَرشِ، فتَستَأذِنَ، فيُؤذَنُ لَها، ويوشِكُ أن تَسجُدَ فلا يُقبَلَ منها، وتَستَأذِنَ فلا يُؤذَنَ لَها، يُقالُ لَها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قَولُه تَعالى: ﴿والشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لَها ذلك تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ﴾». فإذًا ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾؛ أي حركة فلكية مقدرة.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾؛ العرجون: وهو العذق؛ عذق النخلة الذي فيه الثمر، فإذا قُطِف التمر وذهب عنه وبقي العذق في أمه في النخلة يعود متقوسًا دقيقًا جدًا، فشبه القمر في آخر لياليه به.

قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فيجتمعان، أي لا يمكن أن يجتمع القمر مع الشمس، ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾؛ لا يسبق الليل النهار فيذهب قبل مجيئه، ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؛ الشمس والقمر والنجوم كلها تسبح وتجري في هذا الفلك العظيم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿إِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ أي لا مغيث لهم ولا أحد يجيرهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ إلا أن نرحمهم ونمتعهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ فيها قراءات: (يخصّمون) فقرأها حمزة بإسكان الخاء (يَخْصّمُون) ومعناها: يختصمون، أُدغمت التاء في الصاد فقيل يخصّمون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾؛ أي: القبور، واحدها جدث، وقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾؛ يخرجون مسرعين، وذكرت في سورة الأنبياء. والأجداث يقال فيها الأجداث والأجداف بالفاء (الجدف)، وتسمع أحيانًا بعضهم في السب يقول: "الله يشتم جدفك" أو "يلعن جدفك"، ما معنى الجدف؟ الجدف هو القبر، وأحيانًا يقصدون بالجدف الأصل؛ أي آباؤك وأجدادك، فعندما يقول ذلك من الشتم يقصد أصلك الذي جئت منه. وقوله تعالى: ﴿مُّحْضَرُونَ﴾؛ مشهدون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾؛ يتفكهون. قال أبو عبيدة: تقول العرب للرجل إذا كان يتفكه بالطعام أو بالفاكهة أو بأعراض الناس أحيانًا: إن فلانًا لفكهٌ بكذا، ومنه يقال للمزاح فاكهة. ومن قرأها ﴿فَكِهُونَ﴾ -المؤلف يقرأ فكهون، والقراءة الثانية فاكهون، وهي قراءة أبي جعفر (فَكِهُونَ)- وفاكهون: أراد ذوي فاكهة، كما يقال: فلان لَابِنٌ وتامِرٌ؛ أي صاحب لبن وصاحب تمر. وقال الفراء: هما جميعًا سواء؛ فَكِهٌ وفَاكِهٌ، كما يقال: حَذِرٌ وحَاذِرٌ. وروي في التفسير: فاكهون ناعمون، وفكهون متعجبون. العجيب أن المؤلف سار على قراءة أبي جعفر، وإذا تتبعنا يتضح لنا أن ابن قتيبة يقرأ بقراءة أبي جعفر، وأبو جعفر (يزيد بن القعقاع) هو مدني وليس بصريًا، وهو شيخ الإمام نافع، حتى استغرب بعضهم وقالوا: لِمَ قدم ابن مجاهد نافعًا وأخر أبا جعفر مع أنه شيخه؟ قالوا: لشهرة نافع وجلوسه وانتشار قراءته أكثر، وإلا فأبو جعفر متقدم وهو الشيخ. إذن المؤلف يقرأ بقراءة أبي جعفر لأنه قال في أول الشيء: ﴿فِي شُغُلٍ فَكِهُونَ﴾.

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في ﴿ظِلَالٍ﴾ جمع ظل، وفي ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة. الظلال جمع ظل؛ كظل الشمس وظل القمر وظل الشجرة، فتقول: ظلال الأشجار. والظلة: ما يظلك من فوقك كالمظلة والسحاب، كقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: 189]؛ فالظلة غير الظلال، والظلال أثر الظلة. يقول: قرأ الأخوان (حمزة والكسائي) وخلف معهم بضم الظاء ﴿فِي ظُلَلٍ﴾، والباقون بكسرها ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ بإثبات الألف. وإذا قيل (الأخوان) فالمراد حمزة والكسائي، وإذا قيل (الحرميان) فالمراد نافع وابن كثير، وإذا قيل (الكوفيون) فهم حمزة والكسائي ويدخل معهم عاصم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾؛ السرر في الحجال، واحدها أريكة. وقوله سبحانه: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾؛ أي يتمنون. ثم قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾؛ أي سلام يقال لهم، يتلقونه من رب رحيم.

٥٩- ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي انقطِعُوا عن المؤمنين وتَمَيَّزُوا منهم. يقال: مِزْتُ الشيءَ من الشيءِ -إذا عزلتُه عنه- فانْماز وامْتازَ ومَيَّزْتُه فتَميَّزَ.

٦٠- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم آمُرْكم ألم أُوصِكم؟!

٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا﴾ أي خَلْقًا. وجُبُلا بالضم والتخفيف، مثلُه. والجِبْلُ أيضًا: الخَلْقُ. قال الشاعر:

[جِهَارًا] ويَسْتَمْتِعْنَ بالأَنَسِ الجِبْلِ

٦٦- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ والمَطْموسُ هو [الأعمى] الذي لا يكون بين جَفْنَيْه شقٌّ.

﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ ليَجوزوا.

﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ أي فكيف يبصرون؟!

٦٧- ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ هو مثل مكانِهم. يقال: مكانٌ ومكانةٌ ومنزلٌ ومنزلةٌ.

٦٨- ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي نَرُدَّه إلى أرذلِ العُمُرِ.

٧٠- ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمنًا. ويقال: عاقلا.

٧١- ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ يجوز أن يكون مما عملناه بقدرتِنا وقوَّتنا. وفي اليد القوةُ والقدرةُ على العمل؛ فتُستعارُ اليدُ فتُوضَعُ موضعها. على ما بيَّناه في كتاب "المشكل". هذا مجازٌ للعرب يحتملُه هذا الحرفُ والله أعلم بما أراد.

٧٢- ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي ما يَرْكَبون. والحَلوب: ما يَحْلُبون والجَلُوبة: ما يَجْلِبُونَ. ويُقْرَأ: "رَكُوبَتُهُمْ" أيضًا. [وهي] قراءةُ عائشةَ رضي الله عنها.

٧٨- ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي باليةٌ. يقال: رَمَّ العظْمُ -إذا بَلِيَ- فهو رَمِيمٌ ورُمام. كما يقال: رُفاتٌ وفُتَاتٌ.

٨٠- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ أراد الزُّنُودَ التي تُورِي بها الأعرابُ من شجر المَرْخ والعَفَار.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾؛ امتازوا أي: انعزلوا وانقطعوا وتميزوا عن المؤمنين؛ فإذا عزل الفصل بين شيئين يقال امتاز، أي انفصلوا. قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾؛ ألم آمركم وأوصِكم؟

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾؛ جبلًا فيها قراءات كثيرة: جِبلًا، وجُبلًا، وجُبُلًا، بتخفيف وتثقيل، والمعنى خلقًا كثيرًا؛ فالجِبلّة والجِبلّ هو الخلق الكثير. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾؛ المطموس هو الذي لا يكون بين جفنيه شق، طمسنا على أعينهم؛ أي ذهبنا بعيونهم فلا شق فيها بل هي قطعة واحدة، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ أي أسرعوا إلى الصراط ليجوزوه وهم لا يبصرون، والصراط أدق من الشعرة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ أي على مكانكم. وقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾؛ يُرد إلى أرذل العمر. ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾؛ أي حي القلب، مؤمنًا عاقلًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾؛ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يجوز أن يكون مما عملناه بقدرتِنا وقوَّتنا. وفي اليد القوةُ والقدرةُ على العمل؛ فتُستعارُ اليدُ فتُوضَعُ موضعها. على ما بيَّناه في كتاب "المشكل"" وهذا الصحيح؛ فهذه الآية ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لا تدخل في صفات الله (اليدين)؛ لأن إثبات صفة اليدين لله يكون عندما يضاف العمل مباشرة كقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، فهذه نثبتها صفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. أما في قوله ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ فهو كقولك: "كسبت أيدينا" واليد لم تكسب وحدها بل أنت الذي كسبت، واستعمال الأيدي يتعدد بها المعنى في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110] ويعني الدنيا والآخرة لا اليدين، وهنا يراد به القوة والقدرة، وبمعنى مماثل في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45] أي أولي القوة؛ لأنها غير مضافة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾؛ أي الإبل تُركب، ويقال رَكوب وحَلوب. وفيها عدة قراءات: فمنها رَكوبَهم، وفي قراءة: (فمنها رَكُوبَتُهُمْ) وهي قراءة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا وهي قراءة شاذة لمخالفتها الرسم.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؛ رميم أي: بالية متكسرة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾؛ أراد الزنود التي توري بها الأعراب من شجر المرخ والعفار. يأتون بشجرتين معروفتين عندهم؛ شجر المرخ وشجر العفار، فيأخذون غصنًا رطبًا أخضر من هذا وغصنًا من الآخر، ويجمعون أعواد الشجر الصغيرة اليابسة، ثم يضربون هذا بهذا فتشتعل النار: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾. ولو جاء بغصنين من المرخ فقط أو غصنين من العفار فقط لم تشتعل، لا بد من واحد مرخ وواحد عفار كالذكر والأنثى، وقد رأيت مقطع فيديو لشخص أتى بغصن مرخ وعفار ووضع أغصانًا صغيرة يابسة ثم ضربها فاشتعلت النار، فهي موجودة الآن.

سورة الصافات

مكية كلها

٢-٣- قال ابن مسعود: (الصَّافَّاتُ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتُ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتُ ذِكْرًا) هم الملائكة.

٨- ﴿لا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا يَتَسمَّعون. فأدغمت التاء في السين.

﴿إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾ ملائكةِ اللَّه.

٩- ﴿دُحُورًا﴾ يعني طردًا. يقال: دحَرتُه دَحْرًا ودُحورًا؛ أي دفعتُه.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي دائمٌ.

١٠- ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي لَحِقه.

﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ كوكبٌ مضيءٌ بَيِّنٌ. يقال: أثْقِبْ نارَك، أي أضئْها. و"الثَّقُوب" ما تُذْكَى به النارُ.

١١- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سَلْهم.

﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ أي لاصقٍ لازمٍ. والباءُ تُبدلُ من الميم لقربِ مَخْرَجَيْهِمَا.

١٢- ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ قال قتادةُ: "بل عجبتَ من وحيِ الله وكتابِه، وهم يسخرون [بما جئتَ به]".

١٤- ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي يَسْخَرون. يقال: سَخِر واسْتَسْخَر؛ كما يقال: قَرَّ واسْتَقَرَّ. ومثله: عَجِب واسْتَعْجَب. قال أوْس بن حَجَر:

ومُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى من أناتِنا ❊❊❊ ولو زَبَنَتْهُ الحَرْبُ لم يَتَرَمْرَمِ

ويجوز أن يكون: يسألون غيرَهم -من المشركين- أن يَسْخَروا من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم. كما تقول: اسْتَعْتَبْتُه: سألتُه العُتْبَى. واسْتَوْهَبْتُهُ: سألتُه الهِبَةَ. واسْتَعْفَيْتُه سألتُه العفوَ.

٢٢- ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشكالَهم. تقول العرب: زوجْتُ إبِلِي؛ إذا قرنْت واحدًا بآخرَ. ويقال: قُرَناؤُهم من الشياطين.

٢٨- ﴿كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ أي تخدعوننا وتفتنوننا عن طاعة الله. وقد بينت هذا في كتاب "المشكل".

الشرح

قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾؛ قال: هم الملائكة. وفيها تفاسير أخرى؛ فقيل: هي الطير، وقيل: هم الذين يصفون للصلاة. والصحيح أنها الملائكة؛ والدليل على أنها الملائكة ما ذكره الله عز وجل في آخر السورة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾، فالذي يظهر أن الصافات هذه صفات للملائكة تصف عند ربها صفًا، والمراد بالصف هنا: يصفون للصلاة والذكر والقيام بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما قال ﷺ: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» قالوا: وكيف تصف؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأولَ ويتراصُّونَ في الصَّفِّ».

وقوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾؛ قيل: تزجر السحاب، أو تزجر الكفار للعذاب. ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾؛ هي قراءة القرآن، أو قراءة الذكر مطلقًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾؛ أصلها لا يتسمعون، فالتاء أُدغمت في السين وشددت؛ فقيل: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني الملائكة؛ الجن والشياطين تصعد إلى السماء تسترق السمع: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾؛ فيخطفون الخطفة، يسمعون أصوات الملائكة، والكلام والأخبار التي تقع في السماء، فيسمع الكلمة الواحدة. الشياطين يكونون بعضهم فوق بعض فإذا سمعها أول واحد يأتيه الشهاب فيضربه، فيلقيها على الذي تحته، والثاني يلقيها، فيضربه الشهاب فيلقيها، فإذا أخذها آخر واحد نزل بها؛ كما قال سفيان بن عيينة قال: بعضهم فوق بعض، ثم قال: يلقيها فيجعل معها مائة كذبة، كلمة واحدة صادقة ومائة كذبة، فيلقيها هذا الشيطان على الكهنة؛ لأنهم يقدمون لهم قرابين، فالكاهن يدعي الغيب فيقول: سيبعث رسول، سيفعل كذا وسيفعل كذا، سيموت فلان -شخص له مكانة وكذا- سيموت بعد سنة، ويموت فعلًا؛ لِمَ؟ لأنه سَمِعَ.

قال تعالى: ﴿دُحُورًا﴾؛ طردًا، دحرته دحرًا ودحوًا؛ أي دفعته. الدحر هو الطرد، ادحره يعني اطرده.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ أي دائم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؛ قال: لحقه شهاب، وهو كوكب مضيء بيّن. والكواكب في السماء خلقها الله لعدة أشياء: زينة في السماء: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: 5]، وأيضًا فيها شهب لإحراق هؤلاء؛ رجومًا للشياطين، وعلامات يهتدون بها كما قال سبحانه: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ سلهم، ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾؛ لازب أي: لاصق ولازم. يقول: لازب ولازم، والباء تبدل من الميم لقرب مخرجيهما.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾؛ قال قتادة: بل عجبت من وحي الله وكتابه وهم يسخرون؛ أنت تتعجب من القرآن وهم يسخرون. وهذه فيها قراءة سبعية: (بَلْ عَجِبْتُ)؛ يعني أن الله يعجب، وفيها إثبات صفة العجب لله عز وجل، كما أن الله يضحك ويفرح: "الله أشد فرحًا"، ويضحك ويعجب ويحب؛ هذه الصفات لله ما أثبته القرآن والسنة يجب علينا أن نثبته على الوجه اللائق، وأنها صفات حقيقية، فهنا نثبت صفة العجب لله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾؛ يسخرون. يقال: سخر واستسخر، كما يقال: قر واستقر، ومثله عجب واستعجب. مثلما تقول: استغفرت الله؛ أي أطلب من الله المغفرة. لو جاءك واحد وقال لك: ما الفرق بين ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ ثم قال ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾، مرة قال يسخرون ومرة قال يستسخرون، هل فيه فرق؟ نعم، نقول: الأولى ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم يسخرون من القرآن، ويسخرون من الدعوة، ويسخرون من

النبوة. و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يعني يطلبون السخرية؛ يأتون بأشخاص آخرين يطلبون منهم أن يسخروا، فلا يكفيهم أنهم هم يسخرون، بل يأتون بغيرهم ويطلبون منهم أن يسخروا.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؛ المراد بالأزواج هنا الأشكال والأصناف والأمثال، لا الأزواج من النساء. أي أشكال وقرناء متشابهون. ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؛ أي من كانوا على شاكلتهم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ كيف تأتون عن اليمين؟ قال: تخدعون وتفتنون عن طاعة الله؛ لأن كلمة اليمين تحتمل أمرين: إما اليمين بمعنى القوة؛ بمعنى يصرفون بقوة، الكبراء والرؤساء والقادة يصرفون من تحتهم بقوة؛ أي كنتم تأتوننا عن اليمين بقوة تمنعوننا عن الإسلام، أو يراد باليمين هنا أنكم تخدعوننا وتفتنوننا عن طاعة الله؛ أي اليمين هنا هو الخير، دائمًا اليمين يرمز للخير والشمال للشر، فكنتم تأتوننا عن اليمين أي: تمنعوننا من الخير. فلها وجهان: إما القوة أو الخير.

٤٧- ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي لا تَغتالُ عقولَهم فتذهبَ بها. يقال: "الخمرُ غَولٌ للحِلْم، والحربُ غَولٌ للنفوس". وغالني غولا. و"الغَوْلُ":البُعد.

﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ أي لا تذهبُ خمرُهم وتنقطعُ ولا تذهبُ عقولُهم. يقال: نزفَ الرجلُ؛ إذا ذهب عقلُهُ وإذا نَفِد شرابه.

وتُقْرَأُ: (يُنزِفُونَ) من "أنزف الرجلُ": إذا حان منه النزفُ

أو وقع له النزفُ. كما يقال: أقْطَفَ الكَرْمُ؛ [إذا حان قِطَافُه] ؛ وأحصَدَ الزَّرعُ [إذا حان حَصاده] .

٤٨- ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي قَصَرْن أبصارَهن على الأزواج ولم يَطْمَعن إلى غيرهم وأصل "القصر": الحَبْس.

﴿عِينٌ﴾ نُجْلُ العيونُ أي واسعاتُها. جمعُ "عَيْنَاءَ".

٤٩- ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ العربُ تشبِّهُ النساءَ ببيضِ النَّعامِ. قال امرؤ القيس:

كبِكْرِ المُقَاناتِ البَياضُ بِصُفْرةٍ ❊❊❊ غَذَاها نميرُ الماءِ غيرَ مُحَلَّلِ

و"المكنون": المَصُون. يقال. كَنَنْتُ الشيءَ؛ إذا صُنْتُه؛ وأكْنَنْتُه: أخفيتُه.

٥١- ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أي صاحبٌ.

٥٣- ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مَجْزِيُّون بأعمالنا. يقال: دِنْتُه بما صنع؛ أي جزَيتُه.

٥٥- ﴿سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسَطها.

٥٦- ﴿إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ أي لتُهْلِكُني. يقال: أرْدَيْتُ فلانًا، أي أهلكتُه. و"الرَّدَى": الموتُ والهلاكُ.

٥٧- ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي من المحضرين [في] النار.

٦٢- ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلا﴾ أي رزقًا. ومنه "إقامةُ الأنزال". و"أنزالُ الجنود": أرزاقُها.

٦٣- ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ أي عذابًا.

٦٥- ﴿طَلْعُهَا﴾ أي حَمْلُها. سمي طَلْعًا لطلوعه في كل سنة.

٦٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي خِلْطًا من الماء الحارِّ يشربونه عليها.

٦٩- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي وجدوهم كذلك.

٧٠- ﴿فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ أي يُسرِعون و "الإهْراعُ": الإسراع، وفيه شَبِيهٌ بالرِّعدة.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾؛ هذه في صفات شراب أهل الجنة، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾؛ لَا فِيهَا غَوْلٌ أي: لا تذهب بالعقل، لا تغتال عقولهم فتذهب بها؛ خمر الدنيا تذهب بالعقل وتجعل هذا كالمجنون، أما شراب الخمر في الآخرة فلا يذهب بالعقل. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي لا تذهب خمرهم وتنقطع، ولا تذهب عقولهم؛ أي لا يجدون أثر الخمر عليهم أثرًا سيئًا، ولا ينقطع الخمر عنهم. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تُقرأ (يُنْزَفُونَ) و(يُنْزِفُونَ)، كما في سورة الواقعة: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: 19] وهنا ﴿يُنزَفُونَ﴾؛ من أَنْزَفَ الرجل إذا حان منه النزف. وأصل النزف السيلان؛ يقول: نزف الأنف دمًا أي: سال، فالأصل هو السيلان. فهم يقولون: لا ينقطع عنهم الخمر بحيث لا يأتيهم، أو لا يتضررون به فتذهب عقولهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾؛ نساء الجنة قد قصرن أطرافهن -يعني النظر- فلا تنظر إلا إلى زوجها، وهي في نفس الوقت لا تجعل زوجها ينظر إلى غيرها من كمال الجمال فيها؛ وأصل القصر الحبس.

ومعنى ﴿عِينٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾؛ عين جمع، مفرده عيناء، وحور جمع مفرده حوراء؛ فعين جمع، والعيناء هي واسعة العين. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نُجْل العيون"، يقال: امرأة نجلاء؛ أي واسعة العينين، نُجْل العيون أي واسعتها، جمع عيناء. والحوراء: الحَوَر شدة البياض. والله وصف بدن الحور في الجنة -نساء المؤمنين في الجنة- وصفها في سورة الرحمن فقال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 58]؛ قال: الياقوت لشدة بياضهن، والمرجان لشدة الحمرة، فلون بدن نساء الجنة فيه بياض مشوب بحمرة، وهذا يكون أجمل شيء وأفضل شيء، نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾؛ قال: العرب تشبه النساء ببيض النعام، وبيض النعام العجيب أنه يخفيه، وغالبًا الطيور كلها تخفي بيضها فبيضها مكنون مخفي. قال: كأنهن بيض مكنون، والمكنون هو المصون.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾؛ أي صاحب. ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؛ مدينون أي مجزيون بأعمالنا يوم القيامة. ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي في وسط النار. يقول الزمخشري في تفسيره: الجنة فيها كوات -فتحات-، كوّة يعني الطاقة- يقول: في الجنة طاقات ينظرون منها إلى أهل النار، يعطيهم الله قوة البصر، لأن النار بعيدة عنهم فينظرون. فهذا اطلع، قال لأصحابه الذين معه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي ألا تريدون الرؤية؟ فاطلع فوجد صاحبه الذي كان في الدنيا ينهاه عن التصديق والإيمان، فقال: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾؛ أي لتهلكني معك، ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في النار.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾؛ رزقًا، النُزُل ليس المنزل، النُزُل هو الرزق؛ تقول: أعد الله لك نُزُلًا أي أعد الله لك ما يضاف به الضيف من القِرى، هذا المراد. وكما جاء في الحديث قال ﷺ: «من غدا إلى المسجدِ أو راح، أعدَّ اللهُ له نُزُلًا من الجنَّةِ كلما غدا أو راح»؛ كم يروح المرء إلى المسجد ويذهب!

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾؛ أي شجرة الزقوم، ﴿طَلْعُهَا﴾ حملها، طلعها ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾؛ يعني حملها وثمارها.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ هم إذا أطعموا الزقوم بقوة -وهم لا يريدون لمرارته وبشاعته- فتمتلئ بطونهم: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾- فتمتلئ بطونهم ثم يحتاجون إلى الماء، يعطشون بشدة، فيخلط لهم الماء الحار. قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا﴾ أي خلطًا من الماء الحار يشربونه عليه، نسأل الله العافية.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ﴾؛ أي وجدوا، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾؛ يسرعون.

٧٨- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي أبقينا عليه ذِكْرًا حسنًا.

﴿فِي الآخِرِينَ﴾ أي في الباقين من الأمم.

٨٨-٨٩- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

٩٣- ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا﴾ أي مال عليهم يضربُهم. ﴿بِالْيَمِينِ﴾ و"الرَّوَاغُ" منه.

٩٤- ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ أي: يُسرعون إليه في المشي. يقال: زَفَّتِ النَّعامةُ.

٩٧- ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ أي في النار. و"الجحيمُ": الجَمر. قال عاصم بن ثابت:

وضالَّةٌ مثلُ الجحيمِ المُوقَدِ

أراد: سهامًا مثلَ الجمر. ويقال: "رأيتُ جَحْمَةَ النارِ" أي تلهُّبَها؛ و"للنار جاحِمٌ" أي توقُّدٌ وتلهُّبٌ.

١٠٢- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي بلغ أن يَنْصرفَ معه ويُعينَه.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي سأذبحُك.

ولم يُرِدْ -فيما يرى أهلُ النظر- أنه ذَبَحه في المنام. ولكنه أُمر في المنام بذبْحِه فقال: إني أَرَى في المنام أني سأذبحُكَ.

ومثلُ هذا: رجلٌ رأى في المنام أنه يُؤذِّن -والأذانُ دليلُ الحجِّ- فقال: إني رأيتُ في المنام أني أحُجُّ؛ أي سأحجُّ.

وقوله: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ دليلٌ على أنه أمر بذلك في المنام.

١٠٣- ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي اسْتَسْلما لأمر الله. و"سَلَّمَا" مثلُه.

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي صَرَعه على جَبِينه، فصار أحد جبينيه على الأرض. وهما جبينان والجبهةُ بينهما. وهي: ما أصاب الأرضَ في السجود.

١٠٤-١٠٥- ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي حقَّقْتَ الرؤيا. أي صدقتَ الأمرَ في الرؤيا وعملتَ به.

١٠٦- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ﴾ أي الاختبار العظيمُ.

١٠٧- ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي بكبشٍ. والذِّبح: اسم ما ذُبِحَ. والذَّبح بنصب الذال: مصدر ذَبَحْتُ.

١٢٥- ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلا﴾ أي ربًّا. يقال: أنا بعلُ هذه الناقة، أي ربُّها. وبعلُ الدار أي مالكُها.

ويقال: بَعْلٌ صنمٌ كان لهم.

١٤٠- ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي السفينة المملوءة.

١٤١- ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي فقارَعَ.

﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي من المَقْرُوعِين. يقال: أدْحَض الله حُجَّتَه فدَحَضتْ؛ أي أزالها فزالتْ. وأصل الدَّحْض: الزَّلَق.

وقال ابن عُيَيْنَةَ: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قامَرَ. ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي المَقْمُورِين".

١٤٢- ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي مذنبٌ. يقال: ألامَ الرجلُ؛ إذا أذنَب ذنبًا يُلامُ عليه.

١٤٣- ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ يقال: من المصلِّين.

١٤٥- ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ ألقَيْناه.

﴿بِالْعَرَاءِ﴾ وهي: الأرضُ التي لا يُتَوَارَى فيها بشجر ولا غيره. وكأنه من عَرِيَ الشيءُ.

١٤٦- و (الْيَقْطِينُ) الشجرُ الذي لا يقومُ على ساقٍ. مثل القرع والحنظل والبِطِّيخ. وهو: يَفْعِيلٌ.

١٤٧- ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي ويزيدون. و"أو" معنى "الواو". على ما بينت في "تأويل المشكل"

١٤٩- ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سَلْهُم.

١٥٦- ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ أي حجةٌ بيِّنةٌ.

١٥٨-١٦٠- ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يقول: جعلوا الملائكة بناتِ اللَّه، وجعلوهم من الجن.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ يُريد: الذين جعلوهم بناتِ اللَّهِ. ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النارَ. ﴿إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

١٦٢- ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ أي بمُضِلِّين

١٦٣- ﴿إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أي من قُضِيَ عليه أن يَصْلَى الجحيمَ.

١٦٤- ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ هذا قول الملائكة.

١٦٦- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أي المُصلُّون.

١٦٧ - ﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ يعني: أهلَ مكةَ.

١٧٠ - ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ بمحمد صلى الله عليه وعلى آله. أي كذبوا بأنه مبعوث.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي نوح عليه السلام، أبقينا عليه ذكرًا حسنًا، نوح عليه السلام يُذكر حتى الآن ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي في الأمم الباقية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ نظر نظرة في النجوم -أي إبراهيم عليه السلام- بناءً على اعتقادهم؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن النجوم تنفع وتضر. نظر نظرة في النجوم على معتقدهم لأنهم يؤمنون بالنجوم بأنها تؤثر أو يعتقدون بعبادتها، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي إني مريض؛ إني نظرت في النجوم فعرفت أنني سأمرض، فتركوه؛ وإلا فهم كانوا يريدون أن يخرج معهم إلى العيد -إلى عيدهم- فتركوه. لما تركوه التفت إلى أصنامهم: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾، الروغان والروغ قال: هو المشي بخفية وسرعة، وباليمين: الضرب القوي، هذه جاءت معنا بمعنى القوة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾؛ يقول: يسرعون. يُقال: زف الظليم؛ الظليم هو ذَكَر النعام، يزف زفًا بمعنى يسرع بقوة، تجد رأسه في الخلف من شدة سرعته. فهم جاءوا مسرعين لما رجعوا من العيد ودخلوا على أصنامهم؛ لأنهم كانوا قد وضعوا عندها أطعمة ليتبركوا بها، فلما جاءوا إلى الأطعمة وإذا الأصنام مكسرة إلا واحدًا، فقالوا: ما ضربها وكسرها إلا إبراهيم، سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، فأقبلوا إليه يزفون؛ مسرعين إليه.

فقالوا: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾؛ أي في النار العظيمة؛ لأنهم أوقدوا نارًا عظيمة. كانت المرأة إذا أرادت أن تنذر -يعني تريد مثلًا تقول: إن شفى الله مريضي- تنذر وتقول: إن شفى الله مريضي لأحملن حطبًا مقدار كذا وكذا إلى جحيم إبراهيم، فكانوا قد أعدوا له جحيمًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾؛ هذا إسماعيل عليه السلام على الصحيح، ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾؛ أي سأذبحك. ورؤيا الأنبياء حق، ورؤيا الأنبياء وحي؛ ولذلك لا بد أن يمتثل الرؤيا، ولذلك لما رآه -رأى ثلاث ليالٍ أنه يذبح إسماعيل عليه السلام- فبعد ثلاث ليالٍ قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؛ استشاره، ما رأيك؟ ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ ما دام أمرك الله نفذ، افعل ما تؤمر ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾؛ قوله هذا دليل على أنه مأمور.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾؛ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ صرعه على جبينه، يعني ألقاه على جبينه، قيل: إنه وضع وجهه على الأرض حتى لا يتأثر إبراهيم فلا يستطيع. حتى إن أمه هاجر لما قال لها إبراهيم: إني أرى في المنام أني أذبحه -وما عنده إلا هذا الولد، أصلًا النبي إبراهيم عليه السلام بلغ من السن ما بلغ وطعن، وليس عنده إلا هذا الولد قبل أن يأتي إسحاق تبشره الملائكة- فقالت: نفذ ما أمرك الله، فقالت: ولكن لا تذبحه عندي -تقول هاجر- اخرج به بعيدًا. وخرج به إلى مكان الجمرات، من عند الكعبة إلى مكان الجمرات، فجاءه الشيطان فقال: تذبح ابنك؟ ما عندك إلا هذا الولد وبلغ معك السعي وتذبحه؟ فأخذ جمرات ورماه، ثم رماه المرة الثانية والثالثة، إلى أن وصل إلى المكان الذي يذبحه؛ قيل: إنه جبل كبير، والآن موجود في مكة يسمونه مجر الكبش؛ هذا قالوا إنه جر فيه إبراهيم عليه السلام الكبش فذُبح.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾؛ صدّقت الرؤيا أي: حققت الرؤيا؛ صدقت الأمر، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾؛ فعلًا بلاء، امتحان كبير عظيم! كيف يذبح ابنه؟ الواحد لو قيل له نأخذ مالك، لكان يتردد، لو جاءه وحي من السماء قال: أعطنا مالك كله، يمكن يتردد وهو مال؛ كيف بابنه فلذة كبده وليس عنده إلا هذا؟ هذا البلاء المبين، انظر إلى الأنبياء كيف يبتلون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾؛ ذبح أي: كبش، قيل: إنه رعى في الجنة أربعين سنة فصار كبش عظيم، والذبح العظيم أي: إنه سمين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾؛ هذا إلياس عليه السلام دعا قومه قال: كيف تعبدون بعلًا؟ قال: البعل هو الصنم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾؛ يونس عليه السلام، السفينة المملوءة. ﴿فَسَاهَمَ﴾؛ أي قارع، وضعوا قرعة، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾؛ أي من المقروعين المنهزمين، اقترعوا فوقعت القرعة عليه، فأعادوها مرة ثانية وثالثة وترجع تقع عليه، فقالوا: كيف نلقي هذا الرجل الصالح؟ أحدنا يلقي نفسه ولا يلقى هذا الرجل الصالح، فلما رآهم كذلك يونس ألقى بنفسه، فإذا الحوت قد أقبل وأخذه، وذهب به في قاع البحر. الله أعلم كم المدة التي مكثها، ذكر المفسرون أقوالًا كثيرة؛ بعضهم قال: أربعين يومًا، بعضهم قال: شهرين، وهو في هذه الظلمة دعا: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ المليم: المذنب، يقال: ألام الرجل إذا أذنب. ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾؛ هذه نحتاج لها وقفة حقيقة، هذه مفترض أنك لا تتجاوز الآية حتى تقف عندها تتأملها بقوة: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾. يقول النبي ﷺ: «اللّٰهم إني أسألك موجبات رحمتك»، وموجبات الرحمة أشياء أنت قدمتها تنفعك في الشدة؛ عبادات كنت تقدمها في حياتك، هذه العبادات تنفعك. في الرخاء أنت عندك فرصة تقرأ، تختم، تحج، تعتمر، تصلي، تبكر إلى المسجد، تمكث في المسجد، تصوم، تعتكف؛ عندك فرص، هذه الفرص تنفعك في الضيق، تحتاج لها (موجبات رحمتك). قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن يونس عليه السلام ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ﴾ سابقًا ﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ من المصلين ومن العابدين ومن كذا، عنده رصيد، ما خرج من هذا المأزق والمخرج إلا لأن عنده رصيدًا، ففك الله عنه الكرب بسبب أعماله الصالحة. نحن -مثلما ذكرت سابقًا- نحتاج أن نقف عندها: ما هي أعمالك التي قدمتها سابقًا؟ ما الذي فرطت فيه؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾؛ الأرض الخالية، ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ قيل: شجر القرع، فإنه مفيد في ورقه وأيضًا في ثمره.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾؛ عدد كبير، ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أيضًا ويزيدون، (أو) بمعنى الواو. ﴿فاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ سلهم، وُجِّهت لأهل مكة. ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؛ حجة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾؛ لما قالوا: الملائكة بنات الله، نسأل الله العفو والعافية، كيف هذا الافتراء! أأنتم رأيتم الملائكة؟ جعلوا الملائكة بنات الله، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبًا؛ قالوا: إن من الجن من صاهر بينه وبين ربنا نسب، يعني زواج بينه وبين الجن فولدت الجن الملائكة! ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ -وهي الجن- ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي سيحاسبون على كلامهم، ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾؛ أي بمضلين، ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾؛ من قُضي عليه أن يكون من أهل النار. ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ قال: هذا من كلام الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾؛ أي الملائكة مصلون.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾؛ أي أهل مكة، يقولون ماذا؟ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ﴾؛ فلما جاءهم الذكر كفروا به.

سورة ص

مكية كلها

١- ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي ذي الشرف. مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

ويقال: فيه ذِكرُ ما قبله من الكتب.

٢- ﴿وَشِقَاقٍ﴾ عداوةٍ ومُباعدةٍ.

٣- ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي لاتَ حين مَهْرَبٍ. والنَّوْص: التأخُّر في كلام العرب.

و"البَّوْص": التقدُّم. قال امرؤ القيس:

أمِنْ ذِكْرِ لَيْلَى -إذ نَأَتْكَ- تَنُوصُ *** فَتَقْصُرُ عنها خَطْوَةً وَتَبُوصُ؟!

وقال ابن عباس: ليس حينَ نزوٍ، و [لا] فِرارٍ.

٥- ﴿عُجَابٌ﴾ وعَجِيبٌ واحد. مثل طُوَال وطَوِيل وعُرَاض وعَرِيض وكُبَار وكَبِير.

١٠- ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أي في أبواب السماء، إن كانوا صادقين. قال زُهيرٌ:

وَلَوْ نَالَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

[وقال السُّدِّيُّ: في (الأسباب) : في الفضل والدين] قال أبو عبيدة: تقول العرب للرجل -إذا كان ذا دِينٍ فاضلٍ-: قد ارتقى فلانٌ في الأسباب. وقال غيره: كما يقال: قد بلغ السماءَ.

وأول هذه السورة مفسَّر في كتاب "تأويل المشكل".

١٢- ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ﴾ ذو البناء المحكَم. والعرب تقول: هم في عزٍّ ثابت الأوتاد، ومُلكٍ ثابتِ الأوتاد. يريدون أنه دائم شديد.

وأصل هذا أن البيت من بيوتهم يَثْبُت بأوتاده.

قال الأسود بن يَعْفُرَ:

في ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ

وقال قتادة وغيره: هي أوتادٌ كانتْ لِفِرْعَوْنَ يُعَذِّبُ بها الرجل، فيَمُدُّه بين أربعةٍ منها حتى يموت.

١٣- و (الأَيْكَةُ) الغَيْضةُ.

﴿أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ يريد الذين تَحَزَّبوا على أنبيائهم.

١٥- ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ قال قتادة: ما لها من مَثْنَوِيَّةٍ.

وقال أبو عبيدة: من فَتَحها أراد: ما لها من راحةٍ ولا إفاقةٍ. كأنه يَذهبُ

بها إلى إفاقةِ المريض من علَّتِه ومَن ضَمَّها جعلها: فُواق ناقةٍ؛ وهو: ما بيْن الحَلْبَتَيْن. يريد ما لها من انتظارٍ.

و "الفَوَاق" والفُوَاق واحدٌ -كما يقال: جَمَامُ المَكُّوكِ وجُمَامُه- وهو: أن تُحلَبَ الناقةُ وتُترَكَ ساعةً حتى ينزل شيءٌ من اللبن ثم تُحلَبَ. فما بين الحلبتين فُواقٌ. فاستُعير الفُوَاق في موضع التَّمَكُّثِ والانتظارِ.

١٦-١٧- ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾ والقطُّ: الصحيفةُ المكتوبةُ؛ وهي الصَّكُّ.

وروي في التفسير: أنهم قالوا ذلك - حين أُنزلَ عليه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ و (بِشِمَالِهِ) - يستهزئون.

أي عجِّلْ لنا هذا الكتاب قبلَ يوم الحساب.

فقال الله: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ رَجَّاعٌ تَوَّاب.

٢٠- و ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ يقال: أما بعدُ. ويقال: الشُّهودُ والأيْمَانُ؛ لأن القطع في الحكم بهم.

٢١- ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أي صَعِدوا.

٢٢- ﴿وَلا تُشْطِطْ﴾ أي لا تَجُرْ علينا. يقال: أشْطَطتُ؛ إذا جُرتُ. وشَطَّتْ الدَّارُ: إذا بعدتْ؛ فهي تَشُطُّ وتَشِطُّ.

﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي قَصْدِ الطريق.

٢٣- ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي ضُمَّهَا إليَّ واجعلني كافِلَها.

﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي غلبني في القول.

ويقال: صار أعزَّ مني. يقال: عَازَزْتُهُ فعَزَزْتُهُ وعَزَّني.

٢٤- ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ أي مضمومةً إلى نعاجه؛ فاختُصر. ويقال: "إلى" بمعنى "مع".

و (الْخُلَطَاءُ) الشركاءُ.

٢٥- ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ تَقَدُّمًا وقُرْبَةً.

الشَّرحُ

قال الله عز وجل :﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ عرفنا أن كلمات (ص، ق، ن) هي حروف هجائية، حروف مقطعة هجائية؛ نقول مقطّعة لأنها لا يوصل بعضها ببعض، فلا تقول (حَم) بل تقول :حا ميم، ولا تقول (ألَمَ) بل تقول :ألف لام ميم، فهي حروف من حروف الهجاء جيء بها للتحدي والإعجاز؛ أن يتحدى الله هؤلاء العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ معنى الذكر: قال المؤلف أي الشرف، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10] أي شرفكم، وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44] أي شرف. ويقال: فيه ذكر ما قبله من الكتب، كأن المؤلف يقول إن كلمة الذكر تحتمل معنيين: الذكر الشرف، والذكر أي: ذكر الكتب السابقة. ويحتمل أيضًا معنى ثالثًا: أنه من التذكّر، يعني ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أي هذا القرآن فيه التذكير لكم، والتذكير معناه الاتعاظ والفهم وإدراك هذا الشيء.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ شقاق: تعني عداوة ومباعدة؛ لأن الشقاق بمعنى كل جز يكون في شق، هذا في جهة وهذا في جهة، لا يجتمعان ولا يتآلفان فكل واحد يعادي الآخر عداوة ومحادة ، وقوه "في عزة"؛ أي في أنفة وتكبر وعدم قبول.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ (لات) هذه نافية؛ وحين أي وقت، ومناص تعني مهرب، فمعنى الآية: ليس الوقت وقت هروب؛ فإذا جاء يوم القيامة ليس لوقت بوقت مهرب.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن قولهم لما سمعوا القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. عُجاب وعجيب بمعنى واحد، مثل طُوال وطويل، أي تعجبوا من هذا القرآن تعجبًا واستغرابًا وعدم قبول.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾؛ أي أبواب السماء إن كانوا صادقين على ما يقولون، يريدون الطلوع والعلو والارتقاء. قال أبو عبيدة: تقول العرب للرجل إذا كان ذا دين فاضل: قد ارتقى فلان في الأسباب، وقال غيره: كما يقال قد بلغ السماء.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾؛ معنى الأوتاد: البناء المحكم. تقول العرب: هم في عز ثابت الأوتاد، وملك ثابت الأوتاد؛ يريدون أنه دائم شديد، هذا معناه. وهذا تفسير، وهناك تفسير آخر في هذه الآية وفي آية سورة الفجر ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 10]؛ قيل إنه كان يضع أوتادًا ويقيد من يريد تعذيبه بهذه الأوتاد. وقيل: الأوتاد هي الأهرام التي صنعها. وقيل: الأوتاد -مثلما ذكر هنا- معناها قوة الملك؛ فلان ذو أوتاد أي ثابت راسخ. قال قتادة: هي أوتاد كان لفرعون يعذب بها الرجل، فيمده بين أربعة منها حتى يموت.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾؛ الأيكة هي الشجرة والغيضة، والمراد بهم قوم شعيب. ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾؛ يعني هذه الأمم تحزبوا على أنبيائهم. ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾؛ معنى فواق: مثنويّة؛ يعني استثناء، ما لها استثناء ولا صرف عنها، إذا وقعت وقعت. وقال أبو عبيدة: من فتحها (فَوَاق) فما لها من راحة ولا إفاقة، لا يفيق؛ كأنه يذهب بها إلى إفاقة المريض من علته. ومن ضمها قال (فُواق)؛ وفواق الناقة بالضم: ما بين الحلبتين؛ تُحلب ثم تُترك ثم تُحلب. يقول: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ تأخذهم ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾؛ أي ليس لهم فرصة ولا مقدار حلبة ناقة ولا زمن ما بين الحلبتين، ما لها من انتظار إذا جاءت جاءت.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ ومن العجيب أن هناك من العامة من يخطئ ظنًا بأن "قط" هنا أنها الحيوان المعروف! القط هو الصحيفة المكتوبة وهي الصك، هذا رأي. والرأي الثاني: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ أي عجل لنا نصيبنا وحظنا في الدنيا مما كُتب لهم وقُدّر؛ كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: 19].

﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾؛ أعطاه الله داوود؛ ما هو؟ قال بعض أهل العلم: وفصل الخطاب هو كلمة (أما بعد)، هذه أُعطيت لداوود، ويقال: الشهود والأيمان... إلى آخره.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾؛ صعدوه. ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾؛ لا تجر علينا. وأشطّ إذا جار وحكم حكمًا جائرًا ظالمًا؛ ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي لا تميل، ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ إلى طريق الحق. ﴿أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾؛ أي صيّرها إلي واجعلني كافلها؛ اجعلها عندي. ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي قهرني وغلبني في خطابه؛ خطابه أقوى مني.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾؛ بسؤال أي بضم، أنه ضم النعجة إلى نعاجه. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ﴾؛ أي الشركاء. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ لداوود، أي تقدمًا وقربة عند الله.

٣١- و ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ الخيلُ. يقال: هي القائمةُ على ثلاثِ قوائم، وقد أقامت اليدَ الأخرى على طَرَف الحافر من يدٍ كان أو رجلٍ. هذا قول بعض المفسرين.

والصافِنُ - في كلام العرب: الواقفُ من الخيلِ وغيرها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن سرَّه أن يقومَ الرجالُ له صُفُونًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ"؛ أي يُديمون له القيامَ.

٣٣- ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ أي أقْبَل يمسَحُ بضرْبِ سوقِها وأعناقِها.

٣٤- ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ يقال: شيطانٌ. ويقال: صنمٌ.

٣٦- ﴿رُخَاءً﴾ أي رِخْوَةً ليِّنَةً.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد من النواحي. قال الأصمعي العرب تقول: أصاب الصواب فأخطأ الجواب. أي أراد الصواب.

٣٨- (الأَصْفَادُ) الأَغلالُ في التفسير.

٣٩- ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي فأعط أو أمسك. كذلك قيل في التفسير. ومثله: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾. أي لا تُعطِ لتأخُذَ من المكافأة أكثر مِمَّا أعطَيْتَ.

قال الفَرَّاءُ أراد: هذا عطاؤنا فمُنَّ به في العطية. أراد أنه إذا أعطاه فهو مَنٌّ فسمَّى العطاءَ مَنًّا.

٤١- (النُّصْبُ) والنَّصَبُ واحدٌ - مثل حُزن وحَزن - وهو: العَناء والتعب.

وقال أبو عبيدة النُّصْب: الشر. والنَّصَب الإعياء.

٤٢- ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي اضرب الأَرضَ برجلك. ومنه ركَضْتُ الفَرسَ.

و (الْمُغْتَسَلُ) المَاءُ. وهو: الغَسُول أيضًا.

٤٤- و (الضِّغْثُ) الحُزْمةُ من الخَلَى والعِيدَانِ.

٥٢- ﴿أَتْرَابٌ﴾ أسنانٌ واحدةٌ.

٥٧- (الْغَسَّاقُ). ما يَسيل من جلود أهل النار وهو الصديد. يقال: غَسَقتْ عينُه؛ إذا سالتْ.

ويقال: هو البارد المُنْتِنُ.

٥٨- ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ﴾ أي مِن نحوِه.

﴿أَزْوَاجٌ﴾ أي أصنافٌ. قال قَتادةُ هو الزَّمْهَرِير.

٦١- ﴿مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا﴾ أي من سَنَّه وشَرَعه.

٦٣- ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي كنا نَسْخَر منهم.

ومَن ضم أولَه جعله من "السُّخْرة". أي يَتَسَخَّرونهم ويَسْتَذِلُّونهم. كذلك قال أبو عبيدة.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾؛ هي الخيل. وتسمى صافنات إذا كانت تقوم على ثلاثة قوائم وترفع واحدة، وقد أقامت اليد الأخرى على طرف الحافر؛ يقول تقوم على ثلاثة ثم إحدى اليدين تقوم على حافر من يد واحدة أو رجل. وذُكر حديث هنا؛ قال الصافن: الواقف من الخيل، وقد قال النبي ﷺ: «من سره أن يقوم الرجال له صفونًا فليتبوأ مقعده من النار» الحديث عند الطبراني وصححه الألباني، من أحب أن يَمثُل له الناس قيامًا؛ أي يديمون القيام له، فهذا هو الذي يُذم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾؛ المسح هنا المراد به النحر والذبح؛ لأنها أشغلته عن طاعة الله وعن صلاة العصر؛ حتى توارت بالحجاب، أي: الشمس غربت وذهبت. وكان سليمان عليه السلام يصلي العصر، فلما ذهبت عليه بعد أن بدأت خيول تُعرض أمامه -وهو يحب الخيل فانفتن بها- ونسي الصلاة، فقال: ائتوني بها ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فبدأ يذبح فيها ويوزع لحمها على الفقراء؛ قال: هذه صدقة لله لأنها فوتتني صلاة العصر. ﴿طَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أقبل يمسح بضربها في سوقها -والسوق جمع ساق- والأعناق.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾؛ العجيب، لو أُعطي الإنسان الدنيا كلها لا يرتاح؛ داوود عليه السلام أعطاه الله الملك -ملك الدنيا- وفتنه، ﴿ظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، وفتن سليمان عليه السلام؛ فتنه الله قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أعطاه الله الملك وأعطاه النبوة وأعطاه كل شيء وفتنه في الدنيا. وأيوب عليه السلام أعطاه الله الملك وأعطاه الدنيا وأصابه بما أصابه من المرض؛ فالدنيا لا تبقى. يقول: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾؛ قال المؤلف هنا: الشيطان، ويقال:

صنم. والصحيح في تفسير الجسد هنا أن سليمان عليه السلام قال: لأطوفن الليلة على نسائي -وكانت عندهن مائة امرأة- يطوف عليهن بالجماع، وكل واحدة منهن تلد ولدًا يكون مجاهدًا في سبيل الله فارسًا، ولم يقل: إن شاء الله. فامتحنه الله؛ فطاف على نسائه ولم تحمل إلا واحدة، حملت بنصف إنسان، فلما حملت بهذا النصف أخذته وألقته على كرسيه. فلما رأى أنه نصف إنسان تذكر أنه لم يقل إن شاء الله.

معنى رخاء قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾؛ رخوة لينة، أي تمشي بهدوء. وفي آية الأنبياء قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾[الأنبياء: 81] ؛ والعاصفة هي السريعة، فكيف نجمع بينهما؟ نقول: لأنها تمشي حسب ما يريد هو؛ إن أراد أن تسري عاصفة سرت، وإن أراد أن تمشي بهدوء مشت، هذا تفسير. وبعضهم يقول: إنه إذا سافر تمشي بهدوء لأن المسافر يمشي بهدوء، وإذا رجعت تكون عاصفة سريعة لأن المسافر دائمًا الرجعة عنده أسرع، هذا استنباط والله أعلم. يقول تعالى: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد، أي ناحية.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ الأصفاد أي الأغلال، الأغلال قد شُدّت عليهم. ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي فأعطِ أو أمسك، الأمر إليك؛ بمعنى تمنع أو تعطي لك الأمر. ومثله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6] أي لا تعطِ لتأخذ الأكثر.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾؛ النُّصْب والنَّصَب مثل الحُزْن والحَزَن وهو العناء والتعب. انظر إلى الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أيوب عليه السلام؛ ما نسب البلاء إلى الله فلم يقل يا رب ابتليتني أو امتحنتني، بل قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وفي آية الأنبياء قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]. حتى الجن عندهم أدب مع الله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[الجن: 10]؛ فلما جاء الشر بنوه للمجهول (أُريدَ)، ولما جاء الخير قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ﴾. وحتى إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80]، ما قال: وإذا أمرضني؛ فالشر ليس إلى الله، وهذا من الأدب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾؛ اضرب الأرض برجلك، فنبعت عين؛ ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، والمغتسل هو الماء الغسول يُغتسل به وشراب. يقال إن الاغتسال بالماء البارد أحسن صحيًا وأفضل؛ فالماء الدافئ يعطي خمولًا أما البارد فيعطي نشاطًا أقوى، ممكن والله أعلم.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾؛ الضغث حزمة، مجموعة أعواد؛ لأنه حلف فأراد الله أن يكفر عنه فأراد أن يفي بيمينه بضربة واحدة بالضغث. ﴿أَتْرَابٌ﴾؛ نساء الجنة، قال: أسنانهن واحدة على سن واحد. ﴿وَغَسَّاقٌ﴾؛ في عذاب أهل النار، قال: ما يسيل من جلود أهل النار وهو الصديد. ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ﴾؛ أي من نوعه، ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أصناف كثيرة، نسأل الله العفو والعافية.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا﴾؛ من سن لنا وشرع لنا ودلنا وأضلنا زده عذابًا ضعفًا من النار. هؤلاء هم التابعون يقولون للمتبوعين، الضعفاء يقولون للكبراء: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: 68]، يقولون: ﴿رَبَّنَا زِدْهُمْ ضِعْفًا﴾. قال: لكل ضعف. ثم قالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾؛ شفنا رجالًا في الدنيا نظنهم على ضلال، أين ذهبوا؟ قالوا: لا، هم في الجنة؛ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ كنا نسخر منهم ونستذلهم في الدنيا.

سورة الزمر

مكية إلا ثلاث آيات

وهي قوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ إلى ﴿تَشْعُرُونَ﴾.

٤- ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لاختارَ ما يشاءُ من خلقه، لو كان فاعلا.

﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

٥- ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ قال أبو عبيدةَ: يُدخِلُ هذا على هذا. وأصل التَّكْوِير اللَّفُ والجمعُ. ومنه كَوْرُ العمامة. ومنه قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي جُمعتْ ولُفَّتْ.

٦- ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي ثمانيةَ أصناف، وهي التي ذكرها الله -عز ذكره- في سورة الأنعام.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي عَلَقَةً بعد نُطْفَةٍ ومُضْغَةً بعد علقةٍ.

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ يقال: ظُلْمَةُ المَشِيمَة وظُلمَةُ الرَّحِم وظُلمةُ البطن.

٩ - ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ﴾. أي مُصلٍّ. وأصل القُنوت: الطاعة.

﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعاتِه.

٢١- ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾ أي أدخله [فيها] فجعله ينابيعَ: عيونًا تَنْبُعُ.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يَيْبَس.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ مثلَ الرُّفَات والفُتَات.

٢٣- ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ يُشبِهُ بعضُه بعضًا، ولا يختلفُ.

﴿مَثَانِيَ﴾ أي تُثَنَّى فيه الأنباءُ والقصصُ وذكْرُ الثواب والعقاب.

﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ من آية العذاب وتَلِينُ من آية الرحمة.

٢٩- ﴿رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أي مختلِفون: يَتَنازعُون ويتَشَاحُّون فيه. يقال: رجلٌ شَكِسٌ [أي متعبُ الخُلُق].

قال قَتادةُ "هو الرجل الكافر؛ والشركاءُ: الشياطين.

(وَرَجُلا سَالِمًا لِرَجُلٍ) هو: المؤمن يَعْمَلُ لله وحده".

ومن قرأ: ﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ أراد: سلَّم إليه فهو سَلْمٌ له.

٣٣- ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو: النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هم: أصحابه رضي الله عنهم.

قال أبو عبيدة: "﴿الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في موضع جميع." وهي قراءة عبد الله (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ).

٤٧- ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ يقال: إنهم عمِلوا في الدنيا أعمالا كانوا يَرَوْنَ أنها تنفعُهم؛ فلم تنفعْهم مع شركِهم.

٦١- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ من العذاب، أي بمنجَاتِهم.

٦٣- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مفاتيحُها وخزائنُها، واحدها: "إقليد" يقال: هو فارسي معربٌ "إكليد".

٦٨- ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ أي ماتوا.

﴿إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ يقال: الشُّهَدَاءُ.

٦٩- ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أضاءتْ.

٧٤- ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ أي أرضَ الجنة.

﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي ننزل منها ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

الشرح

سورة الزمَر، تسمع بعض الناس يخطئ فيقول: سورة الزُّمُر (بضم الميم)، ليست الزُّمُر؛ هي سورة الزُّمَر بفتح الميم لقوله تعالى: ﴿زُمَرًا﴾. يقول: هي مكية إلا ثلاث آيات، الله أعلم.

يقول الله عز وجل: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ اصطفى: اختار، لاختار ما يشاء من خلقه لو كان فاعلًا سبحانه، ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾؛ وهذا يسمى التعليق على المستحيل؛ ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ﴾ ولكن لا يمكن ومستحيل وأبعد ما يكون.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾؛ قال أبو عبيدة -معمر بن المثنى صاحب "مجاز القرآن"- معنى ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ أن يدخل هذا على هذا. وأصل التكوير اللف؛ كقوله ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني لُفّت، فالتكوير هو اللف، ويقال: كور العمامة أي لفها على رأسه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾؛ ثمانية أزواج: أي ثمانية أصناف. إذا كان الشيء له نظير يسمى زوجًا؛ فالرجل والمرأة، المرأة نظير الرجل؛ فهذا زوج وهذا زوج، فالمرأة تسمى زوجًا والرجل يسمى زوجًا. وفي النباتات وفي الحيوانات إذا كان له نظير يسمى زوجًا، وإذا لم يكن له نظير لا يسمى زوجًا؛ فمثلًا العين في خلق الإنسان تسمى زوجًا لأن لها عينًا أخرى، أما الأنف فلا يسمى زوجًا بل يسمى فردًا، هذا معناه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾؛ ما هي الثمانية؟ ذكر وأنثى من الإبل والبقر والمعز والضأن؛ هذه أربعة، وكل واحد ذكر وأنثى فأصبحت ثمانية أزواج، ذكره الله في سورة الأنعام. لكن الكلام هنا الذي لم يتكلم عنه المؤلف والمفترض أن يتكلم عنه: هل الأنعام منزلة من السماء؟ هذه مسألة. والمسألة الثانية: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25]؛ هل الحديد منزل من السماء؟ الذي تكلم عنه الشيخ الإسلام ابن تيمية في مؤلفاته قال: ما نزل من السماء إلا الوحي والمطر، أما الأنعام فلم تنزل من السماء، بل هي مخلوقة مثلما يُخلق الإنسان. وكذلك الحديد في الأرض، وقيل: إنه يُوجَد على أن الحديد ينزل من الجبال من أعالي الجبال، فغالبًا يكون حديد الجبال.

وقوله ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾؛ قالوا: معنى أنزل لكم أي تناسل الأنعام؛ لأن الفحل يعلو ولأن الماء ينزل من الفحل إلى أسفل، فقالوا هذا التوجيه. أو إن المطر هو سبب الحياة لكل حي، فممكن يقال: لأن

الحيوانات هذه مخلوقة من الماء والماء منزل من السماء، فكأنه يريد إعادتها إلى أصلها؛ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ أي أنزل الأصل. لكن إذا جئت عند الحديد فليس له علاقة بالمطر، أو قد يكون من نتاج الأرض، الله أعلم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾؛ قال: نطفة وعلقة ومضغة... إلى آخره، ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾؛ ظلمة المشيمة، والرحم، والبطن.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾؛ قنوت الطاعة، قائم بالطاعة، آناء الليل أي: ساعاته.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ وقف عندها الذين تكلموا عن إعجاز القرآن؛ قال ﴿فَسَلَكَهُ﴾ ولم يقل أدخله أو فتح الأرض أو شقها، ولذلك الماء إذا نزل من السماء يدخل تحت الأرض بدون أن تشعر به، فكلمة سلك هذه معناها أنه دخل من غير أن يكون له أثر في تشقيق الأرض، والله أعلم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ أي النبات ييبس، يهيج معناها ييبس، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ يعني يتفتت.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾؛ التشابه هنا التشابه العام وهو يشبه بعضه بعضًا في القوة والبلاغة والفصاحة ونحوه. ﴿مَّثَانِيَ﴾؛ لأنه تُثنى فيه الأحكام وتُثنى فيه القصص؛ تُذكر القصة في عدة مواضع وتتكرر، وتتكرر آيات الوعد والوعيد. قال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ تقشعر من آيات العذاب، ﴿ثُمَّ تَلِينُ﴾ إذا جاءت آيات الرحمة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾؛ متشاكس أي: مختلف متنازع، ويتنازعون ويتشاحون فيه، كل واحد يريد أن يعمل عنده؛ كرجل مسكين مملوك اشترك في شرائه عدد، فكل واحد منهم يقول له: تعال اشتغل عندي، فلا يدري أين يذهب وضاع! هذا ضربه الله مثلًا لمن يعبد أصنامًا

ويترك الواحد القهار: تعبد هذا أم تعبد هذا، أو تتركهم وتعبد الواحد القهار؛ ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أحسن، وهذا هو معناه؛ أي الرجل المؤمن يعبد الله وحده، وهذا يعبد شركاء متشاكسين.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ قال محمد ﷺ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال أصحابه؛ ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ في موضع الجميع والله أعلم.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ أي أنهم عملوا في الدنيا أعمالًا كانوا يرون أنها تنفعهم فلم تنفعهم. هذه وقف عندها بعض السلف من التابعين ليلة كاملة وهو يرددها: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؛ فالإنسان لا يدري كيف سيقابل الله عز وجل، ولا يدري ماذا سيواجه!

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ قال: بمفازتهم من العذاب، أي بمنجاتهم؛ يُنَجون من العذاب.

﴿مَقَالِيدُ﴾؛ في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مفاتيح وخزائن، والواحد إِقْلِيد.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾؛ ماتوا، فالصعق المراد به هنا الموت؛ لأن الصعق يأتي بمعنى الإغماء كقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143] يعني إغماءً، وهنا موت.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ أي أضاءت. ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾؛ أورثنا الله عز وجل الأرض المقصود أرض الجنة، ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي ننزل منها حيث نشاء.

سورة المؤمن

مكية كلها

٣- (الطَّوْلُ) التفضُّل. يقال: طُل عليّ برحمتك؛ أي تفضَّل.

٤- ﴿فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ أي تصرُّفهم في البلاد للتجارةِ وما يكسبون.

ومثله: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾.

٥- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي ليُهلكوه. من قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ويقال: ليحبسوه ويعذبوه. ويقال للأسير: أخيذٌ.

١٠- ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ قال قتادة: "يقول: لَمَقْتُ الله إيّاكم في الدنيا -حين دُعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا- أكبرُ من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب".

١١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ مثلُ قوله:

﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة.

١٢- ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ كذَّبتم.

﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي تصدِّقوا.

١٥- ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي الوحيَ.

١٨- ﴿الآزِفَةِ﴾ القيامة. سميتْ بذلك: لقربها. يقال: أزِفَتْ فهي آزفة؛ وأزف شخوص فلان أي قرُب.

١٩- ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾ قال قتادة: "[هي] همزُه بعيْنِه وإغماضه فيما لا يحب الله".

والخيانة والخائنة واحد. قال [الله تعالى]: ﴿وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾.

٣٢- ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي يوم يَتَنَادى الناسُ: يُنادي بعضهم بعضًا. ومن قرأ: (التَّنَادِّ) بالتشديد؛ فهو من "نَدَّ يَنِدُّ": إذا مضى على وجهه، يقال: ندَّت الإبل؛ إذا شردتْ وذهبتْ.

٣٦-٣٧- ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي أبوابَها.

﴿فِي تَبَابٍ﴾ أي بطلان. وكذلك: الخسرانُ ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؛ وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾.

٤٠- ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير.

٥١- ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدمَ.

٥٦- ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ أي تكبُّرٌ عن محمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- وطمعٌ أن يَعْلُوه؛ وما هم ببالغِي ذلك.

٦٠- ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين.

٧٥- ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ﴾ أي تَبطَرون. وقد تقدم ذكر هذا.

٨٠- ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال قتادةُ: "رحلة من بلد إلى بلد".

٨٣- ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي رضوا به.

٨٥- ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ وسنتُه في الخالين: أنهم يؤمنون به -إذا رأَوا العذاب- فلا ينفعُهم إيمانهم.

الشَّرحُ

سورة حم المؤمن؛ وهي غافر.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾؛ الطول هو التفضل، يقال: طُلْ عليّ برحمتك أي: تفضل علي.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾؛ أي: تصرفهم وتنقلهم، والتقلب هنا هو السفر والتنقل من مكان لمكان للتجارات.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ المراد بالأخذ هنا الإهلاك، كقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: 40]، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي عقابي.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ بمعنى أن غضب الله أشد عليكم من غضبكم على أنفسكم. يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لَمَقْتُ الله إيّاكم في الدنيا -حين دُعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا- أكبرُ من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب" لأنهم سيمقتون أنفسهم إذا رأوا العذاب، ولكن لا ينفع.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾؛ كقوله: ﴿كُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ كذّبتم ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي تصدقوا.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ المراد بالروح هنا الوحي، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]. والروح في القرآن لها معاني كثيرة؛ فقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ [النبأ: 38] هذا جبريل، والروح تأتي بمعنى الوحي، والروح هي الروح التي سألوا عنها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85] روح الإنسان؛ فالروح لها معاني كثيرة وتسمى اللفظ المشترك.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾؛ قال قتادة: "هي همزُه بعيْنِه وإغماضه فيما لا يحب الله، والخيانة والخائنة واحد" العين تخون أحيانًا إما بهمزها أو غمضها أو إشارتها أو نحو ذلك.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ التناد له معنيان: التناد من النداء ينادي بعضهم بعضًا، ويأتي بمعنى النَّدّ وهو الشَّرد والهروب؛ يقول: ندّت الإبل إذا هربت، فـ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ينادي بعضهم بعضًا يوم القيامة، أو يشرد بعضهم عن بعض ويفر.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾؛ أسباب السماوات يعني أبوابها.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِي تَبَابٍ﴾؛ أي في خسران، كقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1] وهذا أيضًا من تفسير القرآن بالقرآن وتفسير اللفظ باللفظ، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: 101] أي خسارة.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ بغير تقدير. ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾؛ هم الملائكة.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾؛ تكبر عن محمد ﷺ وطمع أن يعلوه. و ﴿دَاخِرِينَ﴾؛ صاغرين.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ الفرح هنا هو الأشر والبطر وهنا مذموم الفرح، وأحيانًا يكون الفرح غير مذموم مثل قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: 5]، و﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]. أذكر أحدًا سألني قال: كيف الله عز وجل يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76] وفي آية أخرى يقول ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ وقال ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفرحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾؟ فقلت: هذا فرح وهذا فرح؛ فرح جائز وفرح محرم؛ فالمحرم فرح الأشر والبطر والتكبر، والجائز الفرح الذي أباحه الله ﷻ وشرعه بالفضل والرحمة.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ الرحلة من بلد إلى بلد. وقوله تعالى: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾؛ تكرر الفرح هنا، ومعناه أن الكفار يفرحون بالرسل وبما عندهم من العلم، ولكن لا يؤمنون بهم.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾؛ وسنته في الخالين أنهم لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب؛ ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

سورة فصلت

مكية كلها

٥- ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صَمَمٌ.

١٠- ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ جمع قوت، وهو: ما أُوتيه ابنُ آدمَ لأكله ومصلحته

﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ قال قتادةُ "من سأل فهو كما قال الله".

١١- ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي عمَد لها.

١٢- ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي صنعهنَّ وأحكمهنَّ. قال أبو ذؤيب:

وعليهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُما *** داودُ أو صَنَعَ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

[أي صنعهما داود وتبَّع].

﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي جعل في كل سماء ملائكة.

١٦- (الريح الصرصر) الشديدة.

﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ قال قتادةُ: "نكدات مشئومات". قال الشاعر:

فَسِيرُوا بِقلبِ العَقْرَبِ اليومَ إنَّه *** سَواءٌ عليكم بالنُّحوسِ وبالسَّعْدِ

١٧- ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي دعوناهم ودلَلْناهم.

(عَذَابُ الْهُونِ) أي الهوان.

٢٠- ﴿وَجُلُودُهُمْ﴾ كناية عن الفُروجِ.

٢٣- و ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ أهلككم.

٢٦- ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ الغَطُّوا فيه.

٢٩- ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ يقال: إبليسُ وابنُ آدمَ الذي قتل أخاهُ فسَنَّ القتلَ.

٣٠- ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أي آمنوا، ثم استقاموا على طاعة الله. قال النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-: " اسْتقيموا ولن تُحْصُوا ".

٣٢- ﴿نُزُلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي رزقًا.

٣٩- ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي اهتزت بالنبات.

﴿وَرَبَتْ﴾ علتْ وانتفختْ.

٤٢- ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ قالوا: لا يستطيع الشيطان أن يُبطلَ منه حقًّا ولا يُحقَّ منه باطلا.

٤٣- ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ تعزيةٌ [له صلى الله عليه وسلم وتسليةٌ] أي قد قيل للرسل قبلك: ساحر وكذاب؛ كما قيل لك.

٤٤- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي هَلا فصلتْ آياتُهُ، أي أنزلتْ عربيةً مفصلة بالآي! كأن التفصيل للسان العرب!.

ثم ابتدأ فقال: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ حكايةً عنهم. كأنهم يَعجبون فيقولون: أكتابٌ أعجميّ ونبيٌّ عربي؟ كيف يكون هذا!.

٤٤- ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ لقلّة أفهامهم. يقال للرجل الذي لا يفهم: أنت تنادَى من مكان بعيد!.

٤٧- (وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا) أي من المواضع التي كانت فيها مستترةً. وغِلاف كل شيء: كُمَّتُه. وإنما قيل: كُمُّ القميص؛ من هذا.

﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أعلمناك. هذا من قول الآلهة التي كانوا يعبدون في الدنيا.

﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ لهم بما قالوا وادَّعَوه فينا.

٥١- ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي كثير. إن وصفته بالطول أو بالعَرض جاز في الكلام.

٥٣- ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ قال مجاهد "فتح القُرى؛ ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فتح مكة".

٥٤- ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك.

الشرح

عندنا في التفسير من كتاب "غريب القرآن" للإمام ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ سورة فصلت وتسمى (حم السجدة).

قال تعالى: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾. الوَقْر هو الثِّقَل، وهو مختلف عن الوِقْر كما في قوله تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: 2]؛ فرق بين الوَقْر والوِقْر: الوِقْر (بكسر الواو): هو الثقَل الحسي؛ كالثقل الذي يكون في السفينة، أو في الطائرة، أو في السيارة، أو الحمل الثقيل على الظهر. الوَقْر (بفتح الواو): هو ثقل معنوي، وهو الثقل في السمع؛ فالأذن ليس فيها ثقل حسي يرى، ولكن لما كانت لا تسمع قيل فيها وَقْر.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾؛ يعني خزائنها في الأرض، وقدر فيها كل ما فيه مصلحة الإنسان، طعام الإنسان، والنبات، وغير ذلك.

ثم قال: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾؛ هذه مثل آية سورة يوسف: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7]؛ أي لمن يسأل عن خبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يجده في هذه السورة. وكذلك هنا قوله: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾؛ أي خلق الله وأوجد هذه الأشياء وأوضحها لكم، فلو جاء شخص وسأل: الأرض والسماوات في كم يوم خُلقت؟ تقول: في ستة أيام. كيف ذلك؟ خلق الأرض في يومين: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم دحاها وقدّر فيها أقواتها وبارك فيها في يومين، فصارت أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء -أي قصدها- وهي دخان فقضاهن سبع سماوات في يومين. فالمجموع ستة أيام، وكلمة ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أي لإيضاح هذا الأمر إيضاحًا مساويًا لمن أراد أن يسأل عن معرفة هذا الشيء وخلقه، ويحتمل أيضًا أن تكون ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ عائدة على الأقوات؛ أي رزقًا مساويًا لمن سأل رزقًا وطعامًا، والله أعلم.

ثم قال ﷻ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ القضاء هنا بمعنى الإحكام والصنع.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾؛ أي جعل في كل سماء ملائكتها وأمرها وما تدبره مما أوجده الله سبحانه وتعالى. وسُل هل في السماء دواب أم لا؟ وقد استنبط بعض العلماء من آية سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورة: 29] أن في السماوات دواب؛ لأن الضمير (فيهما) يعود على السماوات والأرض، والله أعلم بنوع هذه الدواب؛ أهي من الملائكة أم من غيرهم.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ الصرصر هي الريح الشديدة التي لها صوت. يقال: صَرَّ الباب وصَرْصَر إذا أحدث صوتًا، وصرصرت الريح إذا أحدثت صوتًا شديدًا.

وفي قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾؛ بينما قال في سورة القمر: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: 19]، فكيف نجمع بينهما؟ نقول: المراد بـ (يوم) هناك جنس الأيام أو بدايتها، وهنا قال ﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ والمراد بها ثمانية أيام، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة الحاقة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: 7].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾؛ الهداية هنا مراد بها هداية الدلالة والإيضاح، وليست هداية التوفيق. قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي عذاب الهوان والذلة.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ فتشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم. والسمع والبصر معروفان، وأما الجلود فقال بعض المفسرين: هي الجلود بعامتها، وقال بعضهم: هي كناية عن الفروج؛ لأن الذنب غالبًا يكون بالسمع، أو البصر، أو الفرج، أو

اللسان، والله أعلم. وإذا قيل إن الجلود ها هنا الفروج فهذا من باب التمثيل وتقريب الصورة والتخصيص لبعض الأفراد، وإلا فالجلد عام للإنسان كله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرْدَاكُمْ﴾؛ أي أهلككم. ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: الغطوا، واللغط في الشيء ولغا فيه بمعنى واحد، يقال: يَلغَط ويَغلَط، لَغَا وغلط ولَغَطَ. وهذا جائز في اللغة العربية حيث يُقدَّم حرف على حرف ويُسمّى المقلوب أو التقديم والتأخير.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾؛ اللَذين هنا هو جنس اللذين أضلانا من الإنس ومن الجن حتى نجعلهما تحت أقدامنا، وقيل في التمثيل: إبليس من الجن، وابن آدم الذي قتل أخاه من الإنس، وهذا التفسير بالتمثيل كثير عند السلف.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؛ استقاموا على الطاعة، أي اعترفوا بوحدانية الله والإقرار به والإيمان، وزادوا على ذلك الاستقامة والثبات عليه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾؛ النزل هو الرزق وما يُعَدُّ للضيف ويُهيّأ له.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؛ أي لا يستطيع أحد أن يبطله أو يغيره، وقيل: لا يستطيع الشيطان أن يزيد فيه أو ينقص. والتفسير بالشيطان هو من باب التمثيل أيضًا، فالقرآن محفوظ ولو أراد أي إنسان أو شيطان أن يزيد فيه أو ينقص أو يبطل شيئًا منه لكشف الله ستره.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؛ هذه تعزية للنبي ﷺ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؛ يقول: جعلنا القرآن عربيًا؛ ولو كان أعجميًا لقالوا متعجبين: كيف يأتي قرآن أعجمي على نبي ورسول عربي؟! ولكن جعلناه عربيًا والمبعوث إليكم عربي.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ هذه لفتة جميلة من المؤلف؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلّة أفهامهم. يقال للرجل الذي لا يفهم: أنت تنادَى من مكان بعيد!" لا تسمع ولا تدرك الكلام لبعده.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾؛ الأكمام هي أوعيتها وأغطيتها التي تخرج منها (وواحدها كِمّ).

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾؛ أي أَعْلَمْنَاكَ. ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾؛ استُعمل العرض هنا ليدل على الكثرة والسعة التي لا حد لها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾؛ قال مجاهد: فتح القرى، وهذا من باب التمثيل بالبعض؛ وإلا فالآفاق أوسع، فآيات الله في الآفاق شاملة للسماوات والأرض والكون كله. ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي في خلق الإنسان ونفسه وتكوينه، وهو قال فتح مكة، وهو في فتح مكة وغيره.

سورة الشورى

مكية كلها

٥- ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يَتَشَقَّقن من جلال الله تعالى وعظمته.

٧- ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي تنذرهم بيوم الجمع، هو يوم القيامة. كما قال عز وجلّ: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾؛ أي ببأس شديد.

١١- ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يريد: الإناث.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ يريد: جعَلَ للأنعام منها أزواجًا أي إناثًا.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يخلقكم في الرحم أو في الزوج.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كَهُو شيء. والعرب تُقيم المِثل مُقام النفْس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا؛ أي أنا لا يقال لي.

١٢- ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي مفاتيحُها. ومالك المفاتيح: مالك الخزائن. واحدها: "إقليد"؛ جُمع على غير واحد كما قالوا: "مذاكير" جمع ذكَر. وقالوا: "محاسن" جمع حُسْنٍ.

١٧- ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أي العدل.

١٨- ﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي خائفون.

٢٠- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ﴾ أي عمل الآخرة.

يقال: فلان يحرُث للدنيا؛ أي يعمل لها ويجمع المال.

ومنه قول عبد الله بن عمرو: "احرُثْ لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمَلْ لآخرتك كأنك تموت غدًا".

ومن هذا سمّي الرجل: "حارثًا".

وإنما أراد: من كان يريد بحرثه الآخرةَ، أي بعمله.

﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي نضاعفْ له الحسناتِ.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي أراد بعمله الدنيا آتيناه منها.

٢١- ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ وهم: الآلهة. جعلها شركاءهم: لأنهم جعلوها شركاء الله عز وجل؛ فأضافها إليهم: لادعائهم فيها ما ادعَوا.

وكذلك قوله ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي من الشركاء الذين ادَّعيتموهم لي.

﴿شَرَعُوا لَهُمْ﴾ أي ابتدعوا لهم.

﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ أي القضاء السابق الفصل: بأن الجزاء يوم القيامة.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا.

﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

قال قتادةُ: "لا أسألكم أجرًا على هذا الذي جئتكم به إلا أن تَوَدُّوني في قرابتي منكم. وكلُّ قريش بينهم وبين رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قرابةٌ".

قال مجاهد: "لم يكن من قريش بطنٌ إلا وَلَدَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم".

وقال الحسن: "إلا أن تتودَّدُوا إلى الله عز وجل بما يقرِّبُكُم منه"

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ أي يكتسبْ.

٢٦- ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يجيبهم؛ كما قال الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا: يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى ❊❊❊ فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ -عِنْدَ ذَاكَ- مُجِيبُ

٢٩- ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي نشر.

٣٢- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ يعني: السفن.

﴿كَالأَعْلامِ﴾ أي الجبال. واحدها: عَلَم.

٣٣- ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي سواكنَ على ظهر البحر.

٣٤- ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يُهْلِكْهُنَّ. يقال: فلان قد أوبقَتْه ذنوبه. وأراد: أهل السفن.

٣٨- ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي يَتَشاورون فيه.

٤٥- ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي قد غَضُّوا أبصارهم من الذلِّ.

٥٠- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ أي يجعلُ بعضَهم بنينَ وبعضَهم بناتٍ. تقول العرب: زوَّجت إبلي؛ إذا قرنت بعضها ببعض. وزوَّجت الصغار بالكبار: إذا قرنت كبيرًا بصغير.

٥١- ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا﴾ فِي الْمَنَامِ.

﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلَّم موسى عليه السلام.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا﴾ أي ملَكًا [﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾] فيكلمَه عنه بما يشاء.

الشرح

قال الله عز وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾؛ يَتَفَطَّرْنَ أي يتشققن من جلال الله وعظمته.

وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ قال: ﴿تُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أي تنذر بيوم الجمع، أو تنذر لهذا اليوم، وبهذا اليوم.

وقال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾؛ المراد بالأزواج هنا الإناث. أحيانًا الأزواج يُراد بها الأصناف والأقران، وأحيانًا يُراد بها الإناث؛ فمثلًا قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: 22] يعني أشباههم وأصنافهم وأقرانهم، وهنا لا يريد الأصناف، بل يريد مقابل الذكور؛ الإناث؛ ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني نساءً، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي إناثًا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾؛ ينشركم، يذرؤكم أي يخلقكم في الرحم أو في الزوج، أو ينشركم في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ يقول هنا ليست الكاف زائدة، وإنما جِيءَ بها للتأكيد، مثل ما تقول: مِثْلِي لا يُقال له كذا، أو مِثْلُك لا يُقال له كذا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ المراد بالمقاليد المفاتيح. واختلفوا في المفاتيح: هل هي المفاتيح التي تُفتح بها الخزائن، أم المفاتيح هي الخزائن؟ فيه خلاف، بمعنى له مقاليد السماوات والأرض: أي خزائن السماوات والأرض، أو مفاتيح الخزائن.

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾؛ المراد بالحرث والزرع: ازرع دنياك لآخرتك، ازرع أيامك لآخرتك؛ أي أنك الآن في وقت الزرع والقيامة وقت الحصاد، هذا المقصود. هناك أناس يحرثون الدنيا لأجل الدنيا وينسون الآخرة، وأناس يحرثون لأجل الآخرة. قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ ونوفقه ونعينه ونساعده، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ما قدّره الله.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾؛ يعني الأصنام والمعبودات التي من دون الله، أو الشياطين تشرع لهم من الدين ما لم يشرعه الله. هل هم شركاء لله أم شركاء لهم؟ له وجهان؛ إذا قلت شركاء لله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [القصص: 62] يعني الذين جعلتموهم شركاء معي، وإن قلت هم شركاء لهم: جعلوهم هم شركاء، فيجمع بين الأمرين.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أي يجيبهم، هذا على رأي المؤلف، ويأتي بمعنى أن المؤمنين هم الذين يجيبون ربهم ويستجيبون له.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ يقصد أن النبي ﷺ نَسَبُه داخلٌ في جميع قبائل مكة من قبائل قريش؛ قبيلة مخزوم، وقبيلة أمية، وقبيلة عبد مناف، وقبيلة كذا... القبائل كلها، أو نقول أفخاذ ترجع إلى قبيلة قريش. فالرسول ﷺ ما من بيت في قبيلة إلا وله نسب فيه؛ إما مصاهرة وإما نسب، كلها داخلة. ومعنى قوله تعالى: ﴿لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي تُوَدّوني لأجل المودة والمحبة التي بيني وبينكم بسبب القرابة، أو على الوجه الثاني: أن تتوددوا إلى الله بما يقربكم إليه؛ يعني المودة في القربى أن تتقربوا إلى الله بالمحبة والمودة، كلها محتملة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾؛ الجواري في البحر هي السفن، كالأعلام: تراها على مسافة بعيدة كالجبال، والعَلَم المراد به الجبل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾؛ أي ساكنة لا تتحرك. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾؛ أي يهلكهن، كما في الحديث قال ﷺ: «فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا» أي تعتق نفسك أو توبقها في النار أي تهلكها. وفي سورة الكهف: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52] أو مَّهْلِكًا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ قال: قد غضوا أبصارهم من الذل. هذه الآية فيها دلالة على أن الكفار إذا حُشروا يوم القيامة يغضون أبصارهم. وفي آية أخرى قال إنهم يبصرون: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: 11]، وفي حديث أو آية أخرى قال: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22] أي قوي، فكيف نجمع؟ نقول: في وقت دون وقت.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾؛ التزويج هنا غير التزويج الأول ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي إناثًا؛ هنا ﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾ أي يصنفهم، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾؛ لِمَ قَدَّم الإناث على الذكور؟ قدم الإناث لكثرتهن، الإناث أكثر من الذكور. ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ يعني يعطي الشخص الواحد أصنافًا؛ تجد هذا الإنسان عنده ذكر وعنده أنثى، وبعضهم عنده ذكور كلهم، وبعضهم إناث كلهم، وبعضهم لا يأتيه شيء ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ لحكمة في توزيع هذه الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾؛ قال: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ المنام؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي، ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ مثل موسى عليه السلام، ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ مثلًا إلى الأنبياء؛ يعني يرسل إليهم جبريل عليه السلام. فهذه أصناف أو أنواع الوحي.

سورة الزخرف

مكية كلها

٤- ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي في أصل الكتب عند الله.

٥- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي نُمسك عنكم فلا نذكركم صفحًا، أي إعراضًا. يقال: صفحت عن فلان؛ إذا أعرضت عنه. والأصل في ذلك: أنك تُولِّيه صفحةَ عنقك. قال كُثير يصف امرأة:

صَفُوحًا فما تَلْقَاكَ إلا بحيلةٍ *** فَمَن مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ

أي معرضةً بوجهها.

ويقال: ضربت عن فلان كذا؛ أي أمسكته وأضربت عنه.

﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ أي لأنْ كنتم قومًا مُسرفين.

١٣- ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين. يقال: أنا مُقْرِن لك؛ أي مطيق لك.

ويقال: هو من قولهم: أنا قِرْن لفلان؛ إذا كنت مثله في الشدة.

وإن فتحت - فقلت: أنا قَرْن لفلان. - أردتَ: أنا مثله في السنّ.

١٥- ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي نصيبًا. ويقال: شِبهًا ومِثْلا؛ إذ عبدوا الملائكة والجن.

وقال أبو إسحاقَ [الزجّاجُ] "إن معنى (جُزْءًا) هاهنا: بنات. يقال: له جزء من عيال؛ أي بنات".

قال: وأنشدني بعض أهل اللغة بيتا يدل على أن معنى "جزء" معنى "إناث" - قال: ولا أدري: البيتُ قديم؟ أم مصنوع؟

إنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يومًا فلا عَجَبٌ *** قد تُجْزِئُ الحُرَّةُ المِذْكَارُ أحْيانا

فمعنى "إن أجزأت" أي أنَثَتْ أي أتت بأنثى.

وقال المفضَّل بن سَلَمَةَ: "حكى لي بعض أهل اللغة: أجزأ الرجلُ؛ إذا كان يولد له بناتٌ. وأجزأت المرأةُ: إذا ولدت البناتِ". وأنشد المفضل:

زُوِّجْتُها من بَناتِ الأوسِ مُجْزِئَةً *** للعَوْسَجِ اللَّدْنِ في أبياتِها زَجَلُ

١٧-[﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا﴾ يريد] :

جعلتم البناتِ للَّه: وأنتم إذا ولد لأحدكم بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي حزين؟!.

١٨- ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي رُبِّيَ في الحُلِيّ، يعني البناتِ.

و (الْخِصَامُ) جمع "خصيمٍ". ويكون مصدرا لـ"خاصمت".

﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ للحجة.

١٩- ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أي عبيده، يقال: عبد وعبيد وعباد.

٢٢-٢٣- ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين واحد.

٢٢-٢٣- ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين واحد.

٢٨- ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعني: "لا إله إلا الله".

٣٣- ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي كفارًا كلهم.

و (المعارج) : الدَّرَج. يقال: عَرَج أي صعِد. ومنه "المِعراج"؛ كأنه سبب إلى السماء أو طريق.

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي يعلون. يقال: ظهرت على البيت؛ إذا علوت سطحه.

٣٥- و (الزخرف) : الذهب.

٣٦- ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي يُظْلم بصره. هذا قول أبي عبيدةَ.

قال الفراء: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أي يُعرِضُ عنه. ومن قرأ:

(وَمَنْ يَعْشَ) بنصب الشين أراد: [من] يعم عنه. وقال في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾.

ولا أرى القول إلا قولَ أبي عبيدةَ. ولم أر أحدًا يُجيز "عَشَوْتُ عن الشيء: أعرضتُ عنه؛ إنما يقال: "تَعاشَيْتُ عن كذا"؛ أي تغافلتُ عنه كأني لم أره. ومثله: "تعامَيْتُ".

والعرب تقول: "عَشَوْتُ إلى النار" إذا استدللتُ إليها ببصر ضعيف قال الحُطَيْئة:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إلَى ضَوْءِ نارِهِ *** تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

ومنه حديث ابن المسيّب: "أن إحدى عينَيْهِ ذهبتْ وهو يَعْشُو بالأخرى"؛ أي يبصر بها بصرًا ضعيفًا.

٤٤- ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي شرفٌ لكم؛ يعني القرآن.

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن الشكر عليه.

٤٥- ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي سَلْ من أرسلنا إليه رسولا - من رسلنا - قبلك؛ يعني: أهل الكتاب.

٥٢- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال أبو عبيدةَ "أراد بل أنا خير".

وقال الفراء: "أخبرني بعض المشيخة: أنه بلغه أن بعض القراء قرأ: (أَمَا أَنَا خَيْرٌ) وقال لي هذا الشيخ: لو حفظت الأثر لقرأت به؛ وهو جيد في المعنى".

٥٥- ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضَبونا. و"الأسف": الغضب. يقال: أَسِفتُ آسَفُ أسفًا؛ أي غضبتُ.

٥٦- ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قومًا تقدَّموا.

﴿وَمَثَلا﴾ عبرةً.

وقرأها الأعرج: (سُلَفًا) كأن واحدته: "سُلْفةٌ" [أي عُصبة وفرقة متقدمة] من الناس، مثل القِطعة. تقول: تقدمتْ سُلفةٌ من الناس.

وقرئت: (سُلُفًا)؛ كما قيل: خَشَب وخُشُب وثَمَر وثُمُر. ويقال: هو جمع "سَلِيفٍ". وكله من التقدُّم.

٥٧- ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يَضِجُّون. يقال: صددتُ أَصُدُّ صدًّا؛ إذا ضججتُ.

و"التَّصْدِيَةُ" منهُ وهو: التصفيق. والياء فيه مبدلة من دال؛ كأن الأصل فيه: "صدَّدْت" بثلاث دالات؛ فقُلبتْ الأخرى ياءً فقالوا: "صَدَّيتُ" كما قالوا: قَصَّيْت أظفاري؛ والأصل: قصَّصْت.

ومن قرأ: (يَصُدُّونَ)؛ أراد: يَعدلون ويُعرضون.

٦١- ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾؛ أي نزول المسيح -عليه السلام- يُعلَم به قربُ الساعة.

ومن قرأ: (لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ)؛ فإنه يعني: العلامة والدليل.

٧٠- ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي تُسرون. و"الحَبْرةُ": السرور.

٧١- (الأكواب) الأباريق لا عُرى لها؛ ويقال: ولا خراطيمَ. واحدها: "كُوب".

٧٥- ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي يائسون من رحمة الله.

٧٩- ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾ أي أحْكموه.

٨١- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: أولُ من عبده بالتوحيد.

ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أول الآنفين الغِضابِ. يقال: عَبِدتُ من كذا أعبَدُ عَبَدًا فأنا عَبِدٌ وعابد. قال الشاعر:

وأَعْبَدُ أنْ تُهْجَى تَمِيمٌ بِدَارِمِ

أي: آنَفُ.

٨٩- ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أي أعرضْ عنهم.

الشرح

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ الضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعود على القرآن الكريم، والمراد بـ ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ. ولـ (أم الكتاب) في القرآن عدة إطلاقات؛ فتارة يُراد بها الفاتحة، وتارة يُراد بها اللوح المحفوظ.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾؛ معناه: لما أعرضتم أعرض الله عنكم وأمسك عنكم، وصفحًا أي صفحة العنق، وهو أن تُولي المخاطَبَ صفحة عنقك وتُعرض عنه ولا تلاقيه بوجهك. ومعنى آخر للصفح هو العفو ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾ [التغابن: 14]، والصفح أبلغ من العفو؛ إذ العفو قد يكون مع ترك المطالبة بالذنب مع بقاء أثره في النفس، أما الصفح فهو العفو والتجاوز التام حتى كأن الذنب لم يكن، فتستقبل صاحبه بوجه طليق وتضمه إليك.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ مقرنين أي مطيقين وقادرين؛ أي لم تكن لنا قدرة على تسخيره لولا أن الله عز وجل سخر لنا هذه الإبل، والدواب، والسفن، وسائر المركوبات كالسيارات والطائرات؛ فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا نطيقه بقدرتنا.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾؛ الأصل في (الجزء) أنه النصيب والبعض من الشيء؛ فكأنهم لما زعموا أن الملائكة بنات الله فقد جعلوهم جزءًا منه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾؛ أي الإناث هنا؛ الأنثى تتربى منذ صغرها وتنشأ في الحلية والزينة لِما فيها من النقص الفطري فتُكمّله باللباس والحلي، ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي ضعيفة الحجة عند الخصومة، يقل بيانها وتفوتها الأمور.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾؛ وفي قراءة أخرى: ﴿عِندَ الرَّحْمَٰنِ﴾، والمعنى واحد؛ جعلوا الملائكة الذين خلقهم الله ﷻ لعبادته إناثًا وزعموا أنهم بنات الله، ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: 21] فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور!

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾؛ أي على دين واحد وطريقة واحدة في العبادة. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾؛ أي كلمة التوحيد التي قالها إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾؛ المعارج هي السلالم التي يُصعد عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾؛ معنى ﴿يَعْشُ﴾: يتعامى ويعرض ولا يريد التقبل. وأصل "العَشَا" ضعفٌ في البصر؛ كمن يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، فكأن هذا المعرض يتعامى عن الحق كالعشيّ.

وليس الفعل هاهنا من (عاش يعيش)؛ بل هو من (عشا يعشو) بالواو، وحُذفت الواو لدخول جازم الشرط ﴿وَمَن يَعْشُ﴾. فمن أعرَض وتعامى عن ذكر الله قيّض الله له شيطانًا يلازمه ولا يفارقه، ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؛ فيظن وهو على ضلالته أنه على الحق، حتى إذا جاء يوم القيامة قال لقرينه: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾؛ أي شرف لك ولقومك. وقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾؛ قيل إنها نزلت ليلة الإسراء في بيت المقدس حين التقى النبي ﷺ بالأنبياء.

وقوله تعالى عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ مهين أي حقير لا يُلتفت إليه في زعم فرعون، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي لا يفصح بكلامه لِعُقدة كانت في لسانه فلا يتبين كلامه.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾؛ السلف هم من مضوا وتقدموا من السابقين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾؛ يُقرأ بكسر الصاد ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يضجون ويرفعون أصواتهم فرحًا وحِجاجًا. وسبب ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فرح المشركون وقالوا: أليس عيسى يُعبد من دون الله؟! فإن كان كذلك فهو معنا في النار! فضجوا بذلك فرحًا، فرد الله عليهم وبيّن أن عيسى عليه السلام عبدٌ أنعم الله عليه وجعله آية لبني إسرائيل، ولا يدخل في جملة الأصنام المعبودة باطلاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي إن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان من العلامات الدالة على قرب قيام الساعة. وفي قراءة شاذة: ﴿لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ بفتح العين واللام؛ أي أمارة وعلامة.

وقوله تعالى: ﴿تُحْبَرُونَ﴾؛ الحَبْرَة هي السرور والبهجة، وقيل الصوت النَّدِيّ الجميل، ومنه يقال: حَبَّرْتُ الشيءَ تحبيرًا إذا حسّنته.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾؛ هذا من باب الفرض والتقدير؛ أي لو فُرِضَ مُحالاً أن للرحمن ولدًا لكنتُ أول من يعبده بامتثال أمره، ولكن ليس له ولد سبحانه ومستحيل أن يكون له ولد. وقيل معنى ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: أي أول الآنفين الغاضبين لمثل هذا الافتراء والأنفة من نسبته لله.

سورة الدخان

مكية كلها

٤ - ﴿يُفْرَقُ﴾ أي يُفصَل.

١٠ - ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أي بجَدبٍ؛ يقال: "إن الجائع فيه كان يَرى بينه وبين السماء دخانًا من شدة الجوع".

ويقال: "بل قيل للجوع: دخان ليُبْسِ الأرض في سنة الجدب، وانقطاع النبات، وارتفاع الغبار. فشُبِّهَ ما يرتفع منه بالدخان. كما قيل لسنة المجاعة: غَبْرَاءُ؛ وقيل: جُوع أغْبَرُ وربما وضعت العرب الدخانَ موضع الشر إذا علا، فيقولون: كان بيننا أمر ارْتَفَع له دخان".

١٥ - ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى شرككم. ويقال: إلى الآخرة.

١٦ - ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يعني: يوم بدر.

٢٠ - ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي تقتلونِ.

٢١ - ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي دعوني كَفَافًا لا عليَّ ولا ليَ.

٢٤ - ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي ساكنًا.

٢٩ - ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ مبيّن في كتاب "تأويل المشكل".

٣٣ - ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُبِينٌ﴾ أي نِعَمٌ بَيِّنَة عظام.

٣٥ - ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي بِمُحْيَيْنَ.

٤١ - ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾ أي وليٌّ عن وليِّه بالقرابة أو غيرِها.

٤٤ - ﴿طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ أي طعام الفاجر.

٤٥ - ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قد تقدّم تفسيره.

٤٦ - و (الْحَمِيمُ) الماء الحارُّ.

٤٧- ﴿خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ﴾ أي فرُدُّوه بالعنف. وتقرأ: ﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ يقال: جيء بفلان يُعْتَلُ إلى السلطان؛ أي يُقاد.

﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسط النار.

٥٣- و (الإِسْتَبْرَقُ) ما غلُظ من الديباج. و (السُّنْدُسُ) ما رقَّ منه.

٥٤- ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قَرَنَّاهم بهن.

٥٦- و [قوله]: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلا الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾؛ مبين في كتاب "تأويل المشكل".

٥٩- ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي انتظر.

﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي منتظرون.

الشرح

قال الله عز وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ قوله: ﴿يُفْرَقُ﴾ أي يُفْصَلُ من اللوح المحفوظ؛ ففي هذه الليلة المباركة (ليلة القدر) يُقَضَّى ويُقَدَّرُ ما يكون في السنة من الآجال والأرزاق والأقدار؛ وهذا هو "التقدير السنوي"، وهو يختلف عن "التقدير العمري" الذي يُكْتَبُ في بطن الأم (من كَتْبِ رزق الإنسان وأجله وعمله وشقاوته أو سعادته)، وعن "التقدير اليومي" المذكور في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾؛ قيل: إن هذا الدخان قد وقع لأهل مكة في زمن النبي ﷺ آيةً وعقوبةً ورَهَقًا أرسله الله عليهم، فكان الرجل يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من شدة الجوع والمشقة. وقيل: بل هو دخانٌ حقيقي يخرج في آخر الزمان، وهو من أشراط الساعة الكبرى العشر التي تعمّ أهل الأرض.

وهددهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾؛ البطشة الكبرى هي ما أحلّه الله بالمشركين من العذاب والنكال يوم بدر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾؛ أي اتركه ساكنًا منفرجًا كما هو على حاله. وذلك أن موسى عليه السلام لما جاوز البحر بأمر الله، وشَرَع فرعون وجنوده في إثرهم، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليطبَقَ ويتصل ولا يلحق بهم العدو، فأمره الله أن يتركه رَهْوًا يابسًا ساكنًا حتى يدخل فرعون وجنوده كاملين في وسطه، فإذا استكملوا دخوله أطبَقَ الله عليهم الماءَ فأغرقهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾؛ بيّن المصنف تأويل هذه الآية في كتاب "تأويل مشكل القرآن"؛ إذ هي من بديع بلاغة القرآن وأساليبه الاستعارية؛ فالبكاء هنا استعارة للأسَفِ والحزن على هؤلاء الطغاة؛ إذ لم تحزن عليهم السماء والأرض ولا مَن فيهما، بل أُهلكوا غيرَ مُنْظَرِينَ ولا مُؤَخَّرِينَ. وقيل: بل هو على حقيقته؛ فإن السماء والأرض تبكيان حقيقةً على فقد المؤمنين والصالحين لما لهما من العمل الصالح عليهما، بخلاف هؤلاء الكفار.

وقوله تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾؛ تقدّم أن المهل هو دُرْدِيّ الزيت أو عَكَرُهُ المذاب الشديد الحرارة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾؛ الحميم هو الماء البالغ نهاية الحرارة.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾؛ أي خذوه بقوة ودَفْعٍ وعُنْفٍ وَشِدَّةٍ إلى وسط النار.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾؛ هما نوعان من الحرير؛ فالإستبرق هو الحرير الغليظ الشديد الثخانة، والسندس هو الحرير الناعم الرقيق الدقيق.

وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ من عقد الزوجية المتعارف عليه؛ وقال المؤلف: "قرناهم" لأن التزويج في الجنة لا ينفصل فهم كالقرناء؛ أي قَرَنَّاهُمْ بِهِنَّ وصَيَّرْنَاهُمْ أَقْرَانًا لَهُنَّ، من المقارنة والقُرْب.

سورة الجاثية

مكية كلها

١٠- ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي أمامهم.

١٨- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ﴾ أي على مِلَّة ومذهب. ومنه يقال: شَرَعت لك كذا، وشَرَع فلان في كذا: إذا أخذ فيه. ومنه "مَشارِعُ الماء" [وهي] : الفُرَض التي يَشْرَع فيها الناس والواردة.

٢١- ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي اكتسبوها. ومنه قيل لكلاب الصيد: جوارحُ.

٢٤- ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾ مرور السنين والأيام.

٢٨- ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [باركةً] على الرُّكَب. يراد: أنها غير مطمئنة.

﴿تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي إلى حسابها.

٢٩- ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ يريد: أنهم يقرءُونه فيَدُلُّهم ويُذكِّرُهم؛ فكأنه ينطق عليهم.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي نكتب.

٣٢- ﴿قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي ما نعلم ذلك إلا ظنًّا وحَدْسًا وما نستيقنه.

و"الظن" قد يكون بمعنى "العلم"؛ قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾؛ وقال دُرَيْدٌ:

فقلت لهم: ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ *** سَرَاتُهُمُ في الفارِسِيِّ المُسَرَّدِ

أي أيقنوا [بإتيانهم إيَّاكم] .

٣٣-[قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ؛ هو مثل قوله] : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ؛ يعيَّرون أنهم عملوا في الدنيا أعمالا كانوا يظنون أنها تنفعهم، فلم تنفعهم مع شركهم.

٣٤- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ﴾ أي نتركُكم.

الشرح

قال الله عز وجل: ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛ لفظة (وَرَاء) في لسان العرب تأتي على عدة معانٍ: الخَلْف؛ كقوله تعالى: ﴿مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: 14] أي من خلفها. الأَمَام؛ كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: 79] أي أمامهم وقُدَّامَهُم. السِّوَى والغَيْر؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: 24] أي ما سواهنّ وغيرهنّ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾؛ الشريعة في الأصل هي المِلَّة الواسعة والمَنْهَج الظاهر، وأصلها من "شريعة الماء" وهي مورده المتسع الذي يُقصد للشرب؛ وسميت شريعتنا شريعة لسعتها ووضوح طرقها.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ اجترحوا السيئات أي اكتسبوها وعملوها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾؛ الجُثُوّ هو البروك على الركب؛ أي تجثو كل أمة على ركبها هيبةً وفزعًا للحساب.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ ينطق أي يقرؤونه فيدلهم ويذكرهم بأعمالهم فكأنه ينطق. ويُحتمل أن يكون نطقه حقيقةً يوم القيامة؛ فإن الأمور الغيبية في ذلك اليوم مما لا تدركه العقول، فإذا كانت الجوارح تكلّم أصحابها وتشهد عليهم كالسَّمْعِ والأَبْصَارِ والجُلُودِ، ونَطَقَ الحَجَرُ والذِّرَاعُ في الدنيا للنبي ﷺ، فنطقُ الكتاب يوم القيامة من باب أولى -والله أعلم-.

ويُحتمَل أن المراد بالكتاب هاهنا صحائف الأعمال الخاصة بكل إنسان؛ كقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 13-14]، فلكل عبدٍ صحيفته التي يقرؤها وينكشف له ما فيها، يُخرج له تسع وتسعون سجل ينظر فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي ظهرت لهم عقوبات سيئاتهم وما كانوا يتوقعون عذابها؛ لأنهم كانوا يحسبون في الدنيا أن أعمالهم ستنفعهم، فبدا لهم يوم القيامة بطلان ما كانوا يرجون، أو تأتي بمعنى يُعيّرون بأن عملهم بطل، ويُلاحظ الفرق بين موضع الجاثية ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وموضع الزمر ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فهنا "عملوا" قد يدل على أنه بُيِّن لهم، أما "كسبوا" فبدا تعني بأنهم اعترفوا بما ظنوا أنه سينفعهم.

وقوله تعالى عن الكفار: ﴿وَإِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾؛ الظن في القرآن يأتي بمعنى الشك والحدس كما في هذه الآية، ويأتي بلسان العرب بمعنى اليقين والقطع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20] وقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 46] أي يتيقنون ذلك ويجزمون به.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ النسيان إذا أُضيف إلى الله تعالى فالمراد به التَّرْكُ؛ أي نترككم اليوم في النار. أما النسيان في حق البشر فيكون تارةً بمعنى الترك، وتارةً بمعنى الغفلة والذهول.

سورة الأحقاف

مكية كلها

٤- ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بقية من علم تؤثرُ عن الأولين.

ويقرأ: (أَثَرَةٍ) ؛ اسم مبني على "فَعَلَةٍ" من ذلك. والأول على "فَعَالَةٍ".

٩- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي بَدْءًا منهم ولا أوَّلا.

١٥- ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أي مشقة.

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي مشقة.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ قد ذكرناه فيما تقدم.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمْني. والأصل في "الإيزاع": الإغراء بالشيء؛ يقال: فلان مُوزَعٌ بكذا ومُولَعٌ.

٢١- ﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ واحدها: "حِقْف" وهو من الرمل ما أشرَفَ من كُثْبانه واستطال وانحنَى.

٢٢- ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفَنا.

٢٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ و "العارض": السحاب.

٢٦- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: فيما لم نمكنْكم (فيه) و "إن" بمعنى "لم".

ويقال: بل هي زائدة؛ والمعنى: مكنَّاهم فيما مكنَّاكم فيه.

٢٨- ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي اتخذوهم آلهةً يتقرَّبون بهم إلى الله.

٢٩- ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي فَرَغ [رسول الله صلى الله عليه وسلم] من [قراءة القرآن و] تأويله.

الشرح

هذه سورة الأحقاف، سميت بهذا الاسم، لذكر قصة الأحقاف؛ وهم قوم هود عليه السلام؛ عاد، في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ والاحقاف جمع حقف، والحقف: الكثبان من

الرمل المرتفع، الرمال المرتفعة منحنية على شكل قوس، هذه تسمى حقاف، والمراد به قوم عاد سكنوا جنوب الجزيرة العربية في أقصى الربع الخالي، الذين أرسل الله ﷻ إليهم هودًا عليه السلام وأهلكهم بالريح؛ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: 7].

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ يعني تحدٍ للمشركين: عندكم علم؟ عندكم كتاب أو شيء من العلم ولو أثارة -بقية من علم يُؤثر ممن قبلكم-؟ لا يملكون.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾؛ يعني بذلك: أنا لستُ جديدًا، بل مسبوقٌ برسلٍ كثيرين، لستُ أول رسول، أي بدءًا منهم ولا أول واحد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي في حمله مشقة، وعند وضعه مشقة شديدة، قد تموت بعض النساء عند الولادة. ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: المراد بقوله بلغ أشده: استكمل وقوي بكمال عقله وبنية جسمه، قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾: أي ألهمني وأعني ووفقني، من الإيزاع وهو الإغراء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسان قوم عاد، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾؛ أي: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة الأوثان لنعبد الله وحده؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾: انقطع عنهم المطر، الله عز وجل قطع عنهم المطر وذهبت الآبار، فأصبحوا بجدب وشدّة، وماتت الزروع والبهائم، وهود عليه السلام ينصحهم ويذكرهم لكنهم أبوا، فلما رأوا الريح وجاء السحاب وظنوا أنه عارضٌ ممطرٌ لهم؛ ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ قال الله عز وجل: ﴿بَلْ

هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، فجاءتهم الريح تقلعهم، تأخذ الرجل من الأرض وترفعه إلى السماء ثم ترمي به على رأسه فيموت، كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾؛ أعطيناهم تمكينًا في الأرض ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾، الأصل ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: 6]: الأصل أن الله يخبر بأن التمكين قد حصل لهذه الأمم أشد من أهل مكة، وسّع الله عليهم وأعطاهم أشد. ولذلك جاب الرأيين؛ قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي مكّنّاهم في شيء لم نمكنكم فيه، أن أعطيناهم من القوة والسعة ما لم نعطكم أنتم؛ هذا الرأي الأول، فتكون "إن" نافية بمعنى "لم"، أو تكون زائدة فيكون المعنى: مكّنّاهم في تمكينكم أنتم، يعني مكّنّاكم ومكّنّاهم، لكن الذي يظهر والذي تسنده الأدلة الأخرى هو أنها للنفي؛ بمعنى أعطيناهم ما لم نعطكم، ووسعنا عليهم وأعطيناهم من القوة والسعة ما لم نعطِ أهل مكة. والآية في سورة الأنعام تعضد الرأي الأول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام: 6].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾؛ يقول: لولا نصرهم، أين الذين اتخذوا لنصلتهم؟ أين أنصارهم؟ أين الآلهة؟ لماذا لم تنصرهم؟ التي كانوا يتقربون بها أو يقربون لها القرابين، إما أنهم يتقربون بهذه الآلهة إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: 3]، أو يقربون القرابين، لكنها ما نفعتهم.

في قصة مجيء الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾، قال: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾، أي قرئ القرآن عليهم.

سورة محمد ﷺ

مدنية كلها

١- ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أبطلها و [أصل "الضَّلال": الغَيْبُوبة] . يقال: ضل الماء في اللبن؛ إذا [غاب] وغُلب عليه؛ فلم يُتبيَّن.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي حالَهم.

٤- ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي يضعَ أهل الحرب السلاحَ. قال الأعشى:

وأعْدَدْتُ للحرب أوْزَارَها *** رِماحًا طِوالا وَخَيْلا ذُكُورَا

ومِن نَسْجِ داودَ يُحْذَى بها *** على أثَرِ الحيِّ, عِيرًا فعِيرَا

وأصل "الوِزْر" ما حملته؛ فسمي السلاح "أوزارا" لأنه يُحمل.

٦- ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ يقال في التفسير: "بيَّنها لهم، وعرَّفهم منازلهم منها".

وقال أصحاب اللغة: "عَرَّفَهَا لَهُمْ": طَيَّبها. يقال: طعام معرَّف؛ أي مطيَّب. قال الشاعر:

فَتَدْخُلُ أيْدٍ فِي حَنَاجِرَ أُقْنِعَتْ *** لِعَادتِهَا من الخَزِيرِ المُعَرَّفِ

٨- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ من قولك: تعَستُ؛ أي عثَرت وسقطت.

١١- ﴿مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وليُّهم.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ لا وَلِيَّ لهم.

١٢- ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي منزلٌ لهم.

١٣- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي كم من أهل قرية: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يريد: [أخرجك] أهلها.

١٥- ﴿مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي غير متغيِّر الريح والطعم و "الآجن" نحوه.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أي: لذيذة. يقال: شراب لَذٌّ إذا كان طيبًا.

١٨- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي هل ينظرون؟!

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي علاماتُها.

﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ ؟ فكيف لهم منفعةُ الذكرى إذا جاءتْ والتوبةُ -حينئذٍ- لا تُقبل؟!

٢٠-٢١- ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ هذا مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ وعيدٌ وتهدُّد؛ تقول للرجل -إذا أردت به سوءًا ففاتك-: أَوْلَى لك.

ثم ابتدأ فقال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ قال قتادةُ: "يقول: لطاعةُ اللَّهِ وقولٌ بالمعروف -عند حقائق الأمور- خيرٌ لهم".

٢٥- ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ زيَّن لهم.

﴿وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ أطال لهم الأملَ.

٣٠- ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في نحو كلامهم ومعناه.

٣٥- ﴿فَلا تَهِنُوا﴾ أي لا تضعُفوا. من "الوهْن".

﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي الصلح.

﴿وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن يَنقُصَكم ولن يظلمَكم. يقال: وتَرْتَني حقي؛ أي بخَستنِيه.

٣٧- ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ أي إن يُلحَّ عليكم بما يوجبه في أموالكم.

﴿تَبْخَلُوا﴾ يقال: أحْفَاني بالمسألة وألْحَف وَأَلَحَّ.

الشرح

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي أبطَلَها من الضلال، وهو التيه والغيوب، أي غاب عنه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾؛ المراد بالبال: الحال، أصلح حالهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؛ ثقلها وهي السلاح. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾؛ "عرفها" لها ثلاثة معانٍ: إما أنه عرّف لهم الجنة في القرآن بحيث إنه وصفها لهم وصفًا كاملًا فعرفوها، كما قال

الله عز وجل: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: 20] إلى آخره من وصف الجنة. أو عرفها لهم بحيث إنهم يعرفونها إذا دخلوها، إذا دخلوا الجنة كل واحد يعرف مسكنه في الجنة، كما قال ﷺ: «فوالَّذي نفسُ مُحمَّدٍ بيدِه لَأحَدُهم بمسكنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمنزِلِه كان في الدُّنيا» في الدنيا لو سافرت ورجعت إلى بلدك تعرف سكنك فورًا وتدخل بيتك، يقول: إذا دخلت الجنة تعرف سكنك في الجنة أشد من معرفتك في الدنيا. أو المراد عرفها -المعنى الثالث- أنه عرفها من العُرْفِ أو من العَرْف، والعَرْف هو الرائحة، عرفها لهم أي: طيّبها لهم وحسنها لهم، يشمون رائحتها قبل أن يصلوها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾؛ قال: تعسًا لهم أي: خسارةً لهم، من تعس بمعنى عثر وسقط. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾؛ أي منزلًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ كم من قرية، هذا للتكثير، كأين وكم بمعنى واحد، ﴿أَشَدَّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني من أهلها الذين أخرجوك.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ آسن أي غير متغير، من أسن إذا تغير.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أشراط الساعة يعني علاماتها. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾؛ كيف لهم منفعة الذكرى إذا جاءتهم؟ والتوبة حينئذ لا تُقبل، لا ينفع تتذكر الآن، ولا تنفع الذكرى.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾؛ يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا مفسر في كتاب تأويل المشكل، كأنه يقصد النسخ والأحكام ونحوه.

معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ وعيد مثل قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: 34-35]، هذا وعيد.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي طاعة الرسول وقولٌ معروفٌ خيرٌ من غيره.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾؛ أي في كلامه، بمعنى يلحن في كلامه حتى يكشف الله تعالى ما في قلبه فتعرف المنافقون.

قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾؛ تضعفوا، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي إلى الصلح وأنتم الأعلون. ثم قال ﷻ: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي لن ينقصكم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾؛ أن يلح عليكم ويدفعكم إلى الإنفاق ويشجعكم على الإنفاق.

سورة الفتح

مدنية كلها

١ - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أي قضينا لك قضاءً عظيمًا. ويقال للقاضي: الفتاح.

٤ - ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي السكون والطمأنينة.

٩ - ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي تعظموه. وفي تفسير أبي صالح: تنصروه.

١٢ - ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هَلْكَى.

قال ابن عباس: "البور -في لغة أَزْد عُمَان- الفاسد".

و"البور" -في كلام العرب-: لا شيء؛ يقال: أصبحت أعمالهم بُورًا، أي مبطَلة. وأصبحت ديارهم بُورًا، أي معطَّلة خرابًا.

١٧ - ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ﴾ أي إثم في ترك الغزو.

١٨-١٩ - ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي جازاهم بفتح قريب ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾

٢٠ - ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ﴾ أي عن عيالكم؛

ليكونَ كفُّ أيدي الناس -أهل مكةَ- عن عيالهم، ﴿آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

٢١ - ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ مكةُ.

٢٥ - ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي محبوسًا. يقال: عكفتُه عن كذا؛ إذا حبسته. ومنه: "العاكف في المسجد" إنما هو: الذي حبَس نفسه فيه.

﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي مَنْحَرَه.

﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ﴾ مفسر في كتاب "التأويل".

٢٦ - ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قول "لا إله إلا الله".

٢٩ - ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ أي صفتهم.

ثم استأنف، فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ قال أبو عبيدة: "شَطْءُ الزرع: فِراخه وصغاره؛ يقال: قد أشطأ الزرع فهو مشطئ؛ إذا أفرخ".

قال الفراء. "شطْئُه: السُّنبل تُنبت الحبةُ عشْرًا وسبعًا وثمانيًا".

﴿فَآزَرَهُ﴾ أي أعانه وقوّاه.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي غلُظ.

﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ جمع "ساق". [مثل دُور ودار] . ومنه يقال: "قام كذا على سوقه وعلى السوق"؛ لا يراد به السوقُ: التي يُباع فيها ويُشترى. إنما يراد: أنه قد تناهى وبلغ الغاية؛ كما أن الزرع إذا قام على السوق فقد استَحكَم.

وهذا مثل ضربه الله للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إذ خرج وحدهُ، فأيده بأصحابه؛ كما قوَّى الطاقة من الزرع بما نبت منها حتى كثُرتْ وغلُظتْ واستحكمتْ.

الشرح

هذه سورة الفتح وهي مدنية، ونزلت في السنة السادسة بعد ما رجع النبي ﷺ من صلح الحديبية، والمراد بالفتح هنا هو صلح الحديبية، كأن الصحابة قالوا: أين الفتح يا رسول الله؟ قال: الفتح هو صلح الحديبية. قالوا: كنا نعد صلح الحديبية فتحًا؛ لأنه لما عقد صلح الحديبية وانتهت الحرب بين أهل مكة والنبي ﷺ بدأ الناس يتناقلون من هنا إلى هنا، لم يعد هناك حرب، فدخل عدد كبير مع المسلمين، تصور أن النبي ﷺ خرج يوم صلح الحديبية كان عدد المسلمين ألف وأربعمائة، بعد سنتين -السنة الثامنة- فتح مكة ومعه عشرة آلاف، زاد العدد إلى عشرة آلاف، فهذا المعنى لأن هذا الفتح الحقيقي؛ أنه لما وضعت الحرب أوزارها وقام الصلح بين مكة والنبي ﷺ دخل كثير من القبائل في الإسلام، فكان الصلح فتحًا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد بالسكينة: الطمأنينة. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعظموه. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾؛ البور: الهلاك، ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28] أي دار الهلاك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾؛ الحرج أي ليس عليهم إثم في ترك الغزو لأنهم معذورون شرعًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾؛ المراد بفتحٍ قريب؛ قيل: فتح خيبر، لما جاء المسلمون على حد الحرم يريدون دخول مكة محرمين منعتهم قريش، فرجع النبي ﷺ من صلح الحديبية بعد وقوع الصلح بينهم وبين أهل مكة، فبشرهم الله سبحانه بفتح خيبر ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، فخرج النبي ﷺ إلى خيبر وفتحها.

وبين الله عز وجل حكمةً من عدم دخولهم إلى مكة، وإلا الله عز وجل قادر على أن يجعلهم يدخلون معتمرين، لكن الله منعهم لحكمة، قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي صرفهم عنكم؛ لأن أهل مكة بعثوا سفهاءهم من خلف الجبل والنبي ﷺ في الحديبية فنزلوا ليقاتلوهم، كانوا ينزلون عليهم على غرة فصرفهم الله عنهم، قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي بصرف الناس وكفهم عنكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ هي مكة، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي محبوسًا؛ لأن النبي ﷺ أتى بهدايا ليقربها وينحرها في مكة فنحرها في الحديبية، محبوسًا لم يصل إلى مكانه: ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ أي مكان المنحر، وهذه الحكمة: ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ في مكة قد أخفوا إيمانهم لجعلناكم تقاتلونهم، فيخشى أن تدخلوا مكة وتقاتلوهم وتقتلوا من هم من المسلمين، قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ انعزلوا عنكم وخرجوا وتميزوا ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

قال تعالى في مَثَل أصحاب رسوله ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾، هذا هو مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل قال تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي فراخه وسنابله وقوته وثماره، ﴿فَآزَرَهُ﴾ قواه، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أصبح غليظًا قويًا، ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أي قام على ساقه، الشجر تقوم على الساق، هذا المراد، المراد بالسوق جمع ساق، هذا مثلٌ ضربه الله في قوة المؤمنين وكثرة عبادتهم، في التوراة كثرة عبادتهم: ﴿سُجَّدًا رُكَّعًا﴾ هذا في التوراة، وفي الإنجيل قوة الاجتماع والاستغلاظ.

سورة الحجرات

مدنية كلها

١- ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي لا تقولوا قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم. يقال: "فلا يقدم بين يدي الإمام وبين يدي أبيه"؛ أي يُعجِّل بالأمر والنهي دونه.

٢- ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي لا ترفعوا أصواتَكم عليه كما يرفع بعضكم صوته على بعض.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي لئلا تحبطَ أعمالكم.

٣- ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أي أخلَصَها للتقوى.

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ واحدها: "حُجْرة"؛ مثل ظُلْمة وظُلُمات.

ويقرأ: (حُجَرات)؛ كما قيل: رُكَبات. وينشَد هذا البيت:

ولمَّا رَأَوْنا بادِيًا رُكَباتُنا *** على مَوْطِنٍ لا نَخْلِطُ الجدَّ بالهَزْلِ

٧- ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ من "العَنَت" وهو: الضرر والفساد.

٩- ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ترجعَ.

﴿وَأَقْسِطُوا﴾ اعدلوا.

١١- ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا تَعِيبوا إخوانكم من المسلمين

﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ أي لا تَتَداعوا بها، و "الألقاب" و "الأنْباز" واحد.

ومنه قيل في الحديث: "قومٌ نَبْزُهم الرافضة"؛ أي لقبُهم. وقوم -من أصحاب الحديث- يغيّرون اللفظ.

١٣- و (الشعوب) أكبر من القبائل مثل "مُضَرَ" و "رَبيعةَ".

١٤- ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي اسْتَسْلمنا من خوف السيف وانْقَدْنا.

﴿لا يَلِتْكُمْ﴾ أي لا يَنقصْكم وهو من "لاتَ يلِيتُ [ويَلُوتُ] ".

ومنها لغة أخرى: "أَلَتْ يَأْلَت [أَلْتًا] ".

وقد جاءت اللغتان جميعا في القرآن؛ قال: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

والقرآن يأتي باللغتين المختلفتين؛ كقوله في موضع: ﴿تُمْلَى عَلَيْهِ﴾؛ وفي موضع آخر: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾.

الشرح

هذه سورة الحجرات مدنية من أواخر ما نزل في المدينة، نزلت في السنة التاسعة تقريبًا في قصة الذين ينادونه من وراء الحجرات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ أي لا تقولوا قولًا يخالف قول الله ورسوله، أو تتقدموا بحكمٍ قبل أن يحكم الله ورسوله، لا تتعجلوا. ثم قال تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾؛ أي لا ترفعوا أصواتكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي أخلصها وجعلها صافية؛ لأن الامتحان امتحان الشيء فتنه وإزالته حتى يصفو، فصفوا قلوبهم للتقوى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾؛ الحجرات جمع حجرة، وهي حجرات النبي ﷺ، يقال: حُجُرات وحُجَرَات بفتح الجيم: حُجَرَات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾؛ لعنتّم: أي شق عليكم ذلك. ﴿حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ أي ترجع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي لا يلمز بعضكم بعضًا، مثل ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وهكذا. قال أنفسكم لأن المسلمين كالجسد الواحد أو كالنفس الواحدة.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾؛ يعني يلقب بعضكم بعضًا ألقابًا سيئة، لأنه لا يجوز للإنسان أن يلقب أخاه المسلم بألقاب بذيئة وسيئة إلا إذا كان هذا الشيء مشهورًا معروفًا وصاحبه لا يتضايق منه، مثل: من بعض العلماء كـ "الأعرج"، من القراء، يُسمى الأعرج، ويُسمى مثل ما قال الله عز وجل: ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ سماه أعمى، هذه ألقاب، لكن ليس كل أعمى يرضى، فالأصل لا يجوز إلا إذا كانت الألقاب هذه مشهورة ومعروفة وأصحابها يرضون بذلك فهذا جائز، أما الأصل فنقول المنع ولا يجوز.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾؛ الشعوب أوسع من القبائل، القبائل تحت الشعوب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم﴾ أي أنقصناهم.

سورة ق

٣- ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ يريدون: البعثَ بعد الموت؛ أي لا يكون.

٤- ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي تأكلُ من لحومهم إذا ماتوا.

٥- ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي مختَلِطٍ. يقال: مَرِج أمرُ الناس ومَرج الدِّينُ.

وأصل "المَرَج": أن يقلَقَ الشيءُ فلا يستقرّ. يقال: مَرج الخاتم في يدي مَرَجًا؛ إذا قَلِق من الهُزَال.

٦- ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي صدوع. وكذلك قوله: ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ؟!.

٧- ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من كل جنسٍ حسن يُبْتَهج به.

٩- ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أراد: والحبَّ الحصيدَ؛ فأضاف الحب إلى الحصيد. كما يقال: صلاةُ الأولى؛ يراد: الصلاةُ الأولى. ويقال: مسجدُ الجامع؛ يراد: المسجدُ الجامعُ.

١٠- ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالا. يقال: بَسَقَ الشيء يَبْسُق بُسوقًا؛ إذا طال.

﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أي منضودٌ: بعضُه فوق بعض. وذلك قبل أن يتفتَّح. فإذا انشقَّ جُفُّ الطَّلْعة وتفرَّق: فليس بنضيدٍ. ونحوه قوله: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾. وقد قرأ بعضُ السَّلف: (وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ) كأنه اعتبره بقوله في ق: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾

١٥- ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ !؟ أي أفعيينا بإبداء الخلق، فنعْيَا بالبعث، وهو: الخَلق الثاني؟!.

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ أي في شكٍّ.

﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي من البعث.

١٦- ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ و "الوريدان": عِرْقَانِ بين الحُلْقوم والعِلْباوَيْنِ. والحبل هو: الوريد؛ فأضيف إلى نفسه: لاختلاف لفظَي اسمَيْه.

١٧- ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقيان القول ويكتبانه؛ يعني: المَلَكين.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أراد: قعيدًا من كل جانب. فاكتفى بذكر واحد: إذ كان دليلا على الآخر.

و"قَعِيدٌ" بمعنى قاعدٍ؛ كما يقال: "قدير" بمعنى قادر. ويكون بمنزلة "أكِيل وشَرِيب [ونديم] " أي مؤاكلٍ ومُشارب

[ومُنادم] . كذلك: "قعيد" أي مُقاعد.

٢٢- ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي حادٌّ؛ كما يقال: حافظٌ وحفيظٌ.

٢٧- ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ مفسرٌ في كتاب "تأويل المشكل".

٣١- ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي أُدنيَتْ.

٣٦- ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾ أي طافوا وتباعدوا.

﴿هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي هل يجدون من الموت محيصًا ؟! فلم يجدوا ذلك.

٣٧- ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي فهمٌ وعقلٌ.

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يقول: استمَعَ كتاب الله: وهو شاهدُ القلبِ والفهمِ ليس بغافلٍ ولا ساهٍ.

٤١- ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يقال: صخرةُ بيت المقدس.

٤٢- ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ يوم البعثِ من القُبور.

ويقال ليوم العيد: يومُ الخروج؛ لخروج الناس فيه.

٤٥- ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلَّط.

وليس هو من "أجبرتُ الرجلَ على الأمر": إذا قَهَرْتُه عليه. لأنه لا يقال من ذلك: "فَعَّال".

و"الجَبَّار": المَلِكُ، يسمَّى بذلك: لتجبُّره يقول: فلستَ عليهم بملك مسلَّط.

الشَّرحُ

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، المقصود به البعث بعد الموت، فإنهم استبعدوه وقالوا لا يمكن أن يحصل. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ﴾، هذا رد عليهم لما قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، قال الله عز وجل: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ أي أن الله ﷻ قد علم ما تنقص، أي ما تأكل الأرض من لحومهم شيئًا فشيئًا، إذا مات الميت ووضع في قبره وبدأت الأرض تأكل من جسده الله يعلم ما المقدار

الذي تأكله، فكيف لا يقدر على بعثهم مرة أخرى؟ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آية أخرى قال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: 10]، ضللنا بمعنى تهنا في الأرض، تمزقنا وذهبنا.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ يعني أمر مختلط غير واضح، مرج أمر الناس أي اختلط ولم يتضح، وأصل المرج أن يقلق الشيء فلا يستقر، يقال: مرج الخاتم في يدي مرجًا إذا قلق من الهزال، يعني يتحرك ويموج، غير واضح، هذا معناه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ ليس فيها صدوع، لا ترى فيها من فطور ولا صدوع فتعطي نقصًا فيها أو تلفت الأنظار إلى شيء، بل هي خُلقت بخلق بديع.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي حسن يبتهج به عند النظر إليه لجماله. ثم قال سبحانه: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾، أي الحب المحصود. هنا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأضاف الحب إلى الحصيد. كما يقال: صلاةُ الأولى؛ يراد: الصلاةُ الأولى. ويقال: مسجدُ الجامع؛ يراد: المسجدُ الجامعُ" يعني بقوله إضافة بيان. ثم قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالًا، بسق الشيء يبسق إذا كان ممتدًا إلى العلو، يقال باسق. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ النضيد: المنضود، أي بعضه فوق بعض كما في عذق النخيل، وذلك قبل أن يتفتح، فإذا انشق جف الطلعة وتفرق فليس بنضيد، أي النضيد وهو في أكمامه متراكب بعضه فوق بعض.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أفعيينا أي: هل أعجزنا؟ عيينا تعني أعجزنا، ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ أن يعجز، أفعيينا بإبداء الخلق فنعي بالبعث؟ يقول سبحانه: هل أعجزنا الخلق الأول حتى نعجز عن الثاني؟ لا يمكن هذا! ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي في شك، اللبس: الشك، التبس الأمر عليه يعني لم يتضح.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، الوريد عرقان بين الحلقوم والعلباوين، الحلقوم معروف وهو مجرى الهواء -القصبة الهوائية-، والمريء مجرى الطعام، والعلباوين عَصَبتان ممتدتان يمينًا وشمالًا قريبة من الرقبة من الخلف، وواحدها العلباء، والعلباء هي التي تُسمى الوريد، والله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

هذه مسألة أختلف أهل العلم فيها هل نثبت لله أو لا نثبت؟ والصحيح من أقوال أهل العلم المحققين أن هذه الآية تدل على إثبات القرب لله، أن الله يقترب من عبده اقترابًا يليق بجلاله، ثم حتى الدنو أثبتوه ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:8]، قال بعض أهل العلم إن دنَا راجع إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أي دنا من عبده، فهذه على التحقيق أنها تدل على إثبات الدنو وإثبات القرب، والله أعلم بذلك.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني الملائكة التي تكتب الأعمال؛ عن الشمال ملك يكتب السيئات وعن اليمين ملك يكتب الحسنات، و ﴿قَعِيدٌ﴾ بمعنى قاعد. ثم قال سبحانه: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني شديد وقوي وحاد البصر.

قال: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾، قرينه من الجن؛ لأن الإنسان له قرين من الملائكة يأمره بالخير وله قرين من الجن يأمره بالشر، فيقول: ما أطغيته. قال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي أدنيت وقربت.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي طافوا وتقلبوا فيها. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أن يفهم ويدرك ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ واستمع وهو شاهد القلب حاضر القلب .

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صخرة بيت المقدس، الله أعلم بذلك، قد يكون؛ ولكن يحتاج إلى دليل. قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾: البعث. وقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي بمسلط عليهم.

سورة الذاريات

مكية كلها

١- ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ الرياح. يقال: ذَرَت [الريح التراب] تَذْرو [هُ] ذَرْوًا [وتَذْرِيه ذَرْيًا] . ومنه قوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾.

٢- ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾ السحاب تحمل الماء.

٣- ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ أي السفن تجري في الماء جريًا سهلا.

ويقال: تجري ميسرة؛ أي مسخَّرة.

٤- ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة. هذا أو نحوه يؤثر عن علي رضي الله عنه.

٦- ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ يعني الجزاء بالأعمال والقصاصَ. ومنه يقال: دِنْتُه بما صنع.

٧- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذات الطرائق. ويقال للماء القائم -إذا ضربَتْه الريحُ فصارت فيه طرائق-: له حُبكٌ. وكذلك الرمل: إذا هبَّتْ عليه الريحُ فرأيتَ فيه كالطرائق - فذلك: حُبكُه.

٩- ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي [يُصرفُ عنهُ و] يُحرَمُه من حُرمه يعني: القرآن.

١٠- ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أي لُعنَ الكَذَّابون الذين قالوا في النبي صلى الله عليه وسلم: كاذبٌ وشاعر وساحرٌ؛ خَرَصوا ما لا علم لهم به.

١٣- ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يعذَّبون.

١٤- ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي ذُوقوا عذابكم.

﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ في الدنيا.

١٧- ﴿يَهْجَعُونَ﴾ أي ينامون.

١٨- ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي يصلون.

١٩- ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ﴾ يعني: الطوَّاف.

﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ المُحارَف؛ [وهو] : المقَتَّر عليه [في الرزق] . وقيل: الذي لا سهمَ له في الغنائم.

٢٦- ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾ أي عَدَل إليهم في خُفْية. ولا يكون "الرَّواغُ" إلا أن تُخْفِيَ ذهابَك ومجيئَك.

٢٨- ﴿فَأَوْجَسَ﴾ في نفسه.

﴿خِيفَةً﴾ أي أَضْمَرها.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ إذا كبر.

٢٩- ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ أي في صَيْحَة. ولم تأت من موضع إلى موضع؛ إنما هو كقولك: أقبلَ يَصيح وأقبل يتكلَّم.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربتْ بجميع أصابعها جَبْهَتَهَا.

﴿وَقَالَتْ﴾ أَتَلِدُ ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ؟! .

٣٣- ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ؛ قال ابن عباس: هو الآجُرُّ.

٣٤- ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي مُعَلَّمَةً.

٣٩- ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ و "بجانبه" سواءٌ؛ أي أعرضَ.

٤٠- ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي مُذنب. يقال: ألام الرجلُ؛ إذا أتى بذنب يلام عليه. قال الشاعر:

ومَن يخْذُلْ أخاه فقد أَلامَا

٤٥- ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أي ما استطاعوا أن يقوموا لعذاب الله.

٤٧- ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي بقوةٍ.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي قادرون. ومنه قوله: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾.

٤٩- ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي ضِدَّين: ذكرًا وأنثى، وحلْوًا وحامضًا؛ وأشباهَ ذلك.

٥٦- ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ يعني المؤمنين منهم؛ أي ليوحِّدوني.

ومثله قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي الموحِّدين.

٥٧- ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ أي ما أريد أن يَرزُقوا أنفُسَهم.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ أي يُطعموا أحدًا من خلقي.

٥٨- و (المِتِين) : الشديد القويّ.

٥٩- و (الذنوب) : الحظ والنصيب. وأصله: الدَّلْوُ العظيمة. وكانوا يَسْتَقون فيكون لكل واحدٍ ذنوبٌ. فجُعل "الذَّنوب" مكان "الحظ والنصيب": على الاستعارة.

الشرح

هذه سورة الذاريات، ومن الكلمات التي تحتاج إلى بيان هي "الذاريات" وتعني: الرياح كما في قوله: ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: 45] أي تدفعه بقوة، والرياح تذرو السحاب.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ أي السحاب تحمل الماء، السحاب قبل التلقيح خفيف ليس له وزن، فإذا جاءت الرياح ولقحت السحاب ثقل فأصبح ثقيلًا، والحاملات وقرًا أي ثقلًا تحمل الماء الثقيل. ثم أقسم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾: هذه السفن كما هو واضح، وقيل السحاب يجري في السما، ثم قال تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾: الملائكة تقسم الأرزاق أو تقسم الأمطار على أهل القرى.

لما أقسم الله بهذه الأمور أقسم على أي شيء؟ على ﴿إِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾، والمراد بالدين هنا هو يوم القيامة الذي فيه الجزاء والحساب. ثم أقسم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مرة أخرى قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، معنى الحبك: طرائق محبوكة؛ أي لها طرق كما أن الماء والرمل فيه طرق، وقيل من الحبك وهو إتقان الشيء؛ أي خلقت وجملت بإتقان والله أعلم بذلك.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي يصرف عنه من صرف، أي من أراد الله أن يصرفه عن القرآن صرفه لعدم استحقاقه أن يكون من أهل القرآن، وفي هذا عقوبة لمن يحرم من قراءة القرآن وتدبره وتفسيره، يصرف ويحرم بسبب ذنوبه، بسبب إفكه وكذبه وإعراضه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾، الخرص: الأصل في معناه التخمين، والمقصود هنا هؤلاء المشركون الذين كذبوا وردوا رسالة النبي ﷺ واتهموه بأن هذا مجرد تخمين ولم يؤمنوا به وليس عندهم علم يقين. فقال عنهم الله ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يفتنون أي يعذبون؛ لأن الفتنة العذاب،

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، الهجعة هي النوم. ثم قال ﷻ: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يصلون، لماذا سمى الاستغفار صلاة ؟ لأن هذا وقت ما بين صلاة ودعاء واستغفار فيكون قريبًا من هذا المعنى. ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾، السائل الذي يسأل الناس، يأتي ويطوف عليهم، والمحروم هو الذي لا يطوف، يبقى في بيته.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾، الرواغ هو الذهاب بسرعة وخفية، يقال: راغ إبراهيم، رُوِيَ مرتين: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: 91] في الصافات، و ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ في الذاريات. ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي ذا علم، والمراد به إسحاق. ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ سارة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي في صيحة، الصرة والصرير هو الصوت، من طبيعة المرأة أن تصرخ إذا جاءها شيء من الأخبار المزعجة أو الأخبار التي لا تتوقعها، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ طبيعتها أيضًا أن تلطم وجهها أو كما ذكر هنا جبهتها والله أعلم، واستنكرت هذا الأمر واستعجبت وتعجبت من هذا الأمر، كما قالت الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 73]، قالت: ألد وأنا عجوز عقيم؟ عجوز وعقيم جمعت بين أمرين.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ الآجر، الطين الذي ذكره الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في موضع آخر بأنه سجيل. ﴿مُسَوَّمَةً﴾: مُعَلَّمة. و "المليم"، ذكر في هذه الآية ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ وذكر في آخر الذاريات ﴿فَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمَلُومٍ﴾ أي لا تلام على اجتهادك معهم، وهنا يلام على ذنبه. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ أي ما استطاعوا أن يقوموا لعذاب الله، ما استطاعوا الفرار عن العذاب والتوقي منه.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾، المراد بالأيدي هنا القوة، كما قال في داود: ﴿ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي قوة. يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ يعني ذكرًا وأنثى في جميع المخلوقات الحيوانات والنباتات. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ما خلق الله ﷻ الجن والإنس إلا لعبادته وتوحيده.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي أن يرزقوا أنفسهم. ومعنى "الذنوب" في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ هو الحظ والنصيب، وأصله الدلو، كما في الحديث «أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء» أي بدلو؛ لأن فيه مقدار معين، فهذا المعنى وهو هنا استعارة، استعارة للحظ أو النصيب ونحوه لهذا الشيء. ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي حظًا ونصيبًا وقسطًا من العذاب.

سورة الطور

مكية كلها

١- ﴿وَالطُّورِ﴾ جبل بمَدْيَنَ، كُلِّمَ عنده موسى عليه السلام.

٢ - ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ أي مكتوب.

٣- ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ يقال: هي الصحائف التي تخرج يوم القيامة إلى بني آدمَ.

٤- ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ بيت في السَّماء حِيالَ الكعبة.

٥- ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ يعني: السماء.

٦- ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ المملوء. قال النَّمِر بن تَوْلَبٍ -وذكر وَعِلا-:

إِذا شاء طالَعَ مَسْجُورَةً *** تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ والسَّاسَمَا

أي عينًا مملوءةً.

٩- ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ تدور بما فيها.

١٠- ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ﴾ عن وجه الأرض.

١٣- ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي يُدفعون. يقال: دَعَعْتُه، أدعُّه دعًّا؛ أي دفعته. ومنه: ﴿الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

١٨- ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي ناعمين بذلك. وفكهين معجَبين بذلك.

٢١- ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما نقصناهم.

٢٣- ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي يَتعاطَون. قال الأخطل:

وشَارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأْسِ نازَعَنِي *** لا بالحَصُورِ ولا فيها بِسَوَّار

أي عاطاني.

﴿لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾ أي لا تَذهبُ بعقولهم فيَلْغُوا أو يَرفُثوا فيأثموا. كما يكون ذلك في خمر الدنيا.

٢٦- ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين.

٢٩- ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ كما تقول: ما أنت -بحمد الله- بجاهل.

٣٠- ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ أي حوادثَ الدهر وأوجاعه ومصائبه و "المنون": الدهر؛ قال أبو ذُؤيبٍ:

أمِنَ المَنُونِ ورَيْبِه تَتَوَجَّعُ *** والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَن يَجْزَعُ؟

هكذا كان الأصمعيُّ يرويه: "ورَيْبِه" ويذهب إلى أنه الدهر؛ قال: وقوله: "والدّهرُ ليس بمعتِبٍ" يدل على ذلك؛ كأنه قال: "أمِن الدهرِ وريبه تتوجعُ والدهر لا يُعتِبُ من يجزع!؟ ".

قال الكسائي: "تقول العرب: لا أكلمك آخرَ المنون، أي آخرَ الدهر".

٣٧- ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ ! أي الأرباب. يقال: تسيطرتَ عليَّ؛ أي اتخذتني خَوَلا [لك] .

٣٨- ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ !؟ أي دَرَجٌ. قال ابن مُقْبِل:

لا تُحْرِزُ المَرْءَ أحْجاءُ البلادِ ولا *** تُبْنَى له في السَّمَواتِ السَّلالِيمُ

٤٤- ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ قد تقدم ذكره .

﴿سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي رُكام: بعضُه على بعض.

والمعنى أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه: إنا لا نؤمن لك حتى تسقط السماء علينا كسفًا؛ فقال الله: لو أسقطنا عليهم كِسْفًا من السماءِ قالوا: هذا سحاب مركوم؛ ولم يؤمنوا.

٤٥- ﴿يُصْعَقُونَ﴾ يموتون.

الشرح

سورة الطور سورة مكية، وقد قرأها النبي ﷺ في صلاة المغرب كاملة في ركعة واحدة، وذلك من السنة، وقد سماها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الاسم، وتسمية السور كلها إنما هي بوحي من الله تعالى؛ سميت بذلك لافتتاحها بلفظ الطور الذي أقسم الله به، وهو الجبل الذي نادى عنده نبيه موسى عليه السلام وكلمه عنده.

يقول الله تعالى: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾؛ أي: كتاب مكتوب. والمراد بهذا الكتاب قيل: إنه اللوح المحفوظ، وقيل: الصحف في ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾، وهي الصحائف التي تخرج للإنسان يوم القيامة حين يُقال

له اقرأ كتابك. ثم أقسم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالبيت المعمور في قوله: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾، وهو بيت في السماء الدنيا بمقابلة الكعبة المشرفة، يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه مرة أخرى إلى يوم القيامة، وهذا يدل على أن أعداد الملائكة هائلة ولا يتصورها العقل البشري.

ثم أقسم عز وجل بالسقف المرفوع في قوله: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ والمراد به السماء، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]. ثم قال: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾؛ وهي البحار في الدنيا التي تُسجر يوم القيامة فتوقد نيرانًا وتتحول كلها إلى نار، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: 6].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾؛ المعنى: تدور أو تضطرب وتتموج وتتحرك بقوة، وهي أوصاف وأحوال متعدّدة تمر بها السماء يوم القيامة؛ فقد وُصِفت بأنها تنشقّ، وبأنها تكون وردة كالدهان في قوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: 37]، وتارة تنفطر وتطوى كما في قوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67]، وتارة تُفتح أبوابًا، وكلها أحوالٌ مختلفة وُصِفت بها في آيات كثيرة.

وكذلك الجبال تسير وتُنسف كما في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [صه: 105]، فتصير ترابًا وسرابًا يراها الناظر وليست بموجودة. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾؛ أي يُدفعون بقوة ويُزجرون زجرًا، كما يدعّ الكافرُ اليتيمَ فيزجره بشدة؛ فهم لا يريدون دخول النار كالبهائم التي تُسحب وتُخرج من حظيرتها قهرًا فتُدفع وتُسحب بقوة، وهكذا يُصنع بهؤلاء المجرمين.

أما المتقون ففي جنات ونعيم، وقوله: ﴿فَاكِهِينَ﴾ أي: ناعمين، وأصل التفكّه هو التعجب من الشيء، ولذلك سميت الفاكهة لكثرة أنواعها وألوانها وأشكالها التي يتعجب منها الإنسان، كقوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: 65] أي تتعجبون. وقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ أي إن المتقين لا يُنقص من أجور أعمالهم شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ النزاع في الدنيا هو المغالبة على الشيء، وقد يرافقه الشتم والخصام، أما النزاع في الجنة فليس على وجه المغالبة والخصومة، بل على وجه التعاطي والود؛ فيأخذ أحدهم الكأس ويدفعها لغيره بنفس طيبة وإكرام متقابل. وقوله: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ والمقصود بالكأس هنا الخمر، إذ إن كلمة الكأس عند العرب وفي القرآن إذا أُطلقت أُريد بها الخمر، أما الإناء الفارغ فلا يُسمى كأسًا، بل يُسمى إناءً. وقد جاء ذلك في آيات عدة كقوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: 34].

وهذا الخمر الذي في الجنة ليس كخمر الدنيا؛ فخمر الدنيا فيه لغو وإثم وسب، أما خمر الجنة فكما قال تعالى: ﴿لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾. ثم أقبل أهل الجنة بعضهم على بعض يتساءلون كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾؛ مشفقين أي: خائفين وجلين في الدنيا، ينفقون أوقاتهم في الصلاة والعبادة والدعاء مع الخوف مما سيلاقونه، ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾؛ فالعبد مستمر في دعاء ربه تبارك وتعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾؛ أي واصل التذكير يا محمد واصبر عليهم، فلست بحمد الله ونعمته بجاهل ولا كاهن ولا مجنون، ودعهم وما يقولون حين قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾، والمراد بالريب هنا الموت أو حوادث الدهر، والريب إذا أُطلق في القرآن فالمراد به الشك دومًا إلا في هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾؛ أي هل لهم السيطرة والملك والتصرف؟ لأنهم كانوا أربابًا وحكامًا. وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾؛ أي هل لهم سلم -درج- يصعدون به إلى السماء ليستمعوا إلى الملائكة؟ ثم قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾؛ والكسف هي القِطع من العذاب، فلو رأوا قطعة نازلة من العذاب -كما رأى قوم عاد في الأحقاف وظنوها سحابًا ممطرًا- لقالوا: ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، فمن شدة عنادهم يظنون العذاب الساقط سحابًا ولا يدرون أنه هلاكهم.

سورة النجم

مكية كلها

١- ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ يقال: "كان القرآن ينزلُ نُجومًا؛ فأقسم الله بالنجم منه إذا نزل".

وقال مجاهد: "أقسم بالثُّريَّا إذا غابت" والعرب تسمي الثّريا -وهي ستة أنجم ظاهرةٍ- نجمًا.

[و] قال أبو عبيدة: "أقسم بالنجم إذا سقط في الغَوْر". وكأنه لم يخصِّص الثُّريَّا دون غيرها.

٥- ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ جبريلُ عليه السلام. وأصله من "قُوَى الحَبْل"؛ وهي طاقاته. الواحدة: قوة.

٦ و٧- ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي ذو قوةٍ. وأصل "المِرَّة": الفَتْلُ.

ومنه الحديث: "لا تَحِلُّ الصَّدقةُ لغنيٍّ ولا لِذي مِرَّة سَوِيٍّ".

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى * وَهُوَ﴾؛ أي استوى هو وجبريلُ -صلوات الله عليهما- ﴿بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾

٨ و٩- ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ أي قدرَ قوسين عربيتَيْن.

وقال قوم: "القوس: الذارع؛ أي كان ما بينهما قدر ذراعين".

والتفسير الأول أعجبُ إليَّ؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "لَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنةِ، أو موضعُ قِدِّه - خيرٌ له من الدنيا وما فيها". و "القِدُّ": السوط.

١٠- ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ عن الله عز وجل.

١١- ﴿مَا رَأَى﴾ يقول بعض المفسرين: "إنه أراد: رؤية بصر القلب".

١٢- ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ أفتجادلونه. من "المراء".

ومن قرأ: ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾؛ أراد: أفتجحدونه.

١٦- ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ من أمر الله تعالى.

١٧- ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ أي ما عدل.

﴿وَمَا طَغَى﴾ ما زاد ولا جاوز.

١٩-٢١- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾ ؟! كانوا يجعلونها بناتِ الله؛ فقال: ألكم الذكورُ من الولد وله الإناثُ؟!

٢٢- ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي جائرةٌ. يقال: ضِرت في الحكم؛ أي جُرْت.

و"ضِيزَى": فُعلى؛ فكسرت الضاد للياء. وليس في النعوت "فِعْلَى".

٢٣- ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة.

٣٢- ﴿اللَّمَمَ﴾ صغار الذنوب. وهو من "أَلَمَّ بالشيء": إذا لم يتعَمَّق فيه ولم يلزمه. ويقال "اللَّمَم: أن يُلِمَّ [الرجلُ] بالذنب ولا يعود".

٣٤- ﴿وَأَعْطَى قَلِيلا وَأَكْدَى﴾ أي قطع. وهو من "كُدْية الرَّكِيَّة". وهي: الصلابة فيها، وإذا بلغها الحافر يئس من حفرها فقطع الحفر. فقيل لكل من طلب شيئا فلم يبلغ آخرَه أو أعطَى ولم يتمِّمْ -: أكْدَى.

٣٥- ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ أي يعرفُ ما غاب عنه: من أمر الآخرة وغيرها؟!

٣٧- ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي بلَّغ.

٣٩- ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾ أي ما عمِل لآخرته.

٤٠- ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ﴾ عمله.

﴿سَوْفَ يُرَى﴾ أي يعلم.

٤١- ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ يُجْزَى به.

٤٦- ﴿مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ أي تقدَّرُ وتُخلَق . يقال: ما تدري ما يَمْنِي لك المانِي؛ أي ما يقدِّر لك الله.

٤٧- ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾ أي الخلْق الثانيَ للبعث يوم القيامة.

٤٨- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [أي أعطَى ما يُقتَنى] : من القِنْية والنَّشَب. يقال: أقنيت كذا [وأقْنَانِيه الله] .

٤٩- ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ الكوكب [المضيء الذي يطلُع] بعد الجَوْزاء. وكان ناسٌ في الجاهلية يعبدونها.

٥٣- ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ مدينة قوم لوط؛ لأنها ائْتفَكتْ [بهم] أي انقلبت.

﴿أَهْوَى﴾ أسقط. يقال: هَوَى؛ إذا سقط. وأهواه اللهُ أي أسقطه.

٥٤- ﴿فَغَشَّاهَا﴾ من العذاب والحجارة؛ ﴿مَا غَشَّى﴾

٥٦- ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمدا ﷺ.

﴿مِنَ النُّذُرِ الأُولَى﴾ يعني من الأنبياء المتقدمين.

٥٧- ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أي قربت القيامة.

٥٨- ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لعلمها كاشفٌ ومبيِّنٌ دونَ الله، ومثله: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ﴾.

وتأنيث "كاشفة" كما قال: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي بقاء. و [كما قيل] : العاقبة، وليست له ناهية.

٦١- ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ لاهُون ؛ ببعض اللغات. يقال للجارية: اسْمُدِى لنا؛ أي غنِّي لنا.

الشرح

سورة النجم من السور المكية التي نزلت مبكرًا، وفي آخرها سجدة تلاوة. ولما قرأها النبي ﷺ وذكر فيها أصنام المشركين في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ وكان المشركون يستمعون إليه، سجدوا جميعًا معه لِما ذُكِر فيها من آلهتهم.

أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في مطلع هذه السورة بالنجم فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾؛ والمراد بالنجم هنا جنس النجوم حين تسقط عند غيابها؛ فالنجوم منها ثابتة ومنها سيارة تغيب وتظهر، والجوار الكُنَّس التي تذهب وتغيب، ومعنى هوى أي سقط وغاب، وأصل كلمة النجم من النجوم، والقرآن ينزل نجومًا أي أجزاءً متفرقة.

ثم جاء الجواب في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، وقال بعدها: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾؛ والمراد بشديد القوى جبريل عليه السلام. وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾؛ ذو مرة أي: صاحب الخلقة الحسنة والسوية، وقيل: المرة هي القوة والشدة. وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾؛ فسرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن استوى هنا تعني: الظهور لجبريل عليه السلام ومحمد ﷺ -والله أعلم-، لكن يرى بعض المفسرين أن كلمة استوى تعني أن جبريل عليه السلام استقام وظهر بصورته الحقيقية، ولم يرَ النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلق عليها إلا مرتين: المرة الأولى بعدما نزل عليه في غار حراء ثم استبطن النبي ﷺ الوادي متجهًا إلى

مكة فناداه جبريل، فرفع النبي ﷺ رأسه فإذا جبريل جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، وهي الرؤية التي نزلت فيها سورة التكوير. والرؤية الثانية كانت في المعراج قبل الهجرة بثلاث سنوات، حيث رآه على حقيقته بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾؛ واختلف المفسرون في الذي دنا؛ فقيل: دنو جبريل من النبي ﷺ عند سدرة المنتهى، وقيل إن الله عز وجل هو الذي دنا من محمد ﷺ، وفي هذا إثبات الدنو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما يليق بجلاله -والله أعلم-. وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ يُضرب مثلًا للشيء القريب جدًا، أي ما بينهما مقدار ذراعين أو قوسين. وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾؛ يرجح القول بأن الذي دنا هو الله عز وجل لإضافة العبودية إليه، مع احتمال عودة الضمير إلى جبريل، والله أعلم.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾؛ أي لم يكذب فؤاد محمد ﷺ في رؤية الأشياء العظيمة التي رآها، فقد رأى الجنة والنار وسدرة المنتهى. وسدرة المنتهى سدرة في الجنة عندها جنة المأوى، وُصِفت أوراقها بأنها كآذان الفيلة وثمارها كقلال هجر، والقلة -التي فيها التمر- ضخمة تتسع لمقادير كبيرة -متر في متر-، وهي أمر عظيم. والأحاديث تثبت أن النبي ﷺ لم يرَ ربه بعينيه في الدنيا؛ إذ لما سُئل هل رأيت ربك في الإسراء والمعراج؟ قال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»، ورؤية الله محجوبة في الدنيا ومتحققة للمؤمنين في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾؛ أي أفتجادلونه على ما رآه بعينيه وحقيقته، وتتهمونه بالجنون أو الكذب وهو قد رأى آيات ربه الكبرى؟ ثم قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾؛ أي لما وصل السدرة غشيها من الأنوار والجلائل الإلهية ما لا يستطيع بشر وصفه. ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾؛ أي أن بصره ﷺ كان ثابتًا خاشعًا، فلم يمِل، ولا تجاوز ما أُمِر برؤيته.

ثم أنكر الله على المشركين عبادة الأصنام فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾؛ حيث كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ويختارون لأنفسهم البنين، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ أي قسمة جائرة ظالمة.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾؛ المراد باللمم: صغار الذنوب التي قد يقع فيها الإنسان بغير قصد أو اختيار فيبادر فورًا بالتوبة منها. وقوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾؛ أي: أعطى شيئًا يسيرًا من المال ثم أمسك (أكدى) وقطع عطيته ولم يتممها.

وفي قوله تعالى: ﴿أَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾؛ أي لا ينفع الإنسان إلا ما قدمه لنفسه من العمل الصالح، ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي سيراه مكشوفًا يوم القيامة، ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَىٰ﴾ أي يُوفى أجره كاملًا تامًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾؛ ومعنى أَقْنَى أي: أعطى العباد المال وأرضاهم به وقنّعهم.

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾؛ والشِعرى كوكب معروف عند العرب كانوا يعبدونه في الجاهلية، فأخبرهم الله أنه هو رب هذا الكوكب الذي يعبدونه. وقوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾؛ وهي قرى قوم لوط، وسميت بالمؤتفكة لأنها قُلِبت عليهم وأُهوي بها.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ أي قربت القيامة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾. ثم قال مسبحًا وموبخًا للكفار: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ ۞ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾؛ ومعنى سامدون أي لاهون غافلون تستمعون إلى غناء القَينات والمعازف وشاغلون أنفسكم بها عن تدبر القرآن.

سورة القمر

مكية كلها

١- ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ أي قربت.

٢- ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ أي شديد قويٌّ. وهو من "المِرَّة" مأخوذ. والمِرَّةُ: الفتْل؛ يقال: استمَرَّت مَرِيرَتُه.

ويقال: هو من "المرارة". [يقال] : أمَرَّ الشيءُ واستَمرَّ [إذا صار مُرًّا].

٤- ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي متَّعَظ ومنتهى.

٦- ﴿إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ أي منكَر.

٨- ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قال أبو عبيدةَ : مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾

وفي التفسير: "ناظرين قد دفعوا رءوسَهم إلى الداعي".

٩- ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي زُجر. وهو: "افتُعِل" من ذلك.

١١- ﴿بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي كثير سريع الانصباب. ومنه يقال: همر الرجل؛ إذا أكثر من الكلام وأسرع.

١٢- ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي التقى ماء الأرض وماء السماء.

١٣- و (الدسر) : المسامير؛ واحدها: "دِسار". وهي أيضًا الشُّرُط التي تُشَدُّ بها السفينة.

١٤- ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا وحفظٍ.

﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ يعني: نوحًا عليه السلام ومن حمله معه من المؤمنين.

و (كُفِرَ) : جُحِد ما جاء به.

١٥و١٥- ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي معتبِر ومتعِظ . وأصله "مُفْتَعِل" من الذِّكر: "مُذْتَكر". فأدغمت الذال في التاءِ ثم قلبتا دالا مشدَّدَة.

١٦، ١٨، ٢١، ٣٠- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ جمع نَذِير. و "نذير" بمعنى الإنذار أي فكيف كان عذابي وإنذاري. ومثله: "النَّكير" بمعنى الإنكار.

١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سَهَّلناه للتلاوة. ولولا ذلك: ما أطاق العبادُ أن يَلْفِظوا به ولا أن يستَمِعوا [له] .

١٩- (الصرصر) : الريح الشديدة ذات الصوت.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي في يوم شؤم.

﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ أي استمَرَّ عليهم بالنُّحوسة .

٢٠- ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ أي تقلَعُهم من مواضعهم.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي أصولُ نخل.

﴿مُنْقَعِرٍ﴾ منقطِعٍ ساقط. يقال: قَعرتُه فانْقَعَر؛ أي قلعته فسقط.

٢٤- ﴿إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي جنون. وهو من - "تَسَعَّرَتِ النار": إذا التهبتْ. يقال: ناقة مَسْعُورة؛ أي كأنها مجنونة من النشاط .

٢٥-٢٦- و (الأَشِرُ) : المَرِح المتكبر.

٢٧- ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ أي مُخرِجوها.

﴿فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾.

٢٨- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ وبين الناقة: لها يوم ولهم يوم.

﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾ أي كل حظ منه لأحد الفريقين.

﴿مُحْتَضَرٌ﴾ يَحْتَضِرُه صاحبه ومستحِقه.

٢٩- ﴿فَتَعَاطَى﴾ أي تعاطى عقْرَ الناقة.

﴿فَعَقَرَ﴾ أي قتل.

و"العقرُ" قد يكون: القتلَ ؛ قال النبي ﷺ -حين ذكر الشهداء-: "من عُقِر جوادُه وأُهْرِيق دمُه".

٣١- ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ و "الهشيمُ": يابسُ النبت الذي يتهشَّم أي يتكسَّر.

و"المحتظِرُ": صاحب الحَظِيرة. وكأنه يعني: صاحبَ الغنم الذي يجمع الحشيش في الحظيرة لغنمه.

ومن قرأه ﴿الْمُحْتَظَرِ﴾ بفتح الظاء ؛ أراد الحِظَار وهو: الحظيرة.

ويقال (المحتظِرُ) هاهنا: الذي يَحظُر على غنمه وبيته بالنبات، فَيَيْبَسُ ويسقط ويصير هشيمًا بوطء الدوابِّ والناسِ.

٣٦- ﴿فتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شكُّوا في الإنذار.

٤٣- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ ؟! أي يا أهل مكةَ! أنتم خير من أولئك الذين أصابهم العذاب؟!

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ﴾ من العذاب.

﴿فِي الزُّبُرِ﴾ ؟! يعني: الكتب المتقدمة. واحدها: "زَبُور".

٤٥- ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ يومَ بدرٍ. ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

٥٣- ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ أي مكتوب: "مُفْتَعَل" من "سطرت": إذا كتبت. وهو مثل "مَسْطور".

٥٤- ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ قال الفراء: "وُحِّد؛ لأنه رأسُ آية، فقَابَلَ بالتوحيد رءوسَ الآي".

قال: ويقال: " النهْر: الضياء والسعة؛ من قولك: أنْهَرْتُ الطعنة؛ إذا وسعتها. قال قيس بن الخطِيم يصف طعنة:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي, فَأَنْهَرْتُ فَتْقَهَا *** يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِها مَاوَرَاءَهَا

أي وسَّعتُ فتقها.

الشرح

سورة القمر سورة مكية، وقد أورد الله تعالى فيها خمس قصص من قصص الأمم الماضية التي أهلكها سبحانه، وجاءت على سياق الوعيد الشديد. ومن فضائلها أن النبي ﷺ كان يقرؤها في صلاة العيدين مع سورة ق؛ فمن السنة في صلاة العيدين قراءة سورة القمر في إحدى الركعتين وسورة ق في الركعة الأخرى، كما أن من السنة أيضًا قراءة سورة الأعلى والغاشية.

تفتتح السورة بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾؛ والاقتراب أبلغ وأشد في المعنى من القرب، لِما فيه من المبالغة في دُنُوّ الحساب كما في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، فقد دنا الوقت

وقَرُب جدًا. ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ ومعنى مستمر أي قوي شديدٌ محكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي ما يزجرهم ويعظهم ويهددهم. وقوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾؛ والمهطع هو المسرع الذي مد عنقه ورفع رأسه شاخصًا ببصره نحو الداعي ومسرعًا في مشيه.

ثم ذكر الله قصة نوح عليه السلام، وهي القصة الأولى في السورة، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾؛ أي زجره قومه بقوة وامتنعوا عن طاعته، فدعا ربه ففتح الله أبواب السماء بماء منهمر؛ أي كثير مجرف وافر، وفجر الأرض عيونًا، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قُدِر. وحمله الله على سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ والدسر هي المسامير التي تُشد بها السفينة وقيل هي الحبال، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ أي نصره الله ونجاه ومن معه جزاءً لهم بعد أن كفره قومه ولم يطيعوه.

وقد تكرر قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ في السورة مرتين، ومعناها: فهل من متذكر ومُتّعِظ؟ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَد يَسَّرنَا ٱلْقُرءَانَ لِلذِّكرِ فَهَل مِن مُّدَّكِر﴾ تكررت في السورة أربع مرات، مسبوقة بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ ثلاث مرات أيضًا؛ تعظيمًا وإنكارًا عليهم، والنُّذُر جمع نذير أو بمعنى إنذاري، وحُذِفت الياء للتخفيف.

ثم ذكر قصة عاد قوم هود عليه السلام: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾؛ والصرصر هي الريح العاتية ذات الصوت الشديد، في يوم نحس؛ وفي سورة أخرى قال: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: 16]، والمقصود باليوم هنا جنس الأيام؛ إذ كانت سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا، وكان يوم شؤم ونحس مستمر عليهم. وكانت تلك

الريح ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾؛ أي تقلعهم من مواضعهم وترفع الرجل إلى السماء ثم تطرحه على رأسه ميتًا، فصاروا كأصول النخل المنقلعة من جذورها أسفل الأرض.

وفي قصة ثمود قوم صالح عليه السلام، قالوا لما نصحهم نبيُّهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ والضلال هو الخروج عن الهداية، والسُّعُر جمع سعير وهي النار، وقيل: هي جنون العقل، وقالوا: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ والأشر هو المرح المتكبر على تفسير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فقال الله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾؛ أي مخرجوها اختبارًا وامتحانًا لهم هل سيؤمنون أم لا، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي تكون الآبار يومٌ للناقة ويومٌ لهم، ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾؛ يحضره صاحبه في نوبته. ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾؛ وهو أحيمر ثمود عاقر الناقة، تناوَل المدية أو السكين فنحرها. فأنزل الله عليهم صيحة واحدة ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾؛ أي هشيم الحظيرة وهو الشجر اليابس المفتت الذي تطؤه المواشي برعيتها في حظيرتها وأحيانًا تلوكه وتلفظه حتى يندك كالعصف المأكول ويصير متهشّم، وهذا تشبيه لهم بعد أن مزقتهم الريح.

ثم ذكر قوم لوط عليه السلام وأنهم ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾؛ أي شكوا وتجادلوا بالوعيد والإنذار الذي جاءهم. ثم وجه الله الخطاب لمشركي مكة فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾، ثم بشر بنصر المؤمنين فقال: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾؛ وهذه الآية نزلت بمكة وهي من دلائل النبوة والإعجاز الغيبي؛ إذ لم تقع إلا في معركة بدر بعد الهجرة بسنتين. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: كنت أقرؤها بمكة ولا أدري أي جمع يُهزم، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدِرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فعرفت تأويلها.

سورة الرحمن

مكية كلها

٤- ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي الكلام.

٥- ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي بحسابٍ ومنازلَ لا يَعْدُونها.

٦- ﴿وَالنَّجْمُ﴾ العُشْب والبقل.

﴿وَالشَّجَرُ﴾ ما قام على ساق.

﴿يَسْجُدَانِ﴾ قال الفراء: "سجودُهما: أنهما يستقبلان الشمس إذا أشرقتْ ثم يَمِيلان معها حتى ينكسر الْفَيْءُ".

وقد بينت السجود في كتاب "تأويل المشكل" وأنه الاستسلامُ من جميع المَوَات ، والانقيادُ لِما سُخر له.

٧- ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي العدل في الأرض.

٨- ﴿أَلا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي ألا تجورُوا.

٩- ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل.

﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي لا تَنقُصوا الوزن.

١٠- و (الأنام) : الخَلْق.

١١- و ﴿ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾ أي ذات الكُفُرَّى قبل أن ينفتق. وغِلاف كل شيء: كُمُّه.

[و] "الكُفُرَّى": هو الجُفُّ وهو الكُمُّ وهو الكافور وهو الذي ينشق عن الطَّلْع.

١٢- و ﴿الْعَصْفِ﴾ ورق الزرع؛ ثم يصير -إذا جَفَّ ودَرَس- تبنًا.

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ الرزق؛ يقال: خرجت أطلب ريحان الله. قال النَّمِر بن تَوْلَبٍ:

سلامُ الإلهِ ورَيْحَانُهُ *** ورَحْمَتُه وسَماءٌ دِرَرْ

١٣- و (الآلاء) : النعم. واحدها "أَلًى" إلى مثل قفًا و "إِلًى" مثل مِعًى .

١٤- ﴿صَلْصَالٍ﴾ طين يابس يُصَلْصِل أي يصوت من يُبسه كما يصوت الفَخَّار؛ وهو: ما طُبخ.

ويقال: "الصلصال": المُنْتِن؛ مأخوذ من "صلَّ الشيء": إذا أنْتَنَ مكانه فكأنه أراد: "صَلالا"؛ ثم قلب إحدى اللامين.

وقد قرئ ﴿أَئِذَا صَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ : أي أنْتَنَّا.

١٥- و (المارج) : هاهنا: لهب النار؛ من قولك: مَرج الشيءُ؛ إذا اضطرب ولم يستقرَّ.

قال أبو عبيدة : ﴿مِنْ مَارِجٍ﴾ من خِلْط من النار.

١٩- ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلاهما. تقول: مَرَجتُ دابتي؛ إذا خلَّيتَها ومَرَج السلطانُ الناسَ: [إذا أهملهم] .

وأمْرَجْتُ الدابة: رعيتها .

٢٠- ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي حاجز: لئلا يحملَ أحدهما على الآخر؛ فيختلطان.

٢٢- و ﴿اللُّؤْلُؤُ﴾ كبار الحبّ.

﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ صغاره.

٢٤- ﴿الْجَوَارِ﴾ السفن. و ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ اللواتي أُنشِئن أي ابتُدئ بهن

﴿فِي الْبَحْرِ﴾ ومن قرأ: ﴿الْمُنْشِآتُ﴾ جعلهن: اللَّواتي ابتدأْن. يقال أنشأت السحابةُ تُمطر؛ أي ابتدأتْ. وأنشأ الشاعر يقول.

و (الأَعْلامُ) : الجبال. واحدها: "عَلَم" .

٣٣- ﴿أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ﴾ وأقتارها: جوانبُها.

﴿لا تَنْفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾ أي إلا بمُلكٍ وقَهرٍ.

٣٥- و (الشواظ) : النار التي لا دخَانَ فيها. و (النُّحَاسُ) : الدخان. قال الجَعْديُّ:

تُضِيءُ كضَوْءِ سِراجِ السَّلِيطِ *** لم يجعَلِ اللهُ فِيه نُحاسا

٣٧- ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أي حمراءَ في لون الفرس الوَرْدة .

و"الدِّهان": جمع "دُهن".

ويقال : "الدِّهانُ": الأَدِيم الأحمر.

٤١- ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلامات فيهم، يقال : سوادُ الوجوه وزُرقةُ العيون ونحو ذلك.

٤٤- وقوله: ﴿حَمِيمٍ آنٍ﴾ و "الحميم": الماء المغلي. و "الآني": الذي قد انتهت شدة حره .

٤٦- ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ بستانان في الجنة.

قال الفراء : وقد تكون في العربية جنةً واحدة. (قال) : أنشدني بعضهم:

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ *** قَطَعْتُه بالسَّمْتِ لا بالسَّمْتَيْنِ

يريد: مهمهًا واحدًا وسمتًا واحدًا.

(قال) وأنشدني آخرُ:

يَسْعَى بِكَبْدَاءَ وفَرَسَيْنِ *** قد جَعَلَ الأَرْطَاةَ جَنَّتَيْنِ

(قال) : وذلك للقوافي؛ والقوافي تحتمل -من الزيادة والنقصان- ما لا يحتمله الكلام".

وهذا من أعجب ما حُمل عليه كتاب الله . ونحن نعوذ بالله من أن نَتَعسَّفَ هذا التعسُّفَ ونُجِيزَ على الله -جل ثناؤه- الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية.

وإنما يجوز في رءوس الآي: أن يزيد هاءً للسكت؛ كقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ ؛ وألفًا كقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أو يحذف همزةً من الحرف كقوله: ﴿أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ أو ياءً كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ لتستويَ رءوس الآي على مذاهب العرب في الكلام: إذا تمَّ فآذَنَتْ بانقطاعه وابتداء غيره. لأن هذا لا يُزيل معنًى عن جهته ولا يَزيد ولا يَنقُص. فأمَّا أن يكون الله عز وجل وَعَد جنتَيْن فيجعلَها جنة واحدة من أجل رءوس الآي -: فمعاذ الله!.

وكيف يكون هذا: وهو -تبارك اسمه- يصفُهما بصفات الاثنين، فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ؛ ثم قال: ﴿فِيهِمَا﴾ ، ﴿فِيهِمَا﴾ ؟!.

ولو أن قائلا قال في خَزَنة النار: إنهم عشرونَ، وإنما جعلهم تسعةَ عشرَ لرأس الآية - كما قال الشاعر:

نحنُ بَنُو أُمِّ البَنِينَ الأَرْبَعة

وإنما هم خمسة فجعلهم للقافية أربعة -: ما كان في هذا القول إلا كالفراء.

٥٤- ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ قال الفراء: "قد تكون البِطانةُ ظِهارةً، والظهارةُ بطانةً. وذلك: أن كل واحد منهما [قد] يكون وجهًا؛ تقول العرب: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء -لـ[ظاهرها] الذي تراه. (قال) :

وقال ابن الزُّبير- وذكر قَتلَةَ عثمانَ رضي الله عنه-: "فقتلهم الله كل قِتْلَةٍ، ونجا من نجا منهم تحت بطون السماء والكواكب"؛ يعني: هربوا ليلا".

وهذا أيضا من عَجَب التفسير. كيف تكون البِطانةُ ظِهارةً، والظِّهارةُ بِطانةً - والبِطانةُ: ما بَطَن من الثوب وكان من شأن الناس إخفاؤه؛ والظِّهارةُ: ما ظَهَر منه وكان من شأن الناس إبداؤه؟!.

وهل يجوز لأحد أن يقول لوجهِ مصلًّ: هذا بِطانته؛ ولما وَلِيَ الأرضَ منه: هذا ظِهارتُه؟!.

وإنَّما أراد الله جل وعز أن يعرفنا -من حيثُ نفهم- فضلَ هذه الفُرش

وأن ما وليَ الأرضَ منها إستَبْرَقٌ، وهو: الغليظ من الدِّيباج. وإذا كانت البِطانة كذلك: فالظِّهارةُ أعلى وأشرفُ.

وكذلك قال النبي ﷺ: " لَمَنَادِيلُ سعدِ بن مُعاذٍ -في الجنة- أحسنُ من هذه الحُلَّة ". فذكر المناديلَ دون غيرها: لأنها أخشنُ من الثياب. وكذلك البطائنُ: أخشنُ من الظواهر.

وأما قولهم: ظهر السماء وبطن السماء؛ -لما ولِينَا-:فإن هذا قد يجوز في ذي الوَجْهين المتساويَيْن إذا ولِيَ كلُّ واحد منهما قومًا. تقول في حائط بينك وبين قوم -لِمَا ولِيَكَ منه-: هذا ظهرُ الحائط؛ ويقول الآخَرون لما ولِيَهم: هذا ظهر الحائط. فكلُّ واحد -من الوجهين-: ظهرٌ وبطنٌ. ومثلُ هذا كثيرٌ.

كذلك السماء: ما وَلِينا منها ظهرٌ؛ وهو لمن فوقها -من الملائكة- بطنٌ.

٥٦، ٧٤- ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ﴾ قال أبو عبيدة: لم يَمْسَسْهن . ويقال: ناقة صعبة لم يَطمِثْها فحلٌ قط؛ أي لم يمسسها.

وقال الفراء : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يفتَضَّهن. و "الطَّمْث": النكاح بالتَّدْمِيَة. ومنه قيل للحائض: طامثٌ.

٦٤- ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ سَوْداوَان من شدة الخُضرة والرِّيّ . قال ذو الرُّمة -وذكر غيثًا-:

كَسا الأَكْمَ بُهْمَى غَضَّةً حَبَشِيَةً *** تُؤَامًا ونُقْعانُ الظُّهورِ الأَقارِعِ

جعلها حبشية من شدة الخضرة.

٦٦- ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ تفوران بالماء. و "النَّضْخ" أكثر من "النَّضح". ولا يقال منه: فَعَلْت .

٧٠- ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ نساء خيِّرات؛ فخفف. كما يقال: هيْنٌ ولَيْنٌ.

٧٢- ﴿حُورٌ﴾ شديدات البياض وشديدات سواد المُقل. واحدها: "حَوْراءُ" ومنه قيل: حَوَارِيُّ.

﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ أي محبوسات مخدَّرات. والعرب تسمي الحَجَلة: "المقصورة". قال كُثيِّر:

لَعَمْرِي! لقد حبَّبْتِ كلَّ قصيرةٍ *** إلَيَّ وما تَدْرِي بذاكَ القصَائِرُ

عَنَيْتُ قَصيراتِ الحِجَالِ ولم أُرِدْ *** قِصارَ الخُطَى; شرُّ النساءِ البَحَاتِرُ

و "البَحَاتِرُ": القِصَارُ.

٧٦- ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يقال: رياضُ الجنة .

وقال أبو عبيدة : "هي الفُرش والبُسط" أيضًا؛ وجمعه: "رَفارِف".

ويقال: هي المحابس .

و (الْعَبْقَرِيُّ) : الطَّنَافِس الثِّخان .

قال أبو عبيدة: "يقال لكل شيء من البُسُط: عبقريٌّ. ويُذكر أن "عَبْقَرَ": أرض كان يُعمل فيها الوشيُ؛ فنُسب إليها كلُّ شيء جيد" .

الشرح

سورة الرحمن سورة مكية، افتتحها الله باسمه الرحمن، وقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي علّم الإنسان النطق والكلام والتعبير. وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي يجريان بحساب ومنازل مقدرة يستقيم بها عد السنين والحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾؛ المراد بالنجم هنا ليس النجم الذي في السماء، بل هو النبات والشجر الذي ليس له ساق في الأرض ويمتد عليها، أما ما كان له ساق قائمة فهو الشجر.

وقوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾؛ أي أقام العدل وأَمَر به، فلا تجوروا ولا تظلموا بل أقيموا الوزن بالقسط.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ﴾؛ وهي أوعية أطلع الثمار والغلف التي تخرج منها. وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾؛ والعصف هو التبن والشجر اليابس الذي يُجَف ويُطحَن، والريحان المؤلف قال هو الرزق لكن الظاهر هو النبات طيب الرائحة.

وتكرر في السورة قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والآلاء هي النعم. وقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾؛ والصلصال هو الطين اليابس الذي إذا نُقِر عليه صلصل وأصدر صوتًا. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾؛ وهو لهب النار الخالص المختلط.

وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾؛ أي خلي بين البحرين المالح والعذب يلتقيان، وجعل بينهما حاجزًا قدره سبحانه فلا يطغى أحدهما على الآخر ولا يختلطان. ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾؛ واللؤلؤ هو كبار الجواهر البحرية، والمرجان هو صغارها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾؛ وهي السفن الضخمة الجارية في البحر كالجبال أو الجبال العالية.

وقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾؛ والشواظ هو اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس هو الدخان المتصاعد.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾؛ أي تكون حمراء شديدة الحمرة وتذوب كما يذوب الدهن. وقوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾؛ أي بين النار وبين ماء متناهٍ في شدة الحرارة والغلَيَان.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾؛ وأورد الفراء رأيًا ضعيفًا بأنها جنة واحدة وأن كلمة "جنتان" وردت لمراعاة الفواصل والتثنية في السورة، وهو رأيٌ باطل ورده العلماء والمؤلف؛ إذ أثبت النص التثنية الحقيقية بقوله: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وقوله ﴿فِيهِمَا﴾ مما يدل على أنهما جنتان حقيقيتان.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾؛ والإستبرق هو ديباج الحرير الثخين، فإذا كانت البطائن -وهي الداخل غير الظاهر- من إستبرق، فكيف بظواهر هذه الفرش وأرائكها؟ لا شك أنها أبهى وأجمل بكثير.

وقال في نساء الجنة: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾؛ أي أنهن أبكارًا لم يمسسهن بشر ولا جان، وأصل الطمث في اللغة التدمية.

ثم قال في وصف الجنتين الأخريين: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * مُدْهَامَّتَانِ﴾؛ والدهمة هي شدة الخضرة التي تضرب إلى السواد من شدة الري والنعيم.

وقوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾؛ والحور جمع حوراء، وهي المرأة شديدة بياض العين وسواد حدقتها، مع بياض بشرة خالطته حمرة يسيرة. ومقصورات أي مستورات ومحصونات لأزواجهن.

ختم السورة بقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾؛ والرفرف هي البسط والوسائد الفاخرة، والعبقري هو أفخر وأجود أنواع الفرش، وكانت العرب تُنسب كل شيء بلغ الغاية في الجودة والكمال إلى أرض "عبقر"، ومنه قيل للرجل المتفوق شديد الذكاء عبقري -والله أعلم-.

سورة الواقعة

مكية كلها

١- ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ القيامة.

٢- ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي ليس لها مردود. يقال: حمل عليه فما كذَب؛ أي فما رجع.

قال الفراء: "قال لي أبو ثَرْوَانَ: إن بني نُمير ليس لِحدِّهم مَكْذوبةٌ؛ أي تكذيب".

٣- ثم قال: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أي تخفض قومًا إلى النار وترفع آخَرين إلى الجنةِ.

٤- ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ أي زُلْزِلَتْ.

٥- ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ فُتِّتَتْ حتى صارت كالدقيق والسَّوِيق المَبسوس.

٦- ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ أي ترابًا منتشِرًا. و "الهباءُ المُنْبَثُّ": ما سطع من سنابك الخيل.

٧- ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ أي أصنافًا.

٨- ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ؟! على التعجب. كأنه قال: أيُّ شيء هم؟!.

ويقال في الكلام: "زيدٌ ما زَيدٌ! " أيْ أيُّ رجل هو.

٩- ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ؟! أي أصحاب الشمال.

والعرب تسمِّي اليدَ اليسرى: الشُّؤمَى؛ والجانبَ الأيسر: الجانبَ الأَشْأَمَ.

ومنه قيل: اليُمْن والشُّؤم. فاليُمن: كأنه ما جاء عن اليمين؛ والشُّؤم: ما جاء عن الشمال. ومنه سميت "اليَمَنُ" و "الشَّأم".

١٣، ٣٩، ٤٠- ﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة.

١٥- ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ أي منسوجة. كأن بعضها أُدخِلَ في بعض، أو نُضِّد بعضُها على بعض.

ومنه قيل للدِّرْع: مَوْضونةٌ. ومنه قيل: وَضِينُ الناقة. وهو بِطَانٌ من سيُور يُرَصَّع ويُدْخَل بعضُه في بعض.

قال الفراء: "سمعت بعضهم يقول: الآجُرُّ موضونٌ بعضُه إلى بعض؛ أي مُشْرَجٌ [صَفيفٌ] ".

١٧- ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ يقال: على سِنٍّ واحدة لا يتغيَّرونُ [ولا يموتون] . ومن خُلِّد وخُلِق للبقاء: لم يتغيَّر.

ويقال: مُسوَّرون. ويقال: مُقَرَّطون ويُنْشَد فيه شعر:

وَمُخَلَّداتٌ باللُّجَيْنِ كأنَّمَا ❊❊❊ أعْجَازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبانِ

١٨- ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ لا عرًى لها ولا خراطِمَ.

١٨و١٩- ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ❊ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ كان بعضهم يذهب في قوله: ﴿لا يُصَدَّعُونَ﴾ ؛ [إلى أن معناه] أي لا يتفرقُون عنها. من قولك: صَدَّعتُه فانْصَدَع.

ولا أراه إلا من "الصُّداع" الذي يعتري شرابَ الخمر في الدنيا؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم -في وصف الجنة-: " وأنهار من كأسٍ ما إنْ بها صُدَاعٌ ولا ندامةٌ ".

﴿وَلا يُنْزِفُونَ﴾ قد ذكرناه .

٢٨- ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ أي لا شَوْكَ فيه: كأنه خُضِدَ شَوْكُهُ أي قُطع.

ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في المدينة: "لا يُخْضَدُ شوكُها ولا يُعْضَدُ شجرُها" .

٢٩- ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطلحُ عند العرب: شجر من العِضاه عظامٌ؛ والعِضاهُ: كل شجر له شوك.

قال مجاهد . "أعجبهم طلح "وَجٍّ" وحُسنُه فقيل لهم: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ ".

وكان بعض السلف يقرأه: (وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ) ؛ واعتبره بقوله في ق ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾

وقال المفسرون: "الطَّلْحُ" هاهنا: الموز. و"المنضود": الذي نُضِدَ بالحمل من أوله إلى آخره، أو بالورق والحمل، فليست له سُوقٌ بارزة. وقال مسروق "أنهارُ الجنة تجري في غير أُخْدُودٍ، وشجرُها نَضِيد [من أصلها إلى فرعها"؛ أي] من أسفلها إلى أعلاها.

٣٠- ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ لا شمس فيه.

٣١- ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ جارٍ غير منقطعٍ.

٣٢-٣٣- ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ❊ لا مَقْطُوعَةٍ﴾ أي لا تَجيءُ في حينٍ وتنقطعُ في حين؛ ﴿وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا محظورةَ عليها كما يُحظَر على بساتين الدنيا.

٣٤-٣٥- ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾ ؛ ولم يذكر النساء قبل ذلك: لأن الفرش محل النساء؛ فاكتفى بذكر الفُرُش.

يقول: أنشأنا الصبيَّةَ والعجوزَ إنشاءً جديدًا.

٣٦-٣٧- ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ أي شيئًا واحدًا وسنًّا واحدًا.

[و] "عُرُبًا": جمع "عَرُوب"؛ وهي: المُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها. ويقال: الغَنِجَةُ.

٤٢- ﴿فِي سَمُومٍ﴾ أي في حرّ النار.

٤٣- ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ أي دخَانٍ أسودَ. و"اليحموم": الأسْود.

٤٦- ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي يُقيمون على الحنث العظيم، ولا يتوبون عنه.

و "الحنث": الشِّرك ؛ وهو: الكبير من الذنوب أيضًا.

٥٥- و ﴿الْهِيمِ﴾ الإبلُ يصيبها داءٌ فلا تَروَى من الماء. يقال: بعيرٌ أَهْيَمُ وناقةٌ هَيْمَاءُ.

٥٦- ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: رزقُهم وطعامهم.

٥٨- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ [أي ما تصبُّونه في أرحام النساء] : من المنيِّ.

٦٠-٦١- ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ﴾ أي لسنا مغلوبين على أن نستبدلَ بكم أمثالَكم من الخلق.

٦٣- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ أي تزرعون.

٦٥- ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تَعجبون مما نزل بكم في زرعكم إذا صار حطامًا.

[و] يقال: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تندَّمونُ مثل "تَفَكَّنُونَ". وهي لغةٌ لِعُكْلٍ.

٦٦- ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي معذَّبون. من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي هَلَكَةً.

٦٩- و ﴿الْمُزْنِ﴾ السحابُ.

٧٠- و (الأجاج) : الشديد المرارة.

٧١- ﴿الَّتِي تُورُونَ﴾ أي تستخرجُونَ من الزُّنود.

٧٢- ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ التي تُتخذ منها الزُّنودُ؟ ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ ؟.

٧٣- ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي تذكِّركم جهنم.

﴿وَمَتَاعًا﴾ أي منفعة. ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ يعني: المسافرين. سموا بذلك: لنزولهم القواء وهو: القَفْر.

وقال أبو عبيدةَ: "المُقْوِي: الذي لا زاد معه؛ [يقال: أقوى الرجل؛ إذا نَفِد زاده] ".

ولا أرى التفسير إلا الأولَ؛ ولا أرى الذي لا زاد معهُ أولى بالنار ولا أحوجَ إليها من الذي معه الزادُ. بل صاحبُ الزاد أولى بها وإليها أحوجُ .

٧٥- ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ أراد: نجوم القرآن إذا نزل. وقال أبو عبيدةَ: "أراد مساقط النجوم في المغرب".

٨١- ﴿أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أي مداهِنون. يقال: أدْهَن في دِينه وداهن .

٨٢- ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكركم.

﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي جعلتم شكرَ الرزقِ التكذيبَ.

قال عطاء: "كانوا يُمْطَرُون فيقولون: مُطِرنا بنوء كذا".

٨٣- ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أي فهلا إذا بلغت النفسُ الحلقومَ.

٨٦-٨٧- ﴿فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير مملوكين أذلاءَ. من قولك: دِنْتُ له بالطاعة. وقال أبو عبيدةَ: ﴿مَدِينِينَ﴾ مجزيّين.

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي تردون النفْس!

٨٩- ﴿فَرَوْحٌ﴾ في القبر، أي طيب نسيم.

﴿وَرَيْحَانٌ﴾ رزق. ومن قرأ: (فَرُوحٌ) ؛ أراد: فحياةٌ وبقاءٌ.

الشرح

سورة الواقعة سورة مكية يدور محورها حول الحديث عن يوم القيامة، وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها أقسام الناس في ذلك اليوم إلى ثلاثة أصناف: السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. كما عاود سبحانه ذكر هذه الأقسام الثلاثة في آخر السورة؛ لتبيان حال الناس في قبورهم في عالم البرزخ، فذكر حال المقربين، ثم حال أصحاب اليمين، ثم حال المكذبين الضالين.

افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾؛ والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها واقعةٌ لا محالة. وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي ليس لها رادّ ولا يدفع وقوعها أحد، بل هي آتية حتمًا. ثم قال سبحانه: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾؛ أي تخفض أقوامًا وهم أهل النار إلى أسفل السافلين، وترفع آخرين وهم أهل الجنة إلى أعلى الدرجات.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا﴾ أي زُلزِلت واضطربت اضطرابًا شديدًا، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾؛ والبَسّ هو التفتيت حتى تتفتت الجبال الصلبة القوية وتتلاشى من أهوال ذلك اليوم، ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾؛ وفي آية أخرى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20] والهباء المنبث هو الغبار الدقيق الذي ينتشر في الهواء وتراه حين يدخل شعاع الشمس من النافذة، فالجبال العظيمة تصير كأمثال هذا الغبار والسراب.

ثم بيّن أحوال الخلائق فقال: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾؛ فالميمنة من أصل التيمن وهم أهل اليمين، والمشأمة من الشؤم وهم أهل الشمال. وقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ﴾ أي جماعة كثيرة. وعن سررهم قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾؛ والموضونة هي المنسوجة والمرصعة بالذهب والفضة والجواهر.

وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ وهم خَدَمٌ لأهل الجنة خلقهم الله لهذه المهمة، ومخلّدون أي لا يتغيرون ولا يكبرون في السن بل يبقون على حالتهم وصباهم. ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ الأكواب معروفة، أما الأباريق هي أكواب كبيرة وعظيمة ليس لها عُرَى ولا خراطيم على أوصاف لا تُقاس بأواني الدنيا؛ إذ إن عند ذكر نعيم الجنة أو عذاب أهل النار فإن كل ما يخطر بالبال عن نعيم الجنة أو عذاب النار فالحقيقة في الآخرة بخلافه، وكما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ليس في الجَنَّةِ شَيءٌ ممَّا في الدُّنيا إلَّا الأسماءُ».

والكأس في القرآن إذا أُطلقت فالمراد بها الخمر، خمر الجنة الجاري من عيونها، فيشربون من عين الخمر ويُسمّى تسنيم ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 27-28]. ثم قال تعالى: ﴿لاَّ

﴿يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾؛ (لا يصدعون) أي لا يصيبهم صداع في رؤوسهم كما يحدث لشارب خمر الدنيا، (ولا ينزفون) ولا تعتريهم الغفلة أو الإرهاق والتعب.

ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾؛ والسدر هو شجر النبق، وفي الدنيا يكون مليئًا بالشوك، أما سدر الجنة فمخضودٌ قد أُزيل عنه شوكه. وقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾؛ والجنة ليس فيها شمس ولا زمهرير، وإنما ظلها شبيهٌ بالنور الناصع والجو المعتدل الذي يكون بين طلوع الفجر وقبل شروق الشمس.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي جاري لا ينقطع عنهم أبدًا، ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ ففواكه الدنيا ترتبط بمواسم وفصول ثم تنقطع، أما فاكهة الجنة فمستمرةٌ دائمًا (لا مقطوعة) ولا يمنع عنها أحد (ولا ممنوعة). وقوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾؛ ينشئ الله نساء الجنة -سواء من الحور العين أو نساء الدنيا اللاتي توفين صبايا أو عجائز- في سنٍّ واحدة وجمالٍ متجدد، والعروب: هي الزوجة المتحببة لزوجها والمتغنجة له بالكلام الطيب والود، والأتراب: هن المتقاربات في السن.

ثم بيّن عذاب أصحاب الشمال فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لاَّ بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾؛ والسموم هو شدة حرارة النار، واليحموم هو الدخان الأسود الكثيف. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ أي يداومون على المعاصي الكبائر والشرك دون توبة.

ولما ذكر طعام أهل النار وشرابهم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾؛ والهيم هي الإبل العطاش التي تشرب ولا تروى لمرض يصيبها، وقيل هي الرمل الذي يبتلع الماء بلا كفاية، فكذلك أهل النار يشربون من الماء الحميم الذي يقطع أمعاءهم ولا يرويهم. ثم قال: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي هذا ضيافتهم ورزقهم يوم الحساب.

ثم قدم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الدلائل على قدرته فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي المني، وقال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي لسنا بمغلوبين ولا يعجزنا أحد. وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي الزرع، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي تتعجبون وتتحسرون حين تجدون الزرع حطامًا يابسًا وتقولون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي لمعذبون أو ملزمون بالغرامة والخسارة.

ثم أشار إلى الماء فقال ﷻ: ﴿أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾؛ والمزن هو السحاب المحمل بالماء، ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أن الله سبحانه قادر على جعله أجاجًا شديد الملوحة والمرارة. ثم ذكّر بنعمة النار في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾؛ تورون من الوراء وهو بمعنى الاستخراج، وكانت العرب تستخرج النار من احتكاك أغصان شجر "المرخ" و"العفار"، فذكّرهم الله ﷻ بمن أوجد هذا الشجر وجعل منه نارًا.

ثم أقسم سبحانه بقوله: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾؛ والقسم إما بمواقع نجوم السماء أو بنجوم القرآن وتنزّلاته المتفرقة. ثم عاتب الكفار بقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾؛ أي تجعلون شكركم لواهب النعم أنكم تكذبون وتنسبون الفضل لغيره فتقولون مطرنا بنوء كذا أو بنجم كذا.

ثم بيّن لحظة خروج الروح فقال: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾، ﴿فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي إن كنتم غير مجزيين ولا محاسبين فأرجعوا هذه الروح إلى الجسد ولن تستطيعوا ذلك.

ثم ختم بالحديث عن البرزخ ونعيم القبر فقال في المقربين: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾؛ فالرَوْح هو الريح والنسيم الطيب، والريحان هو الرزق الحسن والطعام الطيب.

سورة الحديد

مدنية كلها

٤- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ﴾ أي يدخلُ فيها.

١٣- ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ يقال: هو السور الذي يسمى الأعرافَ.

١٤- ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أنمْتموها.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ شككتم.

١٥- ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ أي هي أولى بكم. قال لبيد:

فَغَدَتْ كِلا الفَرْجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ *** مَوْلَى المَخَافَةِ خَلْفَهَا وأَمامَها

١٦- ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ألم يَحِن. يقال: أَنَى الشيءُ يأنِي؛ إذا حان.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ﴾ يعني: الغاية.

٢٠- ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ أي الزُّرَّاع. يقال للزارع: كافرٌ؛ لأنه إذا ألقَى البذر في الأرض: كَفَره أي غطَّاه.

٢١- ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي سَعتُها كسعةِ السماء والأرض. وقد تقدم ذكر هذا.

٢٢- ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي نخلقَها.

٢٣- ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي لا تحزنوا.

٢٥- ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل.

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ ذكروا: "أن الله أنزل العَلاة - وهي: السَّنْدان- والكَلْبَتَيْن والمِطْرَقة".

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ للقتال.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ مثل السكين والفأس والمَرِّ والإبرة.

٢٧- ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ اسمٌ مبني من "الرَّهبة"، لِما [فَضَل عن المقدار و] أفْرَط فيه. وهو ما نهى الله عنه إذ يقول: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ويقال: دين الله بين المقصر والغالي.

﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي ما أمرناهم بها إلا ابتغاء رضوان الله؛ أي أمرنا منها بما يُرضي الله عز وجل لا غير ذلك.

٢٨- ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ نصيبين وحظَّين.

٢٩- ﴿لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلا يَقْدِرُونَ﴾ أي ليعلموا أنهم لا يقدرون ﴿عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾.

الشرح

سورة الحديد سورة مكية، وسميت بهذا الاسم لأن الله تعالى ذكر الحديد في أواخرها في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾. وتبدأ السورة بالحديث عن شمول علم الله وعظمته، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾؛ أي يعلم سبحانه كل ما يدخل في طبقات الأرض وما يخرج منها من نبات وماء وغير ذلك.

ثم بيّن الله تعالى حال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ﴾؛ وهذا السور الفاصل بين الفريقين هو سور الأعراف، حيث يترك المنافقين في الظلمات بينما يذهب المؤمنون بنورهم. وينادي المنافقون المؤمنين فيقال لهم: ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أثّمتموها وعصيتم، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم في البعث واليوم الآخر، حتى صار مصيرهم كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ أي هي أولى بكم وبمصيركم.

ثم حث الله المؤمنين على الخشوع والإقبال عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ ومعنى ألم يأن أي: ألم يحن الوقت ويَقْرُب للقلوب أن تطمئن وتخضع لذكر الله. وضَرَب الله مثلًا لحقيقة الحياة الدنيا وزوالها فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى قوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾؛ والغيث هو المطر، والمراد بالكفار هنا الزُّرَّاع والحرّاث؛ لأن الزارع يغطي البذر في التراب فيُسمى كافرًا بالشيء أي ساترًا له، وقيل المراد بهم الكفار بالله لأن إعجابهم بالدنيا وزينتها أشد.

ثم دعا الله إلى الاستباق إلى الخيرات فقال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾؛ والمراد بالعرض هنا السعة العظيمة والفسحة، ولا يلزم منها المقابلة بين الطول والعرض. ثم أرسى قاعدة القضاء والقدر فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ونوجدها، والعلة في ذلك: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ كي لا تحزنوا على ما عزّ عليكم نيله ولا تطغوا بما أُوتيتم.

ثم بيّن المقصد من إرسال الرسل والكتب فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾؛ وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى إنزال الحديد هو إنزال الآلات كالمطرقة والكلبتين والسندان، لكن لا دليل على ذلك، والراجح أنه إنزالٌ واستخراجٌ من أعالي الجبال حيث تُوجد معادنه. وقوله ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة في الحروب والدفاع كالآلات والسلاح، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ في معايشهم وصناعاتهم كالسكين والفأس ومختلف الأدوات.

ثم ختمت السورة بذكر قصة عيسى بن مريم عليه السلام والحديث عن أتباعه فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾؛ رهبانية ابتدعوها أي: إنهم شددوا على أنفسهم وابتكروا طريقة الرهبنة والتخلي عن الدنيا ولم يفرضها الله عليهم، بل كان المطلوب منهم هو لزوم ما يرضي الله واتباع أمره دون غلوٍّ أو ابتداع.

ثم نادى الله المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي نصيبين مضاعفين من أجره ورعايته، وختم ببيان حكمته سبحانه فقال: ﴿لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ أي ليعلموا أن العطاء والفضل بيد الله وحده يختص به من يشاء من عباده وليس منهم.

سورة المجادلة

مدنية كلها

١ - ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي تشكو. يقال: اشتكيْت ما بي وشكوْته.

٣- ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: يُحرِّمونهم تحريم ظهور الأمهات.

ويروى: أن هذا نزل في رجل ظاهَرَ فذكر الله قصته. ثم تبع هذا كلُّ ما كان من الأم محرمًا على الابن أن يطأه: كالبطن والفَخْذِ وأشباهِ ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ ؛ يتوهم قوم: أن الظِّهار لا يُحسب ولا يقع حتى يتكرر اللفظ به؛ لقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ وقد أجمع الناس على أن الظِّهار يقع بلفظ واحد.

فأمَّا تأويلُ قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ ؛ فإن أهل الجاهليَّة كانوا يطلِّقون بالظِّهار؛ فجعل الله حُكمَ الظِّهار في الإسلام خلافَ حكمه عندهم في الجاهلية؛ وأنزل: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ في الجاهلية ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [لما] كانوا يقولونه من هذا الكلام.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي عتقُها ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾.

٥- ﴿كُبِتُوا﴾ قال أبو عبيدة: أُهْلِكُوا.

وقال غيره: غِيظُوا وأُخْزُوا. وقد تقدم ذكر هذا في سورة آل عمرانَ.

٨ و ١٠- ﴿النَّجْوَى﴾ السِّرَار.

١١- ﴿تَفَسَّحُوا﴾ أي تَوَسَّعُوا.

﴿انْشُزُوا﴾ قوموا. و "الناشِزُ" منه.

ومنه قيل: نَشَزَت المرأةُ على زوجها.

١٨- ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي يحلفُ المنافقون لله يومَ القيامة كما حلَفوا لأوليائه في الدنيا. هذا قول قتادةَ.

١٩- ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي غلب عليهم واستولى.

٢١- ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي قضى الله: ﴿لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾

٢٢- ﴿حَادَّ اللَّهَ﴾ و "شاقَّه" واحدٌ.

الشرح

سورة المجادلة سورة مدنية، وهي مطلع الجزء الثامن والعشرين من القرآن الكريم، والملاحظ أن سور هذا الجزء جميعها مدنية. نزلت السورة في قصة خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين جاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ويُقال في اللغة: اشتكيتُ ما بي وشكوتُه إلى الله.

ثم تناولت السورة أحكام الظهار في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾؛ والظهار هو أن يُحَرِّم الرجل زوجته على نفسه بتشبيهها بظهر أمه أو بمن تحرم عليه. ويُوضّح المفسرون أن التشبيه لا يقتصر على الظهر فحسب، فلو قال لزوجته: "أنتِ عليّ كبطن أمي أو فخذها" أصبحت محرمة عليه وحرمتها ظهار. والظهار حكمه في الإسلام محرَّمٌ أشد التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

وإذا وقع الظهار من الزوج -ولو كان على سبيل المزاح- وجبت عليه الكفارة المغلظة المترتبة على ذلك، وتكون الكفارة أولًا بتحرير رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع لعذرٍ كالمرض أو استخدام العلاجات المستمرة، انتقل إلى إطعام ستين مسكينًا، ولا يحل للزوج أن يقرب زوجته أو يمسها حتى يؤدي الكفارة كما قال سبحانه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾. لذا ينبغي الحذر الشديد من إطلاق هذه العبارات، كأن يقول الرجل لزوجته مداعبًا أو مكرِّمًا: "أنتِ أمي"؛ كيف والأم محرمةٌ عليه بنص الشرع بينما الزوجة حلالٌ له، فيجب الابتعاد عن هذه الألفاظ.

ثم بيّن الله تعالى عاقبة المكذبين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ ومعنى كُبِتُوا أي أُهْلِكُوا وأُخْزُوا. وقوله ﴿يُحَادُّونَ﴾ أي يُشَاقُّون الله ورسوله ويخالفون أمره.

ثم أدّب الله المؤمنين بآداب المجالس فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾؛ والتفسح هو التوسع للمجلس، والنشوز هو القيام والارتفاع لإفساح المكان أو لإجابة الداعي.

ثم وصف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حال المنافقين وأتباع الشيطان فقال: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾؛ أي استولى عليهم وقهرهم حتى صاروا من حزبه. ثم ختم ببيان سنته النافذة وقدره المحتوم فقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ أي قضى الله وقدّر أن تكون الغلبة والعاقبة له ولرسله وأوليائه المؤمنين.

سورة الحشر

مدنية كلها

٢- ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ قال عِكْرِمَةُ: "من شك في أن المحشر هاهنا (يعني: الشام) فليقرأ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ (قال): وقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- يومئذٍ: اخرجوا فقالوا: إلى أين؟ فقال: إلى أرض الحشر".

وقال ابن عباس -في رواية أبي صالح-: "يريد أنهم أول من حُشِر وأُخرج من دياره".

وهو: الجلاء. يقال: جلوا من أرضهم وأجليتهم وجلوتهم أيضا.

٥- (اللينة): الدَّقَلَة. ويقال للدَّقَلِ الألوانُ: ما لم يكن عجوةً أو بَرْنِيًّا. واحدتُها: "لُونة". [فقيل: لِينَة؛ بالياء]. وذهبت الواو لكسرة اللام.

٦- ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ من "الإيجاف". يقال: وَجَف الفرسُ والبعيرُ وأوجفتُهُ. ومثله "الإيضاع" وهو: الإسراع.

وأراد: أن الذي أفاء الله على رسوله -من هذا الفَيْء خاصة- لم يكن عن غزو ولا أَوْجَفْتم عليه خيلا ولا ركابًا.

٧- ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً﴾ من "التداول"، أي يتداولُه الأغنياء بينهم.

الشرح

تناول المؤلف في سورة الحشر بيان المعاني الواردة في آياتها، ومن ذلك المراد بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾؛ والحشر هنا هو جلاء بني النضير من اليهود وإخراجهم من المدينة المنورة إلى أرض الشام، حيث قيل لهم: اخرجوا إلى أرض محشركم، فهي الأرض التي

يُجمع فيها الناس ويُحشرون. وقد ذكر عكرمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من شك في أن المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية؛ إذ سيُجلى اليهود ويُجمعون حتى يجتمعوا فيها.

ثم بيّن معنى قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ واللِّينَة هي النخلة أو نوعٌ خاص من النخل كالدَّقْل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ﴾؛ أوجفتم أي: ما أسرعتم. ثم بيّن الله الحكمة من تقسيم الفيء وإعطائه للفقراء والمساكين والمهاجرين في قوله: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾؛ أي لكيلا يبقى المال حكرًا ومتداولًا بين أيدي الأغنياء خاصة دون الفقراء، فلذلك جعل الله للفقراء نصيبًا معلومًا منه ليعم النفع والعدل، فدولة يعني متداول مع الأغنياء دون الفقراء.

سورة الممتحنة

مدنية كلها

١- ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي تُلقون إليهم المودة.

وكذلك: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾

٤- ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي عبرةٌ وائْتمامٌ.

﴿إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ﴾ قال قتادةُ: "ائْتَسُوا بأمر إبراهيمَ كلِّه إلا في استغفاره لأبيه: فلا تأتسُوا به في ذلك؛ لأنه كان عن موعدة منه له ".

١٠- ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ أي بحبالهن. واحدتها: "عِصمة". أي لا ترغبوا فيهن.

﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أي سلُوا أهل مكةَ أن يردُّوا عليكم مهورَ النساء اللاتي يخرجْنَ إليهم مرتدَّاتٍ.

﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ وليسألوكم مهورَ من خرج إليكم من نسائهم.

١١- ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ يقول: إن ذهبت امرأة من نسائكم فلحقتْ بالمشركين بمكة ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي أصبتم [منهم] عُقْبَى أي غنيمةً من غزوٍ.

ويقال: "عَاقَبْتُمْ": غزوتم معاقِبين غزوًا بعد غزو.

[فآتوا]: فأعطوا المسلمين.

﴿الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ إلى مكةَ ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ -يعني: المهر- من تلك الغنيمة قبل الخُمُس.

وتُقرأ: (فَعَقَّبْتُمْ) من "تعقيب الغزو".

وتقرأ: (فَأَعْقَبْتُمْ).

١٢- ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ [أي لا يُلْحِقْن بأزواجهن غير أولادهم].

وكانت المرأة تلتقطُ المولود فتقولُ للزوج: هذا ولدي منك.

﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي في أمرٍ تأمُرهن به. وأمرُ رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- كلُّه معروفٌ.

١٣- ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أن يبعثوا؛ كذلك يئس أولئك من الآخرة أن تكون.

ويقال: "أراد كما يئس الكفار الموتى من الآخرة؛ أي يئس المشركون من الآخرة كما يئس أسلافهم الكفار المقبورون".

و"المَقْبُورون" هم: أصحاب القبور.

الشرح

يصحّ في تسمية السورة ضبطان؛ فيجوز فتح التاء "المُمْتَحَنَة" بكسر اسم المفعول أي التي امْتُحِن فيها النساء، ويجوز كسرها "المُمْتَحِنَة" باسم الفاعل أي السورة التي تَمْتَحِن النساء وبيّنت أحكام اختبارهن. وتُسمى في بعض كتب التفسير بسورة المودة.

افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾؛ والمعنى اللغوي يقتضي "تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ الْمَوَدَّةَ" أي تلقوا إليهم المحبة، ولكن دخلت الباء في الآية للتأكيد. وقوله تعالى: ﴿وَتُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي تسرون إليهم بالمحبة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾؛ أي قدوة وأسوة نيرة يقتدى بها في كل شيء، ثم استثنى سبحانه استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه في قوله: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدوٌّ لله تبرأ منه ولم يستغفر له بعد ذلك.

ثم بيّن الله أحكام العصمة بين الزوجين عند اختلاف الدين فقال: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾؛ أي لا يجوز للمسلم أن تبقى في ذمته امرأة كافرة مرتدة أو تاركة للصلاة -وإن ادعت الإسلام وهي لا تصلي- بل يجب الفراق وتسريحها؛ إذ انقطعت العصمة بمفارقة الدين. وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾؛ معناه إذا ارتدت الزوجة وذهبت إلى الكفار فللزوج المسلم أن يطالب بالمهر الذي دفعه لها، وكذلك الكفار

إذا جاءت زوجاتهم مسلمات يطالبون بمهرهم. وقوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾؛ أي إن فرت الزوجة ولم يؤدّ الكفار المهر، فيُعوض الزوج المسلم قيمة مهره من غنائم الحرب.

وفي شروط بيعة النساء لرسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ والبهتان هنا هو أن تُلْحِق المرأة بغشها نسب ولد ليس من زوجها وتدعوه إليه افتراءً وزورًا.

سورة الصَّف

مدنية كلها

٤- ﴿بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ أي يثبتُون في القتال ولا يبرَحون؛ فكأنهم بناء قد رُصَّ.

١٤- ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؟ أي مع الله.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ شيعة عيسى عليه السلام. يقال: كانوا قَصَّارين [يُحَوِّرُون الثيابَ]. و "التَّحْوير" للثياب وغيرها: تبييضُها.

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عالِين عليهم. من قولك: ظهرتُ على فلان؛ إذا علوته. وظهرتُ على السطح: إذا صرت فوقَه.

الشَّرحُ

تحدثت سورة الصف عن ثبات المؤمنين في الجهاد فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾؛ أي متراصّون متماسكون في الحرب لا يفرون ولا يتخلخل صفهم أمام العدو.

وفي قصة عيسى عليه السلام قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ والمعنى: من أنصاري مع الله، حيث ينوب حرف الجر "إلى" مناب "مع"، وقيل بل هو تضمينٌ للفعل بمعنى من ينضم إليّ متوجهًا إلى الله.

وعن استجابة أتباعه قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾؛ والحواريون هم أتباع عيسى عليه السلام الخُلَّص، وسموا بالحواريين من التحوير وهو التبييض؛ لأنهم كانوا يشتغلون بتبييض الثياب بالصبغ. وختم سبحانه ببيان عاقبة إيمانهم فقال: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي قاويين وعالين عليهم بالنصر والتمكين.

سورة الجمعة

مدنية كلها

٥- ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي كتبًا. واحدها: "سِفْر".

يريد: أن اليهود يحملون التوراة ولا يعملون بها؛ فمثلُهم كمثل حمَار يحمل كتبا من العلم: وهو لا يعقلُها.

٦- ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي ادْعُوا على أنفسكم به.

وفي الحديث: "لو دَعَوْا على أنفُسِهم بالموت، لماتُوا جميعًا"؛ هذا أو نحوُه من الكلام.

و"التَّمَنِّي": القول والتلاوة، والتخَرص بالكذب وليس يعرف عوامُّ الناس منه إلا الوَدَادة.

٩- ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بادروا بالنية والجد. ولم يُرد العَدْو، ولا الإسراعَ في المشي.

١٠- ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ أي فُرغ منها.

١١- ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ يقال: "قدِم دِحْيَةُ الكلبيُّ -رضي الله عنه- بتجارة له من الشام، فضَرب بالطبل: لِيُؤْذِنَ الناسَ بقدومه".

﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أي تفرَّقوا عنك إليها. وقال (إليها)، ولو قال: "إليهما" أو "إليه" لكان جائزا.

﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ تخطبُ.

يقال: "إن الناس خرجوا إلا ثمانيةَ نفَرٍ".

الشَّرحُ

سورة الجمعة سورة مدنية، ضرب الله فيها مثلًا لليهود الذين أُوتوا العلم والتوراة وحفظوها، ولكنهم لم يعملوا بها ولم يطبقوا ما جاء فيها، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾؛ والأسفار هي الكتب الكبار، فتشبيههم بالحمار الذي يحمل على ظهره كتبًا نافعة دون أن يعقل ما فيها أو ينتفع بها هدمٌ لمكانتهم وتوبيخٌ لعدم انتفاعهم بعلمهم.

ثم تحدى الله دعواهم الباطلة بأنهم أولياء الله سبحانه من دون الناس فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ أي ادعوا على أنفسكم بالموت وحدثوا أنفسكم به إن حقًا أولياء لله، فلن يفعلوا ذلك أبدًا ولو تمنّوه لماتوا جميعًا. والتمني في لغة العامة يُطلق على الوداد والتودد، أما في النص فالمراد به تحديث النفس وطلب الموت رغبةً فيما عند الله.

ثم وجه الله الخطاب للمؤمنين لبيان أحكام صلاة الجمعة فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾؛ وليس السعي هنا هو الركض والهرولة الشديدة؛ إذ إن الإسراع إلى الصلاة منهيٌّ عنه شرعًا، وإنما المراد بالسعي القصد والتهيؤ والمبادرة بالتبكير إليها. وقد أدركنا رجالًا يخرجون إلى الجمعة عقب صلاة الفجر؛ فيغتسل أحدهم ويلبس أحسن ثيابه ويمضي إلى المسجد مبكرًا، بينما يُلاحظ في زماننا هذا تقصيرٌ كبير حيث يشرع الخطيب في خطبته ولا يزال شطر المسجد فارغًا.

ثم بيّن سبحانه حكم التصرف بعد انتهاء الصلاة فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي إذا فُرِغ منها. ثم ذُكِرَ سبب نزول ختام السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾؛ حيث قدمت قافلة تجارية من الشام إلى المدينة وكان من عادة الناس إذ ذاك ضرب الطبول والدفوف إعلانًا بقدوم التجارة، فصادف وصولها خُطبة النبي ﷺ يوم الجمعة، فخرج الناس من المسجد وانصرفوا نحو القافلة والتجارة ولم يبقَ مع النبي ﷺ وهو يخطب إلا اثنا عشر رجلًا وقيل ثمانية رجال، فأنزل الله توبيخًا لهم وتذكيرًا بأن ما عند الله من الأجر والثواب خيرٌ وأبقى من التجارة والنفع العاجل.

سورة المنافقون

مدنية كلها

٢- ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي استتروا بالحلف: كلّما ظَهَر [النبيُّ] على شيء منهم يوجب معاقبتهم، حلفوا كاذبين. ومن قرأ: (إِيمَانَهُم) بكسر الألف ؛ أراد: تصديقهم بالله جُنةٌ [ووِقاية] من القتل.

٤- ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ جمع "خَشَبة". كما يقال: بَدَنَةٌ وبُدْنٌ، وأَكَمَةٌ وأُكْمٌ، ورَحْمَةٌ ورُحْمٌ. ومن المعتل: قادة وقُود. ومن قرأ: (خُشُبٌ) ؛ جعله جمعا لـ "خَشَب"؛ [وخَشَبٌ جمع "خشبة] ". مثل ثَمَرة وثَمَر وثُمُر.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي كلّما صاح صائح، ظنُّوا أن ذاك أمرٌ عليهم: جُبْنًا [منهم] . كما قال الشاعر:

ولو أنَّها عُصفُورةٌ لَحَسِبْتَها ❊❊❊ مُسَوَّمَةً تَدْعُو عُبَيْدًا وأَزْنَمَا

أي لو طارت عصفورة لحسبتَها -من جبنك- خيلا تدعو هاتَيْن القبيلتَيْن.

ثم قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ أي فهم الأعداء.

الشرح

سورة المنافقون سورة مدنية بيّن الله فيها صفات المنافقين وطبائعهم، فقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ والأيمان جمع يمين وهي الحلف، فكلما استُجوِبوا أو خَشُوا الفضيحة أقسموا كذبًا ليتخذوا الحلف سترةً ووقايةً يدرؤون بها عن أنفسهم. وفي قراءةٍ أخرى "إِيمَانَهُمْ" وهي قراءة شاذة، بينما القراءة الثابتة المتواترة هي "أَيْمَانَهُمْ". وعلى المعنى الآخر فإن إظهارهم للإسلام بالصلاة والصدقة والجهاد ظاهريًا إنما هو حمايةٌ لدمائهم وأموالهم.

ثم وصف سبحانه صورهم وهياكلهم الخاوية فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾؛ والخُشُب جمع خشبة، شُبِّهوا بالخشب المتروك المسند إلى الجدار الذي لا روح فيه ولا انتفاع منه. وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ يتبيّن منه شدة جبنهم وهلع قلوبهم، فكلما نادى منادٍ أو ارتفع صوتٌ في الجيش ظنوا لضعف نفوسهم وخبث سرائرهم أنه نزولُ العذاب بهم أو كشفٌ لأمرهم.

سورة التغابن

مكية إلا ثلاث آيات

من قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ نزلت بالمدينة.

١١- ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يقال: "إذا ابتُلِيَ صبرَ، وإذا أُنعِم عليه شكَر، وإذا ظُلم غفَر".

١٥- ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي إغرامٌ؛ كما يقال: فُتِنَ فلان بالمرأة وشُغِفَ بها.

وأصل "الفتنة": البلوى والاختبار.

١٦- ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ قال ابن عُيَيْنَةَ: "الشُّح: الظلم. وليس الشح أن تبخل بما في يدك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾.

الشرح

سورة التغابن من السور الاختلاف في مكان نزولها؛ فقيل إنها مكية وقيل مدنية، والراجح أن أغلبها مكيّ إلا ثلاث آياتٍ منها نزلت بالمدينة المنورة، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

ثم بيّن سبحانه جزاء الإيمان والرضا بقضائه فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾؛ وفي قراءةٍ أخرى "يَهْدَ قَلْبُهُ". والمراد بهداية القلب والطمأنينة أن يستسلم العبد لأمر الله، فإذا أُصيب ببليةٍ صبر، وإذا أُعطي نعمةً شكر، وإذا ظُلِمَ غفر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي اختبارٌ وامتحانٌ يتبين به المطيع من العاصي. ثم بين عاقبة السلامة من أحوال النفس فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ والشُّحُّ أبلغ من مجرد البخل، فقد فسّره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالظلم المقترن بالبخل؛ بحيث يحرص المرء على منع الحقوق مع ظلمه للآخرين والتعدي عليهم.

سورة الطلاق

مدنية كلها

١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلمُ والمراد هو والمؤمنون.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ يريد: الحِيَض. ويقال: الأطهارُ.

﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ التي طُلِّقْنَ فيها؛ ﴿وَلا يَخْرُجْنَ﴾ من قِبَل أنفسِهن؛ ﴿إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ فتُخرَجُ ليقامَ عليها الحدُّ.

﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي لعل الرجلَ يرغب فيها قبل انقضاء العدَّة، فيتزوجَها.

٢- ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي منتهى العدَّة -: فإمَّا أمسكتم عن الطلاق فكنَّ أزواجًا؛ أو فارقتم فراقًا جميلا لا إضرارَ فيه.

٤- ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي شككتم.

٦- ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أي بقدر سعتكم. و"والوُجْد": المقدرة والغِنى؛ يقال: افتقر فلان بعد وجْدٍ.

﴿وَلا تُضَارُّوهُنَّ﴾ قد بيناه في سورة البقرة.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي هُمُّوا به، واعزموا عليه.

ويقال: هو أن لا تُضرَّ المرأةُ بزوجها، ولا الزوجُ بالمرأة.

﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي تضايقتم.

٧- ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّقَ.

٨- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي كم من قرية.

﴿عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي منكرًا.

٩- ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي هَلَكة.

الشرح

سورة الطلاق تتحدث عن أحكام الطلاق، سورة كاملة أنزلها الله في أحكام الطلاق، بل وزاد على ذلك أنه ذكر أحكام الطلاق، كما في سورة البقرة وغيرها، العجيب أنك لا تجد أحكام النكاح، فالنكاح ليس فيه أحكامًا كثيرة، لأنه مجرد عقد علاقة رجل بامرأة، لكن الطلاق ليس مجرد عقد، وليس مجرد فك العقد وحل عقد الزوجية، بل يترتب عليه أمور كثيرة من الذرية، ومن المرأة، ومن أحوالها، ومن كيفية الطلاق واحترام شرع الله سبحانه في الطلاق، واحترام حقوق المرأة... فيه أشياء كثيرة، ولذلك فصل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أحكام الطلاق، وهذه سميها ابن مسعود، سورة النساء الصغرى.

افتتحت السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾؛ وقد وجه الله الخطاب للنبي ﷺ أولًا ثم أتبعه بصيغة الجمع للأمة ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، وهذا من أساليب الخطاب عند العرب حيث يُخاطب شخص والمعني الآخرين أيضًا، والخطاب للنبي ﷺ في القرآن خاصة وعامة، فالخاصة مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]، وعامة مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1] فهذا يدخل فيه الرسول ﷺ وغيره، وهناك خطابات يكون ظاهرها أن المراد هو النبي ﷺ لكنها موجهة لغيره، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94] وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65] فهنا لا يُقصَد النبي ﷺ. وفي الآية التي أمامنا ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فالمعني النبي ﷺ وسائر الأمة، وهذا فيه دليل على العناية لأحكام الطلاق.

والمراد بإحصاء العدة تتبع أوقاتها بحسب حال المرأة؛ إذ تُقَسَّم النساء في الطلاق إلى أربعة أقسام؛ فالقسم الأول هن ذوات الحيض وعدتهن ثلاثة قروء، ويحرم طلاقهن في أثناء الحيض أو في طهر جُومِعْنَ فيه وهو يقع لكن بإثم، والسنة أن يطلقها طلقة واحدة في طهر لم يمسها فيه.

والقسم الثاني هن اللاتي لا يحضن لصغر أو ليأس وعدتهن ثلاثة أشهر.

والقسم الثالث هن الحوامل وعدتهن وضع الحمل ولو بعد الطلاق بلحظات، ولا يحق له إرجاعها إلا بموافقتها وبعقد جديد.

أما القسم الرابع فهن غير المدخول بهن، واللاتي طُلّقن قبل المساس والخلوة فليس عليهن عدة إطلاقًا، بخلاف من توفي عنها زوجها قبل الدخول فإن عليها عدة الوفاة وهي أربعة أشهر وعشرًا.

ومن الأحكام المهمة المتصلة بالطلاق حرمة إيقاع أكثر من طلقة في لفظ واحد، وثبوت حق الزوج في مراجعة زوجته بالقول أو الفعل ما دامت في العدة الرجعية. كما حرم الشرع إخراج المطلقة من بيتها أو خروجها هي إلى أهلها فقال تعالى: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ﴾؛ لأنها لا تزال زوجته وتجلس معه وتتزين له، ولأن بقاءها في البيت سبب لندم الزوجين وتجدد المودة بينهما كما قال تعالى: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾. واستثنى الله من ذلك قوله: ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾؛ وهي إما فاحشة فعلية كالزنا وإدخال الرجال، أو قولية كبذاءة اللسان والإيذاء وإفساد أثاث البيت.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ معناه إذا قاربت العدة على الانتهاء فالزوج مخير بين مراجعتها بإحسان أو مفارقتها بالمعروف. وقوله: ﴿وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾؛ أي إن شككتم في ضبط عدتهن فتاريخها ثلاثة أشهر. وقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي قدرتكُمْ وطاقتكم المالية وسعتكم، والوجد أي: المقدرة والغنى، ﴿وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي لا يضر المرأة، فأحيانًا الرجال يضيّقون على نسائهم في البيت ويحرمها من بعض الأشياء، ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي تشاوروا بالمعروف في الرضاع والنفقة، فإن تعاسرتم فتستأجر مرضع أخرى. وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضُيِّق عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87]. وختمت السورة بالتحذير من مخالفة أمر الله كالأمم السابقة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ ونكرًا أي منكرًا.

سورة التحريم

مدنية كلها

٢- ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي أوجب لكم الكفارة.

٤- ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي عَدَلَتْ ومالتْ.

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ أي تتعاونا عليه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾ أي وَلِيُّهُ.

٥- ﴿قَانِتَاتٍ﴾ مطيعات.

﴿سَائِحَاتٍ﴾ صائماتٍ.

ويرى أهل النظر "أنه إنما سميَ الصائمُ سائحًا: تشبيهًا بالسائح الذي لا زاد معه".

[و] قال الفراء: "تقول العرب للفرس -إذا كان قائمًا لا علَفَ بين يديه-: صائمٌ؛ وذلك: أن له قوتَيْن غُدوةً وعشية؛ فشُبِّه به صيامُ الآدميِّ بتسحُّرِه وإفطارِه".

٦- قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي قوا أنفسَكم النارَ: بطاعة الله ورسوله؛ وقوا أهليكم النارَ: بتعليمهم وأخذِهم بما ينجيهم منها.

٨- ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أي تَنصَحون فيها لله، ولا تُدْهِنون.

١٢- ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ المطيعين لله عز وجل.

الشرح

سورة التحريم سورة مدنية ومن أواخر ما نزل بالمدينة المنورة، بيّن الله فيها أحكام الأيمان فقال: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي أوجب عليكم الكفارة إذا حلف الإنسان على أمر ثم أراد أن يخالف يمينه إلى ما هو خير منه.

وقوله تعالى لعائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؛ ومعنى صغت أي عدلت ومالت، وفي معناه وجهان عند المفسرين؛ الأول أن جملة الشرط محذوفة الجواب وتقديرها: "إن تتوبا إلى الله فهذا خير لكما، وإن لم تتوبا فقد مالت قلوبكما عن الحق"، والوجه الثاني أن المعنى: إن تتوبا فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير وعدلت. وقوله: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ تظاهرا أي إن تتعاونا عليه فإن الله ناصره ووليه. وهذه الآية نزل معناه متوافقًا مع قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين دخل على ابنته حفصة يعاتبها على موقفها وقال: أنا وليّه، فنزلت الآية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم ذكر صفات الزوجات الصالحات: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾؛ القنوت هو الطاعة، والمراد بالسائحات إما اللاتي يسيحن في الأرض للحج والعمرة والجهاد، كما في قوله سبحانه ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2]، أو الممسكات بالصيام، فالصائم يسمى سائح؛ لأنه ممسك كما السائح في الأرض بلا زاد.

ثم أمر الله بوقاية الأهل من النار بطاعته وتقواه، ودعا إلى التوبة النصوح في قوله: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾؛ والتوبة النصوح هي الصافية الخالصة لله التي لا شائبة فيها، مأخوذة من قول العرب: نَصَحَ العسل إذا صفّاه.

سورة الملك

٢- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾ أي ليختبرَكم.

٣- ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ أي اضطراب واختلافٍ.

وأصله من "الفوت" وهو: أن يفوت شيء شيئا، فيقعَ الخللُ ولكنه متصل بعضُه ببعض.

﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾؟ أي من صُدوع. ومنه يقال: فَطَر نابُ البعير؛ إذا شَقَّ اللحم وظهر.

٤- ﴿خَاسِئًا﴾ مبعَدًا. من قولك: خسأتُ الكلبَ؛ إذا باعدتَه.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي كَلِيلٌ منقطعٌ عن أن يَلحق ما نظَر إليه.

٨- ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تنشقُّ غيظًا على الكفار.

١١- ﴿فَسُحْقًا﴾ أي بُعدًا.

١٥- ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي جوانبها. ومَنْكِبا الرجل: جانباه.

١٦- ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي تدور، كما يمور السحاب: إذا دار وجاء وذهب.

١٧- ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي إنذاري.

١٨- وكذلك: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري.

١٩- ﴿صَافَّاتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتَهن.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يضربْن بها جنوبَهن.

٢٢- ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ﴾ لا يُبصرُ يمينًا ولا شمالا ولا ما بين يديه. يقال: أكبَّ فلان على وجهه (بالألف)، وكبَّه الله لوجهه. وأراد: الأعمى.

٢٧- ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي قريبًا منهم. يقول: لما رأوا ما وعدهم الله قريبًا منهم؛ ﴿سِيئَتْ﴾ وجُوهُهم، ﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي تَدْعون. وهو "تفتعلون" من الدعاء. يقال: دعوت وادَّعيت؛ كما يقال: خبَرت واختبَرت، ودخَرت وادَّخرت.

٣٠- ﴿أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائرًا؛ وُصِفَ بالمصدر. يقال: ماءٌ غَوْر، ومياهٌ غَوْر. ولا يُجمع، ولا يُثَنَّى، ولا يؤنَّث. كما يقال: رجلٌ صَوْمٌ ورجالٌ صومٌ، ونساءٌ صومٌ.

﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾؟! أي ظاهر. وهو "مفعول" من العَين؛ [كَمَبِيع من البيع]. وقد تقدم ذكر هذا.

الشرح

سورة الملك سورة مكية، ومن فضائلها الكثيرة أن النبي ﷺ كان يقرؤها كل ليلة، فعلى الإنسان أن يقرأها بعد المغرب أو العشاء في راتبتهما، وتسمى المنجية والمانعة والشفيعة لصاحبها؛ إذ ورد في الحديث أن النبي رضي الله عنه قال: «سورةٌ تشفعُ لقائلِها ، وهي ثلاثونَ آيةً ألا وهي تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»، وهي تدافع عن صاحبها حين يأتيه الملكان منكر ونكير في القبر، ومن أسمائها أيضًا تبارك لافتتاحها بهذه الكلمة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليختبركم. وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ أي من اختلال أو اضطراب أو خلل وعيب. ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي من شقوق وتصدعات، أي لا ترى هذه الشقوق في السماء لتمام خلقتها، ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ والمراد تكرار النظر المرة تلو المرة وليس المرتين فقط، كقولك: لبيك وسعديك، هذه مثنى ويقصد التكرار، ونتيجة ذلك: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ خاسئًا أي خائبًا، وحسير أي: كليل متعب من كثرة النظر دون أن يجد أي عيب في السماء.

وعن شدة غيظ النار قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ تتميّز أي تتقطع وتتجزأ غضبًا على الكفار تريد أن تنتقم منهم، فيقال لهم: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي بُعدًا لهم. وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ مناكبها أي في نواحيها وطرقها الفسيحة، ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي تدور وتضطرب.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ أي باسطات أجنحتها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي يقبضن الأجنحة ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

ثم ضرب الله المثل بين الكافر والمؤمن فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ فالأول الكافر كالأعمى الذي لا يهتدي، والثاني كالبصير المسترشد بالحق. وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي رأوا العذاب قريبًا منهم. وختم السورة بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائرًا ذاهبًا بعيدًا في أعماق الأرض، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ أي بماء جارٍ صافٍ قريب المنال.

سورة القلم

١ - ﴿ن﴾ قال قتادةُ والحسن: هي الدواة.

ويقال: الحوتُ تحت الأرض.

وقد ذكرت الحروف المقطَّعة في كتاب "تأويل مشكل القرآن".

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي يكتبون.

٣- ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع [ولا منقوص].

يقال: مَنَنْتُ الحبل؛ إذا قطعته.

٦- ﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي أيُّكم المفتونُ؟ [أي الذي فُتِن بالجنون]. والباء زائدة. كما قال الراجز:

نَضْرِبُ بالسيفِ ونرجُو بالفَرَجْ

أي نرجو الفرج.

وقال الفراء: "و [قد] يكون (الْمَفْتُونُ) بمعنى: الفتنة؛ كما يقال: ليس له معقول -أي عقلٌ- ولا معقود، أي رأيٌ. وأراد: الجنونَ".

٩- ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ﴾ أي: تُدَاهن [وتَلين لهم] في دينك ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ [فيَلينون] في أديانهم.

وكانوا أرادوه على أن يعبد آلهتَهم مدة، ويعبدوا الله مدة.

١٠- (الْمَهِينُ) الحقير الدنيء.

١١- ﴿هَمَّازٍ﴾ عَيَّاب.

١٢- ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بخيل.

﴿مُعْتَدٍ﴾ ظلوم.

و (الْعُتُلُّ) الغليظ الجافي. نراه من قولهم: فلان يُعْتَل؛ إذا غُلِّظَ عليه وعُنِّف به في القود: و (الزَّنِيمُ): الدَّعِيُّ.

وقد ذكرت هذا في كتاب "تأويل المشكل"، وتأويل قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.

١٧- ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي حلفوا ليَجُذُّنَّ ثمرها صباحًا؛ ولم يستثنوا.

٢٠- ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي سوداءَ كالليل مُحْتَرِقَةً. و "الليل" هو: الصّريم؛ و "الصبح" أيضًا: صريم. لأن كل واحد منهما ينصرم من صاحبه.

ويقال: "أصبحت: وقد ذهب ما فيها من الثمر؛ فكأنه صُرِمَ" أي قُطِع وجُذَّ.

٢٣-٢٤- ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي يتسارون: بـ﴿أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾.

٢٥- ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ﴾ أي منعٍ. و "الحَرْد" و "المُحَارَدة": المنع. يقال: حَارَدَتْ السَّنَةُ؛ إذا لم يكن فيها مطرٌ. وحاردت الناقةُ: إذا لم يكن لها لبَنٌ.

و "الحَرْد" أيضًا: القَصْدُ. يقال للرجل: لئن حَرَدتَ حَرْدَك؛ أي قصدتَ قصدَك. ومنه قول الشاعر:

أمَّا إذا حَرَدَتْ حَرْدِي فمُجْرِيَةٌ

أي إذا قصَدتْ قَصْدِي.

ويقال: (عَلَى حَرَدٍ) أي على حَرْدٍ. وهما لغتان؛ كما يقال: الدَّرَك والدَّرْك. قال الأشهب بن رُمَيْلة:

أُسُودُ شَرًى لاقَتْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ *** تَساقَوْا على حَرْدٍ دِمَاءَ الأَسَاوِدِ

﴿قَادِرِينَ﴾ أي مَنَعوا: وهم قادرون، أي واجدون.

٢٨- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي خيرُهم [فعلا]، وأَعْدلُهم قولا-: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ أي هلا تسبحون.

٤٠- ﴿أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي كفيل. يقال: زَعَمْتُ به أزعُم [زَعْمًا وزَعَامَةً]؛ إذا كَفَلْت.

٤٢- ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أي عن شدةٍ من الأمر.

قال الشاعر:

في سَنةٍ قد كشَفَتْ عن ساقِها *** حمراءَ تَبْرِي اللَّحْمَ عن عُرَاقِها

"عُرَاقِها": جمع "عَرْق". والعُراقُ: العظام.

ويقال: "قامت الحرب على ساق".

وأصل هذا مُبَيَّن في كتاب "تأويل المشكل".

٤٣- ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تغشاهم.

٤٤- ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ أي نأخذُهم قليلا قليلا ولا نُباغِتُهم.

٤٥- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أُطيلُ لهم وأُمهلُهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي شديد. و "الكيد": الحيلةُ والمكر.

٤٨- ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ من الغَمِّ. و "كظِيمٌ" مثله.

٤٩- (العَرَاءُ) الأرض التي لا تُواري مَن فيها بجبل ولا شجر.

٥١- ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ قال الفراء: "يَعْتانونك أي يصيبونك بأعينهم"؛ وذكر: "أن الرجل من العرب كان يَمْثُل على طريق الإبل -إذا صَدَرَتْ عن الماء- فيُصيبُ منها ما أراد بعينه، حتى يُهلِكَه". هذا معنى قوله، وليس هو بعينه.

ولم يرد الله جلّ وعزّ -في هذا الموضع- أنهم يصيبونك بأعينهم، كما يُصيبُ العائن بعينه ما يَسْتَحْسِنُه ويَعجَب منه.

وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك -إذا قرأتَ القرآن- نظرًا شديدًا بالعداوة والبغضاء، يكاد يُزلِقك، أي يُسقطك. كما قال الشاعر:

يَتَقَارَضُون - إذا الْتَقَوْا في مَوْطِنٍ - *** نظرًا يُزِيلُ مَوَاطِئَ الأَقْدَامِ

الشرح

سورة القلم (سورة نون) افتتحت بالحرف المقطع ﴿ن﴾، وفيها اختلاف بمعنى الحرف، فقيل بأنه الدواة التي يكتب بها الحبر أو الحوت وهذا لا دليل عليه، لكن القول الراجح أنها حرف من الحروف المقطعة في أوائل السور كـ (ص) و (ق).

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أقسم الله بالقلم وبما يكتبه الناس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي غير منقطع، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل المراد بالخلق هنا: دين وشريعة، وقيل: هي الأخلاق الفاضلة. وقوله: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي بأيكم المجنون، الذي فتن بالجنون.

وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾؛ والمداهنة هي اللين والمسالمة من الدهن الشيء اللين. ثم نهى الله عن طاعة من اتصف بالصفات الذميمة: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ والهمّاز العيّاب، وقوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾؛ فالعتل هو الغليظ الجافي، والزنيم هو الدَّعِيُّ الذي ينتسب لغير أبيه، وقد قيل إنها نزلت في الوليد بن المغيرة لأن أباه غير معروف[11].

ثم ذكر الله قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا: ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ الصّرم أي جذ النخل، أي ليقطعن ثمارها بكرًا ﴿وَلا يَسْتَثْنُونَ﴾؛ أي دون أن يقولوا "إن شاء الله" ودون أن يطعموا مسكينًا، فخالفوا نهج أبيهم الصالح الذي كان يقسم ثمرها إلى ثلاثة أسهم؛ سهم للفقراء وسهم لبيته وسهم يعيده في أرضه. فعاقبهم الله بأن أرسل عليها طائفًا أحرقها ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي كالمحترقة المظلمة. وكانوا يتخافتون ويتسارون: ﴿أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ والحرد أي صباحًا مبكرين على منع وتصميم شديد، حتى أنهم خرجوا قبل شروق الشمس كيلا يراهم أحد، فلما رأوها محترقة ظنوا بأنهم ضلوا في بادئ الأمر، ثم عرفوا خطأهم فتابوا إلى الله ورجعوا إليه وتاب الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾؛ فسرها المؤلف بظهور الشدة من الأمر وهو تفسير صحيح، وفي تفسير آخر يوافق ما ورد في السنة المطهرة من أحاديث تثبت كشف الرب عز وجل عن ساقه الشريفة كما يليق بجلاله -والله أعلم بذلك-. وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي أطيل أعمارهم وأمهلهم.

وفي ختام السورة ذكر خبر يونس عليه السلام فقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي ممتلئ غمًا وحزنًا، ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ وهي الأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا جبل. وختم بقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ أي يصيبونك بعيونهم من شدة البغض والحسد.

---

(11) اختلف في تفسير الآية وقال بعضهم أن القصة مكذوبة.

سورة الحاقة

١ - ﴿الْحَاقَّةُ﴾ القيامة؛ [لأنها] حَقَّتْ. فهي حاقة وحَقَّةٌ.

قال الفرّاء: "إنما قيل لها حاقةٌ: لأن فيها حَوَاقَّ الأمور [والثوابَ. و "الحَقَّةُ": حقيقة الأمر]. يقال: لمَّا عرفتَ الحَقَّةَ مني هربتَ. وهي مثل الحاقة".

٥ - ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي بالطغيان.

٧ - ﴿حُسُومًا﴾ تِباعًا. ويقال: هو من "حَسْمِ الداء" [إذا كُوِيَ صاحبه]: لأنه يُكوَى مرة بعد مرة، يُتابَعُ عليه الكيُّ.

﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصولُ نخل.

﴿خَاوِيَةٍ﴾ باليةٍ.

٨ - ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي أثرٍ.

ويقال: هل ترى لهم من بقاء؟

٩ - ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي بالذنوب.

١٠ - ﴿أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ عالية مذكورة.

١٢ - ﴿وَتَعِيَهَا﴾ من "وعت الأذن".

١٧ - ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي على جوانبها [ونواحيها].

١٩ - ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ يقال: "بمعنى هاكُمُ اقرءُوا كتابيهْ"؛ أبدلتْ الهمزةُ من الكاف.

٢٣ - ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ثمرها. واحدها: "قِطْفٌ".

٢٧ - ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي المَنِيَّة.

٣٦ - ﴿إِلا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وهو "فِعْلين" من غَسَلت؛ كأنه غسالة.

ويقال: "هو: ما يسيل من صَدِيد أجسامِ المعذَّبين".

٤٠- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ لم يُرد أنه قول الرسول؛ وإنما أراد: أنه قول رسول عن الله جل وعز. وفي "الرسول" ما دل على ذلك؛ فاكتفى به من أن يقول: عن الله.

٤٥- ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

٤٦- و ﴿الْوَتِينَ﴾ نِيَاطُ القلب؛ وهو: عِرق يتعلق به القلب، إذا انقطع مات صاحبه.

الشرح

الحاقة مشتق من "حق الشيء" إذا ظهر وبان وتبين ثبوته، فالْحَاقَّةُ والحَقُّ كلها بمعنى واحد وضدها الباطل.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ الطاغية هنا تعني الإهلاك بسبب طغيانهم ومجاوزتهم الحد كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطُغْوَاهَا﴾. وأما قوم عاد فقد أهلكوا بريح عاتية، أرسلها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، والمعنى من حسومًا أي: متتابعة لا تفتر، وقيل إن أولها كان يوم الأربعاء، فتركتهم كأنهم ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي أصول نخل بالية ومتهشمة.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ هو استفهام يفيد النفي القطعي، أي لا ترى لهم أي بقاء أو أثر. وعن قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي وعَتْ الأذن واستوعبت وفهمت وأخذت ما سمعته بحق. وفي قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي المنية والموتة الفاصلة التي لا بعث بعدها.

وعن طعام أهل النار في قوله تعالى: ﴿وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ الغسلين أي: غسالة أهل النار مما يسيل منهم من الصديد والدماء والقيح ونحوه وهو شبيه بالغساق. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ بيّن أن المقصود بالرسول هنا هو النبي محمد ﷺ بدليل السياق ونفيه أن يكون شعرًا أو كهانة بخلاف سورة التكوير التي أُريد بالرسول فيها جبريل عليه السلام، ثم أتبع ذلك ببيان أنه لو كان من عند محمد ﷺ ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ أي لأخذنا منه بالقوة والقدرة أو باليد اليمنى، والوتين هو عرق معلق بالقلب إذا انقطع مات صاحبه فورًا، مما يدل على أن النبي ﷺ إنما هو مبلغ عن ربه عز وجل.

سورة المعارج

مكية

١- ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ سأل سائل. أي دعا داع.

١-٢-٣ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ يريد: معارج الملائكة.

وأصل "المعارج": الدَّرَج؛ وهو من "عَرَج": إذا صَعِد.

٨- (الْمُهْل) ما أذيب من الفضة والنُّحاس.

٩- ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف. وذلك: أنها تُبَسُّ.

١٠-١١- ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي لا يسأل ذو قرابة عن قرابته؛ ولكنهم ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي يُعَرَّفُونهم.

١٣- ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ عشيرته الأدْنَوْن.

١٦- ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ يريد: جلود الرءوس. واحدها: "شواة".

١٩- (الْهَلُوعُ) الشديد الجزَعِ. والاسم: "الهُلاع". ومنه يقال: ناقة هِلْوَاعٌ؛ إذا كانت ذكيَّةً حديدةَ النفَس.

ويقال: "الهَلُوعُ": الضَّجُور.

٣٧- ﴿عِزِينَ﴾ جماعاتٍ.

٤٣- ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾ و "النُّصُب": حجر يُنصب ويُذبح عنده؛ أو صنمٌ يقال له: نَصْبٌ ونُصْبٌ ونُصُب.

﴿يُوفِضُونَ﴾ يُسرعون. و"الإيفاض": الإسراع.

الشرح

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داعٍ واستعجل، على حد قول الكفار والمشركين "اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء"، فكان السائل يطلب وقوع العذاب عليه وعلى قومه.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ صفة لله تعالى، والمعارج هي مصاعد الملائكة وعروجها إلى السماء.

وعن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ أي تذوب السماء وتصير كالوردة الحمراء وكالذائب من المعادن كالفضة والنحاس ونحوها، ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المنفوش في خفته وغزله. وقوله تعالى: ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ المراد بالحميم القريب الشديد القرب، فلا يسأل أقرب الناس قريبه ولا يطلب منه حسنة ولا يدفع عنه عذابًا لإشغال كل إنسان بنفسه.

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ وفي قراءة يُبصِرونهم، أي كل يبصر الآخر لكن لا يستطيع أن يسأله، وكلمة يُبَصَّرونهم أقوى في المعنى، أن الله يجع الخلائق يرى بعضهم بعضًا ويعرف المجرِمُ قرينَه أو قريبه معرفة يَقِينِيّة ولكن لا يستطيع أن يكلمه أو يسأله شيئًا. وفي قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ﴾ الشوى هي جلود الرؤوس التي تنزعها النار من شدة الحرارة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ تفسير "هلوعًا" مذكور في ذات النص القرآني وهو ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، فالهلع هو شدة الجزع، ثم استثنى الله عز وجل المصلين ليؤكد أثر الصلاة العظيم في تهذيب النفس وتربيتها على الصبر والجود.

وعن قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ معنى "عزين" أي جماعات، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي يُسْرِعُون إلى أصنامهم وأحجارهم التي كانوا يعبدونها.

سورة نوح

١٣- ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي لا تخافون له عظمة.

١٤- ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي ضروبًا؛ يقال: نُطفةً، ثم عَلَقة، ثم مُضغة، ثم عَظْمًا.

ويقال: بل أراد اختلافَ الأخلاق والمناظر.

٢٢- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي كبيرًا. يقال: كبير وكُبار وكُبَّار؛ كما يقال: طويل وطُوَال وطُوَّال.

٢٣- و (وُدٌّ) صنم. ومنه كانت تسمِّي العربُ عبدَ وُدٍّ.

وكذلك: (يَغُوثَ) ومنه سمي: عبدُ يغوثَ.

و (سُوَاع) و (يَعُوقُ) و (نَسْر) كلها: أصنام كانت لقوم نوح عليه السلام، ثم صارت في قبائل العرب.

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ أي من خطيئاتهم؛ و "ما" زائدة.

٢٦- ﴿دَيَّارًا﴾ أي أحدًا. ويقال: ما بالمنازل ديارٌ؛ أي ما بها أحدٌ.

وهو من "الدار"؛ أي ليس بها نازلُ دار.

٢٨- ﴿إِلا تَبَارًا﴾ أي إلا هلاكًا. ومنه قوله: ﴿وَكُلا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

الشرح

هذه قصة نبي الله نوح عليه السلام نزلت في هذه السورة. قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ الرجاء هنا معناه الخوف، وهذه لهجة من لهجات العرب يستعملون فيها الرجاء بمعنى الخوف، أي: لا تخافون لله عظمة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ أي أن الإنسان يمر بمراحل وأطوار متدرجة في خلقه. وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾؛ كُبَّارًا بمعنى كبيرًا، فيقال كُبَّار وكبير وهما بمعنى واحد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه الأسماء -كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هي أسماء رجال صالحين، فلما ماتوا بدأ الناس يعظمونهم بزيارة قبورهم، ثم جاءهم الشيطان فقال لهم: لا حاجة للذهاب إلى المقابر لزيارتهم، بل خذوا صورهم واجعلوها في مجالسكم لتتذكروهم، فوضعت الصور، ثم بعد مضي جيل بعد جيل عُبدت من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فأصبحت أصنامًا لهم.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ لا تَذَرِ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ؛ دَيَّارًا أي أحدًا يسكن أو ينزل دارًا، أي لا تترك منهم أحدًا يديَرُ أو يتحرك على وجه الأرض.

سورة الجن

١- ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ يقال: "النفر" ما بين الثلاثة إلى العشرة.

٣- ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ﴾ قال مجاهد: جلالُ ربنا، وقال قتادةُ: عظمته، وقال أبو عبيدةَ مُلكُه وسلطانُه.

٤- ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ جاهلُنا.

﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي جَوْرًا في المقال.

٦- ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي ضلالا. وأصل "الرَّهَقِ": العيب. ومنه يقال: يُرَهَّقُ في دِينه.

٨- (والشُّهُبُ) جمع "شِهاب"، وهو: النجم المضيء.

٩- و (الشِّهَابُ الرَّصَدُ): الذي قد أُرصِد به للرَّجْم.

١١- ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي كنا فِرَقًا مختلفةً أهواؤنا.

و"القِدَد": جمع "قِدة"؛ وهي بمنزلة قطعة وقِطَع [في التقدير والمعنى].

١٢- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ أي اسْتَيْقَنَّا.

١٣- ﴿فَلا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي نقصًا من الثواب.

﴿وَلا رَهَقًا﴾ أي ظلمًا. وأصل "الرَّهَقِ": ما رَهِقَ الإنسانَ من عيب أو ظلم.

١٤- و ﴿الْقَاسِطُونَ﴾ الجائرون. يقال: قسط؛ إذا جار. وأقسط: إذا عدل.

﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي تَوَخَّوْهُ وأمُّوه.

١٦- ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ يقال: طريقةُ الكفر.

﴿لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ و "الغدق": الكثير. وهذا مِثلُ "لَزِدناهم في أموالهم ومواشيهم".

ومثلُه: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً﴾ أي كَفَرَةً كلُّهم. هذا بمعنى قول الفراء.

وقال غيره: "وأن لو استقاموا على الهُدَى جميعا: لأَوْسَعْنا عليهم".

١٧- ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنختبرَهم، فنعلم كيف شكرُهم.

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي عذابًا شاقًّا. يقال: تصعّدني الأمر؛ إذا شق عليّ.

ومنه قول عمرَ: "ما تَصَعَّدَنِي شيءٌ ما تصعَّدَتْنِي خِطْبَةُ النِّكاح".

ومنه قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي عقبةً شاقةً.

ونرى أصلَ هذا كلِّه من "الصُّعود": لأنه شاقٌّ؛ فكُنِّي به عن المشقات.

١٨- ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أي السُّجود لله. هو جمع "مَسجَد"؛ يقال: سجدت سجودًا ومَسجَدًا؛ كما يقال: ضربت في البلاد ضربًا ومَضرَبًا. ثم يجمع فيقال: المساجدُ لله. كما يقال: المضاربُ في الأرض لطلب الرزق.

١٩- ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي لما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو إليه.

﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي يَلْبُدون به [ويَتَراكبُون]: رغبةً في القرآن، وشهوةً لاستماعه.

وهو جمع "لِبْدَة"؛ يقال: غَشِيَتْه لِبدةٌ من الحِرَام أي قطعةٌ لَبَدتْ به.

٢٢- ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي مَعْدِلا ومَوْئلا.

٢٣- ﴿إِلا بَلاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ هذا استثناء من ﴿لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ إلا أن أُبَلِّغَكُم.

٢٥- ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي غاية.

٢٦-٢٧- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ أي اصطفَى للنبوة والرسالة: فإنه يُطلعه على ما شاء من غيبه؛ ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي يجعل بين يديه وخلفه ﴿رَصَدًا﴾ من الملائكة: يدفعون عنه الجن أن يسمعوا ما ينزل به الوحي، فيُلقُوه إلى الكَهَنة قبل أن يخبِر [به] النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- الناسَ.

٢٨- ﴿لِيَعْلَمَ﴾ محمد أن الرسل قد بلَّغتْ عن الله عز وجل، وأن الله حفظها ودَفَعَ عنها، وأحاط بما لَدَيها.

ويقال: ليعلم محمد أن الملائكة -يريد جبريلَ- قد بلَّغ رسالاتِ ربه.

ويُقرأ: (لِتَعْلَمَ) بالتاء. يريد: لتعلم الجنُّ أن الرسل قد بلَّغتْ [عن] إلهِهم بما وَدُّوا من استراق السمع.

الشرح

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾؛ النَّفَرُ هم العدد ما بين الثلاثة إلى العشرة، ومثله الرَّهْط، ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: 48].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ ؛ المراد بالجَدّ هنا العظمة والملك والسلطان. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾؛ السفيه هو الجاهل، والشَّطَطُ هو الجور، وهو وصف الله بالنقص.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي رجال من الإنس يستعيذون برجال من الجن فزادوا الإنس رَهَقًا، والرهق هو العيب، أو الخوف، والإرهاق في الدين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ رَّصَدٌ﴾؛ الشهب جمع شِهَاب، وهو النجم المضيء الذي تخرج منه النار فتصيب الجني الذي يسترق السمع. وقوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾؛ أي جماعات وفرقًا مختلفة الأهواء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ﴾؛ الظن هنا مراد به اليقين، أي: تيقنا أن لن نعجز الله. وقوله تعالى: ﴿فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا﴾؛ أي لا نقصًا ولا ظلمًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛ القاسط غير المُقْسِط؛ القاسط هو الظالم الجائر، والقاسطون هم الجائرون، أما المقسط فهو العادل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ الضمير في "استقاموا" يعود إلى أقرب مذكور، أي لو استقام القاسطون لأنعم الله عليهم، أو احتمال كما ذكر المؤلف أنه يعود إلى المسلمين وأنهم إذا استقاموا على الهدى والطريقة أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي لاختبارهم وامتحانهم كما يُفْتَن أي إنسان في هذه الدنيا. وقوله تعالى: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أي عذابًا شاقًا. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾؛ أي العبادات لله ﷻ، وأماكن العبادات لله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾؛ "كادوا" تقترب من الفعل ولا تثبته، فهي تنفي وقوع الفعل الكامل منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾؛ هذا استثناء عائد إلى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾؛ الأَمَدُ هو النهاية أو الغاية.

وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾؛ أي لا يُظهر الله على غيبه أحدًا إلا إذا كشفه لنبي أو لملك يرتضيه، فيحيطه برَصَدٍ من الملائكة تحفظه وتصونه من الشياطين.

سورة المزمل

١- ﴿الْمُزَّمِّلُ﴾ المُتَلَفِّف في ثيابه. وأصله: "المُتَزَمِّل"؛ فأدغمتْ التاء في الزاي.

٢-٣-٤- وقوله: ﴿إِلا قَلِيلا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ مفسر في كتاب "المشكل".

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾ قد ذكرناه في سورة بني إسرائيل.

٥- ﴿قَوْلا ثَقِيلا﴾ أي ثقيلَ الفرائضِ والحدود.

ويقال: "أراد قولا ليس بالخفيف ولا السَّفْساف؛ لأنه كلام الله عز وجل".

٦- ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ ساعاتِه الناشئةَ. من "نشأَتْ": إذا ابتدأتْ.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي أثقل على المصلِّي من ساعات النهار.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلا﴾ لأن الأصواتَ تهدأُ فيه، ويتفرغُ القلب للقرآن، فيُقِيمه القارئُ.

ومن قرأ: (وِطَاءً)؛ فهو مصدر "واطأْت". وأراد: مواطأةَ السمعِ واللسان والقلب على الفهم له، والإحكامِ لتأويله.

٧- ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا﴾ أي تصرُّفًا في حوائجك، وإقبالا وإدبارًا، [وذهابًا ومجيئًا].

٨- ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي انقطع إليه. من قولك: بَتَلْتُ الشيء؛ إذا قطعته.

١٢- (الأنكال) القيود. واحدها: "نِكْل".

﴿وَجَحِيمًا﴾ أي نارًا.

١٣- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ تَغَصُّ به الحُلوقُ.

١٤- ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلا﴾ أي رملا سائلا. ومثله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾.

١٦- ﴿أَخْذًا وَبِيلا﴾ أي شديدًا. وهو من قولك: "اسْتَوْبَلْتُ البلدَ": [إذا استَوْخمتَها]. ويقال: كَلأ مُستَوْبَل؛ أي لا يُستمرأُ.

١٧- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ المعنى: فكيف تتقون يوما يجعل الولدان شيبا، إن كفرتم.

١٨- ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي منشقٌّ فيه.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا﴾ أي طريقًا ووجهةً.

٢٠- ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ لن تطيقوه.

الشرح

قيل إن سورة المزمل هي ثاني سورة نزلت في القرآن مع سورة المدثر. والمزمل هو المتلفلف بثيابه، وأصلها "المتزمل" فأُدغمت.

وقوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾؛ ذكر الشارح أن هذا مفسر في كتاب "المشكل"، مما يدل على أن كتاب غريب القرآن جاء بعد كتاب المشكل.

وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ كما ذكرنا في سورة بني إسرائيل (الإسراء) عند قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106] أي بترسّل وهدوء، وهنا الترتيل قراءة مترسلة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ القرآن ثقيل من حيث الفرائض والحدود وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ كلمة "وطئًا" تأتي بمعنى الثقل، أو بمعنى الموافقة؛ أي توافق القلب مع اللسان، حيث تقرأ والقلب يستوعب، أو المراد بها أنها ثقيلة يصعب على الإنسان القيام لها، خاصة في أيام الشتاء ونحوه حين يقوم من فراشه للصلاة ففيها ثقل. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ هو الاستقامة، أي استقامة القول بنطق سليم مع الاستيعاب، لأن الأصوات تهدأ في الليل فيتفرغ القلب للاستيعاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾؛ أي تصرفًا في حوائجك وطلبًا للمعاش. وقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ التبتل هو الانقطاع، أي انقطع له سبحانه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾؛ الأنكال هي القيود ومفردها نِكْل، والجحيم هي النار. وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾؛ أي طعامًا تغص به الحلوق.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾؛ أي سائلًا. وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾؛ أي شديدًا. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾؛ يجوز في اللغة أن تقول "منفطرة" و"منفطر."

سورة المدثر

١ - ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ المُتَدثر ثيَابه إذا نام. فأدغم التاءَ في الدال.

٤ - ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهِّر نفسك من الذنوب. فكنَّى عنه بثيابه: [لأنها تشتمل عليه].

قال ابن عُيَيْنَةَ: "لا تَلْبَسْ ثيابَكَ على كذب، ولا فجور، ولا غدر، ولا إثم. البَسْها: وبدنُك طاهرٌ. (قال): وقال الحسن: يُطيِّب أحدُهم ثوبه، وقد أَصَلَّ ريحُه! وقال ابن عباس: أمَا سمعتَ قول الشاعر:

إنِّي - بحمدِ الله - لا ثَوْبَ غَادِرٍ *** لَبِسْتُ، ولا مِن خَزْيَةٍ أَتَقَنَّعُ"

وقال بعضهم: "ثيابَك فقصِّر؛ فإن تقصيرَ الثياب طُهرٌ لها".

٥ - ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يعني: الأوثان. وأصل "الرجز" العذاب. فسمِّيتْ الأوثانُ رجزًا: لأنها تؤدِّي إلى العذاب.

٦ - ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ يقول: لا تُعطِ في الدنيا شيئًا، لتُصيبَ أكثر منه.

٨ - ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ أي نُفخ في الصور أولُ نفخةٍ.

١١-١٢-١٣ - ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي فردًا: لا مال له ولا بنينَ؛ ثم " جَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا " دائمًا ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ وهو الوَليد بن المُغيرة: كان له عشرة بنينَ لا يغيبون عنه في تجارة ولا عمل.

١٦ - ﴿إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ أي معانِدًا.

١٧ - ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ أي سَأُغْشِيه مشقةً من العذاب.

و"الصَّعود": العَقبة الشاقة. وكذلك "الكَؤُود".

١٨ - ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ في كيد محمد - صلى الله عليه وسلم - وما جاء به، فقال: "شاعرٌ" مرة، و "ساحرٌ" مرة، و "كاهنٌ" مرة؛ وأشباهَ ذلك.

١٩-٢٠ - وقوله: ﴿قُتِلَ﴾ أي لُعن. كذلك قيل في التفسير.

٢١ - ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي قطَّب وكرَّه.

٢٩ - ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ أي مغيِّرةٌ لهم. يقال: لاحتْه الشمسُ؛ إذا غيَّرتْه.

٣٠-٣١- ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً﴾ روي: أن رجلا من المشركين - قال: أنا أكفِيكم سبعةَ عشرَ، واكفُوني اثنين: فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلا مَلائِكَةً﴾ فمن يطيقهم؟ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ في هذه القِلَّة ﴿إِلا فِتْنَةً﴾؛ لأنهم قالوا: "ومَا قدْرُ تسعة عشر؟ فيُطيقوا هذا الخلق كله!".

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ حين وافقتْ عدَّةُ خَزَنَةِ أهل النار ما في كتابهم. هذا قول قتادة.

(وَاللَّيْلِ إِذَا دَبَرَ). أي جاء بعد النهار، كما تقول: خَلَفَه. يقال: دَبَرني فلان وخَلَفني؛ إذا جاء بعدي.

٣٤- ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي أضاء.

٣٥- ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ جمع "كُبرى". مثل الأولى والأوَلُ، والصُّغْرَى والصُّغَر. وهذا كما تقول: إنها لإحدى العظائم والعُظَم.

٤٢- ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ أي ما أدخلَكم النارَ؟

٥٠- ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ مذعورة؛ اسْتُنْفِرَتْ فنَفَرَتْ.

ومن قرأ: (مُسْتَنْفِرَةٌ) بكسر الفاء؛ أراد: نافرة. قال الشاعر:

ارْبُطْ حِمَارَكَ، إنّهُ مُسْتَنْفِرٌ *** في إثْرِ أَحْمِرَةٍ عَمَدْنَ لِغُرَّبِ

٥١- ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ قال أبو عبيدة: هو الأسد. وكأنه من "القَسْر" وهو: القهر. والأسدُ يقهر السِّباع.

وفي بعض التفسير: "أنهم الرُّماة".

وروى ابن عُيَيْنَة. أن ابن عباس قال: "هو رِكْزُ الناسِ"؛ يعني: حسَّهم وأصواتَهم.

٥٢- ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ قالت كفار قريش: "إن كان الرجلُ يذنبُ، فيُكتب ذنبُه في رُقعة: - فما بالُنا لا نرى ذلك؟!".

٥٤- ﴿كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: القرآن.

الشرح

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾؛ المدَّثِّر أصلها "المتدثِّر"، فأُدغمت التاء في الدال؛ أُبدلت التاء دالًا وصارت دالًا مشددة، وكذلك المزمّل أصلها المتزمل، وهو المتلفف بثيابه، والمؤلف فرّق بين المزمل والمدثر إذ قال أن

المدثر المتلفف بثيابه إذا نام، والعجيب عند التأمل في سورَتي المدثر والمزمل، أن المدثر أمر فيها الله سبحانه نبيه ﷺ بالقيام بالدعوة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، والمزمل أمرٌ بالقيام بالعبادة: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا﴾، والمزمل نزلت قبل المدثر؛ فكأن السورتين تشيران إلى أن الداعية لا بد أن يتزود بالعبادة والطاعة لتُعينه في الدعوة إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ أي طهّر نفسك من الذنوب والمعاصي؛ فكنّى عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بثيابه، وهذه الكناية وجدت عند العرب، تكني بالثياب عن النفس، كما يُقال: "فلان طاهر الثياب" أي سليم بعيد عن الذنوب والأخلاق السيئة. وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَلْبَسْ ثيابَكَ على كذب، ولا فجور، ولا غدر، ولا إثم. البَسْها: وبدنُك طاهرٌ»، وقال الحسن: «يطيب أحدهم ثوبه وقد أصلَّ ريحه» بمعنى رائحته كريهة، الآية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ للمفسرين فيها أقوال وقد ذكر ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولين فقط: طهر نفسك من الذنوب والمعاصي، وقصر ثيابك حتى لا تتلوث بالنجاسات، وقيل غير ذلك: طهّر أعمالك من الرياء والبدع، وقال بعضهم: هو حملٌ على الظاهر بطهارة الثياب، وكلها أقوال صحيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾؛ تقرأ على قراءتين: الرُّجز (في حفص عن عاصم) والرِّجز (في باقي القراءات) الرُّجْز هي الأوثان، سميت رجزًا لأنها تؤدي إلى العذاب، وأصل الرجز العذاب، فاهجر أي: اتركها واترك عبادتها.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾؛ أي لا تُعطِ شيئًا في الدنيا لتصيب أكثر منه، أو لا تمن على الله بعبادتك مستكثرًا؛ لها لأن نعم الله عليك أكثر بكثير، ولا تمنن على الفقير بحسانتك وإعطائك فتُثقل عليه وتُفسد صدقتك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾؛ الناقور هو الصُّور، أي نُفخ في الصُّور. هذه السورة قرأها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صلاة الفجر، فلما مر على هذه الآية سقط مغشيًا على وجهه، وحُمل إلى بيته ومكث فيه خمسة أيام أو أكثر. والسيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جمع الذين تأثروا بالقرآن وماتوا، فبعض الناس مات من تأثره ببعض الآيات،

وبعضهم مرض، وجمعهم في كتاب، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بينهم، رغم شدته وقوته كان يتأثر بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾؛ أي فردًا وحيدًا لا مال له ولا بنين، والمراد به الوليد بن المغيرة، كان له عشرة من البنين لا يغيبون عنه في تجارة ولا عمل، وكان من أغنى أهل مكة، فكفر وعاند فقال الله سبحانه وتعالى "ذرني" أي اتركني لينال عذابه، وقال تعالى فيه: ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ ثم قال: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾؛ أُرهقه أي أُغشيه مشقة من العذاب، والصَّعُود عقبة شاقة في نار جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ أي فكّر وقدر في كيد النبي ﷺ والطعن في القرآن بعد أن استمع إليه، فقد جاء أنَّ الوليدَ بنَ المغيرةِ جاء إلى النَّبيِّ ﷺ فقرأ عليه القرآنَ فكأنَّه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهلٍ فأتاه فقال: يا عمِّ إنَّ قومَك يريدون أن يجمعوا لك مالًا ليُعطوكه، فإن أتيتَ محمَّدًا لتعرِضَ لَما قِبله، قال: لقد علِمَتْ قريشٌ أنِّي من أكثرِها مالًا، قال: فقُلْ فيه قولًا يبلغُ قومَك أنَّك منكِرٌ له وأنَّك كارهٌ له. فقال: وماذا أقولُ فواللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمَ بالشِّعرِ منِّي، ولا برجزِه ولا بقصيدِه منِّي، ولا بأشعارِ الجنِّ، واللهِ ما يُشبهُ الَّذي يقولُ شيئًا من هذا، واللهِ إنَّ لقولِه لحلاوةً، وإنَّ عليه لطلاوةً، وإنَّه لمنيرٌ أعلاه مثمرٌ أسفلُه، وإنَّه ليعلو وما يُعلَى عليه، وإنَّه ليُحطِّمُ ما تحته قال: لا يرضَى عنك قومُك حتَّى تقولَ فيه، قال: فدَعْني حتَّى أفكِّرَ، فلمَّا فكَّر قال: هذا سحرٌ يُؤثرُ يَأثرُه عن غيرِه، فنزلت: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾؛ أي قَطَّب وجهه وكَرَه. وقوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾؛ أي مُغَيِّرة للبشرة بشدة حرارتها، كما تُغيّر الشمسُ البشرة. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾؛ أي تسعة عشر ملَكًا من الزبانية يحفظون جهنم ويُعذّبون أهلها. لما نزلت هذه الآية قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أي: الشجعان، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنم قال أبو [الأشد] أسيد بن كلدة بن خلف الجمحي: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، عشرة على ظهري وسبعة على بطني، فاكفوني أنتم اثنين. وروي أنه قال: أنا أمشي بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ونمضي فندخل الجنة. فأنزل الله – عز وجل – (وما

جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة). وقول أبو الأشد ما دل إلا على جهله بعظمة خلقة الملائكة، فلا يستطيع تصور أشكالهم، النبي ﷺ عندما رأى جبريل عليه السلام في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد الأفق، وقال رَسولَ الله ﷺ: «أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من مَلائِكةِ اللهِ تعالى من حَمَلةِ العَرشِ أنَّ ما بين شَحمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةَ سَبْعِمائةِ عامٍ». وهذا المشرك يقول أنا أكفلكم سبعة عشر من الملائكة!

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ ؛ عدتهم بمعنى العدد وليس بعدد السنين التي يعذبون بها، ﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ لأن أهل الكتاب يعلمون في كتبهم أن خزنة النار تسعة عشر فيزدادون يقينًا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾؛ وفي قراءة "إذا دَبَر" أي ذهب الليل وجاء النهار، "أدبر" فعل رباعي، وفي قراءة: "دَبَرَ" وهو الثلاثي. وقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾؛ أي أضاء وأشرق. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾؛ أي إحدى العظائم، وهي النار. ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ وسقر إحدى أسماء النار.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾؛ تقرأ بالفتح "مستنفَرة" أي: كأنهم حُمُرٌ مذعورة، وبالكسر "مستنفِرة" أي: نافرة، والـ "قسورة" هو الأسد، سمي بذلك للقهر والقسر لأنه يقهر السباع، وقيل: هم الرُّماة الصُّياد.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾؛ أي طلب كفار قريش أن تَنزل على كل رجل منهم رقعة منشورة، لكنهم أنكروا الصحف لأنهم لا يرونها.

سورة القيامة

١- قوله عز وجل: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ "لا" صلةٌ، أريدَ بها تكذيبُ الكفار؛ لأنهم قالوا: لا قيامةَ.

٢- (وَالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) أي تلومُ نفسَها يوم القيامة.

٣، ٤، ٥ ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ هذا مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

٦- ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ أي متى يومُ القيامة؟

٧- ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ إذا حارَ عند الموت.

وأصل "البَرَق": الدهَش. يقال: بَرِقَ الرجل يبرقُ برقًا.

ومن قرأ: (بَرَقَ)؛ أراد: بريقَه إذا شخَصَ.

٨- ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ و "كُسِفَ" واحد.

١١- ﴿كَلا لا وَزَرَ﴾ أي لا ملجأَ.

وأصل "الوَزَر": الجبل [أو الحِصن] الذي يُمتنَع فيه.

١٣- ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ﴾ من عمل الخير والشر.

﴿وَأَخَّرَ﴾ من سُنّة عُمل بها بعده.

١٤-١٥- ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ أي شهيدٌ عليها بعملها بعدهُ ولو اعتذر.

يريد: شهادةَ جوارحه.

ويقال: "أراد: بل على الإنسان -من نفسه- بصيرةٌ".

١٧- ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي ضمَّه وجمْعَه.

١٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ أي جمعناهُ.

﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي جَمْعه. و "القراءة" و "القرآن" مصدران.

قال قتادةُ "اتبعْ حلاله، و [اجتنب] حرامَه".

٢٢- ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ أي مُشرقةٌ.

٢٤- ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي عابسةٌ مقطِّبةٌ.

٢٥- و (الْفَاقِرَةُ) الداهيةُ. يقال: إنها من "فَقَار الظهر" كأنها تكسِره.

تقول: فَقَرتُ الرجل؛ إذا كسرتَ فَقَارَه. كما تقول: رَأَسْتُه؛ إذا ضربتَ رأسَه؛ وبَطَنْتُه: إذا ضربتَ بطنَه. ويقال: رجل فقير وفَقِرٌ.

وقال أبو عبيدة "هو من الوَسْمِ الذي يُفْقَرُ به على الأنف".

٢٦-٢٧- ﴿كَلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ يعني: النفس؛ أي صارت النفس بين تراقيه. ﴿وَقِيلَ: مَنْ رَاقٍ﴾؟ أي هل أحدٌ يرقِي؟

٢٩- ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ أتاه أولُ شدةِ أمرِ الآخرة، وأشدُّ آخرِ أمر الدنيا.

ويقال: "هو التفاف ساقَي الرجلِ عند السِّيَاقِ". [و] هو مثل قولهم "شمَّرت عن ساقها".

٣١- ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى﴾ أي لم يصدق ولم يصل.

٣٣- ﴿يَتَمَطَّى﴾ يَتَبَخْتَرُ. وأصله "يتمطّط"؛ فقُلبتْ الطاءُ فيه ياء. كما يقال: يَتَظَنَّى؛ وأصله: يَتَظَنَّن. ومنه "المِشْيَةُ المُطَيْطَاءُ".

وأصل الطاء في هذا كله: دال. إنما هو: مدُّ يدِه في المشي، إذا تبختر.

يقال: مدَدتُ ومططتُ؛ بمعنى واحد.

٣٥- ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾ تهدُّدٌ ووعيدٌ.

٣٦- ﴿أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي يُهْمَلَ: فلا يؤمَر، ولا يُنهَى، ولا يُعاقَبَ. يقال: أسديتُ الشيء؛ إذا أهملته.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ "لا" المذكورة في الآية جاءت للتأكيد، أُريد بها تكذيب الكفار لأنهم أنكروا القيامة، وهذا تفسير المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والصحيح أنها "لا" نافيه، لا تنفي القسم، بل تنفي اعتقاداتهم الباطلة أي: لا ليس الأمر كما تزعمون أنه لا بعث، ولكنني أقسم بيوم القيامة بأن هناك بعث.

وأقسم بالنفس اللوامة في وقوله تعالى: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾؛ هي النفس التي تلوم صاحبها يوم القيامة، فكلٌ سيلوم نفسه؛ فالخيّر على تقصيره في الخير، والمسيء على سيئته في الشر.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾؛ أيان: بمعنى متى، فبين الله وقتها بذكر علاماتها، ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾؛ أصل البرق الدهش، أي دهش وشخص بصره عند الموت وحار. ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾؛ أي كُسف فذهب نوره. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾؛ أي جُمِعا وأُلْقِيا يوم القيامة في النار.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَلاَّ لا وَزَرَ﴾؛ الوزر هو الملجأ، واستُعمل أحيانًا بمعنى الجبل لأنه ملجأ. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي بما قدم من عمل الخير والشر وما أخر من السيئات.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾؛ بصير أي شاهدٌ على نفسه ولو اعتذر شهدت جوارحه كالجلد وغيره. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾؛ جمعه أي يجمع ويُضم في مصحف، فإذا جمعناه فاتبع وجَمْعَه، والقرآن أي القراءة.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ ناضرة أي مشرقة ناعمة، وناظرة أي تنظر إلى ربها عز وجل، وفيه إثبات رؤية المؤمنين لربهم. وبالمقابل قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾؛ باسرة أي عابسة مقطبة، والفاقرة هي الداهية التي تكسر فقار الظهر.

وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾؛ التراقي هما العظمان الناتئان أعلى الصدر عند الحلقوم إذا بلغت الروح عندها. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾؛ أي هل من راقٍ يرقيه ويتداركه. وقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾؛ أي التقت شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، أو ضمَّت ساق الميت إلى الأخرى.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى﴾ لم يكن من المتصدقين ولا المصلين، ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾؛ يتمطّى أي: يتبختر ويمشي بفخر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾؛ أسلوب تهديد ووعيد. وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾؛ أي أن يُهمل سُدى فلا يُؤمر ولا يُنهى.

سورة الدهر

١ - ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ﴾ قال المفسرون: "أراد: قد أتى على الإنسان".

٢ - ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط؛ يقال: مَشَجْتُه فهو مَشِيجٌ. يريد: اختلاطَ ماء الرجل بماء المرأة.

﴿نَبْتَلِيهِ﴾ نختبره. أي إنا جعلناه سميعًا بصيرًا، لنبتليه بذلك.

٧- ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي فاشيًا منتشرًا. يقال: اسْتَطَار الحريقُ؛ إذا انتشر. واسْتَطَار الفجرُ: إذا انتشر الضوء.

١٠ - ﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ أي يومًا تَعْبِسُ فيه الوجوهُ. فجعل عبوسًا من صفة اليوم؛ كما قال: (في يومٍ عاصفٍ)؛ أراد: عاصف الريح.

و (الْقَمْطَرِيرُ) الصَّعب الشديد. [يقال]: يوم قَمْطَرِيرٌ وقُمَاطِرٌ؛ [إذا كان صعبًا شديدًا أشدَّ ما يكون من الأيام، وأطولَه في البلاء]. ويُقال: المُعبِّسُ الوجه.

١٤ - ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا﴾ أي أُدْنِيَتْ منهم. من قولك: حَائطٌ ذليلٌ؛ إذا كان قصير السَّمْكِ.

ونحوه قوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾. و "القطوف": الثمر؛ واحدها: "قِطْفٌ".

و (التَّذْلِيلُ) أيضًا: تسويةُ العُذوقِ. يقول أهل المدينة: ذُلِّلَ النخلُ؛ أي سُوِيَ عُذُوقُه.

١٥ - و (الأَكْوَابُ) كيزان لا عُرًى لها. واحدها: كُوب.

١٦ - ﴿قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ مفسر في كتاب "تأويل المشكل".

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ على قَدْر الرِّيّ.

١٧-١٨ - ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا﴾ يقال: هو اسم العين. وكذلك (السَّلْسَبِيلُ) اسم العين.

قال مجاهد "السلسبيل: الشديد [ة] الجَرْيَة".

وقال غيره: "السلسبيل: السَّلِسَةُ اللَّيِّنَة".

وأمَّا "الزنجبيل": فإن العرب تضرب به المثل وبالخمر ممتزِجَيْن. قال المُسيَّب بن عَلَس يصف فم المرأة:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ به ❊❊❊ - إذْ ذُقْتُه - وَسُلافَةَ الخَمْرِ

٢١- و (السُّنْدُسُ) و (الإسْتَبْرَقُ) قد تقدم ذكرهما.

٢٨- ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي خَلْقَهُم. يقال: امرأةٌ حسنةُ الأسْرِ؛ أي حسنة الخَلْقِ: كأنها أُسِرت، أي شُدَّتْ. وأصل هذا من "الإسار" وهو: القِدُّ [الذي يُشَدُّ به الأقْتَابُ]. يقال: ما أحسَنَ ما أسَرَ قَتَبَهُ! أي ما أحسن ما شَدَّه [بالقِدِّ]! وكذلك: امرأةٌ حسنة العَصَب، إذا كانت مُدْمَجَةَ الخَلْقِ: كأنها عُصِّبَتْ، أي شُدَّتْ.

الشرح

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾؛ "هل" هنا تفيد التقرير بمعنى "قد"، أي قد أتى على آدم عليه السلام وقتٌ طويل "دهر" كان فيه ملقىً على الأرض قبل نفخ الروح فيه؛ فهو لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم نفخ فيه الروح وتحرك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾؛ أمشاج أي: أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة لنختبره ونبتليه، ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ أي يسمع ويبصر بعد خلقته، وهذه بعض نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾؛ أي فاشيًا منتشرًا. وقوله تعالى: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾؛ قمطريرًا أي صعبًا شديدًا تعبس فيه الوجوه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصف نعيم الجنة: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾؛ أي قَرُبت ثمارها وأدنيت حتى أصبحت ذلولة دانية، كما يقال حائط ذليل، أي قصير تستطيع تجاوزه. وقوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾؛ الأكواب هي الكيزان التي لا عُرى لها، وهي من فضة في المادة لكنها صفاءُ القوارير (الزجاج) ينفذ منها البصر، وهذا من نعيم الجنة، و﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾أي على قدر الري.

ومن النعيم أيضًا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾؛ السلسبيل عين تجري بسهولة وسرعة، وتمزج بالزنجبيل كما كانت العرب تضرب به المثل في طيب الرائحة وطعم الخمر، ولو تمعنت في الآية الأولى قال سبحانه: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ثم قال زنجبيلا، والكافور بارد أما الزنجبيل فحار، فكأنما يشربون البارد ثم ينزل عليها الحار فيشربون، ولهم ما يشاؤون ويريدون.

وقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾؛ السندس هو الحرير الناعم اللين، والإستبرق هو الحرير الغليظ السميك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾؛ أي قوينا خلقهم، ويُقال: "امرأة حسنة الأسر" أي حسنة الخَلق.

سورة المُرْسَلات

مكية

١- (المُرْسَلاتُ) الملائكة؛ ﴿عُرْفًا﴾ أي متتابعة. يقال: هم إليه عُرْفٌ واحدٌ. ويقال: أُرسِلَتْ بالعُرْف؛ أي بالمعروف.

٢- و (الْعَاصِفَاتُ) الرياح.

٣- و (النَّاشِرَاتُ) الرياح التي تأتي بالمطر؛ من قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

٤- ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ [هي]: الملائكةُ تنزل، تَفْرُقُ ما بين الحلال والحرام.

٥- ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هي: الملائكة أيضًا، تُلقي الوحيَ إلى الأنبياء.

٦- ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ إعذارًا من الله وإنذارًا.

٨- ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي ذهب ضوءها: كما يُطمَسُ الأثرُ حتى يذهبَ.

٩- ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ أي فُتِحَتْ.

١١- ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ جُمعت لوقتٍ، وهو: يوم القيامة.

١٢- ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ [استفهام] على التعظيم لليوم؛ كما يقال: ليومٍ أيِّ يوم! و (أُجِّلَتْ): أُخِّرت.

٢٠- ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي حقير.

٢٣- ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾! بمعنى "قدَّرنا" مشدَّدةً. يقال: قدَرتُ كذا وقدَّرتُه.

ومنه قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الهلال: "إذا غُمَّ عليكم فاقْدُرُوا له". أي فقدِّرُوا له المسيرَ والمنازلَ.

٢٥- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا﴾ أي تضمُّكم فيها.

و"الكَفْتُ": الضمّ. يقال: أَكْفِتُ إليك كذا؛ أي أضُمُّه إليك.

وكانوا يسمون بقيعَ الغَرْقَدِ: "كَفْتَةً"؛ لأنها مَقْبَرَةٌ تضمُّ الموتى.

٢٦- ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يريد: أنها تضم الأَحياءَ والأَمواتَ.

٢٧- ﴿شَامِخَاتٍ﴾ [جبالا] طوالا. ومنه يقال: شَمخَ بأنفِه؛ [إذا رفعه كِبْرًا].

﴿مَاءً فُرَاتًا﴾ أي عذبًا.

٣٠- ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ مفسر في "تأويل مشكل القرآن".

٣٢- ﴿بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ من البناء.

ومن قرأه: ﴿كَالْقَصَرِ﴾؛ أراد: أصولَ النخل المقطوعة المقلوعة.

ويقال: أعناق النخل [أو الإبل]؛ شَبَّهَها بقَصَرِ الناس، أي أعناقِهم.

٣٣- (جِمَالاتٌ) جُمَالات.

﴿صُفْرٌ﴾ أي إبلٌ سود. واحدها: "جِمَالَةٌ". والبعير الأصفر هو: الأسود؛ لأن سواده تَعْلُوه صُفْرَةٌ.

[و] قال ابن عباس "الجِمَالات الصُّفر: حِبالُ السُّفن يُجمعُ بعضُها إلى بعض، حتى تكون كأوساط الرجال".

٣٩- ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي حيلةٌ: ﴿فَكِيدُونِ﴾ أي فاحتالوا.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾؛ المرسلات هي الملائكة أو الرياح، وعرفًا أي: المتتابعة، والعُرف يكون كعرف الديك في تتابعه وارتفاعه، ومنه كلمة الأعراف لأنه سور مرتفع.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾؛ العاصفات هي الرياح، والناشرات: الشديدة التي تأتي المطر.

وقوله تعالى: ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾؛ الفارقات: الملائكة تفرق بين الحلال والحرام وقيل: هي الرياح تفرق السحاب، ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فالملقيات: الملائكة تلقي الوحي المشتمل على الإعذار والإنذار أو الريح تفرق السحب.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علامات الساعة في قوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾؛ أي ذهب ضوءها ونورها. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾؛ أي فُتحت وانشقت. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾؛ أي جُمعت لوقتها المحدد وهو يوم القيامة. ثم أتى الاستفهام: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾؛ استفهام للتعظيم، أي: لأي يوم أُخّرت هذه الرسل؟ فأتى الجواب ليوم الدين؛ يوم القضاء بين الخلائق.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ الماء الحقير ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾؛ أي قدّرنا على ذلك فنعم القادرون.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾؛ كفاتًا أي تضم الخلائق، أحياءً على ظهرها وأمواتًا في بطنها، وكَفَتَ الشيء أي ضَمَّه. وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾؛ أي جبالًا عاليات مرتفعات. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾؛ أي ماءً عذبًا طيبًا.

وقوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾؛ ذكر الشارح أن هذا مفسر في الكتاب الآخر، والمراد به ظل دخان جهنم المتصاعد والمتشعب إلى ثلاث شعب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾؛ الشرر عظيم كالقصر أو كأصول النخل، ولونه بين السواد والصفار كالإبل الصفر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾؛ أي إن كان لكم حيلة فاحتالوا بها.

سورة النبأ

١-٢- ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ يقال: القرآنُ. ويقال: القيامةُ.

٦- ﴿مِهَادًا﴾ أي فِراشًا.

٧- ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي أوتادًا للأرض.

٨- ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي أصنافًا وأضدادًا.

٩- ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي راحةً لأبدانكم. وأصل "السَّبْت": التمدُّد.

١٠- ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي سِترًا لكم.

١٣- ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أي وَقَّادًا؛ يعني: الشمسَ.

١٤- ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ يعني: السحابَ.

يقال: "شُبّهتْ بمَعَاصِير الجواري. والمُعْصِرُ: الجاريةُ التي دَنت من الحيض".

ويقال: "هن ذواتُ الأعاصير، أي الرياحُ".

﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ أي سَيَّالا.

١٦- ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي مُلْتَفَّةً. قال أبو عبيدةَ: واحدها: "لِفٌّ".

ويقال: هو جمع الجمع؛ كأن واحده: "أَلَفٌّ". و "لَفَّاء"؛ وجمعه: "لُفٌّ"؛ وجمع الجمع: "ألفافٌ".

٢٣- ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يقال: "الْحُقْبُ ثمانون سنة. وليس هذا مما يدلُّ على غايةٍ، كما يظن بعض الناس. وإنما يدُلُّ على الغاية التوقيتُ: خمسة أحقاب أو عشرة. وأراد: أنهم يَلْبَثُون فيها أحقابًا، كلَّما مضى حُقْبٌ تَبِعه حقبٌ آخرُ".

٢٤- ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أي نَوْمًا. قال الشاعر:

وإن شِئْتِ حَرَّمْتُ النِّسَاءَ سِوَاكُمُ *** وإن شِئتِ لَمْ أَطْعَمْ نُقَاخًا ولا بَرْدَا

و"النُّقاخ": الماء؛ و "البرد": النوم.

ويقال: "لا يذوقون فيها برد الشراب".

٢٥- ﴿إِلا حَمِيمًا﴾ وهو: الماء الحار.

﴿وَغَسَّاقًا﴾ أي صديدًا. وقد تقدم ذكره.

٢٦- ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي وفاقًا لأعمالهم.

٢٧- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي لا يخافون.

٣١- ﴿مَفَازًا﴾ موضع الفَوْز.

٣٢- ﴿حَدَائِقَ﴾ بساتينَ نخل. واحدها: "حديقة".

٣٣- ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نساءً قد كَعَبَتْ ثُدِيُّهن.

﴿أَتْرَابًا﴾ على سنٍّ واحدٍ.

٣٤- ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي مُتْرَعَةً مَلأى.

٣٦- ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي كثيرًا. يقال: أعطيتُ فلانًا عطاءً حِسابًا؛ وأحْسَبْتُ فلانًا، أي أكثرتُ له. قال الشاعر:

ونُقْفِي وَلِيدَ الحَيِّ إنْ كان جائعًا ❊❊❊ ونُحْسِبُه إن كان ليس بِجائعِ

ونرى أصلَ هذا: أن يُعطيَه حتى يقولَ: حسبِي.

٣٨- ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا﴾ أي صُفُوفًا. ويقال ليوم [العيد: يومُ] الصف. وقال في موضع آخر: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾؛ فهذا يدل على الصُّفوف.

٣٩- ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي مرجعًا إلى الله [بالعمل الصالح]: كأنه إذا عمل خيرًا ردَّه إلى الله، وإذا عمل شرًّا باعده منه.

الشرح

سورة النبأ تسمى بسورة (عمّ). معنى النبأ ذكر فيه قولان: إما القرآن أو اليوم الآخر، وكلها واردة عن السلف، ولكن الذي يترجح -والله أعلم- أن النبأ العظيم هو يوم البعث؛ لأنهم مختلفون فيه، وإن كانوا قد اختلفوا في القرآن، لكن السورة موضوعها والحديث عنها كله حول اليوم الآخر، والحديث عن البعث والجنة

والنار، والأدلة الدالة على إثبات هذا اليوم، وليس فيها حديث عن القرآن أبدًا، وإنما الحديث كله حول البعث. وإن كان القرآن يُسمَّى نبًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: 67]، لكن السياقات تختلف.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ المراد بالأزواج هنا يعني أصنافًا وأضدادًا، مثل ذكورًا وإناثًا وأصنافًا أخرى. يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ السبات الراحة. ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي سترًا؛ لأنه يغطي الأرض بظلامه. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ الوهاج: الوقاد شديد الحرارة، وهي الشمس.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ المعصرات هي السحاب. السحابة الواحدة معصرة، وسميت بذلك لأن إذا لقح السحاب امتلأ بالماء ثم ينعصر بقوة حتى ينزل بشدة. وضرب المؤلف مثلًا بالجارية في أول بلوغها يأتيها الحيض الأول يعصرها عصرًا بقوة حتى ينزل الدم معها، ولذلك تجد كثير من النساء تجد آلامًا شديدة عند نزول الحيض.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّاءً ثَجَّاجًا﴾ الثجاج الذي يسير ويندفع بقوة، ولذلك جاء في السيرة عن حَمْنَةَ ابنةِ جحشٍ أنَّها استُحِيضَتْ على عَهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فأتتْ رسولَ اللهِ ﷺ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، إنِّي استُحِضْتُ حَيضةً مُنْكَرةً شديدةً، فقال: «احتَشِي كُرْسُفًا» (أي القطن) قالت: إنَّه أشدُّ من ذلك، إنِّي أَثُجُّهُ ثَجًّا، قال: «تَلَجَّمي وتَحَيَّضي في كلِّ شهرٍ في عِلمِ اللهِ عزَّ وجلَّ ستَّةَ أيامٍ أو سَبعةً، ثمَّ اغتسِلي غُسلًا، وصلِّي وصومي ثلاثًا وعِشرينَ أو أربعًا وعِشرينَ، أو أخِّري الظُّهرَ وقدِّمي العصرَ واغتسِلي لها غُسلًا، وأخِّري المغرِبَ وقدِّمي العِشاءَ واغتسِلي لها غُسلًا» فوصفت رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن حيضتها الغزيرة أنها تثج ثجًا.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ الجنات أي: البساتين والنخيل ملتف بعضها على بعض. وقال المؤلف رَحِمَهُٱللَّهُ: " هو جمع الجمع؛ كأن واحده: "أَلَفٌّ". و "لَفَّاء"؛ وجمعه: "لُفٌّ"؛ وجمع الجمع: "ألفافٌ"" مثل ما تقول: عسل وأعسال (أعسال جمع الجمع)، وتقول: تراب وأتربة (الأتربة جمع تراب، والتراب جمع تربة).

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لم يحدد الله المدة، مثلًا ثمانين أو مئة، بل قال: أحقاب (أحقاب لا تنتهي)، أي أنهم سيبقون في النار لا حد لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِخَارِجِينَ﴾ [المائدة: 36].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم وهم في النار: ﴿لَا يَذُوقُونَ بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ البرد هنا النوم، هذا رأي المؤلف، وأيضًا أورده الطبري ورجح خلافه وقال: البرد هو ما يتبرد به الإنسان من ماء بارد أو من هواء بارد، أما النوم فلا؛ لأن أصل النائم يشعر بالبرد دائمًا، طبيعته الإنسان إذا نام شعر ببرد، سُمِّي النوم بردًا، وإلا الأصل أن البرد برد، والآية هنا الذي رجحه الطبري أن البرد هنا هو البرد الذي يصيب الإنسان من هواء ونحوه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ الحميم الحار. وغساق أي صديد؛ الغساق هو عصارة أهل النار من الصديد والدماء ونحوه، يسقون منها. وفي رأي آخر أن الغساق هو البارد الشديد؛ أي أن أهل النار ما بين حرارة وزمهرير، فيسقون الماء الحار ويسقون الماء الشديد البرد، ومرة يلقون في الماء الحار، ومرة يلقون في الزمهرير، نسأل الله العافية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ العلة والسبب في وقوعهم في النار لأنهم "كانوا لا يرجون حسابًا"، لا يرجُونَ أي: لا يخافون، وهذه تتكرر عند كثير من المفسرين (يرجو، يرجون، وأرجو اليوم الآخر ونحوه)، يقولون: الرجاء بمعنى الخوف، لأنه إذا كان لا يرجو ما في الجنة، فإنه لا يخاف في الدنيا أصلًا، ليس عنده خوف أو أمل أنه يبعث فلا يخاف.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في نعيم أهل الجنة: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ أن الحور العين كواعب، أي ثديهن متكعب قد برز في بدايته. ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ دهاقًا أي: مترعة وملأى، وقيل صافية، وقيل متتابعة، كلها صحيحة. والمراد بالكأس الخمر، هذا في القرآن دائمًا، لا يأتي كلمة كأس إلا ويراد بها الخمر.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي كافيًا، تقول: حسبي الله، يعني كافيني الله، فعطاء حسابًا أي يعطيك إلى ما يكفيك.

سورة النازعات

١ - ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ يقال: هي الملائكة تَنزعُ النفوس إغراقًا؛ كما يُغرِق النازعُ في القوس.

٢ - ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [هي]: الملائكة تَقبِض نفسَ المؤمن [وَتَنْشِطُها] كما يُنشَطُ العِقالُ، أي يُربطُ.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ أي الملائكة؛ جعل نزولها كالسِّباحة.

و "السَّبْحُ" أيضًا: التصرُّف. كقوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلا﴾.

٤ - ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ تسبق الشياطينَ بالوحي.

٥ - ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ تنزلُ بالحلال والحرام.

وقال الحسن: "هذه كلها: النجومُ؛ خلا (الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) فإنها الملائكة. وإلى هذا ذهب أبو عبيدةَ.

٦ - ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ الأرض.

ويقال: "الرَّجْفَة" و "الرَّاجفة" ها هنا سواءٌ.

٧ - ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي تَرْدَفُها أخرى. يقال رَدِفتُه وأرْدَفْتُه؛ إذا جئت بعده.

٨ - ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي [تَجِفُ و] تَخْفِق وتَجِب.

١٠-١١ - ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي إلى أول أمرِنا. يقال: رجع فلان في حافرته، وعلى حافرته. أي رجع من حيث جاء.

وأرادوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ نُرَدُّ أحياءً؟! كما قال الشاعر:

أَحَافِرَةً على صَلَعٍ وَشَيْبٍ ❊❊❊ مَعَاذَ اللَّهِ من سَفَهٍ وَعَارِ؟!

أي [أ] أرجع إلى أول أمري -أي في حداثتي- بعد الصلع والشيب؟!

١٢ - ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي رجعةٌ يُخْسَرُ فيها.

و (السَّاهِرَةُ) وَجْهُ الأَرْضِ.

٢٥ - ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ فإحداهما قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [٢٤]﴾؛ والأخرى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.

٢٩- ﴿أَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي جعله مظلمًا.

٣٠- ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بَسَطها.

٣٣- ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ أي منفعةً لكم.

٤٢- ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي متى تأتي فتستقرَّ؟ لأن الأشراط تتقدمُها.

٤٣- ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ أي ليس عِلمُ ذلك عندك.

الشرح

يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ المراد بالنازعات هي الملائكة تنزع النفوس، وهذا في حال الكفار؛ أن الملائكة تنزع أرواحهم بشدة. أما المؤمنون ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ يعني تحلها حلًا، تفكها، يقال: النَّشْط من عقال، أي الفك من العقال بهدوء.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ هي من صفات الملائكة تسبح في الأجواء، تطلع وتنزل وتصعد. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ أيضًا من صفات الملائكة، تسبق إلى طاعة الله ولا تتردد، وتسبق أيضًا الشياطين بالوحي. ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ أيضًا الملائكة تدبر الشؤون التي يكلفها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بها.

يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ هذا جواب القسم؛ لما أقسم الله بهذه الصفات - صفات الملائكة- ليثبت لك اليوم الآخر: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾، والراجفة هي النفخة الأولى، ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ النفخة الثانية.

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، يقولون: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ يقولون: أإنا سنرجع بعد الموت ونبعث مرة أخرى؟ هذا مستحيل! ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ وتمزقنا في الأرض أنعود؟ هذا أمر بعيد، كما قالوا: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:3]، ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾. فأجابهم الله جل

جلاله: "﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ الساهرة هي وجه الأرض. سميت بذلك لأن من يبعث يخرج من باطن الأرض إلى وجه الأرض لا ينام؛ سهر، لم يعد هناك نوم.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ هذا فرعون؛ نكال الآخرة والأولى أي: عقوبة الدنيا والآخرة، وبعضهم يقول نكال الآخرة والأولى: كلمتاه اللتان قالها، مرة قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، ومرة قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38] فأخذه الله.

سورة عَبَس

٦- ﴿تَصَدَّى﴾ تعرَّضُ. يقال: فلان يتَصَدَّى لفلان؛ إذا تعرَّضَ له ليراه.

١١- ﴿كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ يعني: السورة.

١٢- ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ يعني: القرآن.

١٥- ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ أي كتبة؛ وهم الملائكة. واحدهم: "سافرٌ".

١٧- ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ﴾ أي لُعِنَ.

٢١- ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي جعله ممَّن يُقْبرُ، ولم يجعله ممن يُلقى بوجه الأرض كما تلقى البهائمُ.

يقال: قبرتُ الرجل؛ [أي] دفنته، وأَقْبَرْتُه: جعلتُ له قبرًا يُدفن فيه.

٢٢- ﴿أَنْشَرَهُ﴾ أحياه.

٢٣- ﴿كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ أي لم يقض ما أمره به.

٢٨- (الْقَضْبُ) القَتُّ. يقال: سميَ بذلك: لأنه يُقْضَبُ مرَّة بعد مرة؛ أي يُقطع.

وكذلك: الفَصِيلُ؛ لأنه يفصلُ، أي يقطع.

٣٠- و (الْغُلْبُ) الغِلاظُ الأعناقِ؛ يعني النخلَ.

٣١- و (الأَبُّ) المَرْعَى.

٣٣- و ﴿الصَّاخَّةُ﴾ القيامة؛ صَخَّتْ تَصُخُّ صَخًّا، أي تُصِمُّ. ويقال: رجل أَصَخُّ وأَصْلَخُ؛ إذا كان لا يسمع.

و "الداهية": صاخَّةٌ أيضًا.

٣٧- ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يَصرفُه ويَصدُّه عن قرابته.

ومنه يقال: اغْنِ عني وجهَك: أي اصرفْه. واغْنِ عن السَّفيهِ.

٤١- ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أي تغشاها غَبَرَةٌ.

الشرح

هذه سورة عبسْ، بالتسكين، الصحيح ألا تحرّك السين وتقول عبسَ؛ لأن العرب لا تقف على متحرك، مثلما تقول: "فلان جلس"، ولا تقول "جلسَ".

يقول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ الملائكة. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ أي لعن. ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ الفرق بين قبَرَ وأقبَرَ، يقول: قبَرَ إذا باشر، وأقبَرَ إذا أمر؛ فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يقبر، إنما يأمر بالقبر، يشرع ويأمر بأن يقبر الإنسان. ثم أماته الله جل جلاله، فأقبره أي جعل له قبرًا، أما الذي باشر فلا يقال أقبر، يقال قبر: "قبَرتم فلانًا".

يقول: ﴿كَلَّا﴾ أي ليس الأمر هكذا؛ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ حتى يقوم بما أمره الله، أي أتم ما أمره الله وقضى ما أمره الله به. ومعنى ﴿قَضْبًا﴾ القَتّ، وهو طعام البهيمة، مثل الأبّ.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ إذا كانت الأشجار من الأعلى غليظة يقال لها حدائق غلب، والنخيل إذا كانت من رؤوسها غليظة يقال لها غلب، ويقال للرجل الذي يكون العنق عنده غليظًا: رجل أغلب.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ الصاخة من أسماء القيامة؛ لأنها تصخ الآذان بصوتها العالي. ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي يصرفه عن أن ينشغل بغيره.

سورة التكوير

١ - ﴿كُوِّرَتْ﴾ قال أبو عبيدة "تُكَوَّر - أي تُلفُّ - كما تكوَّر العمامة".

وقال بعض المفسرين: "كُوِّرَتْ" أي ذهب ضوؤها.

٢ - ﴿انْكَدَرَتْ﴾ انتثرتْ وانصبَّتْ.

٤ - و ﴿الْعِشَارُ﴾ من الإبل: الحواملُ. واحدتها: "عُشَرَاءُ"؛ وهي: التي أتى عليها في الحمل عشرةُ أشهر؛ ثم لا يزال ذلك اسمَها حتى تَضَعَ وبعد ما تضعُ.

يقول: عطَّلها أهلُها من الشغل بأنفسهم.

٦ - ﴿سُجِّرَتْ﴾ مُلِئَتْ. يقال: يُفضي بعضُها إلى بعض، فتصيرُ شيئًا واحدًا.

٧ - ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قُرنتْ بأشكالها في الجنة والنار.

٨ - و ﴿الْمَوْءُودَةُ﴾ البنت تُدْفَنُ حيَّةً.

١١ - ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي نزعتْ فطويتْ كما يقشطُ الغِطاءُ عن الشيء.

١٣ - ﴿أُزْلِفَتْ﴾ أُدْنِيَتْ.

١٥-١٦ - و (الْخُنَّسُ [الْجَوَارِ الْكُنَّسُ]) النجوم الخمسة الكبار؛ لأنها تَخْنِس - أي ترجع في مجراها - وتَكْنِسُ -[أي] تستتر - كما تكنس الظِّباء [في المَغارِ؛ وهو: الكِناسُ].

١٧ - ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قال أبو عبيدة: إذا أقبل ظلامُه.

وقال غيره إذا أدبر.

٢٤ - (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ)؛ أي بمُتَّهَم على ما يُخبِر به عن الله عز وجل.

ومن قرأ: ﴿بِضَنِينٍ﴾؛ أراد: ببخيل. أي ليس ببخيل عليكم؛ يُعلِّم ما غاب عنكم: مما ينفعُكم.

الشرح

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ معنى كوّرت: تُلف الشمس وتلقى في النار مثل ما تلف العمامة على الرأس، تجد أن الآيات الست الأولى هي علامات النفخة الأولى، والآيات الست الأخرى هذه بعد البعث. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ تتناثر وتتساقط وتنطمس. ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار هي الإبل، تعطل أي: تترك؛ لأنها إذا حصل ما حصل تركوها وأهملوها. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وفيه أخرى: ﴿فُجِّرَتْ﴾ أن يفتح بعضه على بعض وتُمتلئ ثم توقد من النار؛ البحر المسجور الذي أوقد بالنار، هذا كله قبل يوم القيامة في آخر الدنيا.

ثم تأتي الآيات التي ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فيها الأحوال ما بعد البعث؛ بعد النفخة الثانية: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ يقرن أهل القرآن مع بعض، وأهل الغناء مع بعض، والفسقة مع بعض، وأهل التقوى مع بعض، وهكذا. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ البنت التي تدفن حية، إذا كانت هي تسأل؛ فكيف سيكون الذي وأدها أشد؟ تُسأل: من وأدكِ؟ فسيحاسب الذي وأدها.

ثم قال جل جلاله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ الخنس: النجوم، تخنس أي: تذهب إلى مكانها وترجع؛ هذه تسمى الجواري؛ عندنا نجوم ثابتة -أو كواكب ثابتة- وكواكب متحركة. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قيل: أقبل، وقيل: أدبر، والصحيح أنه يقبل ويدبر، الليل يأتي ويذهب.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ضنين أي: ببخيل، وفي قراءة أخرى "بظنين" تعني: بمتهم من الظن. فالضن تعني البخل والظن يعني الاتهام.

سورة الانفِطار

١ - ﴿انْفَطَرَتْ﴾ انشقَّتْ.

٣- ﴿فُجِّرَتْ﴾ أي فُجِّر بعضُها إلى بعض.

٤- ﴿بُعْثِرَتْ﴾ قُلبتْ وأُخرج ما فيها. يقال: بعثرت المتاع وبحثرته؛ إذا جعلت أسفله أعلاه.

٧- (فَعَدَّلَكَ) قَوَّم خَلْقك.

ومن قرأ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بالتخفيف؛ أراد: صَرَفك إلى ما شاء من الصُّوَر في الحسن والقبح.

٩- ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي بالجزاء والحساب.

الشرح

هذه سورة الانفطار، فيها تشابه بسورة التكوير في عرضها لأهوال يوم القيامة. وأيضًا مع التي بعدها؛ سورة الانشقاق.

يقول سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، وفي الانشقاق يقول: ﴿انشَقَّتْ﴾، وفي آيات أخرى يقول: ﴿فُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾، و﴿فُرِجَتِ السَّمَاءُ﴾، و﴿طُوِيَتِ السَّمَاءُ﴾، و﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾، كيف نجمع بين هذه النصوص؟ نقول: هذه أحوال تمر بها السماء مثل الأرض والجبال وغيرها، فمثلًا في الجبال مرة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُسِفَتْ﴾، ومرة قال: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾، ومرة قال: ﴿بُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾، ومرة قال: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ ونحوه. فنقول: هذه أحوال يوم القيامة تمر بها هذه الأشياء القوية؛ مثل السماء والجبال بشدتها وقوتها تمر بهذه الأحوال.

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسر الانفطار بالانشقاق، وهذا تفسيرًا تقريبيًا، لكن لو رجعت للغة لَوجدتَ الانفطار يختلف عن الانشقاق؛ الانفطار هو بداية الانشقاق. وقد جاء في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه» أي أن الانفطار هو بداية التشقق، إذا اتسع أصبح يسمى شقًا، فبداية الشيء انفطار، ولذلك سمي الإفطار للصائم أو الإفطار الصباحي؛ لأنه بداية الطعام كما لو بدأ الصيام ينشق. و﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي أنشأها من العدم، ففي البداية لم تكن موجودة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، وجاءت في سورة التكوير: ﴿سُجِّرَتْ﴾، نجمع بينها أن البحار يفجر بعضها إلى بعض ثم تسجر؛ أي تملأ نارًا وتصبح نارًا.

وقوله سبحانه: ﴿بُعْثِرَتْ﴾، فسرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيرًا دقيقًا؛ يقول: "بعثرت المتاع وبحثرته؛ إذا جعلت أسفله أعلاه" فالقبور تبعثر، يعني يخرج ما في بطونها إلى أعلاها، وأنت تبعثر المتاع؛ يعني تجعل ما تحته في الأعلى.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أو (فَعَدَّلَكَ) على وجهين؛ أي خلقك أو صورك في أي صورة.

والمراد بالدين في قوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ فيعني الجزاء والحساب، مثل قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوم القيامة، والدين تأتي أيضًا بمعنى الشرع كذلك وتُفهم حسب السياق.

سورة المُطفِّفين

١ - (المُطَفِّفُ) الذي لا يُوفِي الكَيْلَ. يقال: إناءٌ طَفَّانُ؛ إذا لم يك مملوءًا.

٣- ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي كالُوا لهم، [أ] ووَزَنوا لهم. يقال: كِلْتُكَ ووزنتُكَ؛ بمعنى: كلت لك، ووزنت لك. وكذلك: عَدَدْتُك وعددتُ لك.

﴿يُخْسِرُونَ﴾ يَنقُصون.

٧- ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ فِعِّيل؛ من "سَجَنت".

١٤- ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي غلب. يقال: رانت الخمر على عقله، أي غلبت.

١٩-٢٠- ﴿مَرْقُومٌ﴾ مكتوبٌ. و"الرَّقْم": الكتاب. قال أبو ذؤيبٍ:

عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَقْمِ الدَّوَا *** ةِ يَذْبُرُهَا الكَاتِبُ الْحِمْيَرِيُّ

٢٥- (الرَّحِيقُ) الشراب الذي لا غِشَّ فيه.

ويقال: "الرَّحيق": الخمر العتيقة.

٢٦- ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ أي آخرُ طعمِه وعاقبتُه إذا شُرب.

٢٧- ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ يقال: أرفعُ شراب في الجنة.

ويقال: يُمزج بماء ينزل من تسنيم، أي من علوٍّ.

وأصل هذا من "سَنَام البعير" ومنه: "تَسنيمُ القُبورِ". وهذا أعجبُ إليَّ؛ لقولِ المُسيَّب بن عَلَس في وصف امرأة:

كَأَنَّ بِرِيقَتِهَا - لِلْمِزَا *** جِ مِن ثَلْجِ تَسْنِيمَ شِيبَتْ - عُقَارَا

أراد: كأن بريقتها عُقَارًا شِيبتْ للمزاجِ من ثلج تسنيمَ؛ يريد جبلا.

٣٦- ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾؟ أي هل جُزُوا بما كانوا يعملون؟!

الشَّرحُ

سورة المطففين سميت بذلك لذكر التطفيف. والتطفيف أصله: أخذ الشيء اليسير، تقول: هذا أمر طفيف، أي قليل. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كأنه يقول: لو أخذت الشيء القليل في المكاييل والموازين بغير حق، ولو كان قليلًا، فإن هذا لا يجوز ويحرم؛ لأنه أخذ حقوق الآخرين بغير علم. فيقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ بالمكاييل، والمكاييل معروفة كالصاع، ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ بالموازين، والموازين غير الصاع ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي ينقصون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، سجين هو أسفل السافلين؛ في سجن، والمراد بالكتاب أي أصحاب الكتاب، أي الكفار الفجار في أسفل سافلين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾، هنا سكتة لطيفة: ﴿كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ﴾، مثل في سورة يس ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ﴾، ومثل ﴿عِوَجًا ۜ قَيِّمًا﴾ في الكهف، ومثلها أيضًا في القيامة: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ هذه تسمى السكت. معنى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ران تعني: غلب؛ غلب على قلوبهم ما كانوا يكسبون. الرَّيْن هو ظلمة يسيرة على القلب وسواد، فالقلب تمر به أحوال بكثرة المعاصي حتى يقسو القلب ويظلم، فبداية الذنوب رَيْن، وأقل من الرين الغَيْن، قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي»، أي الغفلة الخفيفة. فيقول: أسباب الإعراض هي ذنوبه.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، المراد بالرحيق هنا هو خمر الجنة ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾. ثم قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي من عين تسمى تسنيم، وهي عين مرتفعة عالية. ومعنى قوله سبحانه: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾ المراد بالثواب هنا الجزاء، هل ثُوبوا يعني جُوزُوا عليه؟

سورة الانشقاق

٢- قوله: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ اسْتَمَعتْ؛ ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي حُقَّ لها.

٦- ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ أي عامل ناصب في معيشتك؛ ﴿إِلَى﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾.

١١- ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي بالثبور، وهو: الهلكة.

١٤- ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي لن يَرجعَ ويُبْعثَ.

١٦- (الشَّفَقُ) الحمرة [التي ترى] بعد مغيب الشمس.

١٧- ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي جَمع وحَمل. ومنه: "الوَسْقُ"، وهو: الحَمْل.

١٨- ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي امتلأ في الليالي البيض.

١٩- ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ أي حالا بعد حال. قال الشاعر:

كَذلِك المَرْءُ: إنْ يُنْسَأْ لَهُ أَجَلٌ *** يَرْكَبْ عَلَى طَبَقٍ من بَعدِه طَبَقُ

٢٣- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي يَجمعون في صدورهم وقلوبهم يقال: أوعيت المتاع؛ [إذا جعلته في الوعاء].

٢٥- ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أذنت أي: استمعت وأصغت بأذنها، يقال: أصغى فلان بأذنه إذا استمع، ﴿وَحُقَّتْ﴾ وحُقَّ لها أن تستمع. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾، معنى كادح: عامل ناصب في معيشتك، فيكدح ويشعر بالتعب الثقيل الذي يعمله، ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى لقاء ربك، تعمل في هذه الدنيا حتى تلقى ربك، فمنهم من يعمل للدنيا ومنهم من يعمل للآخرة، ولذلك قسمهم فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ و﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾.

يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي لا يرجع إلى ربه، حار بمعنى رجع.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾، الشفق المراد به الحمرة بعد مغيب الشمس، إذا سقط قرص الشمس عند الغروب يأتي أثر هذا القرص في الحمرة التي تظهر في الأفق، والحمرة هي بداية الليل، فإذا غابت الحمرة واشتد الظلام دخل وقت العشاء.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي جمع وحمل، يجمع الليل البشر والدواب، كلٌ يعود إلى مكانه من الحيوانات والطيور والإنسان. وقوله سبحانه: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ قال: إذا اكتمل ليله وأصبح بدرًا. ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي من حال إلى حال؛ تجده صغيرًا ثم شابًا ثم كهلًا ثم شيبة، وهكذا يمر بأحوال. وكلمة ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قد تحملها على تنقل الإنسان في حياته أو في أعماله أو في أحواله في الدنيا: فقير ثم غني ثم إلى آخره. وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي بما يجمعونه في صدورهم.

سورة البروج

١ - (الْبُرُوجُ) بروج النجوم؛ وهي اثنا عشر بُرجًا. ويقال: "البُروج": القصور.

٢ - و (وَالْيَوْمُ الْمَوْعُودُ) يوم القيامة.

٣ - ﴿وَشَاهِدٍ﴾ في يوم الجمعة. كأنه أقسم بمن يشهده.

﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم الجمعة، ويوم عرفة.

٤ - (الأُخْدُودُ) الشقُّ [العظيم المستطيل] في الأرض، وجمعه: "أَخَادِيدُ".

وكان رجل من الملوك خَدَّ لقوم في الأرض أخاديدَ، وأوقَد فيها نارًا؛ ثم ألقى قومًا من المؤمنين في تلك الأخاديد.

١٠ - ﴿فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي عذبوهم.

الشرح

معنى قوله سبحانه: ﴿الْبُرُوجِ﴾ أي النجوم التي في السماء. وقوله: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ أي: يوم القيامة.

ثم قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ يقول لك المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ شاهد هو من شهد يوم الجمعة أو يوم عرفة، ومشهود احتمال أن يكون هو يوم الجمعة أو يوم عرفة بعينه، لكن مثل ما ذكرنا لكم قبل قليل هذا من باب التفسير بالتمثيل، فالأصل أن معنى "شاهد ومشهود" أوسع؛ كل ما هو شاهد داخل في الآية وكل ما هو مشهود داخل كذلك فيها، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ يدخل كل شيء.

سورة الطارق

١- ﴿وَالطَّارِقِ﴾ النجم؛ سُمي بذلك: لأنه يَطرُق - أي يطلُع - ليلا وكلُّ من أتاك ليلا فقد طَرَقك.

٣- و ﴿الثَّاقِبُ﴾ المُضيءُ.

٧- ﴿وَالتَّرَائِبِ﴾ مُعَلَّق الحُلِيِّ من الصدر. واحدتها "تَرِيبة".

٩- ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أي تُختبرُ سرائرُ القلوبِ.

١١- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي المطر. قال الهُذَلِيُّ يذكر سيفًا:

أبيضُ كالرَّجْعِ رَسوبٌ، إذَا ❊❊❊ مَا ثَاخَ في مُحْتَفَلٍ يَخْتَلِي

أي أبيض كالماء.

١٢- ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي تَصَدَّعُ بالنبات.

١٥- ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ يحتالون حيلةً.

١٦- ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أُجازيهم جزاءَ كيدِهم.

الشرح

الطارق: الأصل في الطارق حين يقال: فلان طَرَقَ ويَطْرُقُ، أي: أن يأتي ليلًا، هذا هو الأصل، وسمي الذي يطرق الباب بالطارق؛ لأن الذي يأتي ليلًا غالبًا يطرق الباب، فكلمة طرق الباب أصلها مستنبطة ممن يأتي في الليل، وإلا فالأصل كما في الحديث: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ»، يعني يأتي. فالطارق أصله هو الخروج ليلًا أو الطلوع، ولذلك هنا قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ النجم الذي يظهر ليلًا.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، الصلب: ظهر الرجل وصلبه، والترائب: صدر المرأة على تفسير، هذا على وجه. يقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي المطر، ترجع السماء بالمطر كل وقت وكل حين، يأتي المطر مرة بعد مرة، ولذلك قابله فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ تمطر، وإذا أمطرت ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ تنشق للماء.

سورة الأعلى

٥- ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ أي يَبْسًا.

﴿أَحْوَى﴾ أسْودَ مِن قِدَمِه واحتراقِه.

١٨- ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ لم يُرد أن معنى السورة في الصحف الأولى، ولا الألفاظَ بعينها. وإنما أراد: أن "الفَلاحَ لِمَنْ تَزَكَّى، وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى" - في الصحف الأولى، كما هو في القرآن.

الشرح

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾، بعد أن ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أخرج الزرع أخضر وله رائحة طيبة وزكية وألوان زاهية، ثم بعد فترة يبس، وهذا المراد بغثاء أي يابسًا، أحوى أي: أسود لاحتراقه ويبسه بعد أن حرقته الشمس.

يقول في آخر السورة: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي هذا المذكور لكم في هذه السورة مذكور في الكتب السابقة كذلك، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: "لم يُرد أن معنى السورة في الصحف الأولى، ولا الألفاظَ بعينها" وإنما أراد مفهوم السورة كلها وهو الفلاح لمن تزكى والخسارة لمن لم يزكِ نفسه.

سورة الغاشية

١- ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ القيامة؛ لأنها تَغْشاهم.

٦- (الضَّرِيعُ) نبتٌ [يكون] بالحجاز، يقال لرَطْبِه الشِّبْرِقُ.

١١- ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾ أي قائلةً لَغْوًا؛ ويكون اللغوَ بعينه.

١٥- و (النَّمَارِقُ) الوسائد، واحدتها: "نُمْرقة" و"نِمْرُقة".

١٦- و (الزَّرَابِيُّ) الطَّنافِس. ويقال: هي البُسُط. واحدتها: "زَرْبِيَّة".

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ كثيرة متفرِّقة [في المجالس].

٢٠- ﴿سُطِحَتْ﴾ أي بُسِطَتْ.

٢٢- ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ أي بمسلَّط.

٢٥- ﴿إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم.

الشرح

الغاشية ذكر فيها الضريع، أغرب لفظة فيها ﴿الضَّرِيعِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، الضريع: هو نبت من الشوك معروف عند العرب، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آيات أخرى الغساق والضريع والغسلين، هذا كله طعام أهل النار.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ لاغية: قائلة لغوًا، أي النفس لا تقول لغوًا، لا تسمع فيها نفسًا لاغية؛ بمعنى أن الجنة منزّهة عن الكلام الساقط، لا يقولون إلا سلامًا، أو يذكرون الله بكرة وأصيلًا، أما ما سوى ذلك فلا تسمع. ووصف الله جَلَّجَلَالُهُ من نعيم الجنة أن فيها النمارق والزرابي؛ النمارق: الوسائد، والزرابي: الفرش المبثوثة والبسط.

سورة الفجر

٢- ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ يعني: عَشر الأضحى.

٣- ﴿وَالشَّفْعِ﴾ يوم الأضحى.

﴿وَالْوَتْرِ﴾ يوم عرفة.

و"الشَّفْع" في اللغة: اثنان؛ و"الوَتْر": واحد.

قال قتادةُ: "الخَلْقُ كلُّه شفعٌ ووترٌ؛ فأقْسَم بالخلْق".

وقال عِمران بن حُصَينٍ: "الصلاةُ المكتوبةُ منها شفعٌ ووترٌ".

[و] قال ابن عباس: "الوترُ آدمُ؛ [والشفعُ]. شُفِع بزوجِه حواءَ عليهما السلام".

وقال أبو عبيدةَ: "الشَّفع: الزَّكا، وهو: الزَّوج. والوَتر: الخَسَا، وهو: الفَرد".

٤- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي يُسْرَى فيه. كما يقال: ليلٌ نائمٌ؛ أي يُنَامُ فيه.

٥- ﴿لِذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي عقْلٍ.

٩- ﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾ نَقَبُوه واتَّخذوا منه بيوتًا.

١٦- ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي ضَيَّق عليه. يقال: قَدَرتُ عليه رزقَهُ، وقَتَرْتُه.

١٩- و ﴿التُّرَاثَ﴾ المِيراث. والتاء فيه منقلِبة عن واو. كما قالوا: تُجاه؛ والأصل: وُجَاه. وقالوا: تُخَمة؛ والأصل: وُخَمة.

﴿أَكْلا لَمًّا﴾ أي شديدًا. وهو من قولك: لَمَمْتُ الشيءَ؛ إذا جمعتَه.

٢٠- ﴿حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيرًا.

٢١- ﴿دُكَّتِ الأَرْضُ﴾ دُقَّت جبالُها وأنشازُها، حتى استوتْ.

الشرح

أقسم الله تعالى بقوله: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أي وقت الفجر، ثم بليالي ذي الحجة في قوله سبحانه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، وقال بعضهم: هي ليالي العشر الأواخر من رمضان. ثم أتى القسم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها أقوالًا، هذا من باب التمثيل، وإلا فالشفع كل ما يقابل الوتر، الوتر من الانفراد، تقول: فلان وَتْر يعني منفرد، وما يقابله الشفع.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي لصاحب عقل؛ لأن صاحب العقل عقله يمنعه ويحجره عن سفاسف الأخلاق. ومعنى ﴿جَابُوا الصَّخْرَ﴾ أي قطعوها، تقول: جَبَّ فلانٌ الشيءَ إذا قطعه، ومجبوب أي مقطوع. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾، قَدَرَ هنا معناها ضَيَّقَ عليه، ضَيَّقَ عليه رزقه.

سورة البلد

٣- ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ آدمُ وولدُه.

٤- ﴿فِي كَبَدٍ﴾ أي في شدةِ غَلَبَةٍ، ومكابدةٍ لأمور الدنيا والآخرة.

٦- ﴿مَالا لُبَدًا﴾ أي كثيرًا. وهو من "التلبُّد": كأن بعضَه على بعض.

١٠- ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ و"النَّجْد": الطريق في ارتفاع. يريد: طريق الخير والشر.

وقال: ابن عباس الثَّديَيْن.

١١- ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي فلا هو اقتحم العقبة.

١٣- ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي عِتقُها وفكُّها من الرِّق.

١٤- ﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي ذي مجاعة: [و"السَّغْب": الجوع؛ و"الساغِب": الجائع]. يقال: سَغِب الرجل يَسْغَب [سَغَبًا و] سُغوبًا؛ إذا جاع.

١٥- ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي ذا قَرابةٍ.

١٦- ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي ذا فقرٍ، كأنه لَصِق بالتراب [من الفقر].

٢٠- ﴿نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي مُطْبَقَةٌ [مُغْلَقة]. يقال: أوْصدتُ البابَ؛ إذا أطبقتَه [وأغلقتَه].

الشرح

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ قال المؤلف: آدم وذريته، وهذا عام، ويدخل فيه كل ما هو والد وولده. قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي في مكابدة ومشقة وتعب. وهناك من يقول لآخر يجده يتعب نفسه ويشتكي، فيرد عليه بالاستدلال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، هذا جائز، هذا من باب الاستدلال؛ ويجوز اقتباس الآيات على وجه الاستدلال، لكن المحظور والذي لا يجوز هو إذا استدل بالآية على وجه الاستهزاء والسخرية أو التلاعب أو المزاح؛ يأتي شخص يقابله فيقول له: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾، هذا لا يسمح به، تقابل شخصًا آخر فتقول له: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾، هذا لا

ينبغي، هذا الذي من باب الضحك والاستهزاء والسخرية. أما إذا مثلًا تقول لشخص ضاقت به الأرض تقول: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾، فهذا جائز، فإذا كان من باب الاستدلال في الجد فهو جائز، أما من باب السخرية فلا.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَالًا لُّبَدًا﴾ أي كثيرًا. وقوله سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريق الخير والشر، وقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ أي أنه إذا فعل هذه الأفعال التي أشارت إليها الآيات وهو الإنفاق في سبيل الله فإنه جاوز هذه المرحلة، وأعظمها فك الرقبة والإعتاق في سبيل الله والإنفاق على المحتاجين.

﴿ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ وهي المجاعة الشديدة، سواء كان يتيمًا قريبًا أو ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ يعني لاصقًا بالتراب، كل هذه داخلة.

سورة الشمس

١ - ﴿وَضُحَاهَا﴾ نهارُها كلُّه.

٢ - ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ أي تَبِع الشمسَ.

٣ - ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا﴾ يعني: جَلَّى الظُّلمة، أو الدنيا.

٦ - ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي بَسَطها. يقال: حيٌّ طاحٍ؛ أي كثيرٌ متسعٌ.

٨ - ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي عرَّفها في الفطرة.

٩ - ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ أي من زَكَّى نفسه بعملِ [البِر]، واصطناعِ المعروف.

١٠ - ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي دسَّ نفسَه - أي أخفاها - بالفجور والمعصية.

والأصل من "دَسَّست" فقلبتْ السينُ ياءً. كما قالوا: قصَّيْتُ أظفاري، أي قصَّصتها.

١١ - ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي كذبتْ الرسولَ إليها بطُغيانها.

١٢ - ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ أي الشقيُّ منها، [أي نَهَض] لعقْرِ الناقةِ.

١٣ - ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾؛ أي احذَروا ناقة الله وشِرْبها.

الشرح

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ضحاها أي: النهار إذا أضحت الشمس وتبددت وظهرت بقوة. ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تبعها. وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ طحا الأرض يعني جعلها متسعة واسعة، فتأتي إلى الأرض الواسعة وتقول: أرض طَاحِيَةٌ واسعة. قوله سبحانه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ يعني الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ألهم هذا الإنسان في نفسه الفجور والتقوى، فمن سلك طريق الخير أصبح تقيًا، ومن سلك طريق الشر أخذ بفجورها. يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ أي بطغيانها بسبب تكبرها وطغيانها.

سورة الليل

٤- ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي [إن] عملكم لمختلفٌ.

٧- ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي للعودِ إلى العمل الصالح.

٩- ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أي بالجنة والثواب.

١١- ﴿تَرَدَّى﴾ في النار، أي سقط.

ويقال: "تَرَدَّى": تَفَعَّل؛ من "الرَّدَى" وهو: الهلاك.

سورة الضحى

٢- ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ إذا سكَن. وذلك عند تناهي ظلامِه ورُكودِه.

٣- ﴿وَمَا قَلَى﴾ ما أبْغَضك.

٨- ﴿عَائِلا﴾ فقيرًا. و"العائل": الفقير كان له عيالٌ، أو لم يكن.

يقال: عال الرجلُ؛ إذا افتَقر. وأعالَ: إذا كثُر عياله.

سورة الانشراح

١- ﴿نَشْرَحْ﴾ نفتح.

٢- و (الْوِزْرُ) الإثمُ في الجاهليَّة.

٣- ﴿أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أثقله حتى سُمع نَقِيضُه، أي صوتُه وهذا مَثَلٌ.

٧-٨- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من صلاتك: ﴿فَانْصَبْ﴾ في الدعاء، وَارْغَبْ إلى الله.

سورة التين

١ - (التِّينُ) وَ (الزَّيْتُونُ) جبلان بالشام؛ يقال لهما: "طُورُ تَيْنَا، وطُورُ زَيْتَا" بالسُّرْيَانِيَّة. سمِّيا بالتين والزيتون: لأنهما يُنبِتانهما.

٣- ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعني: مكةَ. يريد: الآمنَ.

٥، ٦- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ إلى الهَرَم، و "السافلون" هم: الأطفال والزَّمْنَى والهَرْمَى.

﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فمَن أدركه الهَرَمُ كان له مثلُ أجرِه، إذا كان يعملُ.

وقال الحسن: "﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [في] النار".

٦- ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع.

الشرح

التفسير للمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان واضحًا في هذه السور التي مررنا بها، وسنتطرق لبعض الألفاظ. قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أي عملكم في الدنيا مختلف. وقوله ﴿تَرَدَّى﴾ أي سقط في النار.

في سورة الضحى قال سبحانه: ﴿وَمَا قَلَى﴾ أي ما أبغضك الله. والعائل: هو الفقير سواء كان عنده أولاد أم لا، لكن سموا الأولاد العيال لأنهم محتاجون إلى أبويهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السورة التي تليها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي نوسع ونفتح صدرك. وقال تعالى: ﴿وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي ثقل عليك حتى سُمِعَ له صوت، الثقيل يحدث صوتًا.

وفي سورة التين، التين والزيتون قال: جبلان، لكن التين والزيتون هما شجرتان معروفتان سواء على الجبال أو تحت الجبال. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ مكة. ثم قال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، معنى ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ هو الهرم وكبر السن، وبعضهم يقول: النار وهو قول الحسن، والصحيح أنه النار؛ لأن الله لما استثنى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دل على أن السافلين غير المؤمنين، فهذا المراد به أهل النار.

سورة العلق

٦-٧- ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ أي يَطغى أنْ رأى نفسَه استغنَى.

٨- ﴿الرُّجْعَى﴾ المرجِعُ.

١٥- ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لَنَأْخُذَنَّ بها. يقال: اسْفَعْ بيدِه؛ أي خُذْ بيده.

١٧- ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أهلَ ناديهِ؛ أي يَنتصِرْ بهم. و "النادي": المجلسُ. يريد: قومَه.

١٨- ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال قتادةُ: "هم: الشُّرَط؛ في كلام العرب".

وقال غيره: "وهو من "الزَّبْن" مأخوذٌ. و "الزبنُ": الدفع. كأنهم يَدْفَعون أهلَ النار إليها. واحدُهم: "زِبْنِيَة".

سورة القَدْر

١، ٢، ٣- ﴿لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ليلة الحُكْم. كأنه يُقدَّر فيها الأشياءُ.

﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر.

٤- ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي لكل أمر.

٥- ﴿سَلامٌ هِيَ﴾ أي خيرٌ هي حتى يطلُعَ الفجرُ.

سورة البَيِّنَة

١- ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ زائلين. يقال: ما أنْفَكُّ في كذا؛ أي لا أزالُ.

٣- ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ عادلةٌ.

سورة الزّلزلة

٢- ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي موتاها.

٤- ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ فتُخبِرُ بما عُمل عليها.

٥- ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ أي بأنه أَذِن لها في الإخبار بذلك.

٦- ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ أي يرجعون ﴿أَشْتَاتًا﴾ أي فِرقًا.

٧-٨- ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وزْنَ نملة صغيرة.

سورة العاديات

١- ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ الخيل. و (الضَّبْحُ) صوت حُلوقها إذا عَدَتْ. وكان عليّ - رضي الله عنه - يقول: (٢) "هي الإبل تذهب إلى وقعة بَدْرٍ. (وقال): ما كان معنا يومئذٍ إلا فرس عليه المِقْدَادُ".

وقال آخرون (٣) : "الضَّبْع" و "الضَّبْح" واحدٌ في السَّيْر؛ يُقال: ضَبَعَتِ الناقةُ وضَبَحتْ.

٢- ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ أي أوْرَتِ النار بحوافرها.

٤- و (النَّقْعُ) الغُبارُ. ويقال: الترابُ.

٥- ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ أي توسَّطن [به] جمعًا من الناس أغارتْ عليهم.

٦- ﴿لَكَنُودٌ﴾ لكَفُور. و "الأرض الكنود": التي لا تُنبت شيئًا.

٧- ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يقول: وإن الله على ذلك لشهيدٌ.

٨- ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ أي [وإنه] لحُبِّ المال لبخيلٌ.

٩- ﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي قُلِب وأُثِير.

١٠- ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ مُيِّز ما فيها من الخير والشر.

سورة القارعة

١-٢-٣- ﴿الْقَارِعَةُ﴾ القيامة؛ لأنها تَقْرَع [الخلائقَ بأحوالها وأفزاعها]. ويقال: أصابتْهم قوارعُ الدهر.

٤- (الْفَرَاشُ): ما تهافَتَ في النار: من البَعُوض.

﴿الْمَبْثُوثِ﴾ المنتشِرُ.

٥- و (الْعِهْنُ) الصُّوف المَصْبوغ.

٩- ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي النارُ له كالأم يأْوِي إليها.

سورة التكاثر

١- ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ بالعَدِدِ والقَراباتِ.

٢- ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ حتى عدَدتُم مَن في المقابر: من مَوتاكم.

٨- ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾ يقال: الأمْنُ والصحةُ.

سورة العصر

١- ﴿وَالْعَصْرِ﴾ الدَّهر؛ أقسمَ به.

٢- ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أي في نَقْص.

٣- ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم غير مَنْقُوصين.

سورة الهُمَزة

١ - (الهُمَزَةُ) العَيَّاب والطَّعَّان. و (اللُّمَزَةُ) مثلُه. وأصل "الهَمْز" و "اللَّمز": الدَّفْع.

٤ - ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ ليُطْرَحَنَّ.

٧ - ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ مبيَّن في كتاب "المشكل".

سورة الفيل

٣ - ﴿أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ متفرِّقةً.

٤ - ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ قال ابن عباس: [من] آجُرٍّ.

٥ - ﴿كَعَصْفٍ﴾ يعني: ورقَ الزَّرع.

و ﴿مَأْكُولٍ﴾ فيه قولان:

(أحدهما): أن يكون أراد: أنه أُخذ ما فيه- من الحَبّ - فأُكل، وبقي هو لا حَبَّ فيه.

و (الآخر): أن يكون أراد: العصفَ مأكولا للبهائم؛ كما تقول للحنطة: "هذا المأكول" ولمَّا يؤكلْ. وللماء: "هذا المشروبُ" ولمَّا يُشربْ. يريد: أنهما مما يُؤكلُ ويُشربُ.

سورة قريش

١ - (الإيلاف) مصدرُ "آلَفْتُ فلانًا كذا إيلافًا"؛ كما تقول: ألزمتُه إيَّاه إلزامًا.

يقول: فَعَل هذا بأصحاب الفيل ليُؤْلِفَ قريشًا هاتَيْن الرِّحْلَتَيْنُ فتُقيمَ بمكةَ. وقد بينت هذا في "المشكل".

سورة الماعون

٢- ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ يَدْفعه. وكذلك قوله: ﴿يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾.

٧- و ﴿الْمَاعُونَ﴾ الزكاة. ويقال: هو الماء والكلأ.

[و] قال الفرّاء "يقال: إنه الماء [بعينه] "؛ وأنشد:

يَمُجُّ صَبِيرُهُ الماعُونَ صَبًّا

"الصبير": السحاب.

سورة الكوثر

١- ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير. قال ذلك ابن عباس.

وقال ابن عُيينةَ: "قال عبد الكريم أبو أُميَّةَ: قالت عجوز: قَدِم فلانٌ بكوثرٍ كثيرٍ". وأحسِبُهُ "فَوْعلا" من الكثْرة.

وكذلك يقال للغبار- إذا ارتفع وكثُر-: كَوْثرٌ؛ قال الهُذَلِيُّ يذكر الحمار:

يُحامي الحَقيقَ إذا ما احْتَدَمْ *** نَ حَمْحَمَ في كَوْثَرٍ كالجِلالِ

أي في غُبارٍ كثيرٍ كأنه جِلالُ [السفينةِ أو الدوابِّ].

ويقال: "الكوثر": نهرٌ في الجنة.

٢- ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ يومَ النحر.

﴿وَانْحَرْ﴾ اذبحْ.

ويقال: "انحر": ارفعْ يديك بالتكبير إلى نحْرِك.

٣- ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي إن مُبغضَكَ.

﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي لا عَقِب له.

وكانت قريش قالت: "إن محمدًا لا ذَكَرَ له؛ فإذا مات: ذهب ذِكْرُه"؛ فأنزل الله هذا، وأنزل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

سورة اللَّهَب

١ - ﴿تَبَّتْ﴾ خسرتْ. وقد تقدم ذكر هذا.

٢ - ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعني: وما وَلَدَ.

٤ - ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ يعني: النميمةَ. ومنه يقال: فلان يَحْطِبُ عليَّ؛ إذا أغْرَى به.

٥ - ﴿فِي جِيدِهَا﴾ أي: في عُنُقِهَا؛ ﴿حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أي: فُتِلَ [منه]. يقال: هو السِّلسلةُ التي ذكرها الله في "الحاقَّة".

سورة الإخلاص

٢ - ﴿الصَّمَدُ﴾ السَّيد الذي قد انتهى سُودَدُه؛ لأن الناس يَصْمِدُونه في حوائجهم. قال الشاعر:

خُذْها حُذَيْفُ فأنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال عكرمةُ ومجاهدٌ: هو الذي لا جَوْفَ له.

وهو - على هذا التفسير - كأن الدال فيه مبدَلةٌ من تاء. و "المُصْمَتُ" من هذا.

٤ - ﴿كُفُوًا﴾ مِثْلا.

سورة الفلق

١ - ﴿الْفَلَقِ﴾ الصبح.

٣ - و (الْغَاسِقُ) الليل؛ و "الغَسَقُ": الظلْمة.

﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي دخل في كل شيء.

ويقال: "الغَاسقُ": القمر إذا كُسف فاسودَّ. "إذا وَقبَ": دخل في الكسوف.

٤ - ﴿النَّفَّاثَاتِ﴾ السَّواحر. و "يَنْفُثْن": يَتْفِلْنَ إذا سَحَرْن ورَقَيْن.

سورة الناس

٤-٥- ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ إبليسُ يُوَسْوِسُ في الصدور والقلوب؛ فإذا ذُكر اللهُ: خَنَسَ، أي أقْصَرَ وكَفَّ.

٦- و ﴿الْجِنَّةِ﴾ الجنُّ.

(قال أبو محمد): روى يزيدُ بن هارونَ [السلَميُّ] عن سعيدٍ، قال قتادةُ: "كان إبليسُ ينظرُ إلى آدمَ، ويقولُ: لأمرٍ مَا خُلِقْتَ!. ويدخلُ مِن فِيه، ويخرجُ مِن دُبُره. فقال للملائكةِ: لا تَرهَبوا مِن هذا؛ فإن ربكم صَمَدٌ، وهذا أجْوَفُ".

والحمد لله وحده.

الشرح

هذه السور القصيرة أكثر عباراتها واضحة وكلماتها واضحة، منها مثلًا الزبانية: يقول الملائكة، ﴿لَنَسْفَعًا﴾ أي لنأخذن، ومثلها قوله تعالى إذا زلزلت الأرض قال فيها: ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ أي ينصرفون من المحشر إلى الجنة أو النار.

قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في العاديات مثلًا: ﴿لَكَنُودٌ﴾، من هو الكنود؟ قال: الذي يُعطى النعم فيجحدها، فالإنسان كنود هو الذي لا يشكر النعم. قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ المراد بالأم أصله: وهي النار، أو أمه حقيقة لأن الإنسان يأوي إلى أمه.

يقول هنا: ﴿هُمَزَةٍ﴾ و﴿لُّمَزَةٍ﴾ هو العيّاب الطعان. السجّيل في سورة الفيل: هو الآجر؛ الطين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

والحمد لله على النعمة والتوفيق أننا قرأنا هذا الكتاب كاملًا، ولله الحمد، كتاب «غريب القرآن» لابن قتيبة رحمه الله تعالى، وهو يتكلم عن الآيات أو الكلمات التي تكون فيها غرابة تحتاج إلى بيان، والحمد لله على نعمة أننا أتممنا هذا الكتاب، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.